

میں خلیل مہا فافخسفیائی



مغامرات کفالتی

ترجمہ

شکوہت یوسف احمد ناصر

روایات عالمیہ « ۴۵ »



مغامرات کفتشي

روايات عالمية

« ٤٥ »

ميخائيل هانا خشيفاي

مغامرات كفتشي

ترجمته:

شوكت يوسف أحمد ناصر



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٤

العنوان الأصلي للكتاب :

პიხეილ ჯავახიშვილი

კვაჭი კვაჭანტუაძე

თბილისი

مغامرات كفاتشي / ميخائيل جافا خشفي ، ترجمة شوكت يوسف ،
أحمد ناصر . - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٤ . - ٦٣٩ ص ؛
٢٤ سم . - (روايات عالمية ؛ ٤٥) .

١ - ٨١٥٧٣ ج ١ ف ٢ م ٢ - المنسوان ٢ - جافا خشفي
٤ - يوسف ٥ - ناصر ٦ - السلسلة

مكتبة الاسد

الابلاغ القانوني : ع - ١٨٣/٣/١٩٩٤



مقدمة

الأدب الجورجي ذو تاريخ عريق يضرب بجذوره في أعماق الماضي البعيد . يعود أقدم أثر أدبي ، وصل إلينا ، إلى القرن الخامس الميلادي . لكن يعتبر القرن الثاني عشر عصر ازدهار الأدب الجورجي وعظمة الدولة الجورجية . كان ذلك إبان حكم الملكة (تامار) . برزت في هذه المرحلة روائع الأدب (لاسيما في مجال الشعر) والفن المعماري . وفي القرن الثاني عشر تحديداً عاش وأبدع الشاعر الجورجي العظيم (شوتا روستافيلي) صاحب الملحمة الخالدة (الفارس في إهاب النمر) (*) لاقى هذه الملحمة الشعرية في ترجمتها العربية استحساناً واهتماماً واضحاً من قبل القارئ العربي . وقد يعزى ذلك إلى تأثير مؤلفها بالشعر الغنائي العربي والفارسي ، سواء من حيث المعنى والمبنى ، وبقصص « مجانين » الحب ، إضافة إلى أن أحد أبطال الملحمة البارزين عربي وجعله المؤلف فيها رمز رجاحة العقل والحكمة وشهامة النفس .

اتسم الأدب الجورجي في القرن العشرين بتطور مميز سواء على صعيد النضج الفكري ، أو الفني . فمع مطلع القرن وجدت البلاد نفسها

(*) صدرت الرواية الشعرية (الفارس في إهاب النمر) باللغة العربية في دمشق عام ١٩٨٤ ، وقام بترجمتها عن الانكليزية والفرنسية الاستاذ نزار خليلي بإشراف معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم الجورجية وبمساعدة الباحث العلمي الجورجي المستعرب غورام تشيكوفاني .

في ظرف تاريخي جديد . كانت القوى والجهود متجهة ومتركة أساساً على انجاز تحولات وتغيرات سياسية — اجتماعية وثقافية في البلاد . وهكذا برز في ساح الأدب مبدعون حقيقيون في شتى الأجناس . وبرز في رأس قائمة هؤلاء الكاتب (ميخائيل جافاخشفيلي) الذي يعد واحداً من أهم الكتاب الذين أرسوا نهضة الأدب الجورجي الحديث ، لاسيما في مجال القصة والرواية الاجتماعية — البسيكولوجية . وتجدر الإشارة هنا إلى بعض أعماله المبكرة التي لفتت الأنظار إليه وأسهمت في بروزه على نطاق سوفيتي وعالمي مثل : (تشانشورا) ، (رجل الغابة) ، (لامبالو وكاشا) ، (أرسينا من مارابندا) وغيرها . وليس مصادفة ان ترجمت هذه الأعمال الآلفة الذكر إلى لغات عالمية كثيرة .

كان سبيل ميخائيل جافاخشفيلي — كاتباً ومواطناً ومناضلاً — في الحياة صعباً وشاقاً . يكفي للتدليل على ذلك القول بأنه قد لاقى حتفه ، وهو في أوج نضجه في عام ١٩٣٩ ابان حملات القمع والتنكيل التي خسر الاتحاد السوفيتي خلالها عشرات الآلاف من صفوفه مبدعيه في جميع الميادين .

ولد ميخائيل جافاخشفيلي عام ١٨٨٠ في قرية (تسيراكفي) قرب تفليس . التحق في مطلع شبابه للدراسة في مدرسة زراعية ، لكن سرعان ما أبعدته الأدب عن كل اهتمام آخر . بدأ منذ عام ١٩٠٣ بنشر قصصه في الدوريات الأدبية المعروفة ، كما عمل في الوقت ذاته محرراً في صحف مختلفة . في عام ١٩٠٧ اضطرت الكاتب إلى مغادرة وطنه . قضى في الغرب بضع سنوات ، تخرج من جامعة باريس وسافر إلى بلدان غربية أخرى . مع مطلع العشرينات تبدأ مرحلة جديدة في حياة

الكاتب . نشر سلسلة من الروايات والأعمال الأدبية الكبيرة . تميزت بمستوى فني رفيع ، وعكست تأثره بالثقافة الأوروبية الغربية . في هذه المرحلة تحديداً كتب ونشر روايته « مغامرات كفانثي » التي نضعها بين يدي القارئ العربي .

« مغامرات كفانثي » - واحدة من روايات المغامرة الأكثر شهرة . تقدم الرواية وصفاً لحياة فني مغامر ، أفتاق ، عملي ، انتهازي لا يقيم اعتباراً لأي شيء في الحياة سوى منفعته، وما يرضي طموحه من أجل الثروة وبلوغ مآربه . استطاع الكاتب ، عبر تصوير المغامرات والمقالب الكثيرة التي حفلت بها الرواية ، تقديم نموذج معمم للانسان اللاأخلاقي المستعد لاقتراف أية كبيرة كانت في سبيل منفعته أو الارتقاء درجة أعلى في السلم .

تتميز الرواية بقوة فنية رفيعة وبتوتر درامي جعل بعض النقاد يرى فيها سلسلة من القصص البوليسية المحبوكة بعناية . بيد أن العمل ككل ينتمي إلى جنس الرواية الاجتماعية - البسيكولوجية . ورأى فيها نقاد آخرون بانوراما الحياة الاجتماعية - السياسية في روسيا القيصرية والاقاليم التابعة لها في مرحلة المخطاط الامبراطورية وبداية صعود قوى حية وبروز مفاهيم وأفكار جديدة استقطبت اهتمامات الجيل الجديد . كان تأثير الرواية عظيماً حتى غدا اسم كفانثي فيما بعد بمثابة الأمثولة .

لظاهرة « كفانثي » ، بالمعنى الواسع للكلمة ، جذور قديمة . فثمة روايات العيارين والشطار في الأدب العالمي . كما ان العصر الذي عاش فيه البطل ، على تخوم القرنين وفي مطلع القرن الحالي في روسيا ، قد تميز بفوضى اجتماعية وفساد في القيم والأخلاق جعل ولادة

مثل هذه الرواية أمراً طبيعياً . فكفانثي شاب ذكي أنيق المظهر حيوي ،
 متاح ومغامر ، كما يفترض ان يكون عليه الشاطر . غدا أمثاله أحياناً ،
 في ظل ظروف تاريخية معينة ، من محركي أو صانعي التاريخ ، ولاعجب
 أن يغدو ، بعد وقت قصير من وصوله إلى موسكو ، صديقاً مقرباً من
 (غريغوري راسبوتين) صاحب الصيت الذائع والصور المشهور في
 الادارة القيصرية قبيل ثورة أكتوبر . لقد وجد كفانثي في راسبوتين
 (أو قل كل منهما في الآخر) سنداً وحماية وأكمل أحدهما الآخر .
 وقد استطاع الكاتب ، عبر ذلك ، أن يعرّي ويفضح « الكفانثية »
 كظاهرة في المجتمع آنئذ .

وهكذا اذا كانت ترجمة « الفارس في إهاب النمر » تعريفاً للقارئ
 العربي باحدى روائع الأدب الجورجي في عصر نهوضه الأول ، فان
 ترجمة « مغامرات كفانثي » مساهمة للتعريف بهذا الأدب في مرحلة
 نهضته الحديثة .

شوكت يوسف

دمشق ١٠/٩/١٩٩٠

والقسم للقل كيف ولدكف تشي

في الأول من نيسان من ذلك العام كان الطقس في (سماتريديا) غريباً عجيباً : خيمت منذ الصباح الباكر فوق الأرض سحب سوداء داكنة ، هطل ، بشكل متناوب ، ثلج وبرد ومطر ، شعّت شمس ربيعية لطيفة ، هبت من حين لآخر عواصف قوية اهتزت وأتت من شدتها القرية كلها ، كما وحلّ احياناً هدوء وسكون لم تلاحظ معه أية حركة للغيوم في السماء .

هكذا كان الأول من نيسان في سماتريديا ، يوماً غريباً متقلباً محيراً ورديثاً .

في ذلك اليوم ، ومنذ الصباح ، سادت في منزل (سليسترو كفانتشانترادزه) . القائم على جانب الطريق العام المؤدي إلى (خوني)(١) جلبة غير اعتيادية : كانت (بوبي) زوجة سليسترو في حالة مخاض لأول مرة ، جميع افراد الأسرة في استنفار ، وحول المرأة الماخض في حركة دائمة أمها (نوني) والدابة واحدى الجارات . أما زوجها

خوني : حالياً مدينة (صولوكيدزه) وكان اسمها قبل عام ١٩٣٦ (خوني) .

سليسترو ووالداها (خوخوشيشيا) فكانا في غرفة أخرى يترقبان
بمزيج من اللفة والخوف ، ولادة وارثهما الأول .

عندما انتصف النهار اكفهر الجو واطلمت الدنيا تقريباً . انقلب
الهدوء فجأة إلى ضده، وثارت عاصفة هوجاء اهتز وأن من هولها
الكون . تمايل ، مع حركة الريح، منزل كفاتشا نثيرادزه الخشبي مترنحاً
وكاد يتخلع من مكانه ، صرخت المانخض ، وراح الآخرون ، لشدة
ذعرهم واهلهم ، يتحركون في فوضى هنا وهناك .

فجأة ومض برق خطف الأبصار لثوان، وسُمع، في اللحظة ذاتها،
قصف رعد خفيف وصرخة قوية صادرة عن بوبي . ارتجبت الأرض
بحيث تسمّر بعضهم في مكانه رعباً . . . : وبعضهم هوى جالساً حيث
هو وبعضهم الآخر القى بنفسه باتجاه الباب . بعد ذلك خيم
سكون تام قرابة دقيقة انبعث اثرها ، في الزاوية ، صوت المولود
الجلديد . . .

يا . . . يا . . . يا . . . يا . . .

وسقط ابن سليسترو كفاتشانثيرادزه أمام قدمي أول امرأة، قدمي
أمه بوبي . قام هرج ومرج مع فرحة بادية على الوجوه . كانت عقارب
الساعة آتشد تشير إلى الثانية عشرة . . . هدأت العاصفة وتبدد الظلام
بحلول النور .

هبط راكضاً من الغرفة المجاورة ، أثر سماع صوت الطفل ،
كل من سليسترو وخوخوشيشيا .
صاحت الداية ملتفتة صوبهما :

— صبي ! ! صبي ! !

— الحمد لله ! الحمد لله ! — قال سليسترو .

— باسم الآب والابن والروح القدس — أضاف خوخو .

رسم الجميع إشارة الصليب وصاحوا : آمين ! آمين !

— سأسميه كفاتشي — أعلن سليسترو بصوت احتفالي ، وفي

الحال وافقه الحضور على ذلك .

بعد وقت قصير من ذلك ، أتى الصبي (باردغا) العامل في الدكان

المجاور ، وأخبر الجميع ان الصاعقة ضربت شجرة السرو القائمة في

بستان سليسترو وقصبتها إلى نصفين ، أما العاصفة فهدمت دكان

(جونديا) . نهض سليسترو لمشاهدة الدكان المتهدم وعثر ، في طريقه ،

على روبل فضي .

بعد ساعة تبددت السحب ، حلّ من جديد طقس ربيعي جميل

وبرزت حول قرص الشمس هالة مشعة . تقاطر سكان سماتريديا

إلى الشارع لمشاهدة هذه الحالة وللنظر إلى دكان جونديا السابق ، وإلى

شجرة السرو التي قسمتها الصاعقة إلى نصفين .

هكذا كانت ولادة كفاتشي كفاتشانيرادزة .

في ذلك المساء استطاعت السيدة (نوتيو) بصعوبة فتح راحة يد

كفاتشي ، نظرت إليها ، صمتت برهة ثم قالت :

— تدل العاصفة والبرق والرعد على أنه تنتظر كفاتشي في شبابه

جولات وصولات ، لكن الله كبير ، أما قبضة يده المشدودة فتعني

أنه يصعب على أي كان انتزاع شيء طالته يده . وتدل الحالة التي أحاطت بقرص الشمس يوم ولادته أنه ينتظر المولود الجديد مستقبلاً واعد . أما الصاعقة التي ضربت شجرة السرو والعاصفة التي إهدمت دكان جونديا فوعده بأن الله سيمحق أعداءنا وأعداء كفاتشي وستطوق قلوبهم كما حصل لشجرة السرو اليوم .

انفجرت أسارير الجميع وتبددت همومهم لدى سماع هذا الكلام . انحنى بوبي صوب وليدها النائم وراحت تلامفه هامة : ولدي الغالي كفاتشيكاً !

أتى كان لسليسترو أو بوبي، أو باردغا أو حتى لخوخو ونوتيو كذلك، أن يعرفوا أن في قلوبهم وأحلامهم شيئاً من الحقيقة، وأن كفاتشيكاً الراقد في مهده لن يخيب في المستقبل آمالهم ، بل وسيصل إلى أبعد من توقعاتهم .

حول والدي كفاتشي

تعالوا الآن نتعرف على سليسترو كفاتشا نثيرادزه وعائلته .

لد السيد المحترم سليسترو في (غوريا) في الفترة التي تم فيها إلغاء نظام القنانة . أعطاه أبواه (أنابوديسي) و (صيصوا) - طفلاً إلى خالته السيدة نوتيو وزوجها خوخوشيشيا لتربيته . وهكذا وضع خوخو ونوتيو سليسترو الصغير في خرج على ظهر الحصان ونقلاه معهما إلى قرية (باندزا) في منطقة (مينغريليا) حيث كانا يعيشان حينئذ .

الدكان : مطعم - خمارة يرثاه الناس لتناول وشراء الخمر ، وكان شائعاً على مستوى شعبي عام في جورجيا حتى مطلع القرن الحالي - المترجمان .

ونظراً لأن اسم سليسترو المسيحي لم يعجب أهل مينغريليا ،
فقد أعطوه اسماً جديداً (شيبى) . لكنه حافظ في وقت واحد على
الأسمين ، لأن الأخير جاء دون مراسم معمودية ، ولم يدون في السجلات
الخاصة بذلك .

مضت عشرة أعوام . خلال هذه الفترة كانت الحالة وزوجها ينقلان
سليسترو — شيبى من حين لآخر ، في خرج ، أو سلة بين باندزا وغوريا
لزيارة والديه .

عندما بدأت الحرب الروسية — التركية تطوع انابوديسى في الحرس
الشعبى الجورجى ، والتحق في صفوف المقاتلين من أجل استرداد
(باطوم) ، لكنه قتل في إحدى المعارك قرب قرية (سيخزري) ، ولم
يمض عام على ذلك حتى تزوجت أمه — صيصوا وذهبت مع زوجها
الجديد للعيش في أوديسا .

وهكذا غدا سليسترو يتيماً . وكان من حسن الطالع أن تعهدت
خالته نوتيو وخوخو بتربيته في الوقت المناسب ، وحافظا على ملكيته
المتواضعة .

لم يكن سليسترو وحيداً في أسرة شيشيا . فكان لدى خوخو أخ
في سماتريديا اسمه (جيفيبى شيشيا) ترمل مبكراً بعد أن خلفت له
زوجته وحيدته بوبى . كان جيفيبى رجلاً كثير الأشغال ، لذا نشأت
ابنته بوبى في أسرة خوخو ونوتيو . وهكذا نشأ سليسترو وبوبى كأخ
وأخت وحب أحدهما الآخر منذ الصغر . عندما شب سليسترو وجد
أنه من المعيب العمل في الأرض ، فتوجه إلى باطوم للبحث عن النبالة
والسعادة .

استدعى جنيفي شقيقه خوخو مع الأسرة إلى سماتريديا ، فقد كان مريضاً جداً ، وقبل ان يسلم روحه إلى بارئها عهد لأخيه نهائياً بابتنته بوبي وأوصى له بيته الصغير .

لم يستطع خوخو وحده تحمل أعباء الأسرة . لذا استدعى سليسترو من باطوم وقال له :

— ولدي شيبى ! كوخ الأهل الصغير ولا قصر الغريب . في باطوم مئات الرجال المتعلمين الذين لن يفسحوا لك مجال العمل الذي تحلم به . لذا أنصحك بالعودة وبناء أسرة مثل كل الناس . السعادة تطرق بابك فلا تطردها وإلا ندمت . بوبي جيدة جميلة مهذبة ونشيطة . وهذا بيت وبستان لأبأس بهما ، وكل ما نملك أنا ونوتيو من نصيبكما ، فماذا تقول يا ولدي شيبى ؟

ماذا على شيبى كفاتشا نيتراذزة ان يقول ؟ استقبال السعادة التي قرعت بابه بلراعين مفتوحين تزوج وأهدى بوبي كنيته الشهيرة وأقام فرحته في عش بناه له آخرون .

كيف حصلوا على شهادة النبالة من (أشورديا)

كان بيت سليسترو ذو الطابقين واقعاً على طريق نخوني . احاطت بالبيت قطعة أرض في حوالي ربع هكتار سموها بستاناً — كان في البستان حوالي عشر أشجار مثمرة : كرز ، كمثرى ، تفاح ، . . . وخمسة أحواض زرعت فيها خضرراوات مختلفة : خس ، طرخون ، فجل ، كرفس . . . الخ . في الطابق الأرضي كان يقع ركن لاستقبال الضيوف حيث وجدت ثمة دوماً المأكولات الشعبية المعروفة اضافة إلى أصناف متنوعة من النبيذ .

احتفظ أهل البيت؛ كذلك، ببعض الماشية والطيور : دجاج ، بط ، أوز ، عزترتان وبضع خنازير وكلب وفي .

في الركن الخلفي من المنزل كان ثمة سريران مع بعض الفرش والأغطية العتيقة . كان البيت، كبناء ، قديماً ، متهدماً تقريباً ، لكن قربه من الطريق العام جعله مأهولاً غالباً بالزوار .

في الطابق العلوي ثلاث حجرات فارغة تقريباً، لكن نظيفة . مع الزمن اشترى سليسترو بعض المتاع، إضافة إلى أدوات المطبخ وبعض الكراسي والستائر .

باع خوخو ونوتيو كذلك متاعهما في قرية بالندزا وساهما في تأييث البيت . عرف سكان البيت الأربعة في كل القرية بالسمعة الحسنة والتواضع واحترام الناس ، لذا اكتسبوا بسهولة الأصدقاء، الذين لقوا في هذا البيت، إضافة للطعام والشراب ، الابتسامات والمجاملات والوعود الطيبة

لم يعامل سليسترو وبوبي جميع الناس بشكل متساو ، فللأمرء والنساء والتجار . . . معاملة خاصة ، وما كان ممكناً لعبير سبيل من هذه الجماعة أن يمر قرب بيتهما دون أن يلقي تحية منهما ودعوة للزيارة وسؤالاً عن الصحة والأحوال . كان سليسترو يجهد للتعارف على الغرباء الذين يقدون إلى القرية ، للتواصل معهم ومعرفة مدى ما يمكن أن يقدموا من منفعة له مستقبلاً .

عندما تنقطع ، أو تقل حركة العربات على الطريق العام، كان سليسترو يذهب إلى المحطة أو البازار. ينجز أعمالاً خاصة ويعقد كثيراً من الصفقات

الصغيرة، التي تعود عليه غالباً بأرباح لا بأس بها، توفي بمصروف البيت والضيافة . ويوماً بعد يوم استطاعت الأسرة ان تقف على قدمين ثابتتين قويتين .

هكذا كان حال سليسترو وأسرته عندما ولد كفاتشي كفاتشا نثيرادزه .

كبر كفاتشي بسرعة ملفتة للنظر . يبدأ الأطفال عادة بعد عام من ولادتهم بالمشي والكلام ، لكن كفاتشي لم يكن قد تجاوز الستة أشهر عندما بدأ ينقل قدميه وينطق على طريقته .

— بابا ، ماما ، دادا . . .

كانت نوتيو على حق عندما قالت بهذا الخصوص :

— صدقوني أن نمو الطفل في وقت مبكر وعد "بتفوقه ونموه في المستقبل .

في هذه المرة كذلك صدقوا نوتيو وصاروا بوجه خاص يهتمون ويهتمون أكثر برعاية وتنشئة كفاتشي .

بعد ولادة كفاتشي صار سليسترو يلازم البيت أكثر ، يفكر في المستقبل بجدية أكثر، يشتري بما يتوفر له من نقود شرائق حرير، أو بيض، وغير ذلك، فيحصل من ذلك على ربح جيد . لكن همماً أو حلماً واحداً كان يشغل بال سليسترو ، لابل يؤرقه أحياناً : فهو ليس واحداً من طبقة النبلاء ، أو معذرة من هذا القول ، غير الدقيق ، فسليسترو نبيل حقيقي وعريق ، وهذا يعرفه الجميع . لكن هذا الشرف لم يحصل له بعد رسمياً في شهادة أو وثيقة ، ومن أجل هذا انفق سليسترو

الكثير من المال والوقت وسافر مراراً إلى (أزورغيلي) و (كوتايسي) دون أن يستطيع فعل شيء. فلقاء المال المنفق على هذا السبيل حصل دوماً على عود سخية وحسب ، وبقي مدوناً في هويته الشخصية كلمة « فلاح » المعيبة والمهينة .

أخيراً نصحه بعض أهل المعروف ودلّوه على الطريق :
— أشورديا . .

.. وسافر سليسترو على الفور إلى (زوغديدي) ، وبعد أخذ ورّه ومساومات طويلة حصل الاتفاق .

مرت بضع سنين على ذلك . . . وذات يوم قام هرج ومرج بشكل غير مألوف في منزل سليسترو . . تهامس أهل البيت باهتمام وبدا عليهم الارتباك والانفعال :

— أشورديا قادم ! . . . أشورديا ! . . .

وفي المساء حلّ عليهم شخص غريب . استقبله جميع أفراد أسرة كفاتشانثيرادزه . باحتفاء واحترام . . . اقيمت الأفراح وبدت البهجة على الوجوه . حمل أشورديا معه إلى سليسترو نبأ مفرحاً طالما انتظراه وتمناه . بقي أشورديا يتسّم للحاضرين إلى أن دارت الحمرة في الرؤوس ، فنهض وقال :

— انضمت اسرة جديدة إلى أسرتنا الكريمة الكبيرة ، فبالجميع يعلم أن جد شيبلي كفاتشانثيرادزه كان من النبلاء ، لكن القدر خانه ، اذ سقط أسمه سهواً ، على ما يبدو من أحد السجلات . وها قد سويت بنفسه ظلم التاريخ وأعدت لك ولأسرتك ، يا عزيزي سليسترو ، شرف

النبالة . اهنتك بهذه المناسبة السعيدة وأتمنى أن تحمل بجداره هبة القيصر .
أشرب نخب النبيل سليسترو ، نخب صحة أخي الجديد ! .

غمزت بشائر الفرح والسرور أسرة كفاتشا نثيرادزه وتعالى الصخب
في المنزل . سلم اشورديا سليسترو ، وبشكل احتفالي ، شهادة القيصر ،
حيث قرأها ملياً في اليوم التالي وتباهى بها في طول سماتريديا وعرضها .
منذ ذلك اليوم غدا سليسترو وكفاتشيكاً رسمياً من النبلاء . اثناء
العشاء نفذ كفاتشيكاً ابن الخمسة أعوام تعليمات وأوامر والده : قبل
يد اشورديا وقال :

— أشكرك يا عمي ...

ابتسم اشورديا وقبل كفاتشيكاً في جبهته ولاطفه قائلاً :
— صغيري ! هدت لك طريق السعادة والنجاح ، فتحت لك
كل الأبواب . الباقي عليك . أشرب نخب صحة كفاتشيكاً الصغير !
علا الضجيج والصخب وهمهمات الفرح من جديد .
في اليوم التالي عندما هم اشورديا بالسفر قبل كفاتشيكاً يده مرة
ثانية ، وقال له :

— عمي ... عندما ترى القيصر قل له ان كفاتشيكاً كفاتشا
لثيرادزه لن ينسى جميلك وعندما يكبر سيشكرك .
ضحكوا جميعاً . شجعه اشورديا وهنأه .
— أضع أمني فيك يا صغيري ، فلا تخيب ظني ! هل سمعت ؟
وغادز .

في ذلك المساء قالت نوتيو :

— مامن عائق الآن أمام حبيبي كفاتشيك ، سيغير وجه العالم
ويسعدنا ، ويمكن أن يأتي يوم يرد فيه لأشورديا معروفه ويزيد .

أنتي كان لوتيو، أو بوبي أو اشورديا، أو حتى لسليسترو ان يعلم
ان كفاتشيك الصغير سيصبح أهم من اشورديا، ويشغل العالم ويزين
أسم أسرته بهالة سنّية .

لقد قدم سليسترو مافيه الكفاية حتى يحصل على لقب الشرف .
وكم أنفق على أشورديا ، ثم على أهل سناميرديا والوفود التي احتشدت
في منزله خلال أسبوع كامل لتنهتته بهبة القيصر وبالشرف الجديد
الذي ناله .

كيف جرت طفولة كفاتشي

بعد حصول سليسترو كفاتشا نتيادزه على رتبة النبالة تغيرت
شخصيته والوضع العام لأسرته . شمع بأنفه إلى أعلى، وصار وأهل بيته
أكثر جدية وتحفظاً في التعامل مع الجوار ، كأنما انكسر الجسر وقام
عوضاً عنه جدار .

هكذا غدا سليسترو يعظ كفاتشيك الصغير :

— انتبه يا ابني ، العالم منذ الأزل قائم على قواعد راسخة : ثمة
دوماً كبير وصغير ، غني وفقير ، قوي وضعيف ، سيد ومسود .
ولا يجدر بنيل من الأشراف مثلك ان يخالط العوام أو يقلدهم .
الفقر والفلاح لن يعطياك شيئاً ، وعلى العكس سيستغلانك . أقم
علاقاتك مع النبلاء والأغنياء ، كن قريباً منهم وخالطهم كأخوة
لك . تحتاج دوماً الغني والقوي : هذا يساعدك في أمر ، وآخر يهديك

شيئاً ما مفيداً ، وثالث يتسبب لك بمنفعة . . . هذا هو الكون يابني
فتبصّر وأعمل لمصلحتك وما يتفع مستقبلك .

كفانشيكا زكي ، نبيه ومطيع ، لذا أدرك نصائح ووصايا أبيه
وعمل بها . لم يكن قد بلغ السادسة من عمره عندما كانت له كلمته
ورآيه في أمر التجارة . كان يتدخل دوماً لدى شراء والديه أو باردغا
شيئاً ما من الفلاحين . كأن يقول :

— هذا لا ينفع . . . غالي الثمن . . . في الصباح بيع بعشرة كويكات .
فقط

كان يستقبل الزبائن باحترام وتأدب :

— السلام عليك يا جم . . . اسمي كفانشي . . . عمري ست
سنوات . . . انا ابن سليسترو . . . عندنا كل شيء : فواكه خضروات
بيض ، نبيذ من النوع الجيد .

في طفولته الأولى تعلم كفانشي على يد الشمس ، وعندما بلغ
الثامنة أخذه والده إلى كوتاسي الالتحاق بالمدرسة . رافقه إلى هناك
بوبي ، خوخو ونوتيو أيضاً . ولكم دهشوا عندما رأوا هذه المدينة
الكبيرة الغنية ، الجميلة والنظيفة — الأمر الذي دعا سليسترو لتبنيهم
قائلاً :

— لا تبدوا الدهشة والعجب عندما ترون شيئاً ما جديداً باهراً .
فقد يلاحظ الآخرون ذلك ، يكتشفون عدم خبرتكم ويسخرون
منكم . عندما تكونون بين الناس وتسنع فرصة الكلام لكم قولوا
انكم كنتم في (تفليس) ، عشم فيها سنة ورأيتهم وسمعتهم وخبرتم
كل شيء .

فهم كفاتشيكا هذا الأمر جيداً . ففي ذلك اليوم عندما حلوا في منزل قريبتهم (بودوشوليا) ، وجرى الحديث اثناء الغداء عن العاصمة تفليس تدخل في الحديث وقال بثقة وهدوء :

— لا بأس بها ، مدينة كبيرة . . . تعجبني . . . زرتها مرتين في العام الماضي ، اعجبني مسرحها ومحطة القطارات . . .

قال كفاتشي كل ذلك دون ان يحمر وجهه ، أو يتعلم في الكلام . وهل كان يتنبأ حينئذ ان يزور حاملاً لقب أمير بطرسبورج ، باريس ، فيينا ، برلين ، لندن ، وأن يعيش في قصور حقيقية .

بعد أسبوع من إقامة كفاتشيكا في كوتايبي ، عاد سليسترو وبقية أفراد الأسرة إلى سماتريديا . اثناء الوداع قال سليسترو لابنه — عزائه وأمله الوحيد — مايلي :

— سنفترق الآن يا بني . لن أراك إلا بعد حين . سنسافر ، لكننا سنترك القلب والروح هنا . كن يقظاً واهتم بدراستك ومعلميك . لاتصاحب الاشقياء وأولاد الفلاحين . ان أحسنت الدراسة وعرفت كيف تسلك وتحافظ الناس ، فقد تغدو في المستقبل على كل شفة ولسان في سماتريديا ، وخوني وفي كوتايبي أيضاً . يجب ان تفقأ عين عدوك حسداً وتفرح أهللك واقرباءك . أسافرُ وكلّي أمل بك يا بني كفاتشيكا . . .

بصعوبة استطاع اخفاء دهشة كانت تتلحرج على خديه . اجابه كفاتشيكا :

— كن مطمئناً . ان أخيب ظنك ، ان اسيء إلى سمعة أسرة .

كفاتشانثيرادزه . ضحك الجميع ، ثم بكوا وقبل بعضهم بعضاً
وافترقوا . بقي كفاتشيكا عند أسرة بودوشوليا في شارع (بلاخفان) ،
حيث كان شوليا يدير هنا حانة . وبعد أسبوع التحق كفاتشيكا بالمدرسة
والكتب على الدراسة .

كيف كانت شخصية كفاتشي ؟

مضت بضع سنين . كبر كفاتشي ، غدا شاباً طويل القامة ذوق
نحافة ، جميلاً بهي الطلعة . من حيث الذكاء والامكانيات عند بين الأوائل ،
من حيث الجدل بين الأواخر ، وبوجه عام كان وسطاً . كانت مذاكرة
وحفظ الدروس بالنسبة له عذاباً ، لكنه وهب ذكوة قوية تستوعب
بسهولة كل مايقال في الحصوة الدراسية ، لم تستهوه إطلاقاً مطالعة وقراءة
الكتب . أحب فقط قراءة تلك التي تصف الرحلات والمغامرات الكبيرة
والصغيرة ، فقرأ مرتين مثلاً ، ماين ، ريد ، كوبير ، غوستاف
ايمسار ، ومذكرات غوردون ، نيت بينكرتون ، شرلوك هولمز
وكثيراً من أمثال ذلك .

رسخت وصايا سلبسترو جيداً في رأس كفاتشي . سعى دوماً
لإرضاء الأقوياء والمعلمين ، التقرب منهم والحصول على اعجابهم
وحبهم والاستفادة منهم . وفي هذا المجال منحتة الطبيعة عطاءات سخية

كان يتمتع بموهبة مدهشة ونادرة لاكتشاف طرائع وشخصيات
الناس وقدرة في الحصول على اعجابهم ونيل ثقتهم والفوز بحبهم .
فاذا رغب بالتقرب من انسان ما ، رجلاً كان أم امرأة ، كان له ذلك ،
وفي زمن قصير يغدو أسيره قلباً وروحاً .

كان كفاتشي ذكياً مع الأذكىاء ، هادئاً مع الهادئين ، مزوَّحاً مع المزوجين ، حزيناً مع الحزاني ، فرحاً مع الفرحين ، مع الأقوياء خاضعاً مستسلاً منافقاً ضعيفاً ، وكان يمكنه ، اذا اقتضى الأمر ، أن يكون مع الخشنيين الجسورين متواضعاً ومرناً ، ومع الضعفاء عنيفاً وقحاً ، مع المستقيمين العنيدين مرئياً منافقاً ، وأن يكون أمام الحديد شبه القطن وأمام القطن شبه الحديد .

عندما يتراجع غيره منسحباً أمام الطرق المستقيمة المباشرة المخلقة ، كان كفاتشي يجد مخارج ومخارج ملتوية . لوحسته بين أربعة جدران ، دون أبواب ونوافذ ، لوجد حياً وحياً للتسلق إلى برج دونه تسعة أبواب مقفلة وخرج سالماً .

ادرك كفاتشي وفهم قوة وتأثير الكلام المعسول والابتسامة اللطيفة والمديح الكاذب . كان له سحر خاص في التأثير على الناس للفوز بثقتهم وانخضاعهم لما يخدم مصالحته ومنفعته . كان يقول أحياناً أمام خلصائه ، بعد أن يستغل انساناً ويحل به حتى النهاية :

— في هذه الدنيا خلقت بعض مع سرج ، وبعض آخر مع كراباج ومهماز . أنا افضل الكراباج والمهماز ، وليابس غيري السرج . هذا ، اقاله فولتير ذات مرة .

أو يقول :

— لو كان كل الناس في هذه الدنيا قساة القلوب ، عديمي الثقة بالآخرين وايديهم دوماً على جيوبهم ، لوجب على أمثالي ان يلقوا بأنفسهم في الماء أو يحرقوا الأرض .

أو يقول المعنى نفسه ، لكن بصيغة أخرى :

— تذكر دوماً يا أخي بأن الله خلق النعجة كي تحلب ويجزّ صوفها .

كانت لدى كفاتشي سرعة خاطر فريدة وحاسة شم رهيبة كما لدى الكلب الأصيل المهجن . كان بارومترا حياً يحسّ بالطقس الرديء والحسن عندما لم يكن يتوقع آخرون أي تغيير . وكان الطقس كثير التبدل في حانة شوليا وفي أسرته ، وفي المدرسة ، والشارع وفي حياة كوتاسي بوجه عام . أحسّ كفاتشي دوماً ، وفي الوقت المناسب بتبدل الطقس فاستعد المالك ، بدّل ملبسه ، غير سلاحه ، اتخذ الوضع المناسب ، بصق على الشمس وحيماً الشروق ركل الضعيف ووقف بجرأة قرب الحديد الصاعد .

ندر ان تجد لكفاتشي مثيلاً ، من حيث القدرة على الحصول على المال ، وندر من ذلك من كان يعرف كيفية حصوله عليه . نادراً ما كان يستقرض . وهذا في الحالات القصوى . وهذا كان له أسلوبه الخاص ، كأن يتدخل في الحديث فجأة ، ويقول بهدوء وثقة ، على نحو غير متوقع : « اقرضي ثلاثين روبلاً » . كان يحترار طبعاً الوقت المناسب والشخص المناسب ، واللحظة المناسبة ، بحيث لم يواجه برفض أبداً . لكن لم يكن يمضي خمس دقائق حتى يلعن الدائن نفسه ويضرب رأسه بيده ، في حين يكون كفاتشي قد انسحب بهدوء واختفى .

كان لدى كفاتشي عادة أخرى اتخذها قانوناً وقاعدة : لا يقول لأحد « كلا » ، ولا يرفض طلباً ، لكنه من جانب آخر لا يفي بوعد إذا لم يجلب له ذلك منفعة أو فائدة ما اليوم ، أو غداً . لذا بدا دوماً شاباً طيباً لا يرد لأحد طلباً ، يشر الوعود بسخاء يميناً وشمالاً :

-- آه يا حسرتي ! تريد مالاً ؟ كم المبلغ ؟ خمسة روبلات ؟
لماذا لم تقل لي قبل ساعة ؟ مع ذلك ، على أية حال ، سأندبر الأمر
سأعطيك .

وهكذا كان ينثر الوعود ويختفي عن الآخرين ويبقى الوعد وعداً .
لكن العجيب في الأمر أن المخلوعين لم يزعلوا ، أو يغضبوا منه أبداً ،
لأنه كان دوماً جنم التواضع معهم لطيفاً مهذباً ، يحسن التخلص بلباقة
ومهارة من شتى المآزق الصعبة .

كان لكفاتشي في البداية تأثير بونفوذ كبير بين أقرانه وزملائه .
إذا دخل إلى الصف أو خرج إلى الشارع تحاق حوله حشد من الشباب
وحيثما حل لحق به زملاء ورفاق كما يقتفي الذباب أثر العسل .

وكان لدى كفاتشي ، لكل منهم كلمة مناسبة ، فكرة ، ابتسامة ،
نصيحة ، عظة ، وكانت تسوية الخلافات والتزاعات الصغيرة بين الزملاء ،
أو بين المعلم والتلاميذ من شأنه دوماً -- الأمر الذي جعل بعضهم يقول :
-- لو أن كفاتشي أحب الجلد والدرس ضمن مستقلاً باهراً ،
وأضاف آخرون :

-- مع ذلك ، وهو على هذه الحال ، سيغدو انساناً عظيماً .

كيف كسب أول روبل بعرقه

كانت حانة بودو شوليا مطاة على شارع (بلاخفان) وشقة السكن
خلفها تماماً في بناء واحد . وكثيراً ما كان كفاتشي يتسلل إلى هذه
الحانة ، فيساعد بودو في التجارة وفي تصريف بعض الأمور الصغيرة
أحياناً . خلال ذلك كان يراقب الزبائن ، يصغي إلى أحاديثهم ،
ويكتسب خبرة وتجربة من كل ذلك :

لذا يمكن القول ان جانة شوليا غدت مدرسة حقيقية للحياة بالنسبة
لكفاتشي . فقد رأى وعرف واستوعب وتعلم هنا ، وهو ابن العاشرة ،
مالم يعرفه ويخبره حتى ابن العشرين :

كانت لدى بودو شوليا زوجة شابة اسمها (صفيري) ربت
كفاتشي كابنها واعتنت به ورعته . قالت لزوجها ذات مرة :
— ماذا تريد مني ؟ لم تستطع انجاب حتى طفل واحد . فلماذا
لا أحب طفلاً غريباً ؟

وهكذا التصقت صفيري بهذا الفتي الغريب كما زوجها بحائنه .
لم تشعر بأي خجل ، أو حياء أو حرج من أي نوع كان تجاه الطفل الغريب .
اعتادت عليه وضار أقرب الناس لها للدرجة أنها كانت تجمع عنه ملابسه
بنفسها ، وهو ابن الرابعة عشرة ، وتغسله في الحمام .

كانت لكفاتشي غرفة صغيرة خاصة به بجوار الغرفة الكبيرة ،
ولم يفصل بين الغرفتين سوى حائط خشبي رقيق ، لذا كان أي صوت
أو نأمة أو حركة مسموعاً في الغرفتين .

كان بودو كثير المواظبة في حائنه

في ذلك المساء عاد كفاتشي إلى البيت . درس قليلاً ، ثم استلقى
في فراشه . دخلت صفيري لحاجة ما إلى غرفته ، لكنها بعد قليل أطفأت
النور ، وجلست بجانبه على السرير ، وراحت تمازحه . . انتهت هذه
الممازحة كما كان ينبغي لها ان تنتهي : علمت صفيري كفاتشي ما كان
قد عرفه سابقاً ، لكن مالم يكن قد جرب به بشكل تام مع امرأة حقيقية .
كان بودو رجلاً كبير السن مريضاً ، لذا يمكن القول أن صفيري .

قد كسبت في تلك الليلة ديكاً حقيقياً ، أما كفانتشيكا فجزب أول دجاجة حقيقية . لم تدر صفيرى قبلاً شيئاً عن علاقة كفانتشي (فاريا) ابنة الجيران ، التي كان قد اتخذها دجاجة له منذ بضع سنوات .

بدءاً من اليوم التالي ضاعفت صفيرى اهتمامها بكفانتشي ، وكثرت ملاطفتها له ، وضعت في يده روبلاً فضياً وهمست في أذنه :

— اشتر ، يانور عيني ، حاجة مالك . لكن اياك اذ تقول شيئاً عن علاقتنا لأحد ، فاذا حصل ذلك وشاع الخبر كانت نهايتنا .

وهكذا كسب كفانتشي كفانتشا نثيرادزه بعرقه وجهده أول روبل . استمرأ اللعبة ولقيها سهلة لليلة ومربحة . فتبع الروبل الأول روبل ثان وثالث فراجع . فعاشير ، إلى ان اقتنعت صفيرى انها ان تستطيع الاستمرار على هذا النحو . فالتفقات تزداد وديكها يطالب بالمزيد . جفاها النوم وغدت قلقة طوال الوقت . ديكها جشع طماع تطعمه ، لكنه لا يني يتنقل من عش لآخر — غدا ذيكاً لدحاجات عدة في آن واحد . وهكذا بدأ العتاب والازم والغيرة والمشاحنات .

لكن صفيرى أخطأت أيضاً في هذه المرة — ففي الأعشاش الأخرى نثرت لكفانتشي الفضة وما هو أغلى منها .

اقتنعت أخيراً أن لافائدة من العناد، وأنها غير قادرة على المنافسة ، لأن ذلك سيكلفها ما لا طاقة لها بتحمل تبعاته فرضيت بنصيها كواحدة من كثيرات .

قضت سنوات ثلاث، نهشتها الغيرة من جديد، فوقفت كالحدار بين كفانتشي وابنة جارتها فاريا، واستنظاعت فعلاً ان تبعده عنها، لكن، وفي هذه المرة، بدا من الصعب الاستمرار في المحافظة على الديك،

إذ ازدادت تدريجياً كلفة المحافظة عليه وغدا مستحيلاً ، من جديد ،
بالنسبة لصغيري منافسة الدجاجات الأخريات .

ذات مرة . حصل خلاف صغير بين صغيري وكفاتشي . غضب
هو وألح متأخراً إلى أنه يرى من المريب . كسب المال بمثل هذا العرق
وترك عشيقته تهرب هذه المرة . قوة مخالفه الحادة .

لكن صغيري ابتسمت بخبث وقالت :

— أنت على مايلو غبي كبير . هل تعتقد اني اهداك مالا ؟
عندما تكبر وتعمل . سترد لي الدين . لا تكن طفلاً . . . نحن . . . فكر
كفاتشي قايلاً ، ثم أجاب :

سأرد لك الدين مع فوائده ، إذا كنت موافقة .

.. طبعاً ، طبعاً مع فوائده ، فأنا لأقدم قرضة حسنة .

انتهى الحديث عند هذا الحد . من يعلم هل تذكر كفاتشي
كفاتشانيرادزه فيما بعد أن عليه ديناً في مدينة كوتايسي لأمرأة أسمها
صغيري شوليا تسكن في شارع بلاخفان . وهل صحيح ان صغيري
لم تحسب ماأنفقته على كفاتشيكا ولم تسجل الدين في دفتر .

كثيراً ماألح كفاتشي لزملائه وأقرانه بأن لديه في سوق النساء
زبونات كثيرات ، لكنه تجنب الحديث عن السعر ، إنما كان يقول أحياناً :

— لاينفق مالا على النساء سوى المهجائين والمشوهين .

أو :

— لايعدو خاف التقيات المتعلمات الشابات سوى الأغبياء والشعراء .
العالم مليء بالنساء الخبيرات المجربات ، والخطر هنا أقل . حريتك بين .

يديك . لا تضع وقتاً كثيراً ولا تضطر لإنفاق مال ، بل على العكس
اذ يمكن احياها .

وفي احدئ المرات ، وبعد ان شرب ثلاث زجاجات نبيذ ، حاطب
زملاءه في صيغة وعظية قائلاً :

— اعدوا ، افهموا الحياة جيداً . أعجب كيف يمكن لامرأة
أو فتاة ان تسلب عقل شاب وتأسر قلبه وتفقد حريته في ايامنا هذه
أضحى ، حتى الطفل ابن العاشرة ، يدرك ان المرأة خلقت للمتعة الآتية .
تخذ منها ما ينبغي ان تأخذ ، وإذا شئت قل لها شكراً وتابع طريقك .
إذا كانت مسلواة فلتكن في كل شيء . لماذا يجب عليّ ان أحمل
على كتفي عشرين أو أربعين سنة واحدة من بنات حواء أياً كانت .
كلانا حصل على لبذة ، مضى في طريقه وانتهى كل شيء . زد على
ذلك ان الحياة كفاح . ما تحصل عليه يصبح ملكك ، وما لم تطله يدك
خسرته . لدى بعض النساء ، إضافة لما تملكه كل امرأة ، شيء ما
آخر . والرجل الذكي هو الذي يحلب المرأة حتى النهاية . ويركب على
كتفيها . اني أفضل ان يحملني الآخرون بدلاً من ان احملهم
هذا هو حال الدنيا ، ومن كانت له عينان فلير ، ومن كانت له
اذنان فليسمع ، ومن كان له عقل فليعدل . . .

على هذا النحو كان يفكر (كفاتشوني) ابن الثامنة عشرة .

كيف اجتاز كفاتشي الامتحان

تعرف كفاتشي تدريجياً على كونايسي بكل مافيها . وعرفته
المدينة بدورها شاباً جميلاً . مرحاً ذكياً موهوباً ومتميزاً بالسطارة واللباقة ،

وتوقع له كل من رآه مستقبلاً باخراً ، فتحت له أسر المدينة أبوابها ، صار له اصدقاء واحباء كثيرون واكتشف اقارب له جديداً . تبع في البداية خطى زملائه وأقرانه . وسرعان ماغدا يتجول في شوارع (غوتشيوري) ساغوريا ، شوما وفي مقبرة (سابشيخيا) كما في حديقة منزله في سماتريديا على طريق خوني .

تعرف كفاتشي، فيما بعد، على حانات الشراب وغدا من روادها المعروفين . دخل في البداية إلى الحانات المتواضعة، التي كانت بعيدة عن مراقبة مشرف المدرسة ورجال الشرطة ، لكن سرعان ماأنضم إلى الجماعات الأكبر سناً التي ارتادت عادة الحانات المعروفة في مركز المدينة.

عندما بلغ كفاتشي الثامنة عشرة ارتقى درجة أخرى جديدة في السلم :

ضمته اللاهون، من أبناء الامراء والنبلاء، إلى وسطهم ، واجروا له الاختبار الأول في حانة « الكرم الجديد ». اجتاز الامتحان بامتياز ولم يقصّر في شرب أو رقص أو غناء . انتقلت الجماعة، بعد ذلك، إلى حانة (لايتادزه) على طريق خوني . وهنا صبّ له زعيم وصاحب الحانة ابريقاً من الخمر على رأسه وسقوه ثلاث زجاجات في قرن تيس، وكان ذلك بمثابة تعميده له . استمروا في السكر والعريضة هنا حتى الصباح . شربوا خمسه (تشابات) من النبيذ ، أكلوا أكواماً من الطعام، كسروا عديداً من الصحون والأواني وثقّبوا السماء بالعبارات البارية .

في الصباح كانت خضيلة كل ذلك سبعة سكارى فاقدى الوعي،

نقلوا مع زملائهم الآخرين في خمس عشرة مركبة إلى المدينة . في مساء اليوم التالي تابعوا العريضة على شرف تعميد كفاتشي في حانتي « الأسد » و « برجومي » أولاً ، ثم لدى (يرمو) البدين ، الذي انعقدت بينه وبين كفاتشي في تلك الليلة ، وأصر صداقة متينة .

بينما كانت العريضة على أشدها ، دخل الحانة ضابط وموظف تصحبهما امرأتان . يبدو أن إحدى المرأتين كانت تعرف كفاتشي ، فتبادلت وإياه الابتسامات وبعض كلمات الود والمجاملة . لاحظ الضابط ذلك وبدأ عليه الاستياء والغضب . وقف الأمير (داديانبي) مدافعاً عن كفاتشي ودخل مع الضابط في نقاش تطور إلى مشاحنة ، ثم عراك . في هذه الاثناء توارى كفاتشي عن الأنظار . استلّت الحناجر والمسدسات ، علا الصراخ والصفير ودبت الفوضى واللبلة . غدت الحانة وسمعة صاحبها في خطر ، لذا سارع يرمو إلى اتخاذ الاجراءات المناسبة دفاعاً عن شرفه وسمعة حانته . فانتزع السلاح من الضابط ، بعد ان فقد الموظف اثنتين من اسنانه الأمامية . عاد كفاتشي بعد ان انتهى كل شيء . قال انه ذهب لقضاء حاجة خلف الشجيرات القريبة من المكان . وعد الجميع كفاتشي بعدم الوشاية ، أو ذكر اسمه في حال وصول القضية إلى السلطات ، لانه طالب مدرسة ، وقد يناله أكبر الأذى جراء ذلك .

مع ذلك وصلت القضية إلى الجهات الرسمية وبدأت التحقيقات واستدعاء الشهود . لم يكن بالامكان اخفاء علاقة كفاتشي ، لابل وجددها اعداؤه فرصة للنيل منه وراجت اشاعات كثيرة . تمة من قال أنه يدير لعبة قمار ربح من ورائها مالاً كثيراً واتهمه آخرون بتزوير وثائق وغير ذلك مما لايعجز الحساد عن تلفيقه .

غدا موقف كفاتشي حرجاً ومصيره في خطر . لكن أخطؤوا جميعاً، بدءاً من رئيس قسم البوليس، مروراً بالمحقق وانتهاء بمدير المدرسة . فلكفاتشي حماته وانصاره الغيورون ، اذ تطوع للدفاع عنه سيدات من عليّة القوم ذوات نفوذ واسع من جهة أولى، ورسميون مهمون عاملون في الحقل الاجتماعي، من جهة أخرى ، أما صفيرو فخرجت من جلدها وقدمت له على الفور مبلغاً كبيراً من المال .

خرج كفاتشي في نهاية الأمر منتصراً طبعاً . كيف ردّ لسيّدات المجتمع جميلهن ، هذا ما لا نعرفه . أما ما يتعلق بالرسميين فلدينا معلومتان بهذا الخصوص نرجو الاستماع إليهما .

كيف قامت الخطوة الأولى

في الآونة الأخيرة شهدت كوتايبي وضعاً متأزماً تحول تدريجياً إلى غليان شعبي عارم . قامت موجة احتجاج وتمرد ضد السلطات شملت شتى أوساط الشعب ، عقد رفاق كفاتشي الاجتماعات ، تناقشوا انتظموا في مجموعات واستعدوا للمواجهة . حاول كثيرون جذب كفاتشي إلى صف الثائرين ، لكنه تذكر جيداً كلمات سلبسترو، الذي كان أوصاه في ذلك العام :

— كفاتشي يابني ! العالم جنّ وفقد الناس عقولهم ، يريدون القضاء على الامراء والنبلاء واسقاط القيصر والحكومة . يقولون انهم سيتزعمون ملكية الأرض من الاقطاعيين ويساوون بين الأغنياء والفقراء ويبنون الاخاء والمساواة . كن عاقلاً يابني . حافظ على شرف النبالة، الذي كلفني جهداً وعذاباً حتى حصلت عليه . تذكر انهم لن

يقدرُوا على تنحية القيصر واسقاط الحكومة . نصفهم سينلاشى في السجن والنصف الآخر في سبيريا . اذا كان لديك عقل والديك فاحلف يميناً بألا تتدخل في شيء من ذلك وألا تلوث شرف اسرتك النبيلة .

أقسم كفاتشي اليمين وبرّ بقسمه . لكن الوضع هو الذي يحدد الوعي . فمن أين له أن يعرف حالياً من سيكون المنتصر في النهاية . أبصر بوضوح وجلاء كيف يتغير ميزان القوى في كل يوم . فالحكومة وادارة المدرسة تبديان تراجعاً وضعفاً أمام تصاعد كفاح الشعب . لكنه، مع ذلك، تردد في اتخاذ موقف حاسم، فوضع رجلاً هنا وأخرى هناك ، وبقي يراقب تطور الأحداث .

من يدري على أي نحو تنتهي هذه الانتفاضة . من جهة أخرى لم يعد من الحكمة التمهّل والانتظار . اتخذ كفاتشي الخطوات المناسبة . شارك عدة مرات في الاجتماعات السرية وأطلق لموهبة الخطابة عنده العنان . في هذا المجال تجلّت لديه قدرات واضحة، إذ ألهب مشاعر مستمعيه في هذه اللقاءات بالخطب الحماسية .

في غضون أسبوع غدا كفاتشي على كل شقة ولسان في كوتايسي ، لكن هذه الضجة لم تعجبه كثيراً، فقرر الابتعاد عن الأضواء قليلاً وخفض صوته، فالأمر جدي والخطر قائم لذا تراجع خطوتين . بعد حين استعاد توازنه، فوقف حتى نصفه السفلي في معسكر ونصفه الآخر في المعسكر الثاني .

دخول كفاتشي حلبة السياسة اعطاه فائدة، أو بالأحرى هبة لم يكن يتوقعها . فسأله ذات مرة المدعو (كوليا أرافادزه) المحترم والمشهور كفاية مايلي :

- هل أنت على معرفة وصلة بأسرة (كرابولو) ؟
- على معرفة وصلة جيدتين .
- اعتقد أنك وابنه (كبريان) صديقان ، أليس كذلك ؟
- تماماً .

بعد هذه الواقعة التقى كفاتشي وأرفادزه عدة مرات وتحدثا همساً وفي قضايا سرية هامة . منذ ذلك الحين شرع كفاتشي يكثر زيارته إلى أسرة كرابولو . كرابولو نفسه كان يوناني الأصل يعمل في استخراج وتصنيع خامات المنغنيز . كان يقضي معظم وقته في (تشياتورا) ، لكن أسرته عاشت في كوتايسي ، حيث يدرس أطفاله في المدرسة الثانوية . كبريان وكفاتشي كانا في صف واحد ، ومن هنا بدأت صداقتهما .

كان كفاتشي وكبريان كثيراً ما يذهبان للتنزه معاً ، إلى المسرح ، إلى ساغوريا وإلى أماكن أخرى . حاول كفاتشي في الفترة الأخيرة جذب كبريان إلى طاولة القمار ، إلى حانات الشراب ، إلى بيوت المومسات ، لكنه لم ينجح في شيء من ذلك ، لأن الأخير كان ابن أبيه حيسوباً جباناً .

ذات مساء تناول أرفادزه وكفاتشي العشاء معاً . اثناء العشاء تحدثا وتحدثا طويلاً بصوت خفيض ، وأنشيا حديثهما على النحو التالي :

- اتفقنا نهائياً ؟ — سأل كفاتشي
- اتفقنا . خمس المبلغ لك .
- حسناً ! علماً أن نصيبي كان يجب أن يكون أكثر .

لكن مدامت القضية تتعلق بالمصلحة العامة ، بالقضية الوطنية ،
فلا بأس ، وأنا موافق .

— هل فهمت الخطة جيداً ؟

— كن مطمئناً . في تمام الساعة العاشرة سأكون هناك . كل شيء
على مايرام .

— إلى اللقاء إذن !

— مع السلامة !

اليوم التالي كان يوم أحد . عشية ذلك اليوم اتفق كفاتشي ،
كبريان ، سونيا خفيشيا وماروسيا شاليدزه على القيام برحلة يوم الأحد
إلى غابة ساغوريا ، على أن يلتقوا جميعاً في الساعة العاشرة ، ويذهبوا بعربة
إلى هناك . كان كبريان مولهاً بحب سونيا ، لذا انتظر بزوغ الفجر
بفارغ الصبر .

جرى ترتيب الأمور على نحو ماسلف . لكن في اليوم التالي قال
كفاتشي لكبريان :

— البارحة مساءً أنضم إلينا آخرون ، غادروا جميعاً قبلنا ،
الآن سأذهب وإياك ، وهناك سنلتقي جميعاً ، هيا نذهب ! .

جلسا في العربة على طريق الغابة المذكورة . نزلوا عند حانة يريمو
ومن هناك سارا مشياً على الأقدام . قال كفاتشي لصديقه :

— تعال من هنا . . . سنلتقي هناك مع الجميع . . . إلى اليمين . . .

إلى الشمال . . . هاقد وصلنا . . . عشر خطوات ونصل إلى المكان

المحدد ! ! !

فجأة واجههما في عمق الغابة أربعة مجهولين ، احاطوا بهما وأشهر كل منهم سلاحه .

— مكانكما ! إخرسا ! لا تحركا أيديكما ! إلى الأمام !

قفز كفائشي راكضاً . ركض خلفه أحدهم ، وسرعان ما مسكه من نقرته . بدأ عراك بينهما . تخلص كفائشي من بين يديه واختفى خلف أجمة كثيفة . لحق به ، عندما ابتعدا عن الأعين راحا يضحكان ويتهامسان :

— كفى ! وإلا مزقت ثيابي كلها .

— لا بأس ، دعنا نركض لئلا نلحق ببعض أيضاً .

— أخيراً أضاع كل منهما الآخر .

تاه كفائشي في الغابة . قضى قرابة ساعتين قبل أن يعود إلى حانة يريمو ممزق الثياب بدون قبعة . في تلك الأثناء تماماً وصل المكان أيضاً سونيا ، ماروسيا والآخرين . تهامسوا لبعض الوقت وانضح ان كفائشي لم يعرف مكان اللقاء ، فقد كبريان في طريق آخر . دب الهلع والفوضى فجأة وسار كل في اتجاه بحثاً عن كبريان .

مرت عدة أيام . قامت مناحة في منزل كرابولو وعاش جميع أفراد الأسرة أياماً في قلق وحزن وخوف . ضرب كفائشي رأسه بيديه ، لطم خده ، ضمّد « جرحه » ولم يفارق أسرة كرابولو طوال الوقت .

أخيراً وصلت العجوز كرابولو برفقة من كلمتين :

— عشرون ألفاً !

أجاب على البرقية بكلمتين أيضاً :

— خمسة آلاف !

— خمسة عشر ألفاً .

— عشرة آلاف .

— اتفقنا نهائياً .

لم يُر كبريان كرابولو منذ ذلك الحين في شوارع كوتايبي .
بعد شهر انتقلت مناجم كرابولو إلى يد (سرابولو) وغادر مع
جميع أفراد أسرته على الباخرة المبحرة إلى استامبول .

بدّل كفاتشا نثيرادزه شقيقه ، استأجر عربة لشهر كامل ،
اشترى دراعة وقفطاناً ، تباهى بسلاحه ، أفرح والديه وأزعج اعداءه .
هل صدق كفاتشي كفاتشا نثيرادزه ، في يوم من الأيام ، أنه أوكل
له ولرفاقه في ذلك الصيف في غابة ساغوريا تنفيذ « مهمة وطنية »
من يعلم ! لكن من المؤكد ان كفاتشي لم يرد أكثر من ذلك . كسب
المال والمجد في آن معاً .

كيف انتهى كفاتشي المدرسة الثانوية وأُنقذ الأرملة

عندما توفر لكفاتشي المال قفز دفعة واحدة عشر درجات على
سلم الحياة . راودت مخيلته أحلام وأحلام ، انتقد حماسة وحباً للحياة ،
تكاثر اصدقاءؤه وأقاربه . بدأ المرحلة الجديدة من حياته بأن جمع
أشياءه في يوم نحس بالنسبة لصغيري ، حملها تحت ابطه وانتقل للسكن
في شقة في شارع تفليس لدى عجوز روسية تدعى (فولكوبا) .

ركضت صفيرى باكية خلف ديكها الذي طار من بين يديها .
لكن كفاتشي بدا متماسك الشخصية متوازناً ، اذ قال لعشيقته الأولى
بكل هدوء وثقة :

— اسمعيني ياعزيزتي ! لكل أمر بداية ونهاية ، لاتبكي ولا
تولولي،ولإ عرف بودو واصبحنا علكة بمضغها الناس . بالنسبة لي لايمهم ،
فأنا شاب غر في عرف الناس ، فكري بأمرك وسمعتك ، أنت امرأة
في الخامسة والثلاثين مجربة،ربة بيت . لن أنسى حتى الممات فضلك
وحبك . سأرد لك الجميل عشرأ . لاتصغي لنداء القلب،حكمتي عقلك
وكل شيء سيكون على أحسن حال . الغرفة لن تبقى فارغة بعدي .
ألا تعرفين (بيسو شيكيا) ؟ أليس شاباً جيداً ؟ غداً ينتقل إلى الغرفة
واعتقد انك ستفاهمين معه بسرعة . لاتقلقي ! بلغني سلامي لبودو ،
وداعاً ياعزيزتي صفيرى !

تظاهر بالحزن ، ومسح دمعته عن خده .

بكت صفيرى عشيقها بكل جوارحها . لكنها عملت أخيراً
بنصائح كفاتشي وفكرت على نحو عملي . بعد يومين « اقرضت »
بيسوشيكيا ثلاث روبلات وقالت له :

— ترد لي الدين عندما يتوفر لديك . . . مع الفائدة طبعاً . . .
اشتر ياعزيزي « بيسيك » ماأنت بحاجة له ، لاتنجعل مني . . . طبعاً
ليس لدي الكثير ، لكن أستطيع دوماً بشكل ما تدبير ماتحتاجه .

لم يكن بيسو بحاجة إلى كل هذه الوصايا،لأنه كان أقل حياء من
كفاتشي وعرف من اين تؤكل الكتف .

وهكذا وجدت صفيرى شوليا بأسرع مايمكن الغراء والسلوى .
استأجر كفاتشي غرفة رائعة - واسعة مضيئة ومفروشة بشكل
لابأس به . سرعان ما أعجب كفاتشي العجوز فولكوكوفا البسيطة الصريحة .
لقد كانت في واقع الأمر عجوزاً متهدمة جاهلة شبه صماء مع بصر
شحيح أيضاً وعاشت مع كفاتشي كأم مع ابنها .

أطل شهر أيار . عما قريب سيقدم كفاتشي وزملاؤه امتحان الشهادة.
كان هذا العام لا كالأعوام الماضية، إذ ضاق المعلمون ذرعاً بالتلاميذ
وتجاوزاتهم ، وبلغ الأمر حد التهديد والوعيد . لذا كان كل همّ
المعلمين وإدارات المدارس الخلاص والسلامة وحسب . وحده معلم
مادة اللغة اليونانية - ساريدس تمسك بالنظام . اراد تمثيل دوره كاملاً
كمعلم اثناء الامتحان : فلم يأبه للتغيرات الخاصة في البلاد ، بميزان
القوى الجديد وباللجان المشكّلة حديثاً . فكر التلاميذ ملياً ، ثم كلفوا
كفاتشي باتخاذ القرار المناسب . قال لهم :

— امهلوني ثلاثة أيام .

في صباح اليوم الثالث تلقى ساريدس رسالة كان مرسوماً في
زاويتها جمجمة ، نعش ، خنجر ومسدس ، كما جاء فيها مايلي :

« حذار من رسوب أي من طلاب الصف . إذا كنت موافقاً
على ذلك تعال في الساعة الثالثة من مساء هذا اليوم إلى البولغار . إذا
قررت عدم المجيء اجمع امتعتك واستعد للرحيل عن كوتايسي خلال
ثلاثة أيام ، أو هيء نعشاً لك من الآن .

رئيس لجنة الاشتراكين - الفوضويين - السنديكاليستيين » .

بقي كفاتشي قرابة ساعة يزرع البولفار جيئة وذهاباً ، لكن ساريدس لم يأت . من جهة أخرى قدم شيكيا ، شبيونتي رادزه وشيكي ديلادزه .

— كيف الحال ؟

— ضربناه حتى كدنا نجهز عليه . رأيناه متجهاً إلى قسم البوليس للشكوى ، بقينا نرفسه إلى أن صرخ : ان يرسب أحد . . . موافق . برّ ساريدس بوعده ، نجح الجميع في الامتحان .

هكذا أنهى كفاتشانتيرادزه المدرسة الثانوية ، وحصل مع زملائه الآخرين على الشهادة .

في عطلة عيد الفصح ذهب كفاتشي إلى سماتريديا . هنا كان حديث الجميع . سرت به أمه ، أبوه وأقاربه ، قهر حساده واعدائه ، بعد ذلك عاد إلى كوثايسي محملاً بتوصيات وتعليمات سليسترو :

— كفاتشي يابني ، العالم كما ترى في فوضى . صار أعداؤنا كثيراً . أنا أصبحت عجوزاً ، لكنني على استعداد لبيع كل شيء في سبيل ان تكمل تحصيلك العلمي . في أيامنا هذه الانسان بدون دبلوم لا وزن له . أمنت لك وثيقة النبالة وجعلتك تنهي المدرسة الثانوية . سأعطيك قدرًا من المال ، وعليك أنت أيضاً مساعدة نفسك .

تشوليا مثلاً تخرج من الجامعة في روسيا دون أن يتلقى قرشاً من والديه . ماذا تقول يابني ؟ مارأيك ؟

سحب كفاتشي من جيبه ورقة نقدية — مئة روبل ودسها في جيب والده وغادر . ذلك كان جوابه . دهش سليسترو وأسرته وغمرتهم نشوة الفرح . كفاتشي ، ابن التاسعة عشرة ، قصد روسيا للدراسة على نفقته الخاصة وساعد والديه ، ياله من نجل نجيب !

منذ ذلك الحين بدا كفاتشي أكثر ثقة بنفسه، مشى في الطريق رافعاً رأسه مشرعاً أنفه كالكلب يتشمم الروائح حوله، عاش في ود وإلفة مع الأرملة فولكوف، لعب معها بالورق، وجعل نفسه الخاسر أحياناً، ساعدها في تأمين بعض حاجاتها. قبض لها راتبها التقاعدي، سامرها وقرأ لها أخبار الصحف في الأمسيات، حماها ودافع عنها من أذى الفوضويين وقطاع الطرق، الذين كثروا في تلك الآونة.

ذات مرة تلقت هذه العجوز رسالة رسم في إحدى زواياها نعيش وجمجمة وخنجر ومسدس وجاء فيها مايلي :

« هيتي لنا في غضون ثلاثة أيام ثلاثة آلاف روبل. في حال الرفض جهري نفسك نعيشاً - رئيس لجنة الاشتراكيين - الفوضويين - السنديكاليين » .

هزعت العجوز كالمجنونة إلى كفاتشي تطلب النصح والمساعدة، ومن لها، وهي عجوز وحيدة غريبة من (طامبوف)، غير كفاتشي ؟ فكر كفاتشي ملياً، أطرق برأسه وبدا قلقاً وحزيناً، أخيراً قال :

— أتكلم معك كأم، لا تنطقي بكلمة لأحد من الناس حول هذا الأمر، وإلا لن يساعدنا المسيح - الرب. انهم بشر قساة متوحشون لا يرحمون لا النساء ولا العجائز. خلال اسبوع واحد قتلوا امرأة وخنقوا عجوزاً ورموا ثلاثة في النهر. رجال البوليس أنفسهم مذعورون. يقتلون الناس، كما ترين كالعصافير. أول أمس قتلوا على مرأى من الناس وفي وضح النهار رجل بوليس.

كان بعض كلام كفاتشي صحيحاً، لكنه ضخّم الوقائع وزاد عليها. وكانت الأرملة العجوز قد سمعت بمثل هذه الأخبار وعرفت

مثل غيرها ان البلاد في حالة فوضى ، لذا طلبت من كفاتشي هامة متلعممة المساعدة والوساطة، وأقسمت على الانجيل أمام الايقونة انها ستحمل هذا السر معها إلى القبر .

في البداية رفض كفاتشي بقوة التوسط في الأمر فهو نفسه — كما قال — يخشى خطر هؤلاء الاشتراكيين — القوضويين — السنديكاليين الذين لا يرحمون أحداً ويقتلون الناس كالعصافير، لكنه لان أخيراً لأنه « أحب الأرملة الفقيرة فولكوفاً كأمة » .

عكف كفاتشي، منذ ذلك اليوم، على معالجة هذه « القضية الفائقة الخطورة » .

أخيراً عثر على الأثر، فجاء في حالة ذعر يخبر الأرملة العجوز : — وقانا الله شر هؤلاء الناس ! ماذا فعلت ، ماذا أسأت لك حتى حشرتني في هذه المسألة ، ماذا تريد مني ؟ جاء دوري، الآن يهددوني بالموت إذا لم أدفع لهم ألفي روبل . قالوا سنقتلك مع الأرملة العجوز والمهلة تنتهي مساء غد .

ياإلهي بك استعنت وعلبك توكلت !!

تسمرت العجوز في مكانها باهتة للحظات. ثم ارتمت على كفاتشي متوسلة :

— أرجوك أن تخلصني من هذا الشر . . . أرجوك !

في ذلك المساء تحدث كفاتشي والعجوز طويلاً . أخيراً قررا أنه يمكن حل هذه المسألة بألف وخمسمائة روبل . لدى العجوز الآن خمسمائة، أما الألف الباقية فسيقرضها كفاتشي مقابل رهن البيت .

وعد كفاتشي بتسوية الأمر . من جهة أخرى قال إنه سيهرب إلى سماتريديا إذا لم يستطع استدانة المبلغ .

في صباح اليوم التالي ذهب كفاتشي مع عجوزه إلى موثق العقود ، وضع الكمبيالة وعقد الملكية في جيبه وأسرع إلى المحطة ، انتظرت العجوز كفاتشي نهار ذلك اليوم على أحر من الجمر . في المساء عاد وبشائر الفرح بادية على وجهه . فرحت العجوز أيضاً كما لو أنها ربحت ، من خلال ذلك ، مبلغاً جديداً من المال اضافته إلى مدخراتها . أخذ كفاتشي من العجوز خمسمئة روبل وأسرع إلى لجنة الاشتراكيين - الفوضويين - السنديكاليين .

في تلك الليلة أنقل كفاتشي الأرملة العجوز فولكوف من موث محتم ، وخلص الفوضويين السنديكاليين . وصل في الوقت المناسب وأتفق معهم ، بعد أخذ ورد ، على ألف وخمسمائة روبل .

اعطاهم النقود ، انتهت القضية وحلّ الفرح بعد الشدة . لو أنه لم يصل إلى المكان المحدد في الموعد المحدد لحلت المصيبة . كان ثلاثة رجال مقنعين على أهبة الاستعداد لتنفيذ تهديدهم . بكت الأرملة العجوز فرحاً وحمدت ربها ثلاثاً .

في اليوم التالي صلت أمام الايقونة طويلاً . . . علقت في عنق كفاتشي صليباً من ذهب ووضعت في جيبه للذكرى علبة فضية تركها زوجها المرحوم وقالت :

— يا بني ! إذا كنت في عسر صلّ على هذا الصليب . لن ينساك

الرب وسيساعدك في كل أمر . وأنا لن أنساك يا بني واسأل الله أن يعينني على رد معروفك وجميلك . . .

ضمت الأرملة العجوز كفاتشي ، وعانقته ، قبلته وبكت .
وفي هذه المرة انقذ فارس سماتريديا أرملة عجوزاً من موت محتم .

كيف تعلم كفاتشي الموسيقى

في تلك الفترة استهوت كفاتشي الموسيقى . لم يكن يفقه في هذا الفن شيئاً ، ولم تكن لديه اذن موسيقية على الإطلاق . أحب البيانو بعض الشيء فقط من بين كل الآلات الموسيقية ، وفكر ذات مرة بشرائه ، لكن بدا له غالي الثمن فقرر استئجاره لفترة مملودة . كان (ميزلسون) - أحد معارفه يستعد للسفر خلال فصل الصيف إلى (برجومي) لذا قال له :

- أنت مسافر إلى برجومي كما سمعت . أليس كذلك ؟ ولن تعود حتى الخريف ؟

خلال هذا الوقت سألني أنا في كوتايسي ، ولعله من المناسب أن أخبرك ان الموسيقى هي مرضي الآن . لقد استهوتني في الآونة الأخيرة حتى شغلني عن كل شيء تقريباً . أريد تعلم العزف على البيانو . ، لذا أرجوك ان تؤجرني جهازك خلال فترة غيابك، وأكون لك من الشاكرين .

كان ميزلسون من الناس الذين يحبون المال والمنفعة أكثر من أي شيء آخر في الحياة ، لذا فكر قليلاً ثم قال بينه وبين نفسه « خلال

ثلاثة أشهر أُحصل على ثلاثين روبلاً استوفي بذلك مصروف الطريق «
اتفقا في الحال ، وفي المساء ذاته نقل كفاتشي البيانو إلى شقة فولكوف .

شارف فصل الصيف على الانتهاء واقترب موعد عودة ميزلسون
إلى كوتايسي . حاص كفاتشي وبدأ اثناءها في عجلة من أمره . تهامس
بهذا الخصوص وبيسو شيكيا الذي واظب معظم الوقت في اليوم التالي
حول محل بيع الآلات الموسيقية . أخيراً دخل المحل وسأل أحد الزبائن :

— عفواً ! هل ترغب بشراء بيانو ؟ جاهز للبيع فوراً . بيانو
رائع ، انتاج شركة بيكر ، جديد تماماً والمكان قريب من هنا .

— ومن يكون صاحبه ؟

— البيانو لصديقي الأمير سفريان دادباني ، هنا في شارع تفليس
في شقة فولكوف .

أخيراً التقى كفاتشي بالمدعو هارتونوف الذي تفحص البيانو جيداً
ثم سأل :

— كم سعره ؟

— سبعمائة روبل .

— اربعمائة .

— ستمائة .

— خمسمائة .

— لك فقط بهذا السعر موافق . هل تأخذه فوراً

— يجب ان أرسله اليوم إلى (بوتني)

قطّب كفاتشي جبينه وفكر لثوان . اللعبة تترتب عفواً .

- يمكنني ان أرسله لك إذا رغبت .
- إذا فعلت هذا المعروف سأكون لك من الشاكرين، إذ ستوفر علي يوماً . ماذا تقولين ياسيرانوش ؟ سأل هارتينوف زوجته .
- وهل ثمة أفضل من ذلك !
- اذن غلّف البيانو الآن وأحزمه ، أرسله إلى المحطة وسلّمه على العنوان . تعالي إليّ بعد ذلك مساء إلى فندق « فرنسا » مع إيصال الشحن واستلم باقي المبلغ . خذ الآن مائتي روبل سلفة على الحساب . يكفي ؟
- سأعطيك الآن طبعاً ايضالاً بالمائتي روبل ، لكن لي رجاء واحد هو ألا تقول لأحد شيئاً. حول هذا الموضوع ، ألا تذكر أسمى والبيانو أمام أحد . . . فهذا أمر محرج بالنسبة لي لأن . . .
- لا بأس . . . أفهمك .. انتم معشر الجورجيين شعب معتدّون بأنفسكم .
- تماماً . فمن العيب عندنا مثلاً بيع مثل هذه الآلة الموسيقية وبوجه خاص بالنسبة للأمير داديانى .
- غادر هارتينوف وزوجته . في المساء أسرع كفاتشي إلى المحطة وعاد إلى فندق « فرنسا » حيث يحل هارتينوف .
- كل شيء جاهز وعلى مايرام . حزمت البيانو وأرسلته إلى العنوان . إليك إيصال الشحن .
- تناول هارتينوف الايصال وقرأ : الجهة المرسله : كوتايسي . إلى أين : إلى بوتى . المادة المرسله : بيانو . الوزن : خمسون رطلاً . المرسل : الأمير داديانى . المرسل له : هارتينوف .

- كم بلغت نفقات الشحن ؟
- واحداً وأربعين روبلاً وخمسة وثلاثين كوييكا . وهذا إيصال بذلك .
- مجموع المبلغ اذن ٥٥٩ روبلاً وكوييكين . أليس كذلك ؟
- بالضبط .
- استلمت مائتي روبل سلفة على الحساب وبقي لك بذمتي ٣٣٩ روبلاً وكوييكان .
- تماماً الحساب صاف . وداعاً !
- لم العجلة ؟ تفضل وأشرب الشاي معنا .
- اشكركم جداً ، عندي موعد . . . الناس بانتظاري . . .
- إذا صدف وجئت إلى بوتي عرج علينا ، بيتنا مقابل حديقة المدينة .
- طبعاً وسيكون لي الشرف . فرصة سعيدة إلى اللقاء !
- في اليوم التالي التقى بيسو شيكيا بالمدعو (سوروكين) .
- عفواً انتم تبحثون عن ييانو . . . أليس كذلك ؟ جاهز للبيع ، رائع وجديد ماركة « بيكر » . المكان غير بعيد . . . تعالوا معي .
- ماركة « بيكر » المكان غير بعيد . . . تعالوا معي .
- شاهد الرجل اليانو ، وجرى الاتفاق بشأن الشراء .
- اعتقد انك غريب .
- فعلاً . أنا من (شياتورا) ويجب ان أشحن اليانو إلى هناك .

— نحن مستعدون لارساله لك على العنوان الذي تشاء إذا رغبت
بذلك

اسرع كفاتشي ثانية إلى المحطة، وأحضر لإيصال شحن جديد إلى
المهندس سوروكين نزيل فندق « اورينت » .

قبض كفاتشي ثمن البيانو واجرة الشحن مع نفقات التغليف .
— تصبحون على خير .

— وانتم بخير . مع السلامة .

انتظر بيسوشيكياف كفاتشي في الشارع .

— هل الموضوع جاهز ؟ غداً يجب ان نكون على اتم استعداد
يا بيسو

— تعال معي . . . صفقة جديدة

— مع من ؟ انتبه ! احذر التجار المحليين واليهود وإلا

— وهل تعتقدني غيباً إلى هذه الدرجة ؟ الراغب بالشراء موظف ،
مفتش في مصلحة الضرائب سمه (هرتصوف) ، تزوج الرجل منذ
شهر ، استأجر شقة أمس ويشترى الآن اثاثاً لها . قدم إلى كوتايسي
منذ شهر مضى .

في صباح اليوم التالي اتى الموظف الشاب هرتصوف إلى شقة
كفاتشي بصحبة ستة عمال نقلوا له البيانو إلى عش الزوجية ، وفي اليوم
ذاته أقام كفاتشي كفاتشا نثيرادزه وفيساريون (بيسو) شيكيا حفلة

تخرجهما من المدرسة الثانوية : لبسا ثياب طلاب جامعة ، فرحا ،
وتزيينا ، كبرا بأعين المحبين والأصدقاء والأقارب .

بمناسبة التخرج تجمهر في حاتي لايتادزه ويريمو لمدة يومين
متوالين حشد كبير من الشباب والنساء ، سال الخمر انهاراً ، واستهلك
المدعوون احتياطي الدجاج واللحوم والمازوات ، علا الضجيج والغناء
والرقص والصراخ ، بح صوت المغني اليهودي دانيلا ، كلمت اصابع
ايدي العازفين على الآلات الموسيقية ، لم تعد صويجات او نديمت
كفاشي يقوين على الوقوف على أرجلهن من النعاس والتعب وارهق
عشرون-خوذي استأجرهم كفاتشي ليومين احصنتهم، التي بقيت تنقل
المدعوين باستمرار بين البيوت والحانات .

في ختام العريضة وقف كفاتشي منتفخ العينين متثاقلاً تأتاه السكر :
— ماتقولون ؟ وعن أي حساب تتحدثون ؟ ارجو ألا يتجرأ
أحد بالحديث عن المال . . . كل شيء على حسابي . غداً صباحاً في
العاشرة تماماً ارجو من الجميع التفضل إلى منزلي مع قائمة الحساب .
كلكم ضيوفي صباح غد : يريمو ، دانيلا ، الفنانون جميعاً والخوذيون .
استعد يا يريمو ! شيكيا يدعونا ليلة الأحد . استعد يا دانيلا لانخيب
أمل بك . مرت صوتك جيداً أيها الشباب ! تعالوا نشرب نخب يريمو .
على هذا النحو انتهت هذه العريضة الفريدة في تاريخ مدينة كوتايسي .

بعيد منتصف الليل تحركت عربة بأنجاه خوني . كان على متنها
شبابان تدثر كلاهما بشكل جيد، بحيث لا يتمكن أحد من رؤية وجهيهما
ومعرفتهما . عبرت العربة كالأعصار الشارع المواجه لحانة لايتادزه ،

وبعد بضع دقائق غدت كوتايسي إلى الخلف . رفع الشابان رأسيهما ،
تنفسا الصعداء وصاح أحدهما :

.. وداعاً كوتايسي !

— وداعاً ، وداعاً ! من يعلم متى نراها ثانية !

في اليوم التالي ، ومنذ الساعة العاشرة ، لم تفعل الأرملة فواكوبا
شيئاً سوى ان تفتح الباب وتجيب السائلين

— سافر . . . سافر . . . سافر نهائياً . . . لن يعود .

ازدحمت أمام شقة فولكوبا العربات من كل نوع : أصحاب
الحانات ، الموسيقيون ، نساء شتى ، والكل يسأل عن كفائشي كفائشا
نتبرأذه .

وبعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ عاد ميزلسون من بروجومي ،
وفي الوقت ذاته ، جاء هارتينوف من بوتي وسوروكين من
شياتورا . كان الثلاثة قد تعبوا من البحث عن كفائشي في كل زوايا
كوتايسي ، والتقوا أخيراً في منزل هورتصوف . وباله من منظر . . .
تخلق الجميع حول البيانو ، وكل يعتبره ملكه . كاد النقاش والصراخ ان
يتحول إلى شجار بين الرجال الأربعة . أخيراً سلموا بالأمر الواقع
وجلس يحدث كل منهم رفيقه بحكايته من البداية إلى النهاية . وحده
ميزلسون بدا هادئاً مطمئناً . انتهت القضية بأن أشتري هورتصوف
البيانو مرة ثانية من صاحبه الأصلي ميزلسون . عاد هارتينوف إلى
بوتي وسوروكين إلى شياتورا صفر اليدين يلعبان تلك الساعة التي
تعرفا فيها على ذلك « الأمير » .

أقتنع الجميع بعدم جدوى البحث عن كفاتشي في هذه الظروف
حيث البلاد سائبة بلا راع . من العبث ملاحقة كفاتشي التائه في أرجاء
روسيا وانفاق المال سدى على المحامين .

كيف . أشتروا البيت

في ذلك الحين تلقت الأرملة فولكوف من المدعو خوخوشيشيا
كتاباً عن طريق المحكمة . ما أن قرأته حتى أصفر وجهها وجحظت
عينها وهوت على الأرض فاقدة الوعي . ولحسن الحظ طرق بابها
في ذلك الوقت بالذات ، جارها (لادي شيكنجيلادزه) الذي أسعفها
وأعاد إليها وعيها : حركت رأسها في البداية ، أرخت ذراعها ،
حركت شفيتها وحاولت النطق . حاولت ، بعد قليل ، قراءة الكتاب مرة
ثانية ، فأغمي عليها من جديد . شخص مجهول بالنسبة لها اسمه خوخو
كتب لها مايلي :

« في السابع من تموز من هذا العام اشترت منزلك الكائن في
مدينة كوتايسي ، شارع تفليس وذلك من خلال كفاتشي كفاتشا
نتيرادزه الذي يحمل وكالة عامة من قبلك موقعة حسب الأصول
لدى الكاتب بالعدل في مدينة كوتايسي السيد (أنجابريدزه) . عدا
ذلك كنت قد اقترضت ، في التاريخ المذكور اعلاه ، مبلغ أربعة آلاف
روبل عدأً ونقداً بموجب كميالة موقعة من قبلك انتهت مدتها في
الأول من شهر أيلول من العام الجاري . أرجو إخلاء المنزل خلال
سبعة أيام من تاريخه . ذلك أني سأنتقل للسكن فيه وكذلك دفع الدين

المستحق لي بدمتك مع الفوائد المترتبة على المبلغ طبةً الكميالة خلال
ثلاثة أيام .

التوقيع

خوخو شيشيا

سماقريديا - طريق خوني -
منزل بوبي كفاتشا نثيرادزه

في مساء اليوم ذاته لجأت الأرملة فولكوكا إلى المحامي المشهور
(تفيشيا) . نصحتها بذلك المستأجر الساكن عندها شيكنجيلادزه .
وماذا كان يمكن لعجوز في العقد السادس من العمر ان تعرف عن
القوانين والمحامين . لقد سمعت أن ثمة في مكان ما قضاة صارمين
وشامين عن الضعفاء المساكين . من أين كان لهذه العجوز ان تعلم أنه
في ذلك اليوم اجتمع على طعام الغداء في حانة شوليا على شارع بلاخفان
كل من سليبيسترو كفاتشا نثيرادزه ، خوخو شيشيا ، تفيشيا ولادي
شيكنجيلادزه الذي قادها حتى باب منزل المحامي المشهور تفيشيا ؟
ومن أين كان لها أن تعرف أن تفيشيا ذاته ذو محامي سليبيسترو
كفاتشا نثيرادزه وخوخو شيشيا . وأن الرسالة التي غيبتها عن الوعي
صباح هذا اليوم انما كتبها وأرسلها لها تفيشيا ذاته .

استقبل المحامي تفيشيا الأرملة فولكوكا بتواضع جم مع ابتسامة
ولطف وقد أسرتها تماماً معاملة المهذبة ، لباقة ضيافته السخية . عند ما
قصت له الحكاية ، من بدايتها إلى نهايتها ، فكر قليلاً مصطنعاً الجدل ثم
قال بهدوء :

.. أشفق عليك كما لو كنت أُمي ، لكن الشفقة وحدها لا تحل

الموضوع هنا . فأنت من جهة قدمت مساعدة مالية للفوضويين ، وإذا وصل هذا الأمر إلى الجهات المسؤولة إما أن تشنقي أو ترسلي إلى ماهو أبعد من سيبريا . لا تقلقي ! هدئي من روعك . . . ! أنا أعلم أنك لم تعطي المال بمحض اختيارك ، لكن مع ذلك حصل هذا الأمر وتلقوا منك مالاً ومساعدة . بالتالي أحمدني ربك أنك وجدتي ولم تقعي على محام يوصل مثل هذه القضايا إلى الجهات الرسمية . . . انصحك كأُم وكأنسانة طيبة، ألا تتكلمي شيئاً في أي مكان عن هذه الحكاية ، ان تعتبري ذلك سرّاً تأخذه معك إلى القبر ، وإلا قد يكون مصيرك المقصلة أو الأشغال الشاقة . من جهة أخرى انت اعطيت كفاتشي كفاتشا نثيرادزه وكالة رسمية عامة — أي اعطيته حق بيع البيت . من جهة ثالثة اعطيت كمبيالة بقيمة أربعة آلاف روبل ، ماذا تقولين ألف فقط ؟ ولا يوجد شهود ؟ أقلعي عن الحديث بهذا الموضوع . إذا رفعت دعوى بهذا الأمر تكونين كمن يجلب القط إلى خميرة ، السكوت هو أفضل الحلول بالنسبة لك .

أكثر المحامي من تخوفه للعجوز التي كاد أن يغمر عليها من جديد ونخم كلامه قائلاً :

— نصيحتي الأخيرة لك هي التالية : أنا أعرف جيداً المدعو شيشيا . قد استطيع اقناعه ان يترك لك غرفة أو ركناً من البيت مع ما يلزم من الأثاث . لك راتب تقاعدي صغير ويمكنك الحصول على دخل ما من خياطة أو خدمة أخرى، ولا تحتاج امرأة وحيدة لأكثر من ذلك . اذا أنصحك نصيحة الابن لأمه أن توافقني على ذلك وإلا قد تخرجين صفر اليدين من كل شيء . لا ترعني مني وفكري بالأمر

جيداً ثم تعالي إلي . . . وأكرر ماقلته لك في بداية الحديث ، إياك أن
تقصي هذه الحكاية لأحد ابداً وإلا . . . تصبحين على خير ! احلاماً
هنيئة ! . . .

وقاد الأرملة العجوز حتى باب المنزل .

في الشارع ألتقت العجوز فولكوفاً مصادفةً بلادي شيكنجيلادزه
الذي قادها إلى بيتها . وفي ذلك المساء واليوم التالي لم يتعد عن جارتها
المريضة التي جاءت بعد صلوات طويلة وتفكير عميق وبكاء إلى المجامي
تفيتشا ، وقالت له :

— أنا موافقة . لكن ساعدني كي يبقوا لي في البيت على كسرة
خبز وركن اعيش فيه .

فعل تفيتشا ذلك بيسر وسرعة .

بعد أسبوع باع سليسترو كفاتشا نثيرادزه « منزله » في سماريديا
على طريق خوني ، جمع أشياءه وانتقل للسكن في كوتايسي المدينة
الجميلة النظيفة في داره الخاصة التي امتلكها كما قال « بجهد وعرقه »
من أرملة عجوز اشفق عليها ، فاعطاها غرفة صغيرة تحت الدرج
وبعض الأثاث الضروري لها .

قالت زوجة خووخو شيشيا جدة كفاتشي كفاتشا نثيرادزه السيدة
نوتيو منذ الليلة الأولى التي قضتها في منزلها الخاص في شارع تفليس
مذكّرة أهل بيتها ماكانت قد قالت يوم ولادة حفيدها :

— تذكروا الكلمات التي قلتها لكم ليلة ولادة كفاتشيك .
عندما زينت الشمس رأسها بهالة نورانية كان علامة على أنه ينتظر

كفاتشي مستقبل باهر ، وفي اليوم نفسه عندما ضربت الصاعقة شجرة السرو وهدم الاغصان حانة جونديا قلت أيضاً ان قلوب أعداء كفاتشي ستطلق غيظاً ، وعندما عثر سليبيسترو على روبل فضي اشترت إلى أن كفاتشي سيصبح رجلاً ثرياً ، هذا ماقلته منذ تسعة عشر عاماً. ألم تتحقق نبوءتي ؟

تذكر الجميع توقعات نوتيو تلك ووافقوا على قولها .

أضافت بوبي والددة كفاتشي تقول :

— آه كم أحبك يا ولدي كفاتشيك ! جعلتني أسكن في كبري في كوتايسي .

— وفي بيت ملك لك أيضاً — أضاف خوخو جد كفاتشي ، ثم أستاذ نحو سليبيسترو قائلاً : وماذا تتمنى أيضاً ؟ لم يعد ينقصك سوى رتبة عسكرية. وهل سيكون في جورجيا مارشال أفضل منك .
— كل شيء بيد الله . . . أنه على كل شيء قدير — أضافت بوبي . في تلك الليلة رأى سليبيسترو احلاماً كثيرة ، حلم بأنه أحد ضباط البلاط القيصري تزين صدره الأوسمة والميداليات والنجوم وعلى كتفيه رتب ذهبية . . .

في الليلة نفسها اشترى ابنه كفاتشي كفاتشا نثيرادزه بطاقة سقر إلى باطوم ومنها إلى روسيا .

كيف بحث كفاتشي عن محظية

وصل كفاتشي إلى محطة سامتريديا في الرابعة صباحاً . سار خلفه سليبيسترو ، بوبي نوتيو وخوخو الذين انتقلوا للعيش في كوتايسي .

أدهش ظهور كفاتشي عمال المحطة ، فقد انتشرت اقاويل منذ عشر سنوات تفيد ان كفاتشي قد غادر للدراسة في مدرسة قازان الدينية .
بكت فتيات سامترديا ونحن :

— أوى ياالمسكين ! من الأثم ان يدفن شاب جميل كهذا !
كفاتشي في الدير ؟

أوى كم هي شقية أمه بوبي ، فستلحق به وتصبح راهبة ! ثمة شيء ما وراء كل ذلك ! حين باع سليبيسترو بيته في سامترديا تحولت الأقاويل إلى حقيقة أكيدة .

ألم أقل ان بوبي سترهب ؟ يقولون ان كفاتشي مسافر إلى كازاخستان للدراسة اللاهوت. يقولون ان بوبي لم تتحمل هذا وهي مسافرة لترهب في « بوديا » ، ولذا ستفترق عن زوجها . ولهذا أيضاً باع سليبيسترو بيته ويبدو أنه مسافر ليعمل مشرفاً على تسيير أمور النبلاء في كوتايسي .

هذه الأقاويل ، أو ماشابهها سرت في سامترديا حول أسرة سليبيسترو التي وصلت الآن إلى المحطة، حيث جلسوا يشربون الشاي مع الليمون والبيتي فور منتظرين القطار . قال سليبيسترو لثلاثة من معارفه :

— آه ، لقد تقولوا باطلاً . ابني كفاتشي مسافر فعلاً إلى قازان ، لكننا لم نقرر بعد اجراء مراسم دخوله الدير ، فما زال كفاتشي طري العود وحين يختم وينضج عندئذ نفكر بالأمر . . . أنا ؟ لقد مللت هذا المكان، سأرحل إلى كوتايسي نهائياً، يكفيني مائلته من احترام من قبلكم، والآن شرفوننا في كوتايسي . . . في البيت ؟ نعم ياعزيزي

المحترم . لقد اشتريت بيتاً صغيراً ، كلفني غالباً الماريشالية ؟ آه أنا
لأفكر بهذا يرجوني لكن . . .

اقتحم قطار تفليس المحطة بضجة وفحيح . تحرك الجميع باهتمام ،
نقلوا امتعة كفاتشي إلى العربة وبعدئذ صعدوا إلى القطار . داعبوا
كفاتشي ، قبلوه . بكوا وقدموا له مائة موعظة . أخيراً ضم سيلبيسترو
ولده وعزاه الوحيد إلى صدره :

— هكذا يابني ياكفاتشيكو هكذا نفرق . انت الآن أكثر مني
ثقافة وخبرة ومهارة ، لكن مع ذلك سأقول لك كلمتين . أنت مسافر ،
يابني إلى بلاد واسعة قد ترى خلال يومين ، وقد تهلك وتضيع . لذا
يجب أن تكون حذراً جداً من أي شخص تقابله في روسيا . هناك
هناك أيضاً المحتالون الفاسدون أكثر من الشرفاء . تواجد دائماً ضمن
مجموعات كبيرة من الناس . تجنب مخالطة الرفاق القلقين ومختلف
النصايين . ابتعد عن الخمرة والنساء والقمار وإلا سيمزحون معك
مزحة غير مرضية ، لاتنس اهلك وأكتب لنا عن كل شيء . حسناً
يابني ، انا اعتمد عليك . . . كن حذراً .

بكى الجميع مرة أخرى . أفلح القطار واختفى في الظلمة . اغنى
كفاتشي .

أفاق بالقرب من كوبوليت . وكان الصباح قد عمّ . من الجهة
اليمنى كان البحر الأسود يمتد بلا حدود يلعب أزرق صافياً كالمرآة .
كان القطار يعدو تارة على الشاطئ مباشرة ، وتارة أخرى يبتعد قليلاً
نحو اليسار ، وكان البحر يدمدم بصوت أجش يئن كحوت اسطوري
يفج ويضج ويمتد بجانب القطار . تارة من جانب وتارة أخرى من

الجاناب الآخر ، صفان من شجر السرخس الأخضر ، ومن الجهة اليسرى كانت تطير مستلقية على ظهرها الكتل الصخرية المغطاة بأشجار اللبلاب والجبال المكسوة بالغابات وبيوت الاصطياف الجميلة ومزارع البطيخ والحدايق ، كجنان عدن التي تضم نباتات غريبة لم يرها كفاتشي سابقاً .

كان أحد الطلاب القدامى يحدث اثنين من المسافرين :

— تلك الشجرة الضخمة المائلة للبياض تدعى « افكاليبتوس » يتجنبها البعوض كثيراً إذ لا يطيق رائحتها ، وهذه الشجيرات التي تنتهي بعناقيد من الزهر — وردي اللون تدعى « ديكاً » وباللغات الأوروبية « رودوندرون (١) » ، وتلك الشجرات العالية الكثيفة هي الخيزرات الصيني الياباني . انها مادة نافعة جداً ، منها يصنع الاثاث والبيوت الزينية وآلاف الحاجات الأخرى ، وهذه شجرة التنوب المنحلية . . وتلك صنوبرة ايطالية . . وهذه شجرة الشوح . . وهذه تدعى « يوتا » — شجرة جميلة زاهية ، أليس كذلك ؟ وهذه شجرة سرو طبعاً تعرفونها وتعرفون أيضاً هذه شجرة الدلب . هذه حورة . . وتلك أم العفزة السوداء ويدعونها « اصاليا » . . وهذه ييارات ليمون وبرتقال وهذه مزارع كبيرة للشاي . . وتلك هي « تسيخيسدزيري » القلعة التي ضحى من أجلها الروس والجورجيون بالأكداس من المقاتلين عام ١٨٧١ ، لكن الأتراك لم يتخلوا عنها . هي ذي تشاكفا حيث تقع أشهر حديقة للنبات وهي تحتل المركز الثاني في العالم . . المركز الأول ؟ تحتله حديقة ملبورن في استراليا .

(١) : رودوندرون : الدفلة .

وهاقد وصلنا إلى « ماخنجاوري » وهذه هي الطايبات (١) .
هناك في ذروة الجبال « طايبية أرغي » وبعد « طايبية حميدية » والقريبة
من هنا « طايبية ميغرلسكي » وعلى اليمين على الشاطئ - « طايبية
بارتسخان » .

اجتاز القطار « بارتسخان » مسرعاً صاخباً . دارت رأس كفاتشي
وهو يستمع إلى ذلك الطالب . اتضح ان ثمة آلاف الأشياء الموجودة
في وطنه بالقرب من سامتريديا وكوتايسي التي لم يرها كفاتشي
ولم يعرفها .

يجمع المسافرون حول نوافذ العربات ، يتأملون مناظر لا مثيل لها ،
يتلفتون يميناً وشمالاً ، مبدئين إعجابهم وإبتهاجهم بأصوات عالية .
وأعجب كفاتشي أيضاً بتلك الجنائن والبيوت الصيفية ، لكنه
لم يستطع أن يفهم أو يشعر تلك الفرحة الطاغية والبهجة الطفولية
التي أبدأها بعض المسافرين الذين سحرتهم الطبيعة والبحر اللامحدود
الهائج ، الهائل .

وفي الأعماق كان البحر يبدو جميلاً ، لكن كفاتشي كان يستشف
فيه الغدر والتقلب وينضح أمام عينيه بالخوف والرعب والارتياح .
اجتاز القطار « بارتسخان » مسرعاً ثم خفف جريه ودخل محطة
باطوم بهدوء .

(١) : مفردها طايبية : شكل من أشكال التحصينات الحربية كانت تحاط عادة
بخندق ومتراس ترابي . استخدمت منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن العشرين
الترجم . . .

غادر كفاتشي إلى رصيف المحطة ، تمشى قليلاً فالتقى عشرات من الطلبة الكوتايبيين ، وكان ثمة الكثير من أهالي تفليس . تعارفوا ، سأل كل منهم عن أحوال الآخر وقرروا التنزه ومشاهدة المدينة . أودعوا حاجاتهم في مستودع المحطة وانطلقوا إلى البلد . كانت السفينة ستغادر في منتصف الليل . رافق كفاتشي عدد من اصحابه . تجولوا في الشوارع والحديقة العامة ، تنزهوا طويلاً على شاطئ البحر ، شاهدوا طاية « بورونتايني » « ميوغيت » « عزيزية » . وأخيراً وصلوا المرفأ الذي كان يغص بالناس والسفن الشراعية والبخارية . كانت تجثم هناك أيضاً سفينة « بوشكين » الحميلة الطويلة الباسقة . كان المسافرون قد اعتلوا السفينة ينتزهون على سطحها . حملوا السفينة ، اطلقت دخانها وتهايات للانطلاق .

أبدى البعض دهشتهم لنظافة المدينة ولجمال الحديقة المنتزه ولتنوع النباتات واتساع البحر وضخامة البواخر والسفن . اما كفاتشي فظل هادئاً ، تطلع إلى كل شيء بلا اهتمام . كأنه لا يرى جديداً أو مجهولاً بالنسبة إليه .

قطع كفاتشي في المساء تذكرة من الدرجة الثانية وصعد إلى السفينة . كان مساء دافئاً . الشاطئ مضاء بخيط من المصابيح الكهربائية يتلألأ بالألوان الحمراء والخضراء والصفراء والبيضاء . كان البحر الأسود كالقطران ، يلمع عاكساً دفقة الأنوار تلك . كثيراً ما كانت الزوارق تمخر عباب المرفأ فترتفع بالروسية والبحورية أغان ولغط وضحك . وفجأة وصلت إلى الباخرة عشر مركبات مكشوفة ملأى بالطلبة . هجموا على تلك السفينة صارخين ، صاخين ، ضاحكين ، كما

لو كانوا سيستولون عليها عنوة . صعدوا وملؤوا سطح السفينة وكان ذلك السطح فناء بناياتهم ، ثم سرعان ما تجمعوا في مقدمة السفينة وعلا صوت المزمار وقرع الطبل ، وراحوا يصفقون بأيديهم ويرقصون .
« ليكوري » المجنونة وهم يصرخون :

— تاشي — توش ، تاشي — توش !

حاول القبطان تهدئتهم . لكنه رجع خائباً وهو يلطم شاكياً للمسافرين :

— متوحشون ، متوحشون حقيقيون ! أنا أعلم أنهم سيدمرون كل شيء إذا قلت لهم شيئاً . قبضاتهم جاهزة ، بل وربما بقروا لي بطي .
ابتسم كفاتشي وقال مؤكداً :

— أنتم على حق أيها السيد القبطان . متوحشون حقيقيون ، فأنا أعرف جيداً هذا الشعب .

التفت القبطان والمسافرون نحو كفاتشي :

— ألسبت جورجياً ؟

لم يكن كفاتشي متهيئاً للجواب ، لذا ارتبك قليلاً ثم قال متلهجلاً
— هم . . . نعم ، لكن . . . أبي جورجي وأمي ميغريلية (١)
وتربيت تربية « اميرتية » (٢) .

فهم القبطان وأحد موظفيه مقالة كفاتشي جيداً : فتحوا الصناديق ، شمروا عن سواعدهم ، نزعوا لباس الحشمة ، طرحوا خمار الوقار ومرغوا خلال ساعة رفاق كفاتشي وآباءهم وأمهاتهم في الوحل .
وكان كفاتشي يهز رأسه علامة الموافقة ويقول في كل دقيقة :

(١) : (٢) سلاتان من السلالات الجورجية — المترجم :

— أجل . . هي الحقيقة العارية . . كلهم سكيرون عريدون
أرهابيون مشيرون للرعب . . أجل أنتم تعرفونهم جيداً . نصف هؤلاء
الطلاب لم ينالوا الشهادة الثانوية وشهادة الإجازة لديهم، إما مزورة،
أو مشتراة بالأموال . . من يدري كم بينهم ممن اللصوص ،
و « الفونسات » (١) . وخاطفي الأولاد ! .

قص عليهم خمس قصص، بعضها صحيح والبعض الآخر ملفق،
ثم أضاف أخيراً :

— أنتم تعلمون دور الأسرة الكبير ودور التربية والعادات والإيمان
في تنشئة الطفل . وهؤلاء لأسر لهم ولا تربية ولا يؤمنون بالعادات
ولا بالله أو بالشیطان ! حين وجد المستمعون رجلاً قريباً إليهم فكراً
وعقيدة التصقوا به تبادلوا الحكايات وأطلقوا لألسنتهم العنان وكشفوا
عن دخیلتهم . أخيراً قال القبطان :

— أرجو المَعْدرة . . أرغب أن أتعرف بشكل أوثق بشاب ظريف
ذكي وشريف . اسم عائلي « سيدروف » :

— يشرفني أن أتعرف عليكم ! الأمير كفاتشي كفاتشانيرادزه .
وشد « ابن سيليبسترو » على أيدي الجميع بترفع أمير حقيقي .

دارت كلمة « مارشال » على لسان كفاتشي طويلاً ونظراً لأن
أحداً لن يتجرأ على سؤاله مباشرة عن وضعه الاجتماعي، تحيّن الفرصة
ودس المسألة في حديثه بشكل عرضي . :

(١) الفونس : يسمى بهذا الاسم الماشق الشاب الذي تبتغى المشيقة عليه - المترجم .

— لم يستطع أبي احتمال معاشرة هؤلاء الناس الفاسدين، فقد ترك
وظيفته عدة مرات — وهو مارشال نبيل — لكنهم اعادوه بما يشبه
القوة . وهو الآن يخدم مجاناً ، بل على العكس ينفق أمواله في هذه
الوظيفة . هذا أمر بسيط ! الجميع يطلبون منه مختلف الحيل والأكاذيب :
الاعفاء من الخدمة العسكرية الالزامية ، اعطاءهم وثائق مزورة وآلاف
أشكال النصب ، لكن أبي من أسرة مختلفة تماماً، وهو يفهم بشكل آخر
خدمة القيصر والوطن والنبلاء . اذكر عدة مواقف . .

وروى « الأمير » كفاتشي عدة أمثلة عن خدمة « المارشال »
الشريفة ، وعن صلابته الرومانية ومثاليته النادرة . أخيراً ارغم جرس
العشاء، وبشيء من الصعوبة ، كفاتشي على الصمت . توجه الجميع
إلى المطعم وفي طريقه كان يقذف بجمل متفرقة :

— شعب مريع ، مريع ! لو أعطوا الحرية يوماً واحداً سيأكلون
بعضهم بعضاً كالوحوش . . نحن نحيا في زمن مخيف . . ساعدنا
يارب ! . . احمنا اللهم !

جلس بجانب كفاتشي على مائدة العشاء شابة طويلة شقراء، طاووسة
من أوديسا وجلس من الجانب الآخر القبطان سيدوروف .

حين علم المسافرون ان كفاتشي قاصد اوديسا فرحوا كثيراً،
خاصة الشقراء والقبطان سيدوروف ، الذي قال أخيراً لكفاتشي :

— اذا شرفتمونا ، سأخصبكم بغرفة أو غرفتين من بيتي بكل رحابة
صدر . أنا لست بحاجة ماسة، لكن أستطيع ان أتخلى عن بعض الغرف
لشاب ذكي لامع مثلك من أسرة نبيلة . زمن عصيب خطر ، لارجل
بين اسرتي ، وإذا ما أقام رجل مثلك في بيتي سأكون مطمئناً .

أنّى لسيدروف أن يعلم أنه لو أدخل ذنباً إلى بيته لكان أفضل من أن يسمح لكفاتشي بذلك . لكن لو أن كل الناس عرف بعضهم بعضاً لما عاش على هذه الأرض مبئر مثل « كفاتشونا » .

توقف كفاتشي فوراً عن الحديث عن « أمارته » وعن مارشالية أبيه وعن انحطاط شعبه ، إذ أن العشرات من الطلاب كانوا يجلسون على موائد العشاء . وجه كل قواه وذكاءه وأدبه ولسانه العسلي وصوته السكري وعينه المعبرتين باتجاه الطاووسة الشقراء ، وبعد ساعة احتل القسم الأمامي من القلعة الأوديسية .

بعد انتهاء العشاء صعد مرة أخرى إلى السطح . زارت صفارة السفينة للمرة الثالثة . غادر المودعون وصعدوا وأخبر المسافرين والمتأخرون من البحارة ، رفعوا السلم والمرسة وفكروا الحبال الغليظة التي كانت تربط السفينة ، ودارت المروحة في مؤخرة السفينة ، تططب . ابتعدت السفينة عن الشاطئ بهدوء ومضت نحو وسط المرفأ ببطء، ثم التفت تدريجياً واتجهت بمقدمتها نحو عرض البحر .

بدأت الآلات تدق بشكل أقوى، ثم صفقت واحتدت « تنانين » نارية : لهت، تأوهت، ثم دمدت، اهتزت السفينة قليلاً ثم ابتلعها الظلمة بنهم واعتزاز، ثم شقت وهي تفحّ عباب البحر الأسود كالقطران العميق الذي كان يئن في الظلمة بصوت خافت ، تتناثر المياه منه فيضج ويضج ، توارى خيط الأنوار في مرفأ باطوم تدريجياً وأثار مصباحان معلقان على صاريتين سطح السفينة الذي استسلم للهدوء .

في الشرق كان يتألق مارس (المريخ) . كان كفاتشي يقف وحيداً

في مقدمة السفينة ينصت إلى ضجيج البحر واهتزاز السفينة ودقات الآلات . تطلع في المدى الأسود اللامحدود ، في السماء المزورة بنجوم متألثة لا تحصى ، وفكر . تخيل وأحس ان هذا العالم الواسع اللامحدود خلق من أجله وحده فقط ، وان هذا العالم ينتظره بفارغ الصبر، ينتظر « ابن سيلبيسترو » كفاتشي كفاتشانتيرادزه وان روسيا الرحبة الغامضة هيأت له كل شيء . ثمة نساء نجستهن اقدارهن يردن بل ينتظرن الأمير الألمي الأسطوري : قصور مرمرية، خدم – عبيد منكسو الرؤوس ، خمور معتقة، ليكيور عنبري ، طهاة فرنسيون ، خيول عربية وإنجليزية سيارات برّاقة ، جميلات كل البلدان من مختلف الألوان والأجساد ، عربية خاصة من خيرة العاج مزدانة بالأطلس ، يخت مكسو بالديباج والمخمل ، لقب اللوق سيد الماريشالين . سلطة القيصر و . . المال ، المال ، المال ! نقود ونقود لاحصر لها . اذ ان ابن سيلبيسترو يؤمن ايماناً قاطعاً عميقاً صلباً بأن النقود هي محور وركيزة هذا العالم وكل ما تبقى في هذا الوجود ، كل شيء بلا استثناء اثر بل وغبار من غبار المال . الروح والقلب والجسد عبيد للمال، كلها تباع وتشرى بالمال تماماً كالأثاث الداخلية التي اشتراها كفاتشي في ذلك اليوم من أسواق باطوم .

رأى كفاتشي من جهة الشرق نجمة الصباح فينوس ، (الزهرة) فحذق النظر فيها ، ثم ابتسم كل منهما للآخر .

« هي ذي نجمتي ، هي ذي مرافقتي وحاميتي ! » صرخ كفاتشي في نفسه ولوح بيده محيياً صديقه السماوية، التي غمرت لكفاتشي، شجعته أكدت له ، املتته بأن تحقق أحلامه وتنفذ كافة رغباته .

وهكذا سبغ كفاتشي كفاتشا نثيرادزه وطار متسلحاً بذلك الاعتقاد
الراسخ والأمل الوطيد إلى ممالكته الجديدة حيث كانت تنتظره عشيقه
أسطورية الجمال لامثيل لها وزوجة فائنة بريئة .

كيف التقى الأصدقاء وكسبوا المال وكيف وجدت الزوجة الأولى

في صباح اليوم التالي صعد كفاتشي مرة أخرى إلى السطح .
كانت السفينة راسية في « بوني » . نثره كفاتشي على ظهر السفينة ،
تطلع فيما حوله جيداً، ثم دخل مقصورته فجأة وأغلق الباب على نفسه
وجلس هكذا حيساً إلى أن أقلعت السفينة .

سبب هذا الخوف بسيط للغاية : لقد رأى كفاتشي على الرصيف
المهندس « هارتونوف » ، الذي ابتاع في كوتايبي بيانو « ميزلسون » .
بعد أن مر الخطر بسلام صعد مرة أخرى إلى ظهر السفينة . كان
انيق الملبس ووهب الجميع شعاعاً من ابتسامته العذبة .

شد القبطان على يده بشكل ودي، وانحنى له كبير الموظفين باحترام
وابتسمت النساء له بلطف ، وهن يعمن النظر في عينيه الواسعتين
المفتوحتين. محاولات استمالته . سأله القبطان :

— أرجو المعذرة — الأسم وأسم العائلة ؟

تنص شهادة ميلاد كفاتشي « انابوديسي سيلبستروفيتش » ، لكن
هذا الأسم المسيحي غير معروف إلا لقلّة من الناس . لشد ماتعذب
كفاتشي بسبب، هذا الاسم العادي وحتى اسم « كفاتشي » غير مستساغ
بالنسبة للأذن الروسية ، لذا اختلق لنفسه اسماً جديداً في لحظة :

— نابليون أبولونوفيتش .

سيطرت موجة من المرح على الجميع عند سماعهم للاسم . اعجبت به الجميلة الشقراء :

— لأستطيع ان أعلق بشيء على أسم نابليون ، لكن فيما يخص أبولون فأنت شبيه به كثيراً، ثم رنت وأدامت النظر إليه رازته تماماً كما لو أنها لم تذل الطعام منذ يومين ثم اندفعت نحو الشواء .

سدّد كفاتشي دينه فوراً :

— أنا أملك خنصر ابولون فقط ، أما أنت أفروديت من قمة رأسك إلى أخمص قدميك .

هكذا تبادلوا الحديث ، ومدح كل منهما الآخر .

ومنذ ذلك اليوم التصق هذا الأسم بكفاتشي بين الغرباء . ناداه البعض ، نابليون ، والبعض الآخر ابولون، أما النساء فكانوا يدعونه « ابولونتشيك » . امتلأ سطح السفينة تدريجياً بالمسافرين ، بالطلاب الذين صحوا من السكر . وهم الآن لا يصبجون كما في الأمس ولا ينطون، لكن مع ذلك لا ترى أحداً غيرهم على سطح السفينة ولا تسمع سوى أصواتهم . التفوا جماعات جماعات ، يمزحون ويسخرون ويضحكون للبحر والشمس .

خالط كفاتشي مجموعة . سلّم على أخرى وتعرف على من لا يعرفه :

— أرجو ان تتعرفو علي : انا كفاتشا نثيرازده .

..خامي ؟ (١) أنتم كفاتشا نثيرادزه ! واه لقد سمعت عنكم كثيراً في البلدة ! وأنا ادعى سيدراك افلاباربان . يشرفني التعرف بكم .
- انا غابو تشوبيشفيلي « - قال جاموس جلف بصوت أجش وكأنه يصرخ من قاع كفيفري (٢) .

- صباح خير (٣) أيها الأمير كفاتشا نثيرادزه - قال « جليل » الطويل الذي كان يقف جانباً وهو يكشر عن اسنانه كالحصان .

- جليل أنت هنا أيضاً ؟ إلى أين تسافر ؟

- إلى أوديسا ، أريد أن أبيع بعض الفواكه و « راحة لوكوم » (٤) لعلي أكسب بعض المال .

- أين كنت قبل الآن يا جليل ؟

- سافرت إلى تفليس ، أحضرت بعض السلع .

- كيف حالك يا كفاتشي ؟ - سأله تشيكنيجيلادزه الذي ركب السفينة من بلدة « بوتوي » : .

- هكذا ، لست سعيداً أو تعيساً .

- كيف لا ؟ ألا تتنقل شاباً قوياً ؟

- الحمد لله لست شاباً قوياً، كما يرغب أصدقائي،ولست سيئاً كما يمتنى أعدائي .

(١) ماذا ؟ (اللغة الأرمنية) .

(٢) كفيفري : اناء عميق لحفظ الخمر .

(٣) هكذا وردت في النص .

(٤) راحة الخلقوم .

كان ذلك الطالب - تيدوكورانا شيفلي - الذي كان يلقي في ضواحي باطوم ، بالمصطلحات اللاتينية والروسية والجورجية كالحصى ، كان يحوص حول كفاتشي ومجموعته حيث أمسك بخيط الحديث أيضاً : - وهذا الوقت استفدت منه جيداً . في العام ما قبل الماضي اجتزت مضيق « أرخوتسكي » وفي العام الماضي عبرت « كازبكسكي » وفي هذا العام « ماميسونسكي » بالإضافة إلى أنني سافرت إلى « سفانيتسي » وقد ازدادت مجموعتي غنى .

استمع كفاتشي إلى حديث الرحالة الشاب . اراد تغيير مجرى الحديث ، لكنه لم يتمكن من سحب خيط الحديث من ذلك الطالب .

لا يوجد في العالم أجمل من جبل « أوشبا » ، ارتفاعه ؟ أعلى قمة « ايلبروس » (١٨٤١٠) أقدام ، يليها قمة « لينج توا - ١٧٠٥٤ قدماً ، ثم ارارات ، بعدها « كاشتيان - تاو » ، ثم « كازبيك - الخامس » ، بعدها « غيسولا » ويأتي ترتيب قمة « أوشبا » السابعة ارتفاعها / ١٥٤٠٨ / أقدام بعد جبل أوشبا زينة جبال القفقاس وشجرتها الخضراء . كانت لدي خارطة ، قمت بتصحيحها في بعض الأماكن . وجدت نوعاً جديداً من أنواع شجرة التنوب ، لقد أسميتها باللاتينية « هابيس نورد مانيانا جيورجيك » . . . في الصيف المقبل هل سأقوم برحلة مخترقاً مضيق « غلوخورسكي » ؟ لا ، هذا ليس شأننا . أبحث منذ ثلاثة أعوام عن رفيق ، ولم أجد جورجياً واحداً . مرة أخرى رافقني الأجانب مما أدى إلى أن الألمان والانجليز وحتى الروس يعرفون جورجيا أكثر من الجورجيين إذ أن الغوريين لا يسافرون إلى مغربيا والمغربيين لا يزورون كاخيتيا والكاخيتيين لا يسافرون إلى ايميريتيا ، ثم لا أحد من

الجورجيين يرى برتساليو ، جافا خيتي ، مسخيتي ، أجارا - تشانتي .
وطنتا يعادل شبراً من الأرض وعليه حفنة من الناس، ومع هذا لانعرف
أنفسنا ونرغب ان نعرف كل العالم بل ونغيره .

سُم كفاتشي من الاستماع إلى هذه « الموسوعة الحية » ، لم تلمس
كلماته وأفكاره أعماق كفاتشي ولم تدخل مخه ، لذا أنتقل إلى مجموعة
أخرى . كانت تتألف من خمسة شباب ، كالديوك كل منهم ممسك
بالآخر وبضربه بشكل قارص ، لاذع كحبات البرد :

— الاتحاد . . . الاستقلال الذاتي . . . إقامة الاشتراكية . . . بناء
القومية . . . استلام السلطة الشعبية . . . وحدانية الكون . . . المادية . . .
المثالية . . .

وقف الآخرون جانباً . بعضهم كان يستمع ، والبعض الآخر
يتحدثون . كان بيسو شيكيا هناك أيضاً . فقد صعد إلى السفينة في
« بوتّي » .

سرعان ماغادر كفاتشي تلك المجموعة، وانتقل إلى مجموعة ثالثة
حيث أجمع طلبة مرحون ممثلون غطى ضحكهم المنطلق وقهقهتهم
الغليظة وتهورهم ومزاحهم على كل شيء . عرف كفاتشي فوراً
المجرى المناسب له ، وجد اقرباءه ورفاقه، فاندمج معهم في الحال .
استلم الحديث وإداره . شيء واحد فقط لم يعجب كفاتشي، شيء
واحد أخجل طبيعته الحساسة ذات التربية الجيدة : طريقة مزاح
افلابريان ولفظه الفج .

فتح سيدراك افلا بريان بئر معرفته وإطلاعه الواسع في مجال التاريخ

والملاحم وتعرض للعلاقة بين الرجل والمرأة وتحدث عن « كينتو (*) » وعن النشالين والأوغاد .

حين وصلوا إلى سوخومي سمع كفانشي من جديد معطيات « كورنا شفيلي » الموثقة عن تاريخ « ابخازيا » و « جورجيا » و « بتسوندا » وعن « حديقة سينوب » وسوخومي التي كانت تدعى سابقاً « ديوسكوريا » . كان يوماً مشمساً حاراً . السماء مشبعة بالبخار وكأنها تحترق والبحر غاف . من الجهة اليمنى ترتفع جبال القفقاس حتى تطاول السماء ، سفوحها الخضراء بالآدغال تنحدر نحو البحر ، تنظر فيه فترى نفسها . وكانت المياه غامقة مائلة للاخضرار . كانت أسراب من الخنزير الهندي تلاحق السفينة ، تقفز في الهواء ، تغوص ، ثم تشق بمناقيرها الماء من جديد مصطادة ببقايا الأطعمة المتناثرة حول السفينة .

وفوق السفينة كانت تحوم طيور بحرية بيضاء — طيور القادوس وبجع البحر .

في الصباح انضم إلى الطلاب مسافر كهل ، متوسط القامة ، ممثليء أسمر اللون .

همس بيسوشيكيا إلى كفانشي :

يريد هذا أن يلعب « بريفيرانس » فالعب أنت أيضاً ، ثم تهامسا من جديد .

هبطوا إلى المقصورة وطلبوا ورق اللعب . اشترك أربعة في اللعب ،

(*) كينتو : بائع الفواكه المتجول في جورجيا القديمة وكان يلبس ثياباً خاصة .

شربوا الحمرة قضموا الفواكه . كثيراً ماكان كفائشي ولادي
تشيكنجيلادزه يدسان كلمات باللغة الجورجية أثناء اللعب :

— ورقة بستونية كبيرة . . دينارية صغيرة . . . آس زباتي . . .
أنتظر ! لاتلحق بي . . ومن تحت الطاولة كانوا يشيرون لبعضهم .
تطلع كوليا جوريا في المقصورة قليلاً — سمع تلك الأحاديث،
فقال لرفاقه باللغة الجورجية أيضاً :

— لادي — عيب !

— هذا ليس شأنك . . وهل هذا هو وقت الخجل بعد أن وقع
حوت سلموني بين أيدينا . . أمض أبها الأخ، لاتتدخل فيما لايعنيك
أذهب وتزره أو أقرأ شعراً . .

انتهت اللعبة. احصوا الربح والخسارة . كان الخاسر الوحيد —
الغريب ، والبقية رابحين . حسب الأموال ، تبين انه خسر خمسين
روبلًا ، لكن الربح كان خمسمائة .

— عفوا — بكم كنا نلعب ؟

— بخمس الكوبيك — قال الغريب .

— بخمس كوبيكات وليس بخمس الكوبيك (١) — عقب
بيسو على كلام الغريب موضحاً .

(١) في لعبة البريفيرانس تتعلق الخسارة والربح بالمبلغ المتفق مسبقاً على اللعب
به ، فإذا اتفقوا على اللعب بخمس الكوبيك كانت الخسارة في كل « فيش » ٥/١ من
الكوبيك وإذا كان اللعب بخمسة كوبيكات كانت الخسارة في « الفيش » الواحد خمسة
كوبيكات أي ٢٥ ضعف الكوبيك ١٠٠/١ من الروبل .

ووافقهم الآخرون مؤكدين .

عندئذ تساوت الخسارة مع الربح . أخرج الغريب خمسمائة روبلاً وقال : تفضلوا ! قسموا الربح بين الثلاثة ونهضوا .

في ذلك الوقت دخل « كورانشفيلي » وسأل الغريب بالجورجية :
— أنت هنا ؟ انتهيتم ؟ من الخاسر ؟

— اجل انتهينا . لقد خسرت قليلاً ، هل سئمت بدوني ؟
— أجابه الغريب بلغة جورجية سليمة ، ثم نهض وتوجه بحديثه إلى الطلاب :

— أيها الشباب ، شكراً جزيلاً على التسلية و « تمضية » الوقت ،
أسمحوا لي أن أعرفكم بنفسي : أنا « باغرات دافيتاشفيلي » ، ثم صافحهم
وأضاف — أرجو ان تمنحوني الشرف وتفضلوا إلي على الغداء .
اليوم كل الطلبة ضيوفاً . إلى اللقاء أيها السادة — وخرج .

بقي الطلاب الثلاثة في المقصورة مذهولين ، أحمرؤا ، شحبوا
وتمتموا .

— ظننته يهودياً . . ظننته سورياً . . لقد فهم كل شيء ، لكنه
ظل صامتاً . . ودفع الخسارة . . ما العمل ؟ . . كيف سنتصرف ؟

اختلفوا فيما بينهم وتجادلوا . اتهم كل منهم الآخر ، ثم غرقوا
نحجلاً . أخيراً قصد الثلاثة « دافيتا شفيلي » وعرضوا عليه إعادة أموال
الربح وهم يغتمون :

— لقد حدث التباس . . نحن لم ندرك أنك جورجي . . لقد غشنا
قليلاً في اللعب . .

هدأهم دافيتا شفيلي مبتسماً ملاطفاً :

— لا تقلقوا لقد انتهت اللعبة بشكل أصولي . ضعوا تلك الأموال في جيوبكم فستلزمكم . لدي الكثير من الأموال، وهذه الكمية ليست سوى قطرة في بحر . اقتنوا كتباً . . لا ، لا لا تقلقوا . . لا تدعوني أزعل ، حان وقت الغداء ، تفضلوا .

كان المطعم مليئاً بالطلبة وانغام «الشبابة» وأصوات قرع الطبل وصرخات « تاشي توشي » و غناء « مرافا لجامير » ورنين الأواني والضحكات والقهقهات وحسن البيان والبلاغة .

أخيراً طلب كفاتشي الكلام . مدح صاحب المأدبة ، أثار مشاعر الجميع ، اشتعل واشعل الجميع حماسة .

— أيها السادة أيها الأصدقاء — قال أخيراً في نهاية كلمته — لقد غلبتنا الحياة ، غلبتنا جميعاً ، ظلمتنا ، أحرقتنا ، داستنا ، أرغمتنا على البكاء دماً ودموعاً ، لكنها لم تستطع أن تحيننا وتخضعنا . نحن الجورجيين تلازمنا الفروسية والمروءة منذ الولادة . في عروقنا تجري دماء أصيلة ، ارتشفنا مع حليب امهاتنا الإدراك وحسن الشرف والأخوة والرفاقية . لقد تحلل أبداننا ودماءنا فهم الواجب المقدس تجاه الصديق وأمام وطننا الرائع جورجيا . تنتزع منا الحياة الصعبة كل شيء ، تقتل أزهار الشباب ، تحجب عنا الشمس ، لكنها لا تستطيع ارغامنا على التحلي عن فروسيتنا ومروءتنا وشرفنا وطيبتنا أبداً ، أبداً ، أيها الأصدقاء والسادة والرفاق ! أرجو ان تشربوا جرعة واحدة نخب أفضل ممثل لهذا الشرف والمروءة والفروسية والشهادة صاحب دعوتنا اليوم

الكريم الجورجي المعطاء « باغرات دافيتا شيفلي » مرحى للوطني
الشهير مرحى الانسان الحقيقي ، مرحى لجورجيا التي انجبت مثل هذا
الانسان ! !

— هورا ! هورا ! — واهتزت القاعة بالصراخ .

الشبابة تعزف التوش (١) الكؤوس ترن، ونهض الجميع واختلطوا.
قبل البعض دافيتاشفيلي والبعض الآخر قبل كفاتشا نثيرادزه وآخرون
قبل بعضهم بعضاً وتلا التوش رقصة « ليزغينكا » ثم « دافلوري » (٢)
ثم اختلط الحابل بالنابل .

في ذلك المساء هبت العاصفة الشهيرة « نورد — أوست (٣) » في
منطقة البحر الأسود . كانت السفينة السكرى ثن وتصرف ، مفاصلها
تعلو وتهبط كالعود فوق الأمواج . اتسخت سفينة « بوشكين » النظيفة
وتدنست ببقايا الطعام والشراب ، ولم يتمكن عمالها من تنظيفها إلا
بصعوبة وعناء مكثرين من السباب والشتيمة .

في اليوم التالي اعزيت كل الحوادث السيئة إلى العاصفة واستطاعت
« بوشكين » في الصباح ان تقف منتصبية مترنجة بصعوبة وعناء، ثم دخلت
إلى نوفوروسيسك . حين وضعوا سلم السفينة صعد إليها « تشبيي
تشو بونثيرادزه » من كوتايسي . دهشوا وذهلوا وأحاطوا به :

— مرحباً ، تشبيي ! . . كيف حالك يانشيبي ؟ لماذا أنت هنا ؟

(١) التوش : أغنية قصيرة تعزف في الاحتفالات — المترجم .

(٢) دافلوري: رقصة شعبية جورجية .

(٣) نورد — أوست : رياح شمالية شرقية ، المترجم

— فلتحل عليهم اللعنة رأساً وجسداً . هذا ماأريد قوله ! الشيطان نفسه لايفهم هؤلاء المنعنين !

— مالحبر ياتشيبي ؟ كيف جئت إلى هنا ؟

— أكان عليّ أن أسافر إلى « غفانكيي » ؟ هل سمع أحد ان جامعة برلين تقع في باريس وجامعة باريس في لندن ؟ يبدو أن مثل هذا حدث في روسيا . جامعة موسكو في كييف، ومن المؤكد ان جامعة كييف تقع في وارسو ؟ !

— مالحبر ؟ احك ! . . ماذا حصل لك ؟

— فليعلم الله قلب من فكر بذلك . ايعقل ان تكون جامعة « نوفوروسيسك » في أوديسا ؟ لهذا أقول ، لعل جامعة موسكو تقع في « تشوختاوري » أو « باندري »، قلت لعل جامعة نوفوروسيسك تقع في مدينة نوفوروسيسك ، لذا سافرت إلى تلك المدينة (١) .

كانت قهقهة الطلاب الأربعين تصل إلى المدينة على الشاطئ الآخر .

— مالذي يضحكمكم أيها التعساء ؟ ماذا ألم أقل الحقيقة . ؟!

واهتزت السفينة من انفجار الضحكات من جديد .

— أضحكوا أضحكوا ! لقد اضحيت فارغ الجيب . ماذا يهمكم أنتم ! كيف حالكم ياكفاتشي ؟ لقد وضعت أملي بك، وإلا لكنت قدفت بنفسي في البحر . . وهل سأسكن في الفندق ؟ أنفق النقود من أجل

(١) كانت اوكرانيا الحالية تدعى سابقاً « رومانوفي نوفوروسيا » وكانت تدعى جامعة أوديسا « نوفوروسيسك » .

ذلك ؟ ذهبت إلى مدير الثانوية. لقد أخجلني . لكن ليس وقت الحجل . قلت له : أريد نقوداً فأعطاني عشرين روبلاً . ماذا أفعل لقد تركت له عنواني . . ماذا ؟ فليتظر ، جدتي سترسل له المبلغ . . لماذا تضحكون أيها التعماء ؟ حتى لو شققتُموني لن تجدوا معي روبلين . وفيما لوتوفرت النقود، فأنا لم أفقد عقلي كي أردّها إليه . من يدري ، ماذا سيحصل بعدئذ !

وكان كورنا شفيلي يثقف إحدى المجموعات :

— هي ذي « توأبسي » كانت تدعى سابقاً « نيكوبسي » . هنا كانت حدود جورجيا .

قال المؤرخ : « من نيكوبسي حتى داروياندا » . . وهنا « غيلينجيك » اقطاعية آل تولستوي . . وهذه هي معامل الأسمنت . . وهذه ممتلكات « ابراودورسو » لديهم نبيذ رائع وشمبانيا .

في تلك الليلة تابع كفاثشي مغازلة الشقراء الأوديسية . أسمها وأسم عائلتها ؟ ريفيكا ايساكوفنا ايدلسون . من أي بلدة سافرت ؟ من تفليس . من هي ؟ ترددت ريفيكا في البداية، ثم تكلمت كرمي لعيني كفاثشي الساحرتين الجديرتين بكل ثقة وكرمي لسانه المعسول ، الذي يحرك القلب المتحجر، فيثيره ويرغمه على الكلام . « ريفيكا » زوج كهل ، تاجر غني من تجار اوديسا يشبه رجال « الجندرما » به وبأنه قدم للثوار أموالاً ضخمة . سافر ايدلسون إلى تفليس، لكن رجال الجندرما علمت به واعتقلته . لهذا السبب كانت ريفيكا في تفليس . وهم الآن ينقلون زوجها عن طريق التسلسل، أما هي فعادت بطريق البحر . . لا ، لا تحتاج ريفيكا للمال ، فلديها في أوديسا ثلاثة بيوت

لكن . . . ريفيكا وحيدة لانتجربة لديها . إنها تبحث عن مرشد ،
 مساعد تجد فيه عزاء و صديقاً . . فلتكف ريفيكا عن البكاء ! كيف
 لا تبكي امرأة وحيدة تعباً بلا سلوى ؟ ! لاضرورة للبكاء ، أليس كفاتشي
 هنا ، الفارس الذي لا يخاف ولا يعتب ؟ سيساعد المسكينة ، سيكون لها
 صديقاً سبيل بها إلى نهاية تلك القضية ، سيكرس نفسه لها وسعيد
 إلى المرأة المنكوبة زوجها الحبيب . لاداعي للبكاء ريفيكا ! لاتدعي
 الحزن يعكر عينيك اللامعتين كنجمتين ، ولا . . . والا سيبيكي
 كفاتشي . . فقد تلاشت قوى كفاتشي أيضاً . . واغرورقت عيناه
 بالدموع . . . يبكي كفاتشي أيضاً . . يمسك المرأة الباكية من خصرها
 يقبل يديها الناعمتين معزياً .

وفعللاً قدم لها العزاء بمروءة : احتل في البداية القسم الثاني من
 القلعة ، ثم هد بهجوم صاعق البرج الأخير ، ثم انصاعت القلعة الباسلة
 الشقراء له بكليةتها .

— اهنتك أيها الآغا — قال جليل مبتسماً لكفاتشي — ينذر أن
 يحصل الرجل على مثل هذه المرأة .

— وما أدراك أيها التتري ؟ — سأله كفاتشي متعجباً .

— يرى جليل ما يحدث في قاع البحر — اجابه جليل مبتسماً .

— جليل ، كم تدفع لقاء مثل هذه المرأة ؟

— عشر سنوات من حياتي ! .

* * *

القسم الثاني

كيف تشكلت مجموعة الأصدقاء

وكيف انتقل إلهم بيت عشيقته الجديدة

في أوديسا استقر كفاتشي في بيت القبطان سيدوروف . خصصوا له غرفة واسعة نظيفة مرتبة . كان سيدوروف يحيا في البحر غالباً ، يمضي حياته في السفر . كانت سفينة (بوشكين) تعود مرة كل أسبوعين إلى أوديسا ، ثم تنطلق مرة أخرى بعد ثلاثة أيام إلى باطوم . كانت لدى سيدوروف ثلاث بنات ناضجات جاهزات للطيران ، وقد اقتصر اهتمام زوجته الكهلة على الاهتمام بالأسرة وتزويج بناتها . استقبل كفاتشي في تلك الأسرة كحارس أمين لها وكأكبر فرد فيها .

كانت « فيرا » صغرى بنات سيدوروف ، معتدلة القامة ممتلئة زرقاء العينين ، مريحة تتنقل بخفة دائمة وتقوم بعمل ما وتضحك بلا سبب . كانت تذهب في الصباح للدراسة ، ثم تساعد أمها ، وفي المساء تذهب للتنزه مع الطلاب .

كانت فيرا مقتنعة فعلاً ان كفاتشي أكبر أفراد الأسرة ، وخلال

ثلاثة أيام ازدادت منه اقتراباً ، ضحكت ومزحت معه ، حتى أنها أضحت لا تنجمل منه حين تراه غير مرتد ثيابه الخارجية ، أو حين يكون مستلقياً على السرير . كانت تحضر إليه الشاي أو القهوة، وتجلس بقربه، وهي ترف برموش عينيها الزرقاوين وتزفرق كعصفور غير مبال . وبين الیقظة والحلم دعك كفاتشي عينيه، ثم تناولت يدها وعبثا في أماكن « ممنوعة » . اوقفت فيرا يدي كفاتشي وشتت الشيطان القفقاسي، بل عذبت هي بدورها ، كفاتشي واضته. وأخيراً استطاعت أن تخرج من تلك الغرفة بصعوبة محمرة الوجه منقوشة .

كان كفاتشي قد قرأ منذ زمن دراسة العلوم الحقوقية . فهذا الاختصاص - المخامة القوانين ، المالية تناسبه وتفق مع طبيعته وأهدافه . سجله بيسو في اليوم التالي ، في تلك الكلية وأمره بشراء كمية كبيرة من الكتب ، بما دفع تشيبو سيراذه للقول بحق :

« أنا لأستطيع أن أقفز فوق هذه الأعداد من الكتب فكيف يمكنني قراءتها ودراستها ؟ »

« أنتقل اصدقاء كفاتشي للحياة معه في نفس البيت . لا يمر يوم لا يلتقي فيه أبناء تفليس وكوتايسي . سرعان ما تشاموا وتآلفوا وربطت قوة خفية بين هؤلاء الستة برابط اشبه بالأسمت المسلح .

وكان جليل أيضاً يلور حول البيت حاملاً « تاباخي » (١) صارخاً :
— راحات لوكوم — راحات لوكوم .

(١) تاباخي : انا خشبي يدور توضع فيه القواكه والحلويات المراد يميها .

حين رأى كفاتشي وأصدقائه خلع قبعته ولبع بأسنانه الحصانية :
 — خبر خير ألسن (١) أيها الأمير ، كيف الحال ؟ تفضلوا أضيفكم
 « نوكا » (٢) .

ساعد أصدقاء كفاتشي « جليلاً » في ترويج بضاعته فأكلوا
 منها لدرجة أنهم لم يشتهوا الطعام حتى في اليوم التالي .

حين قصدوا « الدكان » الجورجي لتناول « الشواء » واحتساء
 الخمرة الكاخيتنية أجلسوا « جليلاً » معهم ، مازحوه وأرغموه على أن
 يغني « شيكاستا » و « يياتي » (٣) .

أقدم الجميع على الدراسة بحماسٍ وجلد في البداية . واطبوا
 على حضور المحاضرات بانتظام ، وفي البيت سعوا جاهدين لدراسة
 موادهم ، لكنهم تراخوا تدريجياً ، نفذت قواهم وفقدوا الرغبة في
 ذلك . أتضح لهم ان طريق العلم طويل جداً ويصعب اجتيازه . تباطأت
 خطاهم تدريجياً ، تخلفوا وانضموا إلى خشد أولئك الطلبة العاطلين
 المتطفلين ، الذين يمضون عشر سنوات في الجسري وراء الدبلوم تحت
 أسم « طلاب » . رموا بكتبهم في الزاوية وتفرغوا للشوارع والخوانيت
 والمطاعم الأوروبية والمقاهي ولعب الورق والسيرك والخمر والهزل
 والفراغ والبحث عن بنات الهوى الرخيصات . لكن كفاتشي نزل
 إلى ذلك الدرك ليس إلا ، كانت تطلعاته دائماً نحو الأدوار العليا
 وسعى ليطفو على السطح .

(١) هكذا وردت في النص الأصلي - المترجم

(٢) نوكا : نوع من السكاكر ، معروف عندنا - المترجم

(٣) شيكاستا - يياتي : اغان شعبية شرقية .

عند قيام رابطة المواطنين الجورجيين بنشط كفاتشي ورفاقه ، رفعوا أصواتهم ، قاموا بالدعاية اللازمة وتمكنوا من انتخاب بيسو شيكيا أميناً للصندوق . بعدئذ استطاع الرفاق أن يتنفسوا قليلاً . لكن كيف استطاعوا تأمين الأموال لهم ومن صندوق الرابطة الفارغ فهذا سر لا يعرفه سوى بيسو وكفاتشي وحدهما .

لقد خصصتهما العناية الإلهية بحاسة شم ككلب بوليسي ، وبموهبة الملاحظة والفهم والإدراك السريع . لم يتجول كفاتشي في الشارع دون أن يكتسب شيئاً جديداً ويقتبس منه في اليوم التالي . يلاحظ مثلاً رجلاً متأثراً أو متسكعاً ذا هندام عصري أو أرستقراطياً نظيفاً - نظيفاً فيتحول في اليوم التالي نسخة ماثلة له . حتى أنه اتقن ببراعة الإمساك بالسيجارة وأصابعه ممدودة قليلاً وإخراج الدخان من فمه وأنفه والتلاعب بالعصا ، ورفع قبعته وإحناء رأسه ، والإبتسامة مع إلف ساقٍ على ساق . صار ينادي البنادل في المقاهي والبارات بإشارة من إصبعه قائلاً عبر أنفه :

— أي . . . ي ، غارسون !

أضف إلى أنه جميل وجسيم ، مما كان له كثير الأثر في بروزه السريع خلال فترة وجيزة . وهكذا تلاءم بسهولة ويسر ودخل مجتمعاً لا يرى سوى أنفه ولا يقيم وزناً لأحد .

— « كيف أفرج عن اسحق وكيف طارت الشقيقة الأولى » —

لم يتعد كفاتشي عن ريفيكا . لازمها واعتنى بها . كانت المرأة حنرة جداً فأخفت حبها . لديها الكثير من الأقارب والمعارف في

أوديسا . لذا تحاشت القال والقليل . كانا يتلاقيان تارة في شقة كفاتشي وتارة أخرى في شقتها . كانت ريفيكا تسكن في شارع « لينجيرون » . الزوج مازال في السجن . كان يحرس المرأة المنكوبة مايقارب العشرين من الأقرباء نصفهم من ذويها ، والنصف الآخر أقرباء زوجها .

استخدم كفاتشي ، منذ اليوم الأول ، مفتاحاً لايدل له يمكنه ان يفتح كل أبواب القلعة باقفاها السبعة . كان يخصص في كل مرة يزورها ثلاثة روبلات لوصيفتها ومثلها للبواب ، فيعملان على تهدئة روع المرأة الخائفة ويعمي عيون حراسها عنها .

لقد كلف هذا الحب كفاتشي غالياً . عشاء ، باقة زهر ، حلويات وآلاف المصاريف الصغيرة الأخرى التي كانت تتوالى .

أخيراً ، وبعد شهرين ، نقلوا زوج ريفيكا « اسحق اندلسون » من تفليس إلى سجن أوديسا . ماأن علم كفاتشي بالأمر حتى تحرك وازداد نشاطاً . تولى القضية ، ثم قال لريفىكا ذات مرة :

— لقد تعرفت على رجل الجندرم « بافلوف » . اتضح أنه من معارفي القدامى . لقد خدم سابقاً في كوتايسي ، وهو المسؤول الآن عن قضية زوجك .

سألته . يبدو أن المسألة غاية في الصعوبة ، لكنها لاتدعو لليأس .

ومع ذلك فرحت ريفيكا كثيراً . لقد أعطتها معرفة كفاتشي بـ « بافلوف » أملاً في وقت كان الخطر يحيق بزوجها . وهذا ماتعرفه سابقاً . منذ ذلك اليوم بدأ كفاتشي لعبة فنية حلوة . لقد تعرف فعلاً بـ « بافلوف » عن طريق رئيس مركز الشرطة في أوديسا « دفالشفيلي » ثم دعاه مرة — مرتين وقال له عرضاً ، أثناء المنادمة :

- حقاً كيف تسير قضية ايدلسون ؟ وبماذا تتهمونهم ؟
- بانتمائهم للحزب ومساعدته له .
- وماذا ينتظره ؟
- إذا ثبت الأمر — السجن مع الأشغال الشاقة ، وإذا لم يثبت نفي بسيط من البلد .
- حسناً ، أوتظن أنهم سيثبتون التهمة عليه ؟
- لا أظن .
- عير كفاتشي وجهة الحديث :
- ألا تنوون السفر إلى أوروبا ؟
- هذا حلمي ، لكن أني لي المال للرحلة ؟
- ماهذه القضية ؟ ألا يكفيك ألف روبل ؟
- بألف روبل أستطيع أن أزور نصف البلدان الأوروبية ، بل وأشرب الخمر كما يجب .
- إذا ، وكتعبير عن صداقتنا ، تقبلوا مني ألف روبل .
- لم يدهش بافلوف ولم يستخف . لقد خمن في الحال مصدر هذه الأموال . شكره كفاتشي باحترام وشد على يده مصافحاً . بعد فترة وجيزة ذكر كفاتشي ايدلسون مرة أخرى :
- لي عندك رجاء بسيط . أنا واثق من أنكم ستحكمون على ايدلسون بالنفي خارج البلدة . لذا أرجوكم ان تؤمنوا له موافقة على السفر خارج الحدود .

— هذا أمر بسيط . أعدكم بأن أنهي القضية خلال ثلاثة أيام .
— لا . لا تفرجوا عنه الآن . عندما يحين الوقت سأخبركم بنفسى .
— رجاء آخر — قال كفاتشي بعد ساعة وعندما ارتويا حمراً —
لا تقولوا لأحد ان ايدلسون يمكن أن يفرج عنه ببساطة . بالعكس
هددوه بالأشغال الشاقة و . . وأشار كفاتشي باصبعيه على رقبته
وهو يعني بذلك الشنق ثم أضاف — هذا ضروري بالنسبة لي وسأرد
إكم الجميل . ضحك بافلوف :

— أفهم ، أفهم جيداً . هذا أيضاً أمر سهل . فليكن كذلك .
سأفزع زوجته الحسنة الشقراء بحيث لن تجرؤ على الاقتراب مني
أبداً والبقية أنت تعرفها .

في اليوم التالي أجاب كفاتشي ريفيكا :

— مليكيتي ! يصعب علي أن أقول لك . قلبك لا يتحمل وأنا أخاف .
— قل لا تخف .

— إذا لا تخشين ! ؟ اتعاهدينني ؟ لكنني أقول لك سلفاً أنه ثمة
إمكانية لتلافي الخطر لكن . . آه ، يا إلهي ! لماذا ألفت الأقدار على
كاهلي مثل هذا الأمر الخطير ؟

حسناً . . حسناً سأقول القضية . لدى بافلوف وثيقة تثبت التهمة
على زوجك . . كما قلت . نعم تماماً كما قلت . . هذه الورقة بالذات
وقعت بين يديه . . قبل أن يضمها إلى الإضبارة . . يقول سأنتظر
قليلاً . . أنا أيضاً — يقول بافلوف — أريد أن أسافر مع أيدلسون
إلى أوروبا ، والبقية تعرفينها . ماذا ؟ كنت اليوم عند بافلوف ؟ أخافك ؟

كم تحتاجين! آه يا إلهي وأي شأن لي في هذه الوساطة؟، ثم أنا، في نهاية الأمر غير مستعجل على خروج أيدلسون من السجن نظراً لأن . . .
 خمتي السبب! حسناً يا حبيبتي كفى، لا تقلقي . . لا تبكي . . وإلا سأبكي معك . . سأقول لك . . أنه يطلب الكثير خمسة آلاف . . إذا أثبت موافقة؟ اعطني من فضلك ورقة بخط زوجك . أريد أن أقارنها بالنسخة الموجودة لدى بافلوف .؟ هذه رسالته الغرامية أليس كذلك؟
 ها - ها! سري كم يحبك هذا العجوز . . خمسة آلاف مبلغ كبير كبير جداً، لكن ماذا أفعل طالما وافقت ماذا سأقول؟ . . حسناً إلى الغد يا عزيزتي!

وضع كفاتشي رسالة اسحق أيدلسون في جيبه ومضى .
 في اليوم التالي عقد اجتماع لدى ريفيكا ضم اقرباءها . كان كفاتشي أثناء ذلك يتفحص رسالة أيدلسون بتمعن محاولاً دراسة خطه .
 تناول كفاتشي وبافلوف ليلة ذلك اليوم طعام العشاء معاً . اتفقا في قاعة المطعم الفخم على كل شيء :
 - حسناً هذه مسألة بسيطة. دعها تأتي إلي غداً - قال بافلوف -
 وسأقول لها . . .

في اليوم التالي دار الحديث بين ريفيكا وكفاتشي :
 - اتضح ان بافلوف هذا جنتلمان كبير - قالت ريفيكا - لقد استقبلني بحفاوة بالغة . قال : إما المشنقة أو باريس . سيتضح كل شيء بعد أسبوع . مصيره مرتبط بأحدى الوثائق . لقد ذكرني بك نابليون ابولونوفيتش صديقي المقرب . أنه أمين وحذر .

— لقد قلتُ لك يا حبيبي الرائعة ان القضية منتهية ! والآن قولي لي من كتب تلك الوريقة ؟ عرفت ، نعم ؟ أنا استغرب كيف يستطيع اسحق المجرب أن يقترف حماقة كهذه ؟ حسناً غداً ، صباحاً سأحضر لك تلك الورقة . . سأنتظرك في بيتي غداً في العاشرة . . سندفع نصف المبلغ فيطلقون سراح اسحق ، والباقي . .

في اليوم التالي تلقى كفاتشي نصف المبلغ واحرق تلك الوثيقة أمام عيني ريفيكا . بعد أسبوع عادت ريفيكا واسحق ايداسون — الذي أعطي مهلة عشرة أيام — إلى المدينة . طلبا جوازات سفر وهما للرحيل ، وقد أغلقا فميهما حتى أمام أقرب الأقرباء ، محافظين على السر ، مرتجفين من الخوف .

وفي نفس الوقت أضاف كفاتشي إلى رصيده في مصرف « آزوف » بضعة آلاف من الروبلات . أمضى كفاتشي وريفيكا ذلك اليوم الأخير معاً . لا يمكن وصف ذلك اليوم الأسود والنازي في آن واحد ، يوم الفراق والهجران، يوم انقطاع خيط الحب ، فراق قلبين ملتهبين ، وجسدين ملتحمين وروحين متحدتين ! انهمرت بركة من الدموع وبدأت الصرخات والنشيج وآلام الجسدين العنيفين والعرض تحت تأثير اللذة والكره . كان لقاء مشبعاً بالمرارة والشجن والعزاء والوعود ، بالحنون والعهود وبالحب الأبدي الدائم الذي لا ينسى .

في تلك الليلة قصد كفاتشي المحطة لوداع ريفيكا واسحق مع أنه كما قال لـ « ريفيكا » صباحاً — يخاف كثيراً أن يُظهر للآخرين حزنه وألم روحه بلا شعور منه .

التقى كفاتشي ورجل الجندرم « بافلوف » على رصيف المحطة :

— انتم أيضاً مسافرون خارج البلاد ؟ سأله كفاتشي .

— أجل أنا مسافر إلى باريس .

« من أموال ايداسون — فكر كفاتشي ومشى أثر بافلوف .

كان اسحق وريفيكا قد استقرا في المقصورة وقدم بافلوف ، مصادفة ، بطاقته في نفس المقصورة . خرج الاثنان وتمهلا في الدخول .

— لا بأس ! — تدخل كفاتشي — شاء الله أن يجمع بين المحقق والسجين . لن تتخاصما، إذ أن معكما وسيطة حسنة مسالمة ، وقبل يد ريفيكا وحوّل الثلاثة غضبهم وخرجهم إلى مزاح . بعد فترة وجيزة نادى اسحق كفاتشي إلى المشى وقال له :

— لن أنسى طيبتك ماحيت . . . لا أستطيع ان أقدم الكثير . . . اكن . . . لا ، لا ، يجب ان تقبلوها لا بد من قبولها !

دس في يده رزمة ودخل مسرعاً المقصورة . وفي تلك الدقيقة خرجت ريفيكا، أخذت يده بيدها اليسرى ووضعت في اصبعه الوسطى خاتماً مرصعاً بالألماس .

-- ريفيكا . . . يا حبيبي الخالدة . . . يا أغلى الأصدقاء !.

مسحت ريفيكا دموعها، التي أنحدت من شدة تأثرها، وتمتمت قائلة :

— فليبق معك للذكرى، لاتنس حبيبتك ريفيكا ... الصديقة الصلوة . وداعاً ! التفنا فيما حولهما، استغلا الوقت ، قبل أحدهما الآخر بسرعة وحرارة القبلة الأخيرة .

رن الجرس للمرة الثالثة ، غادر كفاتشي واقرباء المسافرين
العربة .

انطلق القطار . لوّح كفاتشي وريفيكا أحدهما للآخر بالمناديل
حتى غاب القطار خلف قطار آخر .

« مدام ليابوش »

في تلك الليلة ، عندما حمل القطار حبيبة كفاتشي « ريفيكا »
اصطحب كفاتشي رفاقه إلى الملهى ليددّ حزنه .

— كفى يا عزيزي— قال كفاتشي ببطء وكسل وبلثغة ارستقراطية —
هذا ضيق أفق لأكثر ولا أقل . ماهي أوديسا وأي حياة يمكن ان
تكون فيها ! لن نتعلم هنا شيئاً . سأسافر إلى موسكو أو بطرسبورغ .
لقد سئمت التسكع ، في هذه القرية القلدة لا تجد مكاناً تمرن فيه يدك . . .
أوديسا بالنسبة لي جلد ضيق عليّ . لقد ضاقت عليّ . . . سلم قصير ،
لا توجد أماكن كافية للتخليق وفتح الأجنحة . . . متى سأسافر ؟
بعد شهر أو أقل وانتم سافروا أيضاً . . . سأساعدكم ، لماذا لاأساعدكم؟
كوتايسي ؟ ها — ها ! كيف يمكننا تذكر كوتايسي ! مستنقع ،
مستنقع نتن . حتى لو أخذنا جورجيا ككل ، لايجادل يا عزيزي . آه ،
هذا غير صحيح ، في العالم مائة انسان لا يعرفون أسم جورجيا . أو حتى
مامعى جورجيا الكبرى ؟ إذا استلقيت للنوم ووضعت رأسك في باطوم
ستصل رجلاك إلى « كيزيكي » (١) وأن عطست في سوخوم يقولون
لك في سيغناخي (٢) : يرحمكم الله ! عندما يغني اليهودي دانيال في

(١) كيزيكي : منطقة في كاخيي .

(٢) سيغناخي : مدينة في كاخيي .

كوتايسي المدي « لايتادزه » أو « يريمو » يردّون عليه من « الكوزبيك »
ويغنون « ديداس ليفانا » كأغنية جوابية له . إذا أخرجت في « بورجومي »
علبة السجائر ستمتد عشرون يد من « بوتقي » يطلبون منك سيجارة .
إن وجدت منديلاً ستجري جورجيا كلها وراءك صارخة : « هذا
لي ، أعطني حصتي ! » .

آه لاتذكروني بذلك . غارسون ! زجاجة أخرى من الشمبانيا
« لوي رديرا » ، ماذا ؟ أنفضل ، الشارتريز ؟ وأنت ياسيريوجا « أنريد
شير » ؟ غارسون ! ياييسو آتنا الزجاجات الثلاث وأحضر أيضاً
سرطانات بحرية ، اناناساً وبرتقالاً وماندرين .

ومد كفاتشي كفاتشانثيرادزه لضيوفه علبة السجائر الذهبية
داعياً إياهم لتناول سجائر غليظة بحجم الاصبع . كانت علبة السجائر
موشاة بـ « طغرات » مختلفة ، وكان منقوشاً في وسطها : « إلى الأمير
نابليون ابولونوفيتش كفاتشانثيرادزه ، رمزاً لحب ريفيكا الأبدى » ،
كما رسم وكتب على السجائر بحروف من ذهب شعار الامارة
والحروف الأولى من اسم كفاتشي والكلمات التالية التي تلخص
سلوكه في الحياة :

« لي . . مرة أخرى لي . . لي وحدي فقط . . ملكي . . من أجلي . .
عني . . » .

— أي معنى تتضمنه هذه الكلمات ياكفاتشي ؟

-- فليفهما كل كما يريد . هاكم أيضاً .

وعرض كفاتشي لضيوفه الخاتم الثمين والساعة والعصا ذات المقيض

الذهبي ، كانت التحف الثلاث مزخرفة بالماس ونقشت عليها نٌفس تلك الشعارات .

— غارسون ! الشامبانيا ليست باردة كما يجب . فطاعة ! لا يقدمون في هذا المطعم شيئاً لائقاً. الاناناس أيضاً سيء ، قطعة صغيرة ...
بيسو ! تعال من فضلك واعط هذه الورقة من فئة العشرين روبلا للفرقة الموسيقية . فلتعزف لي الفالس المحبب إلى « ماريا تيريزا » .
لاحظ كفاتشي ، فجأة ملكة ذلك الموسم : مغنية الملهى الفاتنة الباريسية « مدام ليابوش » التي حضرت إلى المطعم للتو .
— سيدراك هالك « بطاقة دعوتي » . ادعُ تلك المرأة ! اسرع قبل ان يصطادها الآخرون .

قطع سيدراك طوق الرجال ؛

— يرجو الأمير نابليون ابولونوفيتش كفاتشا نثيرادزه ورفاقه ان تشرفهم بانضمامك إلى طاولتهم !
تفرق الرجال حاسدين ، فليتمتعين .
لاقى كفاتشي الفاتنة متمهلاً وقبّل يدها باحترام .

— شارمي دافوتر كونيسانس . . الأمير كفاتشانثيرادزه . .
سيل فوبلي ، مدام . . غارسون ! . . شيرمادام ، فولسني
فوشوازير ! (١) .

(١) شيء رائع التعرف بكم . . الأمير كفاتشانثيرادزه . . تفضلي سيدتي . .
أيها النادل ! سيدتي المزيّنة تريدين الاختيار — المترجم

كستر كفانشي وسيدراك ، دنسًا وشوًا اللغة الفرنسية الرقيقة
الرشيقة . سبح الأمير كفانشا نيتراذه بين أمواج السكر ، كليلًا
مغمضاً عينيه نصف اغماضة . لاحت ريفيكا المستكينة أمام عينيه ،
ابتسمت معاتبة ، لكن الشبح الضبابي والخيال المؤقت سرعان ما ذاب
واختفى . امتصته عينا المغنية الباريسية التي أحرقت وكوت ، ببطء
قلب كفانشي الخلابي .

سرعان ما انصاع كفانشي لهاتين العينين ، جلس ذنباً دامى البوز ،
وغاص في أمواج السكر ، وكحصان جامح اندفع نحو لظى الفسق
والشبق .

عند بزوغ الفجر ، وبعد أن قدمت مدام ليا بوش « نمرتها »
الثالثة دخل فرنسي جسيم القاعة واصطحب مدام ليا بوش التي ودعت
كفانشي قائلة :

— أدومان ، مون شا (١) .

دهش كفانشي :

— ماذا ؟ وهل سأتحلى عنك له ؟ أبداً !

— ايل لي مون ماري ، مون شا (٢) .

خرج كفانشي من المولد بلا حمص . لكن ذلك اليوم لم يستسلم
لفكرة ان هذا الانسان هو زوجها . ولم يستطع نسيان تلك المرأة .
عاد كفانشي إلى البيت خائباً واستلقى في فراشه . يقظته الخادمة

(١) إلى الند يا قطي !

(٢) هو زوجي يا قطي ! - المترجم

عند الغداء . كانت فيرا هي المعننية الوحيدة بشؤون المطبخ . فقد غادر الجميع إلى زيارة اقربائهم . استغل كفانشي الفرصة فوضع زجاجة من الشارتريز على مائدة الغداء التي كان يخبئها للأصدقاء .
اترعا الكأسين وتسليا . عبت فيرا الكأس الصغير ، ثم وضعته على المائدة وقالت :

— كفى لن أشرب بعد الآن وإلا سأثمل .

وعندما صب كفانشي كأساً آخر قالت له :

— هذا هو الكأس الأخير . كما لن اسمح لك بالشراب أكثر .

احتست فيرا كأساً آخر ، ومن جديد قالت :

— يكفي ، هذا هو الكأس الأخير . لن أشرب أكثر وإلا سكرت .

لكن «الأخير» انتهى مع انتهاء الزجاجة . ضجت الخمرة في دماء الفتاة . لمعت عيناها وبدأت تتململ وتغني وثقل لسانها وغدا حديثها لغواً .

— أنت صديقي نابليون . . وأبولون صديقي أيضاً .

— وأنت صديقتي « فينيرا » صغيرتي ! — أجابها كفانشي وجلس

بجانبيها وأحاط بيديه قامتها الممتلئة .

— أنت جميل ، لكنك رجل بري . . توقف ، كيف يمكن هكذا

بسرعة ! . . احبك لكنني أخاف .

— مم تخافين يافتاتي !

— لأدري : أخاف .

ووجدت الفتاة الخائفة في صدره ملجأً مريحاً لها وقلبيها .

— لماذا خفت بتلك الدرجة ؟ عبثاً تخافين مني ، لأعض أناولست قاطع طريق . . سنجلس هكذا على هذا الدريز ونبدأ .

جلسا وبدأ ! هو فعلاً لم يعض ، لكن جسد « فيرا » العريض وعظامها الدقيقة كانت تن وتتاوه وتتلوى بين يدي كفاتشي الحديديتين . ثم اختلطت النشوة بالخوف وقرعت رأس الفتاة الشابة وكالصاعقة شقتها حتى ساقها .

مضى مايقارب الاسبوعين . ذاب جسد وجيب كفاتشي في مطاردته لمدام ليابوش . أما الشهوة التي أجبته في كيانه فكان يشبعها عن طريق « فيرا » الصغيرة الشقراء . وذات مرة ، وبمبادرة من شيكيا ، اتفق الرفاق وجاؤوا إلى بيت كفاتشي . تناول « فيلسوف الجماعة » أربعة فونئات (١) من العنب ثم قال وهو يتلمظ :

— أنا أعرف عنادك يا صديقي كفاتشي ، لكن يجب ان نقف عند حد معين . إذا لم يحد الانسان من رغباته سيهلك عاجلاً أم آجلاً . استمع إلى نصائح رفاقك ، فهم لا يريدون لك سوى الخير .

وانبرى لمساعدة تشيكيينجلادزه تشيبي تشيبو نثيرادزه الذي أختار لنفسه مهمة الاستخبارات وأسمى نفسه « عين كفاتشي » . وكالعادة تحرك « تشيبي » وتحمس :

— كل شيء مدون لدي — قال بسرعة — خلال هذين الاسبوعين انفقت ٢٢٣ روبلاً في الملهى و ٨٨ روبلاً ثمن الزهور و ١٤٥ روبلاً

(١) يبادل الفونت الروسي ٤١٠ غرامات — المترجم

للنوادل و ١٢٤٢ روبلاً ثمن هدايا مختلفة . المجموع ٢.١٩٨ روبلاً
أيعقل تبذير مثل هذا المبلغ ؟

— أيعقل هذا ؟ استغرب البقية ، أيضاً .

— من أين عرفت ما أنفقته ؟ — سأله كفاتشي .

— لهذا أنا ادعى « عينك » كي أعرف كل شيء . لكن قل لي
ماذا تفعل ؟ أمن أجل هذه المرأة يجب أن تفقد عقلك ! من أجلها
بعثت تلك الأموال ؟ ! أوه ، ياماما آه لويلعلم سيلبيسترو !

— أيها الأمير ، ماهذا ؟ — استغرب افلاباريان . أليست رجلاً ؟
واه ومن لا يحب المرأة ؟ أنا أحب النساء والشباب — . . واه — واه
لماذا تضحك ؟ لم لأحب ؟ أولستنا جميعاً مسيحيين ؟ كيف يمكن أن
تنفق أكثر من روبل واحد على المرأة ؟ وإذا كانت المرأة غاية في الجمال
ثلاثة روبلات لا أكثر . أليس من الأفضل انفاق المال مع الأصدقاء . .
على الأقل تعلم الحكمة من تشخويشيفيلي . حين يفلس تماماً يخرج مساءً
إلى « ريشيلي » أو إلى شارع « ديريبا سوفسكايا » ويفرح عينيه . يسزن
زرافات . كل منهن أحسن من الأخرى ، وأنت الحق بهن كما يلاحق
الذئب الغنم وعندما تطيب نفسك استدعني . أغمض عينيك وأمش
خلف . إذا انفق أكثر من ثلاث روبلات . . لماذا تضحكون أيها
البطالون ، ألا أقول كلاماً معقولاً ؟

— أي . . ي . . ي ثب إلى رشذك يا كفاتشي ! على من تنفق
مثل تلك الأموال ! أهديت خاتماً ثمنه آلاف الروبلات . لمن أهديته ؟
والعربة الفخمة استأجرتها شهرياً ، لمن استأجرتها ؟ تدفع مائتي روبل
لقاء كل وجبة عشاء . عمن تدفع ؟ في سبيل من ومن أجل أي شيء

تسكع هناك ليلاً نهاراً ؟ ! من الأفضل ان تنفق هذه الأموال في سبيل
منفعتنا : ألسنا هنا ! ماذا ستقول لنا ؟ -- قال ذلك غابو بصراحة
وخشونة . كان صاحب فكرة الهجوم -- شيكيا -- يجلس مغطياً
عينيه وعاضاً لسانه .

عرق كفاتشي خجلاً واعترف بذنبه . أخيراً عاهد رفاقه ان
يترك ليابوش ، لكنه في نفس المساء أرسل لها طاقة من الزهر وبعض
الحلويات ، وفي منتصف الليل قصد الملهى مرة أخرى، وحتى الصباح
تحرق وذاب بنفس النار .

ارتطم المنجل بالحجر ، اصطدم الغطاء بالقدر ، طار الشرر
من المنجل وتلثم وبقي الحجر سليماً معافى . كان كفاتشي كفاتشانثيرادزه
ابن سيلبيسترو وكانت مسدام ليابوش بنت باريس المشبعة بحليب
« مونمارتر » (١) ويقف وراءها لص مدني عريق يدعونه « الفونس »
والبعض الآخر يسميه « القط » . أما هي فكانت تقدمه كزوج لها .

— مون ماري فيان . . مون ماري أيت ايسي . . ايلي لا . .

مون ماري سوفاش (٢) . —

كانت تقول ليابوش بصوت أبح وبشيء من الخوف والهلع .

وكان مسيو ليابوش يظهر ويختفي في الوقت المناسب ، يتسم

(١) مونمارتر : تل بباريس تعلوه كنيسة القلب المقدس يقع على الجانب الايمن

لنهر السين ويشتهر بحياة الليل في ملاهيه — المترجم

(٢) بالفرنسية : جاء زوجي . . . زوجي هنا . . انه هناك . . زوجي غاضب — المترجم

ويحملق بعينيه في الوقت المناسب أيضاً . ومن حين لآخر كان يصرف
بأسنانه .

نفذ صبر كفاتشي . احتاج وتوترت أعصابه . كان يمضي بصلابة
وعناد نحو الأمام باتجاه ما يريد منتظراً ان تثمر جمائله والنفقات التي
يبلرها .

أضحت مدام لياوش في الآونة الأخيرة « ليست في البيت » .
مرة ، ومرة أخرى تقوم بتقييد زوجها بالسلاسل .

أخيراً قطع ذلك البارون النقيب « غوغشتاوفن » الطريق على كفاتشي
ووقف حائطاً في وجهه .

ذات مساء وضع ذلك البارون — العملاق الذي يزن ثمانية بودات (١)
وذو الشاربين البالغ طولهما شبراً كاملاً — وضع يديه في خصره ،
وسّع عينيه اللتين تعدلان حجم الجوزة وسأله بتعالٍ ، وبصوت
كصفارة الإنذار :

— من تريدون ؟ مدام لياوش ؟ دعوتها أنا الليالة . . ماذا ؟
وغداً وبعد غد وبعد غد غد . . ماذا ؟ أجل إنها لي . . أقول هي لي
للأبد ! ماذا ؟ أنا لم أغضب بعد ، لكن اذا أغضبتي كان الله في عونك
وعون أعدائك . . . أقول أنا لست غاضباً . . ماذا فعلت ؟ إلى اللقاء !
أحلاماً سعيدة !

قال سيدراك في اليوم التالي :

— واه ، واه لوأن هذا البارون المحترم ظهر منذ شهر لكان .

(٣) بود : وحدة وزن روسية قديمة تماثل ١٦,٣٨ كغ — المترجم

كاهبة من السماء . جاء متأخراً ؟ هذا ما أقوله . لا بأس ستتعلم الآن
الحكمة ! أيها الأمير ، وبعد كل هذا لا تثق بسيدراك . يصفونك
بأنك ماهر ، ما ان تحرك يدك حتى تأتيك الأموال من بغداد ! اخ .. أ...خ !
الآننا ندعوك أميراً حسبت نفسك أميراً حقيقياً ؟ صدقت ؟ . . . استلف
لك مائة روبل ؟ ماذا ! هكذا سارت الأمور ؟ فرغت جييك ؟ أي . . . ،
حسناً سأمضي واستلف . . . معي ؟ لو كان مع سيدراك مائة روبل لاشرى
حانوتاً في سوق اللبوسات . . . حسناً ، حسناً سأاتي إليك مساءً ، أما الآن
فلنذهب أناكل لحماً مشوياً (شاشليك) ، ماذا قلت ؟

— فلنأكل — وافقه الجميع على الفور .

— إلى الشيطان — صرخ كفاتشي وكاد يحطم الطاولة — دكان
« أرتين » أفضل من ذاك الملهى اللعين ، كفى طبعاً !

— لقد أعجبني هذا . ليتك خزيت الشيطان قبل الآن . أطلب
من « أرتين » . ان لديه دجاجات حراجية تغدو « مدامتك » بجانبهن
صغراً .

حقيقة ان رائحة الصابون والفودكا تفوح منهن ، لكن لا بأس
ضع في أنفك قطعاً لمدة خمس دقائق . المهم ألا تلقى البارون !

بعد ساعة كان الخمسة يجلسون في القبو المظلم الرطب ويغنون
« مرافق الجامير » . كانت الحمرة الغانجينية المزوجة تنتصب إلى جانب
الحمرة الكاخيتينية . وعلى الخوان القدر تتناثر قطع من الجبن الجورجي
والسمك والفجل والأرغفة والخس . وكان اللحم (الشاشليك) ينش
على المنقل (١) ويملاً جو القبو بالدخان والرائحة .

(١) وردت في النص بنفس اللفظ ، انما جاء بحرف القاف جيماً مصرية ، المترجم

كان « أرتين » من « سيغناخي » يصفق للخدم ليؤمن الراحة في
الشراب لضيوفه . هو أيضاً كان يشرب ويطمئن سيدراك :

— طلبتم « ماروسا » و « كانتكا » أليس كذلك ؟ ستأتيان حالاً ،
فقد أرسلت الغلام في أثرهما منذ ساعة . امضوا وقتاً طيباً أيها الاعزاء ،
اشربوا ودعوني أشرب . . هيا ، جان ، كنيارجان ! جان !

— جليل ، هيا « بيّاتي » — قال كفاتشي .

سعل جليل ، نظّف صوته ثم شرع يغني :

« أتاميندي باشي ايوخ

تشايلاري غيتشيم تاشي ايوخ ،

سورتني سارديم يانيمدا نايداشيم ايوخ . . . » (١) .

لم يتمكن كفاتشي الحاقّد من كبح جماح نزواته ، فسبح ، وقد
أخذت الحمرة ورائحة صابون « ماروسا » بلبسه ، نحو شقة مدام
ليابوش . وصل إليها عند الفجر .

والتقى أمام غرفة الضيوف بنفس البارون :

— ماذا ؟ ماذا قلتم أتيتم إلى مدام ليابوش ؟ جيد جداً ! ماذا ؟
ماذا قلتم ؟ تفضلوا أنا اسمح لكم الآن . ماذا ؟ ماذا قلتم ؟ تفضلوا
ودّعوها ستسافر اليوم . ماذا قاتم ؟ وداعاً !
وتابع طريقه مترنحاً .

(١) تعني : ركبت الحصان وتنزهت عبر دياره الشامل إلى الرمي دونما رأس ، استلقت
بعد ذلك في فراشي دونما امرأة .

— مون شا — صرخت مدام ليا بوش المعذبة عندما فتحت الباب
لكفاتشي — انتظر لحظة .. انتظر هناك قليلاً . اليوم زوجي غائب .
اغلقت الباب وعادت إلى الغرفة . نظر كفاتشي من ثقب الباب
فرأى زوج ليا بوش الذي حمل وسادته تحت ابطه وخرج مسرعاً إلى
الغرفة التالية . فتحت مدام ليا بوش الباب من جديد ، ادخلت كفاتشي
وقالت مرة أخرى :

— ادخل مون شا ، أدخل ! أنت اليوم محظوظ ، فزوجي ليس في
البيت . تشجع !

حين أفاق كفاتشي لم يجد أثراً في الغرفة لا لمدام ليا بوش ولا
ازوجها ولا لأي متاع من امتعتهم . ارتدى ملابسه وخرج من الغرفة .
أراد أن يعطي خادمة الفندق روبلاً ، لكن لم يجد في جيبه حتى خمس
كوبيكات . استجمع افكاره وتذكر انه وضع بالأمس في جيبه
اربعمائة روبل . لكن اين انفقها وكيف اضاعها ؟ لم يتمكن كفاتشي
من تذكر هذا .

بعد أن اختفت مدام ليا بوش من أوديسا ، طارت واختفت أيضاً
من قلب كفاتشي . بقيت فقط ذكرى مريرة . ذكرى ثلاثة آلاف
روبل مهذورة والشكوى التي لا تنتهي وتأوه وتأنيب اصدقاء كفاتشي .
لزم ييسو شيكيا الصمت واكتفى بالاهتمام بخزينة الرابطة ، لكن
أفلا بربان لم يستكن ، بل كان يتأوه بين كل دقيقة وأخرى :

— واه ، واه ، واه ! هذا هو « الفراتسا (١) » ، الأحمق الحقيقي !

(١) فراتسا: تعني باللغة الأرمنية « الجورجي » — المترجم

بمبلغ ثلاثة آلاف روبل كان بإمكانني ان اشترى نصف سيغناخي . «
لاتضحكوا !

— الحب يفعل هذا — قال تشيكنجبلادزه .

— انا أو من بالحب ليلة واحدة . هذا كل شيء طبعاً ! — قال
أيضاً تشخوبيشفيلي .

أخيراً هزّ جليل رأسه :

— أتدري ماسأقوله لك أيها الأمير جان . لقد كانت امرأة جميلة
جداً . لكن ثلاثة آلاف خسارة . ثلاثة روبلات — هوذا سعرها .

مرة أخرى حسم كفاتشي النقاش :

— كفى — اعلن بحزم — ماحدث قد حدث ، انتهى كل شيء !
لاندكروا أمامي بعد الآن اسم مدام ليايوش .

« كيف سقط الحب »

في اليوم التالي ، وفي حديقة جامعة اوديسا ، لاحظ كفاتشي جماعة
من الطلبة الجورجيين وكانت تضم النساء أيضاً . ذهب ثم حياً وبدأ
يستمع إلى الحديث .

رأى لأول مرة بين تلك المجموعة طالبة طويلة ممشوقة القامة بيضاء
كالثلج ، نظيفة سوداء الشعر والعينين رائعة وفاتنة .

تبادل كفاتشي والمرأة النظرات ، ثم حولت المرأة نظرها وبدأت
تستمع بانتباه إلى « ليوشافيدزه » و « ساندروا ارسنا شفيلي » اللذين
جرى بينهما جدال قديم . كثيراً ماكانت تسمع كلمات مثل :

— الانطباعية . . الزمرية . . مظهر . . جوهر . . ابدية . . بيئة . .

عزم كفاتشي على الخوض في ذلك الحديث كي يسترعي انتباه النساء ، لكنه بعد ان استمع إلى مضمون النقاش فكر : « يا للشيطان ! يجب ان يتحدث الجورجيون بالسياسة أو الفلسفة . الكلمات ذات الجذور الفرنسية والتي تنتهي بـ « ايزم » افهمها ، أما الكلمات الشيطانية « جوهر » بيئة « لامظهر » ماهذه ؟ ! أو مامعنى « انعكاس » « ايسن » .. « غرويل » . لاشك انها جورجية قديمة « غرويل (١) » فيرلن « ميرلنغ » . . « انونسيو » . .

ابتعدت « ناديا أرميلادزه » و « فبرتشكا كالوشفيلي » عن المجموعة ولحق كفاتشي بهما . بدأوا يتساءلون عن شؤونهم الحياتية .

-- ما الخبر يا كفاتشي . لا تقرب من أحد ، أنسيتنا جميعاً ؟ هكذا يتصرف الناس ؟ — قالت ناديا مؤنبة .

— لاني في وطنه ! — اضافت فيرتشكا .

... هذا غير صحيح — برر كفاتشي موقفه — لقد انشغلت بالدراسة لم يكن لدي وقت .

تضاجكوا وتمازحوا، شربوا قدحاً من القهوة وأكلوا « بيتي فور » ، تذكروا الماضي . واستعرضوا النكتات الأخيرة . سأل أخيراً كفاتشي :

— ما اسم تلك المرأة الواقفة هناك في الحديقة ؟ صوفيا شيفادزه ؟ اراها للمرة الأولى . . تعجبني ؟ لا يمكن القول بأنها لا تعجبني رغم أنه

(١) غرويل : بالجورجية « غيمة » اوردها الكاتب كجناس لفظي — المترجم

يلاحقها كثيرون ؟ هذا . الايخشاہ كفاتشي : حسناً عرفاني بها .
 اين ؟ متى ؟ ستكون عندك . اليوم في الساعة السابعة ؟ حسناً سآتي . .
 وسأحضر لكم شو كولا .

في ذلك المساء تعرف كفاتشي على صوفيا شيفادزه . تحدثت النساء
 عن الكيمياء ، فلم يستطع كفاتشي الخوض في الحديث ، ثم تذكرن
 اساتذتهن فانتظر كفاتشي . انتقلن إلى الأدب . صبر كفاتشي . تطلع
 إلى تلك المرأة - الغزال ، فتملأ وامتلاً رغبة .

أخيراً غير مجرى الحديث . بدأ حديثاً خفيفاً جذب به « ناديا » .
 استمعت صوفيا وابتسمت خجلة ، لكنها لم تشارك في تلك النكات .

— إذآ ، أنت لانتكرئين بالسيرك ؟ — سأل كفاتشي صوفيا —
 ولا بالمصارعة ؟ إنها رائعة . سأريك بكل تأكيد « رايكين » « بامبولا »
 « أنو او كيتارو » . « كوستا ميسور . ادزه » « بوليا » « فاخثوروف »
 و « القناع الأحمر » . . .

إذآ تعجبك الدراما والأوبرا ؟ انا لم ارها بعد . فلنشاهدها غداً . .
 لاوقت لديك ؟ ستصرفين ؟ لماذا تستعجلين ؟ سستمكين من تحضير
 المواد غداً . . . سأرافقك حتى البيت . . ناديا فلتنتره !

تنزهوا . كانت صوفيا على عجلة من أمرها . امسك كفاتشي
 بيدها أثناء المسير في الشارع . سحبت صوفيا يدها بحذر ، ثم أسرع
 الخطى . شكرت . الاثنتين عند باب شقتها ، ثم اختفت .

— تأثر كفاتشي كثيراً . واسته ناديا قائلة :

— امرأة جافة متعطسة . لكنها طيبة القلب . تعمل بدأب ولاوقت

لديها . . .

حسناً لاترعل ياكفاتشي ، وإلا - . - . ابتسمت ناديا محاولة اغراءه منذ ذلك اليوم . واظب كفاتشي على حضور المحاضرات . كان يرى صوفيا في قاعة المحاضرات أو على الأبواب أو في الحديقة أو في الشوارع القريبة . حشد وعزّز لباقتة وخبرته وحسن تصرفه وموهبته في سحر واجتذاب النساء . لم تتجنبه صوفيا ، ولم تقترب منه . كانت تبسم له بهدوء وتضحك بغنج ، وكأنها رضخت له جاذبة إياه إليها، لكنها حافظت على مسافة محددة بينهما . حافظت على ذلك الحاجز ولم تتخطاه، كما لم تسمح لكفاتشي بتجاوزه . حاول ان يكسر ذلك الجدار بلسانه ويده ، لكنه لم يتمكن من كسر جليد ممانعة وحصانة صوفيا .

— سيدة صوفيا ، اقسم بالله وبشرفي أنني لم أر ولم أقابل مثيلاً لك !

— ثمة مئات الآلاف والملايين مثلي .

— ما يحصل لي شيء عجيب ، أنا مسحور بك !

— انت المذنب الوحيد في هذا ، استيقظ !

— أحاول جاهداً ، لكنني لاأتمكن . لقد جفاني النوم وفقدت

شهيتي للطعام . . .

لاأستطيع ان أقوم بأي عمل . . أنا اتألم . . أرحمني ! . .

في تلك اللحظة بالذات ، وعلى نفس المسافة ، كانت صوفيا

تحيط نفسها بحلقة من الجليد .

— يكفي ، أيها السيد كفاتشي ، بهذا ننهي حديثنا - . . أنا في

عجلة من أمري . . وداعاً . . الزم الهدوء ، ثم قامت تخطر بقامتها

المديدة الرشيقة مسرعة في خطواتها الريمية وتلتفت أحياناً متبسمه
بعينيهما السوداوين ، فتحرك زوبعة السحر نفسه .

— أعملي معروفاً سيدة صوفيا ، لنذهب لحضور الأوبرا أو
الدراما ! ؟

— أشكرك ، لاوقت لدي .

— فلتتزه في الحديقة .

— أنا لاأتتزه مطلقاً في الحدائق .

— فلنذهب سوية في الزورق .

— لاأتتزه . . لأأريد ، ليس ثمة وقت .

كثيراً ما حمل كفاتي الزهور اليها والشوكولا .

— لاتزعج نفسك ، لاتهره هكذا كمية من النقود .

أخيراً أهداها ابياتاً من الشعر :

من أجل عينيك السوداوين عفت كل شيء ،

جفاتي النوم واشتعلت لهيباً مستعرا .

إذا وهبتي الحياة سيجزيك الله خيراً ،

وان قتلتي لاتحرميني من الغناء

بهذه الأبيات أنهى كفاتي قصيدته الطويلة التي ضمنها واشبعها

بنار الحب التاريخي (١) وبالدموع والاندفاع وانين القلب ، بالأمل

والثقة بعطف صوفيا وعظمة أخلاقها .

(١) تاريخ : بطل قصيدة « الفارس في اهاب النمر » للشاعر شوتاروستافيلي .

لكن مع ذلك فالجليد لم يذب ولم تطرد الشمس الغيوم .
ازداد كفاتشي احتداماً وغدا أكثر عناداً وضاعف من ملاحقتها
وأقدم على المزيد من الهجوم الصريح . . .
ذات مرة التقيا مصادفة شحاذاً مشوهاً كان يمسك المارين بغيط
وعصية طائياً بعناد :

— أحسنوا إلى المشوه ، أحسنوا ، اتسمعون أم لا ؟ تصدقوا
أقول لكم ، أعطوني كويكين على الأقل أيها الوثججون البخلاء !
وأتبع السؤال بالشتيمة .
وضحك الاثنان .

— نابليون ابولوفيتش بماذا تشابهان أنت وهذا الشحاذ ؟
— كلانا يطلب . وهو يطلب ملاً وأنا أطلب حباً !
— تصحيح بسيط : كلاكما لاتطلبان ، بل تلحان وتلحفان في
السؤال بعناد وصرامة وتهديد .

أحس كفاتشي بالمهانة ، فودعها ببرود دون أن ينبس بكلمة .
ثم انعطف وقد قرر في نفسه ان يسرع في هجومه الأخير .
منذ ذلك اليوم تحول إلحاح كفاتشي إلى رجاء وتوسل . رجا من
صوفيا الرحمة والعطف ، طلب منها ان تشفق عليه وجهد ان يستدر
شفقتها

ذاب وأنّ وأزمع على قتل نفسه .
في كل يوم كان يسأله رفاقه — سيدراك ، تشيبي و « لادي » :

— كيف تسير الأمور ؟

— أخلص ، لماذا تخط الموضوع ؟ !

— إياك ان تخفي عنا انتصارك وتهرب من تقديم (الحلوان) .

عرض كفاتشي الواقع لأصدقائه بصدق ووعدهم بحفلة شراب .

علمت كل المدينة بغرام كفاتشي وصبوته الجديدة . لذا أصبح الاستحواذ على صوفيا واخضاعها نوعاً من حب الذات . كان كفاتشي قادراً في كل أمر على السير بيسر في الطرق الملتوية متى اقتضت الظروف وعلى الالتجاء إلى الظل في الوقت المناسب . كان يتمتع بالقدرة على الصبر واختيار الوقت والمكان المناسبين والتراجع حين اللزوم ، غير ان صوفيا جردته من تلك القدرة .

مر زمن طويل . حمسه الرفاق واستحثوه على التنفيذ ، إلا أنه لم يحرز إي تقدم ملموس .

نفذ صبره فقال : .

— اليوم وإلا لن يكون أبداً .

في تلك الليلة جثا كفاتشي عند قدومي صوفيا واعتصر يديه مبدياً أشد حزنه وقال وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

— يا حامي . . ياراعتي . . ياإلهي وياأيقوتي ! لم أعد أقوى على الصبر . . لقد خارت قواي . . خلصيني من الآلام والعذاب . . أرحمني واشفقي علي . . ياعزيزي صوفيا ، صوفتشكا . . وأقنع كفاتشي نفسه بهذا الحب ، إذ ملعت الدموع في عينيه وقطب وجهه .

تراجعت صوفيا عن موقفها . ذهلت وأخذتها الدهشة :

— نابليون ابولونيتش ! نابليون ابولونيتش ! . . انهض لقد
أثرت شفقتي ، حسناً انهض .. انهض .. لا أستطيع .. لم أعد أستطيع . .
وتهدج صوتها واغرورقت عيناها بالدموع . نكس كفاتشي
رأسه وغطى وجهه يديه . سقط على الأريكة وأخذ ينشج كالطفل
ويتم بحزن وبأس :

— لا أستطيع . لن أستطيع أكثر من ذلك . انا الآن أعرف كل
شيء ، أعرف كل شيء جيداً . لم يبق أمامي شيء .. انتهى الأمر .
انتهى كل شيء !

ازدادت صوفيا حيرة . وأثرت الخوف والعطف والشفقة في كسر
الجليد وتلطيف القلب وطرده الخنر بعيداً وتحطيم القسوة . ضعفت
صوفيا ولانت . جلست مضطربة بالقرب من كفاتشي تداعب شعره
الأجعد وتهدهه وتقدم إليه العزاء ، ثم قالت وقد تهدج صوتها :

— كفى . . كفى . . أهذا . . لا تتألم . . لا تبك ! . . حسناً ،
باعزيزي ، كفى وإلا . .

التصق كفاتشي يدها وحرقها بالدموع ، ثم أخذ مرفقيها بكلتا
يديه وضمها إليه برفق .

مانعت صوفيا قليلاً وبدأ كفاتشي يضمها إليه أقوى فأقوى مبدئياً
أصراره أكثر فأكثر ، ثم احتضنها تماماً بكلتا يديه وشدها إلى صدره .
خافت صوفيا ، انتفضت ، رجته في البداية ، ثم قاومته ، رد
كفاتشي على القوة بالقوة :

ازدادت تعنتاً وخيبة ، اشتعل حماسه وتوحشاً . خاضت يده في
 انحاء جسدها ثم تحولت للعراك . ألقاها أرضاً وتناثرت خصل شعرها .
 أشرف كفاتشي على النصر ، لكن صوفيا غرزت في الوقت المناسب
 اسنانها في مرفقه . أن كفاتشي بحرقه . امسكت صوفيا بآلة حادة
 تستخدم لشق صفحات الكتاب ، ثم صرخت لاهثة متقطعة الانفاس :
 — بسرعة ! . . غادر فوراً أيها السافل الخسيس ! . . أيها الشنيع ،
 الكريه ! .

— اعلني . . اغفري لي . اعتذر ! — تتم كفاتشي وهو يكثر
 من الألم ويلف كوعه الدامي بمنديله .

— أقول لك ، هيا انصرف من هنا ! — ومشت باتجاهه والآلة
 الحادة في يدها ، والشرر يتطاير من عينيها — حيوان سافل ! — .
 وحش ! قلت لك بسرعة هيا ! ولاحقته حتى الباب ثم خرج متمتماً .
 بعد شفائه عاد كفاتشي إلى بيته حاملاً معه السم ومرارة المهر
 المتبوذ الحاقداً .

في صباح اليوم التالي جاء اصدقائه إليه . تلملم كفاتشي في فراشه
 الدافئ ، تمطى ثم ابتسم .

— كيف الحال ؟ سألت تشيكنجلادزه .

— لقد انتصف النهار ، هيا انهض ! — دعاه سيدراك افلاباريان .

— لعله عبت الطريق بالأمس — قال غابوتشخويشفيلي — لذا فهو
 يتسم ويتعطى بلذة .

- وآه أحقاً ما يقول ؟ ١
- أهذا صحيح فعلاً ؟
- صارحنا يا كفاتشي ، لانتخف عنا شيئاً .
- لم يعترف كفاتشي : كان فمه مغلقاً يحفظ السر خلف سبعة أبواب مغلقة . أخفى اسم المرأة حفاظاً على شرفها وصونها لعرضها تماماً كما يايق بالفارس والرجل الحقيقي . كان يكتفي بالابتسامة الهادئة ويقلب عينيه ويتمطى بكسل مبدياً أعلى مظاهر اللذة والسعادة والنشوة .
- أقسم بـ « سورب — ساركيس » ان الأمر قد انتهى !
- مر حى لك يا كفاتشي ! الغداء اليوم على حسابك .
- هيا ، قل ، خلصنا !
- ظل كفاتشي على عناده : لم يقل شيئاً ولم يعترف بأي شيء .
- آه ، ماالذي يمكن قوله ! الغداء ؟ أليس العشاء أفضل من الغداء . ادعوكم ، ماالعجل ليس ثمة من يخرج .
- ثم تمطى من جديد بلذة . كانت عيناه نعستين ، وعلى شفثيه ترفرف راية النصر .
- لاحظ سيدراك يد كفاتشي المعضومة فاقنع بشكل قاطع بانتصاره ، كما أقنع الآخرين بذلك .
- واه ، واه ، أنظروا كم هي امرأة شبقية . جزاها الله الخير !
- شربوا في ذلك المساء ، مرات نخب كفاتشي متمنين له مزيداً من الانتصارات مستقبلاً . اسموه زيز نساء وذكروا أيضاً أسم « صوفيا » .

مرة أخرى ابتسم كفاتشي ابتسامة لها أكثر من مدلول دون أن
يتزع عن وجهه راية النصر ، مع أنه لم يؤكد ولم ينفق قناعة الأصدقاء .

منذ ذلك اليوم سيطر على الوسط الطلابي ضباب مسموم ، هادىء ،
غير مرئي أو ملموس ، سبج هذا السم متهادياً ملتفياً كالأنفى وتسلل
كموجة دافئة إلى كل اذن ودخل خلصة من بيت لبيت ومن ذاك البيت
إلى عشرة آخرين .

تسم قلب صوفيا وتلطح وتدنس اسمها الطاهر . تقطر السم
تدريجياً في آذان الناس ، نما . تطور واستحال إلى مستنقع نزن .

« كيف انتهى الحب »

نحفت فيرا وذابت . كان الحب المخفي أجدى لكفاتشي . لذا ،
ونظراً لأن الدخول إلى هذا البيت أمر سهل وميسور بالنسبة له ،
فقد تجنب فيرا وعلل ذلك بأنه يخشى أن يبوحي القبطان سيدوروف
أو زوجته أو أقرباؤهما الكثيرون بحبهما قبل الأوان . أينوي كفاتشي
الزواج بفيرا ؟ طبعاً سيتزوجها . . هذا شيء مفزوغ منه ، لكن ..
يجب ان تراعي فيرا عادات وأعراف وقانون جورجيسا ، وإلا
لن يتمكن من دخول بيت أهله ولن يتلقى روبلاً واحداً من جيب
سيليسرو ، وهذا الجيب يقدر بمائة مليون روبل .

وعلى الأقل يجب أن ينال كفاتشي موافقة أهله ومباركتهم له ؛
تلك الموافقة التي ينتظرها بين يوم وآخر . طبعاً سينال الموافقة . لقد رجا
سيليسسترو « و » بويي « كفاتشي منذ زمن ان يتزوج من امرأة روسية
وبشكل خاص مثقفة . يجب ألا تقلق فيراً . يجب ان تطمئن وتنتظر
رسالة سيليسسترو .

اطمأنت فيرا عشرات المرات، وانتظرت الموافقة والمباركة من
سيبايسترو كفاتشانيرادزه .

— مارشال طبقة النبلاء الجورجية .

ذات مرة دخلت فيرا إلى غرفة كفاتشي بسرعة وتعلقت برقبتة
بكلتا يديها ، وهمست في أذنه خائفة مرتجفة :

— اسمعني . . يجب ان أقول لك اننى . . لأول مرة يتحرك .

هاهنا — وألتصقت بصدور كفاتشي مرتجفة منتظرة نصحه وعزاه .

نصيب كفاتشي عرقاً بارداً . أصابه الخبل ، خاف وتجمد في
مكانه . انتظرت فيرا طويلاً عزاه واستحسانه ، ثم ذكرته من جديد :

— قل شيئاً . . كيف سأصرف ؟

— انتظري قليلاً ، دعيني أفكر .

ثم قرر بعد أن مسح العرق عن جبينه :

— يجب ألا أبقى هنا بعد الآن . أصبحنا نحن الاثنين كأننا نحيا
في سجن لا نرى بعضنا ولا يمكننا التحدث بحرية . عليّ ان أنقل إلى
مكان آخر . ستأتين إليّ دائماً . وفي حال الضرورة تستطيعين الانتقال
إلى . . . هكذا أفضل .

أعجبت فيرا بقرار كفاتشي .

— انتقل هذا اليوم . . لضرورة للتبريث . أي شيء أفضل من هذا؟
نستأجر غرفتين — ثلاث ونحيا بهدوء ريثما تتلقى موافقة أهلِكَ . .

انتقل كفانثي في اليوم التالي إلى شقة جديدة ، إلا أنه لم يستطع تحديد الوقت المناسب لـ « فيرا » كي يلتقي بها دونما رقيب وليتحدث معها. عن المستقبل، أو كي يتعافا وينسيا الخوف والهموم، ولو لمدة عشر دقائق .

بارة كفانثي غير موجود وتارة أخرى يجلس لديه سيدراك أو «لادي»، وأحياناً كلهم مجتمعين ولا يفكرون بالخروج . كانوا يستقبلون فيرا بود أخوي ، يسلونها ويودعونها باحترام .

وذات مرة جاءت فيرا في الموعد الذي حدّده لها كفانثي ، لكنها وجدت يسو شيكيا بدلاً منه . استقبلها كصديق ، أجلسها وقال لها بعنوبة :

— أنا أعرفك جيداً يا صديقة : أنت امرأة هادئة عاقلة ، لذا انجراً على الحديث معك بصراحة .

— يا إلهي ، ما الأمر ؟ ! أحدث شيء ؟

— أجل، لكن الأمر ليس بهذه الدرجة من الأهمية، كوني هادئة ! يجب أن أقول لك أن كفانثي تلقى جواباً من أهله .

— وبعد؟ وبعد؟

— هم موافقون بشكل عام ، وفرحون لأن كفانثي التقى بامرأة مثلك مثقفة ومن أسرة كريمة . يرسلون مباركتهم لكن . . .

— لكن ماذا ؟

— يكتبون : حين تنهي دراستك الجامعية عندئذ تتزوج .

اضطربت المرأة وتمتت قائلة :

— حسناً . . أنا أفهم لكن ، لكن . . أنا . . ماذا أفعل ؟ كيف سأنتظر ثلاثة أو أربعة أعوام ؟ أنا . . حامل و . . . قريباً سيكون لدي ولد .

— لا تكثريني بذلك . وسيعيلك كفاتشي ، سيقدم لك خمسين روبلاً في الشهر .

— لا أدري . . لأستطيع ان أعقل هذا . . يجب أن أفكر . . علي أن أدرك . .

— لقد قلت أنك امرأة ذكية ! — قال ييسو فرحاً — فكري ، فكري بكل تأكيد . وداعاً لا تقلقي ، أفهمي ذلك بهدوء .

مضت المرأة الشاحبة نحو الباب مترنحة . لكنها توقفت بعد أن تذكرت شيئاً فالتفتت قائلة :

— حقاً ، لقد نسيت ، أين كفاتشي ؟ لماذا لم يقل لي هذا بنفسه ؟

— كفاتشي عند عمه ، الذي قدم بالأمس من تفليس .

— لا بأس . . . حسناً . .

ثم تابعت سيرها . ترنحت ، استندت إلى الباب ، كادت ان تقع وبصعوبة بالغة استطاعت ان تجر رجلها المخدرتين .

ترددت فيرا بعدئذ مراراً على بيت كفاتشي لتراه ، لكنها لم تجد عريسها .

ذات مرة التقيا في الشارع . أمسكت فيرا بيد كفاتشي وانحت به جانباً ، ثم قالت له هامة والدموع تترقرق في عينيها :

— ماذا ترمع ان تفعل بي ؟ لقد علمت أمي كل شيء وطردني
أمس الأول من البيت ، فأوتني إحدى صديقاتي . ليس لدي كسرة خبز .
— اطمئي سيكون كل شيء على مايرام . لايمكن الحديث عن
هذا في الشارع . هيا خذي خمسة روبلات كمصروف، وتعالى إلي
في السابعة من هذا اليوم حيث ستتحدث .
— لقد مررت عشر مرات ، لكنك لم تكن في البيت .

— مالمعمل يا حبيبي . لاوقت لدي ، لكن سانتظرك اليوم .كوني
مطمئنة لاتقلقي ! في ذلك اليوم استقبلها تشيوتير اذره بدلاً من كفاتشي .
دعاهما إلى الغرفة وقال لها بلا مقدمة :

— لماذا علقت على كفاتشي ؟ وهل أنا أسوأ منه ؟ امرأة جميلة
مثلك تستطيع امتلاك رتل من الرجال وان تعيش دونما هموم .

احتضن لادي فيرا وضمها إليه . لوت فيرا وجهها عنه وراحت
تنشج بشكل هستيري . خاف لادي، أحضر ماء واستطاع بصعوبة
أن يعيد الوعي للمرأة ، التي كادت ان تفقد ذاكرتها :

هكذا تخلص كفاتشي من المرأة التي كان يحملها ، مازحاً، على
كتفه . لكن بعد أسبوعين أبلغته الرابطة الطلابية ان الطالبة سيلوروا
قد رفعت شكوى ضده . فكر كفاتشي أولاً ، ثم تساءل :

— وهل سينظر في الدعوى علانية أمام الجمهور ؟

— طبعاً ؟

— أنا موافق .

وفي المساء تحدث كفاتشي مع بيسو :

.. - هذا مالن يقوم به تشيبي أو سيدراك أو غابو .

- مامعنى « لن يقوموا به »؟ وأي اصدقاء هم إذا لم يساعدوا صديقهم في محتته ؟ إذا رفضوا الانصياع قل لي وأعرف عملي . . هيا أشرح كل شيء لثلاثتهم وأرشدهم .

جرت محكمة رفاقية في ذلك اليوم أمام رابطة الطلبة الجورجيين . قصت فيرا سينروفا باضطراب قصتها للرفاق، وقد أحمرت وشجبت بخجلاً . قالت متلعجلة في كلامها : عاش كفاتشي في بيتنا . . استمالني إليه ، أعجبت به ، أحببته وأقسم لي بأنه سيتزوجني ، ثم خدعني : عشنا فترة طويلة سعيدين ، لكنه حين علم بأنني حامل برد تدرجياً . . تهرب مني ولم يعد يلمسني . لم تدر أمني شيئاً في البداية ، لكنها بعد أن عرفت طردتني من البيت . . وبقيت بلا كسرة خبز . . يطعمني الأصدقاء شفقة . . أحياناً لا يملكون نقوداً لشراء الخبز . . بين يوم وآخر سأدخل مشفى التوليد ، ومن أين المال ؟ وكيف ؟ على من سأأكل ؟ ماذا أفعل ؟ علموني ماذا أفعل ! كيف اتصرف ؟ وأجهشت أم طفل كفاتشي المقبل ومحظيته بالبكاء . بكت كطفل غر .

.. - ماذا تقول ، أيها الرفيق كفاتشا ، تترادزه ؟

- كل شيء صحيح ، لكن أود أن اصصح واقعة واحدة : أنا لأدري أهو ولدي أم لا . . .

- كيف لاتعرف ! طالما عشتما معاً . . ابن من إذا ؟ قل .

- صعب أن أقول ، صعب جداً . لكن ، بما ان هذه المرأة لم تخجل وعرضت هذه القصة أمام الناس ، فأنا مضطر أيضاً لأن أقول كل شيء .

- قل .
- القضية ان لتلك المرأة زبائن غيري . .
- شحبت فيرا وانتفضت :
- ماذا ، ماذا قلت ؟ ثمة آخرون سواك ؟ من ؟ من هم الآخرون ؟
- اسمحي لي بالكلام أيتها السيدة ، قولي أولاً : اتعرفين تشيبي تشيونتيرادزه ، وسيدراك أفلاباريان ؟
- اعرفهما . . لقد عرفني - أنت بهما . . كثيراً ماكانا يزورانك . . وماذا بعد ؟
- لقد كانا يزورانك أيتها السيدة أكثر مما يزورانني وكنت تزورينهما أيضاً .
- سألزم الصمت الآن . تستطيعون استيضاح الشهود .
- كيف لا - أكد سيدراك مقالة كفائشي - لقد زرتها وزارني . .
- الحديث عن هذا شيء مخجل ، لكنني لأرضى ان أكون مخدعاً وسأقول الحقيقة . نعم لقد حدث ذلك ، حدث لكن . متى ؟ منذ مايقارب الثمانية أشهر . .
- وكرر تشيبي تشيونتيرادزه نفس المقال بهدوء وثقة ودون خجل .
- جمدت فيرا سيدوروا ، تصلبت كالخجر ، ثم راحت تضرب الطاولة بقبضتيها الصغيرتين وتصرخ لاهثة :
- كذب ! كذب !
- ثم خلطت الصراخ بالضحك . . ارتجفت وترنحت بين يدي

صديقاتها وانتهى الأمر . توجه كفاتشي واصدقاؤه المخلصون إلى الدكان الجورجي حيث كان بانتظارهم أرثين واللحم المشوي (الشاسليك) والسبك والحمرة الكاخيتينية .

هكذا انتهى حب كفاتشي الأول والأخير .

« افلاس كفاتشي وملققة الخشب الصغيرة »

ساعت أمور كفاتشي - ساءت جداً ، نفذت نقوده . لم يعد يستطيع مماشاة رفاقه وضعف تأثيره عليهم وكفوا هم عن الالتفاف حوله وتقديم الإطراء والثناء والتمجيد له وابتعدت النساء عنه . من الصعب ان يحيا تحت الديون ، فقد بدأ الحيايط والحذاء والغسالة باظهار عدم الرضى ، كما هدد الخوذي بالشكوى ، وبدأ كفاتشي بلامال كسمكة بلا ماء تتلوى على الشاطئ متقطعة الانفاس .

أصبح كفاتشي ، بلا نقود ، يشبه إلى حد كبير سمكة بلا ماء ، أو نسرأ بلا أجنحة أو حصاناً دون قوائم .

أخيراً أخبر سيلبيسترو عن مصاعبه ، فأرسل إليه ثمانين روبلاً محملة بالنصائح والعتاب . تناول « ابن سيلبيسترو » الغداء في مطعم « أوروبا » . وبعد انتهائه من الطعام دس الملعقة الفضية في جيبه بمهارة ومضى ، وكرر هذا في اليوم الثاني والثالث .

نفذ صبر صاحب المطعم ، جمع كافة العاملين لديه وأعلن بحزم : - كل يوم نفقد ملعقة فضية - لم يتعرض هذا المطعم لمثل هذه الفضيحة من قبل . السارق واحد منكم . أو من الزبائن . إذا لم تجدوا اللص خلال ثلاثة أيام سأفصلكم جميعاً عن العمل . هيا ابحثوا . .

وحسم قيمة الأدوات المفقودة من رواتب العمال .

في ذلك اليوم تشجع كفاتشي غاية الشجاعة . أخذ الملعقة الفضية أمام عيني الخادم ودسها في جيبه . دهش الخادم وجري إلى صاحب المطعم فرحاً . استغل كفاتشي اللحظة المناسبة وأعطى الملعقة لبيسو شيكيا قائلاً له :

— سترى ماذا سيجري لهذا الأبله . هيا أسرع ونجى هذه الملعقة في أي مكان .

أرسل صاحب المطعم أحد الخدم ليحضر شرطياً ، ثم مضى هو بنفسه نحو كفاتشي وقال له مبتسماً :

— لي عندك رجاء بسيط ، أرجو أن تتفضل إلى مكثبي لدقيقة واحدة !

بعد عدة دقائق ، وعندما وصل الشرطي إلى المكتب ، هجم صاحب المطعم على كفاتشي :

— لص ، قاطع طريق ، سارق الملاعق ، نشال . هات ملاعقي ! فتشوا حالاً هذا المحتال . لقد سرق عشر ملاعق . . وهاكم الآن في جيبه ملعقة .

استمع كفاتشي بصبر إلى سيل الشتائم ، ثم التفت إلى الشرطي وقال :

— فتشوني ، أنا موافق ، لكن . .

اعتذر الشرطي ، فتشاه فوجد في جيبه اليسرى ملعقة صغيرة من الخشب .

— أهذه ملعقتكم ؟

نظر الجميع إلى بعضهم فاغري الأفواه .
لف كفاتشي رجلاً على رجل ، وقال للشرطي بهلوء :
— أرجو كتابة محضر فوراً — ثم توجه بكلامه إلى صاحب المطعم —
سأودعك السجن جزاء ادعائك الكاذب لمدة ستة أشهر .
نتف صاحب المطعم شعر رأسه صائحاً بألم :
— لقد اصطادني هذا الفلاح ، اصطادني !
— أرجو أن يتضمن المحضر هذه الكلمات أيضاً — قال كفاتشي
ذلك ملتفتاً نحو الشرطي . كتب الشرطي .
— أي محضر ؟ ما هذا المحضر — قال صاحب المطعم ثم وجه كلامه
إلى الخدم — هيا انصرفوا من هنا أيها الحمقى .
وبعد انصرفهم اختطف المحضر من بين يدي الشرطي ، ثم مزقه
وقال بخنوع :
— لضرورة لحسارة الورق . باختصار كم تريلون ؟
فقال كفاتشي بايجاز :
— ثلاثة آلاف .
وبدأت المساومة والمماحكة . بدأ صاحب المطعم بمائتي روبل
وارتفع حتى وصل للالاف . أخيراً ، وبعد جدال طويل وتدخل بيسو ،
اتفقا على مبلغ ألف وخمسمائة روبل .
حمل كفاتشي تلك الأموال وطرحها على المنضدة قائلاً :
— هي ذي الأموال التي جاءت دونما عناء . ملعقة خشبية وعقل

كفاتشي والنتيجة ألف وخمسمائة روبل . كنت بأمس الحاجة ،
وإلا لكان بإمكانني أن أحصل على ثلاثة آلاف روبل، كما لو أنني
أحصل على ثلاثة روبلات .

قص بيسو حكاية الملعقة الخشبية للرفاق الجانعين بالتفصيل ،
وعلا الضجيج واللفظ والمديح للقائد وابداء الرغبة بتقليده، ثم ضجوا
وتخاصموا . أصر أفلا بريان على المبلغ المدين به لـ « آرتين » مع فوائده
وطلب تشيكينجلاذزه مائة روبل ، كما طلب تشيونتيرادزه مائتي
روبل . عدوا النقود وتخاصموا .

واستطاع بيسو شيكيا ان ينقذ بصعوبة الخمسمائة روبل التي بذروها
خلال الأسبوعين الماضيين .

بعد مدة قصيرة سار كفاتشي ماذا لسانه مفلساً . ساعده سيدراك،
إذ أنحضر له رزمة من الأوراق الجديدة وقال مرتجفاً وعيناه تققدحان غضباً:

— خذ أيها الأمير . كن حذراً والا ستهلك نفسك وتهلكني
معك . لاتنفقها في المخزن الكبير، أو في المطعم الفخم . تردد على التجار
الصغار، اشتر « بزراً » أو « سجائر » ، تنزه أحياناً في عزبة مكشوفة .
ربع هذا المبلغ لمصروفك الشخصي . حسناً كن حذراً وإلا .

صرف كفاتشي تلك الأموال خلال يومين وكاد أن يهلك : لكن
أعاد « مغلان » الأموال إليه . دعر سيدراك :

— قلت لك لاتتردد إلى الأماكن الفخمة ، لكنك لم تضبط نفسك
ووزعت تلك الأموال في المقهى . طبعاً لن أعطيك بعد الآن . ماذا ؟
قلت لا . انتهت الأموال .

انتصب كفاتشي مرة أخرى ، لكنه عاد وأنحنى :-

— سيدراك ، ساعدني !

— ماذا ؟ أساعدك ؟ حسناً أساعدك فالصديق وقت الضيق
لكن ائدري ماسأقوله لك ؟ المخاطرة نهايتها وخيمة . هيا أعمل عملاً
شريفاً . أنت ذكي وماهر . السمسة تليق بك . عندي عمل لك
اسمعي . :

« كيف اصبح كفاتشي وسيطاً »

بعد يومين صار كفاتشي يدور من أسرة لأسرة ومن متجر إلى
متجر . آلمته عظام وجنتيه وانعقد لسانه وطن رأسه من كثرة الثروة .

منذ بداية أيار صار كفاتشي يبيع مدافىء من طراز جديد
« غليوسا » . مدح كفاتشي البضاعة ، نفخ فيها ، بالغ في إظهار
محاسنها وقرأ على المشترين محاضرة بالكيمياء الحرارية .

— تريثوا قليلاً ، استمعوا إلي . . هنا تصبون زيت الكاز وترفعون
هذا . . وتخفضون هذا . . هذا مكشاف حراري . نصف فونت من
الكاز يدفع خمس غرف في اليوم . خلوا الناحية الاقتصادية بعين
الاعتبار .

— لانريد ، ياأخ ، عندنا مدافىء حائطية في كافة الغرف .
وماحاجتنا للمدافىء . في أيار لاأحتاج إليها أبداً .

— انتظروا . هيوئي خمس دقائق من وقتكم . . فكروا بالتوفير . .
كانت حسابات كفاتشي تقول باقتناء المدافىء بأي شكل . فهي شبه

مجانبة ومصروفها خلال العام يقارب الروبلين . باع خلال أسبوع
عشر مدافىء .

أخيراً وصل إلى رجل يدعى « غوفشتين » . تصادما تم علقا
بعضهما . استقبله غوفشتين ببرود . رفض بصلاية حتى أنه أمسك
بقبعته وكأنما يتهيأ للخروج . أخيراً بدأ يصرخ :
— لأريد ، أقول لأريد .

ازداد كفاشي عناداً . لم ير قبعة غوفشتين ولم يسمع لهجته التي
توحي بنفاذ الصبر . وتابع وكأنه يقول : يجب ان تشتري هذه المدفأة
هذا والسلام ! ما لم أبعكم هذه المدفأة لن تخرج من هنا . جلس بلا دعوة
وأخذ راحته ، إلى أن قال له :

— كم تريدون ثمنها ؟

— سبعة عشر روبلاً وخمسة وعشرين كوبيكاً .

— خذ ، ثم دعني وشأني .

— هاك إيصالاً . وداعاً !

— تريث . . أود أن أقول لك كلمتين . تفضل وأجلس . . اسمعني ،
الآن أنت : تحتاج القطعة إلى هذا الكتاب أكثر مما احتاج أنا إلى
هذه المدفأة . لا ترسلها ، دعها لك ، أو بعها أو أفلد بها حيث تشاء
أو أهدها إلى فقير محتاج . سابقاً لم يعنني أحد قط مثل هذه البضاعة
التافهة . مرحى لعنادك وصلابتك ! لاشك في أنك تمتلك موهبة
السمسرة . أتعرف شيئاً في التأمين ؟ لا ؟ لا يهم ستعرف كل شيء بعد
ساعة .

— اسمعني جيداً أنا خبير في التأمين أعمل في مؤسسة «سلاماندرا». لها أضخم وأغنى الشركات الروسية . رأسماها الأساسي مائة مليون من الروبلات ، ربحها الصافي عشرة ملايين . القيمة الاسمية لسهمها مائة روبل وقيمتها الفعلية ثلاثمائة وواحد وأربعين روبلا . تصفح جريدة اليوم . . سلاماندرا تشتري وتبيع شركات « روسيا » « المرساة » « شركة الشمال » « الفولغا » و « موسكو » . . سأعينك عميلاً في شركة التأمين على الحياة ضد الكوارث . المرتب ؟ لا بأس . ستقبض حسب النسبة المئوية . بعض العملاء يتقاضون ألفي روبل في الشهر . نعم ألفين . سأشرح لك الآن أسس وقوانين وتقنية التأمين .

في ذلك اليوم تناول كفاتشي طعام الغداء لدى غوفشتين ، ثم تلقى درساً آخر وعاد مساءً محملاً بالجدول والتسعيرات واللوحات الدعائية .

كان البحار كوليدس — صاحب البيت الذي يقطنه كفاتشي — موجوداً في المنزل .

— كيف ؟ أنت حتى الآن لم تؤمن على حياتك ؟ بحار ولا يشترك في التأمين ؟ ! أنت معرض في كل يوم لخطر الغرق أو المرض أو الشيخوخة . . ماذا ستترك لأرملتك وأولادك ؟ كيف ستقابلهم في العالم الآخر ؟ ماذا ؟ أنت لاتنوي الرحيل عن هذا العالم . حسناً، إذا عشت عشرين أو خمسة عشر عاماً ستلقى أموالك مع الفوائد . التأمين هو الطريق الوحيد لادخار وتنمية الأموال .

ان مت وأن عشت ستكسب على أية حال . . وإذا ؟ نصحوك عشر

مرات ولم يستطيعوا اقناعك ؟ تخاف الموت ؟ من الأفضل ان تموت مطمئناً بأن أسرتك لن تتسول . . أما زلت تخاف ؟ هراء ! وهل سيكون صعباً عليك دفع خمسمائة روبل في العام ؟ ليس صحيحاً . لا تنظر إلى الآخرين ، على العكس يجب أن تكون قدوة حسنة للآخرين . . هاك بعض المعلومات القليلة : في الولايات المتحدة ٩٩,٧٪ من السكان مشتركون في التأمين وفي إنجلترا ٩٧,٩٪ ، في ألمانيا ٩٤,٣٪ ، في روسيا ١,١٪ . كم نحن متخلفون بالنسبة للعالم المتقدم . هاك مثال على جهلنا وعدم ثقافتنا ! لا أيها المحترم لقد أرسلت إلى أسرتك ملاكاً منقداً ، ولن أهدأ ما لم أسجلكم في التأمين . تتسرعون ؟ لا بأس لا تتأخر . . لا مال لديك ؟ لا بأس يكفي الآن مائة روبل وستدفع البقية فيما بعد . . حين سيرسلونها من بطرسبورغ ستدفعها .

الأطباء ؟ غداً سيفحصونك . هأنذا أكتب . . اسمك ؟ اسم عائلتك ؟ تاريخ ميلادك ؟ ستؤمن بمبلغ عشرة آلاف روبل . . هاك الايصال . . وقع هنا . . اعطني الآن مائة روبل . . اشكرك . . اذهب الآن وداعاً ! . .

خلال نصف ساعة « كسب كفاتشي » كوليدينس . وبعد كوليدينس تتالى المشتركون بلا انقطاع . أرسل كوليدينس كفاتشي إلى إيفانوف ، وأرسله إيفانوف إلى بتروف ، ومن بتروف إلى بافلوف ومن بافلوف إلى سميرنوف .

— كيف لم تؤمنوا حتى الآن ؟ عجيب ! غريب ! هذا شكل من أشكال تخلفنا . . في الولايات المتحدة ٨٩,٧٪ من السكان

مشتركون في التأمين، في إنجلترا ٨١,٣٪ في فرنسا ٧٩,٤٪ في روسيا ٧٪.

ألحّ ، دأق عليه ، لاحقه ، أقض مضجعه واضناه ولم يدع الضحية المختارة حتى سجلها واصطادها بشباكته .

جرى كفأشي من الصباح وحتى المساء . دار ، قتل وهو يرثر نفس مقالته ويكرر كلاماً محفوظاً ويضيف الكثير من التلفيق . كان يخيف البعض بالموت ويغري البعض الآخر بتكديس الأموال . ينظم الطلب والإيصال، يجمع النقود ويسلم بوليصة التأمين للزبائن ويشبع أثناء ذلك منافسيه عملاء الشركات الأخرى بالشتيمة والقذف :

— شركة « روسيا » بين يوم وآخر ستنتهي، « الفولغا » أعلنت افلاسها . ، « موسكو » ؟ لاتعطي زبائننا المؤمنين نقوداً . . العميل « كاربوف » ؟ نشال، كاتسمان ؟ محال . . سيخوفيتش ؟ مبدّر . . لاتثق به . . أمثوا على حياتكم ، ثقوا بي ولا ستندمون !

أضحى كفأشي قريباً للجميع وجزءاً من كل أسرة .

— آ . آ . ، مرحباً أيها الأمير نابليون أبولونوفيتش، كيف حالك ؟ تفضلوا ، أيها الأمير شرفونا !

تارة كان كفأشي يشرف بطرس ، وتارة أخرى بافلوف ، يتغدى مرة عند أيفانوف ويتعشى مرة أخرى عند سيدور ، وينادم أحياناً « كوروما » . امتلاً جسم كفأشي ومتن وبدأ يتعجرف .

أصبح لديه عشرات الأتباع واستأجر من جديد عربة مكشوفة شهزياً ، سدد ديونه ، لـ « سيدراك » وأمن أعمالاً لبقية زفافه .

ومع ذلك ظلت تقلقه وتقض مضجعه فكرة واحدة: ليست لديه أموال فائضة. كان يكسب كل شيء بشق النفس وبالعمل الدؤوب . كان ينفق اليوم ما يكسبه بالأمس وما سيكسبه غداً سينفقه بعد غد وبعد غد سيضطر للسعي من جديد والبحث عن زبائن جدد والثروة كرة أخرى واقناع الناس – باختصار نفس الاهتمامات : العمل كل يوم وسفح العرق والمواظبة من جديد . لكن كفاتشي كان يحلم بحياة مغايرة تماماً . كان يتطلب من عالمه الكثير : انتظر الحرية والترف واللذة، لكن الأولى والثانية والثالثة تتحقق بالمال . هذا ما كان يعرفه كفاتشي جيداً . تتحقق بالمال الكثير الذي يودع في المصرف في حساب « جار » وما على كفاتشي سوى أن يوقع الشيكات ويوزعها شمالاً ويميناً . لا تتوفر لدى كفاتشي مثل تلك الأموال . وبها فكر كفاتشي وإليها سعى .

— لماذا لا تسجلون بأنفسكم في مؤسسة التأمين ؟ — سأل غوفشتين ذات مرة كفاتشي .

وفي ذلك اليوم سأل كفاتشي نفسه :

— فعلاً لماذا لاؤمّن أنا بالذات ؟ لماذا لا يؤمن سيلبيسترو ؟ ومنذ ذلك اليوم اشتعل كفاتشي حماسة .

« كيف أمن على بيتي وحياته »

ظل كفاتشي ، كما في السابق ، يجري جيئة وذهاباً ، يسعى ويفكر ، يفكر ويقيس ، يزن ويقلو ويحسب ، حسب ثم كتب :

« والدي العزيز ، أبي الطيب سيلبيسترو !

املاً القسيمة المطبوعة المرفقة بهذه الرسالة بشكل صحيح . اعطها

١ (كولاتساليكادزه) كي يملأها . يجب أن أو من لك بمبلغ عشرة الآف روبل . لاتسألني السبب، سنلتقي قريباً وسأقول لك كل شيء . ثمة عميل لشركة « سالاماندرا » (فولوديا شاريدزه) . أذهب إليه وسيقوم هو بكل شيء . قل له إن كفاتشي عميل أيضاً ، لذا لاتدفع له أية عمولة . أرسل إليك ثلاثمائة روبل . اعط مائة روبل للعميل وخذ مائة لنفسك والمائة الثالثة تدفعها بعد أن تستلم بوليصة التأمين من بطرسبورغ . حين تتلقى البوليصة أرسل لي برقية تخبرني باستلامك لها . سأسافر إليكم وأدبر كل شيء . لاتخطيء وتصرف كما ذكرت في رسالتي بدقة . بالإضافة إلى ذلك أمن في « شركة موسكو » على بيتك بمبلغ كبير ، وأنت لاثحتاج لارشاداتي، فأنا أعلم أنك قادر وستدبر أمر العميل .

أنا بصحة جيدة، لاتقلقوا علي . لقد احزنني جداً وفاة « تفيتشيا » . لقد سررت جداً لحيازتك رتبة ملازم ثان (١) . انت تستحق أكثر من ذلك ، لكن لابس البقية ستأتي في حينها . أنا مدين قليلاً لـ « يريمو »، « لايتادزه »، « وليهودي دانييل » . اقل تحياتي للجميع وقل لهم أنني سأتي قريباً وأسدّد ديوني .

أنا أبكي دموعاً مرة لأنني لم أر منذ مدة أحبي «بوبي»، «خوخو» و«نوتيو» . قبلاتي للجميع . من يدري ربما نقلتكم ، فيما لووفقت ، من هذه البلدة القلدة كوتايسي إلى تفليس . صلّوا لئلا وسيستجيب لكم .

إبتك كفاتشي

(١) إذا كان الأمير أو النبيل لا يشغل منصباً حكومياً وترغب الدولة بتكريمه كانت تمنحه رتبة ملازم ثان وتسمح له بحمل تلك الرتبة .

ملاحظة : أخبرني أما تزال الأرملة التي باعنا البيت — «فولكوف»
حية . أنهت السنة الثانية وبقيت لي سنتان دراسيتان . لا تخبر أحداً بمجيئي .

ابنك كفاتشي

وفي نفس الوقت قدم كفاتشي طلباً إلى « سالامانديرا » بأنه يرغب
بالتأمين على حياته ضد الأخطار بمبلغ عشرين ألف روبل .

— ألا تنوي ان تؤمن على حياتك ؟

— أخاف ، لأريد فأنا مازلت شاباً . أما الحادثة الطارئة قد تحدث
لي . . كثيرأ مأسافر ، قد تتعرض العربلة للاصطدام ، أو قد تقع قطعة
قرميد من السطح على رأسي .

تلقي بعد أسبوعين البوليصة ، ثم استلم بريقة من كوتايسي بريقة تقول :
« تلقيت البوليصة ، سيلبيسترو » . بعد مرور عدة أيام أعلن كفاتشي لرفاقه
فجأة : « لقد مرض أبي سيلبيسترو . سأسافر غداً إلى كوتايسي » .

سافر كفاتشي ويسو على جناح السرعة بحراً . وفي اليوم الخامس
دخل كفاتشي بيته الذي أمضى فيه العام المدرسي الأخير وحيث كلف
العم « خوخو » وسيلبيسترو غالباً . علت الضجة واللغط وأصوات الفرح
في أسرة سيلبيسترو ، كثرت القبلات والعناق والشراب . كادت
أم كفاتشي أن تصاب بالاغماء من هول المفاجأة ، وبكى الشيخان
« خوخو » و « نوتيو » . أما سيلبيسترو فكان يتسم نافشاً ريشه إذ
كانت كتابات الملازم الثاني تزين منكبيه العريضين .

بعد أن سأل كل منهم عن أحوال الآخرين وبعد أن مضت موجة

الاضطراب دخل كفاتشي ويسو وسيليسترو المكتب وأغلقوا الباب ،
تهامسوا ، تحدّثوا وفكروا طويلاً .

فكروا بالأمر وحسبوه طوال أيام ثلاثة ، حفظ كفاتشي عن ظهر
قلب بوليصتي التأمين على حياة سيليسترو وبيته . سر كثيراً لأن قيمة
البيت لا تزيد على أربعة آلاف روبل ، في حين أمّن عليه بمبلغ عشرة
آلاف. في اليوم الرابع لم يتمكن سيليسترو من النهوض من الفراش .
كانت تؤلمه احشاؤه ، فأنّ وشكى .

مر أسبوعان آخران . وجد الأطباء لدى سيليسترو ملاريا مرة
والتهاب معدة مرة أخرى وداء السكري والسرطان في مرات أخرى .

— آه كيف يمكن أن نثق بالطبيب المحلي في كوتايبي : قال
سيليسترو وأفراد أسرته — الحمد لله أنّ كفاتشي هنا ، سيأخذ المريض
إلى أوديسا أو تفليس .

دار كفاتشي ويسو في كافة انحاء كوتايبي ، تذكر « يريمو
المنتفخ » « لايتادزه » واليهودي « دانييل » ولم ينسيا « شوليا » وزوجته
المخلصة « صفيرى » .

لم يجد كفاتشي « شوليا » في البيت . وهذا مالم يزعجه . وبهذا
الصدد كادت رجلا « صفيرى » ألا تحملاها من الفرحة ، تذكر
كفاتشي وصفيرى أيامهما الخوالي وتدوقا مرة أخرى بقايا حبهما
الناعم الذي غطاه العفن .

ولم ينس ويسو أيضاً صفيرى . هو أيضاً ذكر سيدته السابقة بأيامهما
الماضية الحلوة النافعة .

بعد أن علمت الأرملة « فولكوبا » بمقدم كفاتشي أغلقت على نفسها باب غرفتها الرطبة المظلمة وأمضت الوقت الذي صرفه كفاتشي في اللهو . أمضته بالصلاة والصوم . كانت تنجس من كفاتشي وتتحاشاه وكأنها — يبدو أنها خرفت — خدعته وسرقته ، ثم تركته بعد ان سلبته كل شيء .

أخيراً دثر كفاتشي جيداً سيلبيسترو الضعيف الواهن ونقله إلى تفليس . وهناك في « ديدوب » استأجروا بيتاً هادئاً مؤلفاً من ثلاث غرف وبدأوا العمل . في اليوم التالي تجول كفاتشي باحثاً . فتح عينيه جيداً وأستم ماحوله . جرى جمع وثائق ، فتش عن شيء ما ، وأخيراً عرفه ومشى في أثره حتى وجده .

ذهب كفاتشي ذات مرة إلى عجوز روسي في الثمانين من عمره وسأله :

- أأنت صاحب هذا البيت ؟
- نعم ، أنا .
- أيعيش عندك « أوانيس شابوريانتس » ؟
- إنه حارسي . هو مريض جداً .
- مريض ؟ ماذا به ؟
- أصابه الشلل منذ أسبوعين . لقد شلت أطرافه اليمنى ولسانه .
- ياإلهي ، لماذا لم أعلم قبل الآن ؟ ربما كان بإمكانني مساعدته .
- لا تستغربوا ! نحن أصدقاء قدامى . غرقت ذات مرة في نهر كبير فساعدني أوانيس ونشلي من النهر . .

انقلدني من الموت وكاد أن يغرق هو بالذات . ثم فقدنا بعضنا ،
وهاقد وصلت للتو من روسيا وعرفت مصادفة ان « أوانيس » لديكم .

— ستقوم بعمل نبيل فيما لو أعنتيت به . ليس له أقرباء على وجه
الأرض ، ولا يوجد لديه مقربون يهتمون به . إنه من تركيا هاجر إلى هنا .

— أعرف ، أعرف أنه أرمني من « وان » قتل الاتراك أسرته . .
يا إلهي ، ماذا يحصل لي ، كم تأخرت ! أرني بحق الإله ذاك المسكين .

— تفضلوا ! أنا نفسي احتاج للمساعدة ، ولا أدري ماذا أفعل
للعناية به . لقد أزمعت اليوم على مراجعة المستشفى راجياً عساهم
يقبلونه . .

— آه ، لا تفعلوا هذا . أنا سأتولى العناية به .

في القبو المظلم الرطب ، القدر كان ثمة جسد هامد لاحتراك فيه
ملفوف بخرق نتننة .

— باري لوست أوانيس ! كيف حالك ؟ عرفتني نعم ! هاقدا
جئت . . وجدتك بصعوبة . . لقد انقلدني ذات مرة من الموت وجاء
الآن دوري . . يجب أن تذهب معي . لا تخف ! خلال اسبوعين
سأجعلك تقف على قدميك . . حسناً اين بطاقتك الشخصية وأوراقه ؟
لديكم ؟ أعطنيها من فضلك . أحضر عمالاً ، حملوا أوانيس المصعوق
إلى العربة ، ثم نقلوه إلى شقة كفاتشي . ورضي الثلاثة :
كفاتشانيرادزه والعجوز الروسي وأوانيس شابورباننس ، وفي نفس
استدعى كفاتشي الطبيب .

— أيها الطبيب ، النجدة ! . . أنجدنا بحق الإله ! .. يا للمصيبة التي حلت بي . . لماذا حق بي غضب الله ! بكى كفاتشي نادباً حظه .
— اهدأ بحق الإله ، اهدأ وحدثني ما حصل . كيف حدث ذلك ؟ ومن هو المريض ؟

— أبي سيلبيسترو كفاتشا نثيرادزه . منذ شهر وبعد انتقاله إلى تفليس ، وكان سليماً معافى لم يلاحظ عليه أي شيء . لعلكم تذكرون أن قبيلة انفجرت منذ عشرة أيام في البازار ؟
— كيف لا ، طبعاً أذكر ، أذكر جيداً .

— كنت هناك مع هذا المسكين . لقد انفجرت تلك القبيلة بين أرجلنا تقريباً . كيف نجونا الله وحده يعلم . حدثت لنا معجزة حقيقية . وفي نفس الدقيقة ركبنا عربة ومضينا، وحتى تاريخه مازال أبي يرتجف .

أردت استدعاء طبيب ، لكنه لم يشأ . قال : هذا مستحيل ، فأنا لم يعايني طبيب طوال حياتي ولأأريد ذلك الآن .
لكن اليوم أصيب فجأة بالشلل ولسانه أيضاً ، خلصنا ، اللهم من المصائب ، خذ بيدي يا إلهي !

— اهدؤوا ! لا تقلقوا ! سأعائن المريض ، لعله لم يصب بشيء من هذا ، فحصن الطبيب المريض، نظر أوانيس بعينه التعبتين اليهما .
حرك شفتيه وفكر :

— « استواتس تيروارميان ! من هذا الشاب ؟ ما الذي يبغيه مني ؟ ولماذا نقلوني إلى هذا البيت ؟

كاد كفاتشي ان يفقد صوابه . فكر في نفسه : هاقداً أشرف
المريض على الكلام !

أخيراً قال الطبيب :

— لا أخفي عليك، فأنت رجل يجب أن تتمالك نفسك وتبقى
على استعداد دائم .

من المحتمل أن يسلم أبوكم الروح قريباً وربما عاش طويلاً .
أرعب عزاء الطبيب كفاتشي ، شدّ على شعره وتأوه ثم سقط
على الكرسي :

— يالهي . . ياربّي العظيم !

كتب الطبيب الوصفة . أعطاه الارشادات ، ثم أنصرف .
وفي نفس الوقت جاء سيلبيسترو من الشارع :

— كيف الحال ؟

— جيد جداً . قال : « من المحتمل أن يموت قريباً . أنت رجل
عليك بالصبر والتحمل ، يجب أن تكون جاهزاً دائماً ،
ضحكاً ساخريين .

— لاتعطه أي طعام . لاتعطه الدواء أيضاً . . .

— طبعاً، سيما وأن هذا سيكلفني مالاً . لكن لابد من شراء الدواء ،
فالطبيب سيأتي فيما بعد . . أنا ذاهب إلى الصيدلية . . غداً سأخذك
إلى المشفى ، تظاهر أنت بالمرض . أبداً بعقد لسانك . . اصبر أسبوعاً . .

— حسناً ، حسناً أذهب لاحضار الدواء وعدّ بسرعة !

في اليوم التالي وفي إحدى مستشفيات تفليس الكبرى سجلوا
« أوانيس كارابفتش شابوريانتس في الخامسة والأربعين من عمره . .
من بلدة « وان » تركي الأصل .
« أعراض شلل . . » .

بعد أسبوعين نشرت إحدى الجرائد الجورجية النعوة التالية ؛
« في السابع والعشرين من أيلول — هذا العام مات فجأة في مدينة
تفليس ، بعد مرض عضال — سيلبيسترو كفاتشا نترادزه . ينعون
إليكم بمزيد من الأسى وفاته : أرملته بوبي وولده اليتيم كفاتشي
وحموه خوخوشيشيا وحماته نوتيو شيشيا ، سيصبح جثمانه اليوم
في الثانية عشرة ظهراً من منزل الفقيد : ديدوبي شارع ساغورا مسكيا
رقم الدار ٣٤ .

ملاحظة : حدث التباس صغير . نشر إعلان النعوة في نفس يوم
الدفن جراء خطأ ارتكبه هيئة التحرير، ونظراً لأن هذه الجريدة تصدر
مساءً لم يشارك في قداس المرحوم ودفنه سوى أفراد أسرته المتواجدين
في تفليس .

— مسكين « سيلبيسترو » . منذ اليوم التالي كان مقضياً عليه
بالموت — قال كفاتشي — ولسبب مجهول بدأ جسمه بالتفسخ وتفنن
وانتشرت منه روائح كريهة .

رتل الحورزي والشماس ترانيم الجنازة المعهودة بكسل وبلا رغبة ؛
— أرحم اللهم روح عبدك .

— الآن ودائماً وإلى أبد الآبدين ، آمين !

ضعفت بوبي ونوتيو . خارت قواهما ، بدتا حزبتين في ثياب
الحداد . كان شعرهما مشعناً ووجنتاهما ذابلتين وعيونهما كحفرة
لا ينضب ماؤها . ووقف خوخو وكفاتشي منكسي الرأس حزينين .
كان وجهاهما كتييين مقطبي الحاجبين ، عيونهما منتفخة حمرة بسبب
الحزن الشديد وانهيار القوى والدموع والأرق .

بعد انتهاء القداس وضعوا التابوت ، وجثة « سيلبيسترو » على المنصة
وتوجهوا بسرعة إلى مقبرة كوكيسكي .

تبع أقرباء المرحوم التابوت وهم يتنهلون ويتأوهون ويندبون .
حملقوا بأعينهم فيما حولهم بشكل غير ملحوظ ، تطلعوا نحو المارة ،
كانوا أحياناً يهدؤون ثم يندبون :

— آه سيلبيسترو لماذا سبقتني . ما الذي فعلته واستوجب استيائك ؟
بأي شيء أسأت إليك ؟ لماذا غادرتنا مبكراً ؟ — قالت نوتيو باكية
ولطمت وجهها بشكل خفيف .

— تشيبي يابني — قال خوخو بصوت ممطوط — لماذا اختار الإله
رجلاً قوياً مثله ونقله إلى جواره ؟ أية اكتاف سترينها رتبة الماريشالية
من بعدك ؟ من سيصبح أباً وماريشالاً لطبقة النبلاء بعد الآن ؟ لماذا
سكب الإله ماء في موقدنا ؟ لماذا أطفأ شمعتنا ؟

— آه كم أنا شقية ! أه يالهلاكي ! — صاحت بوبي — والآن
من سيذهب إلى « البازار » ، من سيشتري لحمه الشواء (الشاشليك)
والخضار التي تحبها كثيراً ياسيلبيسترو ؟ من سيغلق عيني هاتين البائستين
اللتين كنت تحب ؟ عشناً معاً ، والأفضل أن نمضي معاً إلى هناك . . كان
هذا هو اتفاقنا ياسيلبيسترو يا صديقي المخلص ! . .

— يا حزني — أنا التيس — لطم كفاتشي رأسه بيديه — من سيهتم
بي بعد الآن ؟ من سيقدم لي النقود للدراسة ؟ من سيمكنني من التحصيل
الجامعي ؟ ! لقد هلك أنا التيس !

ومشى بيسو شيكيا خلفهم أيضاً منكساً رأسه ضاحكاً في الخفاء ،
ذهبوا إلى المقبرة بخطى سريعة ، أنزلوا التابوت في القبر ، ردموه
بالتراب ، ثم عادوا حزينين مطاطي الرؤوس .

وفي ذلك المساء غادر « أوانيس شابور يانتس » المشفى ، ومضى
إلى محطة « نافتلوغي » ، وقد رافق كفاتشي « أوانيس » .

تاهما في الظلام ، ثم قبل كل منهما الآخر وافترقا .

وبعد عدة أيام سجل الموظف في قسم الشرطة « فلاديكافكاس »
في سجل الشرطة مايلي :

« أوانيس شابور يانتس ، ٤٥ سنة ، تركي الأصل . قدم من تفليس
وأقام في شارع « البازار » في البناية رقم ١٦ . . . » .

« مكاسب التأمين »

رسالة مسجلة :

إلى المندوب المحلي لشركة التأمين « سالاماندرا » ميخائيل
جافاخيشفيلي — مدينة تفليس ، فيرسكي رقم ٢١ الشقة رقم ٢
المرسل : كفاتشي سيلبيستروفيتش كفاتشا نثيرادزه .

« معروض »

أعلمكم بكل احترام أنه في اليوم الأول من تشرين الأول من هذا

العام وفي التاسعة مساء كنت راكباً دراجتي قاصداً « ديلوبي » وحين
أوشكت على اجتياز الكنيسة صدمتني عربة في الظلمة فسقطت . فحرر
المحضر اللازم . طياً صورة عنه . اصببت جراء ذلك يدي ورجلي
اليسريان . أنا مؤمن ضد الحوادث الطارئة لدى شركتكم بالبوليصة
رقم ١٢٤٣٩٢ تاريخ ١١ أيار من هذا العام .

بالإضافة إلى ذلك أخبركم، بمزيد من الحزن والحسرة ، أنه في
الخامس والعشرين من أيلول من هذا العام وفي الرابعة والنصف صباحاً
في مدينة تفليس توفي في شقتي فجأة والذي العزيز سيلبيسترو كفاتشا
نتيرادزه والمؤمنة حياته لدى شركتكم بمبلغ عشرة آلاف روبل بالبوليصة
رقم ٤٧٥٦٦٣ تاريخ ٤ حزيران من هذا العام .

أرفق طياً المستندات الثلاثة التالية :

— وثيقة تثبت معالجة المرض .

٢ — وثيقة الوفاة .

٣ — وثيقة الدفن .

أرجو اتخاذ الاجراءات القانونية المناسبة .

مع الاحترام . كفاتشي كفاتشانتييرادزه

الثاني من تشرين الأول عام ألف وتسعمائة و . .

مدينة تفليس شارع ساغورا مسكايا رقم ٨٤ .

وعملاً بالعرف الوظيفي المتبع والقوانين المرعية زار الموظف
المحلي للتأمين ميخائيل جافا خيشفيلي في اليوم التالي شارع ساغورامسكايا
وعاد كفاتشي كفاتشانتييرادزه الذي كان ملازماً فراشه .

- أأنت السيد كفاتشا نثيرادزه ؟ لقد جئت بناء على معروضك .
- أبدى الجميع اهتمامهم وخافوا : خوخو تشيشيا ، زوجته
نوتيو أم كفاتشي - بوبي ، تملل كفاتشي في فراشه وأخذ يئن .
- يسعدني بيجيئكم . . تفضلوا . . اجلسوا هنا . . لا هنا أفضل . .
- قدم خوخو كرسي خيزران ، ادنت بوبي كرسيًا صغيراً مريحاً ،
وحاولت نوتيو سحب الأريكة .
- لاتزعجوا أنفسكم أيها السادة ، شكراً جزيلاً .
بدأ كفاتشي الحديث :
- أنا أعرف كل شيء من بعيد أيها السيد المحترم ، سمعت الكثير
عن خصالك النبيلة . الجميع يمدحونك .
تدخل خوخو بقوله :
- الحمد لله أنهم لا يذمون ، بل يمدحون .
- السمعة الطيبة خير كنز يابني : — قالت نوتيو متنهدة .
- إذا نال شاب مثلك شهرة كهذه لابد من أن تذكره روسيا
كلها في سني شيخوخته — قالت الأرملة بوبي متأوهة .
- هكذا استقبلت أسرة كفاتشي موظف التأمين : فرشوا تحته الريش ،
تزلفوا إليه ، وغمروه بعذب الكلام .
- واستخدم موظف التأمين ، كرد على احترامهم الزائد، درعاً مناسباً :
- لاتصدقوا إذا مدحني الناس ، فهم أما يثرثرون أو يبالغون .

وإذا ذمّني الناس فربما كانوا مقصريّن . أنا أيضاً أعرفك من بعيد
أيها السيد كفاتشي ! اذكرّك ، لقد سافرنا معاً منذ سنتين إلى أوديسا .
— لماذا لأبلى بالعمى ؟ — انتعش كفاتشي للحظة — أذكر أذكر
جيداً . كنتم مسافرين يومئذ خارج الحدود أليس كذلك ؟ حينذاك
كانت الباخرة تتحدث عنكم ، لامثيل لهذا المهندس في كل أرجاء
روسيا — قال كفاتشي كاذباً إذ كانت معرفة الموظف بالمهندسة كمعرفة
كفاتشي بعلم الفلك أو اللغة السانسكريتية .

وبعد أن أنهيا من السلام والتزلف قال موظف التأمين :
— فلندخل في الموضوع . ماذا حصل لكم ؟ ماذا لديكم ؟
تباكت الأسرة وأنت وتسابقوا في الكلام :
— ماذا حصل لنا ؟ لاأتمنى ان يصيب عدونا مأصبا . .
— يبدو أن غضب الإله قد حاق بنا، وإلا لماذا نزلت علينا كل
تلك النوازل ؟ !

— هلكنا وخرب بيتنا ، تدمرت اسرتنا بكاملها !
بكت بوبي وخرجت إلى الغرفة الثانية . مسحت نوتيو دموعها
ونكس خوخو رأسه .

— حلت بأسرتنا كل النوائب — تابع كفاتشي متأثراً . لم تعرف
المرض اسرتنا . أمس الأول توفي والدي . كيف قضى نحبه ذلك الانسان،
حتى أنه لم يتمكن من قول كلمة واحدة . وفي اليوم التالي احترق بيتنا
في كوتايسي ، وهاكم الآن اصببت أنا .

- ألم يكن البيت مؤمناً عليه ؟
- آه ، من يفكر بهذا . لقد دفعوا لي العام الماضي أربعين ألف روبل ، لكنني لم أبعه . أما الآن فلن ألتقي أكثر من عشرة آلاف روبل ، أبكي والذي فليذهب إلى الشيطان البيت واليد والرجل !
- وهل أصابْتُكم خطيرة ؟
- ها ، أنظروا بنفسكم !
- رفعت نوتيو الضماد بحذر شديد . أنَّ كفاتشي وتململ صارفاً على أسنانه . كان المعصم والرسغ مزرقين ومتفحّين .
- هاكم بوليصة أبي المسكين بعشرة آلاف روبل . .
- كنت أتمنى أن أدفع للشركة مائة ألف روبل لوأنه بقي حياً — دمدم نخوخو .
- هاكم أيضاً بوليصة تأميني . لقد أمنت على نفسي بمبلغ عشرين ألف روبل ، أمر بسيط لم أشأ أنا انما مسؤول التأمين في أوديسا حثني على ذلك . أتعرفون غوفشتين ؟
- تفحص مسؤول التأمين البوليصات وكافة الوثائق .
- نعم ، أعرفه .
- كان كل شيء نظامياً .
- من يطببكم ؟ من هو طبيبك ؟
- بيدوف أفضل أطباء القفقاس . أتعرفونه ؟

— لأعرفه. لم أسمع لدى الشركة أطباء معتمدون ، سأرسل إليكم واحداً منهم .

تيقظت عينا كفاتشي :

— أي طبيب ؟ من ؟

— رود نباوم ، مثلاً . طبيب مشهور .

— آخ ، لاتفعلوا هذا بحق الإله !

— السبب ؟

— شيء مخرج ، صعب علي أن أقول لكن .. تردد كفاتشي وتلملم .

— ومع هذا ؟

— أتعرفون زوجة رود نباوم ؟

— رأيتها ، لكنني لم أتعرف بها .

— حسناً سأقول . لكن عليك أن تعدني بألا يعرف أحد بذلك .

— حسناً ، أعدك .

— أردت استدعاء ذلك الطبيب إلى والدي ، فلم أجده في البيت .

رأيت زوجته فتركت لديها عنواني ورجعت بعد ساعة . جاءت إلي الزوجة بدلاً من الطبيب و . . لن أقول أكثر من ذلك . . آه لانسألني لا ، لن أقول لك أكثر من ذلك .

والآن قل لي كيف بإمكانني أن أقبل بأن يعالجني ذلك الطبيب

إذا كنت لأحترمه ؟ أرسل إلي غاييلزه ، فهو طبييكم أيضاً .

— كان . . والآن لم يعد طبيينا . . السبب ؟ لأدري . لقد عينوا
شابيشفيلي بدلاً منه . سأرسله إليك . سأذهب الآن .

— آه لا تقل هذا . . . لم أنت مستعجل ؟ ثريث قليلاً . سنشرب
القهوة . لماذا تعرض عنا ؟

— كيف أعرض عنكم ؟ انني علي عجلة من أمري وحسب ،
وإلا لشربت معكم بكل رضى . .

— أيها السيد ميخائيل — قال كفاتشي راجياً — إن هذه القضية
بسرعة ولا تعذبني ، وإلا سأبصق على هذه الأموال وأمضي في حال
سبيلي . .

سأنال منها قروشاً لاستحق العناء وضياح الوقت .

— لا تقلق سيد كفاتشي . سأرسل وثنائق وفاة أليك هذا اليوم
إلى بطرسبورغ ، وبعد شهر سأسلمك العشرة آلاف روبل يداً بيد .
أما فيما يخصك . فعليك بالثريث ، وبعد ان تتعافى سنسحب عشرين
روبلًا عن كل يوم .

— وإذا لم أتعاف ؟

— كيف يمكن التفكير بذلك ؟ طبعاً سنتعافى .

— وإذا لم أتعاف ؟ كثيراً ماتتيسس الرجل أو اليد جراء حوادث
بسيطة ،

— إذا تخشبت يدك ورجلك سوف يعطونك كامل المبلغ المؤمن
به . لذا كن مطمئناً ، وداعاً .

— وداعاً أيها السيد وداعاً ! زرنا . . . زرنا مرة أخرى . لانتسنا
أيها السيد . لاتهملنا .

حين خرج مسؤول التأمين نظر الجميع إلى بعضهم بعيون متسائلة
ثم تتم خوخو أخيراً :

— آه ، لن يعرف هذا الانسان شيئاً .

— لن يعرف شيئاً — أكد كفاتشي بصوت خافت .

.. قال الدكتور شايشفيلي للمندوب التأمين :

— أنا لأدري شيئاً عن يد ورجل كفاتشي ، ثمة شخص يفسد
ماأصلح . حين أضع الدواء واضمّد مكان الإصابة أترك علامة خفية ،
وفي اليوم التالي أجد العلامة كما هي . لكن اليد والرجل المصابتين
قد ازدادتا هزلاً والتواءاً . من الواضح أن أحداً ما يشاركني العمل .
— لدي أخبار تفيد أن طبيبنا السابق « غوييدزه » ، يزور كفاتشي
ليلاً .

بالإضافة إلى أن جدة كفاتشي « نوتيو تشيشيا » لها علاقة بالأمر .
هذه المرأة على دراية جيدة بأمراض الحوادث والكسور . يبدو أنها
امرأة ماهرة في تشويه الأطراف . زبائنهم كثيرون دائماً ، فهناك أناس
كثيرون يريدون التهرب من الخدمة العسكرية . لدينا الصلاحية في
ادخال كفاتشي إلى المشفى وتعيين مراقب دائم له . لكنني لن أبدأ
الآن لمثل هذا الاجراء ، فقد يثير هذا مختلف الأقاويل وسيستغل ذلك
مندوب شركات التأمين الأخرى وسنصبح مضطرب في أفواه الناس وسيثيرون
البلبلّة وسيؤثرون إلى سمعتنا . زره كل يوم وتابعه ، وسنرى كيف ستجري

الأمور بعد الآن: دع كفاتشي يشعر بشكل ما بأننا كشفنا لعبته . .
أصبح يعلم ؟ جعلته يفهم ؟ حسناً فعلاً ، حسناً هذا أفضل . . إلى اللقاء
.. وداعاً !..

بعد أسبوع قدم مندوب التأمين غوفشتين والدكتور شابيشفيلي
إلى منزل كفاتشي بشكل مباغت . بهت كفاتشي ، ارتبك ، شحب ثم
أحمر . وكان قد نحل وأصفر وذاب بعد مدة المعاناة .

— تحياي للسيد نابليون أبولونوفيتش ! صرخ غوفشتين مرحباً .

— سلامات للسيد كفاتشي — حياّه المندوب بهدوء .

— مرحباً وأهلاً وسهلاً . . يا صباح الخير . . تفضلاً وأجلسا . .

هاتوا الكرسي !

ابدوا اهتمامهم وارتبكوا .

.. كيف الصحة ؟ كيف الحال ؟

بدأ كفاتشي يبكي ويشكي ويتأوه بطريقته السابقة :

— هلكت . . دُمِّرت . . مات أبي واحترق بيتي وتهدمت

الأسرة وحالي الآن تسير من سيء إلى أسوأ .

.. — اعرف ، أعرف كل شيء ، بل وأعرف أكثر مما تتصور —
قبطعه غوفشتين .

— أيها السيد الدكتور ، ارفع الضماد عن اليد والرجل المصابتين ،

ومن جديد أن كفاتشي وصرخ متألاً . فكوا الضماد عن يده ورجله .

نحل طرفاه ، تيسا واصبحا كاصبعين نحيلتين .

— آه ، هذا هو . . هو بالذات ! رأيت أعرف ماهذا — قذف غوفشتين كلامه بشكل متقطع — ضمده ! — ثم راح ينقر بأصبعه على النافذة وينظر إلى السماء ريثما انتهى الطبيب من عمله، ثم التفت وقال بصوت صلب كالقولاذ :

— والآن لتدخل في الموضوع . أقول بايجاز ووضوح وبصرامة : فلنته من لعبة « الغمضة » هذه . هذا لا يناسبنا ، فنحن لسنا صغاراً قبل كل شيء . لقد أوكلت إليّ تصفية قضاياك الثلاثة .
— بما في ذلك البيت ؟

— أجل وقضية احتراق البيت . فلنبداً منذ البداية أولاً :
غادرت أوديسا خلصة ودون اجراء التصفية وأخذت معك مايقارب الألف روبل . . مهلاً أيها السيد ، مهلاً نحن لانعرف « شيكيا » أو « تشيكنجلادزه » أو « افلاباريان » أو « كاتسمان » ، نحن لانعرف غيرك ولاعلاقة لنا بأحد سواك . .

ثانياً : لقد خدعت الكثيرين . حتى ان أوديسا كلها أصبحت تتحدث عنك . . .

ماذا ؟ من خدعت ؟ هالك لائحة بأسمائهم . تفضل واقرأ .
لقد دفعنا عنك للزبائن ٢٦٧٥ روبلاً .

ثالثاً : لقد رهن أبوكم البيت في المصرف العام الماضي بمبلغ ١٤٠٠ روبل ، وخمنه المصرف بمبلغ ألفي روبل، وأنت أمنت عليه بمبلغ عشرة آلاف روبل . مازال السمسار في يدي . عمك أو جدك — هذا العجوز خوخو شيشيا لن يفلت أيضاً من قبضتي . . قلت لك مهلاً لاتتعجل ولا تتحمس والآن :

رابعاً : وهو الأهم . أنا طيب وخير قديم شخت وأنا أخدم
كمندوب تأمين ، ومن الصعب ، بلى مستحيل خداعي . عاينت وعاشت
آلاف المشاكل ، رأيت ومررت على مثل هذه الأطراف المشوهة . كيف
سقطت ببراعة هكذا ، بحيث أصيبت رجلك من الداخل ويدك أصيبت
من الجهة المقابلة ؟ شيء مدهش وغير مفهوم ، بالإضافة إلى ذلك ماسبب
تيتس يدك ورجلك ؟ غداً سنبحث عن السبب في المشفى ، غدا يجب
أن تدخل المشفى . . ماذا ؟ لا ترغب ؟ لا تقلق ! سيلازمك رقيبان
ليلاً ونهاراً ، ماذا ؟ لا يعجبك ؟ تمنع ؟ أنت تعلم جيداً بأننا نملك الحق
في ذلك ومع ذلك لا ترغب ؟ ماذا ، ستعمل فضيحة ؟ ستحرك العالم
بأسره وتجعل الجرائد كلها تتحدث عن ذلك ؟ هذا شأنك .

إذا كانت لاهمك سمعتك وسمعة هذا العجوز ، أو عميل التأمين
في كوثايسي يصبح عندئذ وجودنا هنا لافعى له ، ونحن ذاهبان .
نهض غوفشتين .

— انتظروا سنحدث . . قد نتفق . . ونهض كفائشي من الفراش .
— حسناً سنحاول باختصار : أترى هذه النقود — وأخرج غوفشتين
من جيب بنطاله الجانبي رزمة من فئة الخمسمائة روبل — هذه النقود
ستحول إلى جيبيك إذا تصرفت بعقلانية ونحوت منحى الاعتدال .

انقذت عينا كفائشي ولمعنا . جف حلقه ، تملل واهتز .
— أنا . . أنا لست جشعاً لكنني لأحب الجدال . اتحاشى الخصام
ولست هاوياً للمشاكل .

— حسناً ، فلنتحاسب . تستحق عشرة آلاف روبل كتعويض
عن وفاة والدك . هذا لاجدال فيه .

استراح قلب كفاتشي. وكان غوفشتين أزاح عنه حجراً ثقيلاً
وزنه عشرات البودات .

— بيتكم يساوي أربعة آلاف روبل على أكثر احتمال . يهـيـج
المبلغ خمسة عشر ألفاً ، ثم أطرافك مؤمن عليها بعشرين ألف . هذا
المبلغ يمكنك المساومة عليه ، فيما لو أن أطرافك تبيست فعلاً . لكنني
أصدقك القول وأؤكد لك أن رجلك لم تبيس ولا يدك . سنعالجك
وستستعيد غافيتك خلال شهر حتى تستطيع الجري على ساق واحدة .
سيكلفك هذا العلاج ٤٠٠ — ٥٠٠ روبل . سنعطيك عشرة اضعافها
أي خمسة آلاف .

— يعني أنكم تعطوني عشرين ألفاً بدلاً من أربعين ؟
— نعم عشرين ألفاً . إما أن تأخذ النقود حالا ، وأما أن تفضل
إلى المستشفى ، وإما سأمضي إلى المدعي العام .

— مبلغ قليل . لأرضى .

— إذاً ، وداعاً .

— انظروا ، لا تتحدثوا ، أعطوني مهلة ثلاثة أيام لأفكر .

— لا أستطيع . إن شئت منحتك ساعة للتفكير . سنمضي وننتزعه

في « موشئتد » ثم نعود .

— لا خيار آخر لدي . سأخضع لكم ، لكنني أحتج .

— حسناً إلى اللقاء ، لن أودعك .

ثلاثة خرجوا وبقي أربعة . وبدأ الضجيج والجدال الحامي .

عدوا على أصابعهم . مرت ساعة وعاد الذاهبون .

- فكرتم ؟ قررتم ؟ — سأل غوفشتين .
- استحق خمسة وثلاثين ألفاً ، لكنني أرضى بثلاثين .
- أهذا جوابك النهائي ؟
- نعم .
- إذاً ان نستطيع الاتفاق ، إذا ندهم لاثلوموني . . وداعاً ! —
- ثم خرجوا من جديد وحين نزلوا الدرج قفزت بوبي صائحة :
- انتظروا . . ارجعوا . . لاترعلوا منا . . نريد أن نقول لكم
بضع كلمات .
- عادوا مرة أخرى .
- سبعة وعشرون ألفاً لانقص روبلاً واحداً — قال كفاتشي
بصوت أجش .
- في هذه الحال كان علينا ألا نعود :
- انتظروا إلى أين تجرون ؟ خمسة وعشرون ؟
- عشرون . نعم أم لا ؟ أعرفت . . أعرف كل شيء . . لا ضرورة
للكلام الزائد .
- نعم ، أم لا ؟ إذا وداعاً
- خرجوا مرة أخرى . لحق بهم « خوخو » في نهاية الشارع يجرد
قدميه بصعوبة .
- لاترعلوا منا أيها السادة إذا كنا أسأنا إليكم بشيء . . اعنرونا
. . عودوا . . لقد وافق كفاتشي .

عادوا من جديد .

— آمل ألا نعود للمساومة . اتفقنا على مبلغ عشرين ألفاً ؟

— حسناً لكنكم أجريتم حسابي . أرجو ألا يحسم شيء من المبلغ .

— لن نحسبه ، نطرحه جانباً ، هاتوا حبراً وقلماً !

— إذاً انتهينا، وبدأ يشكو ويندب — هلكت .. دُمِّرت .. كيف

يمكن إقامة علاقة معهم ! ليس لديهم شرف أو ضمير أو وفاء !

إلى أين سأمضي ؟ أتى لي الجري وراء الحق سنتين أو ثلاث سنوات .

بإمكانني خلال هذه المدة كسب ضعف هذا المبلغ .

كتب غوفشتين كتاباً مفصلاً .

— وقعوا عليه جميعاً .

« قرؤوه ووقعوه » ، ثم شخصوا بأعينهم نحو النقود التي أخرجها

غوفشتين وعدّها .

— لقد هلكت .. دمرت ! — مرة أخرى قال كفاتشي نادباً —

ثم دس النقود تحت الوسادة .

-- وداعاً ! إن شاء الله تنفقون هذه الأموال بالهناء والخير .

— وداعاً ياسيدي ، وداعاً !

ودعّوهم حتى الدرج . دمدم غوفشتين :

« .. أخطأت . لقد أعطيتهم الكثير . كان يمكن ارضاؤهم بخمسة

عشر ألفاً .

وفي منزل كفاتشي هاجم بعضهم بعضاً . كان «خونخو» و «بوبي»

فرحين وراضين غاية الرضى . أما نوتيو وكفاتشي فكانا ساخطين عابسين .

اثناء ذلك دخل ييسو .

— ييسو ، أين أنت ؟ اين اختفيت ؟ مالك اختبأت في الوقت
الخرج أيها الانسان الطيب ؟

حين خرج غوفشتين من هنا للمرة الأولى كنت قادماً إليكم ،
فعدت أدراجي وأقتفيت أثرهم إلى « موشثند » . تنصت إلى أقوالهم
وعرفت أنهم لن يدفعوا أكثر من عشرين ألفاً وأجبرتكم عن طريق
بوبي ماذا رأيي . يجب أن تهدوا « ابقونة » للكنيسة لأنهم لم يسلمونا للنيابة .

بعد كلمات ييسو ضجّ الجميع فرحين منشرحي الصدور .
نزعوا الضماد عن كفائشي ، غسلوا يده ورجله بدواء خاص ، ثم دهنوها
بمرهم جديد . لم يبد ألاماً ولم يتأوه ، ثم جلس وكتب البرقية التالية :

« فلاديكفاس ، شارع . البازار رقم ١٦

السيد شابوريانتس

أنهينا القضية بعشرين . أرسل إليك خمسة . اشتر بيتاً . سنسافر
إليكم قريباً .

« أنا بوديست »

— هذه الأموال والبرقية في طريقها إلى سيلبيسترو — قال كفائشي . —
لنلحقو — جهز نفسك للسفر غداً إلى كوتاييني ، بع كل ما بقي لدينا
هناك ، بما في ذلك الأرض والأثاث . ماذا ؟ كيف سنتصرف مع الأرملة
« فولكوف » ؟ وهل سأجرها ورأئي حتى الممات ؟ أعطها مائة روبل
وكفى ! قل للجميع إننا مسافرون إلى وارسو . . انتظر ! اشتر كونياك
« مارتيل » وشمبانيا « ريدير » « مارسالا » و « خيريس » أو « بورتوين »
« زجاجة شير » أو « شارتريز » وسجائر « فيكتوريا » .

لأننس الاسم بيسو، أكتب له . وأحضر أيضاً فواكه وأنااساً .
 ماذا ؟ شاخ الرجل ولا يدري ما هو : مارسالا ، خيريس ، شير ،
 شارتريز ، أناناس ؟ بيسو ، أذهب أنت يا عزيزي واشتر كل هذه
 الحاجات لي . هات معك أيضاً شوكولا « القهوة » ، أو « شوشاري » .
 إذا لم تجد شيراً أصلياً هات « ابريكوتين » أو « بينيديكتين » . تنتظر كم
 هدايا قيمة ، سأشترها بنفسى بعد أن أنهض وأتعافى . . ماذا قلت
 يا « نوتيو » ؟ ستجعلني أقف على قدمي خلال عشرة أيام ؟ حسناً
 سأبقى مديناً لك . والآن أعطوني قليلاً من الهدوء . . لقد تعبت . .
 يجب أن أغفو .

واستسلم كفاتشي لنوم عميق هادى بعد أن إمضته تعب مضن .
 وبعد الخلاص من العملية الخطرة .

بعد أسبوعين لمح خبير التأمين في محطة تفليس شاباً وسيماً ممشوق
 القامة أنيقاً :

— مرحباً أيها السيد كفاتشي !

— مرحباً أيها السيد المحترم ميخائيل ! كيف الحال ؟

وشد كفاتشي على يد الخبير بنفس اليد التي كانت منذ أسبوعين
 يابسة متخشبة .

— شكراً . كيف حالكم ؟

— لا بأس . . ليس تماماً كما كنت أرغب ، لكن لست في حال
 رديئة كالتى كان يتمناها غوفشتين . لا بأس . سأواجه مع ذلك الجيب
 في مكان ما . وداعاً !

— سفرأ سعيداً — أجاب الخبير بابتسامة ، وهو يتابع بنظره كفاتشي
 المسرع في سيره .

القسم الثالث

كيف درس كفاتشي

الأعمال المصرفية وكيف أخاف رفيقه

ريشما باع بنوخو شيشيا الأرض في كوتايبي التي كانت تضم البيت والأثاث استغل كفاتشي كفاتشا نثيرادزه الوقت ووسع أعماله في تفليس .

ومع أنه كان ما يزال يعرج قليلاً ، ويده ما تزال في الضمادة إلا أنه روض نفسه على ارتياد النوادي والمسارح وأماكن التسلية المختلفة ، تعرف بنمن استطاع ، تفحص الجميع وزارهم وقيمهم من خلال إمكانية الاستفادة منهم .

قبل أن تشفى يد كفاتشي وأصابه تماماً لم يوفق في لعب الورق . لكنه بعد ثلاث جولات استعاد حظه ، استرد الخسارة وبيع فوقها خمسة آلاف :

الحقيقة ان كفاتشي تعرض في الليلة الأخيرة لموقف مكرب : استدعاه المشرف المناوب إلى غرفته وقال له كلمات قاسية وجهاً لوجه ، لكن ذلك لم يفقد كفاتشي صوابه ولم يجعله يحمر خجلاً . فهو مسافر بعد

أيام قليلة إلى روسيا وكان سيان بالنسبة إليه مايقول عنه أو مايفكر به عشرة أو مائة شخص في تلك المدينة التي يعتبر فيها مجهولاً .

تعرف كفاتشي أثناء اللعب بشخص يدعى « نظيموف » الموظف في مصرف « آروف » وهو مقامر محب للشراب ، سكير أفلس في المقامرة وربح عدة مرات « بالدين » ، لكنهم طالبوه أخيراً باحضار النقود ، ولم يوزعوا عليه ورق اللعب . تالفت فيما حوالة ثم قال كفاتشي :
— أقرضني ، أيها الأمير ، عشرة روبلات إلى الغد .

— عشرة روبلات ؟ وكيف أقرض من لا أعرفه ؟

— إذا كان هذا هو السبب اسمح لي أن أقدم لك نفسي : نظيموف —
مد نظيموف يده ومد كفاتشي يده بشكل تلقائي .

— زالت العقبة. هل أصبحت الآن العشرة روبلات من حقي ؟
أعجب كفاتشي بحسن تصرف نظيموف ، فألقى إليه طواعية بعشرة روبلات وأرفقها بابتسامة . في تلك الدقيقة لمعت فكرة في رأس كفاتشي وتبعته الابتسامة ابتسامة أخرى ، وتلت الكلمة كلمة ثانية والعشرة تلتها عشرات . وفي تلك الليلة توجت الحمرة تلك الصداقة الجديدة واكتملت بالنساء الجميلات .

وجد القلب قرينه وأنفس صنوها . دعا كفاتشي نظيموف مرتين — ثلاث مرات ، أقرضه قليلاً من المال ، صادقه ودجته — تهامساً مرة — مرتين وبعد ذلك بدأ كفاتشي يستعجل ويحث أهله على العجلة . سأله بوبي مستفسرة بعينها .

فهم كفاتشي السؤال وأجاب :

— تفليس مدينة عجيبة — غريبة لا يرجى منها نفع . وهي بالإضافة إلى ذلك مدينتنا، سأسافر وأتوارى . الأرض واسعة ومن هنا لن تصل الثروة والأقاويل إلى هناك : من يلري ماذا ينتظرنى أية صعوبة قد تعرض لها ، ومتى سأحتاج لهذه المدينة ومتى ستكون ملائمة لي !
فهموا قصده ، فجهزوا أمتعتهم وتهيؤوا للسفر .

توجه كفاتشي وأقرباؤه باتجاه روستوف . بالقرب من فلاديكفكاس في محطة « بيسلان » . استقبلهم سيلبيسترو ، الذي أصبح أسنمه أوانيس شابوزياننس ، حليق الذقن . مرتدياً ثياباً أوروبية . تساءلوا عن أحوال بعضهم ، لاطفوا بعضهم بعضاً . ثم انحرفت أسرة سيلبيسترو باتجاه فلاديكفكاس ، وتابع كفاتشي ويسو ونظيموف ، الذي أخذ إجازة ، طريقتهم نحو روستوف التي وصلوها في اليوم التالي :

تساوروا في المحطة قليلاً ، ثم شربوا القهوة ودخلوا إلى المصرف . تردد كفاتشي في البداية ، خاف ، ثم انتصب فجأة ، تشجع ، تنشط وعلا الحزم وجهه . فتح باب مكتب المدير بهدوء ، مشى نحوه مباشرة بلا اكتراث :

— اسمحوا لي أن أقدم نفسي ، أنا الأمير « أوريلياني » .

ووضع على المكتب هوية شخصية وبطاقة مصرفية مطابقة للاسم . كانت البطاقة المصرفية تنص على مايلي :

« مصرف آزوف — الدون . . إلى فرع روستوف .

نرجوا أن تدفعوا للأمير نيكولاي بافلوفيتش أوبريليانى مبلغ
٣٧٤٣٥ روبلاً على حساب فرع تفليس للمصرف المذكور .

المدير

المحاسب

أمين الصندوق

نادى المدير الموظف المسؤول . إعطاه البطاقة وقال له آمراً :

— ابحث عن استمارة التحويل : ثم اتجه بكلامه نحو كفاتشي —
أنتم في روستوف للمرة الأولى ؟ من تعرفون ؟

مررت عبر « روستوف » ثلاث أو أربع مرات . وفيما مضى
أقيمت في المناطق المجاورة لدى اصدقائي مايقارب الثلاثة أيام لدى
ابن السيناتور « دينيسوف » . لدى الكونت « نوتبيك » والبارون
« تيزنغاوزن » . . لقد ترعرنا معاً في مدرسة (الباج) (١) . وأنا الآن
أقصد « نوتبيك » . . إقطاعيته تدعى « كاليوفكا » ، أليس كذلك ؟
تبعد عن هنا مايقارب الفرسخين . . ربما أصبحت صهره بعد أسبوع .
رجع الموظف ، وضع الأوراق أمام المدير . كتب المدير على تلك
الأوراق « تُصرف » ، ثم أعاد الهوية إلى كفاتشي وتحدث معه عن
مدارس « الباج » .

وحول كفاتشي الحديث بمهارة إلى أوديسا . تحدّثاته نهض كفاتشي
أخيراً :

(١) الباج : مدرسة قبل الثورة الشيوعية وكان يدرس فيها أبناء الطبقة النبيلة
ويتخرج فيها الشباب فرساناً يخدمون الاقطاعي الكبير أو القيصر — المترجمان

.. — لقد سررت جداً بالتعرف عليكم . أرجو أن تشرفتا إلى حفلة الزفاف . . سأدعوكم برسالة خاصة . . وداعاً !

.. في حين كان كفاتشي « يتدبر الأمر » اجتاحت الرجفة تنظيموف .
أرتعد وبدأ يهتز . ابتعد في البداية عن يسوشيكي ، وقف جانباً ثم
همس في أذنه :

— إذا حدث أي شيء ، فأنا لأعرفكم .

ثم انفصل عنه . ذهب نحو الشارع وقال لبيسو :

— سأنتظركم في الشارع . . لاتنس أنا لأعرفكم .

بعد خمس دقائق دس كفاتشي النقود في جيبه الجانبي وثلفت .
ليس من أثر لتنظيموف .

— أين ذاك السكير ؟ سأل بيسو .

.. نحاف .. قال فيما لوحدث أي شيء ، أنا لأعرفكم ، وهو الآن
ينتظر في الشارع .

قطب كفاتشي جيبه ومضى نحو الباب . بعد أن أمسك بقبضة
الباب توقف . تلاًلاً وإنشرح . رجع فجأة وأمر « بيسو » هاتلاً .
هرع « بيسو » إلى الشارع . كان تنظيموف يقبع بجانب الباب .

— أسرع ، أنج نفسك ! — همس « بيسو » لتنظيموف ، ثم
نكس رأسه ووسّع من خطاه ومشى أثره تنظيموف الشاحب .

— ماإذا حصل ؟ . . . ماالقضية ؟ . . أعرفوا ؟ !

دخل شارعاً فرعياً :

. بـ نجونا بصعوبة . . الوضع سيء - قال « بيسو » بسرعة وقد ارتجف صوته - لقد وصلت استمارة التحويل، لكن المدير تردد بصرف المبلغ . . لأدري ، يقول ثمة خطأ في رمزكم . عليّ أن أرسل برقية إلى تفليس . خرج المدير والمحاسب إلى الغرفة المجاورة وتهامسا . . تحدثوا عن البرقية . . قلت سأعود غداً، ثم أسرعت في الهرب، سنهلك إن لم نخفف حالاً . لكن أتعرف أنا أيضاً لأعرفك .

بدأ نظيموف يرتجف واصطكت أسنانه وراح يهذي :

- يا لشقاء زوجتي وولدي . . أنا لا أملك أجرة الطريق . . كيف سأعود ؟ سيمسكون بي . . لقد هلكت !

- سأعطيك أجرة الطريق . عد فوراً . . هاك مائة روبل . دبّر أمرك أسرع ! وعاد نظيموف المذعور فارغ اليدين إلى « ستافروبول » حيث كان والداه العجوزان ينتظرانه .

وجلس كفاتشي وبيسو فرجين صاحكين في عربة الدرجة الأولى واتجها نحو الشمال .

- إذا اعتقلوا نظيموف فليبحثوا عني في كييف . . فهو يعتبرني فعلاً دانييل . . لقد أضعت عليهم طريقي بشكل جيد ! - قال كفاتشي لصديقه المخلص وسكرتيره الشخصي « بيسو » .

« كيف انتقل كفاتشي للسكن في بطرسبورغ »

مرّ أكثر من عام على انتقال كفاتشي وبيسو إلى بطرسبورغ . استدعى كفاتشي « جليلا » من أوديسا ، ثم تبعه تدريجياً أفلابريان ، تشخويشيفيلي وبقية الرفاق .

تجددت وانتعشت من جديد الأسرة الأوديسية . نادراً ما التفت هؤلاء إلى محراب العلم ، بل كانوا يتواجدون حيث يتواجد محبو الخمرة من الشباب والعاهرات وأصحاب اللهو المريب .

كان كفاتشي ينمو وينضج ويفتح يوماً بعد يوم ، إذ كان المجال هنا أوسع بكثير من أوديسا ، سواء من حيث ميدان العمل ، أو المراقبة أو التقليد ، أو حتى في امكانية التحليق ونشر الأجنحة .

عاش كفاتشي وييسو وجيل في شقة واحدة ، وانتشر الآخرون فيما حولها . كانت أعمال الرفاق مقسمة بشكل طبيعي إلى قسمين . لم يهدر كفاتشي مهارته وابداعه في صغائر الأمور . فاذا ما قام بـ « تدبير » عملية كبيرة كان يسرع لمساعدة رفاقه ويقتسم معهم الغنائم . وفي حين كان تشيكينجلادزه وجماعته يجرون وراء وحش صغير كان كفاتشي يزودهم بنصائحه ويقودهم من بعيد .

كان يصقلون ويروضون أنفسهم أثناء عملهم الدائم . لقد أيقظ « قانون الاختيار الطبيعي » وأظهر موهبتهم وذوقهم ومهارتهم وحسهم . ظل بيسو شيكيا أخرس كعادته . فهو إما يضمن بكلماته أو أنه يقولها في النهاية ونتيجة عشرات الكلمات التي يهمس بها كانت تنقلب الآية ويصبح المعقد بسيطاً والغامض واضحاً . كان يترأى ان لا وجود لبيسو ، لكن في الواقع كانت كل الخيوط ترتبط به .

أما تشيبي تشيونتيرادزه فكان دائم المزاح ، يتبارى مع سيلدراك في الهزئ والنكات ولا يضاهيه أحد في تنظيم المخابرات والعلاء كما لا يماثله أحد في خلق المشاجرة والمشاحنة . ما أن يرى ظلاً أو يسمع

صأى فأرة ، وبدلاً من ضبط النفس وبرودة الأعصاب ، يهرع قبل
الأوان ويقرع ناقوس الخطر ويصرخ :

— نحن في طريق الهلاك .. هلكنا .. أنجوا بأنفسكم ! ..

وكثيراً ما أفسد تشيبي ، جراء خوفه السابق لأوانه ، الشباك المنصوبة
بمهارة . وقد أجفل مرات عديدة حوت السلمون بعد أن كان على
وشك التهام الطعم .

وقد ناله الكثير جراء سلوكه هذا ، لكنه مع ذلك لم يستطع أن
يتخلص من مسألة اثارة الخوف . أخيراً وعندما فهم كفاتشي طبعه
جيداً استبعده عن الأعمال الخطرة وأوكل إليه مهمة الاستطلاع .

وأصبح سيدراك يتهيب الخطر ويرتعد أكثر من السابق ، وهو
لم يغفل التنظيم ووضع الخطط واقتسام الغنائم ، لكنه ساعة الخطر
إما أن يمرض أو يختلق امراً لا بدّ من قضائه أو يتأخر ، ثم يعتذر مازحاً :

— واه كم أنا « قبضاي » ، حتى أنكم احتجتم إليّ ! إذا
أردتم ملاكماً فـ « غابو » يتقن الملاكمة أحسن مني ، وإذا ما احتجتم
الخنجر فهو أقدر مني على استعمالها . أنا أمين صندوق أعرف عملي
وغابو يعرف عمله . وظل لادي تشيكي نجيلا دزه كسابق عهده يتلمظ
أثناء الأكل . دائماً يمزغ شيئاً ما ويشكو الجوع باستمرار . لم يكن
أبداً السباق في الذهاب إلى « العمل » . لكن إذا مادفعته الظروف في
المقدمة لا يتراجع ولا يختبئ في ظل الآخرين ، بل يقوم بعمله على
الوجه الأكمل .

ومع أن غابو تشخوبيشفيلي قد صقل وتهذب قليلاً ، إلا أنه ظل

جاموساً عنيداً ثقیل الخطوات . وكثيراً ما كان يوقع الأسرة بمجموعها في تشويش ولبلة جراء صراحته الفجة وعدم لباقتة ومزاجه المتقلب . لكنه كان يجرّ نيره باخلاص ويطيع كفاتشي كطفل صغير . أما جليل فلم يكن يطلب شيئاً . كان راضياً بقدره ، ينظر في عيني كفاتشي دائماً ويقول :

— الله سانا خير ورسين (جزاك الله خيراً أيها الأمير) أنت قدير ، أنت ذكي جداً . وكلما أعطى القدر كفاتشي طلب منه المزيد . كان يشكو قدره ، بل ويلج عليه ويقارعه ويحاول فتح أبواب جديدة وجديدة للجنة .

أثناء بحثه عن محظية كان كفاتشي لا يحسب حساباً لأحد ، أو شيء . فاذا وجد الأبواب موصدة اندس من النافذة وإن كانت النافذة مغلقة دخل عبر المدخنة ومدفأة الحائط . هكذا اندس ذات مرة في أسرة محترمة وقدم نفسه لامرأة كهلة صديقة صاحبة البيت الذي يسكنه : — أسمح لي أن أقدم نفسي : نابليون أبولونوفيتش كفاتشا نثيرادزه .

كان كفاتشي كفاتشا نثيرادزه شاباً أسمر اللون أجعد الشعر طويلاً جميلاً مهيباً عذب اللسان . درس ، جرب تمثيل أعراف وتقاليد وأخلاق الطبقة العليا .

لقد أدت الخبرة والشجاعة الصفيقة مفعولهما . . فتحنا الأبواب المرجوة والتي دار أمامها كفاتشي طويلاً وألح في طرقها .

« كيف بدأ كفاتشي » عملاً » جديداً »

استأجر كفاتشي ، في حي « فاسيلوفسكي اوستروف » في مدينة بطرسبورغ ، شقة تشكل الطابق الأول مؤلفة من سبع غرف ، مجهزة بأثاث ثمين جميل ، أختير بذوق رفيع . غرفة الطعام مزودة بخشب السنديان القاتم ، بلوحات طبيعية صامدة لفنانين هولنديين وبلجيكيين وبمجموعة متناسقة من الأطباق الحائطية ، والفرفور البراق والكريستال المصنوع في البندقية .

القاعة الكبيرة تلمع وتتلألأ ، المرايا الأربع ترتفع حتى السقف . وعلى جوانب الجدران تتوزع الكراسي المطعمة بالذهب ، وفي الزاوية يقع بيانو كبير مصنوع من خشب السدر (١) . على النوافذ والأبواب تتلى ستائر غميطة من الحرير والأطلس والجدران بكاملها مسرلة بالحرير والأطلس ، تزين القاعة لوحات « سيرون » « ليفتان » « ماكوفسكي » « ريبين » « شيشكين » ، وقد علقنا هنا وهناك لوحات عارية مختارة من الصالونات الباريسية . كان المكتب وغرف النوم مؤثثة بعضها على الطراز الفارسي وبعضها الآخر على الطراز الأوروبي ، كما وتغص الشقة بالسجاد الخراساني والتركماني والغولبي الفرنسي (قماش مشجر) والمخمل الهندي الموشى بالذهب . وكل الغرف ملأى بالكريستال والمرايا والبرونز والمرمر وخشب السدر والمخمل والفرو والجلود والفضة . كما لا تخلو هذه الغرف من الأعمال الخالدة لـ « تشيليني » و « كانوف » و « رمبرانت » و « فان ديك » و « ورسدال »

(١) السدر : شجر جبلي واحدته « سدره » خشبه جيد ، طيب الرائحة - المترجمان

وكثيرين آخرين وثمة أيضاً غرفتان مستقلتان تضمّان المكتبة والبلياردو. ضمن هذه الغرف كان يتنقل خادم باللون الأبيض والأسود كالبومة ، وأمام المدخل كان يتسمر بواب أرقش كالبيغاء قاسي الملامح .

كان الأمير نابليون ابولونوفيتش كفاتشا نثيرادزه يجلس في المكتب وقد لفّ نفسه برداء بخاري (١) . ثمّين يتصفح جريدة وينفث بسيكاره الهافاني .

عند أقدامه ، وعلى جلد النمر ، يستلقي كتمثالين مصبوبين من المعدن ، كلب انجليزي أسود « دوغ » (٢) و « سنبرنار » (٣) ضخم نحاسي اللون .

والقطة الأنقرية البيضاء ذات الذيل والوبر الطويلين تقف في النافذة تصطاد الذباب وتلاعب أشعة الشمس وتطارده ذيلها .

وعلى منضدة المكتب كان يقعي قرد وثاب صغير يلبس سترة « الفراك » والقبعة الأسطوانية يمسّد وجهه ويؤدي حركات بهلوانية أمام كفاتشي .

كان هدوء كامل وسكينة يسيطران على تلك الغرفة وعلى نفس كفاتشي كذلك .

في تلك الأثناء دخل إليه بحنر سكرتيره الشخصي وصديقه الحميم بيسو شيكيا . .

(١) بخاري : نسبة إلى مدينة بخاري .

(٢) دوغ : سلا لة من الكلاب الضخمة ذات وبر قصير ويزد دقيق .

(٣) سنبرنار : سلا لة من الكلاب الضخمة ذات وبر طويل نسبة إلى دير الالب

« سانت برنارد » وكانت تلك الكلاب تستخدم كدليل للمسافرين - المترجم

- آ . آ . ، بيسو مالك ؟ قال كفاتشي بكسل : كيف الحال ؟
رسائل ! ماذا يريدون ؟ أما زالوا يستجدون ؟ أقذفها في السلة .
- ثمة أيضاً عدة رسائل أخرى . تقيم الأميرة « غوليتسنا » حفلة
تنكرية من أجل ملجئها وهي تدعوك لتكون راعياً لتلك الحفلة .
- حسناً ضعها هناك . سنرى سنفكر ، إذا لم نذهب اشكرها
وأبعث إليها بخمسمائة روبل .
- الأمير « كوبر - غوتيل » يدعوك للعشاء .
- آه ، لقد سئمت . . أكتب إليه بأنني أشكره ، لكن لاوقت لدي .
- الأمير « فولكونسكي » يعرض مهره العربي للبيع ويرجو . .
- دعك منه . لدي العشرات من الأحصنة العربية .
- غداً ستقام مأدبة عشاء على متن اليخت - النادي ، على شرف
الأمير التركي عزيز .
- حسناً ، ذكرني غداً .
- تعرض في دار الأوبرا « باليه » تؤديها راقصة البالية « سميرنوا » .
هاك بطاقة مقصورة .
- أذهب أنت . . بلتخها تحياتي وقدم إليها طاقة من الورد .
- هاك أيضاً رسالة أخرى . تكتب إليك ثانيا « بروزوروا »
أنه سيكون عندها في العاشرة مساء .
- أرني بسرعة !

واختطف من بين يدي يسو الرسالة الحريية الوردية اللون .
قرأها . تيقظ ، فرح ، ابتسم واحتاج .

— أخيراً ! أخيراً ! . . هذا ما انتظرته عاماً . . اندري عمن يدور
الحديث في هذه الرسالة يايسو ؟ لاتدري ؟ سأقول لك لكن انتظر . .
سأقول فيما بعد . . فيما بعد . . .

راح كفاتشي الهائج يزرع الغرفة جيئة وذهاباً .

كانت عيناه تقطعان شرر الابداع ودماعه يغلي وقلبه يدق بعنف .

— لا بأس . . حسناً . . لقد حل زمن جديد . . هيا كفاتشي
فالسعادة هبطت اليك من تلقاء نفسها . . إن كنت شجاعاً لاتدعها
تفلت من يديك . . حسن ، حسن جداً . . — تتم كفاتشي الذي اشتعل
بنار الخطة والأمل وبدأ يحوك شبكاً مبتسماً للمستقبل .

ثم التفت نحو يسو :

— أخبرهم أن يرسلوا سيارة « بينتسا » . . انتظر لأريد « بينتسا »
طقس هذا اليوم تناسبه « المرسيدس » أو « برلي » .

— طقس رائع ، الطريقة العادية أفضل .

— فليكن . لكن يجب ألا يربطوا العربا بالخيول السود ، فهي
جامحة . فليربطوا بها الخيول البنية أو البيضاء . . هيا أسرع . . استدع
الخدام .

ثم أمسك بالهاتف :

— ألو ، يلينا ، أهذه أنت ؟ نعم أنا كفاتشي . . قبلات الصباح
أطبعها على يديك الربانية . . مساء الأمس ؟ ربحت مايقارب
العشرين ألفاً . .

— آه ، لم يقولوا لك الحقيقة . ثمة من يريد ان يزرع الشقاق بيننا ، لاتصدقني
ذلك . . لا ، انا لم ارافق في الوداع تلك المرأة بل اقتدت الأمير
« فيتغنشتين » انا ؟ اقسّم بك لم ارتدّ اي مكان . غادرت إلى البيت
مباشرة . . حسن ، فلندع هذا الأمر ، يلينا لدي لك عمل عظيم اليوم .
لقد اعجبت في المرة السابقة بخاتم الألماس سأحضره لك غداً إذا
تصرفت بكفاءة . . ماذا ؟ بحيث لايدري احد ؟ وهل سيخصصون
في بطرسبورغ رجلاً يتقن الجورجية كي يتنصت إلى احاديثنا ! حسناً ،
حسناً ، أسمعك ! . . انتظريني في البيت سأصل إليك حالاً . إلى اللقاء
ياصديقتي الطيبة ! — ثم التفت إلى الخادم جليل — حسناً يا صديقي
جليل البسني ثيابي .

ربما ألبسه جليل ، بدل كفاتشي الارتكاز من رجل إلى أخرى
كمهر لم يروض بعد . وقال ، ولم يكن واضحاً ، أكان يكلم نفسه
أم يكلم جليلاً :

— يوم جميل . . يوم رائع . . صلّ يا جليل من أجل ان تنتهي
هذه القضية نهاية سعيدة بالنسبة لي . . يوم بديع . . سأرى ذاك العجوز ،
ذاك المقدس ، إذا كان قديراً فليتحمل هجومي ! فليقف أمام
« يلينا » . . لأريد ربطة العنق هذه وهذه أيضاً لأريدها . . أعطني
تلك . .

رفع جليل يديه نحو السماء وقال مترنماً :

— الله ، الله ! فلينصر الله أميرى وجيل !

نقل إليه القوزاق التتري :

— العربية جاهزة !

جرّ حصانان أبيضان انجليزيان العربية . كانا يتهاديان ويدقان بحوافرهما على الطريقة الانجليزية ، وكان جليل يجلس بجانب الخوذي مرتدياً قفطاناً .

سارت العربية في البداية في الشارع البحري ثم في شارع « نفسكي » . تطلع الناس إلى العربية الفخمة والحوادين الأبيضين والشاب الوسيم الذي كان يوزع التحيات بانحناءة احترام وابتسامة ساحرة .

كانوا يتحادثون على الأرصفة :

— كيف لاتعرفه ؟ الأمير كفاتشا نثيرادزه ، نابليون أبولونوفيتش ، اسم رائع أليس كذلك ؟

— يملك ثروة لانفاذ لها : نفط ، منغنيز ، نحاس وخمسائة ألف ديسياتين (١) .

وفي مجموعة أخرى يؤكد أحدهم :

— لديه قصر فخم من المرمر في « كوخيد » يقصده السياح من أمريكا ويؤكد أحد الناس في مجموعة ثالثة :

— سليل الملوك ، دمه نقي كدم الامبراطور الصيني .

(١) مقياس للمساحة قديم في روسيا يبادل مايقارب الهكتار .

— يقال أن لديه عشر نساء فانتات يحملن قسائم الأسهم .

— منذ ثلاثة أيام عقد اجتماع عام للمالكي الأسهم في شركة « انجلوروس » . تصوروا أن كفاتشا نثيرادزه أحضر معه كتاباً رسمياً واستولى على كل شيء ماذا ؟ وكذا فعل في شركتي « سالاماندرا » و « كوسموس » ؟ لأستغرب . . إنه رجل مال كبير ، نجم متألّق .

— يقال أنهم دعوه لإدارة المصرف الحكومي ، وهل فقد رأسه حتى يوافق ؟ فهو قادر على شراء خمسة مصارف .

— يبدو لم تبقى امرأة حسناء في بطرسبورغ لم . . . ألا تذكر زوجة المهرتسوغ ، « كاتالونسكايا » ؟ لا مثيل لها في الشرف والجدال . لقد قدمت العام الماضي إلى بطرسبورغ . اتدري ما حصل بعدئذ ؟ لم تتمكن من مقاومة كفاتشا نثيرادزه أكثر من ثلاثة أيام ، ثق بذلك ! ولا بد أن زوجها علم . . . مبارزة ؟ لا ، لا يتجرأ على فعل عمل كهذا إذ أن كفاتشا نثيرادزه يصيب الذبابة الطائرة .

— منذ فترة قريبة بارز ثلاثة رجال دفعة واحدة وجرحهم جميعاً .

كان أصدقاء كفاتشي وعملاؤه يشاركون في إدارة مثل هذا الحوار فقد دربهم كفاتشي وعلمهم بشكل جيد .

توقفت العربّة في شارع « سوفوروف » . وبعد خمس دقائق كان كفاتشي يقبل يدي الأرملة الشابة الجورجية الحسنة المليكة الحقيقية جسداً ووجهاً .

— حسن ، يكفي أيها المجنون . . هيا قل لي أين كنت مساء الأمس ؟ نختني أليس كذلك !

— أقسم ، يلينا ، أنني . .

— لاتقسم ، لأصدق أي عمل تنوي القيام به ؟ ماذا ؟ أنا منذ الآن أبنة عمك ؟ يالك من صبي لعوب وما حاجتك لمثل هذا ؟ أولست لك على أية حال ؟ ! نعم م . . . م أفهم يجب أن أسمي قريبتك ؟ ! وبعد ؟ ماذا قلت ؟ يارب غفرانك ! كيف يمكنني أن أقوم بمثل هذا ؟ أن أصبح قرينة لذلك الفلاح القذر الحيوان ؟

شرح كفاتشي ! (يلينا) خطته بوضوح وإيجاز وكشف لها لوحة المستقبل الزاهر . لانت « يلينا » واستسلمت للحلم .

— طبعاً ، النقود شيء جميل لكن . . لكن أقول . . هو رجل متين . . مقدس ولكن ألا يكفيني أنت ؟ ماذا ؟ هو أفضل منك ؟ بأي شيء ؟ كيف ؟ حسناً أصمت لاتكن خسيساً . . آخ . . آخ أقول الحقيقة ؟ لعلها ثرثرة فارغة وإلا آخ ، آخ بهذا ، لذا شق طريقه حقاً ؟ نجنا اللهم ! ايه ، ايه ! لا يروق لي حتى السير مع ذلك القذر، لكن طالما أنك تقوم بعمل كبير . . سرى اليوم ؟ ! هكذا تتخلص مني بشكل رخيص ؟ إذا كانت المسألة ناجحة ، أشر لي ذاك البيت الصغير الذي أعجبني ألا تذكر ذلك البيت ؟ حسناً أنا الآن أسمعك هيا ، علمني .

بقي كفاتشي ساعة كاملة يلقي يلينا ، ثم سألها مراراً ليتأكد من استيعابها ، أجرى تطبيقاً عملياً بسيطاً فأعجب أشد الإعجاب بموهبة يلينا وأعطاهآ آلاف الوعود ثم مضى .

« كيف تعرف كفاتشي بالعجوز المقدس وبقية أصحاب السلطة »

على ضفاف نهر النيفا يقع بيت متواضع صغير لونه رمادي قاتم . في ذلك البيت كان يسكن « الملاك الحافظ لكفاتشي » — « اناستاسيا

روزوروا « الأرملة الكهلّة (الفريلىنا) ذات النفوذ الكبير
(ستانس داما) (١) . الحائزة على الكثير من الأوسمة .

وقد تألف كفاتشي مع تلك العائلة حتى أنه كان يدعو المرأة
(تانيا) ، ويتحدث إليها بالفة وأخوة ، وهي بدورها كانت تدعو
كفاتشي « ابولونتشيكي » وكان القدر قد أنعم عليه وخصه بملاك —
حارس حقيقي .

من يستطيع أن يحسب المرات التي أنقذت فيها تلك المرأة الطيبة
كفاتشيكو من المصائب والكوارث ، وكم أخرجه من حفر نثنة
مظلمة ، وكم أنفقت عليه ، كم مرة حرّمته من دخول بيتها ، وكم
مرة تراجعت عن قراراتها واستقبلته لديها من جديد .

إذا استمعنا لكلام البعض ، من يدري كم من الأقاويل يروون ،
وكيف يطلقون العنان لألسنتهم السامة ! قالوا أن كفاتشي يزور « أخته »
مرتين على الأقل في الأسبوع ، وأنه يرسل إليها مختلف الفواتير بدلاً
من باقات الورد والحلويات ، وأن « تانيا » ستمت من دفع تلك الحسابات
فخصصت لتلك « الأخوة » مبلغاً محددًا من المال شهرياً ، وأن شقة
كفاتشي كانت على حساب « تانيا » وأنه يبيدها . . . باختصار كان
ثمة الكثير من « أن . . . وأن » بحيث لو جمعت لأضحت كلاماً
لاطائل له . من كان يعرف تلك الـ « ستانس داما » ، طبعاً لن يصدق
جزءاً واحداً بالمائة مما يقال . كانت هادئة ، فاعلة للخير ، مؤمنة
خفوة ، طيبة القلب متنسكة ، وكان من الصعب على من يعرفها أن يصدق

(١) فريلىنا : لقب من القاب الحاشية يعطى لعائلات الطبقة النبيلة .

ستانس داما : أعل الألقاب التي تعطى لأقرب المقربات من الحاشية — المترجم

ان الرذيلة والفسق يمكن أن يستوطن في جسدها الضئيل غير الشاب
وفي روحها التي تنعم بالرضى الإلهي .

لم يدخل ذلك البيت الذي تزينه الايقونات والمشيّع برائحة الشموع
والبخور سوى السيناتورين المقوسي الظهور وأعضاء المجمع الكنسي
الدرد (١) . والفريليينات والستاتس دامت ممن بلغن الستين ولايقوين
على صعود درج ذلك البيت بلا مساعدة . وكان بينهم « أبولونتشيك »
الشاب الوحيد لكن . . لكنه كان الاستثناء الوحيد ، ثم إلى متى ستظلون
تجرون وراء الأقاويل الضبابية التي لا وزن لها ؟ ! هذه المرأة الحيرة
وذلك الشاب المهذب « كفاتشيكو » لا يحتاجان تبريراً أو دفاعاً .
سمعتاهما نظيفتان لا تشوبهما شائبة هذا والسلام ! لذا ، وللحقيقة ،
هذا البيت يشبه الدير يجب ألا يمسه أي أثر للقذارة . . . لكن . . .

في ذلك اليوم ركب كفاتشي وابنة عمه « يلينا » عربة مغلقة
وتوجهها في التاسعة والنصف إلى بيت تلك الأرملة حاملين إليها طاقات
الزهر والحلويات .

شرب الضيوف الشاي . قدمت سيدة البيت كفاتشي وابنة عمه
إلى ضيوفها .

— قداسته كاهن القيصر الخاص ، مستشار أكاديمية علوم
اللاهوت . . قداسته الراهب في الدير القيصري « اليودور . . . اسقف
مدينة ساراتوف » غارموغن . . . « أرملة الجنرال لوختين . . رئيس
المجمع الكنسي « لوكيانوف » . . . مساعدة سابلر . . وزير الحربية

(١) الررد : جمع ادرد — الفاقد اسناله .

الجنرال « سوخوملينوف » ، ستاتس داما « كواركينا » . . . البارونة « نودين » ، وزير الداخلية ماكاروف . .

شد كفاتشي ويلينا على أيدي الجميع وهما يقولان كنيتهما ، قبلًا أيدي البعض وانحنيا للبقية باحترام ، ثم جلسا وراحا يتأملان المعارف الجدد .

كان بين الضيوف وزراء سابقون والبعض وزراء حاليون وآخرون يطمحون للوزارة . كان البعض أبناء الأمس والبعض أبناء اليوم والبعض الآخر أبناء الغد أو بعد الغد .

في صالون الأرملة الكنسي — فقد أصبح هذا الصالون كالمعبد بما يحيويه من رجال الدين — الأسقف يطمح ليصبح رئيس الأساقفة ورئيس الأساقفة يرغب أن في يصبح مطراناً ، كما ويطمح اللواء لأن يصبح فريقاً والفريق مشيراً وساكن الريف يطمح للسكن في العاصمة والتاجر يجري وراء الربح الأكبر ويطمح المصرفي للحصول على المزيد من الامتيازات . وتساعد النساء أزواجهن وعشاقهن . وعموماً يسعى الجميع نحو الأعلى ويهدفون لارتقاء درجة واحدة في السلم .

كان يجري في أعماق قلوب هؤلاء الناس صراع خفي لا يمكن السيطرة عليه — صراع قاس لايرحم ، لكن كان يغلب على وجوههم وألسنتهم رضى وأخوة وصدقة وابتسامة وطيبة المسيح وسكينة الملائكة . وتابعت الأرملة لوختينا أحاديثها التي لا تنتهي .

تطلع كفاتشي بذهول إلى تلك الأرملة الغريبة وراح يستمع إليها .

وكانت تانيا قد حدثت كفاتشي منذ فترة وجيزة عن صفات تلك المرأة المدهشة. الأرملة لوختينا امرأة كهلة معتدة بنفسها كثيراً ، ذكية راقية ومن أسرة كريمة . منذ عدة سنوات خلت أضحت هذه الأرملة « المندوبة » الأولى لدى « غريغوري المقدس ، وعبدته الطيعة الخنوع . عافت كل شيء : الأسرة ، الممتلكات ، حب الذات وأنوثتها وتبعته باخلاص » منتظرها الحديد سيدها وربها . لم تكن تلك المرأة المريضة خادمة وعبدة فحسب ، بل داعية مثلى لقدسية روحه وجسده ولفسقه وهذيانه .

وأخيراً شقت تلك المرأة المعتلة الطريق أمام « المنقذ » ليصل إلى أسرة القيصر التعيسة ذات الحظ السيء واقتادت ذلك العجوز إلى سدة العرش .

وفيما بعد تخلت الأرملة عن مكانها في البلاط لامرأة أكثر شباباً وجمالاً ومهارة لـ « فيروبوفا » .

لكنها مع ذلك لم تهجر البلاط ، ولم تتخلّ عن الخدمات والعبودية ، اقتضت « الرسول العجوز » راسبوتين حيثما ذهب في كافة أنحاء روسيا ودوّنت كل كلمة وكل خطوة من خطواته .

والآن اتجهت كل الأنظار إليها . كانت « العذراء » حافية وقد ارتدت ثوباً غريباً أبيض مصفراً يشبه جلباباً دينياً إلى حد كبير ، وكان هذا الثوب مبرقشاً بمزق متعددة الألوان من الحرير والأطلس ، وعلى رأسها طاقية غريبة تحمل الكلمات التالية بخط ذهبي عريض :
« أنا جد قديرة هاليوليا .

أملك كل القوة ، هاليلويا »

ومن وقت لآخر كانت تقع في نوبة وتتكهن :

— لقد رأيت أول أمس « منقلنا » ثلاث مرات — قالت بعينين متقدتين وصوت واجف — لعلكم تعلمون أنه كان مايزال في الطريق . أول أمس ليلاً كان مسافراً من موسكو ، لكن روحه سبقته وتجلى لي . كان منقلنا مرثدياً الأبيض من رأسه حتى أخمص قدميه ، فوق جبينه تشعشع هالة نورانية ويحمل الصليب بيد وسيفاً نارياً باليد الأخرى . — رحمتك يارب — همس سابلر وصلب واقتدى الآخرون به . — بدا لي وقال : « انغمسوا أيها الارثوذكسيون بخطاياكم فقد أطل يوم الحساب العسير . ارتجفوا وارتعدوا خوفاً أيها الملحدون أيها اليهود . يامفسدي النفوس البشرية ! فخررت على أقدامه المتلألئة . مسد رأسي وغفر خطاياي ، وحين فتحت عيني طار منقلنا إلى السموات ، وفي اليوم التالي قدم قديسنا من موسكو . قصصت عليه كل ماحدث فقال : حقيقة كنت معك بروحي يا أختاه ! « صلبوا مرة أخرى وحركوا شفاههم الذاوية المتدلّية . همسوا جميعاً بخوف وذعر :

— مذهلة أعمالك أيها الرب !

— حل يوم الحساب العسير !

— ارحمنا يارب ، وكفر عن سيئاتنا !

— هاليلويا ، هاليلويا ، هاليلويا !

نهضت المرأة . تطلعت بعينيها إلى السماء ، رفعت من وتيرة صوتها وراحت تهذي ياهتياج واستلهاهم :

— وللحقيقة يقال لكم : أنه هو منقذنا اختارته السماء لانتقاذ
مذنبني هذا العالم ، لانتقاذ روسيتنا المقدسة ، لادانة المذنبين واهلاك
الملحدين ولإقامة وتثبيت الحياة الهنيئة الأبدية — ثم اتجهت إلى راهب
الدير القيصري ايليو دور — أنه « ابنه » الطاهر المضحى بنفسه في سبيل
ابنائهم ، وأنا المذنبة والحواري والعدراء ماريا . انغمسوا أيها الارثوذكسيون
وتمادوا في خطاياكم !

نفخ الراهب ايليو دور نفسه وبدأ يتململ في مكانه ومرة أخرى
حرك الآخرون شفاههم ونكسوا رؤوسهم متممين أمام « مريم —
أم الإله » .

قبل سابلر وماكاروف يدها وتبعهما كفاتشي ويلينا وهما يصلبان
ويهمسان باحترام :

— أرحمنا يارب !

ضمت « العدراء » الأربعة إلى صدرها وقبلتهم كراهبة قبلية مسيحية .

— هاقد تحققت نبوءة دوستوفسكي — قال سابلر الدامع العيين
لتلك المرأة — إذ قال : سينقذ روسيا من الفوضى والخراب ويضعها
على طريق السيطرة والسيادة راهب معتدل القامة مسيح فلاح ساذج
يختاره الله من عامة الشعب ويهبه لنا .

— ستُنقذ البلاد بأمثال هؤلاء البسطاء الذين سيمحقون الكفر
بالحديد والنار وسيخلصون البلاد من الآراء الشيطانية والدسائس — قال
سوخوملينوف مضيفاً .

— كان ثمة « روما » اثنتان وروسيا هي الثالثة ، لالن تكون الرابعة —
تذكر لوكيانوف النقاش البيزنطي .

— يحاول اليهود القلدرون وعملاؤهم الاشرافيون المأجورون ليل نهار ويحلمون بتعطيم « روما » أي روسيا — قال راهب القيصر متأففاً .
— روما الثالثة أبدية لا يمكن هدمها ، حدثت محاولات كثيرة وباءت جميعها بالفشل . لا تخافوا أيها الأرثوذكسيون فالله معنا ! —
قال الشعب العتيق الماكر سا بلر .

انتهاز كفاتشي الفرصة :

— سعادته قال كلمة حكيمة ، لا تخافوا لاتصدقوا إمكانية هدم روما الثالثة أنها خالدة لقد رفع القلدرون رؤوسهم في القفقاس . . . لكن . . .

— أنتم من القفقاس ؟ — سأله ماكاروف .

— أجل أنا من تلك المناطق ، لقد قدمت منها . هناك أيضاً دنسوا ولطخوا اسم بلادنا المقدس . مابنته روسيا خلال مائة عام هدمه « فورونتسوف — داشكوف » ذاك الغبي الهزيل ، خلال عامين . لقد آن الأوان للتخلص من هذه الماسونية السرية . لقد صدقوا عندنا إذ قالوا : في القفقاس « فورونتسوفان » (١) أحدهما واقف على رجله دائماً . والآخر ملازم للفراش . لكن مع ذلك لا يهدأ طريح الفراش بل يسعى باستمرار لتخريب القضية الروسية في القفقاس .

قهقهه أفراد الحاشية وضحكوا ضحكات مميزة — ضحكات من لأسنان لهم . وتابع كفاتشي :

(١) الإشارة هنا إل الأمير فورونتسوف المعاني و « فورونتسوف — داشكوف » الذي كان مقعداً في فراشه لفترة طويلة وكلمة « فورون » تعني الغراب بالروسية .

— الحمد لله . لدى قيصرنا المعبود بالإضافة إلى تلك الماسونية السرية الضعيفة الكثير من الموالين المخلصين امثالنا ك : اليخونوف ، فوستورغوف ، تولماتشيف ، مارتينوف ، غريازنوف ، وآلاف آخرون . لقد قطعنا رأس التنين الثوري بقوانا الموحدة . كونوا الآن مطمئنين عيشوا دونما إكتراث .

همست تانيا في أذني جاريها . تيقظا للديقة : ثم قالاً بشيء من الدهشة :

— لا يمكن ! أحقاً ؟ — ثم التفتوا نحو كفاتشي :

— قص علينا أيها الشاب تلك الحكاية . . كيف جرحوك . .

— لا نستحق الحديث . . لاشيء يستحق الذكر . . لكن ان شئتم أصحاب المعالي . . نظراً لأنني لم أتمكن اليهود والثوريين من أن يحرکوا أياديهم أو يتنفسوا ، لذا دفعوا عشرة آلاف روبل ثمناً لرأسي . لقد قطعت عليهم مراراً خططهم الخبيثة . وحين تصلبت أمامهم بددوا بمحاولة اصطيادي . لكن كنت أصيد من هؤلاء السافلين . لقد ألقوا علي ذات مرة قنبلة ، لكنني لم أصب بأذى . جريت وراءهم وقتلت ثلاثة منهم وألقيت القبض على اثنين منهم ، أطلقت المجموعة الثانية نيران بنادقها علي ففعلت بهم أكثر من سابقهم ثم أرادوا دس السم لي فاشترروا خادمي ، لكنهم لم يفلحوا أيضاً .

لماذا الاسهاب في الكلام، لقد قتلنا وسحقنا تلك القذارة الحقيقة . تمكنوا من جرحي في رجلي لكنني انتقم منهم مايعادل مائة ضعف . كادت تانيا ان تؤكد جرح كفاتشي الذي أحدثه كلب سامريدي، لكنها عضت على لسانها في الوقت المناسب ولزمت الصمت .

تكلم كفاتشي مطولاً بتباهٍ وتملق ومداراة وكأنه بلسم (١) لطف
وهذا قلوب أولئك الناس وفرحتهم .

. دونت الأرملة لوختينا اسم كفاتشي في دفتر مذكراتها ، كما
تذكر الآخرون ذلك الاسم . سمع صوت سيارة في الشارع .

— تفضلوا لقد شرفنا. قدسنا ومنقذنا — هتفت « أم الاله » بغشة
ووثبت ناهضة . انتصب الآخرون أيضاً . أسرع ربة البيت و « لوختينا »
تهبطان الدرج بسرعة . بعد دقيقتين دخل الصالة مسرعاً « المنقذ المقدس »
غريغوري راسبوتين . بنظرة شاملة غمز كفاتشي قوي زمانه وعظيم
عصره ، وتذكر وصفاً لشخصيته قرأه في إحدى الجرائد السرية
ذلك اليوم :

« رجل غامض غير لبق ، غيبي ، جاهل تماماً وقح سفيه ، قذر
جسداً وروحاً ، فلاح سيبيري فاسق مقرف » . « الشيخ الطاهر المقدس »
« انعمت به السماء رسولاً . بطريك أصيل قدير على كل شيء » ، قائد
وحاكم مطلق ، مسيطر على القلوب » .

وقف الجميع منكسي الرؤوس طائعين ، لاحت على وجوههم
الطهارة والتسليم والغبطة الالهية وحب أبوي متبادل .

توقف راسبوتين دقيقة عند مدخل الصالة .

كان معتدل القامة متيناً ، صلباً ، ذا شعر أسود طويل « كث »
مسرّح بلا اهتمام مدهون بزيت نباتي مفروق في وسطه . كانت شفتاه

(١) نفس الكلمة في الروسية مع قلب السين إلى الزاي : بلزم (المترجم) .

ممتلئين مكتنزين شهوانيتين ومائلتين للزرقة . وكان جبينه عالياً
 وأنفه مفلطحاً ولحيته قليلة الشعر . متركة في الأسفل كمكينة طويلة
 الساق ، وشارباه كأنهما ملصقان بشكل هزلي فوق الجزء العلوي
 من شفته . وجهه شاحب متهدل داكن مشحم دهني . يدها دقيقتان
 طويلتان ، أصابعه منحنية قليلاً وأظافره خضراء مصفرة رؤوسها
 سوداء ، عيناه مدهشتان غريبتان عميقتان مائلتان للزرقة لانهتان
 براقتان فيهما قوى خفية لامرئية ، جذابتان ثاقبتان حنونتان بريبتان ،
 لكنهما بنفس الوقت ماكرتان عميقتان ثابتتان .

كان يرتدي قميصاً روسياً من الأطلس بلون الزعرور مخيطاً بيدي
 « أمه » القيصرة ، ومقصباً بخيط حريري أزرق ونطاقاً حريرياً مجذولاً
 بخيوط ذهبية وينتهي بـ « شرابات » كبيرة ، وفي جزمته ذات الجلد
 اللماع حشرت أطراف سرواله المخملي الواسع .

قال القديس وكأنه يسخر :

— عليكم سلام الله وبركته !

ووثب يتلوى في مشيته ويلور متناغماً ، طاف على الجميع مصعراً
 خده ، ناقلاً ارتكازه من رجل إلى أخرى محرّكاً أطرافه المرتخية تماماً
 كلعبة الكاراكوز ، متكلماً بلغة روسية غريبة غير مفهومة ، قاذفاً
 بكلمات دينية وتعايير كنسية بين دقيقة وأخرى دونما مناسبة .

لم يغفل أحداً : ضم الجميع إلى صدره وقبلهم بفرقة مسمومة .
 قبل البعض قبلة واحدة والبعض الآخر قبلتين ، أحاط بـ « يلينا »
 كالدب بما أجبرها على احناء قامتها . ضاقت أنفاسها ، قبل شفيتها

وبصعوبة انسلخ عنها . قبل الجميع يده باحترام وتسليم . بارك غريشكا (١)
الجميع وخص كلا منهم بوضع كلمات حيث سأل سوخوملينوف :

— امشحوذ سيف الرب في يدك ؟

وقال للاسقف « غير موغين » :

— معنا الله معنا !

ولمح لكاهن القيصر « ايليو دور » :

— لن ينتصر اليهود علينا ، سيهلكون !

وقال لـ « ماكاروف » بخشونة وامتعاض :

— آن اوان الانتهاء !

وقال لـ « يلينا » معزياً :

— ابحتي عن البرء لدي ياأختي . سأكون رحيماً بك .

ابتسم كفاتشي بخبث ، أخيراً جاء دوره :

— أبحث وجد — قال له المقدس مشجعاً .

أشاح بوجهه عن رئيس المجمع الكنسي « لوكيانوف » فسقط

« سابلر » معاون رئيس المجمع على قدميه وهو يبكي ويتمتم :

— أرجو مباركتكم أيها الأب المقدس ! مباركتكم ورحمتكم !

خرت البشيرة ، البشيرة أم الرب ، على ركبتيها مع سابلر ،

أحتضنت ركبتي القديس وقبلت الطرف العلوي من جزمته ، أنهض

(١) غريشكا : تصغير « غرينوري » ، وهو الاسم الصغير لـ راسبوتين — المترجم

راسبوتين الاثنين ومسح دموعهما بقبلاته ، واساهما ثم بكى وأبكى الآخرين معه .

بعد هذا المشهد همس أحدهم للآخر :

— سيُحال « لوكيانوف » على التقاعد ، وسيسمى سابلر رئيس للمجمع الكنسي ، ثم جلس الجميع وبدأوا بتناول الحلويات والحديث عن إنقاذ الروح .

أجلس القديسُ « بشيرته » بجانبه و « يلينا » — التي بدت كالمملكة — إلى جانبه الآخر . وضع يده على ركبته في البداية ثم نقلها إلى حوضها . لاحظ كفاتشي تلك اليد وأخفى ابتسامته وفكر « لقد أدت مفعولها . بدأ التأثير ! » .

أحاطت « البشيرة » بخصر المعلم وألقت برأسها التعبة على كتفه في حالة أشبه بالغيوبة . استحت « يلينا » في البداية ، نكست رأسها ثم سكنت مغمضة عينيها نصف اغماضة . كانت أحياناً تحديق بعينيها السوداوين الواسعتين كحبيتي اللوز في عيني المقدس الزرقاوين الصغيرتين كحبيتي الفاصولياء وكأنها تثير عاصفة رعدية ثم تحول نظرها مظلمة عينيها باجفانها الكثيفة كستارة ضبابية فتزداد عيناها اسوداداً . ثم تشجعت أخيراً وألقت برأسها الجميل على صدر المقدس ، ثم تناومت وقد أغمضت عينيها نصف إغماضة .

تطلع الجميع برجاء في هذه اللوحة الحية الثلاثية ، وابتسموا ببراءة ، تذكروا جميعاً اللوحة « الثلاثية » المقدسة التي تمثل المنتقد ومريم ومرتا . يلينا تشبه مريم المجدلية أكثر من شبه « لوختينا » « لها » . فكر كفاتشي وبدأ يفكر بحيل جميلة .

فجأة أشار الشيخ المقدس بأصبعه العوجاء نحو كفاتشي وقال :

- من أنت :
- أنا الأمير كفاتشا نثيرادزه أيها الأب المقدس .
- يعني أنك قوقازي . . أنا لأحب . . شعب بدائي غليظ .
ينتظعون ، أبدأ نحو خناجرهم . هم دخلاء .
- شرح كفاتشي بعذوبة :
- أنا جورجي أيها الأب المقدس ، الجورجيون ارثوذكس .
دهش غريشكا :
- أي مسيحيون ؟ ما اسمك ؟
- نابليون أبولونيتش :
- نابليون ؟ أبولون ؟ — مرة أخرى أبدى غريشكا استغرابه .
شرحت له « البشارة » — الأرملة لوختينا — عن اسمه واسم أبيه .
- يعني أن الأسمين أسماء كفر ، شياطين ، معنا القوة المسيحية ! :
— قال غريشكا وصالب الجميع . همست له ربة البيت :
- إنه شاب ، وهذه المرأة « يلينا » ابنة عمه .
أتذكر ، لقد تحدثنا مراراً عن ذلك الشاب !
لان غريشكا فوراً :
- ٢ . ٢ . ٢ . أبولونتشيك ! أنت من قاتل في القفقاس في سبيل
القيصر وروسيا المقدسة ؟ حسناً أعرفك ، أعرفك جيداً وقد جرحت
أليس كذلك ؟ يعجبني اسمك . اقرب مني ، أتريد خمرآ ؟ — وقبل
مرة أخرى الشاب وابنة عمه .

اعتذر كفاتشي عن شرب الخمرة قائلاً بأنه لا يشرب . أعجب الجميع بعدم تناوله الخمرة وأثنوا عليه .

ثم اتجه الحديث حول مصير روسيا واليهود والثورة وروما الثالثة وسيطرتها العالمية .

استغل الثاقب الفرصة وكشف للأب المقدس عن خباياته ورقية واخلاصه للكنيسة والعرش وكأنه يعرض كل هذا على راحة يده .

— « ستولييين » و « شغلوفيتوف » ركيذتان أساسيتان من ركائز روسيا المقدسة . العصيان لم يستأصل بعد من جذوره تماماً ، لم يقتلع من جذوره . . .

تنين الخبث مازال حياً يتنفس . . أفعى الشغب مازالت تزحف وتطوى ، لقد سلبوا البلاد الغالية قوتها ، أضعفوها . مازال في الدولة عملاء يهود سريون . . . مازال في الكنيسة أيضاً الكثير من الممحين الفاسقين والكفرة . لا بد من تنظيف وتجديد بلادنا الرائعة وكنيستنا المقدسة وإلا لن نتمكن من النوم باطمئنان ! قال كفاتشي الكثير في هذا السياق . لقد صب الزيت على النار الملتهبة وزاد في دعر المدعورين .

وافقت « بشيرة المنقذ » الأرملة « لوختينا » كفاتشي على أقواله . التهب حماساً وبدأت تتكهن مرة أخرى ، سقطت على أقدام المقدس وراحت تفح :

— سنهلك ، ساعدنا أيها الأب المقدس ساعدنا ، أنقذنا ! ! وبدأ سابلر بالتمتمة . اضطرب الآخرون ونهضوا ومن جديد ، تكرر

الاحتضان والتقبيل . تقرر في ذلك المساء مصير عدة وزراء ونواب
وسفراء ومحافظين وأساقفة ومطارنة . بعضهم سقط وبعض
آخر ترقى .

وتفرق الضيوف بهدوء .

استلرج المقدس يلينا بهدوء إلى الغرفة التي تقع على اليمين ، وأدخلت
ربة البيت « تانيا » كفاتشي إلى الغرفة الواقعة على اليسار .

بعد ساعة التقى الأربعة من جديد . كانوا جميعاً هادئين راضين .
كانت يلينا متقدة محمرة الوجه . شعرها مشعث وعيناها زيتيتان .
تهامس المقدس وربة البيت قليلاً :

— تعال إلى هنا — نادى غريشكا بعد ذلك كفاتشي — أنت تعجبني ،
أتريد الصداقة ؟ أنت بالإضافة إلى ذلك ستقوم بحراستي ، لأن الناس
والمراؤون يريدون السوء بي . تريد ؟ كون حذراً، تانيا هاتي أيقونة
سنعطي يميناً (١) .

هل يرغب كفاتشي بصداقة راسبوتين ؟ أي سؤال هذا ؟ ! لم
يحلم كفاتشي طوال عام بغير ذلك ! عام كامل وهو يشق طريقه
نحو هلمزا العجوز ! سنة كاملة وهو يبحث عنه حاملاً شمعته ، حيث
كان يعرف جيداً أنه القيصر والبطريرك الحقيقي لكل روسيا وأن السلطة
كلها في يده ولا شيء يحد من سلطانه على كل هذه البلاد الواسعة
الشاسعة .

(١) الأخطاء الواردة والتي سترد على لسان راسبوتين لاحقاً للتأكيد على أميته
وجله وعدم قدرته على لفظ جملة سليمة — المترجم

أحضروا الأيقونة والكتاب المقدس واقسما على الأخوة والصدقة
الأبدية ثم تذكر غريشكا :

— تقدم اليهود إلى مجلس « الدوما » (١) باستفسار عني، سأريهم
مامعنى الاستفسار !

تكدرّ وغضب وطار الشرر من عينيه . فحّ بصوت نسائي — ضرب
الأرض برجليه وتناثر لعبه :

— يالهم من عواهر ! يالهم من ملاعين ! يالهم من سفلة !
ثم طلب ريشة ومداداً . جلس وتصبب عرقاً طوال نصف ساعة .
أنّ وتأوه . كتب برقية للقيصر والقيصرة في القرم :

— بابا وماما الحبيبين ! لقد ازداد الكلب قوة، الملعون و « الدوما »
تخدمه :

ثمة الكثير من اليهود القذرين . ماذا يهمهم ؟ اسقاط مسيح الله .
و « غوتشكوف » السيد ذيلهم يلفقّ ويعمل فتنة استفسارات بابا !
« الدوما » لك أفعل ماتشاؤون أي استفسارات عن غريغوري هذا عبث .
وقع أصدر أمراً ، نعم ! لايجوز أي استفسار نعم ! غريغوري !
نعم (٢) . هؤلاء الحراس يشبهون آثار الاوز . اعطاها لكفانتشي وقال :
— أرسل هذه البرقية اليوم فوراً ، والآن أنا ذاهب إلى البيت ،
ربة بيت شمس حمرا . شكرآ لك ان شاء الله بالخير — قبل ربة البيت

(١) الدوما : المجلس النيابي الإداري في روسيا القيصرية .
(٢) هذه البرقية وثيقة أصيلة. لقد أثبتت قضية راسبونين في مجلس الدوما وهذا ما أغاظه.

ثم التفت نحو « يلينا » : — لينوتشكا أيتها الأخت هيا معي إلى البيت وكاد أن يحمل هدية كفاتشي على راحتيه وهو يهبط الدرج . احتضنت يلينا رقبة المقدس جيداً وخبأت وجهها التعب في لحيته الطويلة . جلس الثلاثة في السيارة .

— هكذا لا ، أيتها الأخت تعالي هنا ، أجلسي هنا .

أجلس يلينا على ركبتيه نظراً « لضيق المكان » في السيارة ، وحين وصلوا إلى البيت قال المقدس لكفاتشي :

— ابرولونتشيك أنتظر هنا ورافقيني أنت ، لينوتشكا إلى غرفتي .
تعالوا إلي غداً ، انتما الاثنين يجب أن نتحدث — نتابع الحديث .
ظل كفاتشي منتظراً في الشارع ريثما « يفحص » غريشكا « يلينا » .
مضى مايقارب الساعة . أخيراً خرجت يلينا وجلس الاثنان في السيارة .
كان كفاتشي مجروحاً وعابساً وابتسمت يلينا .

— أي عجوز هذا الـ « غريشكا » . ليست لديه شعرة شائبة ! ؟
تمتم كفاتشي ، لم تجب يلينا . وصلا إلى البيت دون أن ينبس أحدهما
ببنت شقة . رافق كفاتشي يلينا إلى الغرفة وجلس ثم تمتم :

— هذا لا يحتمل !

ظلت يلينا تبتسم .

— هل تفحصك جيداً ؟ ماذا قال ؟ أيؤملك شيء ؟ أطلق كفاتشي
كلماته بغيرة وحقن .

— قال ، يجب أن تبتلّ رجلا الصياد بالماء — قالت يلينا مقاطعة
وهي تخلع ثيابها وتمطى بلذة ثم ابتسمت مرة أخرى بمكر .

— أجل لكن كيف تفحصك هكذا بسرعة ؟ ماذا قال ؟
— على أية حال هو أفضل من بقية الأطباء — قالت يلينا بصورة
لاذعة وخبيثة .

— أفضل مني أيضاً ؟
— منك ! ها . . ها . . أنت غرّ يا كفاتشي !
تكدر كفاتشي .

— لا ، هذا غير صحيح !
— كان الزوج في رحلة ليلية ثم قصت الزوجة له ما حدث لها
. . ها . . ها لم يعجبك هذا ؟ أنت تريد أن تفعل فعلتك وتحافظ عليّ
في آن واحد حين تجري وراء أرنيين تفقداهما معاً . ماذا ؟ ماذا قلت ؟
أنت لست بحائق ؟ هذا أفضل أنت رجل ذكي عليك أن تفهم هذا .
— لا تبدئي أي عمل بدوني .

— لا ، لا تخف لن أخطو خطوة واحدة بدونك ، لن يذهب من
قبضتي . بدأنا معاً وسنعمل معاً ، أنت بعقلك وأنا . . أنا بالابتسامة
وبعيني . تعال غداً وستحدث ، لائنس اللؤلؤة التي وعدتني بها . .
ماذا قلت ؟ أهو أفضل منك أم لا ؟ أولم تقل لي أنت صباحاً هو أفضل
من كثيرين من أمثالك ؟ ألم أقل لك بانك غرّ . أذهب هيا أذهب ،
أحلاماً سعيدة ! . .

جرى كفاتشي إلى الشارع معتمداً يكاد الغضب يخنقه والغضب
يأكله ويقرصه . ذكرّ سلب ذكرّاً آخر انثاه . وكيف سلبه إياها !

لقد فضلت يلينا غريشكا راسبوتين من أعماقها وبكل وعي على كفاتشي —
الشاب القتي الجميل والقوي الشبق .

— « لو كان جديراً بذلك ! » — فكر كفاتشي محتداً — داكن
اللون ، مشوه ، غبي فظ ، قلر ، فلاح كهل . . . كيف قالت يلينا
هو أفضل منك ؟ أنت صبي صغير بالمقارنة معه كيف ؟

ثم فكر : ألسنت أنا من اقتادها إليه ؟ ألم أجمع انا بينهما ؟ ألم
أرغمها بنفسي على مثل هذا ؟ أليس سيان حدث هذا اليوم أو غداً ؟
لماذا أنا مضطرب وعلام أوجع رأسي ؟ إذا كانت تفضله فلتفضله !
ففي الكون الكثير من الجميلات . . لكن لايجوز أن تغفلت يلينا من
يدي ، وإلا سيضيع العمل الذي بدأ بداية حسنة وسأضيع أنا معه .
ثم تذكر خططه اللامحدودة واستعرض حيله الكثيرة المبحوكة بخبث
ومكر . فتحت أمام كفاتشي بلاد جديدة وحقل واسع بكر سيستغله
كفاتشي سيزيته ويجنيه بطريقته الخاصة .

غرقت يلينا في ظلام ذاكرته . لم يبق في نفس كفاتشي أثر للالهانة
والحنق الذي سيطر عليه منذ برهة .

تململ قليلاً في فراشه ، ثم أغفى كعادته ونام بسكون وباطمئنان
وراحة بال .

« كيف صار لدى القديس سكرتير خاص »

استدعى كفاتشي رفاقه في اليوم التالي وأعطاهم تعليمات وأوامر
جديدة . . أعطى عنوان المقدس إلى غابوتشوخويشيفيلي وبيسو شيكيا
وجليل وأمر الثلاثة بالذهاب إلى هناك في منتصف النهار تماماً وانتظار
كفاتشي عند المدخل .

ثم شق الزعيم طريقه عبر شارع نيفسكي ، اشترى بعض الحاجات
وأتجه إلى يلينا مصطحباً معه هدية اللؤلؤ وطاقة من الزهور .

بدأت يلينا وكأنها ازدادت جمالاً كزهرة متفتحة . تقلدت الهدية
على صدرها فور إستلامها . لم تعد تستطيع الوقوف على رجلها من
الفرحة ، تارة تقف أمام المرأة بتكلف ، وتارة أخرى تعانق كفاتشي
وتقبله ضاحكة قافزة ، ثم قالت هامسة :

— يعني لقد زعلت بالأمس ؟ يالك من ملعون أولست من علمني ؟ ..
يعني لن تزعل بعد الآن ، هذأت ؟ هكذا أفضل . أنس . لقد قلت ذلك
عمداً كي أغيظك وإلا كيف سيكون رجل قدر أفضل منك ؟ ! أضف
إلى أن عمره ضعف عمرك . ياللقدر الذي لا يغتسل تفوه ! تفوح منه
رائحة الشمع والزيت النباتي . . نمضي حالاً ؟ أنا جاهزة .

بعد عشر دقائق اجتازت « مرسيدس » كفاتشي شارع « غوروخوفيا »
ووصلت بيت القديس . كان ييسو وصحبه منتظرين عند المدخل .

صعد الجميع . كان السلم مزدحماً بالناس وكان البعض ينتظر
دوره في الشارع .

كان المقدس يؤنب أحد الجنرالات . حين رأى كفاتشي و « يلينا »
نهض مندفعاً وعانقهما . ضمهما إلى قلبه .

— أجلس وانتظر . أنا آت — ترك كفاتشي وأقتاد يلينا إلى الغرفة
الثانية وبعد أن عاد محمراً مبتلاً بالعرق : قال لكفاتشي :

— ستصبح سيكليتار (سكرتيراً) لدي . استدع من تراه هاماً
ونظيفاً .

تسلم كفاتشي مكتب السكرتارية وأختار « بيسو شيكيا » مساعداً له ووضع « جليلاً » بواباً ، وأوكل إلى تشخويشيلي وبقية الرفاق مهمة الاستخبارات والرصد ، إذ أن لذلك الشيخ القديس ألف عدوٍ والخطر يحيط به من كل جانب .

دخل مكتب غريشكا في ذلك اليوم مائة من الرجال والنساء — جاؤوا إلى صانع المعجزات لغايات شتى ومن كافة الأرجاء : من فلاديفوستوك ووارسو ، من آفون وطشقند ، من سولوفكوف ومختلف الأصقاع ، بينهم الجنرال والمحافظ ، الكاهن والتاجر ، الصيرفي والمحامي ، الفلاح والراهب ، القس والموظف .

بعضهم كان يسعى وراء النجاح والبعض الآخر جاء يطلب العون . البعض يرغب بالانتقال والبعض الآخر يرجو العدالة :

كان المقدس يستقبل الناس النظيفين « الهامين » والنساء الجميلات أولاً ، ثم يجري على السلم ويلقي في أيدي البعض روبلاً وثلاثة روبلات في أيدي البعض الآخر وهو يصرخ :

— صل من أجل القيصر ومن أجلي ! لاوقت . . لاوقت هوذا « السيكليتار » ، قل له إذا كان (ضارورة) — ثم يقول وهو في الداخل ؟ ، وبعد أن يسقط على أريكة من الأطلس ينتهد : — أوف ، يا للشياطين المخططين العواهر ، أهلكوني ! رأى كفاتشي في ذلك اليوم الكثير المدهش . أظهر العجوز الأخرق خبرة ومرونة وحكمة مذهلة .

كان يفرق بنظرة واحدة القوي من الضعيف ، المفيد من غير المفيد ويعطي كلاماً مناسباً . يستقبل البعض بابتهاج واحترام ، بالاحضان

والقبلات . يحني أمام البعض رأسه ، يراوغ ويداهن . قد لا يجد كلمتين لبعض الناس لكنه لا يترك امرأة جميلة دون عزاء : كان يضمها ويحضنها بشكل أخوي إذا كانت المرأة تشكو مرضاً . كان غريشكا يقتادها إلى غرفة منفردة لفحصها وعلاجها ، أو يطلب إلى كفاتشي تسجيل عنوانها ، وكان أحياناً يتعذب نصف ساعة لكتابة عشر كلمات وأحياناً كان « يزوق » كلمات غامضة وكأن دجاجة ملوثة بالحبر مرت على الورقة وتركت آثارها .

فهم « ييسو » تعليمات كفاتشي بدقة ونفذها خلال أسبوع : في ذلك اليوم كان بيت كفاتشي محاطاً ببحر من الناس وهذا « البحر من الناس » هم زبائن القديس . تصرف كفاتشي بكفاءة : أغلق لمدة أسبوع الأقبية التي تصب المياه في حقول المقدس وحولها إلى بستانه . فهم هؤلاء الزبائن أن الطريق إلى المقدس يمر عبر شقة كفاتشي ، لذا ولكي يحصلوا على توصيات وكتب مدونة قصدوا كفاتشي مباشرة وقدموا إليه قسماً كبيراً من الهبات كي يحصلوا على كتاب من « ييسو » ، ومن ثم يتوجهون إلى راسبوتين . تناوب اصدقاء كفاتشي لحماية الأب القديس بالتعاون مع رجال الشرطة . منذ ذلك اليوم أصبح الشيخ المقدس المرتاب الخائف ينام بهدوء ويبحث عن حجة لتلقي الهبات التي أحضرها إليه كفاتشي الفطن بعد أسبوعين .

« كيف (دبر) كفاتشي أعمالاً كبيرة »

بعد عدة أيام انتشر خبر صداقة كفاتشي وراسبوتين في كافة أنحاء المدينة ، سمع بهذا الخبر رجال السلطة والأعمال قبل سواهم . كانت شقة كفاتشي محاطة ببحر من البشر يصل حتى فناء البناية .

أما النخبة أو ما يسمى عليّة القوم فقد جرى استقبالهم على السلم المرمري ، وكانوا ينتظرون دورهم على كراسي مذهبة .

اشتم الصبر في « غانوس » قبل غيره الأمر ، وعرف شقة كفاتشي .
تهامس في البداية مع يسو ، ثم دخل إلى كفاتشي وعرض عليه باختصار :

— أنا رجل عملي أقدر الوقت وأثمنه وأعرف أيضاً أنك لست بلا عمل ، لذا هيا للعمل . لدي فوراً عشرات الأعمال الكبرى ، وأعلم أنك تستطيع مساعدتي كي أنهي هذه الأعمال التي يتطلب القيام بها الدفع وهذا من طبيعة الأشياء . .

بدأ بقياس ووزن أعمال ضخمة تثقل الرؤوس ثم كتب اتفاقاً ، شدا على ايدي بعضهما، تبادلا الابتسامات والمجاملات وتمنى كلاهما النجاح والنصر للآخر .

استدعى يسو رجل أعمال ثان « غيتس » اليهودي القديم الذي غادر غرفة كفاتشي بعد ثلاث ساعات .

اختار كفاتشي بعدئذ الوقت المناسب وأدار الحديث مع غريشكا عن الاقلية التركستانية :

— كم ستكون حصتي ؟ — سأل غريشكا كفاتشي مباشرة — ستكون ثلاثة آلاف ؟ سر كفاتشي لهذا السعر الرخيص . أخذ غريشكا الهاتف ، طلب أحد الوزراء ، ثم طلب الثاني وقال للثالثين :

— ماما وبابا يرغبان كثيراً هذا العمل المقدس . سيكون ابولونتشيك عندك ، سيقول لك كل شيء . أعمل ما يأمرك به نعم ! هذا أرغب

به نعم ! ماذا ؟ في (القفقاس) ؟ سأكتب برقية إلى البابا والماما بهذا الشأن حالاً . .

جلس نصف ساعة ينفخ ويعرق . البرقية الأولى :

حبيبي البابا والماما :

من نرسل إلى (القفقاس) لا يدعنا بسلام وهدوء، لكن الأسقف الحبيب « توبولسكي الكسي (١) » يريد الذهاب إلى هناك . له أيضاً مكان في الكابكاس . أرسلوه هذا أرغب به كثيراً . إنه يتودد إلي ويعتبر هذا نجاحاً . من الضروري تقديم الشرف له . مخلص في أي مكان مخلص وفي الكابكاس سيكون صديقنا نعم ، أنا ! غريغوري ! نعم !

البرقية الثانية :

حبيب ! هاجمت الجزء الأب « ايفان » (٢) الأيقونة عليه ، لا تستمعوا إلى ذلك هي « بازارية » ومع ذلك فهي مقدسة كالتداول وأكثر وتجب مكافأة فوستورغوف بالقفقاس أو سيبيريا .

أعطى البرقيتين إلى كفاتشي ليرسلهما ثم أضاف :
— أترى كيف الاطف القبقازيين . .

لاتري هاتين البرقيتين لأحد ولا تثرثر وإلا سينالك مني !
وهدد غريشكا بأصبعه كفاتشي الذي أقسم له مرة أخرى يمين

(١) تحققت رغبة راسبوتين ونقل الكسي هذا رئيساً للأساقفة في جورجيا وفي عام ١٩٠٨ اغتيل في تفليس .

(٢) يفصد « ايفان فوستورغوف » الذي تورط في قضية قذرة اذ باع ايقونة مزيفة .

الانخلاص ، ودمح « فوستورغوف » و « الكسي » وذهب لمقابلة
سوخوملينوف و « كريفوشين » .

لم يسمح غريشكو ل « يابنا » بالمغادرة قائلاً لها بأنها ماتزال بحاجة
للمعالجة .

زار كفاتشي في اليوم التالي الصيرفي غانوس أولاً :

— كل شيء جاهز ، هي ذي الرسالة سنتفق الآن .

اتفقا ، كتبنا العقد ووقعاه . أخذ كفاتشي الهاتف .

— ألو ! من يتكلم ؟ سيادتكم ؟ الأمير كفاتشا نثيرادزه يتحدث
إليكم . . ماذا قلتم ؟ لاتعرفوني ؟ كيف لاتعرفوني . . بالأمس
حدثكم بالهاتف الأب القديس عني تذكرتم ؟ لدي أيضاً رسالة إليكم
من أبينا القديس . . نعم . . نعم . . سأحضر اليكم فوراً .

بعد نصف ساعة كان كفاتشي يقف أمام الحارطة في مكتب وزارة
المالية ويقول :

— كانت تركستان الحالية تشكل امبراطورية تيمورلنك السالفة .
اقد ازدهرت يومئذ وأطعمت مائة مايون من البشر . هاكم هذه الصحراء
المتراصة الأطراف الشاسعة تستطيع ان تحوي خمسم دول كفرنسا .
علينا ارواؤها وفلاحتها وجعلها مزهرة وتوطن شعبنا هناك . أي نوع
من المحاصيل الزراعية لايوجد في تلك المنطقة : التبغ ، القطن ، الأرز ،
الفواكه اللذيذة ، الكرمة الرائعة والقنب والزبيب والحريز . نحن الآن
نستورد بعض الخامات من أمريكا وإيران ، بعد الآن سنصدر تلك
المحاصيل إلى الخارج .

تتسع تركستان لمائتي مليون نسمة بسهولة . سنملاً هذه المساحة
بالسكان . (نستعمرها) ونحوها جنة مزهرة . سيتخلق الشعب بالأخلاق
الروسية وسنربي مائة مليون خلال عامين — ثلاثة أعوام ، سنحقق
تكافؤ في الميزان التجاري ، وماذا سيحدث بعد عشر أو عشرين سنة ،
من يستطيع التكهن ؟ ! والآن علينا ارواء هذا البلاد ، وهذا يحتاج
لأربعمائة مليون روبل . الخزينة لا تملك مثل هذا المبلغ ، لكننا نملكه
ونستطيع البدء بالمشروع اعتباراً من الغد .

سنتناقش في الأمر سنتفق . . كل شيء جاهز . . التقرير والمخططات
ومشروع الاتفاق .

تكلم كفاتشي طويلاً كما لو أنه اقتنع بحديثه العذب وبكتابة
غريشكا المعوجة — ذلك الوزير الهادئ العالم المتمالك لأعصابه كأنما
أقنعه وأذابه وحوله إلى سحاب .

أخيراً قال الوزير :

— أنا معجب ، معجب جداً . سأدرس هذه المعطيات وغداً
أحدد اجتماعاً . في موضوع كهذا يتدخل عادة وزير الزراعة
والحربية . وإذا لم يعارضاً . . .

— كونوا مطمئنين لن يعارضاً — قاطعه كفاتشي الذي كان يمسك
الجميع بقبضته .

— وإذا شئت لإرادة القيصر — قال الوزير بحذر .

— سيوافق القيصر بكل تأكيد سيوافق — قال كفاتشي مؤكداً .

— إذاً الموضوع منته تقريباً . . . إلى اللقاء ! بلغ تحياتي لأبينا
القديس . قبل يدة نيابة عني وقولوا له ان رغبته قانون بالنسبة لي .

— سأراه اليوم وأنقل إليه كل شيء الحقيقة — أعلن كفاتشي بشكل عرضي — أنني كنت بالأمس أنا والأب الروحي لدى إحدى العائلات ، وكان « فيتي » ، هناك أيضاً وقد اهتم كثيراً بأبيننا المقدس لكن . . كونوا مطمئنين :

لقد اتخذت أنا و « اناستاسيا » بروزوروف « الاجراءات اللازمة وعززنا موقعكم إلى اللقاء ! .

— أنا شاكر لكم صنعكم أيها الأمير ، شاكر جداً . . . لا تنسوني أيها الأمير شرفونا إلى البيت ، أعتبر هذا شرفاً كبيراً لي .
شد على يده بكلتا يديه وودع شاكراً ومعتزلاً ، ابن سيلبيسترو كفاتشيكو حتى السلم .

« شخصية الأب القديس »

كان مساء السبت حين قصد كفاتشي كنيسة أكاديمية العلوم اللاهوتية بغية الصلاة . صلى بحسية واجتهاد .

بعد انتهاء الصلاة التف حول كفاتشي الرهبان الذين تعرف عليهم في صالون تانيا . دعا رئيس الدير القيصري « فيوفان » كفاتشي إلى صومعته لتناول كأس من الشاي . وقد تواجد أيضاً الكاهن القيصري وأسقف مدينة ساراتوف . لاحظ كفاتشي في إحدى الزوايا عجوزاً ، بشع المنظر مشوهاً بلا يدين ، أحذب يكاد يكون أخرس ، أطرش يتضور ألماً والنظر إليه يثير الرعب .

— مقدسنا السائح حبا بالله « ميتيا كوليابا » — قدمه الكاهن فيوفان « كفاتشي » . شخر (ميتيا) ، عوى وفاء ، وبدأ يختلج وجهه وعيناه وكتفاه ورجلاه .

— إنه منّا ! . . . هو طيب . . . هو منّا . بصعوبة بالغة استطاع
كفاتشي ان يفهم شيئاً من مواء وعواء ميتيا .
فرح الجميع حين مدح ميتيا كفاتشي نظراً لأن ذلك المشوه كان
طبيهم .

جلسوا وأداروا الحديث عن انقاذ الروح . لم تفت كفاتشي كلمة
واحدة . لقد عرف في ذلك المساء أشياء جديدة كثيرة . شاهد الكثير
من الغرف السرية ، رفع الغطاء عن الكثير من الظواهر الغريبة المجهولة .
استطاع كفاتشي بمهارة وبطريقة بدت وكأنها عفوية أن يكشف
الدافع الحقيقي وراء برقية الأب المقدس الخاصة بالأب فوستورغوف .
قص عليه الراهب « ايليودور » .

— فوستورغوف وغد كبير ، « وطني » كبير، راهب ساقط ،
وقع ، يحب المال والكذب والدم حياً جما . هذا مايعرفه الجميع ،
وكان في كل يوم يحقق نجاحاً ويتلقى هدايا وقد أهدى منذ فترة
قريبة « الكسي » ابن القيصر ايقونة مؤكداً أنها من إرث عائلة
فوستورغوف قديمة جداً . وأثبت الدكتور «دوبروفين» ان فوستورغوف
أقتنى تلك الايقونة قبل إهدائها بيوم واحد من سوق « إبراهيمين »
في بطرسبورغ . قامت الدنيا، دفع فوستورغوف عشرين ألفاً ثمناً لرأس
« دوبروفين » ، وكاد أن يقدم على جريمة قتله .

بعدئذ خفضوا رتبة فوستورغوف وكادوا أن يقلموا له أظافره
لولا تدخل الأب القديس ،

— وأي إنسان هو الأسقف توبولسكي ؟

— لا يقل عن فوستورغوف سوءاً بل لعله أسوأ — يتقبل الرشوة دائماً، لص ، سرق أبرشية بسكوف واثبتوا تلك السرقة وأوشكوا أن « يحلقوا » له ، لكن أبانا المقدس ساعده والآن يعيش فوستورغوف في (توبول) . الكاب يجب أن يتفسخ على طريقة الكلاب . لماذا تسألوني ؟ أسمعتم أي شيء جديد ؟ .

— لا، بالأمس قصوا علي قضيتيهما . أريد أن أفهم أقالوا لي الحقيقة أم كذبوا علي ؟

— قالوا الحقيقة، لكن أخفوا الكثير .

— ومن هو « ميتيا » هذا ؟ استفسر كفاتشي عن المشوه .

— ميتيا انسان رباني حقيقي مقدس ، رسول . قبل ظهور القديس السييري . كان ميتيا مستشاراً لدى القيصر والقيصرة ووسيطاً للعناية الالهية، لكن راسبوتين طرده ، إنما . . . سنرى .

— ففتح كفاتشي أذنيه جيداً، لكنهم لم يسمحوا له بمتابعة الاصفاء .

— نابليون أبولونوفيتش الي . . . عندك رجاء حاول الا تجمعني بعمتك أبدأ . . . اذ أنها بارعة الجمال . . . لا أريد ان ارتكب ذنباً في شيخونختي — قال أحد الأساقفة الشيوخ مازحاً .

ضحكوا وتذكروا النساء الجميلات، استمتعوا بالتذكر وحركوا ألسنتهم وأشعواوا الجمر المختبيء تحت الرماد .

طاف ميتيا حول الطاولة وهو يموء ويعوي ويتمتم مختلجاً .

علم كفاتشي في ذلك المساء أنه تقرر بناء كنيسة القديس غيورغي ، وقد تم جمع حوالي أربعة ملايين . فكر كفاتشي فوراً :

— لو اعتبرنا الربح ١٠٪، فقط تكون النتيجة ٤٠٠ ألف .

وسأل فيوفان على الفور :

— من بينها ؟

— ثمة ألف راغب . سيئنها من يختاره القصر .

تذكر كماتشي جيداً وقرر في نفسه جازماً : « إذا أنا من سيئنها » .
أخيراً تحول مجرى الحديث إلى راسبوتين قديس روسيا ، تساءلوا :
من هو هذا القديس ، أهو قديس فعلاً أم شيطان؟ شيخ برىء أم
شيطان مهووس ؟ رسول أم كافر ؟ أرسول المنقذ هو أم رسول
الشيطان الرجيم ؟

نظر كل منهم إلى الآخر شزراً بطرف عينه خوفاً وحلماً :

— الأب غريغوري قديس ! أعلن أحد الأساقفة بلا رغبة وبتردد .

— شيطان ! شيطان ! شيطان — راح المشوه ميتياً يصرخ مضطرباً
حائقاً .

تمكن فيوفان من تهدئته بشيء من الصعوبة .

تجهم الجميع ولزموا الصمت . اضطرب الراهب ايليودور .
غمزه غيروغن ، لكن ايليودور لم يستطع التحمل .

— سأبدأ معك من بعيد قليلاً — قال بلهجة مضطربة — مذنب أنا ،

كان علي أن أقر بالواقع والحقيقة أمامكم . لقد نفذ صبري .

وبعد وقفة وجيزة بدأ كلامه :

— قديسنا من سييريا . هذا ما تعرفونه . كان أبوه — (يفيم) —

سكيراً ولصاً وسارق خيول وتاجر مضاربات واقتفى الأبن مسيرة والده . أسم عائلته الحالي اسم جديد . جيرانه يعرفونه « راسبوتنيك » (١) وتعني قاطع الطريق . ثم حور الاسم من راسبوتنيك إلى راسبوتين . لقد ضرب الجيران ذلك الذي أصبح فيما بعد قديساً مراراً بسبب ملاحظته للنساء والبنات ولقد جلد بالسوط عدة مرات وفي الساحة العامة بناء على أمر من رئيس الشرطة .

أخيراً التقى بملاكه الحامي — أسقف بارناول الحالي « ميلتي » . ذات مرة اقتاد « قديسنا » ذلك الأسقف من قرية إلى أخرى وفي الطريق أكتشف « ميلتي » لدى الشاب غريشكا موهبة للخدمة الدينية عظيمة وصدق غريشكا .

كان يعمل ذات يوم على البيدر . ترك العمل فجأة وقال :
« لقد تقرر كل شيء ! الرب يدعوني لأن أضحي بنفسي في سبيل مرضاته واسمه ، وداعاً ! » .

هجر الجميع وكل شيء وترك أسرته دونما عناية ومضى . طاف بعدئذ في كافة أنحاء روسيا — لم يهمل ناحية أو كنيسة أو ديراً ولاخورياً أو راهباً .

.. والنساء ! والنساء .. قال الأبله وهو يحزن .

.. وعظ وبشر في كل مكان في القرى والمدن وفي الأصقاع النائية ، سرد الملاحم مذكراً بالإنجيل والمخلص . اتجه في الغالب إلى البسطاء وهو حتى الآن يكره المثقفين ولا يطبق رؤيتهم . هو انسان مضطرب سريع

(١) تعني هذه الكلمة باللغة الروسية — قاطع طريق .

الانفعال لا يتعب ولا يكلّ ، قوي الطباع منقاد المشاعر . شجاعته لا حدود لها ، خياله متوثب وأحلامه أكبر من هذا العالم .

ولهذا استطاع أن يلعب بعقول البسطاء والأتقياء المؤمنين فساروا وراءه . استطاع غريشكا أن يلفت الأنظار إليه تدريجياً ، اكتسب شهرة ووجد حماة له أقوياء وتحول تدريجياً من الوعظ إلى التنبؤ والتكهن . ثم بدأ ينجم وأخيراً ادعى أنه صاحب معجزات .
غريشكا « خليست »

« خليست (١) حقيقي !

-- صحيح ! صحيح ! أكد ميتيا الفكرة كالبيغاء .

--- أيلودور ، أصمت يا بني ! — حذرّه (غير موغن) مؤنباً .
وتبادل الآخرون النظرات .

نهض الراهب ايلودور وقد ازداد اضطراباً وثورة :

— نعم أيها الآخوة والآباء ! أقول لكم أن غريشكا « خليست » حقيقي . أنا مذنب أمام الله وأمامكم إذ رأيته وسمعت كل شيء ، لكنني تأخرت في فضح الفساد . نظراً لأنني خفت كما تخافون أنتم الآن — عرفت أعماله « المقدسة » . هو ليس قديساً بل شيطان ! — شيطان ! شيطان — مرة أخرى نعت المشوه « ميتيا » كالبوم .

(١) خليستي : إحدى الطوائف الدينية في روسيا . وهي تحريف لكلمة « غريستي » وتعني « المسيحيون » كما تدعى هذه الطائفة « الناس — الآلهة » ولد هذا التيار الديني في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر .
وتقول هذه الفرقة الدينية بإمكانية حلول الروح القدس في النفوس الصالحة وهكذا يتحولون إلى المسيح ابن الاله — المترجم

— لقد توافقتنا طويلاً . جاء إلينا مرات عديدة إلى الدير القيصري ،
كما زرت مراراً موطنه . ياإلهي كم سمعت وكم رأيت ! بدأ هذا
الشيطان — غريشكو — بشفائه للأمراض وصنعه للمعجزات من الأسفل
من القاعدة . بدأ بالراهبات والنساء الراغبات في الصلاة في الكنيسة ،
ثم تدرج شيئاً فشيئاً وكان يوسخ ويدنس المكان الذي يدخله سواء أكانت
أسرة أم كنيسة ، هكذا استقرت نظارته إلى الحياة « الأخذ من الجميع »
والتمرغ في القدارة .

— نعم ! نعم ! نعم ! صوصاً المشوّه .

— ثم زحف إلى بطرسبورغ . تقرب من الأب « فيوفان » ، راق
له وخذعه وشق له الطريق إلى القيصر والقيصرة وفتحت له الأبواب .
— مذنب أنت ! مذنب أنت ! — قرق المشوّه وألحّ على « فيوفان »
الذي وقف منكساً رأسه — أعترف ! أعترف !
— مذنب أنا . . آسف جداً آسف . . أرحمني يارب وكفر
عن خطاياي ! تتم فيوفان وهو يصالب .

— وقربه أيضاً « يوحنا كرونشتادسكي » . هو أيضاً رأى في
نفس هذا الحيوان القذرة رسولاً إلهياً وأنار له الطريق إلى سدة الحكم
الكنسية والدينية . هكذا دخل هذا الوحش إلى الأوساط الحاكمة التي
كانت تغص حتى قبل مجيئه بالماسونيين ومستحضري الأرواح . وهو
وهو الآن يتحكم بكنيستنا الارثوذكسية وهؤلاء الناس — حقيقة —
يخدمون الشيطان وبدلاً من خدمة الله والدين يتسالون باستحضار الأرواح ،
ويبحثون عن الأمل والخلاص عن طريق السحر والإيمان بالقوى
الخفية والشعوذة بدلاً من الكنيسة .

في وقت كهذا ظهر رسول الشيطان في القصر واستطاع ببساطة استرقاق القيصر والقيصرة وكافة الأسرة وإخضاعهم لنفوذه . لقد ملوا وستموا من تزلف ونفاق وخبث الحاشية وخرقها للدين فأعجبوا بصراحة وبساطة وغباء وفظاظة غريشكا . ومنذ ذلك الحين بدأ بيت القيصر وأسرته والدولة والكنيسة بالتصدع والانهار ووصلت الأمور إلى أن هذا الفاسق غريشكا أصبح المالك لروسيا والحاكم المطلق المستبد بها . هذا هو راسبوتين ! الشيطان الحقيقي ، رسول إبليس وخادم جهنم !

اشتعل المشوه حماساً من جديد وبدأ يهذي . . وبصعوبة كبيرة استطاع أن يميز بعضاً من هذه التهمة :

— يدعي غريشكا بغروره بأن القيصرة زوجته . . . ويدعوها « ياعجوزتي » شيطان شيطان ! . . شيطان !

— يكفينا أيها الأخوة ماتحملنا ! الصمت بعد كل هذا يعني خدمة الشيطان . إذا كنا نخدم الكنيسة والشعب الروسي حان الوقت لتنفيذ واجباتنا المقدسة .

منذ هذا اليوم سأعلن الحرب نهائياً على غريشكا . من شاء فليمش ورائي . سيكون هذا الصراع مسيحياً وشعبياً ، حرباً ضد الهرطقة والماسونية واليهود والحكومة المستكينة لهم . لقد اجتمع كل هؤلاء ليحفروا قبر كنيستنا وقيصرنا ووطننا .

تابع الراهب « ايليودور » و « ميتيا » وبعض رجال الدين ثورتهم وهيجانهم فترة طويلة ، ثم قرروا أخيراً نصب فخ لراسبوتين . استمع كفاتشي إلى كل مايود الاستماع إليه ، جمع كل مايريد جمعه ، ثم مضى بعد أن أشعر الجميع تلميحاً ومجازاً بأن كفاتشي مع المتأمرين قلباً وقالماً .

فكر كفاتشي طويلاً في طريق عودته وبحث عن الجوهر الأساسي والعلائق المترابطة وعلة العلل في « الظاهرة الراسبوتينية » والعظمة الأسطورية لذلك الجلف، لكنه لم يستطيع أن يلمس أو يفهم بقلبه كما لم يتمكن بروحه من فهم هذا السر . عجز عن الإحاطة عقلاً ومشاعراً فقرر :

— كل هذا باطل وهراء . صراع بسيط من أجل كسرة خبز وفي سبيل حياة أفضل .

انتصر غريشكا على ميتيا كولياب . وغطت فيروبوفا على الأرملة لوختينا . فوستورغوف دفع بأحد ما إلى الأعلى . الكسي اغتصب منصب رئاسة الكنيسة من فيوفان . ماكار اختطف تاج المطرانية من أحد ما . وأيضاً ثمة من وضع شركاً لـ « ايليودور » هذا كل ما في الأمر وفي هذا تكمن الفلسفات والتعققة هذا والسلام !

« كيف أخافوا القديس وكيف دسوا على الآخرين »

اتبع كفاتشي منذ بداية تعرفه بالمقدس غريغوري طريقة واحدة : من وقت لآخر كان يشير كفاتشي إلى أحد المارة ويقول لراسبوتين : — هذا الرجل يلاحقك أيها الأب القديس فاحذر منه .

يخاف الأب المقدس ويزداد تمسكاً بكفاتشي والتصقاً به، فيطمئنه كفاتشي ويشجعه :

— لا تقلقوا أيها الأب المقدس، فرجال المخابرات لدي مدربون بشكل ممتاز لانفوتهم شاردة أو واردة ويخضعون لكم ويأتمرون بأمركم ، لكن شريطة أن تخبرني إلى أين ومع من تذهب .

عمل الأب بنصيحة كفاتشي . لم يستقبل أو يخرج مع أحد دون علمه وهذا ما كان يحتاجه كفاتشي . حملوه كأيقونة وطاقوا به في أرجاء روسيا لجمع مكاسب وإيرادات تركزت جميعها بين يدي كفاتشي . وحين كان يظهر غريغوري شجاعة وتمرداً عندئذ كان تشيونيترادزه يتجول حول الشقة موحياً بأنه يلاحق القديس . وكان كفاتشي يقتاد غريغوري إلى النافذة ويقول له مشيراً إلى تشيونيترادزه ، :

— ذلك الرجل يلاحقك، لكن لا تخش أيها الأب القديس . لقد دبرت الأمر بحيث لا تستطيع ذبابة من الدخول إلى هذه الشقة لكن لا تخرج اليوم إلى أي مكان وإلا . . . فيرضخ القديس لكفاتشي كالطفل ويتصرف بما يميل عليه كفاتشي .

ذات يوم وكروتين يومي همس كفاتشي في أذن راسبوتين :
— أيها المعلم العزيز ، لقد أقسمت لك بالاخلاص ، لذا علي أن أنلرك :
أيلودور ، فيوفان ، غيرموغين وكثيرون آخرون من أعدائك يريدون قتلك .

ويقدم إليه المعلومات الصحيحة والكاذبة .

تكدر غريغوري ، غلى ثم انفجر :

— آه العواهر آه السافلون آه الخبثاء ، آه أيها الشنيع ايلودور وشكا ، ستنال حسابك مني ، لقد خلقت من هؤلاء المكربين بشراً . خلال هذه الأعوام أوصلتهم إلى البلاط القيصري ، كم من الهدايا تلقوا ! تقرر نفيهم إلى الدير الصحراوي مرتين وأنقذتهم في كل مرة . يالهم من جاحدين ! ياللزواحف ! لقد تخصصت مع « ستولييين » من أجلهم والشعب ناقم !

ثم جلس وتصيب عرقاً .

القرية القيصرية - إلى القيصر والقيصرة

بابا وماما الحبيب :

هاهم السلاطين الأحبة كالجراء مدهشون ، المدهونون بالزيت الكنسي ، المتمردون يعاقبون المنقلد. هذا صحيح تجب مداعتهم مكافأتهم لكن ليس دفعة واحدة بل فرداً فرداً والإ سينبح الكلبان « غير ماغين » و « ايليودركا » . نعم يجب ! هذا أنا أكتب غريغوري نعم ! تجب مداعتهم نتيجة عملهم النبيل : نعم ! (١) .

حدس كفاتشي الأمر جيداً. أراد غريشكا مكافأة المستكينين بعضوية المجمع الكنسي ومعاقبة الأساقفة المتمردين .

- أرسل* هذه البرقية فوراً . هذه واحدة سيلبها ألف أخرى . سأجعلهم يتفسخون في الصحراء . سأدعهم يجوعون حتى أنهم سيحلمون بلحم الكلاب وأنت أبولونتشيك ، راقب الطرفين ، زرهم باستمرار وأوقعهم في الحديث وأعرف كل شيء . . ماذا قلت ؟ تريد أن تبني معبداً ؟ ستكون خمسة آلاف ، حسناً سأنتهي الموضوع غداً . غداً سأريك القيصر والقيصرة . أبولونتشيك هل كنت تحلم بسعادة كهذه ؟ لا . لا ! تذكرني وأعرف قيمتي ولا تكن جاحداً كـ « ايليودو » وإلا . . سينالك مني !

(١) فلا القس ايليودور والأسقف غريموغين - هما اللذان قويا راسبوتين من البلاط ثم أصبحا علويه اللودين وانتصر راسبوتين عليهما حيث نقل (غير موغين) إلى دير ناء وتمكن ايليودور من الحرب خارج روسيا واصدار كتاباً عن راسبوتين ادان به القيصر نيتولاوي والقيصرة .

- قبّل كفائشي يده مراراً ، ثم أدخل الزائرين .
- بدأ العناق المعروف ، الدهاء القبلات الارتقاء على الأقدام ، المديح والإكبار ، الصلوات والدموع ، الولولة والنبوءات ، تقديم الهبات . . علاج النساء الجحيلات ، طرد الشيطان والأرواح الشريرة .
- بعدئذ عاد كفائشي إلى البيت :
- بيسو ، كيف الأحوال ؟
- كل شيء هادئ . جاء اليوم مائتا شخص من أجل البطاقات .
- وغير ذلك ؟ ألم يأت غانوس أو غيتس ؟
- اتصل غيتس بالهاتف قال : اتصل به عند عودتك .
- وماذا أيضاً ؟
- مندوبنا الصحفي « كنولان » لا يتمكن من نسخ كافة الاعلانات وقص الأعمال والقوائم .
- استخدم امرأة جميلة وأريد أيضاً امرأة مثقفة ولتكن جميلة أيضاً ، وإلا إذا كان النظر إليها مقرفاً وغير ذلك ماذا عندك ؟
- أتذكر ، كان في أوديسا رجل يدعى « كورانا شفيلى » كتب كتاباً ويرجو إصداره .
- أرسل إليه ألف روبل فليكتب عليه اسمي أيضاً .
- ثمة أربعة من الطلبة يطلبون رواتبهم .
- خصص لكل منهم ستين روبلاً .
- يطلبون من أجل ترميم « غيلاتي » . .

— أرسل الفأ . .

— في صحيفة « القضية الروسية » يشتمون، ولأسبابٍ ما ساخطون علينا . هالك ماقد كتبوا .

— لاوقت لدي لقراءة اللغو الذي يكتبه محتال ما . جد كاتب المقالة وأرم في حلقه ثلاثمائة أو خمسمائة روبل ، وإذا أصر على عناده ، قل له ان سييريا بانتظاره واكتفوا الآن بلكمه عشرات اللكمات .

— في « الصباح » صورتك مرسومة وقد كتب في أسفلها مديح وإطراء . قرأ كفاتشي المقالة . تألق وجهه واهتز فؤاده مع أنه في الآونة الأخيرة كان عليه أن يعتاد المديح وانتشار صيته . فمثل هذه الاطراءات تنشر كل يوم بمبادرة « كنولمان » الماهر ، أسرفت تلك المقالة باستخدام كلمات جميلة مرئية : « الشمس المشرقة » « اقتصادي عبقرى » « طاقة لانتضب » . . « الشهم ، المثقف ، راعي العلوم والأدب ، حامى وصديق الفن والأدب والعلم » .

— أرسل إلى الجريدة اعلاناً وألف روبل وللكاتب . . ماذا كتب ؟ . . هم ، يريد أن يسافر إلى باريس من أجل الثقافة ويريد نقوداً مصروف الطريق ؟ يبيع ريشته بثمن بنجس، ثلاثمائة! ماذا لديك أيضاً يا « بيسو » ؟ .

— يكتبون من تفليس، يريدون تأسيس جمعية لاصدار جريدة جورجية وكتب ، ولهذا . .

— أخ ، أخ ! — قاطعه كفاتشي ولوح مراراً بيده . أقذف بها في سلة المهملات ! وجدوا الوقت المناسب للأموات !

— كتب والدك بأنه سئم من الحياة هناك . يعاني الخوف باستمرار ولا يستطيع أن يظهر أمام الناس .

قفز كفاتشي من مكانه وقطب جبينه .

— ماذا علي أن أفعل ؟ ماذا علي أن أفعل يا « ييسو » ؟ لو كنت أعلم آنذاك . . لكن فات أوان الحديث . ما العمل الآن ! أتمنى أن أدفع تلك الأموال مضاعفة إلى شركة التأمين « سالاماندرا » ، لكن كيف سأظهر للناس المرحوم سيلبيسترو ؟

— الناس يعلمون ما يعلمون . . ويقولون . .

.. أعرف ما يقولون ، لكن كيف سأظهر لهم الميت الذي عاش ؟ سيضحكون ، سيضحك كل العالم مني — وفكر ، فكر ملياً ثم قرر أخيراً — آه ، هذا ممكن ! لا يجوز أن يعود إلى كوتايبي . اكتب إليه : إذا شاؤوا — هنا لأحد يعرفهم تقريباً — فليأتوا وليعيشوا هنا . لكن مع كل هذا يجب أن يبقى سيلبيسترو ميتاً مرة أخرى . يجب أن يحيا بهوية « شابوريانتس » ، وحين يأتون سأقدم لهم النصائح اللازمة ، وأنت يا « ييسو » أمتن لهم اعتباراً من الغد شقة في الضواحي ثم اذهب إلى شركة التأمين « سالاماندرا » وارتبط مع أحد الموظفين هناك بحيث ينقل لنا الأخبار طازجة فيما لو عرفوا شيئاً ، وقبل أن يتمكنوا من رفع دعوى . . لست خائفاً . سأعيد لهم المبلغ فوراً مع كافة فوائده وأجبرهم على الصمت . لكن يفضل أن أعرف سلفاً . تصرف كما قلت لك . أما الآن فدعني وحيداً .

أستلقي على أريكة منجدة بالسجاد « التكني » وغرق في أفكاره

ترك الحرية لمخّته في العمل والحركة. حاك الخيط الأول ثم الثاني والعاشر وسرعان ما حيكت شبكة كاملة لعدد من الخطوط .

- سألتني من غانوس بعد غد مليوناً . . آخذته إلى السوق المالية (البورصة) أبيع أسهم « انجلوروس » ثم أعود وأشتريها في الخفاء . .

أما بالنسبة لـ « كوسموس » سأفكر بشيء آخر. سأرغم الجريدة على الكلام. سأرفع سعر الأسهم وأضخمها، ومن ثم أبيعها وسأستنجد بـ « غريشكا » أيضاً . سأدس (ثانياً) في اللعبة بمبلغ مائة ألف وغينتس أيضاً سيساعدني و « غانوس » و « ميندلسون » .

لعل ثانياً تعرف هذا . . لقد هبطت قيمة الأسهم بسبب الخوف من دفع الأموال في سبيل عرقلة تنفيذ الطريق . . غداً سأشتري مائة سهم. ابتكر كفاتشي الكثير من الخطط، ثم تخيل طريقة التنفيذ ووضعها كلها ضمن ترتيب منظم .

- ألو ، من يتكلم ؟ غينتس ؟ هذا أنا « ابراهام موسيفيتش » ! قل . . ماذا ؟ مستحيل ! . . إذا استبق لي مائة سهم على الأقل ، ستنتقي مقابلها عملاً طيباً . . . حسناً . . ماذا ؟ لأستطيع التصديق آخ - آخ ! طرده ؟ . . القى به عن الدرج ؟ آخ - آخ ! ماذا ؟ صب على رأسه ؟ اها - ها ! غداً في « أركادي » ؟ حسناً سأكون هناك . . و « يلينا » ؟ ستهلّون حين تهرمون ؟ حسناً ، حسناً سأتي . ستدخلون بالمقابل عن « كلافا » نعم ؟ حسناً ، ابراهام موسيفيتش انتم لاتبنون الكنيسة ؟ ماذا ، لقد بنيت سابقاً عشرين ! . . اليهود يبنون الكنيسة ؟ أ - ها ماذا ؟ تبنون أيضاً معمل أيقونات ؟ ستتاجرون بالأيقونات ؟ جهزّ إذا زيت الطهارة وأفتتح أكاديمية للاهوت ، حركوا الأموال... مال العمل

هل هذه قوانين وقواعد التجارة ... أجل علينا إشادة معبد كبير جداً .
بالإضافة إلى ذلك تحتاج القطعات العسكرية إلى مليوني زوج من الثياب
الداخلية ومليون من « الحرامات » وألف حاجة وحاجة، أي أكثر
من عشرين مليوناً . . حسناً ، غداً سنتفق . انقلوا تحياتي إلى « سوزانا
ماكارفنا » العزيزة . قبلوا يدها عوضاً عني ، تصبحون على خير أيها
الصديق العزيز !

ونتيجة لمجهود « كنولمان » و « بيسو » وتكرار المديح بين أوساط
« غينتس » و « غانوس » وعلى صفحات الجرائد وفي كل مكان فقد
آمن كفاتشي بعقليته الاقتصادية بشكل فعلي .

ألف أحد المدرسين كتاباً مدرسياً في المحاسبة وطبع في الصفحة
الأولى من الكتاب « يهدي المؤلف هذا الجهد العلمي إلى العالم العظيم
بالمالية وحامي العلم والعلماء ، الأمير الكريم « ن . أ . كفاتشا نتيادزه » .
وبفضل هذا الاهداء البسيط أصغر ذلك المدرس كتاباً ثانياً ومرة أخرى
أشبع كفاتشي نفسه النهضة وغروره .

وقد نشرت إحدى المجلات صورة كبيرة لكفاتشي وكتب تحتها
« هو مورغان روسيا » وكتبت مجلة أخرى : « أثيرت في الآونة الأخيرة
ضجة كبيرة في أوساط البورصة حول حامي الأسهم – الثنائي الفريد
« غينتس وكفاتشا نتيادزه » « فقد ارتفعت بالأمس القيمة الاسمية
للسهم من مائة روبل إلى خمسمائة » .

وشرحت في مجلة ثالثة الامتيازات التركستانية بشكل مفصل ثم
اختتمت المقالة بالقول « لا يقدر على هذا العقد سوى يد كفاتشي القوية
ورغبته المخاصة في الانتصار » .

دفع كفاتشي لقاء هاتين المقاتلتين غالباً ، لكنه كسب في يوم واحد
ونتيجة هذه الأخبار البورصية مايمكنه من شراء جريدة بكاملها .
كان يأسف كفاتشي في الآونة الأخيرة لأن اليوم لا يضم مائة
ساعة بدلاً من أربع وعشرين . لقد أمسك بأعمال مختلفة ووزع نفسه
ابن سيليبسترو في مجالات شتى للدرجة أن قالت له « يلينا » ذات مرة :
— لقد نفدت قواك تماماً . تذكرني مرة في الأسبوع و . . . لولا
مساعدة القديس غريغوري لك لكنت تركتك .

— كفى ، لانتحامي ! — أجاب كفاتشي ضحراً .

لكن فيما قالته يلينا نصيباً من الحقيقة ، فقد ذاب كفاتشي ونحل
جراة الثراء الزائد والأرق والعمل المحموم . لم تعد عيناه
تشتعلان حماساً ولم يعدد به يتقد حرارة ، كما في السابق . ولم يعد باستطاعته
فعلاً إرخاء الخيوط المشدودة مالم يمه الأعمال الثلاثة الكبرى . كان
عليه أن يخصص ساعات عدة للمعلم القديس ، ومن ثم يتفرغ لاستقبال
الضيوف الكبار ، وبعدئذ كان عليه أن يجري إلى السوق المالية ويرى
غانوس وغينتس ، وأحياناً يتسلل إلى اسرتهما ليواسي زوجتهما وان
يؤدي واجبه الأخوي تجاه تانيا ولو مرتين في الأسبوع . أيضاً كان
من غير الجائز أن ينسى يلينا وتقديم آلاف الأوامر الصغيرة لها .

لكن كفاتشي لم ينحن ، وجرى كجواد أصيل بأقصى سرعة نحو
نجمته التي كانت تبرق للرجل الذي اختارته وتشجعه داعية إياه بإصبعها
وهي تستدرجه أكثر فأكثر .

« كيف أنقذ القديس »

واصطدم كفاتشي أثناء جموحه المجنون نحو نجمته بحائط خفي ، سقط امتياز الطريق التركستانية في هوة وتعفنت مسألة بناء معبد القديس غريغوري في الأرشييف والتزم أحدهم بتزويد الجيش ، وكذا تجمدت بقية الأعمال وصدت وكفت الجرائد والمجلات عن نشر صور كفاتشي أو اطرائه .

لام غانوس كفاتشي ببرود وادعت زوجته الجميلة المرض وشمخت حتى أنها لم تسمح لكفاتشي بدخول غرفة نومها . وكشر غينتس وأفلتت البورصة من بين يديه وابتعدت عنه ثانياً ، وحتى « يلينا » فكرت بهجره .

استغرق كفاتشي في التفكير . كان واضحاً أن الابن الوحيد لسيليسترو يغرق . لكن كفاتشيكو لم ينهزم هكذا ببساطة وذات مرة أجهد اعصاب مخه . عصر نفسه فتمخض عن حيلة ليست بالكبيرة .

— حسناً أعرف الآن المخرج ، بيسو تعال إليّ !

أجلس الصديق الصلوق بجانبه . همس له مايقارب العشرين كلمة .

— حسناً . . . فهمت . . . أنا ذاهب فوراً . لدي مثل هذا الانسان .

ذهب وسأل أحد المساكين المشردين وكان طالباً عاجزاً اضطر لترك الدراسة :

— أتريد ان تأكل ؟ أتريد ان تشرب ؟

كان المسكين شعباً ، لكنه أقسم فوراً :

— لم أشرب منذ ثلاثة أيام . احشائي تؤلني !

— حسناً فلنذهب ولنهدىء احشاءك .

دخلنا خماراً وشرباً ، وبعد أن ارتوى المسكين وتعب من الثثرة
سأله بيسو :

— أتريد أن تكسب مائة ؟

— ياإلهي العظيم من أجل هذه المائة التي بنفسى فوراً في نهر النيفا !

— الأمر أسهل بكثير ، انستطيع ان تطلق طلقة أو طلقتين بالمسدس

في الهواء ؟

— لأرمي بالمسدس فقط بل استطيع أن أقصف بالمدفع .

— جيد جداً . خذ عشرين روبلا وستدفع لك بقية المبلغ فيما بعد .

أما الآن فهلم معي .

— هذه ثياب داخلية وبزة خروج نظيفة وهذا هو الحمام . استحم

أولاً ، ألبس الثياب الداخلية ، ثم نم جيداً ، وبعدئذ سأقول لك كل شيء .

نادى جليلاً — جليل تعال إلى هنا ، اعتنِ بهذا الرجل . دعه يستحم

أولاً ، ثم أرقده في الفراش .

— أنا جاهز .

أخذ كفاتشي الهاتف :

— أيها الأب القديس منذ شهر والأرملة لوختينا ترجو تشريفكم ،

أعمالوا معروفاً وزوروها . . نعم . . نعم اليوم مساء . . ماذا ؟ خطر ؟

ليس ثمة من خطر ، سأبعث برجلي الكشافين . . حسناً سأصل إليكم

بعد ساعة .

تهامس كفاتشي وبيسو قليلاً ثم افترقا .

حين حلّ الظلام تماماً خرج غريغوري وكفاتشي من شقة الأرملة
لوختينا وجلسا في المركبة .

سرعان ما التفت المركبة نحو شارع غير أهل بالسكان . تراءى
خيالان في الظلمة ولعلع في نفس الوقت طلقان ناريان . قفز كفاتشي
في لحظة من المركبة :

— قف ! توقف ، قف وإلا أطلقت النار ! — صرخ كفاتشي
راكضاً وراء الخيالين . توقف أحد الظلين فوراً فأطلق كفاتشي ثلاثة
عيارات نارية في ذلك الظل . وعندما سقط أرضاً أطلق عليه النار في
صدغه ثم قفز كفاتشي المنتصر إلى المركبة وصرخ :

— تابع !

بعد ساعة بدأت الحاشية وكبار الشخصيات تهنيء راسبوتين
بالسلامة وتشكر بامتنان كفاتشي . أقبل مدير مركز الشرطة حاملاً
هوية الرجل المغمور وقال :

— نعرف هذا الوغد . إنه إرهابي مشهور . أخيراً تخلصنا منه .
حين استعاد راسبوتين المدعور والخائر القوى وعيه عانق كالدب
كفاتشي . بكى وتمتم !

— لقد وهبني حياتي . . لأدري كيف أكافئك ؟ أطلب ماشئت .
استغل كفاتشي الفرصة السانحة وطلب ما كان يحلم به .

— من كل بد ، من كل بد — تمم القديس . بعد غد سنذهب إلى
البابا والماما . . نهنتهم بسلامة العودة من القرم ونقوم بعملنا . تعال
أعانقك مرة أخرى يا صديقي أبولونتشيك يا صديقي المخلص .

منذ ذلك اليوم فتحت أمام كفاتشي أبواب المتنفذين على مصاريعها .
في المساء تعب هاتف كفاتشي من كثرة الرنين وعلمت بطرسبورغ
ان كفاتشي سيتسنى في اليوم التالي أعلى المراتب ، وزاره في ذلك المساء
كثير من الصيارفة الجدد والوزراء وأعضاء البرلمان والأساقفة والجنرالات .
غصت الغرف وفناء البيت بالناس ، بالقبعات الاسطوانية و « الشابو »
والقبعات العادية والسترات الرسمية .

هناك البعض وقدم البعض الآخر مطالب مختلفة ، بعض قدم له
الشكر ، وبعض آخر زوده بالنصائح والتوجيهات .

أنهك السكرتيريون وتصببوا عرقاً وهم يسجلون اعداداً ضخمة من
الناس ويحصون الأموال ، ولم يعد كفاتشي بقادر على الوقوف على قدميه .
— وآه ! أهذا عيد .

— خذ ياسيدراك مادام لديك وقت كاف — نصحه تشخوبيشفيلي
الذي كانت البزة السوداء تلائمه .

— أزحُ حصالة النقود قبل أن يصطدم بها أحدكم . كم مرة
امتألت ؟ — تساءل تشيكنينجيلاندزه .

— هي ذي الرابعة هذا اليوم ، ثمة الكثير من الذهب والنقود
الورقية . لقد رمى البعض خواتماً والبعض رموا أقراطاً وسلاسل .
أخيراً خلت الغرف والفناء من الناس .

— هيا أحصوا الأموال !

أكثر كفاتشي المتعب من استعمال الهاتف :

— ألو ، يلينا أهذه أنت ؟ . . . وعرفتني أنت ؟ عندك غريشكا ؟

وعدك بأن يمنحك لقب « فرولينا » ؟ محظوظة ! أنا أيضاً سأشفع
ببضع كلمات . لأي زمن عشت ! حسناً يا حبيبي من أنت . .

آه ، أولست عشيقة كفاتشا نترادزه السابقة ؟ أعرفك ، أنا أيضاً
من النبلاء . . لكن لا بأس يا عزيزتي لا تشمخي بأنفك فأنت بنت النبيل
أشوردنيا في حين كان كفاتشا نترادزه قائداً لدى القيصر « باغرات » .

آ . . ها، إذاً أنت لا تعرفين التاريخ ! . . هنا كل شيء، كرى
كلماتي ، لست كفاتشي ان لم أحصل غداً على لقب الامارة ، والآ
وداعاً ، غريشكا مشغول الآن بطرد الشياطين ؟ تطبيبي ، تطبيبي، لديك
طبيب ممتاز من أفضل ما يكون . . وداعاً ! يا حبيبي، يا صديقتي الجميلة
وداعاً إلى اللقاء إلى الغد !

« كيف ارتقي كفاتشي إلى الدرجة العليا »

توقف القطار الفخم في محطة « القرية القيصرية » ضاحاً متأوهاً
نافثاً بخاره. كان الرصيف والساحة مزدانان بمئات السترات الرسمية .
وبصعوبة بالغة تمكن غريشكا وكفاتشي من الرد على التحيات .
رف جليل ، المدجج بالسلاح من رأسه حتى أخمص قدميه بعينه
وهو يتمتم :

— واه ، واه ، واه ! إذا كان الجميع سيسافرون إلى « بادشاه »
فالأحصنة لا تكفي . كان ثمة ما يقارب الأربعين من العربات والسيارات
التي تحمل الشعار المذهب تحمل الوزراء والنواب والمقررين من الحاشية .
بصق غريشكا على السيارة :

— تفو ، متاع شيطاني ، قطعة إبليسية، لن أجلس فيها ماحيت !
أي . . أي .

أنت أيها البيغاء ، تعال هنا عربة !

جلسوا ، تمددوا على طنافس المقاعد وتوجهوا إلى القصر على وقع أقدام الخيل وطققة العربة .

كان السلام المرمرى الواسع وفناء المدخل يغص بالهوسارو « أولان » و « كالير غاردي » (١) و « كامير يونكر » و « كامير باج » و « كامير غير » (٢) والمئات من كبار الشخصيات من مختلف المراتب والمهام .

كان الجنرال آمر القصر يستمع إلى أوامر وزير البلاط الهادئة ومن ثم يوزع أوامره الهادئة والمناسبة يمينا وشمالا .

دخل غريشكا وكفاتشي إلى القصر . تطلع كفاتشي في تلك القاعة الضخمة . تلاحظ كل شيء في عينيه وطاش صوابه . لم يعد يدري إلى من ينظر ، من أين يبدأ وعلى أي شيء يركز : على الكريستال ، البرونز ، المرمر ، الذهب ، الفضة ، الحرير ، الغوبلين (النسيج المشجر) على اللوحات أم على التماثيل .

وقف كبار الشخصيات تزينهم ستراتهم الموشاة بالذهب كتماثيل حية . وكان هؤلاء التماثيل يتزينون بمختلف الأشكال والألوان من الاحزمة والصلبان والميداليات والنجوم المصنعة والمطعمة بالذهب والدرر . عند ظهور غريشكا تنكست رؤوس تلك التماثيل ، علت الابتسامة والاحترام وجوههم ، ثم عادوا لجمودهم من جديد .

(١) الهوسار - أولان - كافالير غاردي : تسميات لفرق الخيالة القيصريّة - المترجمان

(٢) كامير باج : الطلاب المتخرجون من المدرسة الخاصة بالنبله وكانت تسمى

(فيلق باج) - كامير يونكر : الموظفون خريجو مدرسة النبلاء أول تعيينهم في خدمة الحاشية - دامير غير : أعلى رتبة ينالها هؤلاء الموظفون .

كانت تلك القاعة تلمع تحت شمس الحريف وتنتقد كشمس صغيرة
جراء ماتحويه من أحجار كريمة .

نخصص لكل مكانه ، لكن كل واحد منهم حاول التقدم ولو قيد
أنملة كي يظهر نفسه ويرى الآخرين بشكل أفضل .

— كيف ياأبولونتشيك ، لعل ذلك أعجبك ؟ تبحظ عينيك
محدقاً ؟ لا بأس تمالك نفسك ورائي — سأخرجك غرجاً حسناً ! قال
غريشكا لكفاتشي المندهش والحقير .

فتح الباب على مصراعيه :

— القيصر والقيصرة يتفضلان بالقدوم !

قدم الحراس — الخيالة سيوفهم محين وأدّى العسكريون التحية
وأحنى البقية رؤوسهم ، ثم أحنى الجميع ظهورهم .

وظهر القيصر والقيصرة وولي العهد بالباب . مشى القيصر في
الوسط وتهادت القيصرة على يساره وعلى يمينه اقتادوا طفلاً صغيراً —
ولي العهد اليكسي وقد سار خلفه مربيه البحار « دريفنكو » .

كان الجميع مرتدين ثياباً بسيطة بعيدة عن البهرجة مما أذهل كفاتشي
وأدهشه . انحنى ثلاثتهم يميناً وشمالاً مبتسمين ابتسامة خفيفة . فجأة
حدث شيء غامض وغريب . تدفق من جميع الجهات وثوباً الكثير
من المجانين والمخبولين — مشوهون بشعو المظهر ، كسحان يخلعون
ويتلوهون متشجنين زاعقين مصوصئين ، يثرثرون هراء وهلوسة وهم
يلحقون بالقيصر والقيصرة .

همس غريشكا :

- يا للمجانين ! يا للشياطين المغفلين ! يريدون أن يسبقوا الجميع ؟
لا تعبث أبولونتشيك ، ورائي ! لا تفغر فمك ! مالك فتحت فمك
على مصراعيه ! ؟ وخلص نفسه من بين الجموع ساحباً كفائشي وراءه .
التفت القيصر والقيصرة وانحنيا وفق العادات القديمة ، انحناء
شديدة أمام هؤلاء الدراويش والمشوهين البكم ، الكسحان المساكين ،
المتخلفين عقلياً ، ثم ابتسما للجميع لاطفاهم ومسداً على رؤوسهم ، ابتسم
التمائيل الأحياء المحيطون بهم ، لكنهم في قرارة أنفسهم كانوا يتميزون
غيظاً لانفتاح الأبواب القيصرية أمام المخبولين قبل أن تفتح أمامهم هم
الوزراء ورجال الحاشية .

كان رئيس التشريفات يعرف عمله جيداً . بعد عودة القيصر
والقيصرة إلى مكانيهما أوقف المشوهين والمخايل بلطف وابتسامه
وحيثاً غريشكا وكفائشي باحترام وفتح الباب أمامهما . أمسك غريشكا
بيد كفائشي وأدخله الغرفة التي توارى فيها القيصر والقيصرة .

- الأب القديس !

- أحبابي ! بابا ، ماما ، اليوشا (١) .

تعانقوا ، تشابكت أياديهم وقبل بعضهم بعضاً فترة طويلة .

- ها ، يا أحبابي لقد انعشتموني وانهشتم الله ! كيف سافرت
(كيف كانت سفرتكم) ؟ وماما صحيحة الجسم أليوشا أيضاً وأنت
نيكولاشا (تصغير نيكولاي) حبيبي يارب ، يارب ! هاأنا أحضرت
لكم حافظي ومنقذي الأمير أبولونتشيك .

(١) اليوشا : تصنيف أليكمي .

طيه يب ، أوو كم هو طيب ! وكم يصلي بصرامة !
وكم يصلي بنشاط ! تجب ملاطفته أحبائي ، هكذا أريد أنا ! نعم !
أنا ! نعم ! ثم التفت إلى ولي العهد :

— أليوشا ، تعال إليّ !

وأجلس الأمير ، ولي العهد الصغير على ركبتيه، قبله ودغدغه .
ضحك وجره إلى الضحك .

صافح القيصر والقيصرة كفاتشي وشكراه بحرارة على إنقاذه
لغريشكا ، قبل كفاتشي يديهما باحترام .

ابتسم نيكولاي بشكلٍ بدا وكأنه مخرج أو خجل من شيء ما .
— اسم عائلتكم أيها الأمير ؟

استجمع كفاتشي شجاعته في دقيقة وقال :

— كفاتشا نثيرادزه أيها الحاكم العظيم !

— كيف الأحوال في القفقاس ؟

— حصل الكثير من التدهور والفوضى . ظهر لدينا يهود ورسل
الشیطان ، لكننا نحن عبيدك المخلصون ورعاياك. لم نخف ، خضنا معهم
المعركة ، انتصرنا عليهم وقتلناهم والقينا بالبقية الباقية منهم تحت الأرض
بحيث يعجز الشيطان نفسه عن ايجادهم .

وزوق كفاتشي للقيصر والقيصرة أعماله البطولية : كيف ألقوا
القنبلة عليه ، كيف رشوا عليه الطلقات كحبات البرد ، وكيف فكروا
بتسميمه ، لكن القدر والحمد لله، ألف الحمد لله، أنقذه من كل الأخطار
وكان الإله يريد أن يختبر ولاءه للعرش وروسيا مرة أخرى .

— هاقد أختبركم الاله بالأمس .
— أجل أيها الحاكم المعظم وأنا جاهز لأبرهن لكم كل يوم من ولائي واستعدادي للتضحية بنفسي في سبيلكم .
— شكراً أيها الأمير ! شكراً جزيلاً ! لن أنسى خدمتكم والآن قولوا حسب رأيكم هل هدا القفقاس ؟

— ليس تماماً لكن . . لا تخشوا شيئاً بعد الآن أيها الحاكم المعظم ولا يرتعش قلبكم أيها الحاكم المعظم فنحن — المخلصين لك وللالة — كثيرون في روسيا المقدسة.اعتمد على اكتافنا القوية . قوية هي وتتحمل . سنحملك ونمشي بك كالريشة ، ضم القيصر النحيل كفاتشي إلى قلبه، زرف دمعين وهو يشكره من جديد بعد ان طمأن قلبه الواجف الخائف :

— أشكركم أيها الأمير اشكركم . . اعن بالآب المقدس ، صنه فلدينا الكثير من الأعداء .
— لقد قلت لك يانيكولاشكا إنه أهل للعطف — تدخل غريشكا قائلاً :

— أعد ! «أبولونتشيك» لقب الأمير يانيكولاشكا ، لقد دعوته منذ لحظة « الأمير أبولونتشيك » كلمة القيصر قانون لايمكن التراجع عنها .

احمر نيكولاي . هدا كفاتشي :
— أيها الحاكم المعظم ! لقد حزنا على لقب الامارة في القرن السابع . وفي القرن الثامن كان جدي قائداً للجوش في جورجيا ، ومنذ ذلك

الحين كان. ثمة أربع عشرة شخصية من آل كفاتشا نثيرادزه — وزراء ومقربون لدى قيصر جورجيا .

وفي القرن الثامن عشر هدم الأتراك وأحرقوا قلعتنا وقصرنا . وضاعت يومئذ الوثائق . كل القفقاس يعرف أننا امراء ، لذا لم يسع أجدادي للبحث عن الوثائق وبقي لنا لقب النبالة ولم أبحث أنا عن ذلك . . — حسنًا ، فليكن — تتم القيصر وكتب ملاحظته لديه .

« أشورديا لاتقلد بثمان ! » قال هاتف في نفس كفاتشي، ثم بدأوا الحديث عن شؤون الدولة وراح القيصر والقيصرة يتطلعان في عيني هذا المقدس كاليهودي موسى حين وقف على جبل سيناء معلناً على شعبه الوصايا العشر التي املاها الإله عليه . لقد تحقق كل ماأراداه وقاله غريشكا ، وعند إحدى القضايا قال القيصر نخجلاً ، خفراً : — قابي يقول لي شيئاً وعقلي شيئاً آخر !

رفع غريشكا قبضته فجأة وضرب بها المنضدة بكل مأوتي من قوة . اهترت الغرفة بكاملها . نهضت القيصرة شاحبة وبدأ ولي العهد بالبكاء . ارتجف القيصر واستغرب .

حدق غريشكا في عيني القيصر، حدق طويلاً ثم تساءل بصراحة وبلهجة جليدية :

— ماذا ؟ أين خفق ، هنا أم هناك ؟ ثم وضع إصبعه على صدره في البداية ثم على جيبيه .

— هنا . هنا ارتعش القلب وخفق — قال نيكولاي بصوت متهدج وأشار بإصبعه إلى صدره .

— ها . . . ها ! حين تفكر بشيء لا تثق بعقلك بل سل قلبك .
القلب أفضل من العقل .

خرت القيصرة على يد « غريشكا » :

— شكراً ، شكراً أيها المعلم المقدس !

— حسناً . . سأصرف هكذا . . — وافق القيصر .

بصعوبة كبيرة تمكن « دريفنكا » من تهدئة ولي العهد الباكي .
زافوا وقاسوا وفصلوا أضخم وأعقد المسائل الحكومية . في ذلك اليوم
خفضوا من درجات بعض رجال الحاشية ورفعوا البعض الآخر .

. أخيراً أنهى غريشكو لقاءه مع القيصر بقوله :

— أمدّ الله في عمرك وعرشك . لكن كن حذراً من اليهود
والشياطين .

ودع القيصر والقيصرة كفاتشي بحنان ، أوصياه برعاية غريشكا
العزیز ودعياهما « ببساطة لاحتساء كأس من الشاي وللأحاديث الروحانية » .

خرج غريشكا وكفاتشي وفي نفس الدقيقة هجم المشوهون داخلين
على القيصر والقيصرة ضاحكين ، زاعقين ، باكين ضاحكين .

— انتظر دقيقة أنا الآن ! — قال غريشكا لكفاتشي واجتاز تلك
القاعة راجعاً كالحصان وانزلق إلى الغرفة المجاورة .

تخلق حول كفاتشي وزراء ونواب وكبار شخصيات الحاشية
والبلاط من معارفه ومن لا يعرف ، هنؤوهما بالسلامة وسألوهما عن
آخر الأخبار .

فهم كفاتشي أنه في تلك اللحظة ارتفع عالياً جداً ، لذا أجرى التغيير المناسب في لهجته وهيئته : انتصب شامخاً أرتدى لباس العظمة وأعطى رجال الحاشية ما يشبه المقابلة الصحفية بلهجة لا اكرثا فيها :
- أوكد اكم ، وأنا بمنتهى السعادة ، أن أعز الأعزاء وأعلى الغوالي القيصر والقيصرة وولي العهد قد تحسنت صحتهم بشكل ملموس خلال إقامتهم في القرم ، وكلهم في أطيب حال ومزاج . . . في السياسة ؟ التغييرات ممكنة ، لاشيء على وجه الخصوص . . . بدهي أن تشتد ملاحقة اليهود وبقية القلدين الذين بدؤوا في الآونة الأخيرة يطاون برؤوسهم . . . الحرب ؟ الحرب مع تركيا غير سليمة العواقب في الوقت الراهن ، فقوانا قد تحتاج في أمور أجل وأسمى . . . مع من ؟ هذا مالا أستطيع قوله الآن . . . ستعرفون قريباً . . . أيضاً يجب محاصرة مجلس الدوما قليلاً . . . سنغربل قليلاً الوزراء والحاشية أيضاً . اهتزت قلوب الكثيرين جراء هذه الكلمات ، بعضهم خوفاً وبعضهم أملاً .

أتم كفاتشي في ذلك اليوم التعارف على الطابق العلوي من الامبراطورية .

هكذا فكر كفاتشي وراح بمباركة غريشكا يغد ويؤمل بعض أفراد الحاشية والمقربين إلى القصر ممن يداهنونه أو يتلفون إليه كذيل له بغية التقرب منه ومصادقته في تلك اللعبة الخطرة والمعقدة التي تجري باستمرار حول القصر في سبيل تحقيق نصر أو كسب نجاح التمتع بحياة مرفهة ..

لقد أدرك كفاتشي ، مذ كان صغيراً يجري في سامترديا بلا سوال ، هذا المبدأ الأساسي في الحياة ، لذا وفي هذه القاعة العظيمة راعى ذلك

المبدأ ووضعته نصب عينيه . فقد جهد بحسه الطبيعي وحده وبشئ السبل ، أن يفعل مايسر الآخرين وألا يسيء إلى أحد وألا يخلق اعداء له لاسيما وأنه يعلم جيداً أن ظهوره في القصر والنجاح الكبير الذي حققه أخفض الكثيرين وأوغر صدور البعض بالحسد والضغينة .

اخترق وزير البلاط — ذلك العجوز الجميل الحسيم البارون فريد يركو — جموع رجال الحاشية والبلاط وقال لكفاتشي بصوت عذب :

— أيها الأمير! العظمة الامبراطورية للقيصر والقيصرة تعطف اليوم ودعتكم للتفضل على الغداء .

أننى كفاتشي وقال :

— امتناني الخالص الولاء وسعادتي الطاغية لاحدود لها ولا يمكن وصفها بالكلمات .

في ذلك اليوم كان شرف الدعوة عظيماً حتى أنه اقتصر على كفاتشي وراسبوتين من بين كافة رجال الحاشية والبلاط ، وكانت هذه فعلاً الدرجة العليا في السلم التي حلم بها كفاتشي ونالها .

« كيف انقلد العرش وروسيا من الانهار »

يكذب التاريخ دائماً . ذات مرة قال أحد القساوسة « هاليلويا » في الوقت غير المناسب ، لقد أخطأ الحكيم .

هذا ماحصل لتلك الغاية — التاريخ حين حرف الحقيقة خطأ ، وسجل في افتراءاته بحروف من ذهب مكانة كفاتشي ونصيبه في تلك القضية العظيمة والتي كان لها دور أبدي على مر الأجيال والتي حدثت ذلك اليوم في القصر مع راسبوتين وكفاتشي .

إنها قضية شعبية أبدية أعادت البلاد القهقري ، ودخلت التاريخ بحروف ذهبية وكذلك أشير وتضمن دور كفاتشي في خدمة الشعب . لكن كفاتشي ذكر هذه المرة في هذه القضية اختصاراً بحرف « ك » إذ كان — وهذا ما برهن آلاف المرات — شاباً خفراً متواضعاً جداً ، وكان يهرب دائماً من الدعاية والشهرة ، مع أنه حتى في الوقت الحاضر قد تجذب بعض الحاسدين الذين يؤكدون أن هذا « ك » ليس كفاتشا نثيراذه بل هو الأمير العظيم الشاعر « كونستانتين » . لكن والحمد لله ، المؤرخ الشهير « تشوريشفيلي » دحض هذه الرواية بشكل قاطع وأعطى كفاتشي مكانه المرموق في القضية الشعبية المذكورة لاحقاً .

حضر هذا الغداء التاريخي ، إلى جانب القيصر والقيصرة وولي العهد وأولاد القيصر الأربعة ، راسبوتين وكفاتشي ووزير البلاط البارون فريدريكو و « فيروبوفا » المقربة جداً من البلاط .

بعد الغداء ، وحين غادر الأولاد المائدة ، وبعد الانتهاء من الأحاديث الدينية وحديث انقاذ الروح ، قالت القيصرة بتمتة واضطراب :

— أيها الأب القديس ، كنت دائماً صديقنا المخلص وناصحنا المرتجى . كل كلمة من كلماتك تحولت إلى نبوءة ، كل ماقلته تحقق : الهزيمة في الحرب اليابانية ، فشل الثورة ، ولادة ولي العهد وأشياء أخرى كثيرة . لذا وكما تعلم نحن لانستطيع أن نقرر أمراً ببلونك . — حسناً ماتفعلون ! — قال غريشكا .

— صار التسويف أمراً مستحيلًا . يوم كنت أيها الأب المقدس في القرم أراد نيكولاي أن يشكو لك همومه ، لكنني أرغمته على التأجيل .

أما الآن فقد حان الوقت لإعلان هذا السر الخطير ، لكن يجب أن نعلم ونعي أن هذا السر يجب أن يظل دفيناً بيننا نحن الستة ، وفي حال إذاعته قبل أوانه سيحقيق بالدولة خطر رهيب .

رفع كفاتشي أصبعه متهيناً لقسم اليمين .

— لاتزعج نفسك أيها الأمير — قالت له القيصرية — لاضرورة للقسم . اذ من غير المعقول أن يكون الصديق الذي اختاره أبونا المقدس ثرثاراً . والآن انتقل إلى الموضوع . .

من المفروض أنكم تعلمون أننا منذ خمس سنوات حين اهتزت روسيا بشكل مريع (١) . قررنا التخلي عن العرش ومغادرة البلاد . حينذاك أنقذنا وأنقذ روسيا ، مرشدنا القديس الذي أفنعننا وأرغمنا تقريباً على البقاء على العرش .

— أوم تأكد نبوءتي ؟ — سأل غريشكا .

— تأكدت أيها الأب القديس ، تأكدت بشكل كامل ، ولذا نصلي دائماً من أجلك ، ولذا نفكر ان نشيد في حياتك كنيسة القديس غريغوري . لكن القضية ان نيكولاي لم يتخل بعد عن فكرة التخلي العرش .

— ماذا ؟ كيف ؟ صاح غريشكا وكفاتشي بصوت واحد .

— وهو الآن يفكر بهذا طوال الوقت . يصبر ويضرب على وتيرة واحدة : لن نتمكن من العيش في روسيا بأمان ، يتهددنا خطر فظيع ، سنهلك جميعاً ، ستنهار روسيا فوق رؤوسنا . أنا لأستطيع أن أعمل

(١) الإشارة هنا إلى ثورة ١٩٠٥ التي قامت ضد القيصر — المترجم

شيئاً بمفردي، لا يمكنني اقناعه . ساعدني بشكل ما أيها الأب المقدس ، وأنت أيها الأمير أنصح به ، أخبرنا ، أيها الأب المقدس عن ارادة الرب ، يامنقذنا، بامقدسنا ساعدنا أرشدنا ! وبكت القيصرة وانشجت وغطى نيكولاي وجهه بكلتا يديه وفكر غريشكا ، وصمت الجميع طويلاً منتظرين مبادرة غريشكا ، أخيراً نهض القديس عابساً وقال آملاً :

— فلنصل للاله !

نهض الجميع ثم ركعوا أمام الأيقونة . صلوا طويلاً وسجدوا برجاء ودأب، ثم نهضوا مرة أخرى وحلقوا بغريغوري . وقف غريشكا أمام نيكولاي وسأل بحزم :

— بماذا أوحى لك ربك أثناء الصلاة ، أي جواب أعطى ؟

صمت القيصرة خافضاً رأسه ، ثم لوح بيده وهمس قائلاً :

— لم ينعم عليّ بالجواب .

— لأنك غير أهل لهذه النعمة ، لأنك مذنب ولا تستحق ذلك . غارق في آثامك ، نظف قلبك من الشر حينئذ سيفتح الرب أمامك أبواب الحكمة . نصبحوا القيصر الثابت واليائس طويلاً ، قدموا إليه المواعظ ، أخافوه وحذروه من أن تخليه عن العرش سيجر وراءه الشغب والفوضى وانهيار الدولة والحرب والنار والدماء ، وإن الإله سيسأله عن كل هذا وأن أحداً لا يستطيع إدارة البلاد ولن يتمكن أحد سواه من الثبات على العرش .

استخدم كفاتشي أيضاً كل ملكاته العقلية وبلاغته في الحديث ،

لكن لم يعجنوا شيئاً . جالس القيصر المتجهّم خافضاً رأسه ولم ينبس بأية لفظة ، بل هز رأسه التعب إشارة الرفض .

اشتعل غريشكا فوراً واحتدم غيظاً ، بدأ يرتجف بشكل غريب وكأنه مصاب بالحمى ، اهتزت يصداه وشفتهاه وشحب وجهه وأصبح أنفه دقيقاً واشتعلت عيناه بنار زرقاء غريبة . قفز نحو القيصر ، وبدأ يصرخ في وجهه مؤنباً ضارباً الأرض برجليه ملوحاً بيديه أمام أنفه :

— ماذا ؟ لم تعد تؤمن بالشعب ولا بالإله ؟ أنسيت من يعصي الله يجب أن يلعن من قبل الكنيسة ويطرد منها . الحرمان من الكنيسة ، الحرمان من الكنيسة للقيصر الذي نسي ربه ومنصبه وكنيسته وواجهه ! حين سمع القيصر التهديد بالحرمان من الكنيسة نهض واقفاً وارتجف وذعر ، فرفع غريشكا من لهجة صراخه ووعيده :

— من أعطاك الحق في هدم الدولة ؟ كيف تجرؤ على اهلاك قدر كبير من الناس ؟ أتفهم أم لا أنك تتنازل عن العرش لليهود والشرّاطين ؟ يعني هذا ان الشرّاطين أيضاً سيطرت على روحك ! يعني أنك أنت رسول الجحيم ! أنت لست بقيصر بل عدو المسيح ، عدو المسيح !

— أرحمنا يارب ! — أن القيصر ثم صلب بيد مرتعشة صليباً واسعاً .

— أقول لك أيها القيصر، أنا غريغوري أقول لك أيها القيصر — صرخ غريشكا المشتعل حماساً — أركع على ركبتيك واكشف أمام الله عن خطاياك، صلّ للرب كي يطرد من قلبك الأرواح الشريرة وشرّاطين الجحيم !

وقف فوق رأس القيصر المنبطح أرضاً أمام الأيقونة و صلب
وصلى بصوت عال .

— أيها الرب المقدس ، أيها الرب القوي ، أيها الرب الخالد أرحمنا ! ..
باسم الأب والابن والروح القدس ، آمين !

ومن جديد وقف الستة أمام الأيقونة ، صلوا طويلاً بحرارة وصوت
عال ساجدين باكين . أخيراً نهض غريشكا وقال :

— انهض أيها الحاكم ! انهض وقص علينا ما أوحى عليك ،
بماذا نصحك ربك ؟

فجأة خرّ القيصر الضعيف الخائر القوى على ركبتيه أمام راسبوتين ،
ثم تبعت القيصرة القيصر وستاتس دامافيروف. وقع الثلاثة على قدمي
وربتي ويدي راسبوتين وراحوا يقبلونه بلهفة ويغمرونه بالدموع ،
ثم رفعوا أياديهم وصرخوا وهم يهزون مرتعشين :

— أيها الأب المقدس ! . . أنت منقذنا . . أنت مسيحنا ! . .
أنت محررنا وقائدنا . . تعطف علينا وأرحمنا أيها الأب المقدس . !

وقف راسبوتين الشاحب متسماً قاذفاً رأسه إلى الوراء يحدق
بثبات بعينه البراقطين الجالمتين في الأيقونة . كان يرتجف بكامل
جسده ، ثم وضع يده اليسرى فوق رأس القيصر و صلب باليد اليمنى
صليباً واسعاً وتتم بشفاه مرتجفة :

— أشكرك أيها الرب ، إذ أنقذت روسيا المقدسة وقيصرها وأسرتها
والكنيسة الأرثوذكسية من الخراب والجحيم . . أرحمنا اللهم ! هاليويا ،
هاليويا ، هاليويا ، آمين ! ثم أقسمت القيصرة لراسبوتين أمام الأيقونة :

— أقسم بالرب العظيم وبالقديس « سيرافيم ساروفلسكي » وبأولادي وزوجي . لن أتركك ماحيت ! أبداً حتى لو وقف العالم كله ضدك سأظل معك حتى آخر حياتي . أقسم سأبقى مخلصة خاضعة لك .

سكتوا تدريجياً ، هدأت الصلاة نفوسهم المضطربة ودماءهم المتقدة . أنهض غريشكا القيصر الحائر القوى قائلاً :

— أنهض أيها الحاكم . أحكم في سبيل عزة روسيا وإرضاء للكنيسة المقدسة وعزاء للشعب وارهاباً باعدائك . . فلتفرح الملائكة في السماء والمسيحيون الأرثوذكسيون على الأرض . أدفع الشيطان عنا ، أدفع الشيطان ! ثم عانق نيكولاي الباكي .

— آمين آمين ! . . ! ادفع الشيطان ! ادفع ! ادفع ! — تتمم البقية بخوف وارتعاش ، ثم عانقوا وقبلوا ، كل وبدوره ، ودموع الفرح تسيل من أعينهم ، منقذ الكنيسة وكل روسيا الأب القديس المنقذ غريغوري راسبوتين .

« مكافأة كفاتشي واعتذار امرأة وبعض الأحداث الأخرى »

— رأيت ؟ أقتنعت ؟ سأل غريشكا كفاتشي الداهل وهما في عربة القطار الملكية .

— أعمالك مذهلة أيها المعلم العظيم وصاحب المعجزات . رأيت ، فهمت وأقتنعت .

— لقد أنقذت مرة أخرى روسيا والكنيسة والقيصر من خطر كبير رهيب .

بـ أنتم تستحقون تمثالاً هائلاً أيها المعلم العظيم يامتقد بلادنا .
غداً سأبدأ بتشيد معبد القديس غريغوري .

— لقد فعلت هذا من أجلك أيضاً . لقد أضافت القيصر مليوناً
إلى الملايين الأربعة احتفاء بهذا اليوم . أصبح العمل عملاً فانت تدري
أي كنيسة عظيمة ستبنى بخمسة ملايين . يمكن اشادة معبد كبير
أليس كذلك ؟

— سأشيد لك معبداً يغطي بعظمته على « آيتا — صنوفيا » وعلى معبد
القديس بطرس في روما ، باذن ومساعدة الاله سأنجز هذا العمل المجيد ،
فأنا أملك المعرفة والخبرة لعمل كهذا .

— وثبتوا لك لقب الامارة وأعطوك « امتياز » الألفية في تركستان ،
وعهدوا إليك بتجهيز عشرين مليون زوج من الثياب الداخلية للجيش .
— أعمالك خالدة أيها الأب المقدس .

— يتوجب عليك دفع عشرة آلاف .

— ستقبضها غداً أيها الأب المقدس .

— ولقد سجلت يلينا أيضاً في نساء البلاط ستاتس داما وحاملة
وسام القيصر . المهم ألا تغر وألا تنسى الجميل وإلا . .

— لا . . أيها الأب المقدس لا ! يلينا ليست بالمرأة السيئة .

— وغيرنا المجلس الكنسي ، طردنا بعضهم . نقلنا الكلب
« أيلودور » والعنيد (غير مودع) إلى الصحراء . عيّننا وزراء جدد ،
أكرمنا رجال الدين الموالين لنا . أفرجوا أيها الارثوذكسيون ، ارتجفوا
وارتعدوا خوفاً أيها اليهود والشياطين ! لاحظ فجأة امرأة جميلة

تقطع حديقة فلحق بها وتبعه كفاتشي . بعد خمس دقائق سمع ضجة من بعيد صرخ غريشكا التأثير عند باب إحدى المقصورات :

— مالك تعاندين أيتها العاهرة ؟ القيصر والقيصرة يقبلان يديّ وأنت تصعرين وجهك وتراوغين ؟ ماذا ؟ لاتعرفيني ؟ ألا تعرفين غريشكا راسبوتين ؟ حسناً ، سأريك من أكون : يالك من سليطة ، يالك من صعلوكة .. يالك .. بصعوبة بالغة استطاع كفاتشي أن يعيد المعلم ، العظيم إلى مقصورته بعد توسل ورجاء ولم يهدأ المعلم بل ظل يتوعد بالاشغال الشاقة . بعد مايقارب العشر دقائق جاءت تلك المرأة وزوجها — وهو موظف كبير وصديق وزير العدل « شغلوفيتوف » — دخلا مقصورة غريشكا على رؤوس اصابعهما وطلبا المغفرة باحترام .

لم يشأ غريشكا أن يتحدث معها . خرج الزوج خائفاً مستاء ولحق به كفاتشي — أبولونتشيك ! قف بالباب ولا تسمح لأحد بالدخول ! قال له غريشكا راسبوتين . استند كفاتشي إلى باب المقصورة من الخارج مانعاً زوج المرأة من الدخول إلى المقصورة مواسياً إياه على الشكل التالي : — لاتغضبوا ، إهسدأوا أعاهدكم أنكم ستحصلون على وسام وستحققون نجاحاً كبيراً خلال أيام قليلة .

حاول الزوج أن يثير الشغب من جديد فأمسك « جليل » بيده كالطفل وأجلسه إلى الوراء راجياً :

— من فضلك أيها الشاب ، لا ضرورة من فضلك . الخاتم ستأتي فيما بعد . ثم أعجب ذلك الموظف الكبير بنصيحة كفاتشي فذهب إلى مقصورته وبدأ قراءة الصحف .

حين أقترَب القطار من محطة بطرسبورغ خرجت المرأة من مقصورة
راسبوتين مودة الحديد مشعنة الشعر منفرجة الأسارير . سأل كفاتشي
غريشكا :

— هل غفرتَ لتلك المرأة ؟ اعتذرت .

— غفرت لها، لقد اعتذرت مرات عدة فغفرت لها خطاياها ،
وماذا كان بوسعي أن أفعل ؟ فأنا مسيحي . هاك عنوانها سجله .

— الحمد لله ، الحمد والشكر لله !

— أبولونتشيك أنا اليوم ضيفك في « أركاديا » .

— هذا الشرف لأستطيع تحمله دفعة واحدة أيها الأب المقدس !

— دعهم يهينون كل شيء ! أحجز مقصورة ذات ستائر ، سئمضي
في الثانية عشرة تماماً.أصطحب معك يلينا، أذهب الآن إلى البيت واسترح،
وأنا أيضاً عليّ أن أنال قسطاً من الراحة . هذا اليوم رهيب ! رهيب !
ارحمنا يارب واغفر خطايانا !

لم يفكر كفاتشي بالراحة . كان عليه في ذلك المساء أن يجمع
ويملك ويحصد الكثير . مضى أولاً إلى غانوس :

— تهانينا ! . . لقد انتصرنا ! . . وافقوا وثبتوا الامتياز ! —

قال دون أن يلتقط أنفاسه للصيرفي المذهول — حاسبني غداً قبل الثانية
عشرة . . لقد أمضيت اليوم بكامله في القصر . . تخلصت بصعوبة
بالغة . استبقونا للغداء، لم يسمحوا لنا بالمغادرة . ثم أخبار كثيرة، تغييرات
جمة . . فليغل — أوديوتانت . . قص ونشر مغامرات ذلك اليوم بما
في ذلك « السر العظيم » ، بل وأضاف عليه الكثير من التلفيق . كثيراً
ماردد كفاتشي في حديثه عبارات :

— عيسنا . . نقلنا . . قررنا . . انهارت روسيا وتمكننا من أنقاذها بصعوبة . : اقنعنا القيصر . . عملنا أنا وغريشكا ، لقد وثقوا بنا في كل شيء ، نفذوا كل مآرذناه . . هيسا ماالقضايا التي لديكم ؟ هاتها بسرعة غداً حالاً ، وإلا من يدري بما قد يحدث ، من يدري كيف تجري الأمور ! . .

غداً سأتي إليك في العاشرة صباحاً . يجب ان نذهب ونستلم العقد المبرم . يمكن الاتصال بالهاتف ؟ أشكرك .

واندفع كالتيس نحو الهاتف :

— ألو ! بيسو ، أهذا أنت ؟ ! أبحث عن سماسرتي بسرعة ! جدهم حيث شئت . سأكون هناك بعد ساعة . . حسناً ، حسناً فيما بعد . . أعطني مهلة قصيرة .

— ألو ! يلينا أقبلك ألف قبلة وأهنتك بلقب « الغريلين » ماذا لاتصدقين ؟ وحين ستستلمين الوثيقة غداً وبعد غد ألن تصدقي حينئذ ؟ ماذا ؟ تقولين ان غريشكا فعل هذا ؟ نعم أنا وغريشكا عملنا لك هذا ! ماذا؟ ألا تخجلين يايلينا ؟ ها — ها — ا حسناً ، حسناً لاتخرجي اليوم إلى أي مكان . سأكون عندك في العاشرة ، لي معك مسألة هامة ها — . . ها . . ها ! فعلاً ؟ أأصدق هذا ؟ . . حسناً أعطني مهلة قصيرة . .

— ألو ! اهذه شقة غينتس ؟ ابراهام موسيفيتش أهذا أنتم ؟ أهنتكم بالنجاح في كافة الأعمال . لن أقول شيئاً آخر ، سأكون عندك بعد نصف ساعة ، استدع مهندسك ومعماريك الآن ، ؟ حسناً أنا في طريقي إليك . . عاد مرة أخرى إلى غانوس :

— إذا ، يا صديقي العزيز في ذمتك هدية ثمينة إلى الغد ! إلى صباح الغد . . قبلوا يد زوجتكم نيابة عني ، آسف إذ لم أرها .

دخل إلى غانتس مسرعاً ، أغرقه برشقات من الكلمات ، نفخه
ونفخ نفسه غروراً :

— أنا وغريشكا فعلنا كذا . . تغدينا . . لقد نحينا . . عينا . .
نقلنا . . أو كلوا إلى مهمة بناء المعبد . أتستطيعون بناءه ؟ تباشرون ؟
— أجل أتعهد القيام بأي شيء ! إذا ما كلفوني يشق طريق حديدي
إلى القمر ، سأتولى القيام بهذه المهمة .

— هي ذي المخططات وهذا هو العقد، وهذا كتاب القبصرة . . .
— سأنفحص . . سألقي نظرة . . سأحسب . .

— يحتاج الجيش عشرين مليوناً من الثياب الداخلية و « البطانيات »
وآلاف الحاجات الصغيرة . هذه لائحة بها وبأسعارها . اعطني خمسة
بالمائة وخذ هذا التعهد .

— سأحسب ، غداً صباحاً سأعطيك الجواب .

— إذًا وداعاً ! إلى اللقاء ! ما تزال لدي آلاف الأعمال . . يتظرني
الوزراء ورجال الحاشية في البيت . . بلغ تحياتي لزوجتك وقبل يدها
عني . . إلى اللقاء يا صديقي العزيز ! وفي البيت كان السلم يغص بالناس .

— اطردهم ! لا تستقبلوا بعد الآن مثل هذه التفاهات ! أهذا
وقتهم ؟ لقد كلفوني بأعمال هامة ضخمة بحيث أضحت أموال
هؤلاء الناس لاتساوي الجهد المبذول في عدها . بيسو استدع سماسرة
البورصة . أغلق كفاتشي الباب، وأعطى التعليمات الكاملة للسماسرة
ثم فرض عليهم تسجيل ما قيل وبعدها تركهم يخرجون .

— سيدراك ! انتق الناس النظيفين (الأغنياء) وأدخلهم ثم اصرف

البقية إلى بيوتهم . . تشيبي أسرع إلى المحطة واستقبل « سليبيسترو »
و « بوبي » وهينىء لهما سكناً ولا تدعهما يأتیان إلي حتى أقول لك .
أشرف عليهما وأعتن بهما . . . (غيغو) : نخذ هذه الرسالة إلى دار
الأوبرا وسلمها إلى المطربة الرئيسية « فولجينا » . اشتر لها طاقة من الزهر
واعتذر وقل لها إنني لأستطيع المجيء . إذا رغبت اصطحبها معك
إلى « أركادي » لاتب السيارة ؟ استأجر لها عربة حسنة ، هيا تصرف ! ..
ثم أندفع مرة أخرى إلى الهاتف :

— ألو ! « أركادي » ؟ أنا الأمير كفانشا نثيرادزه . . احجزوا
باسمي المقصورة الأولى والثانية، زينوها بالأزهار وليكن كل شيء
جاهزاً . .

ثم التفت مرة أخرى :

— بيسو ، أهذا أنت ؟ من ينتظرني ؟ أعطني اللائحة . النائب
« شيبين » ، رئيس الدير « ماكاري » . . المحافظ « تيزنغازن » . . مدير
القصر « كوتشوبي » حسناً ، حسناً فلينتظروا قليلاً . . أنا تعب .

استلقى واستراح . بعدئذ التقى نظرة على شبكة الخطط ، كانت
مشدودة ومحسوبة بشكل جيد . . . المهم ألا يخذعه (غيتس) ، فكفانشي
لا يخشى الآخرين . . حسناً سنرى غداً سنرى . .

— بيسو ، نادِ الحضور .

بعد ساعة كانت « مرسيدس » ، كفانشي تجري في شارع سوفوروفسكي
حين صعد إلى يلينا ، التقى بـ « غريشكا » على السلم ، فكر :

— لقد سبقني ، سبقني هذا الطمّاع !

- ابولونتشيك ، أهذا أنت ؟ ستندام الليلة ؟ كل شيء جاهز ؟
- ستندام أيها المعلم العظيم ستندام ! كل شيء جاهز ، في الثانية عشرة تماماً سأمر عليكم .
- دخل إلى يلينا عابساً مستاء ، استقبلته يلينا الموردة الخدين والمشعثة الشعر بفرح ولطف .
- ومع ذلك سبقي هذا « الفلاح » وحدثك بكل شيء ؟
- كفاتشيكو لا تكن حسوداً ، لاتجر وراء كل شيء : أكتف بالأموال والإمارة وتسميتك « رجل البلاط » وإلا ستندم .
- وهل أنا أجري وراء كل شيء يا حبيبتي الطيبة ؟ مثلاً تخليت عنك ! « غريشكا » ، أكاد أموت لكن ما العمل ؟ حسناً لقد حان الوقت ارتدي ثيابك .
- مرة أخرى اندفع نحو الهاتف :

— ألو ! (تانتشكا) (١) أهله أنت ؟ أقبلك ألف قبلة . . آمل أن تكوني بصحة جيدة ؟ أتريدن أن أريك مكاناً مليئاً بالخطايا ؟ سيكون « راعي الكنيسة » هناك أيضاً . . لن تندمي ، لاتخافي ، أتريدن أن أضع قناعاً . . ماذا تخافين ؟ أقول لك لاتخافي ، سأصطحبك إلى تلك المقصورة بحيث لن يتمكن الشيطان من رؤيتك . . يلينا ذاهبة أيضاً والمغنية « فولجينا » أيضاً . كلنا سنشكل أسرة واحدة أموافقة ؟ إذاً ألبسي ثيابك بسرعة ، سنمر عليك .

(١) تصنيف وتعب من اسم (تاتيانا) - المترجم

« كيف عرض القديس غريغوري « هويته الشخصية »

وكيف ضرب احدى العاهرات ضرباً مبرحاً

الثانية بعد منتصف الليل ، الموسيقى تصدح في الملهى . الجميع يأكلون ، يشربون يغازلون يرقصون ويغنون .

الصالة الضخمة تشتعل .

تلمع كالاماس الثريات المحملة باحجار الكريستال اللامعدودة ، يسمع رنين الخزف (الفرفور) .

وكانت تنسال قطرات ذهبية من فوهات زجاجات الشمبانيا المثلجة في أوعية فضيئة والملفوفة بفوط أنيقة ، كانت تنسال في أقداح كريستالية .

وكانت خمرة « الشير » تنساب نحاسية اللون بخير عذب من أبريق منتفخ الجوانب ، كما وكانت تشعشع خمور « موسكات » « مارسال » بنديكتين » « بوردو » « بورغون » بيضاء وصفراء حمرة . وفي أكواب « البكارا (١) » كان « الشارتريز » الوهاج يتقد بنار زرقاء سماوية والفواكه المستوردة المتعددة الألوان تنضح عافية : الأناناس – البرتقال – الماندرين .

وتكاد الكمثرى الفرنسية بنوعيتها سان جرمان وديوشيس – تلوب في الفم دون مضغ . وعلى الخوان الأبيض كالمقط يتناثر بوفرة الدراق القرمزي اللون وتفاح « الكالفيل (٢) » . والعنب الأخضر

(١) البكارا : من أفضل انواع الكريستال الفرنسي – المترجم

(٢) الكالفيل : تفاح يوجد في بلدة كالفيل واليه ينسب – المترجم

والأصفر والأسود والأزهار والورود النادرة ، كما تمددت السرطانات
 الحمر وسرطانات « البستر » وبدت وكأنها تزحف .
 وأبرزت الطيور المقلية صدورها وأرجلها المقمرة للأعلى .
 بقيت مختلف الأطباق المشبعة بالتوابل كما هي دون أن يمسّها أحد .
 وكانت ترى في كل مكان أنواع الزهور والرسوم والتماثيل ،
 أكتاف ونهود وأيد عارية وأرجل محاطة بخيوط العنكبوت .
 واختلطت مختلف ألوان الديباج والأطلس والمخمل والتول .
 وكانت المطرقات والتوشيات الذهبية والأقمشة الشرقية والمستوردة
 من جنوة والبندقية تبهج العيون .
 والشعر الأسود والكستنائي والقرنفلي والنحاسي . . . مسبل أو
 مرفوع بتسريحات جميلة عالية .
 وكانت جواهر الألماس واللؤلؤ ، الفيروز ، الكهرمان الزمرد ،
 والياقوت تخطف الأبصار ببريقها الوردي واللازوردي .
 وكان دخان التبغ يرتفع ملتوياً كالأفعى نحو السقف ثم يتلاشى
 ورائحة العطور تدغدغ وتهيج حاسة الشم بسحر وفتون .
 وتوالى الراقصون والراقصات في حفلة المنوعات ، الفرنسيون
 والطلليان والأسبان، الجزائريون والتونسيون واليهود، اليبانيون والقادمون
 من مختلف أصقاع الأرض . يتسارع الرقص الاسباني والتشارداش
 المجري والمازوركا البولونية ويجتنّ اللحن جاحاً مزهوراً كالاعصار
 وينثني الراقصون على أنغام رقصة « كيك . - ووك » (١) الداعرة ،

(١) كيك - ووك : أو رقصة الفطيرة - رقصة زنجية انتشرت في الربيع الأول
 من القرن العشرين - المترجم

وعلى أنغام رقصة « الماتشيش » الموزونة ، ورقصة التانغو المثيرة
للنزوات . والراقصات الشرقيات العاريات يهززن بطونهن بشكل
شهواني . تتواثب الأرجل وتنوس الأوراك من مختلف الألوان
والأشكال ، ويسمح حفيف الثياب المقصبة ، وتراءى من وقت لآخر
خاطفة الأبصار الثياب النسائية الداخلية البيضاء كالثلج .

تشابك الرجال والنساء ملتحمين ، ثملين مخدرين بأنفاس وأجساد
بعضهم البعض وهم يسبحون في أمواج الرقص .
تتصاعد همسات شبة ونكات ذات معان مواربة ، وضحكات
مثيرة .

ويخرق القاعة شرر الرغبات المتقدة الذي تقذفه العيون بلا انقطاع
وتتموج الصدور العارية بشهية وعدوبة .

وعلى الشفاه المحمرة بلون الدم والأسنان البيضاء كالثلج ترتعش
شعلة الرغبة المثاره وتبحث الرغبة المحتدمة والمثاره بالمشروبات والأطعمة
المخدرة والحادة ، تبحث عن متنفس لها .

الدماء المضطربة تتطلب بالحاح الاسترخاء واطفاء الرغبة .

القاعة مشبعة بالخدر والرغبات المتقدة .

وزأر بشكل هستيري وحش الفسق والحلاعة الدموي محتدماً
متوثباً مكشراً عن أنيابه .

اشتعلت تلك القاعة ، ذابت وغرقت في لجة الفسق والاستسلام
للرذيلة .

وجلس غريشكا وكفاتشي ويلينا وتانيا في مقصورة معتمة تسربلها

الستائر يتنادمون ويتطلعون من حين لآخر إلى المسرح حيث يغني ويرقص على خشبته وبشكل متتال مجموعات الروس والغجر والزنج والرومان والفرنسيون والاسبان ، ومن وقت لآخر بدأ غريشكا الشمل يصدر أوامره :

— استدعوا إلى هنا راقصات « الكيك — ووك » ، أيضاً راقصات « الماتشيش » فليرقص ذاك من جديد . . استدعوا الغجر ! أنا أدعو الجميع ! قولوا لهم أن غريشكا راسبوتين يشرب ويأمر . . قولوا لهم ألا يزعجونني وإلا سأهدم عش هؤلاء الأبالسة !

مزّق غريشكا قميصه الحريري ورفع أكمامه ، شعث شعره وتدلّى حتى حاجبيه وزاغت عيناه ، واشتعلت رأسه وغامت في ضباب . في مآقي عينيه الزيتيتين يسبح وحش مقترس . في قلبه نار تتلظى . لم يعد بقادرٍ على التزام الهدوء ، بل صار يتخبط كوحش في قفص .

يعبث بيديه كيفما اتفق ويشرب كل مايقع بين يديه ، يصرخ مغنياً بأعلى صوته أغان فاضحة وتراويل كنسية مطلقاً كلمات وتعابير سوقية غامضة وكأنها طلقات مدفعية تصيب قلوب تانيا ويليانا والمطربة . وكان يلح باستمرار على هذه وتلك قائلاً :

— مالك تزوين بوجهك ؟ مالك تضربين الأرض برجليك كمهر لم يروض بعد ؟ ! في المنادمة ستنادم بطريقتنا بالطريقة الرجالية ! فكّي أزرارك ، أرنا نهديك ! أخلعي ملابسك ! أخلعي ثوبك ! . . ثم هجم على الفنانات وبدأ يمسك بهن ، ومزّق ثوب أحدهن . ضحكت النساء ، ضحك بعض منهن ، وغضب بعض آخر وتهيأن للخروج ، فأزداد غريشكا اشتعلاً وعناداً :

— مالكن تتدللن أيتها العاهرات ؟ لقد رأيت الآلاف من أمثالكن عاريات ، نساء أفضل منكن يراققني إلى الحمام خمس بل وعشر نساء وحتى الملكة لاتعرض عني ، ومن أثنى ؟ هذا القميص خاطته لي « عجوزتي » (١) بنفسها . أجل الملكة يديها خاطته وأتمته. أبولونتشيك دعني أقول لك، وأنت أخرسي ياتانيا، لقد قبل القيصر والقيصرة اليوم يدي ورجلي ، فمن أنتم ؟

حاول كفاتشي تهدئة غريشكا المتوحش . احترقت تانيا ويلينا خجلاً ، واستدعى البعض رجال الشرطة وصاحب الملهى وتجمهر الناس حول المقصورة .

— ماذا ؟ لست أنا غريشكا راسبوتين ؟ لاتصدقون ؟ إذا أنظروا ، صدقوا وتأكدوا ! فكّ أضرار سرواله وقدّم أفضل هوية شخصية له . — والآن ألم تصدقوا ؟ ! ألم تعرفوا على غريشكا ؟ هاكم هويتي الشخصية ! أنظروا وتيقنوا ! صدقوني !

صرخت تانيا ويلينا وركضتا خارجاً . تبعتهما بعض النساء لاعنات شائمات وقهقهه الباقون ، مزق أحدهم ستارة المقصورة وخرج هذا الحيوان إلى القاعة الغاصة بالناس . علا الضجيج والهرج في القاعة وتوقفت الموسيقى والرقص على المسرح . صرخ أحدهم :

— اعتقلوه ، أخرجوه !

وصرخ آخر :

— كذب ، كذب ، هذا ليس راسبوتين !

(١) المقصود هنا القيصرة - المترجم

ثم اختلط الحابل بالنابل .

— صدقوني ، أنظروا تلك هي هويتي ! هذه هي وثيقتي الشخصية !
صرخ غريشكا ماداً نفسه من المقصورة .

أضطربت القاعة ، ضحك البعض :

— ها — ها — ها — هو — هو — هو !

وصرخ البعض الآخر :

— أطرده ، أعتقلوه ، أكتبوا محضراً بحقه ؟ ! استدعوا الشرطة !
خذوه إلى مشفى الأمراض العقلية !

وجاء الجميع إلى المقصورة كالنحل ، مهلدين ، ضاحكين ،
ثائرين .

أستند جليل إلى باب المقصورة كجلمود من الصخر رافعاً الخنجر
بيده لامعاً بأسنانه الحصانية راجياً الناس :

— من فضلك أيها الشاب من فضلك ! لا تدخل وإلا ستسيل الدماء .

دخل المقصورة صاحب الملهى ورئيس مركز الشرطة مرة أخرى .
عاق أحدهم الستارة الممزقة منهياً بذلك عرضاً نادراً . ومن أجل تهدئة
الناس ولفت انتباههم جهدت جوقة المغنين لربط الأصوات ببعضها
وعزفت الفرقة الموسيقية الحانها بصخب .

واستسلم غريشكا أيضاً . ثاب إلى رشده وهدد رئيس مركز
الشرطة فقط :

— سأنفيك وأحكم عليك بالأشغال الشاقة فيما لو كتبت المحضر ،

وسأرمي بلحملك للكلاب . نعم أنا أقول هذا أنا غريشكا راسبوتين !
دعني وسأذهب بنفسني ! أبولونتشيك أرم لكل من هؤلاء الكلاب مائة
روبل ولننته فلنمض الآن . أين تانيا ويلينا ؟ هربنا ؟ فليصحبهما
الشیطان . أقول لك لا تكتب محضراً وإلا . . .

اقتاد كفانتشي غريشكا الثمل بصعوبة بالغة مودعين بالضحك
والوعيد والصراخ والصفير .

وفي منتصف الطريق غيّر غريشكا سبيله .

— انعطّف إلى اليمين ، والآن إلى اليسار . . إلى الأمام . . قف .
وأوقف السيارة أمام دار البغاء .

.. ماذا تفعل أيها المعلم ؟ سيعرفوننا وسيصل خبرنا إلى القيصر
والقيصرة !

— أبولونتشيك أصمت ! من يدري ؟ عجزوتي ؟ فلتعلم مازلت
صغيراً لاتعرف شيئاً فلتدر هذا أفضل ، ستحبني أكثر . . أنت لاتعرف
شيئاً عن نفس وطبع المرأة هيا ، تعال ورائي !

دخل صالة السكارى وصاح :

— مرحباً يا آنسات ! . . أريد صاحبات !

وعلى أنغام البيانو نزل إلى الجناح الخاص بأناقة وحيوية مصطحباً
معه عدة نساء ثم وزّع لكل من العاملين والعاملات خمسة روبلات
وطلب عشرين زجاجة من الخمر والفودكا .

علت ضحجة وصراخ وضحك ، وازداد الحماس للرقص والحضن

والضيم ، شربوا زجاجات الخمر ، كسروا الأواني ووسخوا ودنسوا كل ماحولهم .

أخيراً اختار غريشكا خمس نساء منهن واقتادهن معه وجرت إحداهن كفاتشي بما يشبه القوة ، واختار جليل شقراء تزن أكثر من سبعة بودات .

مضى نصف ساعة ، سمع من إحدى الغرف صراخ متواصل وشتائم بليئة .

كان كفاتشي مستعداً للخروج ينتظر معلمه ، وفجأة سمعت من الغرفة التي يفرد فيها غريشكا بالنساء استغاثة امرأة :

— النجدة ! قتلت !

قفز كفاتشي على الشرفة أولاً ثم إلى الشارع فرأى عند المدخل وجهاً لامرأة عارية منقوشة الشعر تجري صارخة نحو الأسفل ووراءها يجري المعلم العظيم عارياً أيضاً ويسوط المرأة بالنطاق صارخاً :
— آه أيتها العاهرات أيتها السافلات أيتها الملعونات خلدي ، خلدي ، خلدي !

وكانت المرأة تتقوس تحت كل ضربة وتتلاوى وتقفز إلى جهة أخرى ثم تجري من جديد :

— النجدة ! لقد قتلني !

لحق به في البداية كفاتشي وحارسان ، ثم جاء الآخرون للنجدة . حملوا المرأة المغمى عليها وأحاط البقية بـ « غريشا » صارخين .

— أضربوه ! اعتقلوه !

صار جليل عنده خلال لحظة . أخرج خنجره من غمده حتى
منتصفه قائلاً :

— من فضلك .. أذهب من فضلك .

وجاء رجال الشرطة مسرعين . لم يخف غريشكا أحداً ولم يتراجع
أمام أحد :

— دعوني أرتدي ثيابي أولاً ، وسرى من يجرؤ على الاساءة
إلى غريشكا راسبوتين .

أيها الشرطي أطرّد هؤلاء الكلاب وإلا سأنفك وأحكم عليك
بالأشغال الشاقة. هيا بسرعة .

عند ذكر غريشكا راسبوتين علا الضجيج والضحك .

— صحيح ، صحيح ! هذا يجب أن يكون غريشكا راسبوتين
لكن أنظروا ، أنظروا !

— تفرقوا ، أقول لكم ! صرخ رجال الشرطة .

أثناء ذلك دخل غريشكا مرة أخرى إلى دار البغاء ثم عاد بعد عشرة
دقائق مرتدياً ثيابه . وقف قائد المركز أمامه :

— ماذا ؟ أنقول محضر ؟ مابك هل سئمت حياتك ؟ ألدبك عائلة ؟

— لا ، أيها السيد أنا ، أنا لاشيء أريد فقط أن أرى بأم عيني
قديسنا غريغوري . . ليس أكثر . . سأرافكم وإلا . .

— لا ضرورة لذلك . أبولونتشيك أشكر رئيس المركز هذا واعطه
خمسة وعشرين روبلاً .

ما اسم عائلتك ؟ غداً أو بعد غدٍ قابلني . وفي نفس الدقيقة
تحرّكت السيارة .

« كيف اعترف القديس بذنوبه وكيف فجر البورصة »

كانت لدى غريشكا غرفة صغيرة مملآة بالايقونات والمواد الروحانية . كانت هذه صومعته .

دخل تلك الصومعة مترنحاً متميلاً . حديق فيه المسيح المضاء قليلاً بشمعة واحدة بعينه الطيبتين وكأنه يؤنبه .

نخر راسبوتين المذنب الداعر على وجهه منهاراً أمام الأيقونة . سقط ناشجاً أمام المسيح :

— أيها الرب المقدس ، المقدس والذي لاحدود لقوته ولرحمته . أغفر لي ، أنا الجاني الحقير ، ذنوبي التي لاحصر لها وأمنحني السكينة فأنا أهل لذلك !

حل الصباح وبقي غريغوري مواظباً على صلاته . جثا مرة أخرى على ركبتيه مهيناً نفسه ، صلى متأوهاً أناً سافحاً دموعاً حارة وهو يلفظ بوضوح كلمات الصلاة ، وكان أحياناً يرثلها ترتيلاً غنائياً ويضرب صدره بقبضة يده مضنياً ركبتيه من التعب .

أسرع كفاتشي بعد منتصف النهار إلى معلمه ، فقال له الخادم :

— الأب غريغوري مازال يصلي . منذ ليلة أمس لم يخرج من صومعته ، لم يأكل ولم ير أحداً .

دهش كفاتشي ، لكنه لم يأسف إذ كان عليه في ذلك اليوم « حبك » عشرات الحيل . أسرع إليه في اليوم التالي ، فكرر الخادم مقاله السابق :

— الأب غريغوري مازال يصلي ، وهو منذ أمس لم يخرج لم يأكل ولم ير أحداً .

— ما الأمر ؟ — فكر كفاتشي ثم ذهب إلى الغرفة المجاورة للغرفة التي يصلي فيها غريغوري منذ يومين .

كان ثمة العشرات من الرجال والنساء الجائين أمام باب الصومعة وهم ينوسلون بحرارة غفران ذنوب المعلم . رأى كفاتشي تانيا بينهم وقد خارت قواها .

جثا بجانبها ، أحنى رأسه ورفع يديه إلى السماء وبدأ يحرك شفثيه . ومن الصومعة كان يسمع صوت المعلم :

— « ألبسوه رداء قرمزيًا ووضعوا على رأسه إكليلا من شوك وقصبة في يمينه وراحوا يمرون عاياه ويقولون له :

أفرح يا ملك اليهود ! وزينوا رأسه بالقصب وانحنوا أمامه . وبعد ان استجوبوه نزعوا الأرجوان عنه وألبسوه بزة الكاهن واقتادوه ليصلب على « خشبة العار » . توقف غريغوري عن قراءة الانجيل وراح ينشج بحرقة . صاحت تانيا وسقطت منبطحة وصرخت وهي تنشج :

— كفى ! فلينته من هذا ! يكفيه !

اهتاج الآخرون أيضاً وبكوا . نقل كفاتشي تانيا الخائرة القوى إلى الغرفة الأخرى وهدأها بصعوبة . وبما أن لديه بضع حيل لم تكتمل بعد فقد استقل السيارة وقصد الصيرفي غانوس ، ومساء استنخر بالهاتف :

— ألو ؟ كيف حال أبينا المقدس ، كيف صحته ؟ . . ماذا لم ينته من صلاته بعد ؟ !

— لم يأكل شيئاً ؟ لا يرغب برؤية أحد ؟ بابه مغلق مرة أخرى ؟ —
— يا إلهي العظيم ما هذا !؟ حسناً سأتي غداً .

وفي اليوم الثالث مساءً أسرع كفاتشي من جديد إلى غريغوري .
كان باب الصومعة مازال مغلقاً وقد اجتمع أمام الغرفة مجموعة من
التلاميذ . تانيا غير موجودة . أزعج البشرون المخلصون والمريدون
خلع باب الصومعة ، لكن أم الاله « لوختينا » هذأت الجميع :

— دعوا ابن الاله يستكين وصلوا من أجل روحه . لا تبتكوا
فمنقذنا المقدس يستطيع الصيام أربعين يوماً وأكثر .

مضى أسبوع . أصبحت غرفة غريغوري الكبيرة مملوءة برجال
الحاشية والنبلاء و « البشرين » ، صلى البعض صامتين وسقط البعض
منهارين وهم يهزؤون بكلمات غريبة مبهمة ، فجأة فتح باب الصومعة ،
سمح الخادم لكفاتشي قبل الآخرين بالدخول على القديس ، كان
غريغوري مستلقياً على أرض الغرفة ناحلاً فاقد القوى .

— أيها الرب العظيم ! يا أيها المعلم المقدس !

— أبولونتشيك يا أخي وصديقي الصدوق ! — همس غريغوري
قائلاً بصعوبة — لا تقلق أنا بخير ، أفهم وتذكر : يفرح الرب حين
يعترف المذنبون بذنوبهم .

فعندما يرسل الله الشيطان إلينا ، علينا اتباعه واقتراف الموبقات
وأرتكاب الأخطاء كي يكون هذا مسوغاً للاعتراف . فلتعلم أن المقدس
يهلك نفسه دائماً ان لم يعترف الذنوب ، إذ كيف يمكن للرجل الذي
لم يعترف إثمًا ان يعترف طالما أنه لا ذنب له . هل فهمتي ؟

— فهمت وحفظت . حكمتك لا قرار ولا حدود لها أيها الإب
المقدس ! صمت غريشكا قليلاً ثم تابع :

— أبولونتشيك ! أنت بريء و طاهر كالطفل ، إذ مازلت تجهل الكثير ، ستكبر قريباً وتفهم كل شيء . لكنني سأقول لك شيئاً واحداً لن تجسد شيطاناً أكثر آثاماً مني . سبعة أيام من الصلوات لانعني شيئاً . أتذكر حين هجرت أسرتي لأول مرة ، نظفت إحدى المغائر في أحد الجبال وسكنت فيها ثلاثة أشهر دون أن أغادرها .

لم أذق خلال تلك المدة سوى الخبز الجاف وشربة الماء . جربتُ وأضناني الجحرب ، تمرغت أمام الأيقونة دون أن أخلع ثيابي وبلا استحمام . وذات يوم وبعد أن خارت قواي تماماً ، تطلعت إلى أيقونة أم الرب « فرأيتها بوضوح تبكي دموعاً مرة ثم قالت لي : « غريغوري ، غريغوري أنت مطهر من كل آثامك . تكاد البلاد تهلك بين مغالب الشيطان . ألهض وأمض لانقاذ الشعب ومعالجته » . ومضيت منذ ذلك الحين وأنا أطوف خادماً المسيح ربنا . من يعلم كم مرة انفصلت عن هذا العالم الآثم طوال شهرين وثلاثة أشهر ! والآن حان وقت الفراق يا صديقي أبولونتشيك !

تخبط قلب كفاتشي من الخوف .

— إلى أين أيها الأب المقدس ؟ إلى أين ستتوجه ؟

— بعيداً ، بعيداً جداً ! إلى القدس ! عليّ أن أخفي رأسي أمام تلك الأماكن المقدسة وأن أقبل قبر السيد الرب وأنظهر نهائياً وأعترف بذنوبي التي لا تحصى ولا تعد .

— أيها الأب المقدس وماذا تفعل بي ؟ لمن تتركني ؟ ماذا ؟ وأنا أيضاً أستطيع أن أسافر ؟ أنا جاهز لمثل هذه الرحلة . سأفكر بذلك أيها الأب المقدس . أجل هذه الرحلة الصعبة شهرين — ثلاثة أشهر .

— لأستطيع ، أخبرني الأيقونة مساء أمس قائلة : « غريغوري ؛
بعد ثلاثة أيام أرحل من هنا إلى القدس ، فأثامك لاحصر ولا حدود
لها » . والآن هيا يا صديقي أبولونتشيك دع يلينا أو تانيا تأتي إلي ، تعالوا
غداً في العاشرة مساءً ، علينا أن نذهب إلى أحد الأمكنة ، سأريكم
مالم تروه في أحلامكم .

وفي البيت كانت تنتظر كفاتشي أخبار سيئة .

منذ عودته من « القرية القيصرية » صار كفاتشي يعتبر نفسه أسعد
إنسان في العالم ، إذ نال في ذلك اليوم كل ما يبتغيه . أصبح أميراً ومن
رجال البلاط ، وصاحب نفوذ كبير ، حصل على السلطة والثروة
التي ستصب في جيبه إن لم يكن اليوم فغداً . لقد تلقى جزءاً من هذه
الثروة وهاهو الآن يرمح مسرعاً إلى « أونكال » والبورصة . . .

. في الآونة الأخيرة كانت تتردد بضع كلمات على لسان كفاتشي :
« أونكال ، سندات . . قسائم . . أسهم » بوتيلوفا « لينسكي » . .
« سالاماندرا » . . « لاج » « بعث . . اشتريت ! خسرت . . ربحت
وماشابه ذلك ، لكن المسألة تلتخص في أن كفاتشي صار يقول « خسرت »
أكثر من « ربحت » وهذا هو سبب تدهوره . استقبله ييسو والسمسار
« هايتشتين » بأخبار خطيرة ومرة :

— دفعت مائة وعشرين ألفاً إلى مصرف « أزوف » استكمالاً
لحساب « أونكال » — قال له السمسار — انخفضت أسهم « لينسكي »
إلى النصف تقريباً « الانجلوروس » مستمرة في الهبوط « روسيرس »
في طريقها للانحيار .

بالأمس أرغمتني على بيع أسهم « سد أورال » بمبلغ أربعمائة واليوم ارتفعت إلى الخمسمائة . لقد خسرنا ثلاثمائة ألف من أجل تخفيض هذه الأسهم ، استعدنا منها مايقارب المائة ألف ، إذا لم نسدد غداً نصف مليون ستباع الأسهم المرهونة بثمن بخس .

أخيراً لاحظ كفاتشي أن شخصاً مجهولاً كان يتطلع في أوراقه أثناء اللعبة تلك . رأى كفاتشي ووعى بعد جهد أنه لم يعد قادراً على التحكم بالبورصة فحسب ، بل على العكس أصبح لعبة بأيدي الآخرين وضحية من ضحاياهم . كان الوقت متأخراً كي يعرض مرفقيه (لم يعد يجدي الندم) ولا يملك الشجاعة الكافية للتراجع ، وأضاع ملكة اليقظة والحذر ، لذا وبعد أن سقط في مستنقع البورصة انحدر فيه أكثر وأكثر ، ثم سبح أخيراً باتجاه عمق الدوامة حيث ينتظره إفلاس كامل أو ثروة طائلة .

— غداً صباحاً ، ستلقى التعليمات ، أسرع الآن إلى البورصة وقدم هذا الكتاب ليسجلوه في السجل المالي . وداعاً !

ثم هتف إلى صديقه الصيرفي « غينتس » :

— آلو ! أهذا أنت ؟ اسمعني ! متى تسلمني الأموال فيما لوأفقنا؟ غداً ؟ ماذا ؟ ومشروع العقد جاهز لديك ؟ وإذا لم أوافق ؟ . . ماذا ؟ ستخفض المبلغ ؟ حسناً إذاً أنا موافق . صداقتك غالية علي ، فأنا على استعداد لألقي بنفسني في الماء لأجلك . حسناً ، فليكن هذا . . إذاً إلى الغد !

ثم التفت إلى يسو :

— ماذا كان بإمكانني أن أفعل ؟ علي ان أنتظر خمس سنوات لبناء المعبد وستة أشهر لتقديم الثياب إلى الجيش . طبعاً كان يمكنني أن أكسب ثلاثة أضعاف المبلغ فيما لو صبرت وتابعت الأمر حتى النهاية ، لكنني أحتاج الآن للنقود وإلا ، لن أهلك ! حين سألقي غداً مليوناً في البورصة سترى كيف سأهدم وأفجر كل شيء هناك . لاستقبل أحداً يود الوصول إلى راسبوتين ، لقد جُنّ ، سيسافر في شيخوخته إلى القدس من أجل إنقاذ روحه ، فليضربه الشيطان ! لديه من القذارة والخطايا بحيث لا يستطيع القدس أو حتى ألف ملاك وقديس أن تغسل عنه تلك القذارة وهرع من جديد إلى الهاتف .

— حقاً لقد نسيت ! ألو ! يلينا أهذه أنت ؟ ينتظرك غريشكا ، يقول إن عليه أن يرتكب الخطيئة من جديد كي يتمكن من الاعتراف ، ماذا ؟ لا وقت لديك ؟ ماذا حدث ؟ جدي قليلاً من الوقت لي أيضاً ! .. ماذا قلت ، تريدني الذهاب إلى الأوبرا ؟ حسناً جهزي نفسك سأتيك حالاً . . . سأبعث بـ « تانيا » إلى غريشكا . حسناً أنا قادم . .

في اليوم التالي تنازل كفاتشي لـ « غيتس » عن بناء المعبد والتعهد بتقديم الثياب إلى الجيش ، ثم زود السمسار بتعليمات معقدة لـ « تفجير وهدم البورصة » ، بدأ السمسار بتفجير البورصة عن طريق أموال وسندات كفاتشي ، وأنهى ذلك الهجوم كسابقه . ضاق جيب كفاتشي وتغصّن جيبه ، وتضاعفت أموال غيتس وعميله السري « هاينتشين » . لكن فرحة العمل الذي قام به غطى على ظل الخسارة ولم يبد كفاتشي خسارته في ذلك اليوم للآخرين .

« مجريات العشاء السري »

وفي تلك الليلة وفي الساعة الحادية عشرة اصطحب غريشكا راسبوتين كفاتشي ويلينا وتانيا إلى أمسية « أخيار الله » السرية .

ارتدى كل من غريشكا وكفاتشي قميصاً أبيض وتانيا ويلينا فستاناً أبيض واسعاً فضفاضاً طويلاً . هذا ماتتطلبه عادات وأعراف « الهراطقة » إذ يمثل اللون الأبيض محور تعاليمهم ويعتبر رمزاً لهم في الأخوة والطهارة . . .

اجتمع « طاقم سفينة الخليست (١) » في أطراف المدينة في بيت منخفض ، التقى مايقارب الستين من الرجال والنساء في صالة كبيرة ، كان بينهم الشباب والكهول ، كلهم مرتدون اللباس الأبيض ، وفي الزاوية وقفت زمرة كفاتشي ممن سُمح لهم بأمر من القائد حضور هذا العشاء السري .

في صدر القاعة كانت تبرع « أم الاله » — الأرملة لوختينا . كانت أيضاً مسرلة باللباس مزينة بمختلف أشكال البهرجة وفوق شعرها المرسل كانت تتدلى جديلة أصيلة غريبة تحمل العبارة التالية :

« أملك كل أسباب القوة ، هليلويا » .

وكالعادة كانت « أم الاله » حافية القدمين . بدأ القداس . تلت أم الاله الصلاة ، ما ان سمعت راسبوتين حتى انطلقت نحوه مندفعة وهي تصيح :

— هوذا ابن الاله مقدسنا ، الرسول والمعلم ! سأقول لكم الحق : أنهضوا وانحنوا له ، فابن الاله جدير بالتمجيد والاحترام ! وأرتمت على قدميه ، قبلت يديه ورجليه وأطراف ثوبه الأبيض . أحاط الجميع براعي الكنيسة ، سقط بعضهم على قدميه وقبل البعض الآخر يديه وجسده .

(١) خليست : شرحت سابقاً وتعني مسيحي زائف .

احتضن غريشكا الجميع وقبلهم قبلات أخوية ، ثم مشوا مع أم
الاله إلى المنصدة . بدأت أم الاله بترتيل الترانيم وآزرها الجميع مجمدين
باسم الأب والروح القدس اللذين كانا ، حسب اعتقادهم ، متواجدين
في القاعة آنذاك . غنوا الكثير من الأناشيد والترانيم الدينية ثم شرعوا
يرددون « المسيح قام » . غنوا بايقاع منتظم وبحماس وابتهاج واتكال
ثم أرتفعت وتيرة الغناء تدريجياً وغرقوا في موجة صوفية . بعد أن
انتهوا من الغناء ، بدأ راعي الكنيسة ابن الاله موعظته .

وقف كفاتشي في احدى الزوايا وأصاخ بسمعه إلى غريشكا .
أصبح كفاتشي يتمكن بشكل مامن فهم وتحليل حديث « المقدس » ،
وأحياناً كان لايفقه شيئاً مما يقول نظراً لأن لغة راسبوتين الروسية
كانت مزركشة بكثير من التعابير البسيطة المغرقة في العامية والمفردات
السلافية القديمة .

ذكر غريشكا ابناء تلك الكنيسة أولاً بالوصايا الاثني عشرة
التي تتضمنها تعاليمهم الخاصة :

« انا ابن الاله ، تجليت للناس كي أغفر لهم خطاياهم وليس من
إله سواي »

— لا تتخلوا عنه بعد أن تيقنتم منه »

« التزموا الايمان ونقلوا تعاليم الرب »

« لا تشربوا المسكرات ، لا تقترفوا الاثم الجسدي ، لا تزنا »

« لا تزوجوا ! أيها المتزوجون أفسخوا زيجاتكم ! من لديه

زوجة فليعيش معها كأخت » ،

« لا تفحشوا بألستكم ، ولا تسرقوا فالسارق سيثبت في العالم الآخر على قطعة « خمسة كوبيكات » نحاسية ولن يغفر ذنوبه مالم تنصهر تلك القطعة » .

ثم شرح تلك الوصايا بلغة « مكسرة » وعن طريق الایماءات وأكد على الوصية المتعلقة بالحياة الزوجية والعلاقة الجنسية :

– الروح طاهرة والجسد شرير ، لذا علينا أن نعذب ونضعف ونميت هذا الجسد الشرير . وهذا يتطلب المواظبة على الصيام والابتعاد عن أكل اللحوم وعن احتساء المسكرات والاقلاع عن التدخين وعن لعب الميسر وعدم الرقص وتجنب الزنى . الحياة الزوجية إثم لكن بعد هذه الصلاة سيمنحكم الروح القدس صديقة روحية .

العلاقة بين هذين الزوجين لا تعتبر إثمًا أو زنى والعلاقات مع زوجات الآخرين لا تعتبر علاقة آثمة، فمثل ذلك الحب أشبه بهديل زوجين من الحمام .

أرواحنا خالدة أبدية ، كانت منذ القدم ، لكننا لانعرف في أي أجساد حيوانية استقرت وكم من الزمن استغرقت .

بعد وفاتنا ، وإذا كان الانسان قد قام بتنفيذ وصايا الرب بدأب ، تنحول روحه إلى ملاك ، أما إذا كان آثماً فتنتقل روحه إلى جسد حيوان تتفق طباعه مع طباع روحه أو يعود طفلاً روحه غير صافية بعد ريثما يعتمد كما يجب .

الرب واحد ، لكنه هو وابنه المسيح يتجسدان في كثير من الأحيان في شخص قديس أو أكثر من بني البشر .

كان عيسى المسيح شخصاً قابلاً للموت مثلي . مات ودفن في القدس .

ثم ذكر غريشكا سيده الرب وبعض قدسيه والمسيح ورجال الدين والشهداء :

فيليبوف الذي ارتفع إلى السماء ، ايفان سوسلوف ، بروكوفي لوبكين ، أندريه بتروف ، تاتارينوفا ، أواكوم ، كويلوف ، كاتاسونوف وكثيرين آخرين ممن كرسوا أنفسهم للكنيسة الحقة المقدسة . أخيراً تذكر نفسه :

-- ذات مرة رأيت كيف انشقت السموات وجاء القدس كحمامة قادمة من السماء . جاء ووقف فوقى وسمعت صوتاً من السماء يقول : غريغوري ، أنت ابني الحبيب الذي خلقتة رجيماً ، وفجأة اقتادني الروح القدس إلى الصجراء وبقيت هناك ستين يوماً واختبرني الشيطان وعاشت الوحوش . كانت الملائكة تقوم بخدمتي وتغذيت هناك بالجراد والعسل البري .

ثم ذكر بعدئذ اغراءات الشيطان المهلكة للروح . النساء والشياطين الذين قدموا من أجل هلاك روح غريغوري وذكر مآثره ومعجزاته :

— قابلت في القفقاس الكثير من المجنوبين والمذنبين الذين استقر الشيطان في أرواحهم فقلت لآحدهم : أفتح فمك وأطردها فسقط من روح المذنب . هتف عالياً وولى عنه .

وانتشرت في كل القرى والمدن الروسية حكاية طرد غريغوري للشيطان .

— وفي بلدة ساراتوف كانت إحدى الراهبات تشكو من الحمى فقيل لي أن أذهب إليها . مرت بيدي عليها فأبرأتها وغادرتها الحمى في الحال ، ثم نهضت وقامت بخدمتنا . وما ان غابت الشمس وحل الظلام حتى جاءني الكثير من المرضى المسكونين بالشياطين ، اجتمعت حولي كل المدن والنساء وأبرأت الجميع من عللهم وأمراضهم . ولم تستطع الشياطين أن تقول لهم كلمة واحدة ، اذ كانوا يعرفون أنني أنا المسيح . وقلت لتلاميذي لقد زرنا هذه القرية ولنمض الآن إلى القرى والمدن المجاورة كي أعظ وأطرد الشيطان من المرضى ، إذ من أجل هذا ظهرت .

وعظت كل الجماهير في كل أنحاء روسيا طارداً الشيطان .

ثم لقن غريغوري تلامذته :

— ريثما يأتي يوم القيامة ويحل ملكوت الله توبوا وآمنوا بي . سأجعلكم أوسع صدراً وسأعمدكم بالروح القدس وأشفيكم من كل التوائب الشريرة وأطرد من نفوسكم الشيطان وأسحق الأرواح الخبيثة وسأغرس في أنفسكم — أيتها الامهات والأخوة والأخوات — السلام الأبدي والبهجة السماوية والفرح الرباني والحب الأخوي والحنان الأبوي.

وتطلع المعلم المقدس بعد فترة صمت قصيرة إلى تلامذته وقال :

— هاكم ، يأمهاتي ويأخوتي وأخواتي من ينفذ مشيقي إنما ينفذ مشيئة الرب المبتهج ، كما في السماء فان الاله والروح القدس معكم يأمهاتي ويأخوتي وأخواتي . أحبوا بعضكم بعضاً ، ففي الجنة يتبادلون الهديل كالحمام وأنا أصمدكم القول : ليس في الحب الأخوي والأسري

لثم أو فحش فلتبتعد الشياطين عنا والمجنون والمرضى والأرواح
المذنبة !

— فلتبتعد ! فلتبتعد ! — ردد المؤمنون وراءه بصوت واحد .

اشتعل الأب المقدس غريغوري حماسة ، ارتفع عالياً وطال السماء .
تذكر كفاتشي كفاتشا نثيرادزه — تلميذه وصديقه المخلص —
تذكر ذلك اليوم حين وعظ غريغوري القيصر وصلى من أجله، تذكر
أيضاً توبة غريغوري الصادقة . حدّق بامعانٍ في ذلك الانسان المحلق
في السماء في قامته المتقدمة حماسة في عينيه الناريّتين ، تأمل صوته الراعد
وفهم سر قوة « المقدس » الفريدة وتأثيره اللا محدود وقدرته الكلية .

تابع المقدس غريغوري حديثه بكلمات نارية :

— فلتوثق بين أرواحنا وأجسادنا روابط الحب الالهي والنعيم
السرمدي !

— آمين ! — دوت القاعة من جديد .

— سنكون جسداً واحداً ، سنهلل ونبتهج ونغني ! سنمجّد
سيدنا الرب ! — وأنهى موعظته بغناء هليلويا ! . .

ووقف المؤمنون ، أمسكوا بأيادي بعضهم البعض وغنوا جوقة
واحدة ، ورقصوا رقصات أخوية .

وكالملائكة وجنيات البحر غنوا بصوت عذب سماوي وبقلب
حمائي ونفس مقدسة :

— هليلويا ! هلي — لو — يا !

كان ابن الاله يمسك بيد « يلينا » وبأمر الرب لوختينا باليد الأخرى ،

وكانت نانبا تقف على يسار كفاتشي وعلى يمينه امرأة شقراء منفوشة الشعر . واختار كل من رفاق كفاتشي امرأة متينة البنيان وانضموا إلى كامل الجوقة .

تحركت الجوقة في البداية متلاحمة متشابكة ببطء وبشكل متدرج وغنوا بتوافق ونبرة منسجمة ، ثم ازدادت حماسهم تدريجياً وتأججوا أكثر فأكثر . في وسط الجوقة كان ثمة عدد من الرجال والنساء يرقصون دائرين في أماكنهم على ليقاع الغناء .

ثم انتقلوا من رقص « الحلقة » إلى رقص « الجدار » وبعدئذ انقسموا إلى عدة مجموعات مسرعين في وتيرة الرقص رافعين أصواتهم ثم حلّوا « الجدار » وشكلوا ما يشبه « السفينة » ، تحركوا الواحد تلو الآخر كطيور اللقلق . ازدادوا حماساً واشتعالاً وأسرعوا في خطاهم وبعد أن تعبوا تماماً انتظموا على شكل صليب وراحوا يرقصون وقد ازدادوا حرارة وإثارة .

أخيراً صرخ غريشكا :

— لفوا ودوروا . افرحوا . . افرحوا !

فكوا أياديهم ودار كل منهم حول نفسه كالدوامة . احمرت وجوه المؤمنين والمؤمنات ، واشتعلت حرارة . ونفشت شعورهم وتشعثت ، تضبنوا عرقاً . داخت رؤوسهم وفقدوا رشدهم ، لكن مع ذلك تابعوا دورانهم كالزوبعة . تمايلت الرؤوس والأيدي والأرجل دون وعي ، وبدلاً من الغناء كانت حناجرهم تصدر حشرجة وهم يثرثرون بكلام مبهم بشكل متقطع متلفظين بكلمات غريبة .

وصل الجميع لدرجة الخدر وسقطوا في غيبوبة . انهار أحدهم في البداية كشجرة قطعت من جذورها ، ثم تبعه ثان وثالث . . . وسادس وعاشر . . . في كل دقيقة كان يسمع صوت السقوط وتغطت أرض الصالة بالفساتين والقمصان البيضاء . كان الصامدون منهم مازالوا يتحملون تلك الدوامة المجنونة ، لكنهم بدؤوا يترنحون وبدأت حناجرهم تصدز حشجة وفحيحاً بدلاً من الغناء . وكان الساقطون طرحى كالأموات في الأكفان يبررون بكلمات غريبة مبهمه . كان يسمع من هنا وهناك هذيان وتممة وصرخات وهمس وغمغمة ضعيفة واهنة .

.. معكم ابن الاله !

يارجال ونساء الله أفرحوا واغبطوا !

— أنا الروح القدس أيها الأخوة والأخوات .

أنا حمامة سماوية أم الاله — تمتعت أم الاله لوختينا — جئت فاتكلوا علي ياأخوتي الأحبة . لدي كل القوة والحب اللامحدود ومن أجل هذا ظهرت . .

هليلويا ! . . هليلويا ! . . هليلويا ! أيها الأب المقدس أنا مريضة بالحمى ، جئت إليك فامسحني بيديك واشفني من المرض الخبيث ..

— أرى المستلقين في السماء والروح القدس يطوف كالحمامة فوقنا ، أرحمنا أيها الرب ! آن وقت حلول ملكوت السموات . أنصاعوا أيها الآباء والأخوة وآمنوا بي .

— ياعيسى المسيح ! تعال إلي أنت ياأخي وثبت في نفسي الحب الأخوي والحنان السماوي والغبطة السرمدية والراحة الآخروية . تعال

يأخ تعال إليّ ! - تمتعت ثانياً مادة ذراعيها باتجاه كفاتشي . لم يقرر
كفاتشي السقوط بعد . تحرك مترنحاً نحو اليسار حيث تستلقي تلك الشقراء
التي يلاحقها منذ فترة على ظهرها .

غمز كفاتشي سيدراك الذي وقع حالاً بالقرب من ثانيا . فجأة
أطفأت العاصفة المصباح وسقط كفاتشي فوراً في مكانه المحدد .
وخيمت ظلمة دامسة ورأى الأخوة والأخوات الآباء والامهات
السموات فاتحة أبوابها والروح القدس يطوف فوقهم كحمامة السلام .
وخيم على القاعة حب أخوي وحنان سماوي ومرح أبوي وراحة
أهل الجنة .

وقبل أن تضاء السماء وتشق الشمس ملأ الاسماع هديل الحمام
وصداح حوريات البحر والملائكة ، زجاجة وفحيح الوحوش عواء
وزعيق القردة ، هدير وتأوهات الشياطين والأرواح الشريرة المطرودة
من اللحيم جائعة مريضة إلى أبد الآبدين .

في تلك الليلة دخل الأخوة والأخوات الغرف وبدل الأخوة
الأخوات ووجدت الأخوات أخوة جدداً وتذوقن حباً جديداً .

هكذا أنتهت أمسية « عباد الله » السرية .

اجتمعوا مرة أخرى واختاروا من جديد « غريشكا راسبوتين »
ابناً للاله والأرملة لوختينا أمّاً له وأثني عشر رجلاً وامرأة كرسل
قديسين كان بينهم كفاتشي ويلينا وثانيا وعدد من رجال البلاط والحاشية .

ثم مضى الجميع إلى المحطة وهم يغنون حاملين الأيقونات مودعين
ابن الاله غريغوري المتوجه إلى المدينة المقدسة « القدس » بغية الاعتراف
وغفران ذنوبه الشخصية وذنوب أخوته وأخواته وأمّهاته .

وفي الطريق أنضم إلى هؤلاء المصلين المقدسين الكثير من المتعاطفين
 والباحثين اللاحقين والتلاميذ الذين ترنموا بأغانٍ دينية وسروا لانقاذ
 روح ابن الاله في القريب العاجل وزرفوا الدموع اذ حانت ساعة القراق .
 وفي المحطة سمعت التأوهات والتنهدات وعلا الانين والصراخ
 وكثر لطم الحدود وبتف الشعر وأنهالت القبلات التي لاحصر لها .
 كانت وجنات التلاميذ وعيونهم ذابلة كجفرات ناضبة من المياه .
 وزعقت السيارات بقوة ورهبة .
 وابتلعت السيارات الشيطانية ابن الاله ، الرسول المقدس راعي
 الكنيسة البطرك والحاكم المطلق لكل روسيا — غريشكا راسبوتين .
 وانتشر تلاميذه ليبشروا بالتعاليم المقدسة مكررين العشاءات السرية ،
 ممجدين ابن الاله .

آمين !

* * *

القسم الرابع

كيف خرج عش الرفاثية

بعد أن سافر راسبوتين إلى القدس أحس كفاثي كفاثا نثيرادزه وأصدقائه بأنهم تبتّموا فعلاً .

بدأ كفاثي وكأنه فقد سنداً وأساساً متينين ، أو كأن يده اليمنى قد بترت أو نبعاً منعشاً له قد نضب . غدا كسمكة أخرجت من الماء ، أو كنسر جناحاه من قش ، أو كطفل هجرته أمه وتركته للقلدر . أحس باليتم وسأل نفسه :

— آه ، ماذا حلّ بي ؟ لدي الكثير من المال . معارفي والناس الذين أعتمد عليهم كثر أيضاً ، غريشكا لم يكن يعيلني ! إذا أفاق أعدائي وحاولوا مزاحمتي فالقيصر والقيصرة موجودان بالإضافة للآلاف من رجال البلاط والحاشية الذين سعوا بالأمس لخلق البسمة على شفتي ولكسب رضائي .

هدأ كفاثي نفسه بمثل هذه الأفكار ، لكن الخوف غير المرئي والضيق الداخلي لم يختفيا .

لم يجد في البيت بعد عودته من المحطة أحداً سوى العميل « هاينشتين » :

— كيف الأحوال ؟

— سيئة ، سيئة جداً . مازالت المضارف تطلب إيداع الأموال وتغذية الحساب الجاري لديها وتهدد ببيع أسهمنا وإذا ما أغرقوا البورصة بهكذا بكمية من الأسهم ستندهور قيمتها مما سيضطرنا غداً لتغذية الحساب الجاري من جديد .

— بيعوا أسهم « أنجلوروس » وأودعوا قيمتها في المصرف .
ليس ثمة من حل آخر .

— ستكون النتيجة واحدة ، سترتفع قيمة الأسهم .

— إذاً ، ما العمل ؟ أين سأجد مثل هذه الكمية من النقود ؟

— ضم مالدريك إلى أسهم غانوس أو غينتس .

أمضى كفاتشي وهانشتين اليوم يكامله في الجري بين المضارف والبورصة والناس حاملي الأموال ، لكنهما كانا يرتطمان في كل مكان بجدارٍ خفي لا يمكن تخطيه . أخيراً تبع كفاتشي ، الذي تعب من التخطيط في المصائد ، عميله هانشتين الذي قاده في الطريق الذي حدده غينتس . رهن بعض الأسهم وباع بعضها وفكّ رهان البعض الآخر وأشترى بعضها . لكنه مع ذلك لم يتمكن من تحقيق شيء . استمر في الغرق ولم يستطع الخروج من ذلك المستنقع إلى ضفة الأمان .

في اليوم التالي أرتفعت قيمة الأسهم المباعة وانخفضت الأسهم المشتراة . تتالت الأيام وتالت الخسائر وازداد كفاتشي تحبطاً في الشباك الخفية التي كانت ستقوده في نهاية الأمر إلى إفلاسٍ نخلي . صار في الآونة الأخيرة يسمع أكثر فأكثر العبارات التالية

.. سدد الفروق .. أودع .. أدفع ..

وتخبط كفاتشي عبثاً وبلا هدف في شباك الافلاس وسرر كالبيغاء :

— يبعوا .. أودعوا .. أشتروا .. فكوا الرهان .. ادفموا ..

اسحبوا !

أخيراً فتح عينيه . رأى وأدرك كل شيء ، فهم وزأر :

... أنقلوني ، أنا أهلك ، النجدة !

لكن فات الأوان . بدلاً من المساعدة كانوا يلتفون حوله ويضغطون

عليه .

اتجه كفاتشي في البداية نحو يلينا ثم تانيا ، لكن بعدما حصل في

« أركاديا » من الفضيحة العلنية وبعد سفر المقدس غريغوري إلى القدس

غادرتا خارج البلاد وتركتا لكفاتشي رسالة قصيرة :

« صديقنا العزيز ! بعدما حصل في أركاديا أصبح بقاؤنا هنا

محالاً . سنسافر مؤقتاً إلى أوروبا ونحن ننصحك بالهجرة من هنا .

لم نختر بعد مدناً لنستقر فيها . إلى اللقاء ! كان الله في عونك . . مع

أنسا نحن الاثنين لدينا ما نقوله لك ، ألا اننا نؤجل ذلك لوقت آخر .

صديقتاك تانيا و يلينا » .

ثم صب عليه غيتس وغانوس ماء بارداً . اهتر كفاتشي عدة مرات

في الشباك خبط يديه ورجليه ، ثم ترك البورصة بهدوء وبشكل نهائي .

تقاسم غيتس وعملاؤهما فيما بينهم كفاتشي الصيرفي ومالك

الأسهم ورجل البورصة .

جلس الأبن الوحيد لسليبيسترو وحيداً متجهماً . راح يضرب رأسه ويفكر :

« تقاسموا ملابسي واقتربوا على قميصي » .

جاء أصدقاء كفاتشي في نفس اليوم :

-- سيدراك ساعدني !

— نعم ؟ أفلست ؟ هل تنفعك مائة روبل ؟

— انصرف من هنا !

— فلذت بالملايين في الماء، وكيف يتمكن سيدراك من مساعدتك حالياً ؟ — أجابه تشخوبيشفيلي معنفاً .

تدخل أيضاً تشيكنينجيلادزه :

— هذا ما يحدث حين لا يثق الصديق بأصدقائه ! قل لنا ماذا عسانا أن نفعل الآن .

— لقد تعقدت الأمور — قال ييسو بهدوء وفتح الصحف أمام عيني كفاتشي :

هيا اقرأ !

جلسوا وقرؤا .

أبرقت صحيفة « القضية الروسية » وأرعدت حول مسألة بناء المعبد الارثوذكسي مشيرة إلى أن العمل أوكل إلى أحد القفقاسيين البدائيين « ك » الذي سلمه بدوره إلى أحد اليهود .

وأكدت صحيفة أخرى بأن « ك » كفاتشا نثيرادزه « دخل القصر

بهوية مزوره ، وأن لقب النبالة الذي كان يحمله مشكوك فيه ، أما الامارة فقد طلبها من القيصر هو و « أحد المقدسين الشيوخ » « بحيلة ماكرة » .

وأعلنت صحيفة ثالثة نبأ إفلاس كفاتشي وأعطت نبذة عن سيرة حياته . ثم أضافت مهددة :

— سننشر خلال أيام سيرة حياته كاملة ، اسم ذلك الشاب واسم عائلته والمغامرات التي قام بها .

اغتاظ كفاتشي ، شحب وجهه وخاب أمله . مزق تلك الصحف إرباً إرباً ، ثم سقط على الأريكة وراح يتأوه ويئن :

-- طبعاً .. كل شيء .. احترق كل شيء واندثر !

صمت الجميع طويلاً . انطرح كفاتشي خائر القوى مغمضاً عينيه ، فاركاً جبينه الشاحب ، ثم قفز فجأة وانتصب وقدحت عيناه شرراً ، وغدا صوته حديدياً فولاذياً :

— آه ، هذا ليس صحيحاً ! لن يهلك كفاتشي كفاتشا نثيرادزه هكلنا بسهولة ياسيدراك !

— ماذا ؟

— اذهب حالاً وهبي عشرة عشرات جوزات السفر الأجنبية ، وليكن أحد هذه الجوزات بأسم الأمير « باغراتيوني — مهرا نسكي ، وآخر بأسم الأمير الأفغاني — ولي العهد وبقية الجوزات المرافقين له . اختر بنفسك أسماءهم واسماء عائلاتهم . وليكن كل شيء جاهزاً صباح الغد فهمت ؟

— ماذا ؟ فهمت طبعاً !

— هيا ، تصرف ! وأنتم تشيبي ، لادي ، جليل ، غابو ، اذهبوا حالاً إلى هيئات تحرير تلك الصحف وأرغموا كلا منهم على الصمت ، بالوعيد أو بالمال . قولوا لهم هاجر الرجل وغادر إلى فلسطين بصحبة راسبوتين . قل لهم أن يدعوني وشأني ، أن يصمتوا وإذا لم تلتزموا الصمت وتكفوا عن « خمشه » سيعود ولن يلقي أحد منكم مايسره .

خذوا معكم ثلاثة رجال أشداء ، وعند اللزوم كسروا كل شيء وأضربوا حتى تكلوا . حسناً ، هيا أنصرفوا ! فهمتم كل شيء ؟

-- وآه ، وهل ثمة أسهل من هذا ؟ اطلب هذا مني فقط ، فالعراك هو عمل تشخوبيشفيلي (١) .

— بيسو ، هيا تحرك ! جدد أحد الأثرياء وبع كل شيء . ماذا قلت ؟ كل هذا تعود ملكيته لثانيا ؟ أعلم ، لكن هل ثمة وقت للحديث عن ثانيا فأنا أكاد أحترق ! أجل بيع الاثاث والأحصنة والسيارة ، بيع كل شيء وتهباً لسفر طويل . . لا تخبر أحداً عن هذه الرحلة . هيا تحركوا ، وأنا ذاهب أيضاً لشأن بسيط . . جليل أسرع وألبسني ثيابي ! ناد « بيرلي » .

— هيا تحركوا بسرعة !

قصده كفاتشي أحد الوزراء :

-- لا وقت لسعادته .

(١) المراك باللفظة الجورجية يعني « تشيخوي » ثمة تلاعب لفظي بين تشخوبي وتشخوبيشفيلي .

أسرع كفاتشي إلى وزير آخر :

— سيادته ليس في البيت .

قصد كفاتشي رئيس الأساقفة :

— غبطته مريض .

مضى أيضاً إلى خمسة من رجال حاشية البلاط ، لكن أبوابهم ظلت مغلقة في وجهه ، أدروا له ظهورهم ونسوا إحسانه .

— حسناً ! — صرخ كفاتشي غضباً — طالما أنكم قطعتم كل الطرق علي وأغلقتم في وجهي كل الأبواب ، سأدفع الباب الأخير وإذا صدم أنف أحد منكم فلا يلومني .

وذهب في نفس اليوم إلى زوجة غانوس وقال لها :

— اسمعيني يا جميلي ! لقد قرر أعدائي دفني وللأسف زوجك شريك في هذا العمل القذر . أنا رجل طيب وشريف ، ولن أنزل إلى قبري باختيار . الطرق كلها مقطوعة أمامي ، وغدوت أنت أمني الوحيد . عليك أن تساعدني وإلا . . وإلا سأذهب إلى زوجك وأقدم له رسائل — هذه الرسائل . . لاتقلقي ، أهديني واسمعيني :

لقد كسب زوجك بمساعدتي سعة خمس عربات من الذهب والآن جاء دوري . أنا بحاجة للمساعدة . ماذا قلت ؟ كيف ستساعديني ؟ يجب أن تقرضيني أموالاً . . . ماذا قلت ؟ أي مبلغ تستطيعين تأمينه ؟ أبحتي هنا وهناك وستجدين . لديك أملاك خاصة وزوجك أيضاً يحتفظ بكمية من الأموال للتداول ، وان شئت تستطيعين ترميم المبلغ الناقص من جيب زوجك . . لاتريدين استكمال المبلغ من أموال زوجك ؟

هذا شأنك . أعطني حقي واتفقي مع زوجك العجوز كيفما تشائين .
حسناً هل أعود إليك غداً ؟ جيد جداً ، إذاً إلى الغد !

وفي نفس الوقت ذهب رفاق كفاتشي بقيادة غابو تشخويشغيلي
إلى هيئات تحرير الصحف فدفعوا لاحداها ألف روبل لقاء إعلان
عن اقامة « بازار » في « تساريفو كوكشا يسكي » ، وفيما يخص ماورد
في عدد الأمس أرغموا على نشر إيضاح وتصحيح مفاده أن المعني
بـ (ك . ك . - دزه « هو » كوستانتين كوموتشادزه « طبعاً والشخصية
مزعومة .

ثم أترضوا هيئة تحرير الصحيفة الثانية . أما رئيس هيئة تحرير الصحيفة
الثالثة فقد أظهر عناده وممانعته .

— إذا سمّ شهودك في المباراة !

— ماذا ؟ مباراة ؟ هم ! هذا عمل المتوحشين !

— في هذه الحال تصبح المسؤولية على عاتقكم فيما لو سالت الدماء .

وأشهر الرفاق مسدساتهم . لان رئيس التحرير والموظفون لديه
في الحال :

— ما القضية ؟ ماذا حصل حتى اندلعم كالبارود ؟

— عجيب أمركم ، فوراً أشهرتم السلاح !

— من أجل ملاحظة بسيطة ؟ ها ! المطلوب ؟ طباعة ملاحظة

بسيطة أخرى ؟

ها ! ستستهلك أكثر من عشرين سطرأ .

— حسناً ، سنكتبها وننتهي .

كتبوها وانتهوا تبادلوا الابتسامات ، أرضوهم ، ربتوا على أكتاف بعضهم البعض ثم افترقوا .

بعد ثلاثة أيام سوى كفاتشي كل الأمور وركب قطار وارسو .

« كيف استقبلوا الأمير ، وكيف أصيب كفاتشي بالبكم »

كان القائد متدثراً برداء آسيوي باهظ الثمن ، وقد لف رأسه بعمامة ثمينة . وكانت حاشيته تحتل المقصورة المجاورة ، وهؤلاء أيضاً كانوا يرتدون زياً غريباً .

كان كفاتشي يضع في جيبه جواز سفر باسم الأمير الافغاني رايبول عبد الرحمن شيخ علي ، وفي محفظته خمسة جوازات سفر أخرى باسم أحد الأمراء وباسم أحد البارونات وباسم أمراء من مختلف الجنسيات . « من يدري أي جواز قد يحتاج إليه » . أيضاً كان أصدقاء كفاتشي يملكون مثل هذه الجوازات الجاهزة ، وقد أشير في أسفل كل منها إلى الدرجة والصفة — ياور ، سكرتير ، خدم ، كما هي العادة في تصنيف المقربين من الرجل العظيم .

بعد أن تعرف الجاهلي على شخصية كفاتشي وعلم بأنه أمير نقل الخبر إلى الجنسدرما (الشرطة) التي أبرقت إلى وارسو مخبرة الجنرال المحافظ عن رحلة الأمير .

حين وصلوا إلى محطة وارسو ، دخل العربة ضابط بهي الطلعة وسأل تشيبي تشييونتير ادزّه باحترام :

-- أأنتم سكرتير سمو الأمير الأفغاني ؟ أخبروا فخامة الامير ان
الياور - جنرال محافظ وارسو يرغب برؤيته .

طار تشيبي المدعور إلى المقصورة :

— هلكنا ! . . . أمسكوا بنا ! . . . عرفونا !

لم يخف كفاتشي ، بل قطب جبينه ، فكر ثم قال بهلوء :

— لا تجنوا ! أنتم تلرون أنني لأعرف اللغة الروسية . سيدراك
أنت سكرتيري ومترجمي . وأنت يايسو طيبي . كونوا شجعاناً .
يحدث هنا شيء ما . كونوا حذرين لاتظهروا بغتة معرفتكم للغة
الجورجية ، تحدثوا بشيفرتنا الخاصة . حسناً دعه يتفضل — واستلقى
على الأريكة مدخناً نرجيلة كهرمائية .

حيّاه « الياور » براءة قائلاً :

— لي الشرف أن أخبركم ان فخامته ، الجنرال محافظ وارسو
يرحب بكم ويرجو أن تشرفوه بقلوبكم إلى الغداء .

تنفس الجميع الصعداء. نقل سيدراك رجاء « الياور » وترحيبه
بالشيفرة :

— ويتسا بوتسينيلتسا ، تيسيبيسي برتشيغليسيشا تسويتسي .

وضجت العربية بالحديث بشيفرة بسيطة « تسي » و « تسا — تسا » .
ابتسم كفاتشي ابتسامة خفيفة ، ثم قال :

— لقد قلت لكم أن شيئاً ما يحصل هنا ! اشكروه وقل له أن الطبيب
قد منعني من الخروج من العربة نظراً لمرضي .

ترجم سيلراك وأكد بيسو . أبدى « الناور » أسفه لمرض ولي عهد الأمير وأخبرهم ان موظفين كباراً ينتظرون سموه على رصيف المحطة .

-- دعهم ينفضلون !

دخلوا كذكور الازو الواحد تلو الآخر : المحافظ وقائد الشرطة ورئيس البلدة وكثيرون آخرون ممن يسعون وراء المكافآت . وقفوا أمام كفاتشي بعد أن انحنوا وابتسموا له مهئينين بالسلامة من الرحلة الميمونة . سأل كل منهم الآخر عن الصحة والأحوال . تبادلوا النظرات والابتسامات والسؤال عن الاخبار ، وهم ينحنون أمامه .

شمل كفاتشي الجميع بعطفه ، وزَّع عليهم ابتساماته الحارة ومساعدته ورعايته الواضحة دون كلام ، وأمر سكرتيه أن يكتب أسماءهم وأوسمة هؤلاء الموظفين ، وكانت هذه لفظة واضحة أنه حين سيعود الأمير إلى بلده من سفرته إلى الخارج ، لابد سيغرق على الأسماء الواردة في اللائحة بالأوسمة الأفغانية ، ثم انحنوا مبتهمين وخرجوا كذكور الازو من العربة واستغرق الأمير الافغاني وحاشيته في الضحك .

— مالسر ؟ كيف عرفوا برحلي هذه ؟ — تساءل كفاتشي .

— ماذا ؟ لقد قال الجابي لـ « تشيبي » : شرفتمونا . لعله قال

لصديقه ، وصديقه قال لآخر ثم أبرقوا إلى الخط بكامله .

— ها ، هذا خطر جداً ، ربما وضعوا أرجلهم بين أرجلنا وأنزلنا ،

يجب ألا نترك أثراً وإلا . . .

انتقلوا إلى قطار كراكوف قاصدين النمسا .

حين اقربوا من « كراكوف » جمعت الشرطة جوازات السفر للتدقيق فيها واعطاء تأشيرة الخروج .

في المحطة الحدودية وقبل مغادرة القطار ، دخل شرطيان إلى العربّة ، لاحظ كفاتشي وهو يقف بباب المقصورة ان الشرطين يسألان المسافرين عن اسمائهم ثم يخرجان من الرزمة الجواز ويسلمانه إلى صاحبه . أخيراً دخلا مقصورة كفاتشي :

— ما اسمك واسم عائلتك ؟

صعق كفاتشي وتصبب عرقاً بارداً . ارتبك شحب حمراً ودبت الرعدة في جسمه . لقد تذكر كيف أخرج بيسو أول جواز وقع تحت يده من جوازات كفاتشي الستة وقدمه للشرطي دون أن ينظر فيه .

— اسم عائلي ؟ — لمعت الفكرة في رأسه — أتى لي أن أعرف أي جواز سفر قدّم ؟ أأجيب باللغة التتية ؟ أم لعله قدم جواز السفر باسم البارون « تيرنغاوزن » ؟ أأجيبه بالبورجية ؟ ولعل في يد الشرطي جواز سفر الأمير « ترويتسكي » !

— اسمك واسم عائلتك ؟ سأله الشرطي للمرة الثانية .

تعرق كفاتشي ورف بعينه بلا معنى ونظر إلى الباب منتظراً قدوم بيسو . نظر إليه الشرطي بريّة :

— أقول لك ما اسمك وما اسم عائلتك ؟ ما الأمر ؟ ماذا بك ؟

هل خرست ؟

« ماذا قال : خرست ؟ طبعاً ، خرست فعلاً لقد خمن هذا الشرطي وأحسن التقدير : كفاتشي أبكم ، أبكم منذ الولادة ! » .

وهذا روعه ، ابتسم وهمهم :

— و... و... و... ما... م... م... مي — هزّ كفاتشي مبتسماً
مدعياً. البكم ، أشار إلى فمه بيده وتقدم نحو جوازات السفر . ابتسم
الشرطيان أيضاً .

— يندو أنه أحرص فعلاً — قال أحدهما وقدم لإليه رزمة الجوازات —
هيا أبحث عنه بنفسك .

فتش كفاتشي في رزمة الجوازات .

« أخيراً والحمد لله ! » قال كفاتشي لنفسه وقدم للشرطين جواز
سفره كأنه يقول : هوذا جواز سفري .

— الأمير هرقل غيورغيفتش باغراتيوني — مهرانسكي ! قرأ
الشرطي بصوت عال ماجاء في الجواز وابتسم ، ثم ذاب لطفاً وليونة .
أثناء ذلك دخل سيدراك وييسو المقصورة .

— سيوقع بي هذان الملعونان ! فكر كفاتشي بذلك ثم اندفع
نحوهما . دس إليهما جواز سفره وراح يخبط برجليه ويلوح يديه
كالأحرص مهمهما :

— و... و... م ، م... م... ما ، و... و... موووو... .

جحظ الاثنان أعينهما وفغرا فميهما .

— واه لقد أصيب بالحرص ! قال سيدراك مستغرباً .

هز كفاتشي السرور رأسه بقوة حتى كاد أن يقطع شرايين رقبته
وكأنه يقول : نعم ، نعم ، هاقد خرسست !

غمز سيدراك بيسو :

— أجل لقد خرس !

— مسكين هذا الأمير — قال أحد الشرطين معقّباً — شاب فني جميل وأخرس ؟ وماهو أصل هذا — أضاف الشرطي الثاني — باغرا .. تيون مه .. رانسكي ، هرقل غيور .. غي .. فيتش !
— أجل ، أجل — قال شيكيا مؤكداً — هو أبكم منذ الولادة ولهذا نصطحبه إلى طبيب مشهور في فيينا .

أعطى الشرطيان جوازات السفر إلى سيدراك وبيسو ثم خرجا ، أغلق كفاتشي ورفاقه الباب فوراً .

— ما الخبر ؟ ماذا حصل ؟

فليذهب بيسو إلى الشيطان ، هذا ما حصل !
وقص عليهما الحكاية .

— ها — ها ، أوه ! قهقه سيدراك وبيسو .

— لماذا تضحكان أيها النعيسان ؟ — قال كفاتشي مغتاضاً — كدتُ أهلك أنا السيء الطالع !

ثم صار يتذكر قصة بكمه فيضحك ويمرح .

وبعد أن اجتازوا الحدود ، قفزوا كالعجول ووصلوا كالخيول .

« كيف ادعى كفاتشي الخبل في فيينا وكيف وصلوا إلى عاصمة العالم »

بعد ساعة دخل صاحب الفندق والمدير الإداري ورئيس الخدم ليقابلوا ويزوروا الأمير العظيم « باغراتيوني » وليعربوا له عن احترامهم .

ثم جاء أيضاً اليهودي الروسي الشهير والمتواجد حتماً في كل مكان :
 — أحبي الأمير . . أنا دليل سياحي ، أعيش في فيينا منذ
 عشرين عاماً . . سأريكم كل شيء . . سيكلفكم هذا عشرة كرونات
 في اليوم .

خرجوا وتفرجوا على المدينة .

طافوا خمسة أيام . اقتادهم الدليل باتجاه الآثار والتماثيل التاريخية
 والفنية .

أراد أن يدهم ويريهم المتحف والجامعة ومعبد سان ستيفان ومسرح
 غوبورغ والبورصة وأكاديمية الفنون ومبنى البلدية والقصر وآلاف
 الأماكن الجديرة بالمشاهدة . لكن كفاتشي تعب وكاد أن يهلك من
 مشاهدة متحف واحد مما دفعه للاحتجاج بوجع الرأس واجل كل شيء
 ماعدا « رانغشتراس » و « براتير » حيث كان يمضي نهاره وليله ،
 الشوارع الضيقة والمعارض والحدائق والساحات والغابة الانجليزية
 وأحواض تربية الأسماك ، وحديقة الحيوان والمطاعم المتنوعة والمقاهي
 وأقبية الخمر والعروض الشعبية الهزلية ومسرح الدمى (العرائس)
 والأراجيح ومختلف أماكن اللهو التي لا حصر لها ، كلها كانت دائماً
 مملأة بالناس والنساء ، نساء فيينا المجيدات وكأنهن كلهن مختارات :
 طويلات ، ممتلئات الجسم باعتدال ، بهيات ، جميلات القد ، بيض
 محمرات البشرة قليلاً من لفح أشعة الشمس ، أصيلات ، ذهبيات
 الشعر ، فيروزيات العيون .

هذه السنوات الحية عرقلت طريق كفاتشي وأرقته ، أفقدته
 شهيته للطعام ، غيرت خططه وأثارت روحه وقلبه حتى أنه نسي عدة

مقابل كانت مرسومة بحذاقة وأجلتها على أمل أنه سيصل قريباً إلى باريس حيث سينفذها هناك .

خلال تلك الأيام القليلة ثمل كفاتشي وخارت قواه ، ذاب جراء الحب العنيف ، القوي ذي الشعلة البيضاء .

وبالمقابل أظهر كفاتشي لتلك النساء البيضاوات ومنجهن فرصة تنوق حرارة دم البحر الأسود وتوقد الشاب الشرقي وخشونة شواربه والشوق في عيون الباشق وغماسة العروق الجورجية التي زادتها الشمس والزمن صلابة وقوة .

ويمكن سيدراك ويسو بصعوبة بالغة من انتزاع كفاتشيكو من شباك الحزريات البيض وسرقوه إلى باريس .

طار قطار الشرق السريع كالزوبعة بمحاذاة مياه الدانوب « سالسغا » .

— كفاتشي وصلنا إلى سالسبورغ « لقد اثنوا عليها في كتاب « بيديكير » كمدنية تاريخية قديمة فلنغادر القطار ولنفرج عليها .

— آه ، أشعر بالكسل وليس لدي دافع لرؤية القديم ، إذ يذكر بالأموات .

— كفاتشي لقد وصلنا إلى « ميونيخ » وهي عاصمة مقاطعة « بافاريا » مدينة نظيفة وجميلة بمثابة متحف عالمي للبناء والفن. فيها الكثير مما يستحق المشاهدة : النقش على المعادن والأروقة الأغريقية المحاطة بالأعمدة ومسرح « فاغنر » و « أوديون » .

— والبيرة « الميونخية » رائعة ، البيرة السوداء ، هيا يايسو أحضر عشرين زجاجة بسرعة وسندع كل واحدنا قديم للشياطين !

— كفاتشي اوصلنا إلى « ستراسبورغ » أنظر إلى ذاك المعبد إن له شهرة عالمية .

— أخ ، هذا لا يستحق أن أنهض من مكاني ! — ويستمر في تقليب صفحات « ألبومات » الصور العارية التي اشتراها من فيينا وميونخ .
في العاشرة مساء قال بيسو لكفاتشي :

— بعد نصف ساعة تماماً سنصل إلى باريس . انظر لقد لاحت من بعيد .

قفز كفاتشي كالملسوع واندفع نحو النافذة .

في البعيد وعبر الظلام والمسافات النائية كانت تبدو قبة السماء موشاة باللون الأحمر وكأن الأرض قد اشتعلت وبان انعكاس ذلك الحريق في السماء .

والطائر الحديدي المشتعل حماساً لا يهدأ؛ بل يطير نحو هذا الحريق ضاحجاً ، صافراً . أخيراً اقتحم المدينة ، جرى فيها طويلاً إلى أن حط في المحطة لاهثاً ، آثماً .

وفي الحال ظهر اليهودي الأوديسي المتواجد في كل مكان .

— منذ عشرين عاماً وأنا أحيا هنا في باريس ، درست وخبرت كل شيء . كما أعرف أصابعي الخمسة ، أتقن تسع لغات ، عشرون فرنكاً في اليوم بالإضافة للطعام .

نظر كفاتشي إلى ذلك اليهودي .

— اسحق ابراميتش ! . . . اسحق ايدلسون !

حلق اليهودي في وجه كفاتشي عند ذكر هذا الاسم ثم تهلل وجهه وهتف :

— نابليون أبولونوفيتش أهذا أنتم ؟ ياإلهي العظيم !

— ماذا تفعلون هنا ياإسحق إبراهيميتش ؟

— ايه ، سأقص عليكم فيما بعد . لقد أفقرت ، أفقرت يا نابليون أبولونوفيتش . سأقص عليكم فيما بعد .

— و « ريفيكا » ؟ كيف حال ريفيكا ؟

— لا بأس ، لا بأس لكن . . سأقص عليكم فيما بعد ، سأقص كل كل شيء ، أما الآن فتعال ورائي .

جلس الأربعة في السيارة ومضوا إلى أفضل فندق عبر شارع ستراسبورغ . سارت السيارة ببطء في الشوارع المشجرة بأمر من كفاتشي . — لقد اجتزنا حديقة عامة كبيرة — شرح إسحق أيدلسون معبراً بمدينة العالم « باريس » . هذه جادة سان — ديني . . وهاك « بون نوا » . . بواسونير وهذا مونمارتر الشهير . . لقد دخلنا الآن شارع الطليان . . وهذا هو معبد « مادلين » الشهير . .

استمع كفاتشي إلى الهديان المتدفق على لسان إسحق المليء بالكلمات المعروفة وغير المعروفة . لم يدرك شيئاً من حديث الدليل إذ غطى تأثيره في لحظة واحدة على تفكيره ككل .

وفي لحظة غاص كفاتشي ورفاقه في قلب عابضة الدنيا . احتاروا وارتبكوا وتبلدوا . على جانبي تلك الجادات الواسعة كان يرتفع جداران من الأبنية ذات الأدوار السبعة أو الثمانية المضاءة .

وعبر هذا المجرى كان ينساب هُـران من البشر جيئةً وذهاباً ،
وكان من الصعب العبور من رصيف إلى آخر ، إذ كان الشارع يغص
بالمركبات المكشوفة والمغطاة ، وبالباصات ذات الطبقتين وبالترامات
والسيارات ومختلف أنواع عربات الخيل . وفي تقاطع الطرق كان يقف
رجال الشرطة ، يوجهون السير بعصيهم القصيرة ويسدّون كمغلاق
الترع أمام تيار بشري ليسمحوا لتيار آخر بالعبور، وبعد دقائق يغلقون
التيار الثاني ويعررون التيار الأول .

كانت المقاهي المشبعة بمختلف الأضواء تعجّ في داخلها وعلى
الأرصعة بالناس المتأنقين وآلاف الدعايات الضوئية الحافظة تبهر العيون .
من آلاف المحلات كانت تتلألأ وتومض الكتابات الكهربائية الحمراء
والصفراء والزرقاء والخضراء .

أسرت كفاتشي ودغدغت أعصابه وسلبت لبه ضجة المدينة
الخفية وهديرها وصخبها، تنهدا وأنيها .

— آه ، يابيسو أتذكرت الآن بلدتك « سامريديا » أو « كوتايسي » ؟ !
قال كفاتشي مبتسماً .

— أنها أفضل من سامريديا، لكن لا يمكن مقارنتها بكوتايسي —
قال ييسو شكياً مازحاً .

— أنعطفوا نحو « مادلين » وأطلوا على ساحة « الكونكورد » الواسعة
ثم تخطوا هذا المشهد القريد ، ذابوا بين صفوف أشجار « الاليزيه »
الخمسة المنتظمة الكثيفة . اجتازوا « ساحة النجوم » ووصلوا فندق
« حدائق الاليزيه » حيث تتألق سبع غرف رائعة تليق بأعظم أمير
من أمراء روسيا العظيمة وبالأمر الأفغاني والبارون وحاشيته .

« الطواف على بابل الحديثة وبعض المناظر العقلية »

وقف كفاتشي واصدقاؤه و « كورانا شفيلي » الذي التقوه بالأمس في الحي اللاتيني على قمة برج « إيفيل » .

تحت أقدامهم تمتد باريس — كبرياء العالم ، العاصمة الفاتنة ، أولى الأوائل ، مركز العالم ، أجمل الجميلات كما يراها الجميع في شتى أصقاع العالم .

فيما وراء باريس وفي كافة الاتجاهات على مدى النظر ينتشر عدد لا يحصى من المدن الصغيرة والكبيرة ، والقرى والمزارع التي تمتد جاهدة نحو قلب البلاد وتحيط بباريس وكأنها تتحلق حول هذه الحورية الفاتنة تحرسها وتقوم على خدمتها .

لاحت ، من فوق جبال « المارن » وعبر الضباب الصباحي ، كرة حمراء هائلة صبغت الهضاب الخضراء المحيطة بباريس باللون الوردي .

كان الضباب الصباحي يلف ويغطي كالجلباب ، ثانياً ذلك المدى اللامحدود وسفوح الهضاب والمدينة ووادي (السين) .

وتخلع باريس شيئاً فشيئاً ، الجلباب الضبابي ، تستيقظ تدريجياً ، تتمطى ، ثم تبسم ابتسامة الصباح .

وينداح هذا الضباب وتلك الأبخرة الليلية وأنفاس الشمس والمدينة — ينداح عن الهضاب ويتجه نحو الغرب ويتوضع في ضواحي سان جرمان — أرجائنا وفي مجرى نهر السين .

وأمام أعين « الباحثين عن السعادة » امتدت وفتحت كالزهرة

تلك الحورية ، أجمل الجميلات مستحمة مسرحة الشعر نظيفة غنوجاً
مبتسمة صاحكة زاهية الألوان مشرقة رحبة لا يحدها بصر ، عش الغرام
والمعبد ، جدار الرغبات ومحط أحلام كل الخليفة علماء وفنانين .

وقف الجورجيون على ارتفاع ثلاثمئة متر ، وقفوا مرتعدين حيال
هذا الارتفاع والجمال .

في البعيد ، البعيد يتلوى باتجاه الجنوب والشرق نهرا « المارن »
و « السين » الرقراقان . يلتقي كلاهما على أبواب باريس في « الشارانتون »
يتحدان ويتعانقان ، ثم يشق ذلك النهر باريس إلى نصفين ويتجه بعدئذ
نحو الجنوب ، ثم يتحول بالقرب من « سان كلو » و « بولون » نحو
الشمال ثم يعود مرة أخرى ويتجه بالقرب من سان ديي إلى الجنوب .
وعند سان جرمان يكمل الدائرة من جديد ويسير باتجاه الشمال ثم
ينعطف وينصرف نحو الغرب في غابة سان جرمان الضخمة المغلفة
بالضباب .

وعبر هذا النهر تسبح صعوداً وهبوطاً قوافل كثيرة من السفن
والقوارب التي تبدو من ذلك الارتفاع ديداناً ترحف على مرآة طويلة
ملتوية .

وقد قطع هذا النهر - المرأة بما يقارب الأربعين جسراً حديدياً
وحجرياً التي كانت تبدو كالأحزمة على البطون . كما يتخلله كمزق
وشقوق ما يقارب الأربعين من الجزر الخضراء .

و حول « مركز العالم » هذا كان يقف في ثلاثة أرتال نحو أربعين
من غنافر الحرس نصفهم تحت الأرض مدرعين بالحديد وبحوالي ألف

مدفع . وكان الجنود ينظرون بصرامة وعبوس ناحية الألمان باتجاه « شارانتون » و « فينسن » و « مون فاليريان » و « سان - دينيس » .

وكانت تتحرق هذه الحسنة كأسهم طويلة في صميم قلبها ومن جميع الجهات حوالي العشرة من الخطوط الحديدية ، وفي الوسط أيضاً كانت مزينة كالأحزمة بالطرق الحديدية والجلادات المشجرة وبالحنادق الواسعة العميقة وبالحدران الثخينة العالية المشادة بالأحجار المنحوتة .

عشرات القطر تنفث بخاراً ودخاناً وتتلوى كأفاج سوداء زاحفة في شتى الاتجاهات . عدد من المدن والقرى وما لا يحصى من النباتات والطرق والأقنية كأنها كلها ، خططت ورسمت وخيطت إلى السجادة الخضراء التي لا يحدها بصر .

كان ما يزال جلاب باريس — الغابات والحدائق والاحراج — ينفث بخاراً صباحياً . شرقاً تمتد غابة فرسين الواسعة المرقشة بالبحيرات ، وجنوباً تمتد أيضاً غابات « ميدون » و « سنكلو » و « سيفر » و « فرساي » الواسعة .

وضمن باريس سكبت كمادة خضراء لزجة حدائق وأحراج ومماش مشجرة : تويرلى ، لوكمبسورغ حديقة النبات « مونسو » ، تزوكاديرو ، مونصوري ، الاليزيه وغيرها وغيرها . . .

وكانت قبة « قصر العجزة » الذهبية تتوهج لامعة تحت أشعة الشمس الصباحية ومن بين بحر الأبنية كانت تتعالى وتشمخ بمهابة بانتيون ، كنيسة « القلب الأقدس » الحديد ، كنيسة « العلراء » ،

سان — جرمان ، دير ، سان — تروكاڊيرو ، الأبراج ، القصور ،
المتاحف ، الكثير من الأبنية الهامة القديم منها والحديث. على مثل هذا
الارتفاع كان مسموعاً دوي ودمدمة واهتزاز ولهات أنفاث المدينة
الأسطورية التي استيقظت لتوها .

كان كفاتشي كفاتشا نثيرادزه لا يحس عادة بجمال الطبيعة
ولا تحرك روحه وقلبه : كانت لا تثيره ولا تسحره ولا تعطيه أية متعة
الجمال التي تطاول السماء أو البحر الذي لا يحده بصر أو المنظر البديع
المزركش . لكنه الآن وعندما أطل من علو ثلاثمائة متر على الحساء
المستلقية عند أقدامه — باريس ، شعر بعمق بالجمال المذهل لتلك المدينة
العالية التي لا يدري أحد متى وكيف زركشت بمثل هذه الكمية من
الحجارة والحديد والأبخرة والدخان .

لم تكن لدى كفاتشي اذن موسيقية ، ولم يكن بمقدوره أن يفرق
بين « نوبة » وأخرى ، لذا لم يحب الموسيقى ولم يفقه شيئاً فيها ،
لكنه الآن وعلى ارتفاع ثلاثمائة متر سحرته وأسكرته ورفعته إلى السماوات
تلك الدمدمة الخفية ودوي هذه المدينة وضجيجها .

أثناء ذلك حمل نسيم الصباح رائحة الفحم والنفط من مرتفعات
« بيل فيل » إلى برج ايفيل فاستقبلها أنف كفاتشي كعبير ناعم الرائحة .
وقفوا صامتين طويلاً تحت وطأة الاعجاب الكبير مفعمين بشعور
لذيذ لا مثيل له . كورانا شفيلي فقط كان يمد أصبعه بين الفينة والأخرى
باتجاه وتارة أخرى باتجاه آخر مشيراً إلى كنوز جديدة .

— أمام فندقكم قنطرة من أضخم القناطر . وفيما حولها تفرق

اثنا عشر طريقاً وجادة كأشعة النجم ولهذا يدعى المكان « ساحة النجوم — ايتوال » .

وهذا هو قصر الاليزيه مقر رئيس الجمهورية . . . ذلك هو قصر « البوربون » مقر مجلس الشعب حالياً . . . وتلك التي تبدو تحت أقدامنا « الأكاديمية الحربية » .

. . . وهذان هما القصر الصغير والكبير للفن والصناعة .

--- تشبه باريس حسناء حية ، فتاة فرنسية عارية مستلقية على ضفاف السين يقصدها الناس من كافة أصقاع العالم ليروها وإلاّ علام يجري إلى هنا النبلاء الجورجيون المفلسون المتغطرسون ؟ — قال كفاتشي . .

لم يوافقه سيدراك :

— وآخ ! وهل يعيش في باريس اصحاب الملايين فقط ؟ فمصرف عملي وحيد هنا أو « محل للصيرفة » يشتري ويبيع جورجيا بكاملها بل وثلاثة أضعافها . يسمى الدباب حيث يتوفر العسل ، وإلاّ أي مجنون سيأتي من أمريكا أو اليابان أو تفليس من أجل النساء الحسنات ؟ حين تتوفر الأموال تجدد الكثير من النساء الجميلات .

— ولهذا تقصد النساء الحسنات باريس من كافة بلدان العالم ، ففي باريس الكثير من الأموال — قال بيسو الصامت هامساً . .

— في لندن ونيويورك أموال أكثر بكثير مما في باريس — تدخل كورانا شفيلي قائلاً — لكن النساء الجميلات والرجال الأغنياء والمفلسين يقصدون باريس ، لأأدري فيما يخصكم، لكن بالنسبة لي لا تستطيع مائة ألف حسناء أن تجرني إلى هنا !

... إذأ لماذا يسعى كل العالم إلى هنا - تساءل كفاتشي .

— النساء الجميلات جانب واحد فقط من جوانب باريس .
من خلال ملاحظاتي الخاصة أستطيع أن أقول لكم أن في باريس رجالاً
جميلين أكثر من النساء الجميلات . وهذا ماؤكدته النساء المحليات .
ثمة في باريس جانب ثان وثالث وخامس وعاشر . وإذا مابدأت بالشرح
سيطول المقام ، بالإضافة إلى أن ماسأقوله لن تفهموه مالم تشعروا به
بأنفسكم . عيشوا الآن ولاحظوا ودققوا في كل شيء وبعدئذ ستحسون
وتدركون بأنفسكم سحرها وتماكدون من أن لكل انسان وطنين وطنه
الأصلي وفرنسا . عبر السالم الكهربائي المتحرك نزلوا إلى الطابق الثاني
في البرج حيث تتوفر المطاعم . تناولوا الافطار ، ثم ذهبوا لمشاهدة اللوفر .

حينما أصبحوا على جسر « الاسكندر » حلق كفاتشي باهتمام
في زينتته الرائعة . التماثيل ، الاعمدة ، المرمر ، الزخرفة الذهبية ،
الحديد المصنّع ، البرونز ، ثم التفت إلى رفاقه :

— لن نجد مثيلاً له في كل جورجيا .

— يذكرني بالجرس الأبيض في كوتايسي . ها — ها — ها !

— لا يوجد مثل هذا الجرس لاني أوروبا ولا في روسيا — أضاف
كوراناشفيلي موضعاً . واستحوذت ساحة « كوناكورد » المثلثة
الاضلاع على إعجاب كفاتشي . كانت زواياها الثمانية مزدانة بتماثيل
تعود للمدن الثمانية الكبيرة في فرنسا . كان تمثال مدينة «ستراسبورغ»
محاطاً بالسواد رمزاً للحداد . في وسط الساحة تنتصب نافورتان راعتان
ويقربهما ترتفع مسلة طولها يقارب الواحد والعشرين متراً نقلها
نابليون من مصر .

— في هذه الساحة نصبوا المقصلة أيام الثورة الفرنسية العظمى —
قدم كورناشفيلي هذه المعلومات — هنا قطعوا رأس الملك اويس
وكثيرين آخرين .

سيطرت الرعشة على كفاتشي ولوى وجهه بسرعة .
اجتازوا حديقة « الملوك القدماء » في تيوري ، وقوس النصر ثم
دخلوا الوفير .

مروا ، في البداية على التماثيل في الطابق الأسفل . القاعة تلو
القاعة والعصر تلو العصر ، وحضارة بلاد تليها حضارة بلاد أخرى .
لم يعد يسمع كفاتشي شيئاً . لقد اختار من المنحوتات التي لا حصر
لها « النساء العاريات » وأعطى الأفضلية لأعمال « كانوفا » الغنية . دار
حول منحوتاته العارية من كافة الجوانب ، حلق بثبات وأفعم نزواته
وعبادته تدريجياً .

وحين دخلوا القاعة الهيلينية رأوا الأعمال الفذة « سكوباس »
« ميرون » « براكسيتل » . وحين شاهدوا تماثيل أفروديت الربانية
وفينيرا آلهة العشق جالسات ، بلا أرجل ، بلا أيدي بلا عيون يغمر
كفاتشي انفعال فياض ويصبح :

— يا للأيدي التي خلقت هذه النساء الرائعات ! بيسو : أنظر إلى
هذه الفينيرا الجالسة بلا رأس وبلا يدين ، ضع يدك على حوضها
وتأكد أهي حية أم من المرمز ؟ . . . ماذا ؟ اللمس ممنوع ؟ حسناً لكن . .
يا إلهي بالظيف ؟ كيف صنع ذات النحات الاغريقي هذه النساء بحيث
ينضج الحجر برائحة وحرارة الجسد الحي ، بيسو أذهب يا حبيبي

من فضلك واستعلم بكم يبيعون هذه الفينيرا الفتية ؟ انها رائعة لعلها زوجة أحد الأمراء البولونيين أو الروس . إذا كان سعرها ألف فرنك فمادون سأشتريها وأضعها عند السلم وأصنع لها يديها المبتورتين وسأضع في إحداها زهوراً وفي الأخرى مصباحاً كهربائياً . ألا تزين حقاً قصر كفاتشا نثيرادزه ؟

ثم تابعوا الجري مسرعين عبر ذلك البناء الضخم طوال ساعات ثلاث محنبي الظهور . كان كورانا شفيلى هو الوحيد الهادىء حيث كان يراها للمرة العاشرة وقد هضمها جيداً .

ثم استعرضوا مسرعين أبولون ومعرض الزهور وتبولري القديم . وفي قاعة أبولون التصق كفاتشي كالنهم الطعام بأحد الصناديق البلورية ولم يعد باستطاعته انتزاع نفسه منه . اشتعلت عيناه وحدجتا الصندوق واهتز قلبه وارتجف كل جسده . كان في الصندوق عادة قطع من الماس بيضاء كل منها بحجم بيضة الحمام، كما كان سيف نابليون مرصعاً بالماس وبمختلف الأحجار الكريمة الأخرى ، كان الصندوق يبرق ويشعشع تماماً كعيني كفاتشي في تلك الدقيقة .

تلقت كفاتشي فيما حوله . كان ثمة حارس يتجول في القاعة بهدوء . اضطرب كفاتشي ، شُدَّهَ وعوى . علق في البداية على كورانا شفيلى، ثم أسرع إلى الحارس :

— كومبيان كوت سيت شوز ، سيل فويلي / كم تساوي هذه الأشياء من فضلك / .

— سي تسامسيو اون دي كارانت أو سكانت مليون / لأدري أيها السيد، يقال أن ثمنها أربعون أو خمسون مليوناً / .

بصعوبة بالغة استطاع كفاتشي ان يتزعم نفسه عن هذا الكثر .
وسار بعدئذ ذاهلاً شارد اللب بليداً وكأن الشياطين قد سكنت رأسه ،
أو كأن فكرة ما نضجت وحيكت خيوطها وأكتمل نسيجها في رأسه .

— يالها من تحف رائعة مختارة من اللوحات العالمية الأصلية — تابع
كورانا شفيلي حديثه . نبدأ من عصر النهضة الايطالية هوذا « كوريجيو »
. . وهذا « تيتسيان » . . وهذا « بيروجيو » وهذا هو الرومانسي
الناعم « بوتيتشيلي » . . وهذه هي « الجوكندا » رائعة ليوناردو
دافنشي القلدة . . .

— أهذه هي « الجوكندا » ؟ — قال كفاتشي مستغرباً — أهي
التي سرقوها العام الماضي ؟ سارقها أحقق تماماً ! كم تساوي هذه اللوحة ؟
— لا تقدر بثمن ، لا تباع ، لكن الخبراء يقدرون ثمنها بمليون .
وكذا تساوي « فينيرا » .

— ياإلهي ، كم من الحمقى في هذا العالم ! أنا لأشترىها بعشرات
من الروبلات ، انظر بيسو، أنظر كيف تنظر شزراً ! آه حمقى بكل
تأكيد وإلا كيف يمكن أن يدفع أي مجنون حتى مائة روبل ثمناً للوحة
تمثل بنتاً ريفية ؟ أراهن أنني أستطيع اليوم الحصول على خمس نساء
أجمل منها بمبلغ مائة روبل ، وأنا لأدفع أكثر من ذلك ثمناً
لهذه « اللوحة » .

— وآه ، أنظروا أي شيء هنا ! — قاطع سيدراك حديث كفاتشي
قائلاً عبر أبواب القاعة الأخرى .: انعطفوا إلى قاعة اللوحات الفرنسية
حيث تعلق بسخاء النساء العاريات على الجدران .

— روزا بونير . . برودوم . . ديلاكروا . . فاتو . . ميسوني —
تابع كورانشفيلي حديثه ، لكن أحداً لم يسمعه ، إذ اقترب الثلاثة
من « رقيقة » أنغر العارية المستلقية في الزاوية شاحبة مذعورة ، ناعمة
لينة الأطراف لاعظام فيها .

— واه أنظر إلى مؤخرتها — قال سيدراك وقد تأثر وترطبت عيناه .
— هذه امرأة ! هذه لوحة . امرأة حية مثلها تساوي ألف روبل
واللوحة كذلك .

— لأدري فيما يخص المرأة الحية ، لكن بمبلغ ألف روبل يمكن
رسم نسخة عنها ، هو ذا الفنان .

كان ثمة ثلاثة فنانين يعملون هناك وينسخون عن اللوحات الأصلية .
سألوا أحدهم ، انفقوا على السعر ، أعطوه العنوان ثم تابعوا طريقهم .
— وهنا الفن الاسباني . . موريلو . . فيلاسكيس . . غويا . .
وهذه المدرسة الانجليزية ، رينولدس . . بيسكين . . ووت ، والمدرسة
الهولندية : فان — نيك . . رويسدال . . روبنس . . بوت والعبقري
ريمرانت . .

تحرّق غابو وسيدراك واشتعلوا رغبة بالنساء الحمراء كالياقوت ،
كلهن كن ممثلاث ، سمينات ، عظيمات جليات جمرات بيضاوات ،
شبهات بالحليب المزوج قليلاً بالنبيذ .

نحارت قوى كفاتشي ودبقت عيناه تعباً وصار يجر قدميه بصعوبة .

— لقد شاهدنا الثلث تقريباً ، وما تبقى نستطيع الآن رؤيته بشكل
عابر ، ثم بعدئذ — إذا شئتم — يمكنكم استكمال الاطلاع خلال
أسبوعين على الأقل — قال كورانا شفيلي فاصحاً .

— آه ، آه ، آه ! — نفص كفاتشي يده ضجراً — لأستطيع
أن أفعل ذلك . ليس من أجل هذا قدمت إلى هنا ، كفى ، فلنمض .

خرجوا ، اجتازوا عدة بنايات والساحة ، ثم تطلعوا من هناك
إلى اللوفر المبني من الحجارة المنحوتة والممتد مسافة فرست (١٠٦٠ متراً)
والذي تخترقه الشوارع بشكل عرضاني وعبر بواباته كانت تسير
الباصات وعربات الخيل الكبيرة .

— شيء طريف ، هل تبادل فرنسا هذا المبني بجورجيا كلها .
وبكل ثرواتها ؟ — تسأل كفاتشي بصوت خافت وكأنه يحدث نفسه .

استأجروا سيارة واجتازوا مسرحي « شاتلي » و « برنار » وبرج
سان — جاك والمجلس البلدي وكاتدرائية السيدة العذراء الباريسية ،
ثم دخلوا الحي اللاتيني .

— هذه هي السوربون . . تلك هي الكوليج دي فرانس . . دار
الكتب الوطنية ، وهذا هو « باتيون » الشهير ، وأمامه تمثال النحات
المشهور « رودان » الذي يمثل الرجل المفكر .

يجلس رجل جبار برونزي يلف ساقاً على ساق ويسند ذقنه
بقبضة يده ويفكر بقوة وشدة وصلابة ارادة حتى أن شرايين رجليه
قد انتفخت وتوترت وكأن الأفكار تضغط على تلك الشرايين أو
كأنه يستنجد بها .

حدّق كفاتشي في الانسان البرونزي وقال :

— إنه يخطط لأمر عظيم ، لوقابلت هذا الرجل لكان لي خير رفيق !

— هذا متحف اللوكسمبورغ و « كلوني » ، هيا فلنر .

— آه ، أنا تعب ، كفى ! فلنذهب إلى مطعم جيد ونتناول طعام الغداء . قصدوا « ديوفال » فاستاء كفانشي :

— ماهذا ؟ لاينفع . إنه أشبه بمطعم طلابي . ان تجد الجيد .
لم يدركو اناشفيلي ، فهو لايفقه شيئاً بالمطاعم الجيدة والسيئة إذ كان أحياناً يقتات في بعض المطاعم بفرنك واحد .
— إذا فلنذهب إلى فندقنا . ماذا ؟ نخجل ؟ ليس لديك ملابس لائقة ؟ إذا وداعاً ، غداً سنلتقي .
ركبوا السيارة ، أما كورانشفيلي ، الذي ثارت شهيته للطعام ، فقد قفل عائداً إلى الملحق حيث يعيش .

آراء وأفكار « ايدلسون » المجرب

لبس الأصدقاء ال « ريدنفوت » (١) وثبتوا زهرة من زهور ال « كرسانتيم » (٢) إلى صدورهم ونزلوا إلى المطعم .
أقبل صاحب المطعم والقائمون على الخدمة فيه إلى الزبائن الجدد .
استفسروا باحترام عن الطلبات وتساءلوا عن الانطباعات . وعن الخدمة .
كان مطعماً هادئاً حيث يتفاهم الجميع همساً . ليس فيه منادمة أو إنجاب أو شراب .

(١) ريد نفوت : سترة فضفاضة ، استخدمت في البداية اركوب الخيل ثم غدت زياً دارجاً - المترجم
(٢) جنس من النباتات الحولية أو المعمرة تزدهر في الشرق منذ أكثر من ألفي عام . يزهر متأخراً بمختلف الألوان والأحجام . بعضها صغيرة كالقحوان ، وبعضها كبيرة مستديرة الشكل - المترجم

حين انتهوا من تناول طعام الافطار التقوا عند الباب بـ « اسحق ايدلسون » الذي أسر الثلاثة ونقلهم بالسيارة .

.. ألو نشان سيل فوبلي ! (إلى لونشان من فضلك !) .

حدث أيدلسون كفاتشي عن نفسه باختصار .

وصل الزوجان المطرودان من أوديسا إلى باريس . واصطحب اسحق الكثير من الأموال .

— كان يمكنني أن أحيا بهذه الأموال باكتفاء ، لكن مأساتي في أنني يهودي .

فاليهودي ولو كان يملك الملايين ، لا يستطيع أن يبقى بلا عمل . وأنا أيضاً لم استطع الاطمئنان فافتتحت عملاً كبيراً لصياغة الذهب . تكبدت خسارة كبيرة ، ولم أقف عند حدي في الوقت المناسب ، حرنت وتابعت العمل حتى النهاية .

— أنا لأصدق ان اسحق ايدلسون قد أفلس فعلاً .

— أفلس . أبقيت على مبلغ صغير فتحت به عملاً للخياطة ! « ريفيكا » .

— يعني ان ريفيكا تعمل الآن ؟

— كلانا يعمل . لدي ابنة أخي اليتيمة . هي أيضاً تعمل . اقم فرحت ربي كثيراً حين علمت بقدمكم .

— سأزورها حتماً سأزورها .

ساروا في جادة « غراند - برمي » ثم أجتازوا غابة يولون ثم

أطلقوا على ميدان سباق الخيل الذي كان يغص بالجماهير ، وأية جماهير !؟
لقد كان في الميدان حسب تقديرات كفاتشي عشرون ألف انسان
على الأقل .

كان ذلك الميدان الرحب محاطاً بأزهار العوسج ، وكان الضجيج
في كل مكان كمخيلة النحل . الجميع منشغون ، ولم تتمكن عينا كفاتشي ،
خلال ساعتين ، من الاحاطة ببحر النساء الذي لا ينضب . لكن بعد
انتهاء السباق لقنه اسحق الحيلة في غابة « بولون » وبجانب الطريق
يقع مقهى ومطعم كبير « أرمنوفيل »

و « الصفوة » لابد لها من السير عبر هذا الطريق ولابد للشعب
الباريسي المحب للمنادمة من أن يخلد للراحة في أحضان ذلك المقهى
ويحتسي قليلا من الشراب ويتطلع في الآخرين كما يترك الفرصة
للآخرين للتطلع نحوه

اشترى كفاتشي أولاً حصاناً أصيلاً للركوب كان قد فاز في
السباق ذلك اليوم ، ثم أسرع إلى ذلك المطعم .

جالسوا وطلبوا « بوطة » وراحوا يحتسون الماء العذب وتركوا
العنان لقلوبهم وعيونهم النهمة العطشى .

فعلاً كانت كل باريس تنتزه أمام أعينهم . آلاف كثيرة من
الفرسان والسيارات والعربات والمركبات مرت أمام كفاتشي الذي كان
يرنو ويحدق متفحصاً مختاراً المميزين من الصفوة . وكان يعرف النساء
الجميلات الفاتنات بعينه فيما كان يضبط بسرعة ومهارة جهاز النظارات
على عينيه بشكل كان سيحسده معلمه وزير البلاط البارون فريدريك
لورآه . مهدد اسحق — الدليل المحنك الطريق أمام كفاتشي :

.. هذا الرئيس « بوان كاري » وهؤلاء - سفراء : روسيا ، ألمانيا ، إنجلترا ، وزراء سابقون وشخصيات غير وزارية : سارية ، كايون ، كليمانصو . . . وهؤلاء أصحاب الملايين . . . شوشار ، روتشيلد . . . غيرش . . . ديوقال . . . وهاهو ملك الحديد والصلب . . . ملك الاسكان والبناء . . . ملك المضارف . . . وذلك الذي يحططي الحصان الجنرال « غاليني » لعلكم سمعتم عن « بنطال » (١) . غاليني ؟ هذا الشخص قتل مايقارب الألف من أعضاء كومونة باريس . . . وهذا هرتسوغ . . . أمير . . . ماركيز . . . بارون . . . كونت . . . رجال الفن والصحافة : ستينلي . . . مارسيل . . . بريفو . . . كالميت . . . سارا برنار . . . روجان . . . لوزان . . .

وسرد أثناء ذلك نبذة قصيرة عن مغامراتهم وأخبارهم الغرامية . ثم التفت نحو الناس الذين دخلوا المطعم :

— أولاء النسوة — الموضة الحية . تتولى دور الأزياء كل ثقاتهن ، تلبسهن ، وترسلهن إلى كل مكان حيث يظهرن لكل الناس . « الموضة » الجديدة . . . هذا عملهن . . . وهذه عشيقة البارون غريني . . . وتلك عشيقة « كوندي » وتلك . . . وأشار إلى عشرات النساء الكهلات ، وذكر أسماء مثل ذلك العدد من أصحاب الملايين .

— كيف ؟ — استغرب كفاتشي — أولاء النساء الكهلات ؟ ألم يجد أصحاب الملايين فتيات ؟

(١) غاليني : بنطال ضيق حتى الركب واسع جداً فيما فوق الركب - وقد سمي هذا البنطال باسم هذا الجنرال الفرنسي الذي اعتاد ارتدائه - المترجم

— آ . . آ . آ . ابتسم ايدلسون — أثار الشباب وقلة الخبرة بادية عليك . سيدات المجتمع الباريسي الراقى لا يقبلن الفتاة الطائشة ، الغرة ، القليلة الخبرة ، غير المحترفة والتي لا تعرف أصول مهنتها جيداً . مثل تلك الفتاة الغرة ، الطائشة اللعوب ، الضجوج ، المضحاك ، الانفعالية الطباع تأخذ أصول حرفتها من المقاهي الطلابية . وبحسب هذا الاعتبار نقسم باريس إلى عالمين على صفتي السين : الحي اللاتيني ومونتمارتر .

المرأة الشابة تبدأ من الضفة الأخرى ثم تنتهي هنا . هناك تتعمد وهنا تصبح راشدة وتتجذر ، هناك تفلح وتزرع وهنا تحصد . هي هناك فتاة وهنا امرأة .

على تلك الضفة يعلمها الطلاب الحب وهنا تصبح ماهرة . واستاذة في الحب . في الحي اللاتيني تبسم فتاة الحب بخفر وتضحك بصوت رنان وأحياناً يمكنها أن تبكي بحنان وان تدغدغ قلبها فتمزح . أما المرأة في حي مونتمارتر فتضحك وتقهقه بملء صوتها حزناً يعوي وحبها بهراً وشيخوختها تزمجر . . الغزل في تلك الجهة نسيم خفيف وفي هذه الجهة عاصفة هوجاء .

هناك الشهوة لبيب وهنا جمر متقد . الفتيات الطائشات اللعوبات ينفخن طيباً كالوردة والبنفسجة ، أما نساء مونتمارتر وعشيقات المليونيريين فهن مخمللات و . . كامامبر أو نجينة « روكفور » أو . . ماذا ؟ أنت لم تر نجينة روكفور ؟ غارسون ! أحضر طبقين مسن الروكفور ، وطبقين آخرين من الكامامبر العفنة . . نعم لقد قلت لك : من يملك الملايين ؟ الشيوخ المسنون . إذاً فالنساء المختارات سيكون بحوزتهم

ويجب أن تتحلّى النساء بالإضافة لجمال الشفاه والعيون بالرزانة والطباع الهادئة . فرجل كهل مثلي لا يحب الفتاة اللعوب ، التزقة ، القهقهة ، العابثة ، المتقلبة الأطوار المدراة الدمع والشبهة بالعقق المهازير . نحن نفضل الهادئة الرزينة المجربة القديمة ، الحكيمة والقديرة ، كالغراب . نعم ، أقول هذا أنا اليهودي الأوديبي ، المحنك ايدلسون ، أنا الذي سحتُ ودرتُ في هذا العالم خلال نصف قرن من الزمان ، حيث رأيت وعرفت وجربت وفهمت الكثير - الكثير . لم تبق بقعة صغيرة من الأرض لم أرها . أعرف عشر لغات ومارست تسع مهن . هالقد جاؤوا بالكامامبر والروكفور . حسناً جربوها وتذوّقوها . رائجتها أطيب بمائة مرة من « اللوريغان » و « اوبيغان » (١) .

كلوا ولا تقطبوا . حين ستعتادون عليها ستضعونها باستمرار في جيوبكم ألا تشتهون في هذه الجبنة رائحة المرأة ؟ ألا تفوح من هذه المرأة رائحة الجبنة ؟ بلى تفوح . . أجل تفوح ! . إذاً عم كنت أتحدث ؟ أنا اتقن تسع مهن . كنت في البداية ساعاتياً في أوديسا . ثم ثوريا . لانتغربوا فهذه مهنة أيضاً ، مهنة خطرة وغير حميدة . منذ ثلاثين عاماً فررت من سيبيريا إلى اميركا . كان لدي معمل في بوسطن لتصنيع القمامة والنفايات . ولقد بحثت عن الذهب في كلوندايت . وفي فيرجينيا كنت مالكا لمزرعة قطن ، وصنّعت السكر في كوبا واصططدت السمك في غرينلند ومارست الصيد في آلاسكا ونقبت عن الألماس في بريتوريا وتاجرت في زنجبار بالعاج واستخرجت اللؤلؤ

(١) لعل « لوريغان » و « اوبيغان » من أنواع المطورات التي كانت سائدة في بداية

من أعماق البحر في سيلان . كما مارست عشرات الأعمال الأخرى .
ثم عدت أخيراً إلى أوديسا حيث مارست خمس مهن تعرفون الأخيرة
منها . لقد اختبعت في شيخوختي والتعقت بالثوريين ها - ها وأنقذت
بجهودكم من الأعمال الشاقة . هكذا ابتسم القادر لي ، وبدلاً من
أن يذهب اسحق أيدلسون إلى سيبيريا صار في باريس .

واصطحبت الكثير من الأموال . . أجل عمّ كنت أتحدث ؟
لقد صرت مليونيراً خمس مرات وأفلست عشر مرات والآن . . .
الآن أرافق الناس المحترمين أمثالكم ، هكذا أكسب كسرة الخبز
لأسرتي .

استمع كفاتشي ورفاقه مستغربين فاغرين أفواههم إلى العجوز
إسحق الذي رأى وسمع وكابد الكثير .

مرة أخرى استقلوا السيارة واجتازوا بعض ضواحي باريس ،
سيفر ، سان - كلو ، كورفيووا ، كليش . جلسوا في المساء على شرفة
مقهى « ريش » ، وطلبوا كأساً من « غرينادين » لكل منهم . شربوا
هذا الشراب بالقشة وراحوا يراقبون الجادات الكبيرة .

غربت الشمس وتراءت سحابة غريبة من جهة « مادلين » . بدت
تلك السحابة كطائر أحمر أسطوري قد فرش جناحيه وانقض نحو
الأسفل . بدا ذلك الطائر الناري وكأنه يحمل كرة حمراء ضخمة ---
الشمس الحمراء التي صبغت بلونها الأرجواني تلك الجادة الطويلة :
الأبنية العالية والممرات المشجرة والبحر البشري المضطرب ، ومختلف
المركبات .

توهجت النوافذ وزجاج واجهات المحلات باللون الأحمر مذكرة
بلون الدم .

اشبع الهواء بالضباب الذهبي ، وعبر هذا الضباب سبح الرجال
والنساء .

وكم حوت هذه الموجة من البشر : الغني والفقير ، صاحب الدخل
الثابت والعامل ، صاحب العيال المسرع إلى بيته والمتسكع العاطل عن
العمل ، الباذخ المتأنق والمتسول ، الفرنسي المهموم والحالي البال .
ثم لأحد يدري أية موجة قذفت بهم ، من أين ولماذا أتوا : الروس
والهنود ، العرب والانجليز والباحثون عن السعادة من اصقاع العالم كافة .
أحس كفاتشي بشيء ما يدغدغ نفسه ويهز قلبه : نظر بنهم
إلى كل ماحوله وبحث عن سبب سر هذه النشوة واللذة ، لكنه عجز
عن فك هذا اللغز ثم توجه إلى اسحق :

— اسحق ابراموفيتش ! كثيراً ما أمضيت مثل هذه الأمسيات
في شارع النيفسكي في بطرسبورغ أو في شوارع فيينا و «براتر» وكان
الطقس رائعاً مثل اليوم والناس لم يكونوا أسوأ من الحاضرين الآن . .
لكن . . لكن مع ذلك لا أدري السر الكامن وراء السحر الخاص
لهذه الشوارع .

— ها ! — ضحك اسحق ساخراً — لقد رأيت أكثر من هذا
بعشرة أضعاف .

فريد ريكشتراس في بردين ، كورسو في روما ، بيكاديلي في
لندن ، برادو في مدريد ، الجادة الخامسة في نيويورك ، دلي ، القاهرة

تونكين ، الشمال والجنوب ، الشرق والغرب ، لكنني لم أجد مدينة
سحرية مثل باريس .

السبب ؟ لقد بحثت عن السبب عشرين عاماً وأخيراً وجدت
بعضه ها ! .

هيا انظروا إلى هذه المباني . أرايتم أفضل منها في أي مكان ؟ ؟
— مباني فيينا أفضل ، فهي أحدث ، ملونة جميلة .

— ما هو حق فهو حق ! والآن انظروا إلى هذه السماء واستنشقوا
هذا الهواء .

— سماء وهواء فيينا أكثر نظافة ولطفاً .

— وهذا أيضاً صحيح . انظروا إلى هؤلاء الناس .

— الناس في فيينا نظيفون أيضاً ومتأنقون .

— أجل هم أكثر نظافة وأناقة.والآن قارنوا بين النساء . المرأة
هي التي تزين الشعب أي شعب ، هي وردة كبيرة بين طاقة من الزهور
البرية . هي نجمة الصباح في سماء مرصعة بالنجوم الشاحبة ، هي أفضل
زينة لكل أسرة ولكل مدينة ولكل شعب . والآن قارنوا بين النساء
والفينيات والباريسيات .

— النساء الفينيات ؟ هن أكثر مهابة ونبلاً .

أما النساء الباريسيات فهن أكثر . . أكثر . .

ولم يجد الكلمات المناسبة فبدأ يحرك أصابعه .

مرة أخرى جاء العجوز ايدلسون لنجدته :

— أنهم أكثر حباً للحياة وغنجاً وكياسة، أليس كذلك ؟ في عيون الباريسيات وخطواتهن ودمائهن وميض رائع لا ينضب . الرهافة ، الذوق ، الرشاقة والظرافة ، الذكاء الحاد، حس الجمال ، حب الحياة وحسن التصرف بها ، اذا ما سر جاذبية باريس ؟ سأخبركم . السرّ يكمن في أن الهواء والحياة مشبعان بفتنة وعدوبة خاصة بسحر قوة خفية .

ماذا تدعي هذه الفتنة وذاك السحر ؟ روح ودم الشعب — هذا هو مفتاح السر البسيط .

— يعني أنه لدى الفرنسيين دم مغاير ! — قال كفاتشي ساخراً :

— بكل تأكيد . صدقوا العجوز اسحق . لو كان الدم واحداً لدى الجميع لكانت اللغة واحدة أيضاً والقانون واحد والقامة والمذاهب والاخلاق والعادات . ايدلسون ليس عالماً ولم ير أبواب المدرسة الثانوية ، لكنه طاف في بلدان العالم كافة . لديه سمع وبصر والعقل ودقة الملاحظة . لقد رأى وسمع وفهم كل شيء .

إنه لا يمارس العرافة . صدقوا العجوز ايدلسون . . نعم عمّ كنت اتحدث ؟ حين خلق الرب الانسان الفرنسي صب في شرايينه دماء حارة ووضع في صدره قلباً ملتهباً وفي رأسه مخاً نظيفاً جيداً ، كما غرس فيه حب الحياة وحسن التصرف بها وغريزة حس الجمال ، ثم نثر فوق كل هذا فلفلاً . أخذ هذا الشعب وتلك الغريزة وحب الحياة والدم الحار وجعل الروح تطفو على السطح وبعثرها في كل مكان في الجادات المشجرة والمباني والهواء وترك بصماته على كل شيء ، هذا كل ما في الأمر .

أقول لكم أنا العجوز اسحق ايدلسون . أجل هذا ماأقوله والسلام .
سكب العجوز ايدلسون حكمة الشيوخ لكفاتشي ومافتيء يشير
إلى المارة :

— هذا هو الفنان الفد « موني سولي » . . هذا المجنون « ليبود »
ملك الصحارى ، المليونير المفلس وهذه مغنية الأوبرا « فولي برجير » ،
« فون » « غولدي » — الملياردير الأمريكي الذي هام بالكلاب والحيول
والسباق . . .

وهذا الجحتمان الخليق « تشيكلتون » — الرحالة الانجليزي
العظيم . . . — وقفز اسحق فجأة وهتف — راحيل ! راحيل ! انتظري
ياصغيرتي ، انتظري انا ذاهب أيضاً — ثم التفت من جديد إلى كفاتشي
وقال : هذه المرأة هي ابنة أخي . انها موسيقية بارعة، هل اعجبتمكم ؟
سأعرفكم ، سأعرفكم بها بكل تأكيد وداعاً إلى الغد ! وفي لحظة
ابتلع البحر البشري اسحق الصغير . نظر كفاتشي ورفاقه في البداية
بعيون دهشة إثر راحيل ، ثم نظر كل منهم إلى الآخرين ، أخيراً
قال كفاتشي :

— هذه المرأة تستطيع ان تفقد جدي خوخو عقله . أظن ان العجوز
اسحق يخطط لشيء ما . سرى .

« كيف زار الأصدقاء الملاهي الليلية وكيف تجدد الحب »

تناول الاصدقاء طعام الغداء في « غراند اوڤيل » ثم انطلقوا إلى
الملاهي الباريسية . بدأوا بالحي اللاتيني . عرجوا لفترة قصيرة على
البار الاميركي « سوفلو » ، « داركور » ثم مضوا عبر شارع « سيستوبول »

ودخلوا « فولي برجير » . تطلعوا في صور النساء المرسومة ثم استمعوا إلى مقاطع من تمثيلية نهارية لم يفهموا منها إلا القليل إذ كانت تعتمد على التورية اللفظية وفهمها يحتاج لإتقان بشكل كامل .

تابع كفاتشي الرقصات وخطوات الفرنسيين . تذكر « أركاديا » بطرسبورغ ، قارن بينهما وقال :

— ذكرت الدب الأبيض والغزال .

خرجوا قبل انتهاء العرض، ثم دسوا أنوفهم في « أولمبيا » وبعدئذ ساروا على مهل باتجاه حي مونمارتر المرتفع والذي يستيقظ في منتصف الليل ومروا في طريقهم على « الكاباريه » . احتسوا كأساً من الخمر ومتعوا عيونهم بمناظر جديدة .

زاروا مايقارب العشرة من الكباريهات : « مونيكو » « الأميرة » .. . ثم دخلوا ، « مولندوش » . استقبلهم بابتسامة واحترام البواب المزركش والمشرف على العمال والخدم الذين كانوا يرتدون بزات سهرة رسمية وقمصاناً بيضاء مما جعلهم يشبهون طيور العقق ، ثم رافقوهم إلى قاعة كبيرة مكتظة بالناس واقتادوهم إلى مقصورة مرموقة . وفي نفس الدقيقة بدأت الفرقة بعزف النشيد الروسي « فليحفظ الله القيصر » . نهض الجميع ومدوا أعناقهم ملتفتين نحو مقصورة كفاتشي .

— فيف لاروس ! فيف لاروس ! ضجت الصالة وصفق الجميع ومدوا كامل أجسامهم باتجاه كفاتشي واغدقوا عليه الهدايا في كافة الجهات : الزهور والحلوى ، الشمبانيا ، المارسال ، بنديكت ومختلف أنواع الخمور .

أثناء ذلك الهمتاف والتصفيق وتقديم الهبات كان كفاتشي ينحني
من مقصورته محيياً الجميع شاكراً لياهم بالابتسامات وحركات
اليدين ، ثم التفت وأعطى الإشارة إلى الجوقة فعزفت « مارسيليز » (١)
الحماسي .

— فيف لافرانس — صرخ كفاتشي بصوت عال بعد انتهاء
المارسيليز .

— فيف لافرانس ، فيف لافرانس — اهتزت الصالة وضجت
مدوية .

— أرجو ان ترسلوا ثلاثمائة فرنك وعشر زجاجات من الشمبانيا
إلى الفرقة الموسيقية — أمر كفاتشي المشرف على العمال والخدم —
وأبعث لكل من شرفني بهدية ضعف قيمتها : للنساء زهوراً وللرجال
شراباً .

وأعطى المشرف على العمال الذي أخفض رأسه احتراماً حزمة
من بطاقات التعريف كتب عليها براء الذهب :

— الأمير ايراكلي باغراتيوني — مهرانسكي .

جلسوا وطلبوا الطعام والشراب .

وفجأة ارتجف كفاتشي : لمح في زاوية الصالة عينين متقدتين
انغرزتا في قلبه كسهم ثاقب .

— مدام ليايوش ، بيسو ، سيدراك ! . . مدام ليايوش !

(١) مارسيليز : أغنية ثورية فرنسية أصبحت فيما بعد النشيد الفرنسي — المترجم

عرفا بعضهما تبادلا الابتسام وتشابكت أعينهما وقلباهما .

— سيدراك ، أدعها وإلا . . أسرع !

بعد خمس دقائق أحضر سيدرا^١ إلى كفاتشي « ليزيت ليابوش
شبه العارية والمسبوكة من العاج وزين ذلك العاج والشعر الأسود
والشفتان الحمراوتان والعينان السوداوان المتقدتان مقصورة كفاتشي
واضاءتها وبعث الحيوية فيها . وتفتق الجرح القديم وتجددت القروح
واشتعلت النار من تحت الرماد وتفجر النبع الناضب وانتعش الحب
والجموح الذي قطع قبل أوانه .

كادا أن يحطما أيدي بعضهما ، تبادلا اللوم بعد تذكرهما
في أوديسا .

ثم سألهما كفاتشي :

— أووى فوترماري ؟ / أين زوجك ؟ / .

تنهدت ليزيت بحزن :

— ايلي مور ، مون شا / لقد مات قطي / .

— واه ، حسناً فعل ! — قال سيدراك .

فعقب كفاتشي قائلاً :

— لقد اقترف حماقة كبيرة ، إذ تأخر في الموت !

وبدأوا تدريجياً بتناول المأدبة ، دفأوا أنفسهم شيئاً فشيئاً حتى احتدموا
وغلوا . . واشتعلت الصالة الكبرى : تلمع كالالماس الثريات والبلورات
اللامعدودة المدلاة ويرن الخبز الشمالي (الفرفور) وتتلأأ^(١) « بكارا » (١) .

(١) بكارا : من أجود أنواع الكريستال - المترجم

وتنسب الشمبانيا المبردة في دلاء فضية والملفوفة بفوط خاصة ،
برذاذها الذهبي في الأكواب الكريستالية .

وينسكب « الشير » الذهبي اللون من دوارق مفلطحة وتتألق
مبهرة العيون خمور « الموسكات » « المارسال » « البينيديكتين »
« البوردو » و« خمرة البورغون » الحمراء المائلة للصفرة تشعشع
خاطفة الأبصار .

ويشتعل « الشارتريز » في الأكواب الكريستالية بلهب أزرق .
ويسيل بعشرات الألوان العصير المنتج في مختلف الفواكه النادرة
كالأناناس والبرتقال والمناندرين .

ومن تلقاء نفسه يدوب الاجاص الفرنسي والسانجرماني
و«ديوشيس» (١) . وكان الخوان الأبيض كالثلج مثقلاً بالدراق المورد
اللون والعنب الأخضر والأصفر ، الأحمر والأسود وبالزهور والورد
النادرة .

وتمدت السرطانات الحمر واللبستر وكأنها تسبح . ورفعت
الطيور قوائمها وصنورها المحمرة .

وكانت الأطعمة الزكية الرائحة منشورة بسخاء على الموائد .
أكل القليل منها وظل أكثرها على حاله دون أن يلمسه أحد .

وبسخاء أيضاً عرضت الاكتاف والأيدي والصدور العارية والأرجل
المختلفة الألوان والبنية ، والأجسام تنشر عليها غلالات رقيقة كخيوط
العنكبوت .

(١) ديوشيس : نوع ممتاز من أنواع الاجاص - المترجم

واختلطت كافة أنواع الديباج والأطلس والمحمل والتول .
 ومما كان يبهج النظر والعين التطريز بخيوط الذهب والزخرفة
 والتوشيات المستوردة من الشرق ومن البندقية وبروكسل وفالانسيا .
 شعور منفوشة ، مسبلة ، مرفوعة: الأسود والكستنائي والذهبي
 والقمحي (بلون سنبله القمح) .
 وبهر وخطف الأبصار بريق الالماس والياقوت والفيروز والزمرد
 واللؤلؤ والجمان والياقوت الأحمر والأصفر .
 وكان دخان السجائر يتلوى كأفَاع صغيرة خضراء ويصعد
 نحو السقف .
 وكان نفح الأطياب يضيفي جواً من الحنان سحرياً .
 ويتتالى في الحفلة الراقصون والمطربون الفرنسيون والطيالان والاسبان
 واليهود الجزائريون والعرب واليابانيون القادمون من أصقاع الأرض
 كافة .
 تبحن وتعلو في السماء موسيقى رقصة « با » الاسبانية الجاهجة
 و« تشارداش » الهنغارية والمازوركا البولونية ورقصة « كيكربوك »
 الصفيقة والتانغو مثير النزوات ورقص هز البطن الشهواني .
 تهتز وتواثب الأوراق والأرجل المختلفة الألوان والأشكال
 ويسمع حفيف الأثواب الحريرية وتتلألأ الأثواب الداخلية .
 يسبح النساء والرجال ويتمايلون مع أمواج الرقص بحماس
 متعانقين متشابكين ملتفتين وقد ثملوا وفقدوا صوابهم جراء الأنفاس
 المختلطة وملامسة بعضهم البعض .

وترامت إلى الأسماع الهمسات الشهوانية والنكات الصريحة
والضحكات المثيرة . واضطربت الصدور العارية بالرغبة ، كثيراً
ما اخترق الصالة برق العيون المشتعلة شهوة وتراقصت على الشفاه
الدامية والأسنان اللؤلؤية شعلة الشبق المثار .

يبعث الجسد المتوتر الذي أثارته الأطعمة الحارة والمسكرات ،
عن إشباع رغبته وتنتظر الدماء المحمأة المشتعلة بلهفة والحاح ما يبردها
ويستكنها .

وتشبع الصالة البراقة بلهيب الشهوة والسكر .

اهتاج وزمجر وحش الفسق والحلاعة دامي الفم قاطع الأنياب
وقد ثار واحتدم حرارة .

احترقت تلك الصالة وذابت في أتون الفجور والرغبات المتهتكة .

انخرط كفاتشي أيضاً في هذا الحريق وامتطى ذلك الوحش الدامي
الفكين ، سبح في أمواج الخدر واندفع كالحصان الأصيل في حمأة
الفسق والشهوة .

اندفع وغرق طوال ما يقارب الأسبوعين في ذلك البحر واحترق
بتلك النار .

رأى وتذوق كل شيء : الجنة والجحيم ، أقيية اللصوص وأوكار
العاهرات ، حدائق الضواحي والبيوت السرية حيث يلتقي الرجال
والنساء ، الحب المأجور وممارسته في غرف خاصة ينظر عبر شقوقها
القاصرون الجحشيون ثملين متلذذين .

ولم يعد يسمع كفاتشي الخدر المتوحش فيما حوله سوى فحيح
الشهوة المتوثبة وعواء الرغبات العارية والمهرير والائتات .

لم ير كفاتشي في « عاصمة الدنيا » ولم يشعر إلا بالعزي الحيواني المتهتك ، بالولائم والأعياد المستمرة بالفرح والنعيم ، بالراحة والترف . وكان كفاتشي واثقاً بأن مدينة الشمس هذه وكل الفرنسيين يمضون حياتهم ويصرفون قواهم كما يفعل هو — كفاتشي .

ولم يدركفاتشيكو ابن سيلبيسترو — واثق له أن يعلم وكيف يمكنه أن يفكر أو يصدق ١٢ — انه في حين كان يمضي تلك الليالي في حمأة الشهوة واللذة . كان ثمة تسعة وتسعون بالمائة من هذا الشعب الكبير ينجرون ويكدون في سبيل لقمة العيش لهم ولأسرهم وصوناً لشرفهم ، تقوست ظهورهم وكرّسوا حياتهم كلها لاستمرار هذا البهرج والفحش .

« كيف بعث الحب القديم وكيف وُجدت خليعة جديدة »

بعد ثلاثة أيام من وصول كفاتشي إلى باريس ، دعا اسحق كفاتشي إلى منزله . كانت لدى ايدلسون في الحي اللاتيني شقة جميلة صغيرة . كانت ريفيكا ، وقد ارتدت أجمل ثيابها ، محمرة الوجنتين متأثرة ، مهتاجة . لقد امتلأت قليلاً خلال الخمس سنوات الماضية وازدادت بهاء . تساءل كفاتشي وريبي عن أحوال بعضهما البعض وكل منهما يأكل الآخر بعينه .

وجلس الثلاثة حول مائدة الغداء .

— تعمل ابنة أخي راحيل في مكان بعيد — قال اسحق — مما يضطرها لتناول الغداء هنالك وتأتي للنوم معنا ، سأعرفك بها يوماً ما ، إنها مطربة رائعة .

وبعد أن انتهى اسحق من تناول الغداء قال :

— أرى لازماً علي ان أعتذر، فلدي زبون جيد ، سيتظرني في الساعة الثامنة ، تابعا حديثكما أو أذهباً وتنزّها أما أنا فعلي ان أسرع .

ستتزه - قالت ربي مودعة زوجها ثم عادت إلى الغرفة
وتعلقت برقبة كفاتشي :

- يا حبيبي « أبولون » يا حبيبي نابليون !

- حبيبي ربي . . ريفيكا يا عزيزتي !

واستعادا الحب القديم لهاثاً وعرقاً . .

منذ ذلك اليوم صار كفاتشي يزور ريفيكا مرتين في الأسبوع .

استأجر كفاتشي « فندق - قصر » مؤثلاً على الطراز الفرنسي
يقع بالقرب من حدائق الاليزيه . كان يعيش في ذلك القصر كفاتشي
واصدقاؤه والقاريء الخاص لكفاتشي بالإضافة إلى معلمة اللغة
الفرنسية - المرأة الفرنسية التي وجدها بيسو - وكانت قصيرة القامة
ممتلئة نشطة ، سريعة ومرحة وخمس عاملات صغيرات وعشرة
من العمال والخدم إضافة إلى طبّاخين وبستاني وحوذي وسائق .

تعلم كفاتشي اللغة الفرنسية بيسر ، وبسهولة أيضاً استدلّ
وتعرّف على شوارع تلك المدينة الرئيسية والفرعية، وسرعان ما استوعب
عاداتها وأعرافها وقوانين المتسكعين ومالكي الأسهم الذين ينفقون
من أرباحها .

وكانت (سوزان) أحياناً تعلم كفاتشي بالإضافة للغة الفرنسية
الحب الفرنسي ، وكانت راضية مسرورة لنجاحات تلميذها ومثابرتة .

كان كل معارف كفاتشي واصلدقاؤه يحماون ألقاباً : الأمير
والهرتسوغ ، والكونت والماركيز والبارون والبقية القليلة منهم كانوا
مثقفين أو من أصحاب رؤوس الأموال .

في الصباح الباكر كان كفاتشي يأخذ « تابعه » على الحصان الانجليزي الأصيل ويجتاز حدائق الاليزيه وغابة بولونيا ، ثم يشرب قهوة الصباح في الجادات الواسعة المشجرة ، ثم يتناول طعام الافطار في قصره ، وفي الساعة الخامسة يتناول الشراب في « كارلتون » أو « انجلترا » ، وأحياناً في « مدريد » أو في مقهى الاليزيه ، وفي الساعة السابعة يرتاد « مكسيم » أو « غراند أوتيل » أو المطاعم الفاخرة المختارة ، حيث يتناول طعام الغداء . أما السهرة والليل فيقضيهما في الملاهي .

غالباً ما كان يستضيف الكثيرين في منزله ، أو يكون ضيفاً في المقاهي - المطاعم . إذ أن كل معارفه واصدقائه من الاجانب يقيمون في الفنادق . ولم يتمكن كفاتشي من التغلب على حذر وخفر الفرنسيين ، ولم يستطع ان يفتح أبواب أسرهم .

ذات مرة شاهد كفاتشي في المتحف الوطني الفرنسي الطاقم الذهبي الذي كان يستخدمه نابليون :

— بأي شيء أنا أسوأ منه ؟ ! وأحمل نفس الاسم ! — وأفتني أدوات منزلية ذهبية .

ولكفاتشي دائماً مكانه الخاص حيث يحل ولم يدع مناسبة نفوته : تدشين معارض ، معارض فنية ، أوبرا ، نزعات خاصة ، سباق الخيل ، « فولي — برجير » أولمبياد وكافة عروض التسلية واللهو الرسمية .

ذات مرة وأثناء تدشين أحد المعارض الباريسية بهت كفاتشي :

— يلينا ! . . تانيا ! . . ياإلهي . . من أين ؟ وكيف ؟

مرت أربعة أشهر على هجرة يلينا وتانيا درءاً للسوء بعد فضيحة « أركاديا » التي أحدثها غريشكا . سافرتا إلى باريس وهما تقيمان منذ ذلك الوقت بالقرب من حديقة « فونبورغ — سانت أنوري » لكنهما لم تدريا حتى الآن بقدوم كفاتشي إلى باريس .

وقد سافر الأمير « فيتغينشتين » إلى باريس أيضاً ورافق يلينا وتانيا في الزهات ، لكنه لاطف ومال إلى تانيا أكثر نظراً لأنه كان مفلساً في ذلك الوقت .

واستغرق حالاً ، في التفكير . فعلاً كان على كفاتشي ان يهتم بـ « لياوش » وسوزان ، ريفيكا ، ويلينا . لكنه في ذلك اليوم فكر ملياً في تلك المهمة الجديدة وصاغها في رأسه على هذا النحو :

— علام التفكير الزائد ! ثروة تانيا تكفي لاعالة عشرين امرأة وكافة النفقات الأخرى . شيء واحد لم يستطع البت فيه : بمن سيضحي هذه الليلة بتانيا أم بيلينا ؟ ! أخيراً حل هذه القضية على الشكل التالي :

— يعز علي أنني لأستطيع أن أنحصكما بهذه الليلة ، ياعزيزتي . أنا مضطر لمغادرتكما . علي أن أسافر إلى « شالون » لزيارة صديقي الفيكونت « شوازيل » ، سندهب غداً صباحاً للصيد .

وهكذا مشى كفاتشي بين تانيا ويلينا ، تأبط الاثنتين ، وضغط على يدي كل منهما وغمز كلا بدورها وأوحى اليهما برغبته بلا كلام ، ثم قبل يديهما ومضى في سبيله .

في حوالي التاسعة مساءً مرّ كفاتشي في حديقة « سانت — أنوري » . كانت نافذة تانيا مضاءة .

— وإذا شاهدتك يلينا هنا ؟ — سألت تانيا كفاتشي بعد ساعة من دخوله .

— سأقول لها في هذه الحالة ، انني تأخرت عن القطار — أجابها كفاتشي .

— وإذا شاهدتك تانيا هنا غداً صباحاً ماذا ستقول لها ؟ — سألت يلينا كفاتشي بـ نفس الليلة .

— سأقول لها لقد تأخرت عن القطار .

هكذا اتصلت الخيوط الثلاثة التي انقطعت منذ أربعة أشهر خلت . وبقدر ما كان كفاتشي النهم والمنهك ، يبحث عن الحديد كان يجد دائماً أشياء جديدة ، مما جعل المثل القديم ينطبق عليه تماماً : كان كفاتشي يلبس ويطعم خليلاته فيأتي الآخرون ، ممن يعرف ولا يعرف ، يعرفون اولئك النساء ويساعدون كفاتشي . انطبق هذا المثل عليه ، لكن كفاتشي أغمض عينيه عمداً عن كل هذا طالما ان ارتداء وخلع ملابس خليلاته والمآدب ونفقات الفندق ستعود ببساطة إلى جيب « تانيا بروزورفا » الممتليء .

في ذلك الوقت وعندما كان كفاتشي جالساً على شرفة « مقهى ريش » وهو يحتسي العصير ، وقف اسحق ايدلسون فوق رأسه وقال له مؤنباً .

— شققت طريقك ، أليس كذلك ؟ لم تعد تعرف العجوز اسحق ؟ أيجوز هكذا نسيان انسان تعرفه منذ زمن قديم ؟ بالأمس جاء وجهي في وجهك ، حينتك دون ان ألقى جواباً أيجوز هذا ؟ ! أصبحت انساناً عظيماً ، أليس كذلك ؟ .

— لا ، ياسيد ايدلسون لا ، أنا لم أرك . لوأنني رأيتك لتحدثت معك ، يسعدني الحديث معك دائماً . أنت رجل ذكي ومجرب ، وهذا فعلاً ماأرغب به .

— ذكي ومجرب وشريف — أضاف اسحق .

— صحيح انت شريف ، هيا أجلس بجانبني وحدثني كيف تحيا ربيبي ؟

— شكراً ، بشكل جيد . انها تسأم بدونك . أنا لست وحيداً هنا . هامي ابنة أخي « راحيل بجيت » هناك .

— حقاً ؟ إذا ادعها ، دعها تتفضل . . فلتشرفنا !

— راحيل ! تعالي إلى هنا يابنيتي تعالي ! تعرفي : الأمير باغراتيوني — كفاتشا نثير ادزه الشهم الذكي ، الشريف والنبيل .

— بفضلنا واجلسا . . اطلبنا كل ماتشتهيان ! . . غارسون !

— كانت في البداية سلالة باغراتيوني الملكية في جورجيا ثم ظهر بعدها مملكتنا « داؤد » — قال اسحق لراحيل .

— أحقاً ؟ فعلاً ؟ كيف ؟ من أين ؟

— أجل — أكد كفاتشي وكرر على راحيل سرد الأسطورة القديمة .

قفز اسحق فجأة :

— سأعود حالا ، لدي عمل بسيط .

وجرى خلف أحد الرجال .

في البداية تفحص كفاتشي راحيل من الأعلى إلى الأسفل ، ثم
اقترَب منها حتى تلامس وركاهما وكتفاهما فتدفاً ثم احترقا وتحولا
إلى رماد .

كانت راحيل امرأة من نوع خاص وذات طباع تختلف تماماً
عن بقية نساء « حريم كفاتشي » .

طويلة ، نحيفة ، بيضاء ناصعة ، في جلدِها أثر بسيط للنمش ،
حمراء الشعر ، خضراء العينين ، متطاولة الوجه مليحة الشكل جذابة ،
لا يستطيع المارة رفع أبصارهم عنها .

« عن متحف الفنون »

لمح كفاتشي ، فجأة ، شيئاً غريباً : حين انحنت راحيل ، توسعت
فتحة الثوب وبانت خطوط عريضة على صدرها .
— مادموزيل ماهذا الذي على صدرك ؟

— أوى ! . . أرايته ؟ لاشيء أقسم لاشيء ! — تمتعت راحيل
خجلة وأغلقت يديها شق الثوب الذي انسد تلقائياً .

— ومع ذلك ، قصي علي بحق الاله ، قصي .

— لاشيء يدعو للعجب . سأحكى لك : حين كان عمري
عشرة أعوام ، كنا نعيش في جزيرة سيلان . وكان يسكن بالقرب
منا فنان شهير يغطي الجسد برسومه بالحبر الصيني . وقد أعجبت أُمي
بالنساء اللاتي رسمن أجسادهن ، فأعطتني إليه أيضاً . هذا كل ما في
الأمر لا أكثر .

— قولي لي ، أرسم كثيراً ؟

- كثيرًا . . كل جسدي : هنا . . وهنا . .
- أستطيع أن أمتع ناظري بهذه الرسوم ؟ يجب أن أخبرك بأنني ذواق جيد للفن .
- فقهت راحيل من أعماقها واجابت :
- لم يرها أحد بعد .
- الكثر الدفين ، سيان وجوده أوعدم وجوده . لقد قال لي عمك ، أنك تعطين دروساً في الموسيقى. أحقاً هذا ؟
- حقاً .
- أتقبليني تلميذاً لديك ؟
- الدرس عشرة فرنكات .
- إذا كان السعر أعلى بمائة مرة أستطيع تحمل النفقات بسهولة .
- وفقهت راحيل من جديد .
- وإذا دفعت عشرة أضعاف المبلغ ؟
- سنحسب هذا فيما بعد . لكن علي أن أقول لك أنه يتعين عليك أن تأتي إلى منزلي .
- رازت راحيل كفاتشي بعينها كما يروز الشاري بضاعته وضحكت .
- حسناً ، سأتردد على منزلكم . . وسأدفع عشرين فرنكاً .
- في ذلك المساء دقت راحيل على البيانو بيد واحدة وراحت تعذب كفاتشي :
- دو . . و . . و . . ري . . ري . . ري . . مي . . مي . . ي . . ي !

أوي ، ياإلهي يالك من تلميذ بليد غير موهوب ! مي . . ي . . ي . .
مي . . ي . . مي - مي ! . .

مط . كفاتشي رقبته وقطع حباله الصوتية ومع ذلك لم يستطع أن
يفرق بين علامة موسيقية وأخرى .

أخيراً استاءت 'راحيل وقالت بخشونة :

- يبدو أن حسك وحسّ هذا الكرسي متساويان . انتهينا
أنا خارجة .

- انتظري قليلاً فأنا لم أبدأ بعد .

وبدأ . كان الصراع حامياً وقصيراً . استولى كفاتشي على متحف
الفنون بعاصفة هوجاء .

تفحص كفاتشي وبالتفصيل ، لوحات ذاك الفنان الشهير مع
أن معرفة كفاتشي بالفن لا تزيد عن موهبته الموسيقية . لكنه وجد كترأ
أثرياً . في أماكن مختلفة من جسد راحيل اكتشف وقرأ أسماء بعض
زبائنهما :

« جان » « بول » « ايجن » « بير » .

وعرف كفاتشي بعد بضعة أسابيع وبمحض الصدفة ان راحيل
تعمل في « احد البيوت » وتتلقى عشرة فرنكات لقاء عرض متحف
رسومها واستمتع زبائنهما - أما كفاتشي فكان يدفع عن كل لقاء معها . .
اكن من يلدي ومن يستطيع حساب نفقات ومداحيل كفاتشي ؟

« كيف انهار (حريم) كفائشي »

لم يكن الدخول الأول لراحيل حدثاً عظيماً في حياة كفائشي ،
إلا أنه تذكر ذلك اليوم إلى الأبد . حيث قاد سبب بسيط إلى نتائج
كبيرة .

— « راحيل السادسة . ألا يمكن ان يحدث خطأ ما في التوزيع .. » .

وكي لا يقع في خطأ فعلي كتب الجدول التالي في دفتر ملاحظاته :

— الاثنين : مدام لياوش .

الثلاثاء : ريفيكا .

الأربعاء : يلينا .

الخميس : راحيل .

الجمعة : سوزان .

السبت : تانيا .

الأحد : راحة .

كتب الجدول وسجل عناوينهن . وكان كفائشي يضع دفتر
الملاحظات هذا في جيبه على الصدر وأحياناً كان يلقي به على الطاولة
أو في درجه .

حفظ كفائشي جدولته عن ظهر قلب ، وأضحت كتابة هذا الجدول
لاتعني بالنسبة إليه شيئاً . فأهمل في كثير من الأحيان ذلك الدفتر وتركه
لفترات طويلة على المنضدة .

ومرت الأيام . وفي أحد أيام الجمعة جاءت سوزان معلمة اللغة

الفرنسية لتأخذ نصيها . لم يكن كفاتشي في البيت . انتظرته طويلاً
ثم تناولت الدفتر بفضول ودون شعور منها قلبت صفحاته حتى
وقعت على ذلك الجدول وفهمت سوزان المجربة كل شيء في لحظة .
كثيراً ما يتشاطر ويتقاسم الرجال والنساء الحب ، لكن هذه الظاهرة
لا تمر بسلام عادة . كانت سوزان تعلم بعض الشيء عن خيانة
كفاتشي لها وتشك في أخلاصه، لكنها ارتجفت بعد أن رأت ذلك
الجدول ، هاجت واثقت غيظاً . نقلت ذلك الجدول والعناوين على
صفحة جديدة ثم وضعتها في جيبها ومضت .

وبعد يومين استلمت خليلات كفاتشي مثل هذه المذكرة :

« حبيبي العزيزة ! سأكون مشغولاً في اليوم المحدد للقائنا ،
لذا أرجو زيارتك لي في يوم السبت في الساعة الخامسة تماماً . لك مني
آلاف القبل انتظرك بفارغ الصبر » .

كانت سوزان تعلم أن كفاتشي لن يسمح لتانيا بالافلات ولن
يتمكن من انتظارها لذا حددت يومها وساعة موعدها .

وفي يوم السبت جاءت تانيا قبل الجميع ، ثم جاءت في أثرها
سوزان ، ريفيكا ، يلينا ، راحيل وليابوش .

ماان تخطت تانيا عتبة البيت حتى قرع جليل باب غرفة كفاتشي
مخبراً عن قدوم سوزان ، وبعد عشر دقائق ارتدت تانيا ثيابها من
جديد وخرجت من غرفة النوم إلى المكتب ومنه إلى غرفة الاستقبال
حيث اجتمعت كل النساء .

تنقل كفاتشي كالديك الأحمق وهو يتمتم :

— أرجو ان تتعارفن . . تفضلن . . أجل ، طقس جميل ، بالأمس مساءً كنت في السيرك . . .

ثم تحيَّنت كل منهن الفرصة وانتحت بكفاثشي جانباً وسألته نفس السؤال :

— أنت بعثت إليّ بهذه الوريقة ؟ أليس كذلك ؟ علام دعوتني ؟

والويل لكفاثشي إن قال لا وان قال نعم .

استجمع كفاثشي قواه . اشتغل المخ المجرب ، لكنه لم يستهد إلى حل . وأحس بهلاكه .

— بيسو . هبيء الشاي بسرعة . أجد ما دبّر مكيدة فايف أوكلوك (الساعة الخامسة) . استدع الجميع وادخل أنت أيضاً ، تولوا أمور هؤلاء النسوة وإلا سأهلك !

تهامست النسوة سرّاً متدمرات ، لاحظ كفاثشي ان سوزان كانت أكثر المهتمات ، وفهم ان يدها وراء ماحداث . لكن لسانه كان معقوداً ويديه مقيدتان .

دخل ، أثناء ذلك رفاق كفاثشي لنجدة القائد واستقبل النسوة الست ستة من الرجال . تقاسموا النساء بحيث بقيت سوزان لكفاثشي .

جلس كفاثشي بقربها ، استفسر عن صحتها ، ابتسم لها وقرص يدها قرصة كادت تصرخ على أثرها ثم قال لها هامساً :

— سأريك ! انتظري قليلاً . : انتظري . .

— جليل ! — نادى سوزان جليلاً ، الذي نظر عبر الباب —

جليل ، تعال هنا ! تعال واجلس . . كيف حالك ؟ ستسليني . حسناً

أحك لي : هل تعجبك الفرنسيات ؟

- أجلست سوزان جليلاً بالقرب منها واحتضنته تماماً .
- أزهرت على وجه جليل ابتسامة عريضة وظلت مستقرة عليه .
لمع بأسنانه البيضاء وبدأ يهشم اللغة الفرنسية بلا رحمة ، يتحدث باصابعه
ويتصعب عرقاً :
- جليل ، اتعجبك هذه المرأة ؟ — سأله كفاتشي .
- جداً ، ياعزيزي ، يحب جليل المرأة البيضاء بشغف .
- .. في هذه الحال ، أهديها لك .
- شكراً أيها الأمير ، لكن . . لكنها لن تذهب مع جليل .
- تقرب كفاتشي منهن الواحدة بعد الأخرى ، لكن كنّ جميعهن
كما لو كنّ قد انفقن فيما بينهن : لم يكلمن كفاتشي وأدرن ظهورهن
له ، حين قدّمت الشاي نهضن جميعاً على الفور صافحن أصدقاء
كفاتشي وتوجهن نحو الباب .
- انتظرن . . إلى أين تسرعن ؟ أشربن الشاي . .
- دعاهن كفاتشي لكنهن لم يستجبن ومضين دون أن يودعنه .
- ما هذا ؟ سأل الرفاق بعضهم بعضاً .
- هذه سوزانكا ، هي من دبّرت الأمر لي — قال كفاتشي —
لقد هلكت وخربت !
- لاشر بلا خير — قال بيسو مواسياً .
- أجل لقد قلت الحقيقة يا بيسو ! — قال كفاتشي موافقاً —
سأستريح وسيكون لدي مزيد من الوقت لعمل جديد .
- هكذا هدمت ودمرت « سوزانكا » المتحمسة والمحبة للحياة مملكة
الحريم لدى كفاتشي .

« أحد الأحاديث وعودة ثلاثة رفاق إلى الوطن »

استقر كفاتشي وزمرته في باريس وتعزّزت اقامتهم . في البداية ، وكطفل صغير ، وقفوا على اقدمهم بصعوبة باللغة . كانوا يتلفتون خجولين ، يسرون خفزين ، يقتاتون بالشحوم التي نقلوها من بطرسبورغ بالوسائل المتاحة ، لكنهم انتعشوا تدريجياً ، تشجعوا وبدؤوا ثم انطلقوا كأحصنة جامحة :

ولماذا لا ينطلقون ؟ لقد درسوا اللغة الفرنسية بشكل اصبحوا يستطيعون معه التفاهم ، اعتنقوا مثلهم وعاداتهم ، لبسوا القبعة الاسطوانية اخذوا يقلدون الناس ثم انطلقوا .

حام كفاتشي وزمرته حول الأسرة الفرنسية طويلاً ، دقوا ابوابها ، نوافذها وحتى مداخنها . محاولين الولوج و « تدبير الأمور » ، لكنهم سرعان ما أقتنعوا ان الأسرة هناك كانت أشد انغلاقاً من السجن لدينا . اقتنعوا لكنهم لم يغتموا . تركوا الأسر ومضوا إلى الحدائق العامة حيث وجدوا كثيراً من المغفلين والمبلدين .

أمضى كفاتشي وزمرته ما يقارب العامين في الاصطياد ضمن ذلك البحر العميق للا محدود . من يقدر ، من يصف بطولة ، مرونة ، حذر ، فطنة ومهارة يدي كفاتشي ؟ !

جاؤوا قطيعاً من الوحوش لا يخضع لأي حساب .

دار في فلك كفاتشي روس وبريطانيون وألمان ، وصاروا حماة وخدماء ، وكان أي وإحدي من هؤلاء كأفضل رفاقه الآخرين بالنسبة له .

إنها الشجاعة والبطولة واليد الجبارة !

وبعد أن اقتحم القطيع ذاك الحقل ، تقدموا إلى ماسواه ! ابتزوا ،
سلبخوا الجلود ، أثاروا غضب الرب في السماء .

جنوا ما لم يزرعوا ، وعرقوا من « التدبير » .

كان الناظرون إلى كفاتشي يقولون : « أشبه بالخوررة وبشجرة
الجنة » .

ذات مرة وبعد أن « دبر » الرفاق عمليين ضخمين وتدفقت الأموال
كالتراب ، وبعد أن وزعوا هذا « التراب » فيما بينهم بشكل أخوي
وصداقي جلسوا ثم فتحوا زجاجة « شامبانيا » وأداروا الحوار التالي :

— أيها الأمير ، أتدري ماسأقوله لك ؟ دعنا نثب إلى رشدنا —
بدأ أفلا بريان حديثه :

— ماذا تقول أيها التبعيس ؟ أأست أنا في كامل عقلي ؟ — قال
كفاتشي مستاء .

— إذا استمعت إلي وأخذت برأيي فأنت في كامل وعبك ، وإلا
فهذا شأنك . لقد قمنا بعمل جيد . لم يحلم أبوك « سلبيسترو » أو أبني
« غالوست » أن يرى أموالاً كهذه ، لن يتمكن من عدها خلال
أسبوع . تعال نتعقل ونترك الحماقة ! أنا أعلم أنك للآن لم تفكر بغير
السكر والمنادمة . لكن هذه الأموال لا بد ستنتهي ، ثم تجب البداية
من جديد . ذات مرة سينكسر الابريق عند النبع — كما يقولون —
وماذا بعد ؟ سيذهب كل شيء ادراج الرياح . لدينا المزيد من الأموال
و « الحدود » تخطيئناها . ان شئت نتسكع قليلاً . كم شربنا ! وكم من

النساء « جربتنا » ، والآن فلنهدأ ونعيش حياة خيرة وبدا نفلت من السجن ونحافظ على ونكون أسرة ونجد عملاً حسناً ، هل راق لك هذه الفكرة ؟

— هذا « سيدراك أصبح ضيق الأفق — صاح كفاتشي بصوت مرتفع — نغادر باريس ونجري إلى جورجيا الخربة تماماً ؟ نترك تلك الأميرات الجميلات هنا لتتبع الفتيات الريفيات في « غفانك » ؟ نخرج من هذا القصر لندخل « سامترادسكي » أو حتى نحم دجاج تفليسي .

— الخروج من « الأولمب » و « الميان روج » « مقهى ريش » للعودة إلى اليهودي « دانييل » و « لاتادزي » و « يريمو » ؟ ! — قال تشيبو نيرادزه مستغرباً أيضاً .

— كباره « الأباشي » هنا والتزهر في « البولفار » الكبير يعادل كل جورجيا — أكد تشيكنجيلادزه قائلاً — لقد فقد هذا « السيدراك » عقله .

— عم تبحت ؟ ماذا أبقيت هناك أيها الأحمق ؟ — سأله كفاتشي .
— لقد قلت لك بعض الشيء ، وسأقول لك شيئاً أخرى . أتدرون ماذا أبقيت في جورجيا ؟ عجوزين — أمي وأبي اللذين شقيا من أجلي وأقارب مساكين يهتمون بأي شيء يخصني وينتظرون عودتي .
قاطعهم الرفاق بالضحك .

— لقد قلت أنه أصبح ضيق الأفق !

— ماذا تركت أنا ؟ وا.خ كل شيء : كروم العنب في (تيلافي) ، منظر « ديكفاري نسيم » تشيفكونباري « النبيذ » الكاخيتيني « بنياً تنا ذات العيون البراقة والزملاء المخلصين .

قاطع « جليل » سيدراك :

— الزملاء الطيبين « الكباب الشهي » « الغنم والشوربة »
« بيّات ازيري » وبالإضافة إلى ذلك ، زوجة القسيس البيضاء وبقية
القصة . . .

— آه ياعزيزي ! — صاح غابوتشخوبيشفيلي متأثراً — ماذا
خلفت ورائي في غوريا ؟ القلعة الغورية — مجدّد الله ذكرى بانيتها —
والطاولة التي كنا نمدّ عليها المائدة في أعلى القلعة والشاشليك (١) ذا
الرائحة الواخزة واغنيات الشراب وأصوات المزمار العذبة . قاطعه
سيدراك قائلاً :

— وعازف الزورنا (٢) الذي يعزف أغنية الصباح من مكان عال
مرسلاً نحيته إلى الفجر . ثم قاطع بعضهم بعضاً :

— في الصباح يطوف الرمث (٣) عبر « الكورا (٤) » وهناك نفرش
المائدة ونجري كالسهم نحو الأسفل . .

— بعد أن تمزق من العمل في كروم العنب . تجلس تحت ظل
شجرة جوز عظيمة ثم تأكل خياراً بارداً و« تشخيرتما (٥) » و« ماتسوني » .

(١) شاشليك : لحم مشوي .

(٢) زورنا : آلة موسيقية جورجية تشبه المزمار .

(٣) الرمث : خشب يضم إلى بعضه يستعمل للتنقل البسيط والنزهة في النهر .

(٤) نوزا : نهر يمر عبر مدينة تفليس ويصب على الشاطئ الأذربيجاني .

(٥) تشخيرتما : سورية دجاج جورجية .

- عندما تسبح مساء في نهر « لياخفا » ثم تقطع مجرى أحد فروعها وتبدأ باصطياد السمك ثم تضرم النار هناك وتجهز « تسوتسخالي (١) » .
- حين تعود من الصيد حاملاً حمامة برية وأرنبا تشويهما في الدغل . .
- ثم تدخل الغابة النائمة وتبهرد !
- ماذا حصل لهؤلاء التعساء ؟
- ظننت ان هؤلاء الفلاحين قد أصبحوا أوروبيين وصاروا مثقفين ومتحضرين ، لكنهم في الواقع آسيويون حقيقيون !
- من خلالهم اكتشف داروين قانون « الرجعة » اذا حسنوا سلالة شجرة فستجن تلك الشجرة وتعود إلى سلالتها القديمة وقد حصل لهم أيضاً حادث الرجعة .
- وماذا يفهم هؤلاء الأشقياء في الاحادية ! — قال كفاتشي خالطاً بين الاحادية والرجعة (٢) . مرة أخرى علل غابو رغبته وتعطشه للعودة إلى أهله وذكر بالوطن .
- عند هذه الكلمة تماحكوا .

- كل العالم وطني — قال كفاتشي — مكان اقامتي هو في كل بلد متطور . أنا أحب الثقافة ، الحضارة ، التقدم ، الشارع النظيف ، المسكن النظيف ، اللهو اللطيف ، أهوى القبة المنشأة ، القبة الاسطوانية ، الأحذية اللماعة ، أحب النساء النيبيلات ، النظيفات المستحلمات ، اللواتي يرتدين الأثواب الحريرية ويبدلنها مرتين في الأسبوع على الأقل .

(١) تسوتسخالي : سمك نهري يشوى طازجاً .

(٢) ثمة تشابه لفظي بين هاتين الكلمتين باللغات الأجنبية .

أنا لأفهم كيف يمكن العيش في مدينة لا تتوفر فيها عدة مؤسسات
للتعليم العالي العلمي والفني وعشرات المسارح وحيث الحياة الفكرية
ضعيفة بل لاوجود لها البتة .

— حيث تتوفر لي قطعة خبز طيبة — هنال وطني — تدخل بيسو .

— كيف يمكنني ان أنفع من وطن لا يحوي سوى خزمة (١)
الدجاج والرعاة والمزارعين — قال « لادي » مستغرباً .

— هكذا إذا — صاح غابو — يستنتج من ذلك : إذا كانت أمي
عجوزاً مسنة مسكينة غير جميلة يجب ان أبذلها أتركها وأنساها !

— لا يعززي ، — تدخل جليل قائلاً — أنا أشفق على أبي جليل
« سوين ايميك أوغلي » وعلى أم جليل « الخاتم » لايجوز ، هذا
يغضب الله !

— أم إذا كان والديّ — قاطعه سيدراك — شاين جميلين ،
موفوري الصحة مثقفين وغنيين عندئذ عليّ ان اودي واجب البهنة ؟
أنا اشفق على العجوز « غالوست » أشفق على أمي « مارتا » الدرداء .
أمن أجل هذا ضحيا بحياتيهما وبشبابيهما ؟ كيف يتخلى عنهما
الجاحد « سيدراك » في الشيخوخة ويتركهما لرحمة الآخرين ؟

— هو أيضاً يحكي فقط — تابع غابو كلامه — يلعب بالكلمات ،
وإلاّ علام يحمل كفاتشي أهله معه ؟

غبروا موضوع الحديث . مرة أخرى تطرقوا للطعام والشراب

(١) خزمة : جمع خم = بيت الدجاج .

وذهبوا وراء سيدراك الذي وجد في تلك الأيام مطعماً شرقياً صغيراً
في الحى اللاتيني .

دخلوه وقلبوا مأوى اليونانيين رأساً على عقب . داروا ، تنقلوا ،
ثم جهزوا الطعام بشكل جماعي . وضعوا الجبنة والخضار والنبيد
القبرصي والكونياك اليوناني والدجاج المشوي و « البلوف » والكباب
والخبز القفقاسي والشاشليك مع البصل وسمك الزخر وجبنة « الموتالي »
وشوربة الدجاج والسمك النهري و « ساتسيغي » (١) . تنادىوا حتى
الصباح على الطريقة الجورجية ، استجروا اليونانيين ، سقوهم حتى
التمالة ثم تركوهم مطروحين على الأرض . بعدئذ بدأ غابو وجيليل
وسيدراك الجدال وهم في الطريق ، وفي اليوم التالي سافروا عائدين .

بعد عدة أشهر علم الرفاق الباقون في باريس ان غابو اشترى
قطيعاً كبيراً من الغنم وبيتاً وارضاً زراعية وغابة ومرعى وان سيدراك
افتتح مخزنًا كبيراً في « تيلافي » وأضاف إلى كرمه ثلاثة كروم أخرى
ثم وسع تجارته مع تفليس . أما « جليل » فقد اقتنى في تفليس محلاً
تجارياً للفواكه والسكاكر واستأجر أحد الحمامات .

حقق الثلاثة رغباتهم : افرحوا أهلهم ، ضاعفوا من أصدقائهم
واقربائهم واشادوا اعشاشاً دافئة .

يتعب غابو وسيدراك من العمل فيستريحان تحت اشجار الجوز
يتنادمان ، يعزفان على الناي أو الزورنا أو يسبحان أحياناً في النهر
ويصطادان السمك والعصافير . كثيراً ما يأكلان الشاشليك وحساء

(١) ساتسيغي : ديك رومي مع « صلصة » الجوز .

الدجاج (تشيخير تما) ، يشترى النبيذ الكاخيتيني الأحمر ، ثم تأتي أغاني الشراب ، بعدئذ يتعقبان الفتيات البراقات العيون وكثيراً ما يتذكران الماضي ، يتحدثان عن اصدقائهم بلسان فاحش ويغمغان وهما يتحدثان عن بطرسبورغ وفيينا وباريس . وجيل أيضاً يعمل وينادم ، وبدلاً من حساء الدجاج والفروج المشوي كان يتناول « البلوف » وحساء الغنم وأحياناً كان يدعو الشاعر الشعبي عزيز ليغني له أغاني شعبية تتغزل بالروسيات الشقراوات اللواتي يميل اليهن جليل كثيراً .

تحققت كلمات كفاتشي : أصبح غابو وسيدراك آسيوين من جديد ، تخلفا عن العالم واصبحا جاهلين : قليلاً ما يلحسان الصابون ونادراً ما يغيران ملابسهما الداخلية ، ينظران شزراً إلى كل ياقة قميص بيضاء ، لا يلحسان جريدة ، لا يرتادان المسرح ويتحاشيان أبناء المدن النظيفين . بالمقابل فهما يعيشان في وطنهما يتنفسان هواءه ، يحرقان أرضه ويفرحان لفرحه .

أما كفاتشي و « بيسو » و « لادي » و « تشيبي » فقد مضوا ينتقلون في أوروبا ، يتنفسون نسائم حدائقها . عاشوا في المقاهي وتهافتوا على « الكباريات » والمطاعم وذاقوا أمام النساء . تصرفوا كـ « جنتلمان » — كالامراء و « الماركيز » ومن وقت لآخر « يدبرون » مكيدة ، أو مقلباً لضحية جديدة .

من يعرف من يفهم من الخاسر ومن الرابع ، كفاتشي واصدقاؤه . أم غابو وجيل وسيدراك ؟

« كيف أغرم كفاتشي و ليدي هارفي كل منهما بالآخر »

مرت عدة أيام بعد أن هدمت سوزانكا الصغيرة مملكة الحريم لدى كفاتشي . قِيم كفاتشي الوضع وزانه — مضى في ذلك اليوم إلى تانيا . لكن تانيا لم تستقبله . لكنه لبث واقفاً أمام بابها إلى أن اشفت عليه وفتحت له الباب .

— ماذا تريدون ؟ انا لم أعد أعرفكم . . . لقد انتهى كل شيء فيما بيننا .

بدأ كفاتشي كعادته يقسم الايمان ، يتوسل ، يزجي الوعود ، يستعرض الماضي . . . الخ فقد كان يعرف جيداً ان خصامه مع تانيا يجب أن ينتهي دوماً كما انتهى في المرات السابقة :

طبي الماضي ، حلف ايمان جديدة . وكان يعرف أيضاً ان أفضل وسيط بين العاشقين المتخاصمين هو الفراش الوثير الدافئ .

لذا انتهى هذا الخصام أيضاً بالفراش . ومن جديد أصبح الاعتماد المالي مفتوحاً أمام كفاتشي ، وفي اليوم التالي عادت السيدة « لياوش » من تلقاء نفسها إليه ولم يعان في البحث عن البقية .

ذاق كفاتشي وخبر عادات وذوق الأوروبيين وكيف يحتفل الأوروبي صاحب الأموال باستعراض ممتلكاته ويتبجح بها أمام النساء :

كان يملك فندقاً في باريس ، « فيلا » فخمة في بيارتيس . يختأ في نيس ، عربية — صالة في المحطة ، ثلاث سيارات في الكراج ، خيولاً في الاسطبل ودفتر الشيكات في جيبه .

كان يتنزه في ذلك الصيف في « تروفيل » . خرج مساء إلى « البلاج »

حيث تعرض النساء السابحات في ذلك الوقت أجسادهن العارية .
تفحص هذا المعرض بعين المشتري ، دغدغ قلبه واشبع عينيه بهذا
المنظر النادر الفريد . نساء من كافة الأجناس والقبائل جنن يلقين على
الشاطئ ، بأجسادهن التي تكاد لا تغطي مختلف الأقمشة شيئاً منها .

انجليزيات طويلات ، منتصبات ، حمراوات ، نحيفات وغير
ممتلئات . هولنديات ممتلئات كالأوزات ، ذات أكثاف وأوراك
عريضة . اسكندنافيات والمانيات هيف بيض متباهيات ، اسبانيات
لدنات ممشوقات القوام خفيفات شائحات سمراوات بلون البرونز ،
إيطاليات مختلفات في القامة واللون . وفرنسيات نشيطات ذوات دلّ
وغنّج ، مياسات ورشقيات متوقدات وهائجات ، غزالات وبهجات ،
خفترات وجريئات ، طويلات وقصيرات ، ممتلئات ونحيفات ،
شقراوات وسمراوات « عذراوات » وسيدات ، « مس » و « مسز »
« سيستريس » و « دونا » ومن شتى الأعراق والقوميات .

وفجأة ظهرت ، هناك من بين الأمواج الحورية — أفروديت
بلون الزبد ، ابنة المحيط الرائعة الفاتنة الساحرة : شجرة سرو ، لدنة
مرتفعة النهدين ضخمة الوركين دقيقة الخصر . كغصن البان ، جيداء ،
شقراء الشعر ، مائلة للحمرة ، زرقاء العينين . لم تلاحظ هذه الحورية
كفاتشي . نزلت هناك عند أطراف الماء وألقت يديها البيضاء وراء
عنقها ، تثنت وتمددت بلذة .

— يا إلهي القدير ! — صاح كفاتشي مخاطباً نفسه — وفي الحان
تحرق رغبة . ارتبك تضرع وجهه . . . هاهي أفروديت قد ولدت
حية من جديد ، أنها الحجر الكريم لهذا العالم ! هذه امرأة ! ساعدني

يارب ! أعني. ياإلهي وبعدئذ أكون خادماً ، أقسم أيها الرب العظيم أن أشيد لك كنيسة أشعل فيها للأبد شمعة لا تنجو . اثناء ذلك التفتت الحورية . نظرت إليه بعينيها الزرقاوين الواسعتين وفتحت أبواب السماء لكفاتشي عبر عينيها . وابتسامتها الساحرة وأسنانها اللؤلؤية . أحرقته وحولته إلى رماد . ثم أغمضت عينيها فجأة ، مدت عنقها وبعده بفترات غزالية وثبت إلى « الكاين » وهي تضحك ضحكات فضية .

بعد ساعة انتقل كفاتشي إلى الفندق الذي تقيم فيه تلك « الأفروديت » . دس في يد البواب قطعة ذهبية واستفسر بالتفصيل عن ربة الجمال

— الليدي هارفي — أجاب البواب — أرملة اللورد هارفي الذي مزقه الغام الماضي نمر البنغال في الهند أثناء الصيد . تحب الليدي السباحة واللعب بالروليت ولحم العجل المقلي وصيد السمك والأزهار وأمثلة من الرجال السمر .

أمضى كفاتشي الليلة كلها في الكازينو يحوم حول الليدي هارفي . كان الروليت يدور كالذهب ومشرف لعبة القمار يكرر أعماله المألوفة . يجزف المحاسبون بقضيب صغير الأموال المكتسبة ثم يوزعونها . يتسم الرابحون ويكفهر الخاسرون وكلهم — بعضهم بشكل خفي والبعض الآخر بشكل واضح — يضطرب ، يشتعل حماسة ويوتجف . كان يقف إلى جانب الليدي هارفي مرافقتها « مس غوبكينين » ورجل نحيف أغطش (١) صارم ، كهل يدعى (تسبرر) وشاب أشقر يقارب العشرين من عمره ، ناعم كالمرأة خجول ، مطيع ، منفوخ ، ساذج كسمكة رنكة صغيرة .

(١). اغطش : شبيه بالأعشى . — ضحيف البصر .

لم يرفع الرجال أعينهم عن « الليدي » . مشوا وراءها كظلها
لأجسين شفاههن مدغدغن قلوبهم . ممتعين أعينهم .

خسرت الليدي هارفي مايقارب الألفين وخسر كفانشي ثلاثة
أضعافها . ومن وقت لآخر . كان الشاب المخنث يخرج من جيبه
الجانيب النقود ويضعها في يد « الليدي » صامتاً . تصعق « مس غويكينس »
وتقطب الليدي هارفي جيبها الرباني وهي بالإضافة إلى ذلك لم تسمح
لأحد بالاقتراب منها إلا لذلك الغلام المنفوخ .

أخيراً ننت عنقها البجمي ، أضاءت . كل شيء بنور سماوي ،
رفعت ذيل ثوبها الحريري وخرجت من القاعة سابحة بخطواتها
المتماوجة ، ساحبة معها الضحكات والعيون الزيتية ورغبات الرجال .

تعقبها كفانشي وأوصى البواب :

— أحمل ا « الليدي هارفي » سلة من أجمل الزهور . وأرفقها
بهذه . — وقدم إليه بطاقة تعريف . في اليوم التالي تلقى كفانشي على
طبق فضي بطاقة صغيرة موشاة بالأطلس . كتب على أحد وجهيها :
« أشكرك » ، أحب الزهور كثيراً أثناء السفر ، لا تبحث عني !
وعلى الوجه الآخر كان عنوانها مطبوعاً : ليدي إليزابيث هارفي .
لندن ، وست ليند . تشيرونغ — روس / ٢٧٦ .

« ماذا ؟ لا تبحث عندما تقول النساء لا تبحث ، يعني العكس .:

يجب ان تتبعها وتبحث عنها

يايسو ! أعرفوا حالاً إلى أين سافرت ؟ ومتى ؟ استرخ ! هنا
رتب الأمر لاتتلكأ . . هل سافرت إلى الهافر على السفينة ؟ جسنأ لعلها

تقصّد لندن . ييسو أسرع واستأجر زورقاً نارياً . الطقس مناسب .
سأتمكن من اللحاق بها هنا أو أصل إلى البانخرة التي ستتوجه إلى
« انكلترا » .

استقلوا زورقاً كبيراً وتوجهوا إلى المافر . عندما اقتربوا تجاوزت
السفينة الكبيرة الزورق .

شاهد كفاتشي « الليدي هارفي » على ظهر السفينة ممسكة بالحاجز .
عرفته فابتسمت ولوحت له بمنديلها طويلاً .

اندهف كفاتشي إلى صاحب الزورق :

— إلى أين تسافر هذه السفينة ؟

— ستجتاز فرنسا والبرتغال ، ثم تتمخر بمحاذاة الشواطئ الإسبانية
حتى تصل إلى مرسيليا .

— هل تستطيع اللحاق بها ؟

— عن طريق السكة الحديدية في « برست » أو « سان نازار »
هذا فيما لو توفّر قطار سريع .

بعد ساعة كان كفاتشي مستقلاً قطاراً مستأجراً ذا عربة واحدة
راكضاً وراء أسيرته الحديدية القارة . فما للقطار البخاري جناحان
صغيران . كانت القطر العادية ترتاح في المحطات مفسحة الطريق
لكفاتشي المندفع .

طوى القطار « لوان » « لي مان » « انجي » « نانت » وفي الصباح
الباكر أشرفوا على « سان نازار » .

: — هل وصلت سفينة « بوردو » ؟

— سترحل بعد ساعة .

— الحمد لله . أسرع يا بيسو !

بعد ساعتين وعندما دخلت السفينة المحيط كانت الليدي هارفي على سطح السفينة الأعلى تتألق كشمس ثانية . وقف كفاتشي أمامها حائلاً رأسه :

— سيدتي أرجو المذرة والعطف . لقد كتبتم لي ألا أبحث عنكم ، وأنا لم أنفذ أول أمر لكم :

بدأت السيدة المستغربة مذهولة وكأن لسانها قد قطع :

— كيف ؟ من أين ؟ عندما خرجت هذه السفينة من الهافر كنتم في الطريق إليها .

— لقد لحقت بكم بقطار خاص مستأجر ، سيدتي ! لو أمرني أن ألقى بنفسي في الماء لكان أهون علي أن أوافقك من أن أفقدك .

سحر كفاتشي القلب الانجليزي البارد وأغرقه بفروسيته وولعه . على الحدود الفرنسية — الإسبانية في مدينة بيارتيس في منطقة الباسك غادر الاثنان الباخرة .

قبل أن ترسو الباخرة في الميناء أراها كفاتشي بالمنظار « الفيلا » المغربية الطراز ، الرائعة ، المعلقة على قمة صخرية وسألها :

— هل أعجبتم سيدتي ؟

— إنها رائعة ، الحياة ستكون جنة على مثل هذا الارتفاع والحديقة هناك واسعة . لو كانت شاغرة لاستأجرتها !

— هي شاعرة لكم سيدتي . إنها فيلتي ! انحنوني الشرف ،
هبوني السعادة !

— لك ؟ حقاً ؟ لوعشت فيها لحقت رغبة كبيرة لدى ... لكن ..
حدهن كفاتشي الأمر :

— لاهتمي سيدتي ، سأسكن في فيلا أخرى .

اتفقاً . ضارّت الليدي هارفي في الشتاء السابعة من الفرح .

تنعم الاثنان نهاراً وإيلاً ، عاشا بمرح وبجوحة . مرة يمضيان
إلى « البلاج » ويسبحان ، ومنزة يخرجان إلى أصمق المحيط في زورق
ناري ، وتارة يسافران إلى « بايون » أو يسافران في السيارة ويصعدان
إلى سلسلة « البرنيه » ، وكثيراً ما أمضيا اليوم بكامله هناك يقضيان
الوقت بين الباسكيين .

ذات مرة أجاب أحد الباسكيين ، صاحب المقهى ، الليدي
هارفي قائلاً :

— نحن من أقدم الشعوب في أوروبا نحن ايبيريون (١) .

— ايبيريون ؟ أنا أيضاً ايبيري جورجى — قال كفاتشي مستغرباً .

حديق كل منهما في الآخر ، تبادلوا النظر طويلاً . سأل كل منهما
الآخر كثيراً ، قارنا بين لغتيهما ، تطابقت بعض الكلمات لكنهما مع
ذلك لم يتقاربا ولم يتأخيا .

فهم كفاتشي شيئاً واحداً هو أن الباسكيين كانوا يوماً ما بحارة

(١) ايبيريا : اسم اطلق على شبه جزيرة اسبانيا والبرتغال .

أشداء وقراصنة ، وأنهم اكتشفوا المحيط المتجمد كما كانوا يشكلون
دواة قوية ولم يخضعوا ابداً للرومان أو الاسبان . كما كانوا يشعلون
نار الانتفاضة من وقت لآخر في سلسلة البرينيه ويروونها بدماء الحرية .
وحتى الآن مازال تعليم واستعمال اللغة الباسكية ممنوعاً . كل فرد
من الباسك يفخر ويعتز بدمه وحبه للحرية . لم تعرف الرقبة الباسكية
الفخورة نير العبودية أبداً . يقارب عددهم المليون شخص ، هاجر
الكثير منهم إلى المكسيك وكوبا والأرجنتين في سبيل لقمة العيش .
لاحظ كفاتشي أيضاً أن الباسكيين أقوى وأجمل وأسرع من الفرنسيين
والاسبان ، يحلقون ذقونهم كاملاً ، يرتدون قبعات حمراء وزرقاء
ونطاقاً و « أرخالوك » (١) قصيراً . يحبون كثيراً لعبة السيف . والرس
والرقص والأغاني والتجمعات الشعبية ، واللهو . تعتبر النساء عندهم
معيلات يؤدين أعمالاً شاقة جداً .

اهتز شيء ما في قلب كفاتشي ، وغلت فيه دماء بعيدة خفية ،
شعر بلدقيقة بالقرابة والتقارب والوحدة الروحية مع ذلك الشعب ، لكن
تلك الشعلة جمدت في الحال . ثم نسي كل شيء لأنه كان يهمل أمام
الليدي هارفي الفخورة . ارتبك ، أجس بالاحراج ثم لم يكن لديه
آنذاك وقت للتفكير في ذلك .

كان كفاتشي والليدي يتنزهان كل مساء في الغابات والحدائق ،
يستمعان إلى الحفلات الموسيقية ثم يتناولان طعام العشاء في الكازينو
مرة وفي سواه مرة أخرى وتعلقا بالروايت ، يربحان القليل ويخسران
لكثير .

(١) أرخالوك : الجزء العلوي من اللباس الرجالي للباسك .

أضنى قابُ الليدي المتجمد كفاتشي فنحف وذاب قلبه المنتهب
وذبل .

ذات مرة ، وبعد العشاء ، احتضن كفاتشي الليدي المنتشية قليلاً
في بمشي حديقته المظلم وضمها إلى صدره . اشتعلا مرة أخرى ثم
تحولا إلى رماد في نار الشهوة .

ارتعى كفاتشي على أقدام الليدي ، رجاها ، توسل إليها وهو يغم
ساقها إلى صدره ويستقيهما بدموعه .

قفزت الليدي من بين يديه ضاحكة وهربت داخل البيت .
دار كفاتشي المتكرر في المشى المظلم ، دق على صدره بقبضة
يده ثم تمتم :

-- هكذا ، حسناً أنا أعرف الآن . . أنا أعرف . .

عندما اطفىء الضوء في غرفة نوم الليدي صعد إلى الشرفة دونما
ضجة وفتح النافذة التي كانت مفتوحة ليلاً .

— أيها الأمير . . فرانس . . جنتلمان . . ماذا تفعلون ! ثوبوا
إلى رشدكم . . سأصبح . . آنسة « غابكينس » . . آنسة « غا . . . » .
أجبر كفاتشي الليدي الخائفة على الصمت بشفيته ، احتضنها
وداعها .

بعد خمس دقائق سمعت خلف الباب أصوات خطوات مس
غابكينس وصوتها الوسنان :

— سيدتي . . سيدة هارفي . . هل ناديتموني ؟ انبحثون عن شيء ؟
بصعوبة بالغة تمكنت الليدي هارفي المتقطعة الانفاس من ان تجيب
مرافقتها بهمس متقطع :

.. لاشيء ، مس .. لاشيء .. وجلتها .. وجلتها ..

— انتم وجلتم وأنا أيضاً لم أبق فارغ اليدين ! همس كفانشي في اذن الليدي ضاحكاً بصوت خافت .

— تس .. سن .. أصمت أيها المجنون ! — وأرغمته بدورها على الصمت بشفتيها الملتهبتين متحولة جذرياً وكتمت انفاسه يديها الطويلتين القويتين وكادت ان تقطع أوداج الأمير الذي بذل جهداً في المحافظة على هدوئه .

ثلاثة أيام بلياليها لم ير أحد الأمير أو الليدي هارفي في الكازينو أو على الشاطئ أو في الغابة أو في الحدائق .

أهدى كفانشي السعيد السيدة المنهكة من الحب المفرط « الفيللا المغربية الطراز » عرفاناً بالجميل وزين صدرها المرمرى العارم بعقد من اللؤلؤ بحجم الجوزة .

ثم تملك الاثنين جنون النشوة والشيق والحب . لم يستطيعا الاستقرار في أي مكان وتهدئة دماهما المسعورة . كانا يهرعان مرة في الأسبوع على الأقل إلى المحطة ينتقلان تحت تأثير نار مشبوبة بين أماكن الاصطيف في كافة أنحاء أوروبا .

عن « تدبير » أحد الأعمال الكبرى

كازينو « مونت كارلو » مضاء بشكل ساطع . كل شيء يبرق ، يشتعل ويلمع : الذهب ، البرونز ، الفضة ، المرمر ، اللوحات الثمينة ، غوبلين (١) . السجاد ، الديباج ، المخمل والأطلس .

(١) غوبلين : نوع من السجج المشجر .

في تلك الصالات يحوم القادمون من كافة أنحاء العالم كالذباب ،
 كي يجربوا جظهم . تسمع مائة لغة وترى مائة قبيلة : روس شماليون
 شقر ، اسكندنافيون ، المان ، أنجليز رشيقون وحارون ، فرنسيون
 سمر ، إيطاليون واسبانيون ، أمريكيون بكرماء جافون وحازمون ،
 مكسيكيون وبرازيليون حارون ، ثائرون عصبينون ، خلاسيون مهجنون ،
 عريب وأتراك ، فرس وهنود ، صينيون ويابانيون ، آسيا وأوروبا ،
 أمريكا وأفريقيا — كلهم اجتمعوا هنا يديرون دولاب الحظ محاولين
 الاثراء والغنى الفاحش

يتراءى الريح والخسارة على وجوه الجميع . يتشم البعض ابتسامة
 الغبطة ، يمرحون ويضحكون بلا اكتراث ، ويندب الآخرون خسارتهم ،
 يقطنون ويكتبون ، ويفلس بعضهم ويسقطون مستسلمين لليأس الكامل
 ويتسولون . وأحياناً يسقون بدمائهم الحديقة الاسطورية .

اغتاد البعض ارتياد « قصر الدموع والخظ » وشاخوا تحت زحمتهم .
 وهم يفهمون سر اللعبة وتوصلوا إلى أبواب الريح واكتشفوا طريقة
 الاثراء وأصبحوا يمسكون بأيديهم المفتاح الخفي — الحساب التفاضلي .
 الصيغ الرياضية المنونة على عشرات الصفحات . هي الطريقة الصحيحة
 المعصومة التي لاتخطئ وهي تولدة لخسارة بأموال طافلة وملاحظة
 دقيقة طوال خمس أو عشرات السنين .

إذا شئتم الريح ثقوا بهؤلاء الناس :

دفع بسيط والريح لكم . حين تبيع اعطه قسطاً أو قدم له
 بضعة مئات من الفرنكات ثمناً لزواج من الأحذية وثياب داخلية .

وهم لا يطلبون الكثير.. المطلوب جوهراً أهون من الدخول إلى هذا الكازينو دون أموال.. معقولة..

.. ثياب نظيفة للغاية.. « لباقة فائقة.. احترام مطلق — هذا ماتطلبه إدارة الكازينو. من أولئك الناس لقاء الدخول المجاني إلى ذلك القصر.. جرب كفاتشي والليدي هارفي حظهما أيضاً كل ليلة في ذلك الكازينو. مرة يقبلون على « ترانت كاراش » أو « روج نوار » أو « بي تفو » وبقية الألعاب الأخرى..

نفد صبر الليدي هارفي حيال هذه اللعبة منذ زمن.. لكن كفاتشي ساعدها.. مع ذلك لم يتمكنّا من التحكم بالخط واستعادة الخسارة وغاصا في اللعبة تدريجياً.. لعبا أحياناً وحدهما وأحياناً أخرى بمساعدة اللاعبين المفلسين ويوماً عن يوم إزداداً تلاشياً وهلاكاً..

.. وذابت مرة أعيد. « شيك » كفاتشي من البنك : رصيدك قد أنتهى.. اغتم كفاتشي ، اغتم كثيراً..

.. — نيسو ، سافر هذا اليوم إلى « اكسيلين » ، بع فيلي خلال أسبوع.. وعد إلى..

ماذا قلت ؟ أعلم ليس ثمة من طريق آخر..

أحضر نيسو الأموال ونقدها كفاتشي جميعها لمشرف القمار..

.. — نيسو ، سافر اليوم إلى باريس.. بع فندقتي خلال أسبوع ثم عد إلى ، حسناً ، حسناً أنا أعلم أنني أسير في سبيل الهلاك.. ليس ثمة طريق آخر.. لا تخف ريشما تعود سأحضر عملاً آخر..

أثناء تلك الفترة قدم من لندن أخ الليدي هارفي اللورد بروكستون لمدة أسبوعين ، وهو شاب أنيق يحب للحياة ثري وجنتلمان أصيل .
 . . أعجب اللورد وكفاتشي كل منهما بالآخر . خلال اسبوعين
 تمكننا من « نكش » نيس ومونت كارلو . ادهشا السكان المحليين .
 ربعا قليلاً وخسرا مائة ضعف ماربجاه .

أخيراً قال اللورد لكفاتشي :

— فرانس ضيفتي في لندن .

— أول رايت ثنكيو . (حسناً أشكرك) .

— أنسافر معاً ؟

— يس (نعم) . ييسو جهاز كل شيء .

وصلوا إلى باريس . دعا كفاتشي الأخ والأخت إلى فندقه الذي
 لم يعد يخصه إنما لم ينفذ إخلاءه بعد .

مكثوا عنده عدة أيام . ومرة أخرى اثبت كفاتشي جسارته
 وأدهش ضيفيه بقصره الرائع وريشته وكثرة الخدم وبنفذه الارستقراطي
 الحقيقي وذوقه وأسلوبه .

أعطى كفاتشي قبيل السفر أمراً سرياً لـ لادي تشيكنيجلادزي .
 أرسل ييسو وثلاثة من الخدم إلى لندن مع الكثير من الأمتعة ، واصطحب
 كفاتشي أربعة آخرين من الخدم .

حين نزلوا من السفينة في الهافر استقبلهم ييسو بقطار خاص .

قال اللورد بروكستون مؤثماً :

— فرانس ، أنتم تتحملون نفقات باهظة .

— من أجل اصدقائي هذه النفقات الباهظة زهيدة !

— أنت ضيفنا !

— ستجذب عن هذا في لندن .

جهاز بيسو لكفاتيبي سبع غرف في فندق « استوريا » مع سيارة وعربة خيل ومندوبين .

في اليوم التالي نشرت الجرائد خبر قطار كفاتيبي : « وصل إلى بريطانيا حفيد الملك الأمير القفقاسي . . صديق انكلترا الكبير نصير الصداقة الروسية الانجليزية ترافقه حاشية مثالفة . . استقر الأمير في « استوريا » . . حجز سبع غرف . . . الصديق الشخصي للورد « بروكستون » . . .

في اليوم التالي اصطحب اللورد بروكستون واليدي هارفي كفاتيبي لكي يلقي نظرة على لندن .

أرياه « البكاديلي » « وست إند » « ترانفالغارف » « تشيرنغ كروث » « سان جيمس » « غاوبز » « واتراو » معبد « بافل » وكثيراً من الأماكن المدهشة .

في « وستمينستر » استقبل المتحدث باسم القصر كفاتيبي وفي المتحف البريطاني استقبله الأمين الأول للمتحف ، وفي إدارة الأسطول البريطاني استقبله القائد العظيم .

وفي ذلك المساء : أقام اللورد « بروكستون » مأدبة عشاء على شرف كفاتشي .

وفي اليوم التالي دعي كفاتشي إلى « الينخت كاوب » . وفي اليوم الثالث دعي إلى النادي الرياضي ، ثم بدؤوا يجرّونه نحو اليمين والشمال ولم يتركوا له فرصة للراحة .

بعد أسبوعين شكر كفاتشي الجميع فأقام حفلة أسطورية مازال الضيوف يذكرون حتى الآن إبهتها وجمالها ومشاهدها الفريدة .

حضر ذلك العشاء مايزيد على ثلاثمائة ضيف شخصيات لندن المختارة ، اللوردات ، الكونتات ، الدوقات ، الراجات الهنود ، وأصحاب المعامل وكثيرون آخرون من أصحاب رؤوس الأموال ومشاهير الشخصيات وأصحاب المناصب العالية

شاركت في العزف ثلاث من أفضل الفرق الموسيقية ، وعضى مشاهير المطربين المدعويين من مختلف الأرجاء : كارورو ، باتيستيني ، نيلي ، ميليا ، مارباغاي ، تيتوروفو .

اتخذ الفن الشرقي والغربي ، امتزج الاسلوبان لتسليه وترفيه ضيوف كفاتشي .

في اليوم التالي تحدث الناس في كافة أرجاء لندن ووسائل الاعلام عن الحفلة — وهذا ماأراده كفاتشي .

بعد أن وصل كفاتشي إلى لندن تلقى في اليوم التالي من باريس آخر عشرة الآلاف جنيهه استرليني عن طريق البريد ، وفي اليوم نفسه أرسل بيسو هذا المبلغ من جديد إلى تشيكينينجيلادزي في باريس

في اليوم الثالث والرابع وصلت النقود من باريس إلى لندن ثم عادت من لندن إلى باريس عن طريق البريد .

اختار بيسو المدرب جيداً الوقت المناسب وقدم البرقية التي تنص على وصول الأموال إلى سيده الأمير « باغراتيوني » أثناء وجود ضيوف لديه .

اغتنز كفاتشي من ضيوفه :

— مستر ، عنراً ، يبدو . . . برقية عاجلة

ثم أعطى الأمر لبيسو :

— أقبض حالا هذه العشرة آلاف جنيه استرليني . وأبعث فوراً بأربعين ألف إلى مدير أعمالني في تفليس . . وجه أمراً إلى مدير مصرفي في باريس ليدفع إلى سكرتيري الخاص الأمير « ترويتسكي » مليون فرنك شهرياً ، وأخبر رئيس مكنتي في بطرسبورغ ان عليهم تسيير كل أموري بأنفسهم . لا أريد ان يزعجوني ، لقد مللت !

— يخت سموكم قادم إلى لندن .

— حسناً . .

— مكتب تفليس ينشأكم عن المبلغ الذي يمكنه إنفاقه على الأعمال البلغارية شهرياً ؟

— ثلاثمائة ألف روبل .

— ثمة برقية أخرى : الكونت اوزاروف موافق على السعر الذي اقترحتتموه — بثلاثة ملايين روبل يبيعك مناجم اللغيب في سيبيريا .

٠ — أنا موافق أرسل برقية للمكتب الرئيسي . كل شيء آخر
فيما بعد . . مرة أخرى اعلروني أيها الأصدقاء الاعزاء . قطعوا حديثنا
في وقت غير مناسب .

كثيراً ما يلجأ كفاتشي ويسو إلى مثل هذا الحوار أو إلى ما شابهه
بحضور لوردات مشهورين أو صيارفة .

كان يعلم كفاتشي جيداً ان حديثه العملي مع ويسو أمام رجال الأعمال
سيثير الفضول ويؤدي غايته كما كان عليه يعلم ايضاً ان الضيوف
لن يسخطوا على كفاتشي بل سيبتسمون ويقولون :

فوالا ان برنس ايترانجي (هوذا أمير أجنبي) .

أما صديقه اللورد بروكستون فكان يبرر سلوكه قائلاً :

— لكل قوم عاداتهم الخاصة !

ماذا يقصد كفاتشي بأعماله . لأحد يدري :

مضى اسبوعان على العشاء الشهير الذي لم ينس حتى الآن .

كان كفاتشي يتصفح جريدة الصباح ، فلاحظ فجأة خبراً مطبوعاً
بخط عريض يقول : « بدأ اضراب عمال البريد في باريس » . قدف
الجريدة فوراً ثم استغرق في التفكير . ارتجف طويلاً تحت تأثير
حرارة وحمل الابداع ، ثم خط شيئاً ما بقلمه ونادى ويسو :

— هاك لائحة بأسماء معارفي واصدقائي اللندنيين . أرسل رسالة

كهنه . خلال يوم واحد يجب ان أتلقى جواباً من الجميع . إقرأ . . .

فهمت ؟ — ابتسم ويسو — فهمت يا ويسو ؟ .

— حسناً — قال باقتضاب وخرج .

كانت الحطة في غاية البساطة .

في اليوم التالي تلقى مايقارب ستون شخصاً من اللوردات والوزراء والصارفة مثل هذه الرسالة : « أيها اللورد المحترم / أو « مستر » أو « مسز » / علي أن ارسل غداً مبلغاً ضخماً إلى مكنتي الرئيسي في بطرسبورغ لتغطية نفقات لايمكن تأجيلها . قسم كبير منه بين يدي والباقي طلبته من مكنتي في باريس .

لكنني عرفت من صحافة اليوم خبراً مزعجاً جداً : البريد والبرق معطل في فرنسا بسبب الاضراب . هذا الظرف أخلّ بحساباتي وأعاق عملياتي المادية العادية . هذا شيء ، من المؤكد انكم علمتم ان البريد الانجليزي قد يضرب غداً أو بعد غد .

الظروف المشار إليها ترغمني أيها اللورد المحترم / أو « مستر » أو « سير » / على استغلال كرمكم وحسن ضيافتكم وثقتكم وصدافتكم . خمسة آلاف استرليني / وقد كتب للبعض ثلاثة آلاف وللبعض الآخر ألفين وكتب ألفاً واحداً لبعض آخر منهم / قد تنقذني من ورطتي . على أية حال أرسل اليكم حوالة لمدة عشرة أيام . سأبعث اليوم أحد السكرتيرين العاملين لدي إلى باريس لاحضار الاموال خوفاً من ان يطول الاضراب .

وأنا منذ الآن انتظر الفرصة المناسبة لرد جميلكم وحسن ضيافتكم . أرسل اليكم سلفاً أيها اللورد العزيز / أو « مستر » أو « سير » / شكري العميق لمساعدتكم واعتذاري اذا كنت مضطراً لازعاجكم .

تقبلوا مني تحياتي الخالصة واحترامي العميق .
أراكلي باغراتيوني — مهرانيسكي — الأمير ياور
امبراطور كل روسيا .

تحققت خطة كفاتشي كاملة . لم يتمكنوا من ايجاد عناوين عشرة
في ذلك اليوم ، والباقون سلمت الرسائل إليهم باليد وتلقوا الأموال
من كل مكان تقريباً . قابله اللورد بروكستون شخصياً وأمر له بضعف
ماطلبه . وأيضاً الليدي هارفي بعد ان علمت بمصاعب كفاتشي رهنه
كافة المجوهرات التي كان اهداها إليها سابقاً . بل ورهنه كافة
ممتلكاتها العائلية . اتصلت به هاتفياً وطلبت منه المحيء إليها ودست
إليه بالإكراه الأموال التي قبضتها وأضافت إليها بسخاء ملاطفاتها
الحارة وحبها .

أننى لـ « الليدي » المسكينة أن تعرف ان هذا هو الجنون الأخير !
في ذلك المساء جلس كفاتشي ويسو وخصصا ساعتين لإحصاء
النقود ، ثم رتباها وطلبا سيارة .
قال ويسو لمدير الفندق :

— سعادته مسافر إلى « برمنغهام » ليتفحص ويشترى معدات
لمعامل عدة . سنعود بعد غد . سنترك الغرف على أسمنا (محجوزة) .
وكنا السيارة ومضيا . عبر شوارع لندن الضيقة وعبر نهر التايمز
ثم ركبا البحر .

وفي اليوم التالي وجد كفاتشي ويسو نفسيهما في « انتورين »
بدلاً برمنغهام . . .

« عن مستشفى المجانين ، عن المبارزة ، عن الفيلم السينمائي ،
وعن اعمال بطولية أخرى »

بعد كل ذلك جرى كفاتشي كفاتشا نيرادزه ورمح عبر أرجاء
الأرض تحت عشرات الأسماء هو الأمير « باغراتيوني » مرة ، والأمير
ابن الأمير الأفغاني مرة أخرى ، وتارة الكونت « تيشكيفنش » وتارة
أخرى الأمير الفارسي « كاجار » .

من يقدر ، من يصف مهارة يدي كفاتشي ؟ كثرة الأشكال التي
يظهر بها ! اناقة وطرافة أعماه !

وجد في نيويورك امرأة مناسبة له عقلاً وتجربة . بدأ بتمارين
صغيرة . —

دخل كفاتشي أحد المحلات ليشتري ماساً . اختار خمسة احجار
الواحدة منها بحجم الجوزة راح يتفحصها وينقلها من يد إلى
يد . أثناء ذلك دخلت مساعدته الجديدة وبدأت تتحدث مع صاحب
المحل . أفلت كفاتشي إحدى قطع الماس بخفة ، ارتمت بلطف على
السجادة بحيث لم يسمع أحد لها صوتاً . غيرت المرأة وقفها بحيث
وضعت رجلها فوق الماسة ثم أنهت حديثها وخرجت حاملة معها الماسة
التي علقت بنعل حذاءها .

لاحظ البائع فقدان الحجر الثمين ونظر شزراً إلى كفاتشي .
استاء كفاتشي كثيراً وطلب تفتيشه . اقتادوه إلى خرفة أخرى ، عروه
من ملابسه ثم اعتدروا منه ورافقوه إلى السيارة وكالدواء وضعوا عدة
آلاف من الدولارات على الصدر الأيسر ليشفى ذلك المكان حيث شعر
كفاتشي بالألم في صميم كبريائه ثم مزقوا الادعاء وقدفوا به أرضاً .

في « انتوربين » مدينة الألباس أرسل كفاتشي صديقه إلى مشفى
للمجانين مشاد حديثاً .

— أتعرفون « مسيوفيرمي » ؟ سألت المرأة مدير مشفى المجانين .

— للأسف لا أعرفه فأنا جئت حديثاً إلى « انتوربين » .

— « فيرمي » أبي . لقد جن المسكين ، طوال الوقت يفكر
بالألباس واللؤلؤ ويهذي . لديه حقبة صغيرة لاتفارق يديه يظن أنها
ملأى بالألباس . أحياناً تسوء حالته فنضطر لاستخدام القوة لتهديته .
يجب أن تستقبلوه في مشفاكم .

— بكل رحابة صدر ايها السيدة !

— أخذ مني كل المجوهرات التي أملكها ووضعها في تلك الحقبة .
يقول إنه سيفتتح عملاً تجارياً . أنبهكم سلفاً أنه سيقاوم كثيراً عندما
ستحاولون أخذ تلك الحقبة ، .

— لاشيء ، سنتجاوز ذلك . هل ستحضره بنفسكم ؟

— أجل سأحضره اليوم أو غداً .

ثم جاءت هذه المرأة الماهرة إلى محل « مسيوفيرمي » ، اختارت قرطاً
رائعاً وتاجاً كبيراً وعقداً جميلاً من حبات اللؤلؤ الكبيرة .

— كم ثمنها ؟

— هذا ثمنه مائة ألف وذاك ستون ألفاً وهذا ثمانون .

— تساوما .

— تسعون آخر سعر .

نظرت المرأة إلى الساعة واكتأبت :

اعترف لك ، مسيوفيرمي ان عقد قراني اليوم . اهداني والذي
سبعين ألفاً وفوضني باختيار الهدية . أعجبني هذا العقد كثيراً لكن ينقصني
ألفاً . لن يضمن أبي وسيزيد المبلغ ، لكن أخشى ان أتأخر . ريثما أعود
إلى البيت ويكتب لي الشيك وأذهب إلى المصرف ، يكون المصرف
قد أغلق أبوابه ، لا تملكأ هيا ، أذهب معي .

فكر مسيوفيرمي . غلبه حب الربح .

— حسناً فلنذهب .

— اصطحب القطع الثلاث . ربما اختار والذي القرط أو التاج .
أنا معجبة بالعقد لكن مع ذلك . . من يدري . .

وضع « فيرمي » المجوهرات المختارة في حقيبة صغيرة ثم
استقلا سيارة إلى ذلك المشفى الذي يشبه القصر أكثر مما يشبه مشفى
للمجانين . استقبلوهما بلباقة وابتسامة :

— تفضلاً . . أجلسا . . طقس جميل . . لن تنتظر طويلاً . .

تصرفت المرأة وكأنها في بيتها . أصدرت أوامرها يميناً وشمالاً ،
ثم دخلت مباشرة إلى مكتب المدير .

وبقي مسيوفيرمي منتظراً في غرفة الاستقبال .

— لقد أحضرته . . لقد أحضر معه حقيبة صغيرة وضع فيها
مجوهراتنا . . أحذرك سلفاً سيقاوم ، سيتفوه بترهات ، خلوا منه
تلك الحقيبة .

— لاهتموا ، لقد اعتدنا ذلك . خبرتنا طويلة . خرجت المرأة
والمدير إلى غرفة الاستقبال .

— مسيوفيرمي ، بونجور . . يشرفني التعرف إليك . . تفضل
إلى هنا . . واقتادوا مسيوفيرمي إلى الغرفة الثالثة .

— بابا ، هذه هي أشيائي — ألقت المرأة بكلماتها تلك وأخذت
الحقيبة من فيرمي .

لم يدرك أحد من هو « بابا » هذه المرأة — فيرمي أم الدكتور .
أخاف جو الغرفة والعمال بلباسهم الغريب فيرمي فارتعد وارتبك .
مد يده ليأخذ الحقيبة ، لكن المرأة انزلت من بين يديه وخرجت راكضة
من الغرفة فجري ، « فيرمي » وراءها ، لكن في تلك اللحظة أمسك
ثلاثة رجال طوال اشداء ، متهيئون سافاً لذلك ، بالمعجوز الضعيف
وكأنه ريشة .

— اتركوني ، أيها الأشرار ياقطاع الطرق ! حقيتي ! مجوهراتي .
صرخ فيرمي متنفضاً كالعصفور أولاً الاتجاه نحو الباب .

— اهدؤوا يامسيوفيرمي اهدؤوا ! ألماساتكم لن تضيع . . اهدؤوا ،
نحن لسنا اشراراً ، أنا دكتور ستعارف . نحن . . انتم في المشفى . . ستعافى
قريباً وتعود من جديد إلى أسرتك .

— ماذا ؟ دكتور ؟ مشفى ؟ مشفى المجانين ؟ من المجنون أنا
أم أنتم ؟ آه لقد فهمت لقد هلكت ! . . يالشقاء الأسرة المنكوبة !
ساعدني ياإلهي دعوني . . ساعدوني ! الماساتي ، مجوهراتي !

— أقول لكم ، اهدؤوا يامسيو فيرمي . مجوهراتك لدى ابنتك !

— ماذا ؟ لدى ابنتي ؟ ماذا تقولون ، بماذا تثرثرون ؟ هذه القذارة
هي ابنتكم أنتم ! .
— ابنتي ؟ ليست لدي ابنة .

— وأنا أيضاً لا ابنة لي . . . إذا . . . إذا — وفجأة فهم كل منهم ،
وكاد أن يفقد عقله فعلاً — والآن هل فهمتم أننا نحن المجنونان الاحمقان
وان هذه اللصة قد خدعتنا نحن الاثنين . . . اقبضوا عليها ، الحقوا بها
اسرعوا ، اسرعوا . أصيب المدير والعاملون بالذعر وتسمروا في
أماكنهم . خلال خمس دقائق شرح فيرمي والمدير كل للآخر ماحدث
له ، ثم اندفعوا نحو الهاتف والشرطة والمخابرات ، لكن بعد فوات الأوان .
لقد اختفى كفاتشي والمرأة وكأن الأرض قد ابتلعتهما .

وفي روما دفعت تلك المرأة أحد التجار ليحضر الكثير من الجواهر
! « خطيبها » و « أبيها » — إلى كفاتشي .
— سيعود الأمير الآن .

كانت الأميرة والتاجر يجلسان في المكتب . فرشت المرأة الاحجار
الكريمة وتفحصتها مرة أخرى . أثناء ذلك أخبر الخادم الأميرة :
— جاء الماركيز « بالافاتشيني » .

— خطيبني ؟ ياإلهي . . . لأريد أن يرى هذه الهدية قبل العرس .
وفي طرفة عين وضعت هذه الاحجار الكريمة في خزانة حديدية مركبة
ضمن الحائط ، ثم دست المفتاح في جيبيها .
— معذرة !

دخل كفاتشي وقبل « خطيبته » باحترام وبدأ يتحدث إليها :

أطل الخادم من جديد :

— أيتها الأميرة ! أبوك يدعوك إليه للدقيقة « واحدة » .

— عفوا سأعود حالاً . . . ثم خرجت .

بعد دقيقتين خرج « المركيز بالافانثيني » — كفاتشي ، وختم على البيت صمت القبور .

مرت عشر دقائق . . خمس عشرة . . عشرون . . نهض التاجر متمللاً ، دار ، ثم تنحنح وسعل مراراً ، ثم خرج إلى الغرفة الثانية . لأحد . نظر في الغرفة الثالثة : أيضاً لأحد .

رجع إلى الغرفة الثانية المتصلة مع الغرفة الأولى حيث انتظر التاجر والمرأة « الماركيز » منذ نصف ساعة خلت .

لاحظ شيئاً واحداً : الخزانة الحائطية في الغرفة الثانية كانت مفتوحة . دقق في تلك الخزانة فأصيب بالرعب واغتم كثيراً . كان باب الخزانة الحديدية الحائطية مفتوحاً ، وهذا الباب يؤدي ويتصل بنفس الخزانة الموجودة في غرفة الاستقبال حيث خبأت المرأة المجوهرات . إذاً وضعت المرأة الجواهر من جهة ليتفقاها كفاتشي من الجهة الثانية ! تنف التاجر المذعور ، وقد فقد وعيه ، شعر رأسه وجرى عبر الغرف الخالية وهو يصرخ :

— الشرطي . . ساعدوني . . سرقوني . . نهبوني !

واختفى كفاتشي وخطيبته مرة أخرى وكأن الأرض قد ابتلعتهما . وفي فيينا استهدف كفاتشي أحد الأغنياء اليهود — البارونات . صدم كفاتشي في النادي ، ذلك اليهودي بيده بخفة وبدأ هو بالصراخ :

— كن حذراً ! . . قليل الترية . . سافل !

— عفوا . . أنا . . أنا . .

لم يترك كفائشي مجالاً له للكلام ولطمه بأصبعيه على ذقنه بشكل خفيف .

حدثت مشادة وشغب انتهى بتبادل البارون وكفائشي عنوايهما .
في صباح اليوم التالي ذهب شاهدا المباراة « بيسو » و « تشيبي نيرادزي » إلى ذلك اليهودي وأعلنا :

— لن ينتهي الموضوع بلاماء — ثم اضافا بشكل عرضي —
لاستعجلوا أيها البارون، لاتعينوا الآن شاهدي المباراة . . انظروا إلى
الغد . . الأمير الأفغاني رام شهير . . يصيب الذبابة الطائرة . . ان
شتم تستطيعون التأكد من ذلك بنفسكم . في الساعة الخامسة تماماً من
هذا اليوم سيكون الأمير في ميدان الرماية « براتيرا » . أرسلوا أحداً ما
ليرى . .

سنأتي هذا المساء أيضاً . . سنتحدث، يمكن حقن الدماء طبعاً
إذا كنتم موافقين على . .
— لابد من المباراة .

— نعم ستقام المباراة بكل تأكيد ، اكن يمكن ان يتم الأمر
دون سفك دماء . . فكروا سنأتي مساء . . إلى اللقاء !

من الساعة الخامسة وحتى السادسة خرب كفائشي وثقّب ذلك
الميدان بطلقات المسدس وتأكد الرجل المرسل من قبل البارون ان
الأمير الافغاني لا يخطيء الذبابة الطائرة فعلاً .

— يعطي الأمير كلمة الشرف الأميرية — قال ييسو في ذلك المساء
لذلك اليهودي الثري ، وأقسم باسم سيدنا محمد انه لن يسفك دمك
إذا . . . إذا اتفقنا . ستطلقان طلقتين ثلاثاً في الهواء، ثم تتصالحان بل
وتتصادقان .

— فلندخل في الموضوع ، كم تريدون ؟
— حياتكم غالية . تمتلكون عشرة ملايين يكفينها منها مليون .
— أنا أفضل ان أخفي وأهاجر من فينا اليوم .
— لن تهربوا من العار . سنشهر بكم ونحدث العالم كله عن جبنكم .
— اليهود لا يتبعجون ابداً بالشجاعة ولا يشترى لقب الشجاعة
بشئ غال كهذا .

— لا تنسوا انكم بارون النمسا . نويلاك اوبليج (١) .
— فلننته ، مائة ألف .

— تسعمائة ألف مع الدماء وثمانمائة ألف بلا دماء !
— لم أفهم !

— ستنتهي المباراة بأن يجرح الأمير من قبلكم ، كيف ستهي
ذلك ؟ هذا شأننا .

أعجب البارون بالمبارزة مع الدم .

— إذا كانت المباراة ستنتهي بجرح الأمير ، سأدفع مائتي ألف .
— ثمانمائة ألف .

(١) وردت في النص بنفس اللفظ الانجليزي : لست مرغماً على فعل سوء .

- لن أضيف شيئاً إلى المائتين .
- في هذه الحالة نحن ننتظر شاهدك . إلى اللقاء !
- انتظروا ثلاثمائة ألف ، لآستطيع ان أدفع أكثر . وبشرط أيضاً —
- إذا سال دم الأمير .
- اتفقوا على مبلغ نصف مليون دفع نصفه سلفاً . تبادل كفاتشي والبارون الرأسمالي التصاريح الخطية .
- بعد يومين اثنين ، وفي الصباح الباكر خدش يسو يد كفاتشي قليلاً ، ثم ربط الجرح ربطاً غير محكم واصطحبه إلى غابه « شنبرونسكي » حيث قابلوا البارون وشاهديه .
- لاتبدؤوا ، واحد اثنان . . ثلاثة !
- أطلق البارون وكفاتشي ، كل بمسدسه الواحد باتجاه الآخر . رمى كفاتشي المسدس وأمسك بيده اليمنى يده اليسرى . وإلى أن جاء الدكتور كان كفاتشي قد قطع الرباط .
- لاشيء جرح بسيط . . سيلتئم خلال ثلاثة أيام — قال الطبيب .
- لا شيء جرح بسيط . . سيلتئم خلال ثلاثة أيام — قال الطبيب مطمئناً الجميع .
- انتفخ البارون غروراً وقال بمفاخرآ :
- لقد جرحت الأمير الافغاني . . أصيب في يده . علمته أصول اللياقة . .
- وما يزال البارون يردد ذلك كل دقيقة وحتى هذا التاريخ .

تلقى كفاتشي كامل حسابه في نفس اليوم . اعاد كل منهما
التصريح الآخر وأقاما في نفس النادي مآدبة على شرف الصلح .
مرة أخرى تباهى البارون قائلاً لأصدقائه :

— الحمد لله ، اذ تغابت على صديقي الأمير . أيها الأمير لنشرب
متصاليبي اليبين (١) انت محظوظ . . نعم ، ماذا كنت أقول ..
محظوظ لأنني في البداية صوبت إلى قلبه مباشرة ، لكنني اشفقت على
شاب مثله . . فصوبت على يده واصبتها .

ابتسم كفاتشي وراح يربت من وقت لآخر على كتف البارون
بمودة .

ومضت الأيام ، سرعان ما بذل الأمير الافغاني أمواله . ضاقت
الأحوال بـ « كفاتشي » ، ضاقت كثيراً . تملكته حمى الابداع ، تعذب
كثيراً ، أجهد نفسه كالمراة في حالة الوضع ، ثم خلق حيلة جديدة .

ربط الخيوط في البداية ، ثم جدل الشبكة . وضع كل شيء في مكانه
ثم ذهب إلى مدير أحد المصارف :

— فلتعارف : أنا وكيل « باتي » . علي أن أصور مشهداً للسطو
على أحد المصارف . لماذا نذهب بعيداً : هوذا المصرف وهؤلاء هم الممثلون
مثلوا انتم وعمالكم وستبقى وجوهكم على الشاشة إلى الأبد وستكسبون
أموالاً .

(١) تربب الحبرة عن طريق تصالب يدي النديمين — تقليد يرمز إلى الصداقة
الحميمية ورفع الكلفة حيث يتخاطب الاثنان بكلمة « انت » بدلا من (أنتم) .

فرح المدير :

— جيد جداً . . شكراً .

دعا عماله وأخبرهم بذلك . انتعش الجميع وسيطرت عليهم .
جميعاً لهفة التمثيل .

— سأعود غداً . وبعد غد سأستوضح كل شيء ونجري تدريباً
بسيطاً . — قال كفاتشي — أجل فعلاً ، أخبروا الشرطة علماً
أنني سأذهب اليهم بنفسي وأكلمهم .

خطف المدير سماعة الهاتف :

— ألو ، مسيو غراد ، هذا أنت ، أخبركم بأنني سأسطو على
مصرفكم غداً أو بعد غد .

— ماذا ؟ من ؟ ماذا تقولون ؟

— اهدؤوا أيها الصديق ، اهدؤوا . علينا ان نصور فيلماً للشاشة . .
نعم . . نعم . سيصورونكم أيضاً . سيأتي اليكم المخرج « باتي » حالاً .
في اليوم التالي طاف كفاتشي ورئيس مركز الشرطة على رجال
الشرطة العاملين في منطقة المصرف حيث قال رئيس المركز
لكل شرطي :

— على هذا الشخص ان يقوم بتصوير مشهد السطو على المصرف .
ستحدث جلبة مقصودة في المصرف والمنطقة المجاورة وسيصورونك
أيضاً . لا تتحرك من مكانك إلا بأذن من هذا الشخص . لا تتدخل في
تلك الضجة . . فهمت ؟ بلغ هذا لكل الناس . يجب ألا يضربوا
ولا يلاحقوا الممثلين . حسناً كونوا شجعاناً !

ثم دخل كفاتشي وحاشيته المصرف حاملين جهاز التصوير .

— حسناً ، هيا ابدؤوا . . خذوا أمكتتكم . . اعملوا كما لو أن شيئاً لم يحدث .

عندما يرجع اللصوص يجب ان تخافوا جميعاً وتختبؤا تحت الطاولات . . يجب ان تسلموا إلى المدير . . هكذا ، هكذا ، وأنتم لا تتمكنون من اغلاق الصناديق ترفعون أياديكم إلى الأعلى وتفغرون أفواهكم . . ليس أكثر . . سأجري وراء العصاة إلى الشارع لتصويرها . . حسناً خذوا أمكتتكم . . تحركوا انتم نحو اليمين وانتم نحو اليسار . . لا تتلفشوا ، أديرُوا وجوهكم إلى هنا .

ثم دخل كفاتشي إلى المدير وقال له :

— سيقتم هذا اللص مكتبكم ويشهر مسدسه عليكم ، وأنتم لا تستطيعون حراكاً من الخوف . سيقطع شريط الهاتف و . .

— المسدس غير محشو ؟

— لا ، لا تخافوا . . حسناً نبدأ من هنا . . اللص الأول . . أبدأ !

اقتحم « تشيبي تشييونثيرادزي » مكتب المدير ، أخافه ، قطع شريط الهاتف فعلاً . يدير المصور الشريط بهدوء .

— انتهى مشهد المدير والآن فلنذهب إلى أمانة الصندوق !

خرج الممثلون إلى الصالة العامة مضطحيين معهم جهاز التصوير .

— حسناً ، خذوا أمكتتكم أجلسوا . . سنصور الآن الصندوق ،

ثم يأتي دور بقية المشاهد . حسناً اللص الثاني والثالث والرابع هيا ابدؤوا .

اقتحم « تشيبي تشيونثيرادزه » ، و « لادي تشيكينجيلادزي »
و « بيسو شيكيا » الصندوق .

جرى كفاتشي صارخاً : ارفعوا أياديكم ارفعوا ! . . انتم
افتحوا أفواهكم ! . . لا تبسموا ، . . أديروا ظهوركم ، . . أديروا
ظهوركم ، « بيسو » كدّس تشيبي انهب لادي تشجع ! . .

حسناً يا شباب اهربوا . . أمين الصندوق أدرك ظهورك ! بينما كان
كفاتشي يصدر أوامره كان المصور يحرك جهاز التصوير وأمناء
الصناديق يمثلون أدوارهم ، أما البقية فكانوا يضحكون ببلاهة. أما
بيسو وتشبيبي ولادي فقد نهبوا الأموال فعلاً وكدسوها وفروا .

خامر الشك المدير وبعض الموظفين ، بدؤوا يتحركون تدريجياً .
نهضوا وراحوا يضحون :

أخذوا الأموال . . أخذوا الأموال فعلاً . . أسرعوا ، انجدونا !
حول المصور جهاز التصوير نحو الموظفين المضطربين ، أما كفاتشي
المعجب بتمشيتهم فراح يصرخ :

— هكذا ، هكذا . . رائع . . جميل . . ممتاز ! هيا فلنصور
الآن مشهد الشارع . العصابة ، هيا وراءها !

اندفع المدير نحو الهاتف المقطوع . وجرى بقية الموظفين وراء
كفاتشي ؛ لكن كان لصان يقفان بالباب قاطعين طريقهم
— قموا ليس هكذا ! . .

— ساعدونا . . لقد سرق المصرف . . امسكوهم . . اقبضوا عليهم !

— نعرف ، نعرف ! ابتسم رجال الشرطة غير مكترئين ودون ان يتحركوا من أماكنهم. نحن نعلم انكم تمثلون . . نحن لم نتلق بعد أوامر من ذلك الشخص .

— نقول لكم انهم نهبونا فعلاً .

— اخذع جددك ، لكن نحن نعرف عملنا !

وأخيراً اقنعوا بعضهم بعضاً بصعوبة بالغة وبدؤوا يتحركون . لكن مازالوا يبحثون عن المخرج (باتي) حتى تاريخه .

الأموال التي جاءت بسهولة تبخرت أيضاً بسهولة . نصب معين كفاتشي وبدأ يهتم بالتوافه .

لقد استفد الأعمال الكبيرة ، أما الأعمال الصغيرة فلم تعط شيئاً يذكر .

ومن وقت لآخر كانت تصل إليه بعض الرسائل من « سيلبيسترو » . كتب إليه يقول :

« ولدي يا كفاتشي ، تجري إلى حيث لا تدري ، لا أفهم. عد إلى ذوبك وإلى « راسبوتين » العائد من القدس . أنا أعرف ان ذلك الانسان الشريف قد سأل عنك وكذلك الآخرون يبحثون عنك ، نحن أيضاً شخنا يا حبيبي كفاتشيكيو ، ونريد ان نراك في شيخوختنا ، وإلا مافائدة أن يكون لي ولد ! « بولي » و « نوتيو » يبكيان كل يوم وينتظرنك ، لكن لأحد يراك ثم كيف استطعت ألا ترسل رسالة واحدة طوال هذه الأعوام ؟ » .

كتب « سلبسترو » الكثير وانتظر رداً لكن كفاتشي لم يجد وقتاً ولم يرسل أية رسالة .

علم كفاتشي بمصادفة ان « تانيا » انتقلت إلى « بادن — بادن » وبسرعة وجد نفسه في تلك المدينة . انعش الصداقة القديمة ، مسح عنها الغفن والصدأ ، ثم استعاد الثقة والمكانة القديمتين بعد المداولات والأيمان .

لكن كيف يستطيع نسر حر كبير الجناحين الاكتفاء بالشقة والأكل واللباس ؟

كان كفاتشي يحتاج لكثير من النقود ، للكثير الكثير . لكن تانيا المجربة والتي كابدت المصائب خصصت لكفاتشي راتباً شهرياً ولم تعطه روبلاً اضافياً واحداً .

دار كفاتشي طويلاً حول الدجاجة العتيقة ، لكن تلك المرأة الرحوم / التي تخشى ربها / كان لها قلب متعرج وطبع حديدي .

— حسناً — صاح كفاتشي الحانق ذات مرة قائلاً : « بيسو » — بيسو تعلم التصوير خلال عدة أيام .

بعد أسبوع أخبر بيسو كفاتشي :

— تعلمت التصوير واشتريت كاميرا .

جلسا وبدأ يتهامسان .

ذات يوم ، نهراً وعندما كان كفاتشي وتانيا في أوج غرامهم انتفضت تانيا فجأة وخافت :

- قد تحركت ستائر الباب . . ما السبب ؟
- خيل إليك ، لعل الريح تحركت ، اهدهني ياروحي !
- منذ ذلك اليوم لم تر كفاتشي مرة أخرى . وبدلاً منه جاء إليها
بيسو في اليوم التالي .
- نحتاج للنقود . نحتاج كثيراً .
- من أنت ؟
- ليس مهماً . على ان . . ربما خمنت بنفسك . بالأمس في
غرفة « كفاتشا نثيرادزه » اذكرين حين اهترت الستارة ؟
- اذهب من هنا !
- حسناً سأذهب . لكنني أريد ان أترك لك شيئاً للذكرى .
واعطاها صورة .
- شهقت تانيا قليلاً ، غطت وجهها بيديها ، أحمرت واشتعلت خجلاً .
- وداعاً !
- لحظة . . انتظروا . . ماذا تريدون . كم تريلون ؟
- ثلاثمائة ألف حالياً ، وأربعين ألفاً كل شهر .
- مستحيل . . حتى لو بيعت ما لدي لن أتمكن من الدفع .
- لا أستطيع ان أنقص المبلغ . فكري سأمراً غداً .
- ريثما باعت تانيا أملاكها مر شهر ، أعطت بيسو ثلاثمائة ألف ،
ثم أخذت منه مسودة الصور واختفت من « بادن — بادن » .

لكن أنى لها أن تختبئ من عيون وأنف كفاتشي ! لاحتها تلك
الصور والتهديدات المرعبة والجشع إلى الملايين سواء إلى ايطاليا أو
أسبانيا أو مصر . دفعت تانيا ما استطاعت دفعه . فيما تعهد لها بيسو
عشرات المرات مؤكداً أنه لم يعد لديه « مسودة » أو أية نسخة عن الصورة .
وبعد أن استنفدت كل أموالها وضاع الأمل اختفت تانيا إلى الأبد .
قال البعض أنها سافرت إلى جزيرة « تاسمانيا » وقال الآخرون ،
بل إلى سيلان ، والبعض الآخر ذكر اسم « الدير الجبلي للنساء »
« أفونيسيكي » .
بحث كفاتشي طويلاً عن البقرة الحلوب الضائعة وعندما لم يجدها ،
حاك وألقى شباكاً جديدة .

كانت الأسماك تجري بوفرة ، لكن دوى الرعد فجأة ، ولمع البرق
في أوروبا . . . ، بدأت الحرب العالمية الأولى .
وأيضاً ، تحول كفاتشي حالاً : غيّر الجبهة ، ابتكر شباكاً
وأفخاخاً جديدة ، وكحيوان صيغ وجهه بلون آخر ، لبس درعاً
ونخوذة تناسبان المرحلة متسلحاً بسلاح جديد .

* * *

والتقسيم الخامس عن عمل السري

— كفاشي ، ماذا تظن ، هل ستندلع الحرب لأن ذاك الأمير
اغتيال « ايرتسغرتسونغ » (١) الانجليزي — سأل بيسو .

— أنا أيضاً فكرت بذلك طوال اليوم . اذا حامى كل عن صاحبه
سيثوثن العالم .

— هاك اقرأ الصحيفة . روسيا تقف مع صربيا ، ألمانيا مع النمسا .
قرأ وبدأ يتسكع في الغرفة ، هز أنفه بيده وتمشى طويلاً ، ثم
التفت إلى أصدقائه وقال لهم مندرأ :

— بيسو ، لادي ، تشيبي ، تذكروا كلمتي وانقلوا للتاريخ مايلي : لن
يمضي اسبوعان حتى تضرب روسيا ألمانيا وتضرب المانيا ، وسيا .
ثم تبدأ الحرب وسيطر السخط . أنا أقول ستتخلي ايطاليا عن ألمانيا
وتقف إلى جانب انكلترا وفرنسا . وستقف النمسا ، بلغاريا وتركيا
إلى جانب المانيا . وأخيراً ستتدخل أمريكا أيضاً ويفرق العالم بالدم .

(١) ايرتسغرتسونغ : لقب الأمراء الحاكمين في النمسا وهنغاريا .

إذا متّ انقلوا مقالتي هذه للتاريخ . حسناً أيها الرفاق . تحتاج الآن لليقظة والحذر .

قال ذلك ثم ارتدى ثيابه وذهب إلى بورصة برلين . كانت البورصة تشبه مشفى للمجانين ربط البعض مصيرهم ومقدراتهم بالحرب والبعض الآخر بالسلام . تقلبت أسعار الأسهم والسندات ومختلف الأوراق المالية وسواها / ترتفع تارة وتنخفض تارة أخرى / ارتفع البعض إلى أعلى درجات السلم وهبط البعض إلى الخضيض / ضربوا بالأسعار / . أمسك كفاتشي بالحرب وفتح عينيه على أسهم المعادن والأسلحة / بدأ يتبعها / . انتهز المناسبة وارتبط مع مجموعة سرية كانت تخفض هذه الأسهم ثم تشتريها بسعر رخيص .

هكذا فعلوا بأنفسهم « شنيد رو كريسو » « شكودا » « أمسترونغ » و « كروب » . لم يترك لديه أموالاً سائلة / لم يحتفظ بها / .

ثم تبع حشداً متجمهراً يقارب عدده ثلاثة آلاف وصرخ بضراوة في الشوارع والصحف والمقاهي والحدائق : ناخ باريس ، ناخ موسكو (إلى باريس إلى موسكو !) .

بعد عدة أيام سافر من برلين إلى فرنسا وهناك صرخ بأعلى صوته :

أ — برلين ، أ — برلين ! (إلى برلين ، إلى برلين !) .

وبعدئذ عندما رجع إلى روسيا صاح بأعلى ما استطاع :

— إلى برلين ! إلى القسطنطينية !

بعد فترة من الزمن ، في مكان ما من « ساراجيفو » أطلق رجل شرارة التهمت العالم بنيران لاهبة .. رصاصة امير اثارث دويماً وزوبعة

في كل أنحاء العالم حتى طالت السماء . تحولت قطرة الدم في البداية إلى نهر، ومن ثم تدفقت بحراً لاحدود له . عشرون أو ثلاثون مليوناً من الجنود المساقين يندفعون ضد بعضهم بجنون وعنف . والآخرون تركوا كل شيء وقبعوا في مؤخرة الجنود المتشردين على مدى آلاف من القراسخ ومضوا يخدمون المريخ الدموي .

أثناء ذلك كان الجميع يصرخ بحقد واتكال :

— « معنا الله » فيما كانوا يصلبون بأصابعهم المملوطة بالدماء ويطلبون من السيد الرب أن يمتن الاتحاد الحربي .

— الموت للمتوحشين ! عاشت الحضارة ! . . عاشت الحرية والأخوة والمساواة بين الأمم ! . .

في البداية غمس السفاح رجليه حتى الرسغ بدم الشعب ، ثم غاص حتى الركب بعدئذ . غاص حتى الخصر في حفرة الدم ، وأخيراً سبح في دوامة من الدم لاقرار لها . ثم بقي خمس سنوات يسبح هناك . أصيب هذا العالم وعالم الجحيم أيضاً بالصمم . عمياً وغرقاً بالدم والدموع ، النواح والندب ، بالنحيب والولولة الصادرة عن الكثير — الكثير من البيض والسود ، الحمر والصفير المنتمين لهذا البلد أو ذاك من الأغنياء والفقراء ، الرجال والنساء .

وسبح كفاتشي كفاتشا نثيرادزه وجماعته . خاضوا ، جروا ركضوا في بحر من الدماء والدموع عبر زوبعة النيران ووهدة الكآبة العالمية . ضارب بدأب كمجنون حاقط :

— بيعوا أسهم « شنيدر — كريزو » اشترى « كروب » ، احتفظوا

بأسهم « امسترونج » ، تخلصوا من « شكودا » ! . . . احرقوا « كونا رلين » !
اجمعوا السكر ! . . ارفعوا الدقيق !

ذات يوم طال القانون الفرنسي كفاتشي : .

— كفاتشي ! تفضل إلى الحرب !

كفاتشي في الجيش ؟ كفاتشي في الحرب ؟ في « بردين » أو في
« جبال الأردن » . ما بهم هل فقدوا عقولهم ؟ ! من أجل من ؟ أم
من أجل ماذا ؟ أمن أجل الفرنسيين ؟ ولماذا ليس من أجل الالمان ؟
مالذي جعل باريس أفضل من فيينا وبرلين ؟

فلين الطرفان أو فليرتفعوا إلى السماء ، معلقة كفاتشي ؟ وماذا
أو أن قبلة انفجرت بالقرب من كفاتشي ، أو أن رصاصة صفرت
وسال دمه ! ثم أي دم ؟ ! الأمير كفاتشي كفاتشا نثيرادزه ابن الملك
الأفغاني ، أمير جورجيا « باغراتيوني » في جحيم الحرب ؟ ما بهم ،
هل جنوا ؟

وبما أن السفر إلى لندن كان خطراً حيث قام ، في حينه « بتديير
الأمور » فقد ظهر بعد ثلاثة أيام مع رفاقه في مدينة « مانشستر » .

بعد فترة صدر في بريطانيا قانون :

— كل رجل إلى الخوذة ! / أي التعبئة العامة . الجميع إلى الجيش ! .

— بيسو ، وهنا أيضاً فقدوا عقولهم . هيا إلى روما !

لكن الجميع فقدوا عقولهم ، كل وبدوره . بعد فترة وجيزة اختبلت
إيطاليا ومرة أخرى سمع كفاتشي صراخ المجانين :

— كل رجل إلى الخوذة ! الجميع إلى الحرب !

هذا غير متوقع ، لم يعجن كفاتشي بعد كي يهدر دمه من أجل
المعكرونة (١) .

— ييسو ، إلى جنيف !

وما أن وصل كفاتشي إلى مكان أمين وصعد إلى قمة الألب ،
نظر من جزيرة الأمان بهدوء إلى نار الحرب المعقدة حيث كان يقول
بين الفينة والأخرى :

— اتذكرتم كلماتي التي قلتها في برلين ؟ لقد تحققت كلها .
حزن كفاتشي ، حزن كثيراً . لم يعد يستطيع ان يشتري وينبع
في السويد عشرات السفن من السكر والدقيق والمعادن والمون الأخرى .
لم يعد يعلو ويزجر صوته القوي :

— اشربوا ، بيعوا . . خففوا !

أخيراً وصلت إليه رسالة « غريشكا راسبوتين » بعد أن دارت
أوروبا كلها . كتب المعلم يقول :

« أخي ابولون !

مالك تتسكع في أوروبا القذرة ؟ تعال إلى هنا . فالحياة مملّة بلونك .
الأعمال كثيرة . ستجد هنا السلام والهدوء ، المجد والمال وخيرات
الاله . اصطحب معك « يلينا » و « تانيا » . اريد هذا كثيراً ! نعم أنا !
غريغوري ، انتبه لاتتأخر ، نعم غريغوري (٢) . »

(١) المعكرونة : كناية عن الشعب الايطالي .

(٢) النص الروسي مليء بالأخطاء النحوية والإملائية تدليلاً على جهل كاتب الرسالة
— راسبوتين وأميته بوجه عام . وقد وجدنا من الصعب ارتكاب مثل هذه الأخطاء في
الترجمة العربية .

جهز السفير الروسي خوفاً وفرحاً بتلك الرسالة رحلة مريحة اكفاتشي
عبر البر والبحر راجياً اياه :

— اذكرني واو بكلمتين أمام الأب القديس « غريغوري »
والوزير « سازونوف » . انقل اليهما تحيتي القلبية فليسهل الله رحلتك . !
وجد بيسو « يلينا » في مكان ما واصطحبها معه .

من يعلم أبتدبير شخصي ، أم بعناية إلهية حصل ما حصل في ذلك
اليوم حين صعد كفاتشي إلى السفينة ووجد نفسه وقد اصطدم وجهاً
لوجه مع « ريفيكا » .

— ريفيكا ، ربي الحبيبة !

— أبولون ، يا حبيبي !

تعانقا . وبلحظة أشعلا النار الحامدة وتركنا العنان لدمائهما الهادئة
لتغلي . لم يتحدث أي منهما عن فراقهما ، وخرج من داخل السفينة
اسحق ايدلسون .

— افلست وانتهيت ! — أوجز اسحق كلامه — أنا مسافر إلى
بطرسبورغ ، إلى عمي « غينتس » .

— إلى « غينتس » ؟ غينتس عمكم ؟ لماذا لم تخبرني قبل الآن ؟
ماذا ؟ هل اعرفه ؟ كيف لأعرفه ؟ لقد اشتغلنا سوية .

أمسك كفاتشي « ريفيكا » عدة مرات في زوايا الباخرة المظلمة ،
لكنها أكدت باصرار :

— لا . . لا . . هنا لا يمكن . ستوقف في ستوكهولم يوماً واحداً ،
و . . لاتكن نافذ الصبر ، سنصل غداً أو بعد غد . . و . .

رست السفينة التي ترافقها الطرادات إلى « بارغن » . استقل الجميع
القطار واجتازوا الترويج ثم وصاوا إلى ستوكهولم .

مان بدل كفاتشي ثيابه في الفندق حتى دخل ايدلسون ورجل
ألماني غرفته . تفحصا الغرفة ، اغلقا الأبواب ، جلسا واجلسا كفاتشي
وبدؤوا يتهامسون ويغمغمون ساعتين .

اثناء ذلك كانوا يتطلعون إلى البهو بين الفينة والأخرى ويراقبون
ماحولهم ويتابعون « العمل » الذي بدؤوه .

بعد أن اتفقوا أوصى بعضهم بعضاً ثم افترقوا . حين خرجوا
من الغرفة التفت ايدلسون نحو كفاتشي وقال :

— منذ اليوم نحن لانعرف بعضنا بعضاً ولن نعرف ابداً . انت
تعرف فقط مدرستك ، مدرسة اللغة الفرنسية « ريفيكا » . لاتنس شيئاً
وإلا أنت تعرف ! سنخبر بعضنا بعضاً بالشيء الضروري عن طريق
« ريببي » ، وداعاً !

وفي ذلك المساء أخبر ايدلسون كفاتشي عن طريق « ريببي » بعض
المعلومات .

بدأ كفاتشي عملاً صعباً ومعقداً ، إذ أمضى الليل بكامله حتى
تمكن من الاستماع إلى ما أرسله إليه اسحق وأعطاه التعليمات لـ « ريببي » .
وفي الصباح التقى كفاتشي بعض الجورجيين الذين همسوا إليه سرّاً :

— الأفضل لنا أن تنتصر ألمانيا .

— غير ممكن ، هذه خيانة .

— في هذه الحال ، اعملوا انتم في ذلك الاتجاه . ربما أعطونا حكماً ذاتياً كبولونيا .

— الحكم الذاتي لايناسب جورجيا . سيكون بمثابة استرجاع لنظام عبودية الفلاح .

— اذن ، علام يراق هذا القدر من دماثنا ؟ .

— في سبيل روسيا العظمى . اذا انتصرت نكسب نحن أيضاً وكل مابقى — اللغة ، الثقافة القومية ، الحقوق السياسية — أمل باطل مالك متمسك بجورجيا الصغرى بحفنة من الشعب . سنغرق في تلك الحفرة . ان تتمكن من مدّ اجنحتنا وسنموت جميعاً . أنظروا إلى روسيا العظمى ، إنها سدس الكرة الأرضية . تقارب المائتي مليون من السكان . إذا كانت لديكم المهارة والحداقة والرغبة افتحوا اجنحتكم وطيروا عبر هذا المدى اللامحدود . تهامسوا طويلاً في ذلك البيت الصامت . أخيراً أعطاهم كفاتشي جواباً مشجعاً :

— لامع هنا ولامع هناك ! الخذر والطاعة . لاتغضبوا أحداً ولاتنخاضوا مع أحد . سأوافيكم بالأخبار . أعطوني انتم كل ماتعرفون . غيرتوا كلمة التعارف مرة كل شهر ، وداعاً ! وقال في نفسه : « من يعلم ، ربما حصلت على شيء ما هنا أيضاً » .

• — الأخ « أبولون » الأخت « بلينا » — ضمتهما « غريشا » فريحا بعد أسبوع . بعد غياب عامين أمضوا يومين كاملين ليعرف الواحد منهم كل شيء عن الآخرين ، وليتحدثوا عن مغامراتهم . قص كفاتشي لـ « غريشكا » عن أوروبا المتفسخة ، عن جنونها ولا أخلاقيتها وفسادها

وشدد على القضايا الكنسية والروحية بالرغم من أنه لم يسمع ولم يقرأ
لأن هذه ولا عن تلك أي شيء في أوروبا .

وفي أسرة سليسترو علا صيخب وضجة الفرح :

— وهل يجوز هذا يا بني ؟ ألا تخجل ؟ قال سليسترو مؤنباً
كفاتشي .

— هذا لا يصح يا بني ، ان تنسى والدتك . وإلا . . . — قالت « بوبي »
وهي تضم إلى صدرها ابنها المتوحش .

— وهل يعرفون عن « تأمينك » — سأل كفاتشي أباه أخيراً .
العالم كله يعرف . لقد هلك أنا — قال سليسترو عابساً .

— سأدفع لـ « سالاماندر » عشرة آلاف روبل مع فوائدها
هذا والسلام .

ريشما شبع « غريشكا » و « يلينا » من بعضهما وملاً ربط كفاتشي
الكثير من الخيوط المقطعة وقدم خيوطاً جديدة .

خلال ما يقارب الأسبوعين طرح كفاتشي في بطرسبورغ شبكة
جيدة الجدل والحبك . نظّف الممرات والأقنية القديمة وشق أخرى
جديدة . تخلص من الخدمة الإلزامية ، ثم تجول متباهياً بيزة « ريمستفو » (١)
الحربية . ركب مهمالاً على جزمته وشعاراً حريياً على سترته وكتافيات
ذهبية وعلق « البنود » وعاد الأمير من جديد ممشوقاً منتصب القامة
وتفرغ للسيارات والخيول والمنتزهات والجادات والسيارة والمطاعم
الفخمة وللحاشية والحكام وللجميلات الثلاثي تضاعفن خلال عامين
وأضحين أكثر روعة .

(١) زيبستفو : مجلس عملي منتخب في الريف الروسي قبل الثورة .

« ساماريتانين الطيب » والنجاح الجديد لكفاتشي

ذات يوم افتتح في شارع « نيفسكي » (١) مكتب ضخم تحت
أرومة ذهبية :

« الجمعية الخيرية لمساعدة جرحى وقتلى الحرب » « ساماريتانين
الطيب » .

لدى صاحبها والمستفيد منها « كفاتشي كفاتشا نثيرادزه » تسعة
« سكرتيرين » ونفس العدد من المستشارين الشخصيين وما يقارب المائتين
من الموظفين والهوسار (٢) من السلالة المختارة ، وتوجد بين هؤلاء
الناس بالإضافة إلى ضاربات الآلة الكاتبة الفاتنات امرأة - سكرتيرة ،
مدرسة اللغة الفرنسية « ريفيكا ايدلسون » .

جمع كفاتشي كل الأصدقاء القدامى ماعدا « غابو » و « سيدراك »
الذين سيقا جنديين عاديين لاحتلال استامبول .

وقد خلصهما كفاتشي فيما بعد من الجيش نظراً لحاجته اليهما
كمختصين في عمله المعقد و « البطولي » وانتظرهما . أخيراً آن الأوان
ووصلا :

— واخ ، أيها الأمير ، أصبحت جنرالاً ؟

تعانقوا وفي تلك الليلة احتفلوا بالتثام الأسرة القديمة في مطعم
أركادي .

أصدر كفاتشي ألف أمر في اليوم الواحد :

-
- (١) نيفسكي : أحد الشوارع الرئيسية في بطرسبورغ .
(٢) الهوسار : عسكر الخيالة في النظام القيصري وبمض دول أوروبا الشرقية .

-- أعطوا الفيلق الثاني ألفاً من الأحصنة . : استجروا مائة عربية
شعير للجيش الثالث في منطقة الدون . . صدرّوا إلى وارسو مائتي
عربة من الدقيق . . أعطوا الجيش الرابع « عشرة آلاف » بدلة داخلية . .
اصرفوا للممّون ايفانوف مائتي ألف . . بيعوا ، اشترؤا ، فكّوا الرهان ..
اخزنوا اطلبوا ! . .

انتفخ كفاتشي من الربح . كثيراً ما كانت حساباته الجارية تصل
إلى درجة الصفر . يعمل نهاراً ويمضي الليل مع غريشكا والفانتات
ومشاهير الناس .

كان أحياناً يعطي « ريفيكا » وثيقة صغيرة مكتوبة بالشفرة مدونة
على ورقة سجائر ويتلقى عن طريقها مهمة صغيرة . كانت ريفيكا
تدس الوثيقة التي تنلقاها في شعرها المنفوش وتخرج . أحياناً كان يبدو
غريشكا حزينا عابساً ، وكثيراً ما كان يصلي بأمل كبير ، يتأوه
يتألم ويبكي .

— أيها المعلم الكبير ، مالذي يقلقك ، أي هم يشغلك ؟ — سأله
كفاتشي ذات مرة .

— أخي ابولون ! قلبي يحدثني أحاديث بشعة لا يريد الله أن
يقدر لي هذه الحرب . سنخسر ، سنهلك ستندمر، نعوذ بك اللهم
من الشيطان ! أغفر اللهم ذنوبنا ! ابولون ، صلّ ، صلّ أنت أيضاً ،
يجب أن تصلي كل روسيا . يجب ان تبقى الكنائس مفتوحة نهاراً
وليلاً .

يجب أن تقرم الخدمة الدينية في كل يوم . يجب أن يقدر الله
التصارنا ، وإلا . . . مع أنني يا أبولون حينما بدأت الحرب ، ارتعيت

على قدمي القيصر ، حذرته ورجوته باكياً : نيقولاى ، لا تحارب !
ستهلك الشعب ، ستدمر روسيا وستفقد العرش ، ستهلك نفسك !
وتهلكنا معك ! » .

منذ البداية أجابني بالرفض . لم تلق نصيحتي قبولاً لديه . كان
القدرون والمجانين أقدر منا ووقفنا نحن على جهة خشية ان نلام .
وما زال غباؤهم وفشلهم يسقط بلية على رؤوسنا. حتى الآن الأمور
تسير بشكل سيء . ابولون جيوشنا تتكبد الهزيمة ، ووراء تلك الهزيمة
أشياء مرعبة : الثورة ، الفوضى ، مذابح دموية ، جوع ، انهيار
روسيا وسقوط العرش . الأمير « ميشرسكي » الذي يدعى « الثعلب
العتيق » أذكى انسان في روسيا . هو يعزف كل شيء ، يفهم كل شيء .
حين يتحدث يبدو كغراب ينطق . يرتجف جسمي بكامله
ويمتليء رأسي بضباب أسود . شيطان من الجحيم وطد الحلف بين روسيا
المقدسة وفرنسا الكافرة . ما الذي يجمعنا وذلك الشعب ؟ لا إيمان لديه
ولا أخلاق ولا عقل . إنه شعب متفسخ ، نتن فاسد . بالأمس أمضيت
يوماً كاملاً في الصلاة ومرة أخرى صليت للاله : ياإلهي ، ياإلهي ،
طهر روحى الشريرة . أغفر لي ذنوبي وافتح أمامي طريق المستقبل !
« مرة أخرى أغمضت الأيقونة عينيها ، ومرة أخرى زرفت دموعها .
ايقونتي تبكي طوال الوقت ياأبولون ، تبكي وهذه دالة تعني أن روسيا
ستهلك . ابولون، أنا رجل ريفي جاهل حتى أنني لأعرف قواعد اللغة
كما يجب . ليست لدي ثقافة ، لكن الله وهبني عقلاً قوياً نيراً
وعيناً بصيرة وحساً دقيقاً . لذا أنا أفهم على هذه الأرض أكثر من أذكىاء
كثيرين . ابولون تذكر كلمتي : إذا لم نتوقف عن الحرب حالاً

سنهلك وستدمر روسيا . اقرب أبولون، اقرب ولنصل مرة أخرى
للالة من أجل بلادنا روسيا !

وافق كفاتشي غريشكو على كل ما طرحه ووعد أنه يعمل في
سبيل السلام ، مع أنه كان يشعر جيداً ويرى أن الاهتمام بذلك مازال
خطراً وقبل أوانه إذ ان كلب الحرب الأجرب ذا الأنياب الحادة
قد وجد الكثير من الأنصار والمؤيدين واتخذ منحي بحيث ان الطبقة
المتنورة في المجتمع أصبحت تفضل الانتحار على الحياة الصريحة
والحنث بقسمها .

تحول غريشكا إلى جانب بريطانيا . وقد تضاعف تأثيره وقوته
إلا أنه كان دائم الشكوى حتى ان أحداً لم يثق به ولم يسأله شيئاً .

ذات مرة ، وعندما كان غريشكا وكفاتشي يتمشيان ارتمي
بعض المارة ، وفي مناطق ثلاث ، على اقدام غريشكا ، قبلوا يديه
وأطراف ثيابه وتوسلوا آمليين :

— عيسى المسيح ، يامنقذنا ! صل من أجلنا نحن الآثمين، فالرب
يستجيب لك . صل وإلا سنهلك .

— باسم الاب والابن والروح القدس ، آمنوا بالله ياأخوتي
وأخواتي ، سيحين موعد عودة المسيح . اصبروا وتذكروا آلامه .
آمين — ثم مسح دموعه في الظلام والتفت إلى كفاتشي — قضيتنا
انتهت . . . هانحن نهلك . . .

بعد عدة أيام، أطلع غريشكا كفاتشي على البرقية المرسلة من قبل
القيصرة التي كتبها من، سيبيريا المتضمنة أنها لا تستطيع ان تحيا يوماً

واحداً بدون غريشكا وأنها تعاني من أزمات مستمرة واضطرابات عصبية وأن الأمير ابن القيصر كثيراً ما يتزف دماً من مكان الرض ، وقد أبدى أمهر الأطباء عجزهم .

بعد أن عاد غريشكا من سيبيريا اطمأنت القيصرة فقد تمكن الطبيب بادمايف — الذي أحضره غريشكا من التيت — من إيقاف نزيف الأمير . ومنذ ذلك اليوم سقط القيصر والقيصرة بشكل مطلق في قبضة راسبوتين ولم يسمحا لـ « غريشكا » وللطبيب بادمايف بمغادرة القصر . في تلك الفترة حاول اعداء غريشكا الايقاع به ، وردا عليهم دخل غريشكا القصر وهدد القيصر والقيصرة بحضور النبلاء :

— أنا أعلم ان أعدائي يحفرون قبوري . لاتصغوا إليهم ولا تتركوني ابتعد عنكم ، وإلا ستفقدون وريث العرش والعرش أيضاً .

جثت القيصرة أمام راسبوتين على ركبتها وقالت بصوت مرتفع :
— نحن لانستطيع مفارقتك أيها القديس . أنت نصيرنا وصديقنا الوحيد . باركنا أيها الأب المقدس باركنا !

منذ ذلك الحين لم يتلق غريشكا رفضاً من أحد . ونادراً ما مرّ يوم لم يقل أو يكتب للقيصرة فيه :

أحيلوا هذا . . أحيلوا ذاك على التقاعد . . عينوا . . انقلوا . .
رفعوا، خفضوا من مكانة فلان . . القيصر لا يفعل شيئاً دون استشارة القيصرة، والقيصرة والقيصر لا يخطوان خطوة واحدة ولا يقومان بأدنى عمل دون موافقة غريشكا .

ذات مرة جاء راسبوتين والجنرال « سوخوملين » إلى مكتب كفاتشي

وسلماه بمهابة وامتنان ومباركة وبعد القبلات ، منة القيصر / قراره /
ميدالية وصليب لكفاتشي — وصليب لكل واحد من رفاقه .

أثناء ذلك أحضر « بيسو » كتابين ضخمين ، جيدي الاصدار ،
مزدانين بالصور . توجه كفاتشي أولاً ، بحديث ملتهب ومليء
بالدموع إلى راسبوتين وسوخوملين ، ثم قدم كتاباً إلى كل منهما .
تصفحاهما . قرأ على أحدهما « حياة وأعمال الجنرال سوخوملين »
وعلى الكتاب الثاني العنوان التالي : « حياة وأعمال الأب القديس
غريغوري » .

وقد طبع على الكتابين بخط عريض « وضع وصادر فيلغل
أدبوتانت (١) . الأمير نابليون ابولونوفيتش كفاتشا نيرادزه » —
من ضباط حاشية عظمة الامبراطور .

ومن جديد بدأت الخطابات والاطراءات والعناقات والقبلات
الرنالة . وعندما علم الجنرال — سوخوملينوف ان كفاتشي قد أصدر
الكتابين باللغتين الفرنسية والانجليزية ووزع الآلاف منهما في أوروبا
أقسم على التأخي مع كفاتشي ووعد بأن يرد له الجميل ، ثم قال
راسبوتين لكفاتشي :

— ابولون ، أسمعني : اعداؤنا يؤكدون لـ « خفرا تسيا » (٢)
اني اطالب بايقاف الحرب فوراً .

(١) ضابط كبير من ضباط الحاشية .

(٢) فرنسا — وهذا دليل أمية وجهل راسبوتين .

فعلاً هذه هي قناعتي ، لكن « بابا » و « ماما » يرغبان ان أطمئن السفير « الخفرا تسي » .

خذ هذه الرسالة إليه :

جلس متوتراً يخط : « (١) فلتبق روسيا تعيش مثال هي بلاد ملوم مثال لامسحق منذ حالا ، الأروض يظهر قوة ترون حفور قوة السموات النصر معكم ولوكم راسبوتين (٢) .

سلم كفاتشي السفير الفرنسي « موريس باليولوغ » هذا الهديان الغامض .

طبعاً لم يتمكن السفير أو كفاتشي أو أي شخص آخر من فهم محتوى تلك « الرسالة » .! وفي نفس المساء صفى كفاتشي حسابه نهائياً مع الصحفي « كنولمان » لقاء اعداداه سيرة حياة راسبوتين وسوخوملينوف .

بعد عدة أيام دخل غريشكا وكفاتشي قصر أحد رجال الحاشية الكبار (كان القصر قد حوّل إلى مشفى عسكري) حاملين هدايا للجنود الجرحى .

التقيا مع السفير الفرنسي في إحدى الغرف الكبيرة . قال كفاتشي :

— أرجو ان تتعارفا : غريغوري راسبوتين ، السفير موريس باليولوغ .

أحمر غريشكا فجأة وأضطرب :

(١) هذه وثيقة تاريخية — المؤلف . . . —

(٢) حاولنا قدر المستطاع نقل الأخطاء الواردة في النص الروسي — المترجمان

— كنت أود رؤيتك . . ابولون ترجم له — روسيا تنهار والشعب
يعاني والملايين تتألم وتموت . . آن الأوان لانتهاء الحرب وإلا سننتهي
نحن أو سينهينا الشعب ، نعم آن الأوان . غريشكا راسبوتين أنا أقول كل
هذا ! نعم أنا !

بعدئذ اندفع فجأة نحو « باليولوغ » ، ضمه إلى صدره ودون أن
ينتظر جواباً خرج مسرعاً ملوحاً بيديه وهو يصيح :

— أية سياسة هناك ! أنا فلاح وأحب الصراحة الفلاحية ، أي وقت
للسياسة ! الشعب مستعد لرمينا بالحجارة ! السلام ! السلام بسرعة
وإلا سنهلك !

« كيف » « دبر » عملاً حريياً ضخماً »

مرت الأيام . مرة أخرى استعاد غريشكا قواه . كان كفاتشي
ضيفاً دائماً على وزير الحرية سوخوملينوف ، نظراً لأن « ساماريتيانين
الطبيب » كان على صلة متينة مع ادارة الجيش التي كان يزودها بكميات
كبيرة من المؤن والخيول والثياب الداخلية والدخيرة . وما زاد في
ارتباطهما وتآخيهما كتاب « سيرة حياة سوخوملينوف » وصديقهما
المشترك راسبوتين .

كان كفاتشي ، كما في السابق ، يتحكم بعدة صحف تطريه
بمناسبة وبلا مناسبة وتمدح وزير الحرية ونبوغ الاثنين وموهبتهما
الابداعية وحسن تدبيرهما ومقدرتهما الاسطورية في الادارة .

وعرفاناً بالجميل وكتعبير عن الثقة العميقة قدم سوخوملينوف
صليبين لكفاتشي وقال له :

— نابليون ابولونيتش ؟ عليّ أن أعهد اليكم بعمل حكومي غاية في الأهمية . لايمكنني أن اثق بأحد سواكم . عليكم ان تسافروا إلى أمريكا وتحجزوا هناك على كميات من الأسلحة والبارود والطلقات لمعاملنا . موافقون ؟

— هذا صعب عليّ ، صعب جداً ، لكن لن تستطيع الحرب من خدمة الوطن ، أنا مستعد للخدمة .

— لكن تذكروا أنكم مكلفون بمهمة عظيمة وخطرة جداً . يجب ألا يدري أحد بذلك ، ليس كما . . .
بعد عدة أيام سافر كفاتشي إلى أمريكا مزوداً بالنصائح والأموال وعلب مختومة بالشمع الأحمر .

في محطة ستوكهولم استقبله جنرال يعرفه :
— أنت مسافر إلى أمريكا بمهمة سرية . .

تهامسا مرة أخرى . تجادلا طويلاً وتساوما . ثم انكب الخطاطون على علب كفاتشي وكتبوا مثلها حتى ان أحداً لم يكن يستطيع التفریق بين النسخ الأصلية والنسخ الجديدة ، إنما ادخلوا تصحيحاً بسيطاً في النسخة . لقد اختصروا العدد بعض الشيء .

في اليوم التالي سلموا كفاتشي العلب مختومة كما في السابق بالشمع الأحمر مع شيك متمنين له سفرأ سعيداً ، ثم سافر إلى برلين .
بعد اسبوع أوصل طراد إنجليزي كفاتشي إلى نيويورك . دعا

كفاتشي والملاحق العسكري الروسي أصحاب المعامل ، تساوموا
ثم أنفقوا . بعد أن وقع كفاتشي العقد وتلقى شيكا آخر تنفس بحرية
وتفرغ لأعماله .

اشترى بأموال طائلة مايقارب عشر سفن محملة بالمؤن والمواد
الحربية . أرسل هذه السفن إلى « أرخانغلسك » باسم الادارة العسكرية
وسافر هو عبر المدن القريبة .

عبر فيلاديلفيا ، واشنطن ، بوسطن وشيكاغو . وفي كل منها
« دبر عملاً — عملين » وأعطى الفرصة للنساء البارونات ان يتذوقن
الدم الجورجي الحاد، ثم اجتاز كل أمريكا وشق المحيط العظيم . عرج
على اليابان وتذوق « الغيشات (١) » . ثم عاد إلى بطرسبورغ بالطريق
السييري اللامحدود .

حمل هدايا ثمينة لـ « غريشكا » و « يلينا » و « للاصدقاء » والحاشية .
كان الجميع له شاكرين وازدادوا منه اقتراباً وقدم تقريره للجنرال
« سوخوملينوف » :

— الأسلحة والطلقات من ذلك العيار كانت معدة لجهات أخرى ،
إنما دفعت لهم ثمناً أكثر قليلاً . سنستلم نصف الكمية الآن والنصف
الآخر سي شحن بعد ثلاثة أشهر ، وهكذا كسبنا الوقت .

الكميات الضخمة من الأسلحة الفاسدة غير الصالحة المقتناة من
أمريكا اشترت دون تدقيق أو فحص من قبل الادارة الحربية .

(١) الغيشا : تسمية الراقصة والمغنية اليابانية التي تدعى إلى البيوت للهو والتسلية

بعد أسبوعين استدعي كفاتشي إلى القرية القيصريّة . أثنى القيصر والقيصرة على كفاتشي بحضور « سوخوملينوف » « راسبوتين » « فريد يريكس » والكثير من الحاشية والأمراء والنبلاء وقدم إليه بزة عسكرية فخريّة وقلده أيضاً ثلاثة صلبان مختلفة .

أجلس القيصر كفاتشي بجانبه أثناء تناول الغداء وسأله عن الأحوال . فتح كفاتشي فمه ، وتحدث بنشاط وذكاء ووضوح وطلاقة عما رأى وعما لم يره ، عما سمع به وعما لم يسمع . وأخيراً ، وبعد صمت قصيرة ، قال خافضاً صوته قليلاً :

— علمت أن عظمتكم ترغب بمعرفة رأي الرجل الأمريكي
الوجيه بهذه الحرب الرهيبة .

— طبعاً يسرني هذا جداً .

— الحقيقة ما كان أحد ليقول لي رأيّه بشكل رسمي ، إلا أنني التقيت الكثير من الوزراء والرؤساء الحاليين والسابقين ، قابلت الجميع مراراً وبشكل ودي : « تافت » ، روزفلت ، ويلسون ، يوز ، أديسون ، مورغان ، روكفلر ، وكثيراً من الوزراء وأصحاب الملايين والنواب الأمريكيين ومختلف الوجهاء . سأوجز لكم : جميعهم يتمنون النصر لنا ، ولكن . .

— لكن ؟

— لكن . . أنا لاأستطيع أن أخفي شيئاً عن قيصري وأحسب أن من واجبي قول الحقيقة حتى ولو كانت غير سارة . جميعهم تقريباً يؤكّدون ان هذه الحرب الرهيبة ستستمر حوالى العامين تقريباً .

— ياإلهي العظيم !

— سيكون النصر لصالح حلفنا لكن روسيا . . إذا لم تتحمل حتى النهاية . .

صمت الجميع وقطبوا وغمز غريغوري كفاتشي لإشعاراً بالموافقة .
فكر القيصر بعمق . احنى رأسه وتوقف عن الطعام وخيم الصمت
وكان جثة قد ألقيت على المائدة ، ثم تفرقوا صامتين . القيصرة فقط
تطلعت نحو كفاتشي بعيني الرضى ، ومدت إليه يدها الباردة التي
قبلها كفاتشي الخائف منهم .

— مرحى لك أبولون مرحى ! قال غريشكا مادحاً — الآن يليق
بك جداً صليب القديس جيورجي . يؤسفني أن اسمح لك بالمغادرة ،
لكن ما العمل ؟ هيا تنزه في الجبهة مدة أسبوع ، وعد مع صليب
« جيورجي » ماقولك ؟

ماذا يقول كفاتشي اوهو يعلم جيداً أنه لو شاء غريشكا وسوخوملينوف
لمناه صليب القديس جيورجي حتى ولو أطلق طلقة واحدة على بعد
مائة فرسخ من الجبهة .

— ابولون ، لا تخف — قال راسبوتين لكفاتشي مطمئناً — سيكتب
الجنرال « سوخوملينوف » إلى القائد الأعلى ايحافظ عليك كبؤبؤ
العين ، قف بعيداً ، تعرف إلى المنطقة ، أطلق طلقة ثم عد .
شيء رائع . تحت هذه الشروط قرر كفاتشي ان يحصل على صليب
القديس غيورغي .

واتجه « أمل سليبسترو » / ابنه / إلى جورجيا .

التقى كفاتشي الدكتور كورانا شفيلى في محطة بطرسبورغ .
هو أيضاً كان مسافراً إلى الجبهة التركية مرتدياً بزة دكتور عسكري .
سأل كل منهما الآخر عن احواله . دعا كفاتشي الدكتور كورانا
شفيلى إلى مقصوره .

أمضيا اسبوعاً حتى وصلا مدينة أرضروم . خلال ذلك الاسبوع
لم ينبس كورانا شفيلى بكلمة واحدة عن الطب أو أية مادة أخرى ،
بل افعم كفاتشي بالحديث عن الآثار والتاريخ من الصباح وحتى المساء
وهو يتر في اذنه كذبابة الخيل :

أرورتو ، تايري ، كارين ، سومرين ، أدارسة ، أنغوش ،
شاردان ، بيرغاموس (١) . . .

أخيراً خلط كفاتشي بين كل الأسماء والعصور ثم اعترف :

— أخ لم أفهم شيئاً . التاريخ ليس مهنتي !

« كيف تحول كفاتشي بشكل عجيب ، وكيف كسب معركة خاسرة »

وصل كفاتشي إلى تركيا بعد عشرة أيام وتوجه إلى الأركان ،
فهم أعضاء هيئة الأركان المجربون في الحال شخصية كفاتشي والغاية
من سفره لمدة أسبوعين .

مضى الأسبوع الأول في المناذمة . تذكر رئيس الأركان وكفاتشي
المثل القائل :

« صب لي كي أصب لك ! » فساند بعضهما الآخر . سلم رئيس

(١) أسماء مدن وشعوب — المترجمان

الأركان كفاتشي إلى جنرال سكير، قائد أحد الفرق وأعطى توجيهاته إليهما على الأفراد وأرسلهما إلى الجبهة . اصطحب كفاتشي ثلاث عربات ذات دولابين محملة بالنبيذ والكونياك والفودكا ومختلف الحاجات وتبعه رفيقاه المؤتمنان — غابو تشخوبيشفيلي ولادي تشيكنينجيلادزه ورجلان روسيان مجربان .

سافروا على الخيل يومين كاملين . كانت الطريق ملاءى بالعربات وعربات النقل والعربات المحمولة والمشاة والفرسان، وبالمدافع وصناديق الذخيرة ، بالجرحي والمرضى .

الجميع يتهاذى بكسل وبلا رغبة، وكثيراً ما كانوا يستريحون على جانبي الطريق .

كان الجنرال الشمل يقذف بسخاء الشتائم المقلعة ، ومن وقت لآخر يصدر الأوامر ويسير سائقي العربات في شتى الاتجاهات .

وصلوا مساءً إلى بلدة مهدامة محروقة / حيث كانت بلدة / :

عمل الجميع في قيادة المعسكر حتى وقت متأخر . تلقوا الأخبار وأصدروا الأوامر، ثم جلسوا وراء طاولة عامرة . بدؤوا يشربون ببطء ثم اشتعلت دماؤهم وتأججت تدريجياً . بدؤوا يغنون : « مرافالجامير » « الأفردي » و « اليوم الأخير القصير » وكثيراً من أغاني الحرب والوداع .

أثناء ذلك ، ومن وقت لآخر ، كانوا يتوعدون بقبضاتهم الأتراك غير المرثيين ويتفوهون بكلمات إرهابية ويصرخون دونما حماسة مميزة :

— إلى استامبول . . سنحطمهم . . سنحطمهم ! . . ! اضرِب ! . . !

هياً ! . . بعد منتصف الليل أعلن الجنرال الذي احتسنى الكثير من
الخمور :

— حسناً أيها الأصدقاء، سننام الآن ، فالمقاتل الذي لا ينال قسطاً
وافراً من النوم لا يعدل قرشاً مهشماً . أشرب للمرة الأخيرة نخب النصر
(نصر الغد) هورا !

— هورا — هدرُوا صارخين بلا رغبة، ثم حطموا كؤوسهم
وتفرقوا .

استلقى كفاتشي دون أن يخلع ثيابه . أغمض عينيه وراح يفكر
بمعركة الغد . تسلل شيطان إلى قلبه . « غداً ستحدث المعركة . . .
ستسيل الدماء ، سيقتلون ويحرقون بعضهم بعضاً . . سيبترون يد
هذا ورجل ذاك وسيقطعون أعضاء أخرى لرجل ثالث ، ربما بقيت
جريحاً على أرض المعركة، ولن يأتي أحد لنجدتي، سأموت جوعاً
وعطشاً . . ربما بقرت بطني شظية حامية ، ربما اخترقتني رصاصة
أو ذبحت بسيف قصير أو اخترقت حربة خاصرتي . . . »

وفعلاً ، اعتلت في البداية خاصرة كفاتشي التي اخترقتها حربة،
ثم بدأ جوفه ، الذي بقرته شظية حامية بالالتهاب وتخدر رأسه المقطوع
بحربة واشتعلت احشاؤه الممزقة بطلقة .

« لا ، هذه حماقات رأسي . تخبط وهديان ! قال كفاتشي
لنفسه — من جرك إلى هذا المكان القصي من أجل صليب يدعى صليب
القديس غيورغي ؟ رفي سبيل من ؟ ومن أجل أي شيء يجب أن أموت ؟
تضخمت وترهلت ولم يعد يتسع لك جلدك . ماذا ينقصك ؟ لديك
أموال طائلة ونساء لاحصر لها ووسام البزة العسكرية ولقب الأمير

وسلطة لاحدود لها وقصر وخدم ، احترام وحياة رغيدة - كل رغباتك تحققت واضحت واقعاً .

بماذا ترغب أيضاً ؟ وراء أي شيء تجري ؟ عم تبحث ؟ « عنزة عندما سمعت أرادت أن تصارع الذئب » هذا المثل ينطبق علي تماماً . يقولون أن كفاتشي رجل ذكي - هراء ! أي رجل ذكي ذاك الذي يتخلى عن حياة الملوك ويجري وراء الموت في سبيل صليب يعدل روبلاً ؟ ! لقد وعدني غريشكا وسوخوميلنوف ألا اسمع طلقة صدئة ، وهنا زجوني في قلب المعركة ، ومن حسن الحظ أن الطلقة لم تصب بعد سوى المؤخرة أو منطقة لينة . ماذا لو برت الطلقة اليد أو الرجل أو مزقت الأحشاء . .

لم يهدأ الألم في بطن كفاتشي الممزق ، بل على العكس ازداد ألماً . أقامت الشياطين في رأسه جوقة موسيقية ، اشعلت ناراً جهنمية ثم صبت فيها حديداً مصهوراً . احترق كفاتشي بتلك النار ، تقلب طويلاً في الفراش الدافئ ، أخيراً نهض وخرج إلى الشرفة . كانت الكلاب تنبح برعب في تلك المدينة المهتمة . في الأسفل كان يسمع صهيل خيل وصرير عربات وهدير مدافع . كان المعسكر قد استيقظ ويتهيأ للانتقال إلى مكان ما .

فجأة لعلت طلقة ، ثم ثانية وثالثة وخامسة .

- ماذا حدث ؟ ما الخبر ؟ جرى كفاتشي نحو الروسي القريب منه والذي استيقظ لتوّه .

- لا شيء - قال الحارس مطمئناً كفاتشي - الخرائب هنا مليئة

بالكلاب السائبة . انها تختبيء نهاراً وتخرج للصيد ليلاً مقلقة الجنود ، تنقض على الجرحى والموتى فيقتل الجنود تلك الكلاب لأكثر .

طلع الفجر . نهض المعسكر وتابع طريقه وسارت قيادة المعسكر في أثره . فجأة لعلع مدفع في البعيد . سرى هذا الهدير بكل الآذان ، ثم تكرر هذا الهدير بشكل أصم .
— بدأت — قال أحدهم .

من جديد تسلفت الشياطين إلى قلب كفاتشي . كان الآخرون هادئين ، حتى ان البسمة قد لمعت على وجوه البعض . كان الجنود يتهادون بسكونٍ وكأنهم ليسوا في معركة بل عائدون من الحقل إلى البيت .

— فعلاً ، ليست المعركة رهيبة كما يقول البعض عنها — وجه كفاتشي كلامه إلى تشخويشفيلي .

— كن شجاعاً ! هؤلاء التتر القذرون لن يصيبونا بأذى — قال غابو مشجعاً كفاتشي — لقد تغلبنا عليهم في « حسن كالا » وفي « أرضروم » وفي « وان » وفي أماكن أخرى . في البداية أنا أيضاً ، خفت ، ثم تعودت بسهولة .

صعدوا إلى مرتفع سطحه مستو . أقاموا خيمة القائد في وهدة صغيرة . ترجلوا عن الأحصنة ، ثم زحفوا نحو الراية .

انكشفت ساحة المعركة أمام ناظري كفاتشي . امتدت الخنادق والملاجئ على طول الراية بصفوف غير مستقيمة . كانت القوات الروسية تختبيء في الثنايا الشمالية للراية ، وعلى امتداد الراية كانت

الطريق المغبرة غير المرئية تغص بالقوات المترجلة . وفي الجانب الصخري من الفج العميق كانت فرقة ضخمة من الخيالة تتلوى نحو اليمين كأفعى سوداء ، وعلى أحد التلال كان الجنود والخيول يجرون المدافع بصعوبة كبيرة وكانت في الميدان قلة من السعاة يسوقون الأحصنة .

وكانت السلسلة الثانية تمتد باتجاه الجنوب بموازية السلسلة الأولى ، وبين السلسلتين يتوضع سهل عار نحيف ضيق طويل يغشاه الضباب الصباحي جزئياً حيث كانت تقوم فيه خمس أشجار واحراج ومسايل وحدائق .

رأى كفاتشي من على سطح الراية وعبر المنظار خصمه متمللاً كالنمل ، وفجأة سمع صوت كأزيز الزنبور ، ثم تحول هذا الأزيز إلى ضجة غريبة وعاصفة حديدية وارتفعت تلك العاصفة نحو الراية كالبرق وثلاث قوساً من الحديد والنار . أحنى الجميع رؤوسهم أمام تلك الومضة ، في دقيقة واحدة انحنى البعض قليلاً أمام هذا الغضب الرباني وبعضهم أحنى ظهره والبعض الآخر جلس القرفصاء . ارتدى كفاتشي دون ارادته على قفاه ، والتصق بالأرض . أثناء ذلك انفجرت تلك الومضة برعب على سطح الراية بالقرب من المعسكر وارتفع عالياً عموداً من اللهب والدخان والتراب والحجارة وامتد حتى طاول السماء .

ضحك البعض وفرك البعض الآخر عينيه خوفاً .

وقف كفاتشي الشاحب بصعوبة بالغة . كان مصعوقاً ، تطلع فيما حوله ، ثم تتم بكلام غير واضح :

— فليأخذه الشيطان . . كدت أن أخاف . . كدت أن أهلك ..

- هذه واحدة ستأتي ألف غيرها ! علله غابو — من الآن فصاعداً
- سترى كم سيأتي غيرها . هذه مجرد تحية .
- لقد كشفونا — صرخ أحدهم .
- لا ، جاءت طلقة مصادفة .
- إذا كانت طلقة طائشة قد أحدثت ما أحدثت فكيف لو كانت مقصودة ! — قال كفاتشي لنفسه .
- أبدأ ! أصدر القائد أمره .

تحرك الساعة . راح الهاتف الملقى على الأرض يقطع .

المدفع الجبلي الماكر ينبح كجرو والمدفع السهلي يتألم ويبيكي ، ومدفع « المورتر » يبكي ويقصف ومدفع الهوتزر يهدر ويدمدم و « المترليوز » يقذف كدجاجة بيضاء . كانت القذائف تنوال وتتساقط كحبات القمح على الأرض والسماء تبكي وتزرف كالثلج حففات من القنابل الوردية والصفراء والبيضاء . الأرض مغطاة بلهب الطلقات والدخان وأعمدة الحصى والتراب وكان الهواء مشبعاً بالقصف والهدير والارتجاج ، بالطنين والفحيح ، بأنين المحتضرين والجرحي ، بالنشيج واللعنات ، بصراخ المحاربين وزعيق الهاربين ، بالضجة ، بوقع الأقدام على الأرض وصليل الحديد وبمختلف الأصوات والصراخ المبهم .

أثناء ذلك ومن وقت لآخر ، كان خطا الدفاع في ذلك الميدان يتبادلان الهجوم على شكل موجات ، تارة من جانب وتارة أخرى من الجانب الآخر ، يتصادمون مرة فيكسر أحدهما الآخر ، أو يتراجعون من منتصف الطريق ويختبئون في الحفرات والمسائل .

كان الوقت بعد منتصف النهار . جلس الجنرال التعب من السباب والصراخ يتغدى في ظل أحد الصخور وجلس الآخرون يمضغون .

— يعاني موقع « ديمر — تيبى » من صعوبات كثيرة — قدم رئيس أركان الفرقة تقريره — لقد دمر اللواء الرابع تقريباً .

— ادفعوا بالثالث — أجابه الجنرال باقتضاب وهدوء .

— بقي النصف من هذا اللواء أيضاً .

— ادمم النصف الباقي بلواءين ، وأخبرهم ان مضير المعركة يتوقف على تل « ديمر — تيبى » .

خمدت المعركة في الوسط ، لكنها ازدادت اشتعالاً في الناحية اليمنى . . وكان دوي متواصل يسمع من ديمرتيبى . فجأة ، ومن الجهة الأخرى ، تحركت عدة موجات سوداء قادمة من المسایل وثنايا الجبال .

— جاؤوا مهاجمين . الخيالة تهاجم ! — صرخوا من عدة جهات .

أمسك الجميع بالمناظير وراحوا ينظرون إلى الاعداء نظرة ثابتة .

التفت الافاعي السوداء الزاحفة من أوكارها في الميدان الكبير ونحوت إلى تينين ضخمة .

— أرغمتهم على الصمت ! — أصدر الجنرال أمره وهو يستقبل

ذلك التينين بابتسامة فرح .

سكتت المدافع والمترليوزات وكافة الأسلحة تدريجياً . تحرك

القادة ، وصلوا الخيوط المقطوعة ، نسقوا الصفوف المشوشة وتهيؤوا لمواجهة المهاجمين .

تمدد التين الأسود ، استوى ثم انتصب على يديه ورجليه منحرفاً للوثب .

مرة أخرى قدم رئيس أركان الفرقة تقريره :

— ديمر — تبيي في خطر داهم !

— ألا ترونا ! أي رعد يهدر فوق رؤوسنا . أنا لا أستطيع ان أقدم لهم أي عنصر لمساعدتهم ! أدفع بالقطعات الاحتياطية إلى الأمام وأبعث إلى « ديمير — تبيي » الأمر التالي :

« أمر الجميع ان يصمدوا حتى الموت في ديمير — تبيي ، ومن يتراجع اطلقوا النار عليه فوراً .

— أيها الجنرال ان امراً كهذا . .

— أنا قلت وأنهيت الأمر .

ثم تحول وراح ينظر من جديد إلى أرتال الأتراك المهاجمة . تطلع إليهم ، ثم قفز مبتهجاً وقد نفش شعره :

— شجعان ، شجعان أيها الأتراك ! على أية حال سأدمركم خلال نصف ساعة . سأحطمكم وابعثركم ومع ذلك أنا معجب بكم أيها الأتدال الكفرة !

صرخ كالمجنون ملوحاً بيديه ، قفز ، هدد العدو بقبضتيه وهو بلقي بأوامره المقتضية .

— صوبوا كل المدافع ! جهزوا المزيد من الطلقات قبل ان يصلوا . لا تطلقوا الآن حافظوا على رباطة جأشكم ، انتظموا ضمن الأرتال . تخندقوا !

انشطرت الفرقة التركية . وضعوا العرب ذوي البرانس البيضاء
في الوسط مع الأكراد بعماثهم المميزة . تقدمتهم خيالة سريعو الحركة .
حاملين بيرقاً أخضر يتودون الجنود وهم يصلون وفجأة اهتز الفضاء
جراً تأوه وأين ذلك التنين :

— الله ! . . . الله ! . . .

تقدموا وساروا متمهلين ثم وسعوا خطواتهم تدريجياً ، وجروا .
بعدئذ كالريح . كانوا يحملون في المقدمة الرايات والاعلام الخضراء ،
أعداداً لأحضر لها من السيوف تلمع تحت أشعة الشمس . غطت أعمدة
الغبار المؤخرة . كانت الأرض ترتج وقد طاول صراخ وزعيق
المهاجمين السماء .

— الله ! . . . الله ! . . .

وفجأة دبّ وهدرت كل المدافع المهيأة للدفاع دفعة واحدة ،
وحالاً غرق التنين المهاجم الشجاع بالدخان والرمال والغبار . ارتبك
قليلاً ، بدأ يتلوى ويتلأأ ثم تخطى القتلى والجرحى قافزاً من ضباب
الدخان والغبار وتقدم مرة أخرى نحو الأمام .
اختلط هدير ودوي وصليل المدافع والمترليوزات وآلاف الأسلحة .
وشكلت هديرأ وصليلاً واحداً .

انشقت السماء وسقطت على الأرض صاعقة رهيبية . وفجأة طأ
هذا التنين إلى التل وأطبق بأنياه على الخنادق والملاجئ .

— اقتل ، هيا ، أقطع !

— الله ! . . . الله ! . . .

— صوبوا ، أطلقوا النار ! اذبحوا !

وأختلط الحابل بالنابل : المدافع والأسلحة ، السيوف والحراب ،
الخيالة والمشاة ، الاعداء والاصدقاء .

— انتهينا ، انتصروا علينا ! انقلدوا انفسكم ! — هذى كفاتشي
الأصم ثم جرى بلا عقل باحثاً عن وكر فأرة يحميه . لكن ليس ثمة
من أثر لأي جصان ولم يكن يعرف الطريق . واختبأ ، مرة خلف مجموعة
من الأشجار الجراحية ، وأرتمى مرة أخرى في القناة ثم دخل بين
مجموعة من المقاتلين دون ارادته .

— أيها الأمير كفاتشبا نتي اذره — صرخ الجنرال في أذن كفاتشي
المتحجر المشلول — انقل هذا الأمر إلى الأسفل وسلمه إلى أركان
الفرقة . هناك في المسيل في المكان المغطى ! أترى هذا الجبل يدعى
ديمير — تبيي ! أخبرهم شفويأ ان هذا « الجبل » مفتاح المعركة ،
إذا سلمناه للعدو لن يخرج أحد منا من هذا الجحيم . سننق جميعاً
أسرى لدى الأتراك .

الهاتف مقطوع . حسناً مصير الجيش بين يديك أسرع وداعاً !
وجد كفاتشي اصدقاءه بشيء من الصعوبة . ركبوا الأحصنة
وأنطلقوا ، لاحظوا في الطريق من بعيد فصيلة من الخيالة مشكوك
بأمرها .

— قطعوا علينا الطريق . هاهم الأتراك على اليمين .

غيروا اتجاه الأحصنة في المسيل ، صادفوا الفصيلة الطبية . كانوا
يرتدون الملابس البيضاء مشمرين عن سواعدهم . كان الدكتور كورانا

شفيلي والآخرون يقطعون وينشرون الجرحى بثبات بالمنشير والسكاكين .
كان كل ماحولهم غارقاً في الدم حيث تناثرت الأيدي والأرجل المبتورة
بين الجرحى والمشوهين . البعض مضطربون والبعض الآخر ينتظر دوره .

عند رؤية هذا الدم المراق دارت رأس كفاتشي وأظلمت الدنيا
في عينيه وساعت حاله . أمسك به أحد مرؤوسيه من تحت ابطه وأخرجه
من ذلك الجحيم . استعاد كفاتشي وعيه ، قفز من جديد على الحصان
وابتعد رامحاً ، طار دون أن يعرف طريقه ودوي المعركة يلاحقه .

أجتاز الحصان الرامح صخرة حادة وفجأة دخل جائحاً وسط
رقل تركي . أخاف الهجوم المفاجيء ، الاثراك فتشتوا . لكن على
اليمين كان جرف صخري شديد الانحدار وعلى اليسار فج عميق .
لذلك التصق الاثراك الخائفون بالصخرة مفسحين الطريق لكفاتشي
ومهيئين أسلحتهم .

« إذا تابعت السير إلى الأمام سأهلك وان سرت إلى الوراء سأهلك
أيضاً ! » — برقت الفكرة برأس كفاتشي ، وفي لحظة أوقف الحصان
بقوة فألقى على مؤخرته وقائمتيه الخلفيتين . في تلك الثانية انتضى
كفاتشي مسدس « الناجان » وارتد نحو الوراء .

اثناء ذلك كان مرافقوه قد تجاوزوا الصخرة وبانوا .

— قفوا — صرخ كفاتشي بصوتٍ مدوي في حراسه . أوقفوا كتيبة
الخيالة الأولى وراء الصخرة ولتقف الثانية على الصخرة من الأعلى
ولتتحد سريعاً مع الكتيبة الثالثة التي تقع في مقدمة الكمين . هيا بسرعة ،
بخفة أكثر ! وفي تلك الدقيقة توجه إلى الضابط التركي باللغة الفرنسية :

— ايها السيد النقيب لو أن شجاعتكم وسفكم للدماء سيجديان
أي شيء لما نصحتكم بالاستسلام لكن كما ترون لقد وقعت في الفخ
لن يخرج أحد حياً من هذا المكان ، لذا ألقوا سلاحكم .
أجابه النقيب :

— أنا أرى اني وقعت في الحصار . ماذا يمكنني أن أفعل تجاه
هذه الكتائب العديدة ؟ لقد حاصرتونا حتى أننا لانعرف على من سنطلق
النار ، هاكم سلاحي ! وألقى بسلاحه على الطريق وتبعه الآخرون
ملقين بسلاحهم مدئين قرعة .

— أجمع السلاح في مكان واحد . أمر كفانشي ذلك النقيب التركي .
نقل النقيب الأمر إلى عساكره وبعد خمس دقائق كانت مئات
الأسلحة مكدسة وسط الطريق .

— غابو ، رافق هذين الروسيين ليقودا هؤلاء الأسرى التتار .
حسناً وسنسير أنا وأنت وراءهم .

.. سار مائة عسكري خلف ثلاثة وسار اثنان من ورائهم .

— حسناً أيها النقيب حركوا جنودكم .

— حالاً لكن اين كتائبكم ؟

— لو كانت ادي كتائب لما أسرتكم فقط بل كنت أسرت فيلقكم
بكامله .

بدأ الأتراك يضربون رؤوسهم ويدملعون بصوت عال :

— أي كوب ، أوغلي . دونغوز . . شيطان ! . . نقيب شيطان !

ضحك كفاتشي والنقيب التري أحدهما فرحاً ومن أعماق قلبه ،
والآخر حزناً ومرارة .

فجأة التقى رتل كفاتشي بمجموعة كبيرة من الجنود . كانوا
مدعورين يجرون لايلوون على شيء وهم يصرخون :

— التفوا حولنا قطعوا الطريق علينا . انجوا بأنفسكم أهربوا !

خرج من تلك المجموعة بشيء من الصعوبة جنرال شاحب لم
يره كفاتشي من قبل معصوب الرأس ووقف أمام كفاتشي :

— أيها النقيب ! ساعدونا أترى ذاك التل ! لقد أخذته الاتراك ،
أسروا قيادة أركان الفرقة ، قتلوا كل ضباطنا تقريباً . لقد بقيت وحدي .
إذا لم نسترد الآن ذلك التل سيقع كافة جنودنا في الأسر لدى
الاتراك . الأمل معقود عليكم وحدكم . تذكروا وطننا ، القيصر ،
الواجب . حاولوا . . ساعدوا . وسقط الجنرال الجريح في الغبار .

ماذا حدث في قلب كفاتشي تلك الدقيقة ؟ أي شيطان مكث فيه ؟
من وكيف ولد من جديد فجأة . هذا ما لم يفهمه أحد لا كفاتشي
ولا الآخرون .

— قفوا ، قفوا ! أقول لكم أيها الأندال ! صرخ كفاتشي
في وجه القطيع وقطع طريقهم وأطلق حصانه عليهم مباشرة .

— لقد التفوا علينا ! أنقذونا !

— أقول لكم قفوا . وإلا . .

وصوب المسدس على صدر الرجل الذي يتقدمهم .

سلم مرافقو كفاتشي الأسرى الاتراك إلى الآخرين ثم وقفوا إلى جانب كفاتشي المثار مهينين أساحتهم .

حدث شيء غريب غير مفهوم . تحولت انكسرت حياة وطباع كفاتشي في تلك الدقيقة وبدت للعالم معجزة مدهشة : مات كفاتشي السابق واختفى في تلك الدقيقة ولد كفاتشي آخر مجهول وجديد ، شجاع لاينحني . جريء لا يهاب شبيه بـ : ليونيد تيرمويلسكي « أو الاسكندر المقدوني أو هرقل كاخيتنسكي (١) أو نابليون أركالسكي .

فجأة نما لكفاتشي جناحا نسر وتحت هذين الجناحين اختبأ الملاك جبريل وقد سلمه سيفه القاطع الناري . أضحى في صدره قلب أسد ودخل روحه رئيس شياطنة الجحيم مصطحباً معه ألفاً من الشياطين الصغار . وبالرغم من طوله ازداد طواه شراً : أضاء وألهب القطيع الشارد بعينه النارية وأصمهم بصوت كالرعد :

— قفوا ، اجتمعوا !

مرة أخرى جرى المائة الفاقدون رؤوسهم . طار كفاتشي حول الميدان كالنسر ورمى سبعة رجال منهم بسبع طلقات ، ثم انتصب على حصانه بنقمة وابتمسم للآخرين ثم دب فيهم ناراً إلهية :

— أيها الأخوة مضير القطعات بين أيديكم . الطريق أمامنا مقطوعة سببت في الأسر وان نستطيع النظر في عيون الناس من الجبل . أيها الأخوة عدة آلاف من رفاقكم ، القيصر والوطن ، جميعهم ينظرون إليكم ويسألونكم تأدية الواجب الأخوي الرفاعي الوطني . لاجنباء

(١) - هرقل كاخيتنسكي : قيصر جورجيا .

بيننا . من يخونكم ويهرب سيقى . نفس مصير هؤلاء الكلاب الذين
قتلتهم بيدي منذ برهة . سأمضي للأمام وأنتم لن تتخلفوا فلنمض
ولنؤدِ واجبنا .

— افراد صف الضباط تقدم ! انتم منذ هذه اللحظة ضباط .
شكلوا ووزعوا فصائلكم !
بعد نصف ساعة تحولت الكتيبتان إلى أربع كتائب ضمن ثلاثة
أرثال .

— استديروا ورائي !
ومضى بخطوة هادئة نحو ذلك التل .

— انتظموا بسرعة سوية !

ترأس لادي تشيكنينج لادزه الجناح الأيسر و « غابو تشخويشيفيلي »
الجناح الأيمن ، ورافق الأرتال الثلاثة جداراً متحرك حديدي . غابة ثابتة
غليظة غير هيابة قوامها أربعة آلاف من الحراب ، جميعهم أحنوا
ظهورهم وشدوا حرابهم إلى الكتف الأيسر وتحركوا إلى الأمام .

— صفّاً واحداً ، بسرعة سوية !

في البداية شملت الضوضاء ذلك التل ، ثم انهالت منه الطلبات
كحبات البرد . سقطت على ذلك الرتل — الجدار الحديدي أحجار
قرميذية ومع ذلك لم يتوقف أحد ، لم يتخلف أحد ، لم يطلق أحد طلقة
واحدة .

القي هذا الهدوء والمسيرة الحماسية الرعب في قلوب العدو وتوترت
أعصابهم ، تهامس الاتراك المغتاضين :

— شيطان غيلير ! الله : الله . . . ! — وهم يطلقون النار بأيدي مرتجفة .

ومرة أخرى سار كفائشي في مقدمة الجدار الحديدي طويلاً منتصباً . كان أحياناً يلتفت نحو الورااء يخترق الجدار بعينه الناريتين ، ثم يلوح بحربته صارخاً مرة أو مرتين :

— ورائي صفّاً واحداً !

وأقرب الجدار الحديدي صامتاً من التل ، وتسلفه كالدب . ضغط ثم انهال على رؤوس الأتراك .

— هيا ، أضرب ، أقطع ! ، يصرخ كفائشي فاقداً صوابه ، متجولاً وسط نار المعركة سيمه يلمع كالبرق ، وعيناه الناريتان تنظران إلى الجميع من عال .

اشتعلت معركة قصيرة ورهية . اشتبكوا بالسيوف والحرااب والخناجر وأعقاب المسدسات والبنادق ، بالأيدي والأرجل والأسنان .

— اسرى ! سنستلم ! — سمعت أصوات الجنود الأتراك من مختلف الجهات .

— لقد انتصرنا ! أضربوا ! — قال كفائشي هادراً .

بتر يد أحد الأتراك وقطع شرايين رقبه تركي آخر وشق صدر الثالث وجدع اذن الرابع ووجه رأس السيف إلى جبين الخامس وكان عربياً ممشوق القامة . لكن فجأة لمعت في عيني كفائشي طنت في أذنيه الاجراس وغطى وعيه ضباب أسود ثم وضع يده اليسرى إلى صدره ، لوح بيده اليمنى جانباً رمى بانسيف بعيداً محدثاً صليلاً وأرغم كعمود مقطوع على ظهره على الأرض .

« هذيان غريب » .

يستلقي كفاتشي كفاتشا نثير اذره وحيداً في ميدان واسع على ظهره ،
فيهما - حوله - رمال صفراء فقط ، الصحراء تنفث حراً ، والهواء مشبع
بالبخار الحار .

يستلقي كفاتشي وحيداً - وحيداً على الرمال الحامية ، يكاد يختنق
من القىظ والعطش .

على صدره الجريح خط غراب أسود ، ينقر جزأه بمنقار يشبه
المحرز . محالبه الحارة تبقر في احشائه تنقب في قلبه وكبدته وأحياناً
ينقر الغراب في عيئه ثم يستريح بهدوء ناظراً إلى الصحراء باعتماد .
غير بعيد جثمت ضئيع شغساء سوداء الفم رهية أخذت مكانها
تنتظر حلول الظلام ، فهي تعلم أن كفاتشي سيكون من نصيبها عند
الفجر وفي نفس المكان لن يبقى من كفاتشي سوى عظام معراة .

سقطت سلسلة ذهبية من السماء . تسلق جرو صغير تلك السلسلة
ويصب على كفاتشي الأحمر الأجمر . يسيل الأحمر . حول فم كفاتشي .
يفتح كفاتشي فمه كالرزور محاولاً ان يقتنص ولو قطرة واحدة ،
لكنه لا يستطيع ان يحرك يديه ورجليه الجذرة ولا يتمكن من زحزحة
رأسه التي اشتعلت حرارة من مكانها .

يعذب الجرو كفاتشي طويلاً : يمزح ، يضحك يكر على اسنانه
يكشر ، وفيجأة يتسلق نفس السلسلة ويختفي في السماء .

فيجأة انتعشت تلك الصحراء بشكل عجيب ، يرى كفاتشي بوضوح
المتنزعات الباريسية ، الحاديات ، الحداث ، المقاهي ، الساحات ، الناس
الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم .

يجري « غريشكا » الثمل قافراً مع « يلينا » العارية الصدر . تخطر
في مشيتها كالطاووس الليدي هارفي — عشيقة كفاتشي اللندنية .

« تخرق مذام ليا بوش كل ماحولها بعينها المتقدتين كالجمر . تميس
« ريفيكا » ذات العينين الزرقاوين برشاقة بطلاقة وثقة ، ضاحكة
بابتسامة سعيدة يمشون :

تانيا ، سوسانكا ، اسحق ، فيرا ، سيدراك ، يسو لادي ، تشيبي
وألف من معارف كفاتشي — النساء والرجال .

لكن أحداً لا ينظر نحو كفاتشي ، لأحد يلحظه .

مرة أخرى افقت الضبع ذات الفم الأسود تنتظر الظلام ، ونقر
الغراب الأسود قلب كفاتشي ومد نفسه باتجاه عينه .

— ماء ، ماء ! صرخ كفاتشي في نفسه لكن أحداً لم يسمع صوته .

سعى كفاتشي جاهداً ، استجمع قواه ، حاول الصراخ ، لكنه
لا يستطيع ان يصدر صوتاً ، لا يمكنه ان يحرك اية عضلة من عضلاته .

اختفت المدينة واختفى الناس أيضاً ، وبدأ الغراب الأسود ينقر
مرة أخرى والضبع ذات الفم الأسود تنتظر الظلام .

فجأة وقف بالقرب من كفاتشي « كورانا شفيلي » بلباس غريب
يحمل قوساً ونبالاً ويرتدي صدرية ودرعاً .

— كفاتشي ، قف واتبعني !

ركب الاثنان حصانين مجنحين وطارا . طار الغراب الأسود في
اثرهم وكذا جرت الضبع على الأرض .

— كالسهم يجري حصان احلامي ، ويقتفي الغراب أثرنا ناعقاً
بتجههم — هكذا بدأ كورانا شفيلى بالغناء ثم قال لكفاتشي :

— آه ، آه ، هي ذي مرتفعات « جولامركا » وسلسلة « جيوارته »
.. رواندروز .. خالقين .. سامراء ..

في كل مكان يسعى الجنود ذهاباً وإياباً . القتل هامدون على ظهورهم ،
والجثث تنقرها الغربان وتنهشها الوحوش ، عرف « كفاتشي »
و « كورانا شفيلى » الكثيرين من بين الموتى والأحياء .

— أيها الأخوة عمّ تبحثان هنا ؟ مالذي أتى بكما إلى هذا
المكان القبيح ؟

— لاندرى ، نجري وراء قلوبنا ، نبحث عن قلوبنا .

وفي إيران تعرفنا أيضاً على بعض الأحياء والأموات ، الحدود
والحدود القدماء .

— أيها الأخوة ، لماذا استبدلتم وطنكم بهذه الصحراء . ؟

— هذا العالم الفاني اجبرنا على الاستبدال .

وفي انغانستان كانت حدود « هرات » و « قندهار » مهدمة ،
وسفوح « الهندوكوش » مروية بدماء الأقرباء . نهض الحدود من قبورهم :

— أيها الأخوة من سقى آسيا الوسطى بدمائكم ؟

— القدر . لقد ناصرنا « نادرشاد » ، كنا أول من تسلق جدران
قلعة هرات وقندهار . اجتازا سلسلة سليمان والبنجاب والغانج المقدس
واقتربا من العاصمة الهندية « دلهي » شاهجان اباد سابقاً . قابلا في كل

مكان هياكل عظمية وأرواح الأقرباء الذين جروا معها وقد تعلقوا
بحصانيهما باصابعهم العظيمة متوسلين .

— خذونا ، ارجعونا ، وحدونا !

— من جاء بكم إلى هذا المكان القصي ؟

قفز باتاراكاخي (١) متقدماً :

— لقد أحضرت البعض معي ، والبعض الآخر استقدمه غيري .

— عن تبحثون ؟ من طاردتم ؟

— جرينا وراء قدرنا — بحث البعض عن المعجذ والرغد والبعض

الآخر ساقهم قوة غريبة . جرى كفاتشي وكورانا شفيلي عبر الجزيرة
العربية ومصر وبلاد آشور وبابل ، عبر الدول القديمة والحديثة .

اضنى الجري والصراخ في البحر اللا محدود من الهياكل العظمية
كفاتشي وأصممه وأخيراً قال : « كورانا شفيلي » منهاراً شاكياً :

— ماذا تريد مني ؟ لماذا تجرني معك عبر هذا الجحيم ؟ اخرجني

من هنا كفاني تعذيباً . سأله كورانا شفيلي :

— كفاتشي ، ماذا تريد في تركيا البعيدة ؟ من جاء بك إلى هنا ؟

عم كنت تبحث ؟

— الشيطان يعرف ماأريده ! ماء ، أعطوني ماء ، أعطوني

ولو قطرة !

ونزل الجزو مرة أخرى من السماء على السلسلة ، ثم اساح ابريقاً

من الخمر أمام كفاتشي ، لكن قطرة واحدة لم تقع على لسانه . مرة
أخرى اختفى كل شيء .

(١) باتاراكاخي : قيصر جورجيا المرقلية .

كفاتشي مستلق في حديقة الجنة . على جبينه حط الغراب ، وعند
أقدامه جثمت الضبع من جديد .

بدا لكفاتشي أن كل شيء معروف بالنسبة إليه : سماء الوطن ،
البحال ، الحقول الدوالي والبناء كل المناطق المحيطة . تذكر
بـ « سامريديا » وباطومي وكوتايسي وتفليس . وفي مكان غير بعيد
يحوم جمهور غفير من الناس : أهل واصدقاء كفاتشي ، معارفه
واقرباؤه ، غريشكا وتانيا ، يلينا وغينتس ، النبلاء والحاشية الحمقى
والمذنبون ، الناس البسطاء ورجال القصر .

الجميع يشيرون باصبعهم إلى كفاتشي متململين :

— اقبروه ، ضعوه في الثابوت ، انزلوه إلى الأرض ! يصرخ
البعض ويسوقون أهل كفاتشي واقرباءه واصدقائه إلى ناحية جانبية .

يعارض البعض هؤلاء الحمقى ، يطلبون البكاء والغفران . يستمر
الصراع طويلاً وأخيراً يظهر القيصر والقيصرة ويأمران :

— اقبروه !

تحرك الجميع من امكنتهم وركضوا نحو كفاتشي . صرخ البعض
منتصرين وصرخ البعض الآخر حزينين ناديين . أدى القيصر والقيصرة
ومشاهير الحاشية وكبار القادة الروحانيين قداس الجنائز على كفاتشي .

ثم شكل غريشكا والحمقى والمذنبون وكافة الزملاء جوقة مجنونة .
قفز الجميع ، تمايلوا صرخوا على أسنانهم :

— سنأخذه إلى الجنة إلى الجنة !

— لاأريد الذهاب إلى الجنة لاأريد — زعق كفاتشي ، لكن

أحداً لم يسمع صوته . ثم غلاصوت نشيج رهيب . فجأة اندفع الجميع نحو كفاتشي وكضعوه في تابوت كبير

.. ماما ، بابا ، ماذا بكما ؟ أنا حي ، ليسو ، شيلزالك ..

يبكي البعض ويفرح البعض الآخر . يضغط الواقفون في المؤخرة على المتقدمين ويصرخون :

.. كفاتشيكو يمضي إلى الجنة ، إلى الجنة !

.. ماما ، بابا ، يتوسل كفاتشي .. إذا كنتما لاتستطيعان المساعدة .
تنحيا جانباً ، لاتحملا في عنقيكما خطيئة موت ابنيكما !
.. تهكي بوبوي وتهمس له :

.. ان يصيبك مكروه يابني ، هذا أفضل لك صدقي !

مرة أخرى تحط الغراب على رأسه وقبعت الضبع على ركبتيه .
زحفت الأفعى السوداء إلى التابوت والتفت حول عنق كفاتشي .
أغلقوا التابوت بغطاء خشبي وسمروه بالنسامير ، أحترق أحد النسامير
جبهة كفاتشي . وخرج من نقرته . انزلوا كفاتشي المختنق في قبر سحيق
وودعوه بصراخ النصر وضوضاء الفرع ، ثم بدؤوا يردمون التراب ..
عليه ضاحكين ، وتدرجياً هدأت الضجة وسكنت

كفاتشي مسجى في أرض سوداء : أنه يلحظت إلى جرعة بنفسه .
الغراب الأسود ينقر في عينيه والأفعى تزحف إلى حلقه وتنتهشن الضبع
صدرو . وتحفيل الذبدان الرطبة جروحه . كفاتشي ملقى في الأرض السوداء
نشوى بلا رحمة يختنق يستلقي وهو يفكر :

— آه ، عبثاً فعلتم هذا . . لن أموت لأنني لأريد أن أموت ولأن
هذا غير مدون في الكتاب المحفوظ ويحكم ! — وقام مرة أخرى .
فجأة أصبح له قوة مائة مارد ، ضغط ورفع البلاطات المدعمة
بالطوب وقذف بها ككومة من القش . هبّ واقفاً ، انتصب وأصبح
أعلى من الجبال .

عند اقdamه جلس الدافنون بحجم النمل حول مائدة التأبين العامة .
حين رأوه صرخوا وزعقوا . داس كفاتشي المائدة ومعس « غريشكو »
و « ميتيا » و « كوليا با » والحمقى ومئات من رجال الحاشية .
في تلك الثانية دبت قوة جبارة في يديه ورجليه .

— دعوني — بصرخ كفاتشي ، يتغاب في نومه يتملأ فاتحاً
عينيه .

— أهدأ كفاتشي ، أهدأ — قال الدكتور كورانس شفيلى
بصوت حلو .

أمسك المرضون بأطراف كفاتشي بشدة .

— قتلوني دفنوني ! . . لكنني بعثت من جديد نهضت كسرت
تغلبت سحطت !

هذى كفاتشي كالسابق .

خرج الغراب من النافذة طائراً . طوت الضبع ذيلها وخرجت من
الباب وانسلت الأنفى السوداء .

— عبر ثقب في الحائط القى كفاتشي برأسه إلى الوسادة ميلاً
بالعرق ، خائر القوى .

تطلع فيما حوله مغمض العينين نصف اغماضة ثم قال :

— ماء ، من أجل الإله ماء !

صبب الدكتور كورانا شفيلى في فم كفاتشي جرعة من النبيذ
وقال بصوت حازم :

— سيتعافى ! — وخرج من الغرفة .

يجلس ملاك أبيض بالقرب من رأس كفاتشي ، ملاك مرتد ثياب
التمريض ، على صدره صليب احمر ، يمسد بخنان ولطف شعر
كفاتشي الأجدد وجبينه الذي يتفصد عرقاً ، ويغني له بصوت ناعم
ليلكي أغاني الفروسية ويهمس إليه بحكايا الشجاعة .

« خصام كفاتشي مع النبلاء »

كان اللعاب يتطاير من فم « سوخوماينوف » الشاحب النائر :

— مامعنى هذا أيها الأمير ؟ ! لقد بدأنا حرباً كبرى عاقدين الأمل
على قذائفكم . لكن اتضح ان هذه القذائف من عيار مختلف . تفجرت
المدافع وخسرنا المعركة وقتل الكثير من الناس ولم يعد لدينا قذائف .
نحن الآن نتراجع ونقاوم العدو بالهراوات . أنا أسألكم مامعنى هذا ؟
— لأدري ، أنا لأفقه شيئاً عن اسئلة المدفعية — أجابه كفاتشي
بهدهوء مبتسماً وهو يلعب بالصلبان الثلاثة المعلقة على صدره .

— تشتم رائحة الخيانة أيها الأمير . انا اعتقلكم ، سأطلق النار
عليكم !

انتصب كفاتشي مستاءً :

— كن أكثر حذراً أيها الجنرال !

وقف غريشكا بين كفاتشي والجنرال مهدتاً الاثنين . هزّ كفاتشي
أصبعه أمام أنف الجنرال :

— لولم تكونوا وزير القيصّر لأعدت تلك الكلمات إلى خلقكم .
عندما سأنحيكم عن منصبكم احذروني سأثقبكم بالرصاص .
وخرج حائقاً صافقاً الباب بشدة حتى كاد زجاج النوافذ ان يسقط .
تعقدت الأمور وتشابكت . استدعاه القاضي الفرد العسكري
واستجوبه :

— ماذا ؟ أباع كفاتشي الوثائق ؟ اعطاها للألمان ؟ أين ؟ في
ستوكهولم ؟ أي هراء قالوا ؟ أي اتفاق حاكوا ؟ في ستوكهولم
لم ير كفاتشي ولم يقابل أحداً .

آه — آه شيء مضحك لا أكثر . ليكف كفاتشي عن المزاح والضحك ؟
ليس كفاتشي المازح بل يبدو أن القاضي الفرد العسكري هو من يمزح .
لا لن يتمكنوا من اهلاك كفاتشي بتلك الطرق .
حذر القاضي الفرد العسكري محضراً وقال :

— من توجه إليه مثل هذه التهمة الكبرى يجب ان يدخل السجن ،
لكن احتراماً لصديقك الأب القديس غريغوري ، وبأمر منه مازلت
طليقاً . وقع هذا التعهد بأنك لن تسافر خارج بطرسبورغ .
وقع كفاتشي ، خرج ثم هرع إلى غريشكو .

— أيها المعلم المقدس ماهذا ؟ يبدو أنهم لايمرحون . ساعدني
بأي شكل وإلا سيبدأ اعداؤنا بي أولاً ثم يأتي دورك .
قال غريشكو متدمراً :

— اسمعني يا « ابولون »، نحن متآخيان، لم أتوان عن شيء . نفذت
لك كل شيء . أمنت لك الثروة والامارة والقبعة المستديرة والصلبان
وتسميتك رجلاً من رجال الحاشية والاحترام والسلطة . الزمن تغير .
الآن لم تعد لدي القوة الكافية . أعداؤنا ينتصرون . بلادنا كلها تتحدث
عنك . يطالب الجميع باعدامك نظراً لأن وزر الهزيمة الأخيرة يقع
على كاهلك . أنا لأدري من هو المحق ، من هو المذنب . هذا
ماستكشفه المحكمة . لقد ساعدتك ما استطعت .

لن يعقلوك مالم تصل الوثائق الأخرى . اعتزل الناس لانتجول
في أي مكان ، أصمت وعش قليلاً في الظل . هذه هي نصيحتي . لا تطلب
مني أكثر من ذلك .

فعلاً لزم كفاتشي البيت . أدّى أنف لادي ويداه المدربتان جيداً
دور الاعلام على الوجه الأكمل . كان يتلقى كل يوم ومن عشرات
الجهات، الأخبار الصادقة . على أية حال باعوا « ساماريتيانين الطيب »
وكافة الممتلكات المنقولة وغير المنقولة إلى غرينتس ، وخبؤوا تلك
الأموال لدى سليسترو الذي أصبح يعيش من جديد في بطرسبورغ .
أدانت بعض الصحف كفاتشي وذكرت اسمه بلا احترام .
أرسل كفاتشي إلى الجرائد التي كان يتعامل معها رداً مناسباً . ثلاث
صحف نشرت رده مع الملاحظات — والاختصارات، والصحف الأخرى
أرسلت اشعاراً بامتناعها عن النشر .

- « الحقيقة — الوضع سيء » — فكر كفاتشي .
- وفي نفس الوقت لم يحمل بيسو ، لادي وبقية العملاء أية انباء سارة .
- لاتسير الأمور كما يجب—عبر بيسو عن رأيه ضائناً بالكلمات .
- اهرب من هنا — قال تشيكيينجيلاذره ناصحاً .
- آه ، هذا لاينفع لم يحن الحين بعد — أجاب كفاتشي .
- جرب حظه مرة أخرى . زار معارفه من الوزراء وأصحاب المناصب العالية ورجال الحاشية . كان يقال له في كل مكان: « هم غير موجودين في البيت » أو لاوقت لديهم » أو « انهم مرضى » .رد أيضاً غريشكو نفس رده السابق .:
- أنا لاأستطيع أكثر من ذلك !
- ابتعد الجميع عنه ،أغلق الجميع الأبواب في وجهه وغسلوا أيديهم منه .
- اهرب — نصحه لادي وبيسو مرة أخرى .
- آه ، ابدأ — — قرر كفاتشي وقال متوعداً : سأرى قريباً من سيذهب إلى الآخر راجياً . لن يروا ساعة هلاك كفاتشي بل قريباً سيهلكون .
- في اليوم التالي دخل تشيبي راكضاً :
- هلكنا ، انتهينا .لقد اعتقلوا آل « ايدلسون » .
- الاثنين معاً .
- الاثنين — اسحق وريفيكا . هيا انقلدوا أنفسكم اختبؤا .
- أركضوا ، اسرعوا !

قال كفاتشي بهدوء واختصار :

— الآن فعلاً حان الحين .

ثم خلع أوسمته وصلبانه وقذف بها قائلاً بغضب :

— يكفيني مارأيت من جورهم ! فليذوقوا الآن طعم انتقامي وكفى !

في ذلك اليوم غير جهته بزاوية تسعين درجة .

« عن تنبؤات كفاتشي وكيف سقط في المصيدة »

ذات مساء أخبرت يلينا كفاتشي عن طريق ييسو : « تعال إليّ

حالاّ ولن تندم . ربما ساعدك ذلك في حل مشكلتك » .

بعد نصف ساعة صعد كفاتشي إلى بيت يلينا .

أرجو ان تتعارفا — وقدمت يلينا كفاتشي ا « بوريشكفيتش »

الأصلع ذي اللحية السوداء .

فوجيء كفاتشي وسرّ . فكرر : « يستطيع فعلاً ، هو يستطيع » .

تعارفا . بدأ كل منهما يزن الآخر ويسبر أعماقه . تحدثا وتهامسا

طويلاً .

في اليوم التالي عرف بوريشكفيتش كفاتشي بالامير العظيم

« ديمتري » والامير « فيليكسون يوسوبوف » والنقيب « سوخوتين »

والطبيب « لازوفرت » .

استمر العشاء والهمس حتى مطلع الفجر . اتفقوا على كل شيء ،

رسموا الخطة ، اقسموا على الاخلاص فيما بينهم ، ثم تفرقوا .

بعد ان تفرقوا قال لبيسو وللرافاق الآخرين بابتسامة تقطر سماً :

— يجري الصياد وراء الوحش والوحش يصطدم به من تلقاء نفسه . هذا ما يحصل هؤلاء الحمقى . لقد جن أولئك البلهاء تماماً . يأكلون أنفسهم بأنفسهم . يهدمون بيوتهم الخاصة فوق رؤوسهم . يقطعون بدأب وحماس محموم الغصن الذي يقفون عليه . تنتن السمكة بدءاً من رأسها . قيل هذا المثل في مثل هؤلاء الناس . يبدو أنهم قلبوا البلاد رأساً على عقب ، ثم بدؤوا من الأعلى ! ها ! ها ! يرجوني : علينا ان نتحرر فساعدنا . حسناً أيها السادة في عمل خير كهذا ، طبعاً سأساعد بكل تأكيد . سأساعد ، لكن هؤلاء الحمقى لا يعرفون أن قطرة الدم التي هدرتها اياديهم ستتحول إلى تيار سيغرقون هم فيه قبل الآخرين . لا يعرفون ان النسمة التي تطلقها اياديهم ستتحول إلى زوبعة تمحو أثرهم من على وجه الأرض ، كما محت الريح وجففت ثلج العام الماضي . .

هاها ! ليسو أليست اعجوبة مضحكة ان عدوك الذي تقتفي أثره لتقتله يضع بنفسه المسدس في فمه ويطلب منك المساعدة ؟ ! قال السيد المسيح : ساعد قريبك في محنته وكذلك تعلمني مسؤوليتي الانسانية والحسابات تقول لي ذلك وضميري يملئ علي مثل هذا . ها . نعم أيها السادة نعم ، سأساعدكم في هذه المسألة طوعاً وبكل سرور سأساعدكم ! .

ثم لوح بأصبعه في الهواء وكأننا يتوعد أحداً ما وتنبأ كالغراب : — انظروا . اعطوني مهلة . سيحين الوقت وستندمون بمرارة . ستضربون رؤسكم بالحائط . ستشربون من دمكم وستمزقون لحكمكم ولا تلوموا سوى انفسكم ، وسيكون الوقت قد فات على عض المرفق ووجع الرأس وصرير الأسنان !

انتصب كفاتشي فجأة ، تمطى ، ثم شمع تماماً كما فعل ذات مرة
عند سفح تل « ديمير - تيبى » . ارتجف صوته ولمعت عيناه :

— أيها الرفاق تذكروا كلمتي ، وإذا متّ مبكراً انقلوها لكل العالم ،
للتاريخ . إنني أقول انا كفاتشي سليستروفيتش كفاتشانتير اذره ،
أقول أنه حين دخلت روسيا زوبعة الحرب العالمية في الرابع عشر من تموز
عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر ذبحت نفسها بيدها . هذا أولاً .
بعد عدة أيام ستجث مجموعة من النبلاء ورجال الحاشية قطباً من أقطاب
روسيا هذا ثانياً . وبعد مايقارب الشهرين ستساعد تلك المجموعة القوى
الساخطة السرية وتنفق معها وتعطي مخرجاً لذلك « السد » العميق اللامحدود
والذي تراكم خلال ألف عام ، هذا ثالثاً . وستتحرك هذا « السد »
بشكل مربع إلى أن يغرق روسيا الحالية ، هذا رابعاً . وهذه القوة
ستضعاف بعدئذ وستثير عاصفة وستسقط السلطة الجديدة محدثة ضجة
ودويًا هائلاً .

تحدث كفاتشي وكأنه سابح في خياله . اشتعلت عيناه بنار خفية
وصار صوته لاهباً جراء اشراقة غريبة . لم يعد يلحظ أو يرى أحداً .
كان كهرفاف غارق في الوحي محاط بقوة خفية :

— أيها الرفاق — تابع كفاتشي قوله — لي الكثير من الاعداء .
أعلم . أنهم يسعون لمحو أثري وحذف اسمي من التاريخ . لكنني أعلم
أيضاً أن لدي الكثير من الأصدقاء امثالكم . من يدري ربما قتلت ،
لكنكم لن تسمحوا للمؤرخين بأن يرموا باسمي في مزبلة النسيان .

هذه كفاتشي وتفاخر وقال الكثير من الهراء ، لكن رفاقه لم يتذكروا سوى ماذكر اعلاه ، وقد فقد التاريخ كترأ ثميناً .

لقد قلت لكم ذات مرة : التاريخ الثرثار يكذب دائماً . هذه الحقيقة البسيطة تأكدت مرة أخرى فيما يتعلق بكفاتشي . كُتب عن روسيا خلال عشرة أعوام كتب لا تتسع لها مائتا عربة . قرأ البعض هذه المادة المكتوبة من البداية وحتى النهاية ، لكن هاكم جمود العالم — لم يعثروا على اسم كفاتشي في أي مكان . لقد نسب الآخرون لأنفسهم أعمال كفاتشي العظيمة وخدماته اللامحدودة واهتمامه الذي لا يقدر بثمن . اختلسوها وتقاسموها . لكن والحمد لله مازال لدى كفاتشي الكثير من الشهود الأحياء . ثمة على الأقل « بيساريون شيكيا » « تشيبي تشيونيترادره » « سيدراك افلابريان » « لادي تشيكنجيلادزه » « غابو تشخوبشيلي » أو حتى « جليل ايمين اوغلي » وكثيرون آخرون الذين يؤكدون ماذكر اعلاه وما سيأتي ذكره . حاولوا الا تصدقوا !

« عن العرفان بالجميل وتشويه التاريخ »

في اليوم التالي اجتمع كفاتشي مع بوريشكيفيتش ، يوسوبوف وآخرون من جديد .

— سنقتله برصاصة مسدس — قال أحدهم .

— سنخنقه ! — قال ثالث .

— هذا غير مجد ! — قال كفاتشي أخيراً — يجب كسر المحور

الذي تدور حوله روسيا الحالية .

اعجبوا بذلك أشد الاعجاب .

— سنكسر ، سنكسر ! — تصايحوا مقاطعين بعضهم بعضاً .
بعدئذ تفحصوا خطة كفاتشي ، أثنوا عليها ثم انصرفوا .

— أيها المعلم العظيم أيها الأب القديس — قال كفاتشي لـ « غريشكا راسبوتين » في ذلك المساء — لقد اهتممت بي كثيراً ، أريد أن أرى بعضاً من جميلك إذا كنت رائق المزاج — خمس سنوات يرغب الاستحمام . .

وهمس مبتسماً في أذنه كلمات قليلة. تألق وجه غريشكا وصارت عيناه زيتيتين .

— أين ؟ متى ؟

— هذه الليلة ، لدى الأمير يوسوبوف. ندعوك أنا و « فيليكو » فنحن مدينان لك .

— جميلات ؟

— الخمس ، جميعهن جميلات ، احداهن سوداء الشعر والأخرى . . .
لم يسمح له غريشكا باتمام حديثه . ضم إلى قلبه صديقه الشكور وحارسه الأمين .

حين أوْشك الليل على الان্তصاف ركب كفاتشي ويوسوبوف السيارة إلى بيت غريشكا ، وصعدا السلم .

— لا ، لا استطيع ! — فجأة همس « فيليكس » مستنداً إلى الحائط .

— أيها الأمير شيء مخجل ! — قال كفاتشي متأبطاً الأمير المترنح ،
كن أكثر رجولة ، انت لست فتاة في سن الزواج !

- هذا صعب علي . . هذه خيانة ، انا سأقتله هنا . . لكن أن أستدرجه إلى بيتي — لا هذه ليست رجولة .
- أقول ، شيء مخجل أيها الأمير ، كان عليك ان تفكر بهذا من قبل .
- فعلاً — صبحا فيليكس ، صعد الدرج راكضاً ثم قرع الباب . عانت الاثنان غريشكا الذي كان مرتدياً ثيابه بأناقة . قال كفاتشي لـ « غريشكا » متكلفاً الضحك :
- حسناً أيها الاب المقدس ، فلنمض إلى تلك الأماكن المقدسة ! بدا « غريشكا » وكأنه ذاق دودة الشك :
- ابولون قبُلتك تشبه قبلة يهوذا ! وتطلع نحو الاثنين . لمعت في عينيه نار الريية وأحس في نفسه بالخطر . وأغرق كل منهما الغدر والمكر والرياء في بحر الضحك والمزاح
- ابولون نحن متآخيان . . قدمت لك الكثير . إذا كان ثمة شيء في نفسك فاذكر الاله واخرجنا وإلا . . .
- أيها المعلم العظيم ، أيها الأب المقدس أنتم تمزحون أم . . .
- قالها كفاتشي باخلاص فانطفأت نار الشك لدى غريشكا في الحال .
- مجنون ألا تفهم المزاح ؟ — قال غريشكو وضرب باصبعيه ذقن كفاتشي وحرق في عينيه مرة أخرى وهدده — « احذر كيدي » .
- بعد عشرين دقيقة كان الثلاثة يجلسون في الطابق الأسفل من قصر يوسوبوف يتحادثون بطيبة ، يأكلون ويشربون .

شرب كفاتشي وفيليكس الشامبانيا للمرة الرابعة قالوا

« غريغوري » :

— أيها الأب المقدس هو ذا شرابكم المفضل « مارسالا » ، لماذا

لا تحتسونه ؟

— لا أريده الآن .

ومن الطابق الأعلى كان يسمع صوت الحاكي .

— لم ينفصّ الضيوف بعد ، حماتي هنا أيضاً . قال يوسوبوف

أ. « غريشكو » للمرة الثالثة — سيمضون الآن وسيأتي دوركم . النساء
هنا لدينا .

فجأة أفرغ غريشكا كأسين من « المارسالا » و « تمزمز » بفطيرتين

صغيرتين .

— لماذا لا تأكلون من هذه ؟ سألهما غريغوري وعرض عليهما

القطائر .

شحب الاثنان ونظر كل منهما نحو الآخر .

— شكراً أيها الأب أنا لأحبها .

— لقد هيأناها لك بشكل خاص أيها الأب المقدس . . أنا أعلم

أنها طبقك المفضل . . .

كل فطيرة كانت تحوي ثلاثة أعشار الغرام من سم سيانور الزئبق

من أشد الأنواع سمية ، والشراب كان مسمماً أيضاً .

انتظر كفاتشي وفيليكس بقايتين خافقين تأثير السم . لكن لم

يبد له أي أثر على غريغوري .

— ان يموت — فكر الاثنان وهما ينظران إلى وجه غريشكا —
ياله من كلب قوي الشكيمة أم ان هذا السم فقد مفعوله !
بدأ السكر يدب في أوصال غريشكا :

— صبا أيضاً !

ملاً كفاتشي كأساً آخر ، وصب لنفسه شمبانيا مرة أخرى .
احتسى غريشكا كأسين متتاليين و « تمزمز » بفطيرتين أخريين ،
ولا أثر . .

— لا يؤثر . . لا يموت . . كمية السم كافية لقتل خمسة من الثيران .
رجل حديدي ! — فكر كفاتشي وتطلع مرة أخرى نحو فيليكس .
شعب وجه فيليكس الناعم ، لم يعد قادراً على تحمل هذه
اللعبة والحديعة .

شعب حتى الموت . اهتزت شفتاه ، ارتجف حاجه الأيسر
واهتز ، نهض فجأة وأمسك بياقة قميصه وكأن أحداً يخفه :

— تأخروا . . أنا سأذهب . . سأعود حالاً . . حالا سأعود . .

— تتم مقطعاً كلامه وخرج من الغرفة مترنحاً .

في الطابق العلوي كان الأمير العظيم دميتري والنقيب « سوخوتين »
والطبيب لازوفيرت ، ينتظرون النهاية . كلهم شاحبون ، متوترو
الأعصاب ، قلقون .

- يدخل فيليكس تلك الغرفة مسرعاً آنأً ويقول بشكل هستيري :
- لأستطيع . . لأستطيع ! . .
- ماهذا ؟ مالمقضية ؟ ماذا حصل ؟
- انه لايموت الآن . . لم يؤثر . . أكل عشر فطائر وشرب زجاجة من المارسال ، لكنه لايموت .
- إنك تبالغ ! لقد أعطيت سماً كثيراً ! — قال الطبيب لازوفيرت متمثماً .
- أيها الأمير فيليكس ! عدّ حالاً واعطِ الإشارة للأمير كفاتشا نثيرادزه بأن دوره قد جاء.دعه يبدأ ! وضع هذا في جيبك أيضاً ، ربما احتجت إليه .
- وضع المسدس في جيبه بعد ان استيقظ وتنشط ، ثم هبط نحو الأسفل .
- بدأ غريشكا بالزجاجة قليلاً . مرة أخرى صبّ كفاتشي خمرأ له وأجبره على جرعة بشكل متتالٍ .
- يفضحك فيليكس فرحاً بتكلف :
- النساء هنا . . أيها الأمير جاء دورك . .
- جاء دور كفاتشي ؟ رائع سيؤدي كفاتشي واجبه !
- ثم التفت إلى غريشكو :
- أيها الاب المقدس المعلم العظيم ! هذه النساء خجولات ومؤمنات ، لن يتناولن المأدبة بحضورنا ، نحن ذاهبون . ستدخل النساء حالاً . .
- هنا الحمام سنكون نحن في الطابق العلوي .
- إذا دعت الحاجة استدعنا وخرج الاثنان .

دخلت خمس نساء بحياء وخجلٍ على غريشكا الثمل تماماً .
كن جميعاً يشبهن الملائكة . ساندن بعضهن البعض وأدرن حديثاً
عذباً .

حمي غريشكا واشتعل . طار نحو النساء الخمس وهو يدق صدره
بقبضتيه ويصرخ :

— أنا مقدس ! . . لا يقربني الرجس والشهوة القذرة . سأبرهن
لكن حالاً . . سأبرهن انتظرون ! . .

ودخلن كلهن إلى حمام القصر الدافئ .

— سواء نمتن علي أم بجانبني . . هكذا . . أترون ، لم يظهر علي
أي أثر . . تقلبن بجانبني كالحطبات . . لأشعر بشيء . . حتى ان
الدم لا يغلي . . لقد رأيتن ، لقد اقتنعتن والآن لقد هجرني الروح
القدس ، لقد أصبحت الآن من جديد انساناً . . الآن حسناً . . فلنبدأ . .

هربت النساء فوراً من الحمام واغلقت الباب السميكة من الخارج
بالمزلاج . القى الحماموس الهائج بنفسه على الباب ثلاث مرات وفي
اللظمة الرابعة انخلع الباب البلوطي واندفع الوحش العاري خارجاً من
الحمام مزيجراً مدمماً .

جرى مسرعاً ، ثم انعطف . ارتفعت دمدمة وجلبة على السلم .

— هرب ! هرب .

انقض راسبوتين العاري على الباب الأول ثم على الثاني . أخيراً
هشم الثالث واقتحم إحدى الغرف . قطع يوسوبوف الطريق أمام الوحش
العاري وأطلق عليه ثلاث طلقات من المسدس .

أنّ راسبوتين مرة أخرى وارنمى .

— مات ! انتهى ! قرر الجميع ، ثم دخلوا غرفة أخرى وبدؤوا

يتشاورون .

بعد وقت قصير اجتاز كفاتشي الغرفة الأولى. حملق في غريغوري المطروح على ظهره ، ثم انحنى وأخذ يده بيده . فجأة تراجعت يد الميت وأحاطت بكفاتشي كحلقة حديدية .

— النجدة ! النجدة ! — صاح كفاتشي بصوت أجش وانفض

من بين يدي غريشكا .

ترك راسبوتين يد كفاتشي فجأة . نهض ، انعطف وخرج إلى البهو واثباً . قام المتآمرون من جديد ، جروا وراء المقدس وكل منهم يصرخ للآخر :

— لقد انتهينا ! . . اجرؤا وراءه ! اقتلوه ! . . اقتلوه ! . .

لمع السلاح في أيدي فيليكس وكفاتشي :

— اسرعوا وإلا سيهرب .

قفز غريغوري إلى حديقة القصر . جرى كفاتشي بوثبات النمر ومشى وراءه بوسوبوف الذي شحب خوفاً .

لاح الفجر وبدأت الطريق تتكشف بصعوبة بالغة . إلى أين هرب ؟ إلى اليسار ؟ إلى اليمين ؟ نحو الأمام ؟

سمع كفاتشي أنيناً خفيفاً من ورائه . التفت .

ترنج فيليكس وسقط .
أثناء ذلك قفز بوريشكيتش :
— انقذره ! لقد أغمي عليه .
أخذ بوريشكيتش مسدس فيليكس وركض نحو كفاتشي .
— اين هو ؟ إلى أين هرب ؟
قفز ظل من بين الشجيرات إلى الطريق المغطاة بالثلوج .
— إنه يبتعد ! أسرعوا !
صوب كفاتشي على بعد عشرين خطوة ، ثم أطلق النار .
— وأنت أيضاً يا أبولون ؟ قال غريشكا آنآ . أهكذا رددت الحميل ؟
وبعدة قفزات اقترب كفاتشي منه وأطلق طلقتين أيضاً عن بعد
خمس خطوات .
ترنج راسبوتين وسقط على ركبتيه وانغرز في الثلج . ثم نهض من
جديد وهرب زاحفاً وهو يزمجر كالدب :
— غداً سأشتقكم جميعاً ، سفلة . . قطاع طرق .
أثناء ذلك جرى بوريشكيتش .
— اطلقوا النار ! اطلقوا النار !
مرة أخرى اطلقوا عليه ما يقارب العشرة طلقات وثقبوا جسده .
تمسك غريشكا بهذا العالم بأسنانه وأصابه الحديدية ، تلوى ،
تمايل ، أنّ وقذف بكلمات غريبة . مديده مرة أخرى ، ثم وقف على
ركبة واحدة .

فجأة جاء فيليكس راكضاً بعد أن صحا من غيبوبته .
 — اضربوه ، اطلقوا النار عليه اقتلوه ! — صرخ يوسوبوف مهتاجاً
 فاقداً صوابه وراح يضرب الميت على رأسه بشمعدان برونزي كبير
 هشم رأسه وتضرج بالدم
 وبصعوبة تمكن كفاتشي وبوريشكيفيتش من فصل فيليكس النائر
 والفاقد صوابه عن جثة راسبوتين .
 — كفى أيها الأمير ! غريشكا ميت ! فلنذهب وإلا قد نعرض
 من البرد .
 .. — دعوني .. اتركوني عليه ! .. ! اضربوه ! .. اقتلوه ! ..
 تابع صراخه محاولاً أن يمد نفسه إلى غريشكو الملقى بلا حرام ، ثم
 سكن فجأة وفقد قواه مغمياً عليه .
 — حسناً فلنغرق هذه الجيفة في نهر النيفا
 لفوا الجثة في جبة وجرموق ثم ألقيوها في السيارة وانطلقوا . اجلسوا
 الجثة وسوّوها بشكل بدت معه كراكب ثالث . اسندها كفاتشي من
 جهة ومن جهة أخرى أسندها لازوفيرت .
 — هيا من هنا ، أسرع ، سق بسرعة أكثر — يصرخ كفاتشي
 قائلاً للنقيب سوخوتين الذي يقود السيارة مسابقاً الريح .
 ترمح السيارة المجنونة في شوارع المدينة الميتة / النائية / حاملة
 معها محور ودعامة الحكم الاستبدادي تلك الدعامة التي أخرجها
 كفاتشي تلك الليلة من القبو .

كانت الريح الباردة تصفع المسافرين في وجوههم صافرة متوجعة
وتصعقتهم .
ينكمش كفاتشي خافضاً رأسه بمشعر الجسم حاشراً نفسه في
أسفل المقعد .

فجأة انزلت يد غريشكا التي كانت مستقرة على المقعد واحاطت
برقبة كفاتشي . انتفض كفاتشي كالملسوع وهجم على اليد الباردة .
لكن تلك اليد اصبحت حديدية ، متخشبة ثم التوي غريشكا واستلقى
كالدب على كفاتشي بكتلته الثقيلة ظاويًا ومسمراً أبداً تحته مما جعله
يئن متحشراً هو نفسه بشكل غريب
حاول كفاتشي مرات عديدة النهوض ، لكنه تعثر ولم يستطع
رفع تلك الجثة الثقيلة

— ساعدوني ! . . لقد خنقني ! . . ساعدوني !
لم يسمع السائق كفاتشي المتألم والسيارة تجري كالزوبعة وكان
لازوفرت يتعذب بشكل أخرق وقد اضناه التعب .
— النجدة ! . . أنا اختنق ! . . النجدة ! . .
أخيراً تخلص بشكل ما وخرج من تحت الجثة .
— توقفوا ! قفوا !

— وخرج كفاتشي المضطرب من السيارة .
— لا أريد . . . أن أذهب معكم . . . خذاه وحدكما .
— ما الأمر ؟ ماذا حدث ؟
— يرتجف كفاتشي وتصبطك أسنانه .
— لا أريد . . . لا أستطيع . . . انقله انتما .

... أيها الأمير ، شيء مخجل ! عد إلى صوابك !

— لا أستطيع . . هذا لا يحتمل . .

— أيها الأمير ، عد إلى رشدك . تمالك نفسك . يوسوبوف شاب

ضعيف ، أما أنت رجل ، لا يليق مثل هذا الجبن ببطل « ديمير - تيبى »
حامل صليب القديس غيورغي ، أضف إلى ذلك أنت جورجي !
شيء مخجل !

وكان هذه الكلمات مطرقة قرعت رأس كفاتشي . تجرّك ،
اهتز شدّ شرايينه ، ثم نزع ظل الخوف من قلبه .
— ها — ها — ها ! ضحك من أعماق نفسه ، قفز إلى السيارة ،
أمسك بياقة غريشكو .

— هيا ، أسرع ! . . وأنت أيها الاب المقدس اهدأ
واسكن إلى الأبد وإلا — وهزّ الجثة .

اصطكت أبنان غريشكا وهزّ كفاتشي رأسه ، وكأنه يؤكد شيئاً
ما أو يتوعده . توقفوا عند جزيرة « كريستوفسكوي » بالقرب من
الجسر الصغير ورموا الجثة في ثغرة فتحت ذلك الصباح في جليد النهر .
على أطراف تلك الثغرة طفاً خف غريشكو الذي لم يلاحظه أحد .
في اليوم التالي أعد كفاتشي اجتماعاً :

— لقد وقعت الواقعة ، لقد جردت النظام الحاكم من ركيزته ،
لقد انشق البناء وانهار .

— لا تستعجلوا ! البقية ستأتي من تلقاء نفسها . في حال اعتقالهم
لي أضرموا النار أكثر ، وإذا فكروا باعدامي رميا بالرصاص احرقوا
وفجّروا هذه البلاد التتنة العفنة المتفسخة .

أمنيّتي الأخيرة ، ثورا في الوقت المناسب . لاتسمحوا بقتلي ،
اذ أنني أرغب أن أفرح مرة أخرى وأرى بأم عيني هلاك الشعب الذي
يقذف بجيحد في حاويات القمامة بانبثاقه / أراد كفاتشي أن يقول :
من أمثالي المخلصين .

هناؤا كفاتشي بتحقيق ذلك الانجاز المجيد . وأحنوا رؤوسهم
أمام شخصيته القوية وطبعه الجريء .

في اليوم الثالث وجدوا جثة غريشكا في نهر النيفا . التشر هذا النبا
في كافة أرجاء البلاد .

هبت روسيا واجتاحت الاضطرابات مدينة بطرسبورغ . تبادل
الناس التهاني والقبلات فرحاً . أقام المؤمنون الصلوات وأشعلوا الشموع
وأصبح موت غريشكا على كل لسان .

تحفى بوريشكفيتش ، لازوفرت ، سوخوتين في الجبهة ، كما
أرسلوا الأمير العظيم ديمتري إلى الجبهة الفارسية ، ونفوا الأمير يوسوبوف
إلى ضيعته الاقطاعية ، وأختبأ كفاتشي عند أبيه .

أخذت القيصرة جثة غريشكا . نقلوها إلى دير « تشسيمينسكي »
حيث سلمت إلى صديقه الراهبة « أكيلينا » .

حاولت زوجة راسبوتين وابنته واقرباؤه رؤية المرحوم وتوديعه ،
لكن لم يسمحوا لأحد منهم بالاقتراب من الجثة .

غسلت « أكيلينا » الميت ، مسحّت جروحه بمرهم وألبسته بزة
جديدة ثم وضعت في التابوت ، ووضعت على صدره الصليب ، وفي
يده رسالة القيصرة حيث كتبت فيها :

« شهيدى العزيز ، انعم علي ببركتك التي كانت رفيقتي في
طريقي الشائك ، ذاك الطريق الذي يجب علي اجتيازه عبر هذا العالم .
اذكرني في السماء اثناء صلواتك المقدسة » .

« الكسنسرا »

في اليوم التالي وفي حين كانت روسيا تمجد أبطالها المنقذين وتحمد
ربها شاكراً كانت القيصرة تصلي مع أولى صديقاتها — إحدى نساء
الحاشية « فيروبوفا » على جثة غريشكو المتورمة .

صلتا بدموع حارة ، راكعتين حتى الأرض متواكلتين ، نادبتين
أملهما وقديسهما وركيزتهما وصديقيهما ومنقذ البلاد .

حين أعيتا من البكاء والحزن وتعبتا حتى الإرهاق حملتا قميص
غريشكو المدمى ومضتا . وجعلت القيصرة من ذاك القميص الذي
شبه المادة الكيماوية « بلاديوم » ذكرى مقدسة وإحدى محفوظات
العائلة المالكة . حولت ذلك القميص إلى ايقونة مقدسة .

تخفى كفاتشي في جزيرة يلاغينسكي .

— لاشر بدون خير — قال سليسترو — لولم تحصل تلك الحكاية
ما كنا لئراك بعد عام .

— يابني يا ولدي كفاتشي — قالت أمه « بوبي » . لقد كبرت جداً
وشمخت كثيراً ، أكان هذا العمل يعينك ! ما الذي ربطك بهذا
« راسبوتين » . الآن ستجري البلاد كلها في إثرك كي يعتقلوك
ويقبضوا عليك .

اعتقال كفاتشي ؟ لن يستطيع اعداؤه انتظار هذا ، سيموتون هم ،

كان بيسو يتردد عليه كل يوم حاملاً الأخبار الطازجة والصحف والمجلات ..

— البلاد كلها تتحدث عن مقتل راسبوتين — قال بيسو — والصحف أيضاً تكتب الكثير عن ذلك . عرفت البلاد كلها أسماء القتلة ، لكن لم يتحدث أحد عنك بشيء .

— لقد قلت لك يا بيسو ان اعدائي كثر — قال كفاتشي ممتعضاً — يريد اعدائي ان يقتلوني بالصمت ، لكن سرى ماسينالون . في نهاية الأمر سيظهر أحد ما ويكتب عن مغامراتي . ماذا سيقول الكتاب والمؤرخون المتغرسون حينئذ ؟

خيوط كثيرة كانت تربط كفاتشي ببلاده التي كانت تتورم وتتفخ يوماً عن يوم — هذا ما كان كفاتشي يراه بوضوح ودقة — وتكاد البلاد تنفجر بين لحظة وأخرى .

وفي هذه المرة أيضاً كان بيسو ناقلاً للأخبار . لم يكن الآخرون يعرفون مكان إقامة كفاتشي .

كان كفاتشي يتجنب الآخرين ، يخشى غفلتهم . ويقول : لربما احضروا جاسوساً دون علمهم ودون ان يتمكنوا من اكتشافه ! لكنه مع ذلك لم يستطع الافلات من الخطر .

« كيف وقع كفاتشي في أحد المصائد ، وكيف استطاع الخروج منها » ذات يوم بدّل كفاتشي ثيابه ، تزين ثم قصده حي « أختينسكي » لمقابلة أحد أعضاء مجلس الأعيان واعطائه أمراً .

أنهى كفاتشي مهمته وعاد إلى بيته راضياً . تخلف بيسو عنه قليلاً . فجأة وضع أحد ما معدناً بارداً (مسدساً) في صدغه :

— قفوا ! ارفعوا يديكم ! اديكم سلاح ؟ لا إذا ضعوا أيديكم وراء الظهر وامشوا . اذا حركتم يديكم سأقتلكم حالاً ، هيا امشوا .
 سار كفاتشي في البداية أمام ذلك الرجل المجهول ذاهلاً ، خائفاً
 دونما كلام . ثم استجمع افكاره ، انتعش وأدار مع الرجل المجهول
 الحوار التالي :

- من أنتم أيها المواطن ؟
- رجل مخبرات .
- اسم العائلة .
- هذا لا يخصكم !
- اسم عائلتكم « فيكيروف » أنا اعرفكم !
- تعرفون ؟ إذا كنتم تعرفون بعلام تسألون ؟
- هكذا سألت ، لماذا تعتقوني ؟ ربما تبحثون عن رجل آخر ؟
- ألم تخطئوا ؟
- لا ، لم أخطئ . بحثت عن الأمير كفاتشا نثيرادزه ووجدته .
- لأمانع وجدتموه فعلاً . حسناً أيها المواطن قولوا لي من فضلكم ،
 ما المكافأة التي ستلقونها لقاء القبض علي ؟
- هذا ليس شأنكم .
- صحيح . لكن مع ذلك ؟ تبحثون عن مركبة؟ وقتلوا كل شيء ، لا ضرورة للسرعة ، ستحدث قليلاً . ألم تخطئ الحساب ؟ لم تخطئ ! يعني سيكون الأمر على الشكل التالي :
- ستنال لقاء اعتقالي مكافأة بسيطة وما يقارب المائة أو المائتي روبل .
- وما علاقتكم بذلك ؟

- هذه قضيتي . ستفق .
- اسكتوا ولا
- دع المزاح ، خذ ألفاً .
- لائقولوا سخافات ، امشوا !
- وهل الوقت ، وقت الحديث عن السخافات ؟ ! تذكروا
- أن أزمة جديدة ستحل غداً وبعد غد ، ستحتاجون أيها الصديق ، فكروا !
- أدت مسألة الخطر المستقبلي المحدث والألف روبيل مفعولها ،
- فكر رجل المخابرات ملياً ، ذاب الجليد تدريجياً ، وأخيراً تصدع
- وانكسر .
- لن أوسخ يدي من أجل ألف روبل .
- فلتكن ألفين .
- خمسة وتنتهي فوراً .
- حسناً ! لكنني لأحمل نقوداً . فلندخل مطعماً لنتناول القليل
- من العشاء ثم تذهب إلى بيتي .
- فكر الرجل مرة أخرى ، ثم تجاوز الخوف ووافق .
- دخل مطعماً صغيراً ، جلسا في الزاوية ، ثم طلبا طعاماً وشراباً
- دخل بيسو وجلس غير بعيد على طاولة مجاورة . كان المطعم خالياً .
- تبادل كفاتشي وبيسو اشارات معينة وتفحصا المطعم
- ثم خرج بيسو من الباب الثاني إلى فناء البناية وعاد بعد عشر دقائق :
- تبادلا الاشارات مرة أخرى ، ثم كتب بيسو مايقارب الخمسة أسطر

على ورقة واقترّب من منصة الخدمة وطلب فودكا . نهض كفاتشي
اثناء ذلك ، نهض وراءه رجل المخابرات أيضاً واقترّباً من المنصة .
في لحظة واحدة انتقلت الورقة إلى جيب كفاتشي .

شرباً وانتشياً قليلاً . بدأ رجل المخابرات يزقزق . ثمل . دفع
الحساب ومضوا . حين اقترّباً من الباب انطفأ النور الكهربائي
فجأة وعم الظلام في الصالة .

تحلف كفاتشي عن رجل المخابرات في طرفة عين والتصق بالباب :
في تلك الثانية ركض بيسو عبر ارجاء القاعة مديداً برجليه .

— قفوا ، قفوا وإلا اطلقت النار ! اجتاز فيكيروف القاعة صارخاً ،
ثم قفز إلى الفناء . لاح ظل من الباب إلى الشارع .
عادت القاعة مضأة كما كانت . وجلس بيسو من جديد في
مكانه السابق . ولم يعد من اثر كفاتشي .

سمع رجل المخابرات في الفناء :

— امسكوا به ، هرب ، أيها الشرطي !

مرة أخرى اقتحم فيكيروف القاعة . علت جلبة وجري . وقف
أمام رجل المخابرات :

— ماذا ؟ هرب المعتقل ؟ هل امعنت التفكير بذلك ، كيف يمكن
افشاء مثل هذا السر ؟ ! ماذا فعلتم هنا مع المعتقل ؟ سيعتقلونكم
ويسرحونكم من الخدمة .

ماان نوعي رجل المخابرات مقالة بيسو حتى أدرك الموقف ورجا
الحاضرين خائفاً :

— لا تهاكوني ... اصمتوا ... لدي أسرة ... قولوا لقد صرخ
أحد السكارى .
اصطدم رجل المحابر بالشرطي عند مدخل المطعم :
— لا شيء ايها المواطن ، لا شيء ... لقد صرخ أحد السكارى .
فلنذهب على أن . . . هيا فلنشرب كأساً من الفودكا .
شرباً في البداية كأساً ! ثم سعلنا (ارتفع صوتهما) ثم تابعا الشرب
واستقبلا الفجر في ذلك المطعم :
خرج بيسو على رؤوس أصابعه ، ثم انعطفت نحو اليسار واختفى
في الظلام .

« كيف وقع كفاتشي مرة أخرى في المصيدة وكيف أفلت
من جبالها وكيف تفجرت البلاد »

التقى كفاتشي وبيسو في مكان محدد .
— آه ، ان تمكن من العودة لن إلى البيت هذه الليلة — قال كفاتشي —
سنخرج على الرفاق . قريباً سيحل الفجر ، ستذهب انت إلى « سليسترو »
وتستخير : هل راقبوا شقتنا . اذا كان كل شيء هادئاً سأعود .
دخل الاثنان شقة الرفاق . نهض الجميع حالاً : وبدأت جلبة
وضجة وفرح .
— شكر الله (١) قال جليل — لقد أراني الله أميراً مرة أخرى .
— أقسم بـ « سورب — كارييت » انني لم أفرح ابداً كما فرحت
(١) شكر الله : شكر الله وردت العبارة في النص الأصلي بلفظها العربي .

برؤيتك اليوم - قال سيدراك - حسناً يا جليل افرش الطاولة وأنت أيضاً تحرك يا غابو !

.. تحركا بسرعة . بعد برهة وجيزة جلسوا حول المائدة وبدؤوا .
عند بزوغ الفجر قال كفاتشي :

- أيها الرفاق ، بعد ثلاثة أيام سيحدث الانفجار . من يلدي ربما وجدنا أنفسنا في خضم هذه التحولات . ربما نرى بعضنا للمرة الأخيرة اليوم . ربما كانت المندمة الأخيرة لنا . مهما حدث يجب ان تعلموا شيئاً واحداً : لقد تأمر أعدائي علي وقرروا دفي عن طريق الصمت . لكن يجب ان تقسموا لي على الاتسوا سيرة حياتي وتكشفوها للعالم .
- نقسم ، نقسم ! - قالوا بقوة .

- أيها الرفاق - تابع كفاتشي كلامه . بعد ثلاثة أيام ، وفي الصباح ، سترونني في هذه الشقة واعلموا اني إذا لم أحضر يعني ان كفاتشي كفاتشا نثيرادزه قد مات .

- ستأتي ، ستأتي ! - قال الرفاق .

- نعم ان بقيت حياً . انتظروني هنا بعد غد / بعد ثلاثة أيام ، وإذا لم أعد اذهبوا من هنا مباشرة إلى الكنيسة وأقيموا القداس على روحي .
بيسو ، عدت ؟ لاشيء في بيتي ، حسناً إذا أنا ذاهب . وداعاً ايها الرفاق ! - عائق وقبل الجميع ، ثم خرج .

اجتاز الشارع الأول ، وانعطف نحو الثاني ، وعلى الزاوية اصطدم وجهاً لوجه مع رجل المخابرات « فيكيروف » وشرطي .

- قفوا . نحيي الأمير كفاتشا نثيرادزه والآن هل ستهربون مني ؟

- ايس ثمة من سبيل آخر . هذا يعني ان هذا هو مصيري ...
- استقل كفاتشي ورجل المخابرات التمل مركبة وانطلقا .
- ستذهب معي إلى البيت وتقبض الخمسة آلاف — ساومه كفاتشي مرة أخرى .
- عشرة آلاف كلمة واحدة .
- ريثما تساوم كفاتشي وفيكيروف ، اقربت المركبة من ادارة الشرطة وفجأة لحقت بالمركبة مركبة أخرى وسمع منها صوت مرح :
- آ . . آ . . نحية للأمير كفاتشا نثيراذرة ! كيف حالكم !
- قفز الشرطي بافلوف من المركبة وأوقف مركبة كفاتشي .
- ما بكم ؟ قطع اسانكم ؟ لا بأس سنرغمكم على الكلام . حسناً هيا تفضلوا .
- أخذ بافلوف من ذراعه واقتاده، ومشى فيكيروف وراءهما صاراً على اسنانه بعد ان خرج بلاشيء .
- بعد عشرين دقيقة جلس كفاتشي أمام بافلوف المسرور وقد تصبب عرقاً بارداً .
- اين وكيف التقيتم ؟ — سأل بافلوف كفاتشي وقدم له قلدحاً من الشاي وسجارة .
- منذ عشرة أعوام التقينا في أوديسا وكنا اصدقاء جيدين ، اما الآن ...
- والآن ؟ تساءل كفاتشي ونظر مجدداً في عيني بافلوف — هل ثمة مايمنع التصديق الآن ؟
- لا ، مستحيل — أجاب بافلوف بصوت جليدي .

— أنا اعتقد انه يمكن ان نتصادق بشكل أقوى مائة مرة من السابق .

— بمائة مرة ؟ ! ه . . سم ! افهم لكن . . لن أخدعكم : صديقنا مستجيبة . فاعمالكم حتى في القهر معروفة . اصف إلى ذلك لدينا وثائق تكفي لان نجسب قضيتكم منتهية .

على كل حال فلنبداً العمل . منذ البداية الصبحكم : لاتعتنوا ، فالنفي لن يجدينكم نفعاً على أية حال . وهكذا لنبدأ .

بدأ ، تعذبا وتصيبا عرقاً طوال ساعتين . ركب كفاتي بغلا (ركب رأسه) وحرن .

نسي كل الكلمات ماعدا كلمة « لا » .

— هاتوا « اسحق ايدلسون » وزوجته — أمر بافلوف أخيراً .

انتظر كفاتي قديم ايدلسون بهلع . امتدت الدقائق العشر كعشر ساعات . ظهر ايدلسون وريفيكا بالباب . كاد كفاتي الا يتعرف على الجميلة الشقراء . لقد تكدر الاثنان وشاخا عشر سنوات .

لم ينظر اسحق وريفيكا نحو كفاتي . نكسا رأسيهما وتجاوزاه . جلسا وحدا في الجدار .

— أتعرفون بعضكم بعضاً ، سأل بافلوف كفاتي .

— بشكل جيد — أجاب كفاتي بنشاط وصوت قاس — اسحق ايدلسون وأنا عدوان لدودان . أما ريفيكا فهي عشيتي السابقة التي طردتها بسبب خيانتها ، وأتف في لحظة قصة جميلة بحيث ان الجميع فغروا أفواههم طوال خمس دقائق .

— ألا تذكران باريس ؟ ! سأل كفاتشي آل إيدلسون — هل
نسيتما بهذه السرعة ؟ ربيبي ، قولي الحقيقة ألم تكوني عشيقتي ؟ أقول :
قولي وإلا سأثبت هذا على أية حال !

— نعم . . . كنت . . . نعم ، كنت . . . لكن — تمتت ريفيكا
ولم تكمل كلامها ، بل أجهشت بالبكاء ، أما اسحق فقد شاخ أكثر.
خلال هذه الدقائق الخمس وشحب لونه .

أمضوا أيضاً ساعتين آخرين . عذب الرجال الثلاثة والمرأة
كل منهما الآخر . لكنهم لم يستطيعوا أن يرغبوا كفاتشي على
قول « نعم » .

— خذوهم ، خذوهم عني ! — قال أخيراً بافلوف واقتادوا
الثلاثة إلى الزنانات المظلمة الرطبة .

وفي المساء استدعى بافلوف كفاتشي من جديد ، عاجله بالكماشة ،
لكنه لم يستطع ان يقتلع سناً واحدة من جلدتها المتين . تارة يلاطفه
ويمسده شعره ويبتسم له ويعده بالرفقة وتارة يهجم مهدداً بضرب بقدميه
ويذكره بالمشقة ، لكن كفاتشي ظل يردد كالبيغاء « لا » ونسي
للأبد كلمة نعم .

— حسناً ، فليكن هذا : — قال بافلوف — اذهبوا ، على أية
حال بعد غد صباحاً سنعلقكم ونطرح جثثكم للكلاب .

— بعد غد صباحاً ؟ — ابتسم كفاتشي — بعد غد صباحاً ، حسناً
سنرى بعد غد : من سيشق من !

— ماذا ؟ أتهددون أيضاً ؟ على أي اساس ثبنون أملككم ؟ .

— عن هذا ستحدث بعد غد ، انتم تحكمون بفسكم : انا اذهب

الآن ، وداعاً ! انحنى ا « بافلوف » باحترام وعاد إلى الزنزانة مبتسماً .
في اليوم التالي لم يستدع للاستجواب . وفي اليوم الثالث مثل
الثلاثة أمام محكمة عسكرية ، عينوا لهم أحد النقباء محامياً للدفاع .
قرؤوا عليهم المحضر خلال خمس دقائق ونصحوهم :

— اعترفوا بازتكابكم الجريمة .

— لن اعترف ابداً — أجاب كفاتشي بخشونة .

عرض اسحق وريفيكا كل ما يعرفان ، تم بكيا وراحا يتوسلان .
« — عندما سافرتم من هنا إلى ستوكهولم ، من استقبلكم في المحطة ؟
— سألوا كفاتشي .
— لأحد .

— ممن استلمتم في اليوم التالي « الشيك رقم / ١٣٧٤٢٩ / بمبلغ
مليون كرون ؟
— لم أستلم من أحد .

« — هاكم الشيك موقع من قبلكم . اعترفوا !
وقدموا إليه صورة عن الشيك تحمل توقيعاً « استلمت ، الأمير
كفاتشا نثيرادزه » .

ثار كفاتشي ورمى قوله بجرأة :

— مزيف !

انتهى كل شيء خلال نصف ساعة . قرأ الجنرال الأردد رئيس
المحكمة عليهم قرار المحكمة :

— « الأمير كفاتشا نثيرادزه ، اسحق ايدلسون ، ريفيكا ايدلسون ،
انتم مجردون من كافة الحقوق ومحكوم عايكم بالشنق » .

قرؤوا القرار وانصرفوا فوراً من القاعة . ولولت « ريفيكا »
وارتمت . صمت اسحق ، شحب وجهه كفاتشا نثيرادزه ، ولم يحرك
حاجبيه . شمل القاعة بنظرة ، ابغى لرفاقه وا « يلينا » ثم قال :
— إلى اللقاء أيها الأصدقاء ، سأراكم بعد غد .

كان الرفاق قد شحبوا وأبيض لونهم كاون الحائط .
نقلوا كفاتشي إلى سجن قلعة « بتروبافلوفسكايا » ورموه في زنزانة
رطبة . جلس على كرسي حديدي وغرق في التصورات .
في تلك التصورات مرّ يوم كامل وليلة ثانية . ماذا قال الجنرال
الأردد ؟ يجب ان يشنق الأمير كفاتشا نثيرادزه ؟ كفاتشي ابن
سليسترو ؟ كفاتشينكو ؟

« آه ، هذه حماقة لأكثر ! » .
تسلل عفريت صغير إلى روحه يخمش داخله ويقهقه :
— ماذا ، كأنهم لا يتجرؤون على ذلك ؟
— أيتجرؤون على شنقي أنا ؟ ابن القيصر الروحي — / فليون
اليد اليمنى للعرش !

— هيه — هيه ! — صوصاً العفريت من أعماقه — قل الحقيقة
واو مرة واحدة أمام ضميرك ، ممن نخجل الآن ؟ حسناً ، تشجع ،
ابدأ ، لا تكن كتوماً للأبد ، هيا افتح أمام نفسك روحك الدفينة ،
أأنت ابن القيصر الروحي / فليونه / وهل خدمت العرش القيصري
باخلاص ؟ .

— وتل « ديمير — تيبني » ؟ من أنقذ ذلك القدر من الناس من
برائن الموت والعار ؟

— أنا ، أنا من أنقذ ، نعم أنا ! كان الجسم جسمك والروح
روحي ، لقد جريت دون ان تلوي على شيء ، فقدت وعيك من
الخوف ، فجلست أنا في روحك ورفعتك إلى « ديمير — تيبى » .
بطولتك اذهلت البلاد كلها ، إذ كانوا يعرفونك جيداً ولم ينتظروا
منك مثل هذه التضحية . وكنت أنت أكثر الداهلين بالأعمال التي
قمت بها .

— من أنت ؟ لماذا تنسب بطولتي إليك ؟
— هيه — هيه ! ألم تعرفني حتى الآن ؟ أرجو أخذ العلم : أنا
كفاتشا نثيرادزه ابن سلبسترو .
— لاتتحمق انا كفاتشي .

— أنا أيضاً كفاتشي ، ألسنت أنا من كان « النبيل اشورديا »
والأمير ياور القيصر والنشال و « الفونس » والحائن . كفاتشي
الحقيقي — أنا هو .

— مالك علمت بي ؟ مالذي تبغيه مني ؟
— أريد أن أسمع منك ولو مرة واحدة كلمة صادقة . هاهم
سيشنقونك ، على الأقل الآن ، لاتكن مزدوج الشخصية .
— لأي شيطان نحتاج للحقيقة ؟ الحقيقة يقولها الأحقق والبريء
والولد الصغير .

— والقلب الصدوق ؟

.. — نحن لبنا قديسين !

— والاخلاص ؟

— الاخلاص ! نيقولاي و « غريشكا » (١) ؟ انا لم أفقد عقلي بعد !
— الاخلاص لأولئك الذين رجعت إليهم . هل أعطيتهم حقهم ؟
هل قدمت إليهم قلبك النقي المخلص ؟
— اصمت ! ولا كلمة ! هيا من هنا !
واندفع كفاتشي الحائق على شبيهه ، لكنه اصطدم بالهواء .
— هيه — هيه ! قهقه العفريت من أعماقه وخرج عبر شق الباب الضيق .

اندفع كفاتشي نحو الباب وراح يقرعه بقبضتيه :
— ماذا تريد ؟ لماذا تدق الباب ؟
— سيجارة ! اسرعوا أعطوني سيجارة واحدة !
— ماذا ؟
— سيجارة واحدة أقول ، ولو سيجارة واحدة !
دار الحارس صامتاً ومشى بهدوء . دار كفاتشي ايضاً واصطدم
بـ « غريشكا راسبوتين » . هزّ « المقدس » رأسه المدمى وقال :
— اهكذا رددت جميلي ؟

هجم كفاتشي الشاحب على الحائط في البداية ، ثم انقض على
« المقدس » ، لكنه اصطدم بالهواء مرة أخرى . ومن أعماق الزلزلة
تألقت « فيرا سيدوروفنا » ثم مدت الأرملة « فولفوغا » رأسها ، ثم جاءت
في اثرها « تانيا » ، « يلينا » صوفيا شيفادزه والمفتش « غوفشتين » ، « ناديا
أرميلادزه » ، « فيرا كالوشفيلي والكثير الكثير ممن يعرف ومن لا يعرف

(١) نيقولاي : القيصر ، غريشكا : راسبوتين .

من ضحاياه . هجم الجميع نحوه فرادى في البداية ثم جماعات ، جرد البعض إلى ناحية والبعض الآخر إلى الناحية الأخرى ، يبصق البعض في وجهه ، يزعجه يقهقه ويصرخ :

— هذا جزاؤك ! هذا جزاؤك سيشنقونك ، اليوم سيشنقونك ، هذا حق ، هذا حق !

انقض كفاتشي على هذا فوجرى وراء ذلك ورمى الثالث أرضاً وجلس عليه ، ثم انقلب كاللعة وبدأ بالصراخ والعويل ملوحاً بيديه ورجليه :

— النجدة ! النجدة !

— مالك تصرخ ؟ سأله الحارس داخل الزنانة — لماذا تصرخ ؟ يسقط كفاتشي على السرير الحديدي شاحباً مدمى اليدين . اعاد الماء البارد وفرك الاذنين . عاد الوعي إلى كفاتشي .

— لاتصرخ ، لن تحصل على شيء بالصراخ . اصبر أيضاً ساعة أخرى وينتهي كل شيء — نصحه الحارس بهدوء ، ثم خرج .

هدأت نفس كفاتشي الهائجة تدريجياً وسكنت . تابع التفكير :

— هذا يعني أنهم سيشنقوني ؟ لن يساعدني الرفاق ! قد يتأخرون ؟ هكذا أحقاً ؟ حماقات ! لأستطيع ان أصدق ! كيف يتجرؤون ؟ ! لابد أنهم يخيفوني . . . يريدون تحطيمي أم أن . . . لكن من يدري : ربما تنصيب المشقة الآن . . . ياإلهي العظيم !

ماان تذكر الإله حتى حلّ شبح خفي في نفسه وقال :

— دنت نهايتك : أرقد في الآثام . قريباً ستمثل أمام ربك !

حمد كفاتشي وسلم قلبه المملق لذاك الشبح الخفي ومشى

في إثره . فهم فجأة أنه بعد ساعة أو بضع ساعات لن يبقى كفاتشي على هذه الأرض ، سيموت كفاتشي . . سينقل إلى الظلمة الأبدية، إلى اللاوجود ، حيث لاظلمة ولا زمان ولا مكان . . ماذا سيحدث بعدئذ ؟ اللاوجود ؟ يعني ثمة شيء ما طالما ان اللاوجود سيكون . يعني انني سأعيش في ذاك اللاوجود . . إذاً ماذا ؟ لن يكون لي وجود ؟ ! أية حماقة ! باللسخف ! لن يكون كفاتشي في اللاوجود ؟ ! انها سخافة مطلقة ! مستحيل !

— ستكون ! — همس الخفي بحلاوة — أنت خالد . . الانسان خالد . . أبدي . . سأقودك إلى هناك « . . » « إليه » حياتك ستكون أيضاً أبدية سرمدية إلى ابد الأبدين .

صلّ وسيُغفر لك . . أدعُ وسيُستجاب دعاؤك !

— ابانا الذي في السموات ! — همس كفاتشي بقلب مرتجف ومد نفسه نحو السماء — الذي في السموات . . فليقدس اسمك وليأت ملكوتك ولتكن مشيئتك . ! قطع فجأة صلاته . لم يدرك من ، أو ماذا يجب ان يطلب . توتر القلب المسترخي من جديد ، وأصبح كالبصوان ، وخرج الشبح الخفي من قلبه .

— آه ، هذه خماقات ! — تتم كفاتشي وبدأ يدور كالوحش الهائج في القفص ، ثم اندفع كرة أخرى نحو الباب :

— سيجارة ! اعطوني ولو سيجارة واحدة واطلب ماشئت !
أخرج الحارس كلمة واحدة فقط من حفرة الدرداء :
— حالا — ومشى بهدوء مرة أخرى .

بعد عشر دقائق صرّ المزلاج الحديدي ثم الباب المصنوع بالحديد .

حمل الحارس المعجوز البسيط ذو العين الواحدة سيجارة بيد وكماشة باليد الأخرى . حرك فمه الأسود الذي يشبه الحفرة وقال بصعوبة :

— اعطني السن أولاً ؟

— ماذا ؟ ماذا قلت ؟

— السن اعطني ، فلت لك .

شمل كفاتي الزنانة بنظرة :

— السن ، أي سن ؟

— سنك ، سنك الذهبية .

— ما بك ؟ هل جننت ؟

— أنا ؟ أبداً ، أنا في كامل عقلي .

وعوج فمه — الحفرة السوداء — كأنه يبتسم ووصوص بعينه الشهباء كحبة الفاصولياء حجماً .

— انت سجين جديد . إذا فانت لاثدري . ما حاجتك إلى هذه

السن الذهبية ؟ فانت لن تأخذ معك ؟ على أية حال سيشتقونك بعد ساعة .

— حسناً ، وبعد ؟

— أقول ، ما حاجتك لهذه السن الذهبية ؟ فانت لن تأخذ إلى

العالم الآخر ؟

آه من يعلم عدد الأشخاص الذين انتزعت منهم اسنان ذهبية بهذه الكماشة . في البداية يستغربون عادة ثم يستسلمون . لا تخف لدي تجربة في خلع الاسنان . سأخلعه حتى دون ان تشعر .

— اتبع السيجارة بثمان غال كهذا ؟

- أعطي البعض سيجارة وآخذ من البعض الرسالة الأخيرة .
وأرسلها إلى أهله .
- تأخذها وتمزقها طبعاً ؟ على كل حال لن يلدي أحد .
- لا ، لا ! همس العجوز بخوف وغمغم بفمه الشبيه بحفرة
وصلب :
- لا قدر الله أن اقترف مثل هذا الاثم ! الرسالة الأخيرة —
شيء مقدس . . .
- حسناً وسترسل رسالتي ؟
- طبعاً ، بعد ان ندفنك سأعرج أولاً على الكنيسة ، أصلي من
أجلك وبعدئذ أضع رسالتك في البريد .
- لمعت عينا كفاتشي في دماغه المشتعل . خطرت له فكرة كالبرق :
- حسناً ، أنا موافق . . انقل الرسالة بنفسك إلى أبي وسيهديك
مائة روبل ، أنه يعيش قريباً من هنا . اعطني ريشة وجبراً وورقة .
- حالاً.. حالاً — أسرع العجوز في حركته .
- استلقى كفاتشي على السرير وسكن . حبس أنفاسه ، دخل العجوز
حاملاً قلماً وورقة .
- ضعها على المفضدة — قال كفاتشي بهلوه .
- دخل العجوز إلى الزنزانة ، مضى إلى الزاوية ، حيث تقوم منضدة
صغيرة مثبتة على الحائط .
- في تلك الثانية قفز عن السرير نمر . ارتفعت حشرة قصيرة .
استخدم كفاتشي طريقة قطاع الطرق المجربة : في لحظة واحدة حمل

العجوز ظهرأ لظهر ، لفّ يده اليمنى إلى الخلف ، وأمسك برقبة الحارس ،
أيضاً ادار يده اليسرى إلى الخلف وأمسك برجلي العجوز اللتين كانتا
ترفسان .

وقف كفاتشي محنيّاً فترة طويلة ممسكاً على ظهره بالعجوز الذي
يختنق مطوي الظهر ثم أنزله على السرير وضغط على رقبته باصابعه
الحديدية .

تطلع العجوز المخنوق إلى كفاتشي بثبات بعينه الفاصولية الحجم ،
المتجمدة وتعجب من خلال فمه — الاعوج تعجب من كفاتشي
الجامحد .

استبدل ثيابه بثياب الحارس . وبعد خمس دقائق اقرب من مدخل
الفناء دونما ضجة . بعيداً في الزاوية كانت تجثم المشتقة « مشنقي »
« فكر ابن سايسترو » بهذا وارتيح .

بزغ الفجر ، كان الصقيع مسيطراً . اجتازت سيارة المدخل .
توقفت وبدأت تزمر . خرج من السيارة رجل عسكري يرتدي معطفاً
من القرو ، ثم دخل إلى إدارة السجن .

لقد عرف كفاتشي فيه المخبر الذي يروم قتله .
لفّت السيارة، ثم توقفت في نفس المكان . قفز السائق أيضاً من
السيارة وذهب إلى الثكنة . أحنى كفاتشي رأسه واجتاز المدخل
راكضاً . وبعد دقيقة كانت السيارة تتوجه نحو المدخل .

فتح الحارس المتعب الباب فوراً ولم يفرك عينيه إلا بعد فوات الأوان .
ارتفعت جلبة في الفناء . جرى السائق يصيح ملوّحاً بيديه
حاسر الرأس :

— امسكوا به ، أطلقوا عليه النار !

اجتازت السيارة في لحظة جسر « ترونسین » ثم قطعت كالسهم « مارسو فوي بولي » واختفت في الشوارع الفرعية المجاورة وتوقفت في إحدى الزوايا . قفز منها كفاتشي وانعطف راكضاً نحو الشارع الفرعي . دخل شقة رفاقه مندفعاً وصباح :

— أيها الأصدقاء، انهضوا استيقظوا اسرعوا اسرعوا ، أقول لكم :
التف الأصدقاء المدعورون المصعقون دون أن يلبسوا ثيابهم حول القائد المنتصب كالعمود الذي بدا في تلك الدقيقة تماماً كما كان على تل « ديمير — تيبی » .

— لقد وفيت بوعدی . جئتكم في الزمان والمكان المحددين !

خلال عشر دقائق كان الجميع قد تسلحوا بشكل كامل .

— استدعوا الآخرين !

حدث هذا في السادس والعشرين من شباط عام ١٩١٧ .

التقى العدوان اللودوان على مدى الازمان وجهاً لوجه .

في ذلك اليوم اعد كفاتشي الاعتبار لاسم سلفه العظيم « نابليون » الذي سرق اسمه دون إرادته منذ عشر سنوات خلت .

في ذلك اليوم هبت على الامبراطورية المنخورة ، العفنة المدثرة بالفراء عاصفة لامثيل لها . فجأة تصدع البناء الضخم المشاد على مدى ألف عام بعرق ودماء عشرات الملايين من الناس ، تصدع فجأة وانهار رادماً تحته السكان والمدافعين والحراس .

* * *

القسم السادس

ولادة حزب جديد وبناي حزب جديد

في صباح السابع والعشرين من شباط ، جلس كفاتشي على كرسي المكتب وبدأ باستعمال الهاتف .

يومان كاملان لم يتعد عن كرسيه وتلفونه .

اكتفى رفاقه بالنظر إلى دمار البلاد وسفك الدماء من خلال النافذة أو المدخل ، وأحياناً كانوا يخرجون إلى أول الشارع ، وقد يصلون إلى زاويته إذا كان الهدوء سائداً فيما حولهم ، يسألون المارة ، يشتمون رائحة الجو وينقلون الاخبار إلى القائد .

كان تشيو نيرادزه يجري مندفعاً بين الفينة والأخرى صائحاً نائفاً شعره :

— انتهينا ، أنقلوا أنفسكم .

وكان يسو يدخل مبتسماً ويقول بهدوء :

— لانهج تشيي ا كل شيء يجري كما يجب .

كان جليل يلزم النافذة ويقول أحياناً لكفاتشي :

— ثمة قطعات عسكرية تجوب الشوارع وكلهم ضاحكون .
من المؤكد أن وضع الشاه سيء .

— آه لا ينتهي — قال سيدراك مغتاضاً .
 — لم أعد أستطيع التحمل . أبسوس موى سيغناج ! (دعاء) .
 في اليوم الثالث طاف يسو نصف أحياء المدينة حانياً رأسه ثم عاد ونقل لكفاتشي :
 — انتهى كل شيء .
 حدث كفاتشي رفاقه عن الحطة التي فكر بها طوال اليومين الماضيين وفرش أمامهم الشبكة التي حاكها من جلديد ، ثم نهض وقال :
 — حسناً ، والآن فلنبداً نحن . هياورائي !
 مضى واقتاد وراءه رجالاً مدججين بالسلاح . في المقدمة سار جليل حاملاً راية مرفوفة ، غريبة وكبيرة ، ومشى الرفاق بسرعة وهم يصرخون :
 — أيها المواطنون هيا وراءنا ، قوموا بواجبكم ، فليسقط الطغيان والعبودية .
 لاحظ كفاتشي ، في رتلته عميل المخابرات « بيكاريف » الذي عتقل كفاتشي منذ خمسة أيام مضت . شد أحدهما على يد الآخر وابتسم كل منهما للآخر كأفضل الأصدقاء . كما لاحظ كفاتشي ان بيكاريف صاحب كثيراً ومزق حنجرته .
 بعد ساعة وصل ألفان إلى قصر تافريتشسكي تحت قيادة كفاتشي . قطع الحراس الطريق على الجماهير المحتشدة ، لكن الرفاق هاجموا الحراس ذوي القبعات الاسطوانية ، صرخوا في وجوههم ، هددوهم بالسلاح ، اعلنوا الثورة متكئين على الشعب واقتحموا القاعة البيضاء بصلف وثقة ووعيد .

استأثر كفاتشي ورفاقه بخمس غرف في قصر تافريتسكي والصقوا
اعلانات بخط اليد « جمعية حماة وأنصار الثورة » ، « قبول الأعضاء
والتبرعات » . وعلى باب إحدى القاعات الكبيرة كتب « رئيس الجمعية » ،
وفي الغرفة التالية وفوق مكتب « شيكيا » سمرت العبارة التالية : « قسم
الوثائق والرخص » وفي مكان ما علقوا اعلاناً بحجم الكف :
« اللجنة العليا لحزب الاشتراكيين الاحرار » .

استلم سيدراك مهمة المحاسبة وأخذ تشيو نيرادزه على عاتقه
مهمة الاستخبارات واختص تشيكنيجيلادزه بمنصب السكرتارية ،
وتكلف تشخو ييشفيلي بمهمة الاشراف على المستودعات ، وانتصب
جليل مسلحاً بالبندقية والمسدس والخنجر أمام مدخل مكتب كفاتشي .
واقنع بيكاريف مؤقتاً بعمل صغير : جلس وراء مكتب الحزب
وانكب على تسجيل الاعضاء .

بعد عدة أيام احتدم العمل حتى تصبب الرفاق عرقاً . عملوا خمس
عشرة ساعة في اليوم ، وتمكنوا بصعوبة من كتابة الوثائق الغريبة المتنوعة
ومن استلام التبرعات واحصاء الأموال .

أبواب الوزراء التي كانت مغلقة بتسعة أقفال اضحت مفتوحة
أمام كفاتشي باستمرار . وأتى شاء يدخل غرف رجال الحاشية
دونما استئذان ، يجلس بجرأة لافاً رجلاً على رجل ، ويبدأ حديثه
بلا اكتراث لكن بقوة وعجرفة :

— جمعية حماة وأنصار الثورة ، وحزب الاشتراكيين الاحرار
الذي يضم مايقارب الأربعمائة فرع ومليونى عضو أصبح محور المجتمع

ويقف حارساً في سبيل سعادة الشعب . لكننا نحتاج للملابس والحاجات ،
للسلاح والمال . الجمعية ترجوكم بالحاح أيها المواطن الوزير . .
يجب . . .

في تلك اللحظة يسرد عليه محاضرة تتضمن كلمة « يجب » بثقة
فائقة وينظر إلى ذلك الوزير باعتداد ، حتى ان صاحب القرار يكتب
على الطلب دون ان يقرأه : « ينظر فيه » .

تلقى كفاتشي ورفاقه المزيد يوماً عن يوم . تضخمت الجمعية
والحزب سريعاً ووصل الاعضاء إلى خمسة ملايين وعمل في مكاتب
الإدارة ستون موظفاً وفي الفروع عمل ما يقارب المائتي موظف .

كان رتل الواقفين بالدور أمام الصندوق من حاملي الأموال طويلاً
بحيث يلتف أربعة اطواق فيما حول الصندوق .

وأمام قسم الوثائق كان عدد المنتظرين يصل إلى المائة .

فرش حزب كفاتشي جناحيه حتى طال جناحه الأيسر منطقة
« أرخا نغلنسك » وجناحه الأيمن فوق تفليس ومقاره في منطقة
« فيستول » وذيله في « فلاديفوستوك » . ومن جميع زوايا البلاد جرت
روافله المتبرعين الذين شكلوا أنهرأ كبيرة ، حيث التقت هذه الأنهر
في بطرسبورغ ، وجرت في تيار جارف إلى صندوق وجيوب كفاتشي
لدرجة أنها كادت أن تغرقه ورفاقه .

والتفت بيكاريف لعمل آخر . عاد لمهنته السابقة وأصبح مساعداً
لـ « تشيبو نثيرادزه » .

— لا تثق به ثقة مطلقة وبالمقابل لا تبعده عنك كثيراً ؛ إنه جاسوس

ممتاز إذا دعت الحاجة ينجز عمليات رائعة . استخذه، إنه رجل ضروري
— قال كفاتشي ناصحاً تشييونتير ادزه .

حل رجل الشرطة بافلوف في نفس الزنزانة التي أمضى فيها كفاتشي
تلك الليلة الرهيبة، التي لا تنسى .

ذات مرة تذكر كفاتشي « ريفيكا » و « إيدلسون » فسأل بيكاريف
عن مصيرهما .

— مازالا قابعين كما في السابق . — أجاب بيكاريف — باقيان
في السجن ينتظران رحمتكم .

— ماذا ؟ هذان اللذان خائني ، وعلي الآن أن أقدم إليهما المساعدة ؟
— لاليس هكذا — قال بيكاريف مبتسماً — كان يجب ان أقول
لكم منذ ذلك الوقت، لكنني لم أجده الفرصة المناسبة . لقد خانكم انسان
آخر ، خمن !

— غينتس ؟ كويلان ؟ هاينشتين ؟ من هو الذي خائني ؟
— ماذا كان بإمكان غينتس والآخرين ان يعرفوا عن قضيتكم ؟
سأقول ثمة صيرفي يدعى « غانوس » رفيقكم الذي اغدق عليه الامتيازات
في تركستان .

— وبعد ؟

— فيما مضى ، مع زوجته التي كانت . . كيف تدعى ؟

— عشيقتي تدعى ، عشيقتي ! ثم بعد ؟

— نعم يبدو أنكم استدنتم منها بعض المال و . .

— ولم أعده . . وكيف عرف ذلك المعجوز ، كيف عرف ؟

— هه . . سم ! كان يعتبر هذا العجوز عميلاً ألمانياً في بترسبورغ ،
وفي نفس الوقت كان عميلنا .

كثيراً ما كان يسافر من هنا إلى ستوكهولم لتنفيذ مهمة لنا ، اذ كان
يعطي اعداءنا معلومات مزيفة ويحضر من هناك وثائق اصلية . . .
... أحقاً ؟

— طبعاً . اظن ان العكس هو ما حدث في الواقع .

— أها ! فهمت ، لقد فهمت الآن . الويل لك أيها العجوز
« غانوس » ان وقعت بين يدي ! هكذا حسناً . . اشكركم سأخذ
هذا بعين الاعتبار وماذا ستقولون عن اسحق وريفيكا ؟ .

— لقد أوشى بهما غانوس أيضاً ، ونحن ارغماهما على ذكر
اسمكم . لا تغضب عليهما ، حتى لو كانا حديداً لتمكن بافلوف من شقه .
... حسناً . . سأفكر . . سأفكر . .

وفي تلك الأيام دخل إلى مكتب كفاتشي الشعب العجوز غينتس
وصاصاً :

— من يتذكر الماضي فلتخرج عيناه من محجريهما ، فلتتصالح
أيها الأمير !

— فلتتصالح ! — وافق كفاتشي واستقبله بابتسامة — اجلس
يا صديقي القديم واحك لي ما الذي يزعجك ؟ فأنت لولا حاجتك
ما ذكرني !

— طبعاً غينتس المسكين يجري دائماً وراء حاجاته . انت تعرف
أيضاً ، لقد أصبحت الآن رجلاً كبيراً جداً — في ذلك اليوم بالذات

خاطب غيتس كفاتشي « أنت » بدلاً من « أنتم » ، رافعاً الكلفة فيما بينهما .

· - أحقاً ؟ فعلاً ؟

— كأنه لأيدري ! انت الآن أكبر مما كنت سابقاً . اللعنة على الماضي وعلى ماهو قديم .

لي حاجة لديك . لكن انتظر سأريك أولاً — وفتح كفاتشي مجلة أسبوعية ملونة . كانت صورة كفاتشي تحتل الصفحة الأولى وقد كتب تحتها : المدافع المخاض وحارس الثورة اليعقظ ن . أ . كفاتش نيرازده ، وعلى الصفحتين التاليتين طبعت سيرة حياة كفاتشي بقلم كولنمان . استعرض كفاتشي المقالة بعينيه بسرعة وابتسم : أولاً لم تشر المقالة إلى الامارة أو إلى كفاتشي الياور أو إلى غريغوري راسبوتين أو إلى أي شيء . يسكن ان يسيء إليه حالياً .

ثانياً : كانت المقالة تركز على « الماضي الثوري » لكفاتشي والذي اضطره للهرب خارج البلاد .

ثالثاً : وبعد عودته من الغربة انخرط من جديد في العمل السري مؤسساً الحزب الاشتراكي ، وقد وصلت الأمور إلى ان حكم عليه بالشنق لكن « الأسد القوقازي » مزق جدران قلعة « بروبافاوفسكايا » قتل أربعة وجرح العشرات داعماً ، في الوقت المناسب ، قضيته الحبيبة — الثورة .

— هذه المقالة كتبها رجل ذكي — قال كفاتشي — من صاحب المجلة . ؟

— أنا . لكن منذ الآن ستصبح هذه المجلة مجلتنا . اعطها اسم
حزبك وجمعيتك وأنا . .

— وأنت / وتحول كفاتشي أيضاً نحو مخاطبته بـ « أنت » بدلاً
من « انتم » / تعطيني نصف الإيرادات أليس كذلك ؟ خمنت طبعاً ؟ !
— طبعاً .

— حسناً . منذ الآن سيضاف إلى المجلة « لسان حال الحزب الاشتراكي
الحر وجمعية حماة الثورة » .

كتبوا العقد وضافوا العبارة . وعدلوا في حجمها وعدد نسخها .
ولم يعد يمضي يوم دون ان يستقبل كفاتشي في مكتبه - وزراء
سابقين أو رجال حاشية منحنيين أمامه واهيين له العطايا أو طالبين
منه الحماية والمساعدة . تذكر كفاتشي ذلك الزمن بعد عودة راسبوتين
من القدس ، كيف اخرج لسانه ودخل طالباً الحماية من أولاء — رجال
الحاشية . بعضهم لم يكثر لكفاتشي ، والبعض الآخر تظاهر بعدم
وجوده في البيت ، وآخرون عاملوه وكأنهم لا يعرفونه . .

تذكر كفاتشي كل ذلك وقارن تلك الحاشية بهذه فازداد حيوية
« لصلح الثورة » حتى ان بعضهم كاد ان يفلس والبعض الآخر دفع
سبعة أضعاف . أما تصفية الحساب مع غانوس فقد أجّل كفاتشي
إلى وقت آخر . .

اعتاد سايبسترو وبوبي وخوخو ونوتيو على الحياة في بطرسبورغ ،
كما اعتادوا على الحياة سابقاً في « سامريديا » و « كوتايسي » .
كان الأربعة يابسون على الطريقة الأوروبية ينفخون أشداقهم ويتبجحون :

— انتفخ ابني كفاتشي . انتفخ كثيراً — قال سليسترو — أخشى عليه من الانفجار . لكن فما عدا ذلك لأبأس .
— آه ، أنت لاتعرف كفاتشي جيداً ! — قالت نوتيو مهدثة سليسترو .

— حبيبي ياكفاتشينا — مرة أخرى قالت بوبي التي اشرفت على الخمسين . والتي مازالوا يدعونها « بويكو » — لم يلد بعد ذاك الانسان الذي يستطيع قتله . وماذا سيحدث بعدئذ ، الله وحده يعلم .
— الحمد لله — اختتم خوخو الحديث — إنه حامي كفاتشي وحاميها وإلا كنا متنا عشر مرات !
. ذات مساء قال بيسو لكفاتشي :

— ثمة شخص كان يريد رؤيتك لقد قال : سنحرق اليوم ، ليلاً ، جثة راسبوتين ، فليات هو أيضاً .
— أجل لقد سمعت أيضاً ان بعض الاشقياء والرعاى يريدون ان يصلوا على قبره . فعلاً يجب ان تحرق جثته والا سينبشون القبر ويدورون بالجثة كافة أرجاء روسيا مدعين انه قديس .

كان الوقت مابعد منتصف الليل حين وصل كفاتشي وجليل بالسيارة إلى الغابة حيث جمعت الاغصان والخطب ، وسريعاً ما أحضروا التابوت ووضعوه فوق الخطب ، ثم صبوا الكيروسين من صفيحة كبيرة على الخطب . التهمت النيران على الفور ، التابوت ، وانتشرت رائحة الجيفة المتفسخة المحروقة . اضطربت النار تدرجياً وارتفعت للأعلى وصبغت الغابة والمرج الصغير ووجوه العشرين الحاضرين بلون أحمر — دموي .

دار الجميع حول النار من الجهة التي يهب منها النسيم ، ثم شرعوا يتحدثون عن ماضي ومستقبل روسيا وانبلج الفجر من الشرق :

وقف كفاتشي جانبا يتطلع نحو التابوت الذي التهمته السنة الذهب ، وفكر بماضيه ومستقبله . في تلك الدقيقة بدا لكفاتشي الغارق في الدرامية ان ماضيه المبرقش قد احترق في تلك التيار مع جثة راسبوتين ، وان كفاتشي جديداً قد ولد مطهراً بتيار الثورة معمداً بيد الشعب الذي وهب نفسه له صادقاً ، نظيفاً .

.. خميدت النيران ، اطفؤوا الجمر المتقد بالماء ، ثم عبؤوا الرماد والفحمات في « كيس » ونظفوا المرج كراحة الكف ، ثم قذفوا بالفحمات والرماد المختلط برماد القديس « غريغوري » في نهر النيفا ثم عادوا إلى البلدة .

-- بيسو ! — قال كفاتشي المسهد لرفيقه المخلص — كفانا ان نحيا بلا جدارة . سئمنا . منذ هذا اليوم لاتذكرني أبداً بأي شيء يمكن ان يوسخني . منذ الآن كل شيء للشعب وعلينا ان نخدمه بشرف ، وأنقل هذا إلى بقية الرفاق .

. — حسناً ، أجاب بيسو بشيء من الجشونة ، لكنه قال في نفسه . شيء طريف ! أية ذبابة قد عضت كفاتشي ؟ لعله يسمع موعظة ما فصدقها وإلا . آه أعرف لن يستمر أكثر من الغد ثم ينسى . سئرى ، أية فائدة ترجى من موعظة قسيس ما .

فوق البناء المتهدم ، الذي كان شامخاً ، يدور اناس صغار ، يتجمللون ، يمشون على أيديهم ، يفكرون بأرجلهم ويشدون باصابع ايديهم لتقوية قطعة الحديد التي توشك ان تنكسر . لكنه لم يشأ أن يقف

منتصباً. أو أن يميل نحو اليمين . يحكه جانبه الأيسر لكنه يحاول بعناد ان يتقلب على نفس الجانب . أجل صبي عاص هو التاريخ ! كأنه لم ير بحر البشر الذين طاولت جبال جثثهم السماء ، أو تيار الزم الذي لاحدود له . ولم يشعر بالاصابع المتشبثة بجانيه ولم يسمع ضججة وأنين الشعب — مخاوفه وآماله وأفراحه . كان يمشي أعمى أصم عبر فضاء أسود ولم يدر أحد طرق الموكب الخفية .

لقد شعر ورأى كفاتشي بالحاسة الخفية ان السلطة العمياء والتاريخ العاصي يسيران في طريقين مختلفين ، وانهما يتصارعان ، وهذا الصراع الغبي يجب أن ينتهي بدمار البشر المذهلين حتى الجنون . ومن وقت لآخر كان كفاتشي يقول لرفاقه ، وقد شعر بالنهاية المؤكدة الحتمية لذلك الصراع :

— أيها الرفاق ! لا يتمسك بالجنون سوى الأهل الذي سيفقد عقله أيضاً . من يتعاق بالجنة سيصبح جنة هو الآخر ، من يتمسك بالغريق سيغرق هو أيضاً . سيتمسك « الغانية » كيرنسكي (١) ويصاغى عدة أشهر ثم يسقط في هوة التاريخ . السلطة الحالية مقضي عليها . هي تؤكد بعناد أنها ستخزق سلسلة القوقاز بانفها، لكنهم لن يخزقوا بالسلسلة بل سيكسرون أنوفهم . لن تجري وراء هؤلاء المجانين . لكن نهاية « الغواني » لم تكن بعد كي تركهم وندجم الحديد . حين يحين الوقت سأعطيكم توجيهات جديدة ، لكن اعلّموا ان روسيا حملت مرتين :

جاء ابن شباط (٢) خديجاً . اليوم أو غداً سيمد ساقيه وستلد أمه

.. (١) كيرنسكي . : عين بد ثورة شباط وزيراً للعدل ثم للحرية ثم خلف لفوف في رئاسة الوزارة .
(٢) اشارة إلى ثورة شباط (فبراير) .

ولداً ثانياً . علينا ان نمد خيطاً صغيراً للمولود الثاني الذي يتخبط الآن في بطن أمه حتى ليكاد يحطم رحمها ويخرج مسرعاً قبل أوانه . دعوا هذه المسألة لي . سيتحول هذا الخيط في الوقت المناسب إلى جسر يجتنبنا الخطر ويفضي بنا إلى الضفة الأخرى من تيار الدم والدموع والنار .

— امض وقدنا ! — صرخ تلاميذه — حيث يكون القائد سنكون نحن .

في تلك الفترة طلب كفاتشي للمرة العاشرة من وزير الجيش لشؤون الدفاع عن الثورة عشرة آلاف زوج من الألبسة ومواداً غذائية وعشرين مليوناً من الروبلات .

لم يكن مزاج الوزير رائقاً فاختصر المواد المطلوبة إلى النصف . كان هذا الأمر بسيطاً يمكن ان يتقبله كفاتشي بيسر وكان بإمكانه ان يعوض ثلاثة أضعاف النواقص خلال اسبوعين . لكن أنى يستطيع كفاتشي ان يتحمل مثل هذا العار : منذ بداية الثورة سيطر عليه تعطش لايقاوم للسلطة، وحتى الآن لم يستطع ان يشبع تلك الرغبة ويهدأ . حام طويلاً حول السلطة العليا . حاول في البداية ان يجلس على كرسي أحد الرفاق الوزراء، ثم طالب بمنصب مدير منشأة اقتصادية، لكنه لم يوفق لذلك . وقد تنازل لدرجة انه كان موافقاً على انتقاله إلى الريف بصفة « محافظ » فنلندا مثلاً أو تركستان أو جورجيا . حتى ان كفاتشي تقدم بمشروع للدولة / ومن يدري من كتبه ٢ / .

ينص المشروع على ان تعطى المناطق الأطراف في روسيا حكماً ذاتياً . خطوته هذه تولى شرحها بيسو شيكيا :

.. هذه قضية تكتيكية يا عزيزي يسو . بهذه الطريقة سنضعف الحكومة المؤقتة ونسقطها . وبعدها . . سيتغير التكتيك مرة أخرى .
في ذلك اليوم الذي علم فيه كفاتشي باختصار الوزير للمواد والأموال المطلوبة ، عرف أيضاً بسقوط مشروع تعيينه محافظاً .
-- حسناً -- قال كفاتشي المهان متوعداً الحكومة وقد اضيف ابريق إلى قطرة السم الموجودة في نفسه .

في ذلك اليوم حول كفاتشي إلى غينتس للمرة العاشرة البضاعة المرسلة من الوزير ، ثم اشترى من جديد مجوهرات بالملالين التي تلقاها ، ثم ذهب مساء إلى الاجتماع وهو يفكر في نفسه :
« ادفع الساقط فسرعان ما يسقط . . الساقط . . هشتم رأسه ، سيكون ذلك عملاً خيراً ، هذا جزاؤه » .

في ذلك الحين اقترب شهر تموز . لم يعد الولد اللعوب يطيق البقاء في بطن أمه . صار يجري بجنون محاولاً الخروج . كان الجو مشبعاً برائحة العاصفة وتلبدت السماء بغيوم رصاصية توشك اليوم وغداً ، ان تنشق وتغرق البلاد . واطلمت الدنيا في كافة أرجاء روسيا ، رعدت هنا وهناك ، ومن وقت لآخر كان البرق الصاعق المتعرج يشق عنان السماء والأرض بأسهم قاتلة .

عندما حلت الصواعق في الشوارع كان كفاتشي واصداقاه يجلسون في مخبأ مريح أمين بلعبون بـ « الطرة والنقش » : من سينتصر : السيد كيرنسكي أم البلاشفة ؟

مرة أخرى جرى تشيبي تشيبيونثيرادزه رامحاً زاعقاً :

١٠٠ - انتهينا ! اسلموا بأنفسكم ، انعطفوا نحو اليسار ، لابل أخطاء
نحو اليمين !
١٠١ - لا تتحدث ، تشيبي - قال كفاتشي مهدئاً تشيبي الهائج - أياً كان
المهزوم سنتنصر نحن .

إضع رجلاً في معسكر اليمين والرجل الثانية في معسكر اليسار .
فاذا انتصر « كيرنسكي » انقل رجلي اليسار إلى اليمين حالاً . وإذا
انتصر الأحمر انقل رجلي اليمين نحو اليسار وأحمر أيضاً . هذا لا يحتاج
وقتاً وتفكيراً طويلاً . خلال خمس دقائق نغسل الطلاء الأبيض عن
وجوهنا ونصبغها بالطلاء الأحمر .

هذا كل ما في الأمر !
دخل يسوشيكيا مساء وقال بهدوء :
- لقد انتصر كيرنسكي !

- لقد قلت ذلك - قال كفاتشي ونهض - حسناً أيها الرفاق
أعمالكم محددة والمكان معروف ، والآن امضوا واجتمعوا في ذلك المكان .
توزع الرفاق على ثلاث مجموعات وتقدموا نحو « القصر الشتوي »
من جهات ثلاث .

- أيها المواطنون ! - صرخت كل مجموعة وهي تسوق الناس
عن الأرصفة إلى الوسط الشارع - أيها المواطنون كونوا عوناً للحكومة
المؤقتة ، انضموا إلينا ، أدوا واجبك . وانضم الناس إلى مجموعات
المنتصرين وساروا في التيار العام .

في كل مجموعة انضم إلى العشرين آخرون ، وإلى الثلاثمائة
ثلاثمائة آخرون وإلى الألف - ألف آخر ، وإلى الخمسة آلاف خمسة

آلاف آخرون . التقى التيار مع التيار ، والنهر مع النهر ، فتشكل بحر حول « القصر الشتوي » ، وبدأ كفاتشي مع راية جمعيته / البيضاء - الحمراء وسط ذلك البحر اشبه مايكون بالجزيرة . ومن تلك الجزيرة دوى صوت قائد الجمعية :

— أيها المواطنون منذ الآن ستنامون بهدوء ، ستحرس حلمكم جمعية انصار الثورة والحزب الاشتراكي الحر الذي انقذكم اليوم من الشياطين الحمر وأخذ على عاتقه مهمة التصدي للخطر المخيف .

— أيها المواطنون ، جمعيتنا وحزبنا مستعدان لبذل الدماء على مذبح الثورة ، لكننا بالمقابل نأمل ان نال اهتمامكم ، وهذا يساعدنا بعض الشيء . أيها المواطنون — انتهى كفاتشي خطابه الصاخب والحماسي -- ونتقدم اليكم ، سلفاً ، بالشكر الجزيل على التبرعات التي ستلقها يوماً في قصر « نافريتشسكي » . رفع التلاميذ كفاتشي على أيديهم وصعقوا ذلك الحلي بصراخهم « هورا » .

بعد عشر دقائق دخل كفاتشي مسرعاً مكتب الوزير وقال بصوت عال :

— أهتكم بالنصر ! هورا !

استقبله رجال القصر بالصراخ وفرح الأطفال . وجه رئيس مجلس الوزراء كلمة خطابية لكفاتشي واسماه « منقذ الثورة » ، وبدأ شكر الآخرين على شكل صراخ وشاد على الأيدي .

— أيها الأمير ، ساعدوا الحكومة بفاعلية ، تعالوا للخدمة معنا ! — قال أحد الوزراء لكفاتشي .

— صعب علي ، صعب جداً لكن .. اذا نادى الوطن ..

- في أي ميدان تفضل الخدمة ! ؟ .
- في مصاحبة القروض أو في القوقاز .
- حسناً طالما انني أخذت موافقتكم سأحدث مع بقية الوزراء .
- ثم أخبركم بالجواب . على أية حال تقدر الحكومة عالياً بطولتكم التي أبديتها هذا اليوم ...
- بعد عدة أيام قدروا خدمات كفائشي الخالدة وأعماله الخيرة على الشكل التالي :
- اتخذت الحكومة مرسوماً أعلنت فيه شكرها و . . ليس أكثر . وفي الحال جرى كفائشي إلى مقر الحكومة وسأل :
- لاشيء غير هذا ؟
- لاشيء .
- إذا ، الوداع !
- في اليوم التالي نقل تشيبي - المسؤول الاعلامي لكفائشي :
- لقد انتهينا ، فلنهرب . بعد غد سيأتي إلينا رجال المخابرات .
- ناد غابو - أجاب كفائشي . همس كفائشي في أذني « غابو »
- و « شيكيا » بضع كلمات .
- في ذلك اليوم نقلت عشرون شاحنة المواد الغذائية والبضائع من مستودعات الجمعية إلى مكان ما . قبل ان يحل المساء وفي ذات الليلة حدثت مصيبة كبيرة بشكل مفاجيء :
- لقد أوتت النيران على مستودعات الجمعية لأسباب مجهولة . لكن تلك النيران خمدت بسرعة بعد ان احترقت آخر « خرقة » .
- تفحص رجال المخابرات المكان ، زانوا الأمر ثم خفضوا أنوفهم .

في تلك الليلة طمأن القائد جمعيته الحزينة :
 — لاتدعوا قلوبكم تهتز أيها الرفاق ! والآن فلنبدا العمل قبل
 فوات الأوان .

في اليوم التالي ، ومنذ الصباح . تفرغ يسو وسيلراك للاجتماع
 بتنظيم عمل احدى السيارات الكبيرة .
 لقد أخطأ يسو : المستودعات الثلاثة الضخمة المستأجرة لاتتسع
 للمواد التي تمّ التبرع بها خلال يوم واحد . وبدلاً من الأيام الثلاثة
 المقدرة لحصي أموال الجمعية أمضى خمسة اشخاص اسبوعاً كاملاً
 لإنجاز ذلك .

« كيف (احمرت) الجمعية وكيف تهيأت ولادة أكتوبر »

— أيها الرفاق ! — علمت كفاتشي تلاميذه قبيل اقتراب أكتوبر ...
 تشبه السياسة البقرة . البعض يزعونها والبعض الآخر يحلبونها ويتغنون
 بحليبها وسمنها . الرجل هو الذي لا يريق دمه وعرقه في الجري وراء
 البقرة . فليجرواها المجانين يزعونها ويعتنون بها ، علينا نحن ان
 نحلبها ونكتنر سمنها . حاب البقرة آيس أمراً عظيماً : جامل ، لاطف .
 ابتسم ، هذه هي السياسة الوحيدة الذكية . لاتسأل عن لون البقرة ،
 سواء أكانت سوداء أم بيضاء أم حمراء ، لاتقس عليها كي لاترفس
 وتمنع حليبها ، وإذا حاول أحد معاقبتها قفوا في زاوية واجمعوا الريش
 وغنائم هذا الصراع . عندما يتقابل طرفان فالرابع هو الرجل الثالث .
 لكن على الانسان ان يبقى يقظاً كي ينتقل إلى جانب المنتصر في
 الوقت المناسب . يجب البصق على المهزوم وتهنئة المنتصر في الوقت
 المناسب .

عندما أقرب أكتوبر أمر كفاتشي سيدراك ان يحول ممتلكات
 وذهب الجمعية إلى أحجار كريمة خلال عشرة أيام .
 ذهب كفاتشي ذات مرة ليرى (يلينا) . ماأن دخل حتى اصطدم
 بـ « بافلوف » الذي كان مزمعاً على الخروج .
 — آ ، نابليون ابولونيتش — سلامات !
 — تاتين كفاتشي الدهش مهلكه ، ودون شعور منه مد إليه يده :
 — من أخرجكم من السجن ؟
 — الثورة أيها الصديق ، هاأنذا ذا كما ترى مرتدي الزي الأوروبي
 وأعمل في المكان نفسه .
 — أي إن ثورة شباط غيرت للنظام القديم ثيابه فقط — قال
 كفاتشي مبتسماً .
 — للنظام القديم ولك أيضاً ! اضافت يلينا .
 — فليذهب للشيطان شباط وآذار ، حسب قناعتي المطلقة نحتاج
 ا « فيلهيلم » بالرغم من كل شيء . ضباط صفه فقط سيقدمون لنا
 السلام ، الحيز والقانون — قال بافلوف .
 — القانون والحيز والعبودية — أضاف كفاتشي .
 — القانون والحيز والعبودية أفضل من القوضى والجوع الحاليين —
 مرة أخرى تدخلت يلينا .
 — وإذا لم يأت فيلهيلم ؟ — تساءل كفاتشي .
 — في هذه الحال البلاشفة أفضل — أجابت يلينا ووافقها بافلوف
 هازأ رأسه .
 — أحقاً لاتدرون أين ايدلسون ؟ — سأل كفاتشي .

- نتيجة لمروبيكم من السجن ، أجلسوا شتقهما إلى اليوم التالي .
- وهذا ماساعدهما ، اذ ان الانقلاب حدث في روسيا في نفس اليوم ،
- وهذا الآن في سجن بتروبافلوفسكايا .
- كما أرى لم تتضرروا انتم من هذا الانقلاب - مرة أخرى
- ر كل كفاتشي بافلوف .
- انا لم أنضرر وانتم أثريتم .
- من أين ؟ وكيف ؟
- يبدو انكم تظنون اني نائم ، أنا أعلم كل شيء عن حياتكم .
- هاكم مثلاً . . . وفرش له الطور الأخير من حياته كراحة الكف .
- معلوماتكم لأف كدها ولا أرفضها . أريد فقط أن أعرف اذا
- كانت هذه المعلومات صحيحة ، لماذا لاتعتقلوني ؟
- لأن . . . يجب أن يكون السبب واضحاً لكم . لماذا ؟ من أجل
- من ؟ ولأي سبب ؟ من يجب عليّ ان أقرح ؟ من يقدر اخلاصي ؟
- أضحت روسيا بلا مالك ، لذا لن يقول لي أحد شكراً . لماذا أجعل
- منك غدواً لي دون طائل ؟ من يلدي اين سنلنقي وكيف سيحتاج
- احدنا الآخر ! .
- الانسان الذكي يتصرف بذكاء دائماً . مع أنكم ستلنلون ترقية
- لقايع اعةةالكم لي ، لكنني سأزدد الجميل يوماً ما .
- رده اليوم .
- أمركم !
- انتم ترنادون ادارة « سمولني » كل يوم وتعملون تحت امرة
- ايفانوف .

— صحيح .

— أخبره بأنني سألقي القبض . هذه الليلة ، على اثني عشر بلشفيًا .
لي لديهم جميعاً ، شقق سرية ، لكن عناوين شققهم الجديدة في جيبي .
اكتبوا الآن هذه اللائحة . اذا نفذتم لي هذا الرجاء وذكروني بكلمتين
أمام ايفانوف ، تكونون قد أدبتم دينكم تجاهي . كنت سأرسل بيكاريف ،
لكن بما انني قابلتكم . .

— اما زلتم على علاقة مع بيكاريف ؟

— لا ، ليست لي معه أية علاقة . نادراً ما التقى به . أما بالنسبة
لـ « ايفانوف » ستكون لي معه لقاءات عدة في المستقبل . لذا ستعمل
معروفاً فيما لو مكنتني من اللقاء به سرّاً . اكتب اللائحة .

نقل كفاتشي اللائحة . ودع بافلوف وهو يقول في نفسه : « سأدبر
لقاءك مع ايفانوف وأكون جسراً .

هكذا أفضل ، ستكونان معاً في قبضة يدي .

خرج بافلوف . استقبلت يلينا كفاتشي ببرود . فقد تأرجح الجسر
بينهما وانهدم بسبب مشاغل الحياة .

انشغل كفاتشي ببناء جسور جديدة متعددة . وبعد شهر ، شهرين
وجد وقتاً لـ « يلينا » التي أقامت بدورها جسوراً جديدة لكفاتشي
جديد .

— يلينا أتعرفين بافلوف منذ فترة طويلة ؟

— منذ ستة أشهر . .

— أهو صديق حميم لك ؟

- وأنت ماشأناك ؟
- أحقاً لقدت الحق حتى في سؤالك . ؟
- أنت من حرم نفسه هذا الحق .
- تقولين الحق فأنا لأأراك مرة واحدة في الشهر . ما العمل هذا قدرنا ! هذه لوحات رائعة لقد شاهدتها في مكان ما .
- هذه لوحات (تانيا) . أتذكر تانيا — سألته يلينا بشكل لاذع .
- حقاً ، تانيا ! يا للمرأة المسكينة ! كيف اجتهت أثرها ؟
- بالنسبة لي لم تحتف . انها هنا الآن . يجب أن تأتي خلال دقائق . أنا انتظرها .
- حقاً ؟ اضطرب كفاتي شي قليلاً — فأنا لم أرها منذ خمس سنوات .
- تسعدني رؤيتها لكن . .
- أحقاً تسعدك ؟ لأأصدق . لا تسرع في الخروج . بعد خمس دقائق ستكون تانيا هنا .
- نظر كفاتي شي إلى الساعة . .
- آه ، لقد تأخرت كثيراً . وداعاً يا صديقتي الطيبة . لقد تذكرت ، أريد أن أنصحك ، بيعي كل ما تملكين . اليوم أو غداً ستهدر الصاعقة وتضيعين كل شيء .
- لقد بعث منذ فترة طويلة وانفقت وكذا فعلت تانيا . .
- حسناً فعاتما اذ بعثما . حسناً وداعاً يا عزيزتي .
- وَجَرى كفاتي شي على السلم مسرعاً ، وكان أحداً يجري وراءه . حين خرج إلى الشارع ، لاحظ مركبة تانيا من بعيد ، فدخل أحد المخازن بسرعة واسترق النظر من هناك . حصبانان أسودان يتهاديان .

ثانيا ترثدي ثياباً سوداء . لقد هرمت وازدادت ذبولاً . تذكر كفاتشي ،
للحظة . الماضي الأرقش .. إلا أنه أغلق سريعاً باب الذاكرة ، ثم اوقف
عربة أجرة ووصل بعد نصف ساعة إلى قيادة أركان الحمر .

.. مرحباً أيها الرفيق ! قال كفاتشي مسلماً على ايفان ايفانوفيتش ..
الذي موضوع سري جداً . هل يوجد أحد غريب هنا ؟ حسناً اسمعوا
هاكم هذه اللأئحة . سيعتقل هؤلاء الناس هذه الليلة . : ألا تصدقون ؟
أقول لكم انهم يعرفون شققهم السرية . : من اين عرفت ؟ لا أستطيع
قول هذا . غداً صباحاً ستعرفون ، أصبحت معلوماً أم لا . أما الآن
فاتخذوا اجراءاتكم . لقد قمت بواجبي تجاه الثورة . انا ذاهب الآن
الآن . وداعاً !

ذهب إلى الاجتماع السري وثلذذ بثرثرته . كرر مائة مرة مقالته
وأضاف كلمات يستطيرها الفارون من الجيش مثل : ..

— أيها الرفاق نفلد صبر الفلاحين الروس . لقد بلثوا بمضادة
وتوزيع الأراضي وقد انتهوا في مناطق كثيرة من مسألة التوزيع .
أتدرون أيها الرفاق — وأنخبروا الآخرين بذلك — من يتأخر لن ينال
حصته من الأراضي . ألا فلنسقط الحرب الجهنمية ، اتركوا الخدمة ،
اخذفوا الرتب في وجه الحكومة ، وعودوا حالاً إلى .. أسركم
وأراضيكم . عاش شعارنا الجديد : ..

« إلى البيت ! إلى الأسرة ! إلى الأرض . » .

— إلى الأسرة إلى البيت . ! — صرخ بصوت أعلى المتعطشون
لامتلاك الأرض والناس الذين تعبوا من الحرب ، ثم تجرأوا كالتيار
وراء الراية الحمراء التي كتب عليها بأحرف نارية : ..

« السلام والخبز » « الحرب للقصور والسلام للأكواخ » « الأرض
للفلاحين والسلطة للمجالس - السوفييتات ! » .

تحققت مقالة كفاتشي . نقب بافلوف في تلك الليلة مايقارب العشرين
شقة، لكن لم يجد ولم يقبض على أحد ممن يجب ان يعتقلهم . ومنذ
ذلك اليوم ارتفع اسم كفاتشي وتضاعفت الثقة به في عيون وقلب الحمر
عشرة أضعاف على الأقل .

حين اقرب أكتوبر قال كفاتشي لسليسترو :

— بين ليلة وأخرى سيندلع جحيم هنا لن يستطيع الشيطان نفسه
الخروج منه ، لذا انصحك بالتزوح غداً إلى جورجيا .

وافق الجميع ماعدا « بوبي » التي لم تشأ ان تفارق ابنها . لكنها
رضخت لكفاتشي في نهاية الأمر ، وبعد ثلاثة أيام أمّن كفاتشي
أهله في القطار وسفرهم إلى وطنهم .

« عن بعض الأعمال اللاأخلاقية »

ازدادت « جمعية انصار الثورة الحمراء » انتشاراً وازدهرت
أكثر وأكثر . فالسلطة الجديدة لم يكن لديها وقت لتفحص كفاتشي ،
لذا سار كل شيء في عرين كفاتشي وفق الخطة التي رسمها كفاتشي
نفسه .

لكن جاء وقت وتذكروا تلك الجمعية في ادارة « سمولي » . اشم
كفاتشي رائحة الخطر على الفور فأطنب قائلاً في مقر قيادته .

— هنا سنلوي الرقبة . لقد آن الأوان كي نغادر بهدوء عشتنا
الذي احتوانا وادفأنا عاماً كاملاً . اذا تصدع البناء لايجوز البقاء تحت

سقفه . حان وقت الوظيفة . ومن يلدي : ربما كان من الأفضل التخفي وراء الوظيفة . أصبحت المفوضية الآن قوة جبارة تستحق في سبيل الحصول عليها ان نعمل بلا راتب .

ونفذوا مقرر وه . خلال اسبوع امن . كفاتشي كراسي جديدة للجميع . تمكن من ان يسمي نفسه قوميسيراً / مفوضاً / لاحد المصارف الفخمة وعين افلابريان اميناً للصندوق في المصرف ذاته ، ودس غابو تشخويشفي بين عناصر الصليب الأحمر ، وزج بـ لادي تشيكنيجلادزه في مؤسسة اصدار النقود ، أما « تشيبي » و « بافلوف » و « بيكاريف » فقد اطلقهم في طريق التجسس والاستخبارات .

وحل بيسو شيكيا مكان كفاتشي في « جمعية الثروة الحمراء » : حل الجمعية وباع ممتلكاتها خلال شهر منفذاً ما طلب منه على الوجه الأكمل . واستطاع كفاتشي ان ينفذ خطته أيضاً .

كل يوم تقريباً كان يأتي إليه بيسو وتشبي ولادي ويقدمون اليه عدة ملايين من « الاعتمادات المالية » على شكل شيكات أو أوراق مالية أخرى فيوقعها كفاتشي بهدوء : « تُصرف » .

ويقول افلابريان للجميع : « لا توجد نقود » ، ثم يعدها ارفاقه . هذه الأموال كان ينقلها هانشتين إلى البورصة ويعود مساء حاملاً الذهب والأحجار الكريمة .

كل يوم في منتصف النهار يمسك كفاتشي بالهاتف ويعجري مع بيسو مثل هذا الحديث الماكر :

— بيسو ، اهذا أنت ؟

— نعم أنا .

— سجل اليوم طلباً بخمسة ملايين .

— حسناً . .

بعد ساعة يتلقى المصرف طلباً باسم جمعية كفاتشي أو أية مؤسسة أخرى . بمبلغ خمسة ملايين . كان الرفاق يجتمعون في شقة كفاتشي في كل مساء يتناقشون الأخبار ، يجرون الحسابات ويخططون لمصادد جديدة .

كانت السماء توشك ان تحترق والبلاد غارقة بالدماء والشوارع مشبعة بأنين المتقاتلين والأرض ترتجف من الانفجارات .

كان لكفاتشي وزمرته آلاف الآذان والعيون ، يراقبون كل شيء ويعملون بشكل حثيث وحذر وجشع . عصروا ما أمكنهم عصره وجمعوا كل ما تساقط ، وكلما ارتدى انسان اخذوا ماله . اندسوا في الشقوق بسهولة ، استحوذوا على الممتلكات التي لاصاحب لها والتي لها صاحب . اشتغل بافلوف في عمله الحديد وكأنه في بيته وأصبح في وقت قصير الساعد الأيمن لكفاتشي . . لم يعد يمر يوم دون ان يعطي بافلوف امرأ لكفاتشي :

— ينتج عن هذا الموضوع . . . هذا خطر . . لا فائدة ترجى من هذا . . هذا يعرفونه . . ذلك لا يعرفونه . .
أصدر كفاتشي منذ زمن أمراً لزمرته :

— تصرفوا بحيث تكونون جاهزين دائماً للرحيل عن البلد في أية دقيقة . على الرجل الحذر في زمن كهذا ان يبقى حصانه مسرجاً دائماً .

يبلنو ان اسحق ورييكا قد خرجا من السجن وسافرا إلى أوديسا .

ومع ان كفاتشي قد صفح عنهما اذ ضعفا، إلا أنهما قررا عدم اللقاء
معد وارسلا له تحية واعتذاراً عن طريق « بيكاريف » ، ثم
اختفيا فجأة ، ولم يكن ثمة من اثر لـ « يلينا » .

انتقل مقر الحكومة إلى موسكو، وكان على كفاتشي ان يلحق بها
مع ادارته ، لكنه تلكأ قليلاً ، اذ كان عليه ان ينهي بعض الأعمال .
— غابو ! كيف حال الصديق « غانوس » ؟ — سأل كفاتشي
في تلك الأيام غابو تشخوبيشفلي .

— مات منذ فترة وجيزة .

— مات من تلقاء نفسه ؟ — تسأل كفاتشي دهشاً .

— لقد ساعدته قليلاً — ابتسم غابو ونظر إلى نفسه وفهم كفاتشي .
كانت ساعة ذهبية تتلألأ في جيب غابو . وبين يديه علبة دخان ذهبية
وتلمع في اصابعه عدة خواتم غالية الثمن .
— أحسنت ! — مدحه كفاتشي — سأرد لك جميلك .

ضاعت زمرة كفاتشي من سرقاتها . بالغوا في السرقة، اذ جمعوا
خلال اسبوع أكثر من كل ما جمعه قبل ذلك .

في ذلك الوقت امتلأت سماء كفاتشي بالسحب الداكنة وانذر
البحر بالعاصفة . في مكان ما ابرقت . أخيراً دخل تشيبي تشيونتيرازده
ذات مساء مندفعاً وصرخ :

— لقد انتهينا ! عرفوا كل شيء ! . . هيا اهربوا ! . . هاكم
! اقرؤوا !

فتحوا جريدة المساء وقرؤوا « اندس » ، أيضاً في صفوف الثورة
الأمير كفاتشا تيرازده صديق راسبوتين والخدام الأمين للقيصر الذي . . .

— أخوتي آن لنا ان نمضي ! — قال جليل واسنانه الحصانية تلمع .
جاء بافلوف بعد « تشيبي » وقال بهدوء وايجاز :
— لقد عرفوا كل شيء . يجب ان نجهز انفسنا للسفر قبل ان
نفوت الأوان .

— حسناً ، بعد ساعة سنكون في المحطة — أعطى كفاتشي أمر
التعبئة .

كان كل شيء على مايرام . بعد ساعة التقى الرفاق في المحطة .
— لقد هلكنا ! — مرة أخرى صرخ تشيبي — لا يوجد أي قطار .
— لاتصرخ يا « تشيبي » — أسكت كفاتشي المخبر المتكدر المزاج —
اذهب يا بيسو ودبر قطاراً بأي ثمن .
عاد بيسو بعد عشر دقائق .

— سيسرون عربتين حالاً . . اظن ان مائة قطعة ذهبية ثمن
غير غال .

— غير غال — أجاب كفاتشي موافقاً .
بعد نصف ساعة كان قطاراً مؤلفاً من عربتين يجري مسرعاً
باتجاه موسكو . جلس في العربة — الصالة تسعة اشخاص ، تسعة أعضاء
في ادارة جمعية مدافعي وانصار الثورة الحمراء التي انيطت بها مهمة
« تنظيم حركة قطارات الجنود الثوريين » .

— هل ستجدي هذه الوثيقة ؟ — تسأل سيدراك جائفأ .
— لن تجدي فقط ، بل ستغير رأساً على عقب — أجاب لادي .
— العشاء باجليل ! — طلب كفاتشي — أحضر الفوكا ونبذ
القرم وشامبانيا « كريستال » .

بعد نصف ساعة كان كل شي جاهزاً . شرب الرفاق وغنوا ورقصوا حتى ساعة متأخرة .

اقرب القطار صباحاً من احدى المحطات . كان الرفاق قد غسلوا وجوههم وبدؤوا يتحركون بكسل وتهيؤون لتناول الفطور . كانت المحطة تغص بإصحاب المعاطف الرمادية وتتر كسرب من النحل :

— قادم ! قادم !

حين وصل القطار إلى الرصيف ، اضطرب بحر المعاطف وبدأ يقول :

— هيا ! خذ ! أقذف !

ابتلع الجنود ، المحملون بالاسلحة والصناديق والحقائب والمرطبات ، القطار في لحظة ، واقتحموا العربتين صارخين متوعدين ، ثم اخلدوا أماكنهم .

بعضهم دخل عبر الأبواب وبعضهم الآخر اندس عبر النوافذ . — أيها الرفاق ! — صرخ كفاتشي واصدقاؤه — توقفوا ! هذا لايجوز ! هذا قطار المنويين . مهمتنا تنظيم . . . هاكم الوثيقة الرسمية . لكن أحداً لم يشأ أن يسمع أو يرى هذه الوثيقة . ردوا على وعيد كفاتشي بالضحك والوعيد أيضاً .

صرخ أحدهم :

— أيها الرفاق ! 'يكفيننا ماامتصه هؤلاء البرجوازيون من دماننا . هيا القوا بهم من النوافذ !

فلذفوا بكفاتشي ورفاقه من النوافذ صاخخين وسط الشتائم والقهقهات والتهديد باطلاق النار .

— اسرعوا ، انقلوا الامتعة ! — أمر كفاتشي .
داروا طويلاً حول القطار ، رجوهم ، وعدوهم بالمال والفودكا
لكنهم لم يتمكنوا حتى من الاقتراب من العربتين . أخيراً انطلق القطار
غاصاً بالناس ، حاملاً معه كل مايخص الرفاق — ملابسهم ، ومؤناتهم ،
اموالهم وجواهرهم ثمرة عمل الماضي والأمل واللعنات والدموع .
جلس الرفاق في صالة المحطة منكسين وجوههم في الأرض
وبدؤوا يولولون :

— لقد هلكنا ! — صرخ تشيبي غارقاً بالدموع .
— إلى أين لاحقنا عقاب الاله ! — تنهد غابو .
— أجل لقد ساءت الأحوال — وافقه بافلوف .
— لقد انتهى امرنا والله (١) . لقد انتهى — قال جليل هازاً رأسه .
كان بيسو يفرق باصابعه وتشبيبي مستغرقاً في الضحك وبيكارف
غاطساً في دخان السجائر . أما كفاتشي الهائج فكان يجري كالوحش
الحبيس في قفص ، ومن وقت لآخر يمسح جبينه المقطب .
أخيراً صمت الجميع ، تطلعوا بأعينهم نحو قائدهم ، صمتوا
طويلاً منتظرين حكم كفاتشي .

— كيف هي حالك يا كفاتشي — تجرأ بيسو أخيراً .
— حالة الكلاب .
— ماذا تقول ؟

— لاشيء ، ماذا انقلتم في تلك الحقيبة ؟

(١) وردت كلمة (والله) في النص بلفظها العربي .

— لاشيء يذكر . الخاتم وحروف الطباعة .
— لاشيء يذكر ؟ ! بل لقد انقذتم كل شيء ، أنت انسان طيب .
فرك كفاتشي جبينه ، ابتسم وقال بصوت قوي مشجعاً رفاقه :
— لاتحزنوا أيها الرفاق . سيعود الينا كل ما فقدناه خلال شهر
إذا لم يخبنا الحظ ، وسيساعدنا الرب ، هيا انهضوا ، تماسكوا ورائي :
« عن سامتر يدزه »

كان العمل يجري في مقر اللجنة التنفيذية المنطقية على قدم وساق ،
دخل ثلاثة رجال إلى مكتب رئيس اللجنة بثقة وجراءة . قطع الحارس طريقه :
— ممنوع الدخول فاللجنة مجمعة !
ازاح الرجل المتقدم الحارس بيد ، وفتح الباب باليد الثانية ،
ثم دخل وتبعه الاثنان الآخران .
قطع الاجتماع وتوقف المتحدث عن خطابه . وحدق الجميع
في الرجال الداخلين .

— اعدروني أيها الرفاق ! — قال كفاتشي بعجرفة باردة —
أرجوان تتعرفوا علي . أنا عضو المجلس الثوري الحربي (بافل سامتر يد
يلزه) وهذان عضوا هيئة اركانني (بافلوف) و (شيكيانيس) وأشار
إلى بافلوف وشيكيا .

نهض الجميع وتقدموا . أظهر كفاتشي قدراً أكبر من الصلابة
والبرودة وتابع :

— تجري الشناعات في بلدتكم وانتم تأخذون اماكنكم وتتحدثون .
هاكم : كنت مسافراً مع اركانني بقطار خاص . اخبروني وأنا في

الطريق ان خونة بورجوازيين يهرّبون خارج الحدود احجاراً كريمة
 وذهباً ، فتشت القطار واتضح ان الاخبارية صحيحة . طبعاً انتزعت
 منهم المجوهرات واطلقت النار على الخونة الحقيرين في نفس المكان .
 لكن امام انوفكم وفي المحطة هجم علي جنود متمردون وقذفوا بنا
 خارج القطار واستولوا على كل مابحوذتنا وسافروا في قطارنا . أيها
 الرفاق ! ماذا تقولون بهذا الصدد ؟

اضطرب الرفاق وبدؤوا الجري واشتغلت الهواتف وتحركت
 السيارات .

— أنتم رئيس اللجنة ؟ — سأل كفاتشي أحدهم — نحن تسعة
 أشخاص . سألني انا هنا ، خذوا البقية معكم . ارسلو برقية على الفور
 كي يوقفوا هذا القطار في أية محطة صغيرة . جهزوا قطاراً بخارياً
 وألحقوا بهم . وإلا سيغتصب الجنود القطار بالقوة . افهمتم خطتي ؟
 — أجل فهمت . أيها الرفيق ! سنجهز القطار بمئات المسلحين
 وسنلحق بالقطار ونطوقه . .

— حسناً ، أرجو لكم النصر . نعم تفضلوا وشاهدوا وثائقنا —
 وفتح كفاتشي امامه خمس وثائق طوالاً . جمد الجميع حيال هذه
 الوثائق المهيبة وارتجفوا ، ولم يجرؤ أحد على ان يأخذها ويقرأها .
 أعادها كفاتشي إلى جيبه ، ثم قال :

— حسناً ، هيا تولوا الأمر ، وداعاً أنها الرفاق !

ثم انتحى بـ « بيسو » جانباً وقال له :

— هيا يابيسو حياتنا بين يديك . ريثما تعودون سأرتب كل شيء
 على طريقي الكفاتشية .

بقي اثنان في المكتب — كفاتشي ذو الريش ورئيس اللجنة .

— أجلسوا أيها الرفيق ! — سمح كفاتشي له بالجلوس — اجلسوا وحدثونا ، ماذا يجري في محافظتكم ؟ .

تعب رئيس اللجنة من الحديث . عرض خلال ساعتين أمام كفاتشي الوضع الراهن وعمل السلطة في المحافظة .

— حسناً ، حدثونا الآن عما لديكم من مخزونات ؟ ماذا لديكم من القمح والبطاطا والدقيق والسكر وبقية السلع ؟

وبعد ان استمع إلى الأجوبة سأله مرة أخرى :

— هل صادرتم بعض البضائع من التجار ؟

— صادرتنا القليل .

— وهل استوليتم على الذهب والاحجار الكريمة ؟

— لا لم نستول بعد .

— أنا أرى انكم متخلفون جداً عن العاصمة . لكن لا بأس سأساعدكم . انا صاحب تجربة ، سنعمل معاً وستتمنون سريعاً .

والآن استمعوا ، احتاج الآن إلى عشر غرف وهاتف وثلاث سيارات وآله كاتبة واثاث ومعدات مكتبية . اصدروا أمراً بذلك .

بعد ساعتين اجليت ثلاث أسر من طابق يقع في الشارع الرئيسي ، ثم أخبروا كفاتشي :

— الشقة جاهزة . مساء سنحضر الهاتف وبقية المتطلبات . حان وقت الغداء ، تفضلوا معنا أيها الرفيق !

بعد المحاضرة شرف كفاتشي رئيس اللجنة المنطقية وماله ، ثم استلقى في غرفته واغفى .

كانت الشمس على وشك الغروب حين ايقظ جليل ويسو كفاتشي :
 — هيا استيقظيا كفاتشي ، لقد اعدنا كل شيء ماعدا الحمرة ،
 حتى اننا لم نفقد ابرة ، لقد احتسى الجنود الفودكا والكونياك والبيز
 والشامبانيا بكاملها .

— نصحة ! ألم ترق الدماء ؟

— ولاقطرة !

— بيسو ، أنت ذكي ، ذكي جداً — قال له جليل مادحاً .

— مرحى لك بيسو ، مرحى لك جليل ! — دعوني اقبلكما ! أنا
 أيضاً لم أجلس بلا عمل . كل شيء جاهز — وقبلهما القائد بأخوة .
 — لاجابة كفاتشي . كم استعدنا من الثروات ، ماذا تريد ؟
 غداً سنسافر وإلا . من يدري ؟ الخطر كبير .
 — فلنسافر أيها الأمير ، فلنسافر وإلا سيغضب الله علينا ! —
 قال جليل راجياً .

— عزيزي بيسو ، انت حتى الآن لاتعرف طبعي . المهم ان
 تنجز عملاً حقيقياً ، أما الثروة لوحدها فلا اكترث لها ! قال أحدهم :
 الاعتزاز بالمجد أفضل بكثير من التمتع به / شوتاروستافيلي — « الفارس
 في إهاب النمر » .

— سيرموننا بالرصاص يا كفاتشي !

— لن يفعلوا شيئاً بنا ، بل اذا دعت الحاجة انا من سيرمي السكان
 المحليين بالرصاص .

في اليوم التالي انتقل كفاتشي وهيئة اركانه إلى الشقة الجديدة ،
 وفي نفس اليوم أعطى كفاتشي الأمر والنصائح إلى بافلوف :

— عد انت إلى بطرسبورغ ، ونظم جيداً شبكة استعلامات .
إذا كان خطر ما يهددنا ابعث لنا برقية كهذه : « عودوا حالاً » .
وأنت يا « سيدراك » ستسافر إلى موسكو ، أما أنت يا « لادي » فستستقر
في « سمولينسكي » .

ستتلقون جميعاً السلع والتوجيهات من وقت لآخر ، وسترسلون
أحياناً ، سلعاً إلى مناطق أخرى .

يسو وزع عليهم التعليمات والوثائق . إذا ساءت الأمور سنلتقي
جميعاً في « روستوف » .

أمضى يسو طوال اليوم في تلقين وتدريب الرفاق ، واعتباراً
من اليوم التالي شغل كل منهم بعمله .

كان مكتب كفاتشي مؤثلاً بشكل جيد ، وديوانه مؤلف من
ثلاث غرف . يقف على ابوابه حرس ومراسلون ، وجليل أيضاً كان
مميزاً . الآلة الكاتبة تضج وانين الهاتف يسمع كل دقيقة . المشترون كثر .
كان عل يسو شيكيا ان يغربلهم ويشرف على المكتب ، وكان تشيبي
وغابو وبيكاريف يتجولون بين الناس مالكي الأموال ليجلوا المشتري .
احتدم العمل خلال أسبوع واحد . كان كفاتشي يقيم كالعنكبوت
في مدينة كالشبكة تلتقي فيها خمسة خطوط حديدية . الحركة مضطربة
والطرق الحديدية مشلولة والعربات منهوبة كالخبز .

الطرق ملأى بالقطر المحطمة التي تم الحصول عليها بأغلى من
الدم . وأقبل كفاتشي على العربات بنشاط .

من وقت لآخر كان كفاتشي يستدعي المتنفذين المحليين ويقول لهم :

— هاكم ، اقرؤوا !

.. ويقرؤون البرقية « إلى عضو المجلس الثوري — سامريدزه :
أرسل حالاً خمس عربات من الدقيق ، خمس عربات من الملفوف ،
ونفس القدر من البطاطا وبقية المحاصيل .

— متى ستكون جاهزة ؟

— بعد ثلاثة أيام .

— أنا سأرسلها بنفسي حملوها ، ثم اخبروني .

ويرسل القطار المعبأ إلى موسكو أو بطرسبورغ ، ثم يخفي
هناك في حفرة كفاتشي . وكثيراً ما تلقى كفاتشي من « سمولنسك »
ومختلف المدن الأخرى بضائع وسلعاً متنوعة تتحول خلال يومين
إلى ذهب وأحجار كريمة .

في كل يوم تقريباً كان كفاتشي يقوم بحيلة كهذه : كانوا
يقبضون إلى كفاتشي أحد التجار أمثال « سيكولوف » أو
« ديريكوجوف » :

— أريد خمس عربات إلى موسكو .

— ثمنها خمسمائة قطعة ذهبية .

يتفقان . يكتب كفاتشي « الأمر — الوثيقة » وأشهد ان خمس
عربات من البضائع أرسلت إلى الفرقة الخامسة استثناء من الدور .

وفي اليوم التالي يغادر قطار « سيكولوف » المحمل بالبضائع
إلى موسكو . يرافق القطار سيكولوف نفسه الذي يحمل في جيبه
وثائق كفاتشي التي يبلغ طولها امتاراً . تنص هذه الوثائق على تفرغ
الحملة في موسكو حيث تباع سريعاً بجهود ومساعي أفلا بريان .

وبنفس الوثائق ، وبمساعدة « سيدراك » ، ينطلق أيضاً قطار يحمل بالبضائع من موسكو حيث يصار إلى بيعه تحت رعاية كفاتشي .
ومن وقت لآخر كان كفاتشي والسلطة المحلية يتلقون أمراً كهذا :
« صادروا ذهباً واحجاراً كريمة أو محاصيل أو منسوجات أو بضائع أخرى ، تحت قيادة عضو المجلس العسكري سامتريدزه المكلف باحضار مايتم جمعه إلى موسكو » .

وفي حين كان صراخ وعويل الاغنياء والتجار يطال السماء كانت البضائع ترسل إلى موسكو أو بطرسبورغ ، حيث كان سيدراك وبافلوف ينتظرانها بحفاوة وترحاب . وحيث كان كفاتشي ينصب الأفخاخ حتى في المحطة . حين يمر قطار كان يقع في شباك كفاتشي الصغيرة . كانت جماعته تطوف بالركاب تفتشهم وتنتزع منهم السلع المنوعة ، وكثيراً ما كانوا يصادرون السلع غير المنوعة . كان البكاء والعويل يستمر من الصباح وحتى الصباح في تلك المحطة ، حيث تسمع الشنائم المقدمة واللعنات والتهديدات وصأصة وشكوى المسافرين المنهولين . لكن رجال كفاتشي كانوا لا يخشون شيئاً طالما ان تلك الدموع واللعنات تتحول في أيديهم إلى ذهب ولم يبد أي خطر داخهم : كان كل شيء يحترق فيما حولهم ويتهدم ، لذا كانت صأصة وشكوى المسحوقين لا تسمع في تلك الزوبعة ، تماماً كمواء القطعة في زوبعة هوجاء .

— كفاتشي كفى ! — كان يسو ينلره أحياناً .

— آه انتظر قليلاً أيضاً ! يهدىء المستهتر كفاتشي صديقه الخائف ويستمر في التمزيق والسرقة والنهب .
ذات مرة قام كفاتشي بنفسه بتفتيش أحد القطارات . كانت في

أحدى العربات مجموعة من الرفاق الحقيقيين المدججين بالسلاح ،
وكان يجلس بينهم ايفان ايفانيتش - القصير البصير الداهل والكثير
النسيان .. خاف كفاتشي ، حلق كل منهما بالآخر .. فهم كفاتشي بلمحة
بصر ان ايفان ايفانيتش لم يعرفه .

— أيها الرفاق — سأل كفاتشي بلباقة وصوت قوي — أليكم
حاجات ممنوعة أو فائضة ؟

— لاشيء — قال أحدهم — لدينا القليل من الكونياك ، لكن ..
كان الرفاق قد تناولوا طعام الغداء ، أمامهم الخبز الأسود والخيار
المخلل والسمنك والبطاطا الباردة ، وثمة زجاجة من الكونياك .
— هاتوا هذه الزجاجة — قال كفاتشي ذلك ومدّ يده باتجاهها .
— أيها الرفاق ! نحن لم نشرب بعد — قال الأول مسترحماً .
— لا تكن قاسياً هكذا — رجاء الثاني .
— تفضلوا — قال الثالث ومد الزجاجة — القانون هو القانون
ونحن ننصاع له !

— مرحى أيها الرفيق — قال الرابع — الحقيقة هي الحقيقة فالمرسوم
نحن من وضعه وعلينا إذاً ان نخضع له قبل الآخرين .
تابع ايفان ايفانيتش التحديق في وجه كفاتشي ، فرك جبينه وفكر :
« ياإلهي ، اين رأيت هذا الانسان ؟ ! » .

انطلق القطار ، تجادل الرفاق طويلاً حول سلوك كفاتشي ، شتمه
البعض والبعض الآخر اعجب بصلابته .

— لقد أخطأنا كثيراً اذ لم نسأل عن اسم عائلته — قال أحدهم —
إنسان كهذا صلب ، وصادق يجب ألا يتعفن هنا .

— اعرف هذا الانسان ، اعرف لكن . تتم ايفان ايفانيتش —
 لا أتذكر اين ومتى تعرفت عليه ، يبدو . . .
 وظل يفرك جبينه إلى أن وصل إلى موسكو ، حيث تذكر حين
 شارف القطار على الوصول إلى موسكو ، قفز ايفان ايفانيتش وضرب
 جبينه وصرخ :
 — تذكرت !

— أي شيء ؟ ماذا حدث ؟ — سأله زملاؤه .
 — تذكرت ! احضروا ورقة بسرعة . ابعثوا برقية ، اقبضوا على
 ذاك القلر ولا سيقلب البلاد رأساً على عقب ، أسرعوا ! .
 — ايفان ايفانيتش ! من سيقلب ؟ أي شخص يجب اعتقاله ؟
 — هو ، هو ، الذي أخذ الكونياك . يدعى كفاتشي نيتراذه له
 ثلاثة أو أربعة أسماء :
 كفاتشي ، ابولون ، نابليون و . . الشيطان يلري ! أسرعوا اعطوني
 ورقة . تذكرت ! لكن تذكرت متأخراً .

« عن كارايت شولا فيريانتس »

بعد عشر دقائق كتب ايفان ايفانيتش برقية مربعة . لكن بيسو
 شيكيا كان يقف وراءه . قرأ تلك البرقية ، ثم ابتسم ابتسامة خفية أرسل
 بعدها برقيتين إلى صديقيه بافلوف ولادي ثم استقل القطار التالي حيث
 كان كفاتشي وزمرته في انتظاره وقال لكفاتشي :
 — لقد تذكرت ايفان ايفانيتش بصعوبة وأرسل برقية باعتقالنا .
 لقد قرأتها منذ فترة وجيزة .

— ها ، ها ! — ضحك كفاتشي — لقد تأخر صاحبي ايفان ايفاييشن تأخر ! فليبحثوا عني الآن . سيدراك اقرأ هذه الورقة ، ثم قل هل سيلحق بنا رجال الأمن .

قرأ سيدراك وثيقة طويلة جاء فيها : « إلى كارايت ميناسيتش شولافريان ورفاقه / ذكر عشرة أسماء منهم / يطلب اليكم القبض على المخرب وعلو الثورة المشهور كفاتشي كفاتشا نثيرادزه . اسمه أيضاً « اينبوديست » و « ابولون » و « نابليون » و « بافل سامترديدزه » . — ياه ، ياه ! — فغر سيدراك فمه . يعني انك الآن تلاحق نفسك ؟ يلاحق كفاتشي كفاتشا نثيرادزه نفسه . بعد ان يصل إلى بلد ما أو محطة كان يفتح أمام أصحاب السلطة الوثيقة الطويلة ويسأل :

— ألا يوجد هذا الانسان / كفاتشي كفاتشا نثيرادزه / في مكان قريب ؟

ثم يطلب سكناً وهاتفاً وسيارة ويبدأ بالبحث عن ثغرة بعدما أصبحت الطرق مغلقة . تحولت « روستوف » وبقية المدن من البيض إلى الحمر ، فعاد مرة أخرى إلى البيض . رقص الكارديل (١) الدامي لم ينته بعد .

سرعان ماهاجم كفاتشي نفسه . لكن رجال الأمن تعقبوه . تارة كانوا يتقدمونه وتارة أخرى يسيزون في اثره . استخدم كفاتشي عشرات الأساليب وجهاز بيسو مرة أخرى عشرات المراسيم والوثائق . نادراً ماكانوا يجتمعون . كانوا يرملون اختراق الجبهة ولو لعدة خطوات ، لكنهم كانوا يصطدمون بالأفخاخ في كل مكان .

(١) الكاديل : رقصة جماعية ينتظم الأفراد الذين يؤدونها في صفين متساويين ، يقترب الصفان من بعضهما تارة ثم يبتعدان بحيث يتبادل الصفان الأماكن .

ذات مرة قال جليل لكفاتشي :

— أيها الأفندي ! لقد رأى جليل الليلة حلماً مزعجاً . لقد سبحت بالدماء ، أخشى ان يعثقوك .

— لا تخف يا جليل . قال كفاتشي مهدئاً — فالله حامينا .

وكان الله الى جانبهم فعلاً ، لكنه أغمض عينيه لدقيقة واحدة . وكبا كفاتشي فجأة في أحد البيوت الفلاحية حين كانوا على وشك اجتياز إحدى الثغرات .

صرخ رفاقه :

— كفاتشي انهض ، انهض سريعاً .

وانتصب كفاتشي في لحظة .

— لقد هلكنا ! لقد هلكنا هذه المرة — صرخ تشيونثيرادزه وهو يتف شعره ، لقد وجدونا !

— ما الخبر ؟ ماذا حدث ؟

— انهم قادمون ، قادمون !

— من ؟ من أين ؟ كم عددهم ؟

— أربعون فارساً على الأقل يزحفون عبر الوديان وعشرة أشخاص يلتفون من جهة اليسار .

— حسناً ، هيا اخرجوا إلى فناء الدار وإلا سيكون هذا القفص قبراً حقيقياً لنا — صرخ كفاتشي ، وقفز من البيت . تلفت فيما حوله ، وفي لحظة قدر الموقف : — حسناً أيها الأصدقاء ، لقد حان وقت المسؤولية . خير لنا ان نموت في المعركة من ان نعدم بالرصاص . بافلوف تستر انت وبيكاريف ولادي وراء هذا الحائط واحموا هذا الطريق الذي لا يمكنهم تجاوزه . خذوا رشاشاً واحداً . البقية هيا ورائي ! حافظوا على الطلقات ، لاتسرعوا !

تتركز ثلاثة خلف الجدار المهدم واختبأ البقية في كمين أمام المدخل
 راصدين السهل المكشوف والمسيل الواسع .
 توقفت أحصنة الحمر عند المسيل ، وتقدم الجنود عبر الطريق
 الضيق متسللين بخطى بطيئة .
 - سبع وعشرون . ثمان وعشرون أحصاهم كفاتشي -
 مجموعهم اثنان وثلاثون ونحن ستة .
 - تسعة - قال غابو .
 - أنا لأحسب اولئك الثلاثة ، فلهم عدوهم الخاص ، فيما
 لو تمكنا من الصمود حتى الظلام سيسهل بعدئذ كل شيء . حسناً
 غابو ، أجلس وراء الرشاش ، فأنت تجيد الرماية به .
 - لقد انتهينا ، كفاتشي ! - فح تشيبي .
 - صمناً ، كيوفا أوغلي ! - أرغم جليل « تشيبي » على الصمت .
 - واخ ، ماذا حل بي ؟ - غمغم سيدراك وقد اصطكت اسنانه -
 من المؤكد انني أصبت بالبرد ، فالسلاح يهتز في يدي .
 - لاتتجمعوا ! - خاطب كفاتشي رفاقه - تفرقوا ، اتركوا
 مسافة عشر خطوات بين الواحد والآخر .
 انبطح جليل على رعين كفاتشي وتشخوبيشفيلي على يساره ، وتركز
 بيسو في جناح وجلس سيدراك القرفصاء في الجناح الآخر .
 توقف الحمر واخذوا أماكنهم في الكمين . تقدم قائدهم وصرخ :
 - أي . . ي ! كفاتشا نثير اهزه أيها اللص ، استسلم !
 . ابتسم كفاتشي . . وسدد ، ثم دوت طلقة . لوج الأحمر بيديه ،
 قذف بالسلاح جانباً ، وسقط على ظهره . وفي تلك الدقيقة لعلت

أفواه ثلاثين بندقية من أطراف المسيل وكأنها تنثر الحمص فوق فناء البيت وبدأت معركة لاهبة عنيفة .

— لا تطلقوا النار عشوائياً — كان كفاتشي يأمر زمرة من وقت لآخر — صوبوا ، اطلقوا النار ، اقتلوا !

— آي ، كيوبا اوغلي دونغوس كيرميز شيطان ! شيطان أحمر ! — تتم جليل .

— جندلت شخصاً آخر — قال تشخويشيفلي فرحاً — الصعوبة تكمن في البداية .

— أوي ! — سمع فجأة عن يمينه .

التفت كفاتشي . كان سيدراك منكباً على وجهه وقد دس وجهه في الثلج وبدا وكأنه يسرق الثلج بيد واحدة . أحنى تشيبي رأسه وأطلق النار بشدة في السماء .

— تشيبي ! — صرخ كفاتشي — على من تطلق النار ؟ إلى أين تطلق النار ؟ انتصب ، صوب ! احنى تشيبي رأسه أكثر ، وفي تلك اللحظة أصدر أنيناً ثم سقط على ظهره .

— جليل ! — صرخ كفاتشي — انزع السلاح والطلقات منها وآتني بها . لقد حمي سلاحي حتى اصبح يحرق يدي .

نهض الأحمر فجأة وركضوا صائحين « هورا » !

حسناً يا كفاتشي ! تشجع لا ترنح ! لا تحول ظهرك لعدوك وإلا هلكت انت واصدقائك ومغانمك .

— هيا أيها الأصدقاء — صرخ كفاتشي وقد اشتعل حماسة — اذهبوا ، صوبوا ، اطلقوا النار .

— كا — كا — قرق الرشاش كالدجاجة بين يدي غابو ،
 — تراخ — تا — راخ : استراخ — تراخ ! دوت الأسلحة الخمسة .
 مرة أخرى تسللت إلى قلبه جراء «ديمير — تيبى» حيث سحرته
 الجراء دون ان يفهم سبباً لسعارها .

وهو الآن يدافع عن حياته بتصميم وهدوء . لا ، لن يموت كفاتشي
 الآن ، لن يموت دونما رحمة في قرية اوكرانية نائية ! لن يموت
 كفاتشي مالم يعانق سليسترو وبوبي ، مالم يجز في كوتاسي وتفليس ،
 سامغوري ومشتاند ، فيرمي ومتاسميندي . لن يموت مالم يقلب رأساً
 على عقب مطعمي «يريمو» و «لايتادزي» في كوتاسي ويلعب
 «البكارا (١)» في نادي جورجيا ويثير الجميع بحيث يذكرون اسم
 كفاتشي لمدة عشرة أعوام .

انقطع هتاف «هورا» فيما حول السور . انكفأ الحمر فجأة
 وهربوا تاركين على التل عشرات القتل والجرحى . وفي نفس الوقت
 انقطع دوي الرصاص . تطلع كفاتشي فيما حوله . كان غابو قد سقط
 ميتاً فوق سلاحه حاضناً بيديه سلاحه اللامع كما لو كان يحتضن عشيقته .
 واستند بيسو شيكيا إلى الحائط وقد اختفى لونه وأصبح كلون الثلج ،
 يضمده رجله المجروحة . لأثر ! «تشيبى» .
 — جليل ! ساعد بيسو .

وجرى كفاتشي نحو بافلوف . كان لادي ملقى على ظهره، وضع
 كفاتشي اذنه على صدره ، تفحص جراحه . كان ميتاً وكان بيكاريف
 منظرخاً ووجهه في الأرض . كان أيضاً ميتاً . ركض كفاتشي نحو

(١) أحدى لعب القمار الحماسية .

بافلوف . كان يتنفس ويئن . حي ، حي ، حي ! حملة كفاتشي إلى البيت
الريفي وضمد بجراحه .

اقتاد جليل يسو وصرخ :

... الله ، الله ! لقد ولى الشياطين الحمر ياكفاتشي بيك . لقد

انتصرونا !

كان يسو يصعر خده من الألم ، وجلس كفاتشي منكساً رأسه
وراح يبكي اصدقاءه الميتين . لقد نسي نشوة النصر ، اذ فقد خمسة
من رفاقه المخلصين الذين ترعرع معهم .

لن يعودوا إلى أهاليهم وأقربائهم واصدقائهم . مسكين لادي !
مسكين تشيبي ! مسكين سيدراك ! بيكاريف ! غابو ! انتهى كل شيء
بالنسبة إليهم ولقد انتهوا بالنسبة للآخرين .

لم يعد بإمكان غابو وسيدراك ان يقيما المآدب تحت شجرة الجوز ،
أو ان يسبحا في مياه « لياخفا » و « الأزاني » النظيفة أو أن يعانقا
النساء ذوات العيون البراقة ، أو ان يتلذذا بالجن الطيب وبالنييد
الكاخيتيني وتشاخوخيلي وتشخير تماوتشكيا والشاشليك (١) . مازال
آباؤهم وامهاتهم ينتظرون قدومهم بفارغ الصبر ويكتبون الرسائل
اليهم بعيون باكية .

— جليل ! — قال كفاتشي متنهداً — اذهب إلى القرية وأدع
مايقارب العشرة من الفلاحين كي يفتحوا قبراً . وخرج أيضاً كفاتشي
ليلقي نظيرة أخرى على القتبلى ، نظر إليهم وعندئذ فقط تذكر انه منذ

(١) أسماء أطعمة جورجية معروفة حتى الآن — المترجمان

فترة. لم يلحظ تشيبي . في حمأة الهجوم. سقط تشيبي كالميت أو كأنه أصيب بجراح خطيرة . تفحص المكان الذي سقط فيه تشيبي، فلم يجد أثراً لقطرة من الدم .

كانت ترى آثار أقدام في الثلج ، لعله اختبأ في مكان ما .

— تشيبي ، أين انت ؟ تشيبي !

لا جواب . وفجأة تحركت دودة الشك لدى كفاتشي . طار في مثل لمح البصر إلى البيت الريفي واندفع نحو المجوهرات . كان كل شيء منبوشاً ولا أثر للكتر . أثناء فتح القبر كان كفاتشي يتميز غيظاً . — أوخ . يالك من حاجد مخادع ، خائن . عار على كفاتشي أن لم تترك املك على قبرك .

— دونغوز — زحمر جليل — ليس انساناً ، بل كلب !

فجأة اقتحمت كتية من البيض القرية . عندئذ فقط فهم كفاتشي

سبب تراجع الحمر .

لقد شاهدوا من بعيد كتية كبيرة تقرب . فتساءلوا حلرين :

— ماهذا ؟ ماذا حدث — سأل الضابط قائد القوزاق .

— نحارب في سبيل القيصر وفي سبيل روسيا العظمى — أجاب

الأبن الوحيد لـ « سليسترو » باعتزاز واستطال وعظم كسابق عهده .

« كيف رجع كفاتشي إلى وطنه حاملاً معه تابوتاً »

في اليوم التالي قص كفاتشي على قائد البيض بالتفصيل عن مغامراته . أحيل الأربعة إلى إحدى المدن الصغيرة وأدخلوا المستشفى . شفي كفاتشي وجيل بعد اسبوع وانتقلا إلى الفندق ، أما الجريحان بافلوف ويسو فقد أمضيا وقتاً أطول في المشفى .

. كان كفاتشي يندب باستمرار أمله الضائع ، ويردد أسم تشيبي كثيراً وهو يقول :

— بيسو ، جليل ! تذكر ا كلمتي : اقسم بالله وبشرفي اني لن استكين مالم أجعل أم تشيبي تبكي على قبر ابنها .
ومرت الأيام . شفي أيضاً بيسو وبافلوف ، وخرجا من المشفى وسافر الأربعة إلى أوديسا .

تذكر كفاتشي ماضيه البعيد في الحال وأيام الشباب الحلوة والعامين الخالين من الهموم .

تذكر « خوفشتين » ، « ريفيكا » ، « اسحق » . « سيدوروف » وابنته فيرا والكثير من معارف واصدقائه آنذاك .

. هذه الذكريات ارغمت كفاتشي ان يطوف على كافة أرجاء المدينة ويشتم ويزن الأمور . لكنه لم يكن يشعر بالحرية . كان يمشي عني الرأس ، شاردأ ، اذ لم تعد لديه أموال تكفي ليقثات غذاء يومه .

وعندما فقد كفاتشي وعيه من الافلاس جالس بيسو بجانبه وأخرج من جيبه منديلاً وفتح فاستضاءت الغرفة وبيسو وكفاتشي . كانت عشر الماسات تتلألأ في راحة بيسو ، الواحدة منها بحجم بيضة الدوري . — لقد احتفظت بهذا الكنز لمثل هذا اليوم . خذها ستفنعنا —

قال بيسو .

— بيسو ، بيسيك ! — قال كفاتشي ذلك وعانق صديقه . لو لم

أكن كفاتشي لتمنيت أن أكون بيسو ، بيسيا !

وبكى كالأطفال من الفرح ونشر جناحيه. اثار جلبلة في الفندق ثم دار

على كافة المطاعم . وعندما سكن زار قائد البيض في تلك المنطقة وأجرى معه حديثاً كالتالي :

— الحمر اعداؤنا المشتركون . اليوم يمارسون التعسف عليكم ، وغداً سيأتي دور جورجيا . نحن حلفاء بحكم الطبيعة .

— حقاً ، أكد الحليف .

— انتم تحتاجون للجنود والضباط والكبروسين والبتزين وآلاف الأشياء الأخرى ، ونحن نريد الدقيق والمتوجات . يعني . .

استوضح ذلك القائد كل شيء عن شخصية كفاتشي ، ثم اتفق معه في اليوم الثالث .

ريشما استعاد بيسو صحته تماماً أمضى كفاتشي يومه وليله خارج البيت . تنفس بحرية ، استراح في المطاعم واستمتع بالجلوس في المقاهي وجمع المعلومات من معارفه القدامى .

المفتش مازال مفتشاً ، والقبطان سيدروف مازال قبطاناً وابتهفيرا.. آه كم هو صعب لمس الجرح القديم !

ذات مساء شاهد كفاتشي امرأة تلبس ثياب ممرضة تعرف فيها صديقه السابقة « فيرا » الشقراء المائلة للسمنة والقصر؛ وكان يمشي بجانب فيرا صبي في حوالي العاشرة من عمره ابن كفاتشي ! نسخة طبق الأصل عنه !

آنذاك ، ومنذ عشر سنوات تساءل طلبة أوديسا : من هو ابو الطفل؟ لم يتسكنوا حينئذ من حل هذا اللغز . لكن كفاتشي كان يعلم في ذلك الحين ، كما يعلم الآن ، ان هذا الصبي الأسمر من دمه وهو ثمرته .

اشتعل وجهه حرارة وتدفقت الدماء إلى رأسه : طأطأ رأسه بسرعة
وهرب داخلاً إلى المخزن .

مرت عدة أيام . استعد الأصدقاء للسفر . كان كفاتشي وحيداً
في غرفته . فجأة ظهرت رأس تشيبي ويد جليل بالباب ، قاوم تشيبي
متمسكاً بالباب ، لكن اليد الممسكة به من رقبته دفعتته حتى وسط الغرفة .
دخل جليل في إثره .

اغلق الباب بهدوء وقال بالهدوء نفسه :

— كفاتشي آغا ! لقد سقت إليك تشيبي . لقد أقسمت فاعمل
عملك الآن !

— تشيبي ! — عوى كفاتشي . واندفع اليه بقفزتين .

— كفاتشي ! — فح تشيبي وارتجف كورقة خريف — أنا ..
أنا مذنب .. لكن لم يبق شي . أقسم بالله لم يبق شي .. اخذوها
كلها .. أنا .. أنت .. أنا ..

— أنا أعلم دون شك انهم أخذوها . لكن يبقى تشيبي كلباً
ولذلك .. — قال جليل معقياً وشمراً عن ساعديه .

واندفعت يدا كفاتشي الحديديتان والتفتا حول رقبة تشيبي .
وفي الدقيقة نفسها قفز جليل إليه . بعد خمس دقائق ابتعد الاثنان عن
تشيبي الذي استلقى جثة هامدة على الأرض مخنوقاً ، جاحظ العينين
— جليل ، هيا ، لفه .

— يجب ان تأخذه إلى « غورجيستان » — قال جليل — لقد أقسمت
بالله ان تجعل امه تبكي على قبره لذا ..
— اعرف . لفته ، يجب نقله لأمه .

« بعد يومين صعد جليل وكفاتشي إلى ظهر الباخرة « بوشكين »
التي كانت تتجه إلى جوزجيا .

تجاهل القبطان سيدوروف وكفاتشي بعضهما . وكأنما لا يعرف
أحدهما الآخر . كان على بافل بعد شفائه ان يسافر إلى تفليس . هكذا
اتفق كفاتشي مع القائد الأبيض . مرّ أسبوع آخر ورست السفينة
في باطوم .. تذكر كفاتشي تلك الليلة منذ نيف وعشرين عاماً ، عندما
وقف كفاتشي الشاب في مقدمة السفينة قاصداً الشمال . أي شيء لم
يره بخلاف هذه السنوات العشرين ! كم من اليلدان زار ؟ ! كم مرة
امسك بقلبه الكريم وافلته ! انه فارس لا يهزم ! عشر مرّات بل
عشرين مرة كان يمكنه ان يمتطي حصان النصر حاملاً الراية ويعود
بمهاجرة وصخب إلى بلدته الصغيرة الفقيرة حيث كان بإمكانه ان يتصلر
ويتربع بسهولة .

لكنه فضل المكان الثاني بين الغرباء ، فضل مصارعة المخاطر الدائمة .
والجري وراء الظلال الجديدة والحديدة . آه لماذا لم يوافق كفاتشي
منذ خمسة أعوام على اقتراح المسكينين غابو وسيدراك ؟ ! لماذا لم
يوقف آنذاك مصيره الجامح ؟ ! لماذا لم يرجع آنذاك غنياً معافى إلى
موطنه الصغير ؟ ! من يلدي كيف كان يمكن ان تتحول عجلة
حياته وبقيّة اصدقائه الذين هم الآن في صقيع . . . بعيداً في أحد الحقول
. . . مستلقون تحت التربة السوداء .

لكنه يعود الآن مترخياً مخزياً خاوياً إلى والديه العجوزين اللذين
لا يملكان شيئاً . منذ عشرين عاماً عندما كان لكفاتشي جناحان ،
خاض هذا البحر . وابتسمت نجمة الصباح له وبشرته بالنصر . وهي

الآن خافته اللعان والضياء ، يتألم قلب كفاتشي لسبب خفي . تنخر دودة العار نفس الوالد الفاسق الذي اضاع شبابه وقواه هناك في امكنة شتى ، والآن فقط تذكر حاضنته — الأرض التي ربته وانشأته .

— كفاتشي ماباك ؟ — تساءل ييسو بعد ان شاهد في ضوء القبر جبين كفاتشي المقطب وشفقيه المرتعشتين .

— لاشيء — قال كفاتشي بصوت مرتجف — فلنذهب لحزم الأمتعة .

أراد كفاتشي ان يسافر أولاً إلى موطنه كوتايبي ليرى أهله . لكنه علم صباحاً في الفندق ان سليسترو قد اشترى بيتاً جميلاً في تفليس وانتقل إلى العاصمة بشكل نهائي .

— لعله اشترى هذا البيت بتلك الأموال التي اعطيتها له عند سفره من بطرسبورغ — قال كفاتشي والتفت نحو جليل — جليل جهز الأغراض ، سنسافر غداً إلى المدينة .

حزم جليل الأمتعة ، ثم وقف أمام كفاتشي متباطئاً وقال بابتسامة : — آغا ، يريد جليل ان يسافر لفترة قصيرة .

— إلى أين يا جليل ؟ إلى أين تسافر ؟

— لقد شاهدت أحد أصدقائي . إنه هنا وهو مسافر إلى ستامبول وأنا أريد أيضاً ان اسافر . اريد ان ارحل قليلاً واجرب حظي ثم اعود لايكم .

— ييسو ، سنبقى وحيدين — ثم التفت نحو جليل — بدونك ستكون حالتني صعبة لكن طالما فكرت . . سافر يا جليل برعاية الله .

- تشوخ ساغول آغا تشوخ رازمام . كان الله في عونك . سلامات
أيها الأمير ، سأجلك قريباً . سأمضي الآن ، سلامات !
قبلوا بعضهم بعضاً ثم افترقوا .
أرسل كفاتشي ليلاً تشيبي المحشور في التابوت إلى أهله الذين
انتقلوا إلى باطوم . وذهب في اليوم التالي لحضور دفنه .
- كفاتشي لا تذهب - نصحه ييسو بارتباك .
- عليّ ان اتخذ القسم حتى النهاية يايسو - أجاب كفاتشي
ببرود - يجب ان أرى بكاء أمة .
ذهب ورأى . كان والداه العجوزان لا يقويان على الوقوف على
أقدامهما . وصل عويل أمة إلى السماء ، أما أبوه فكان يتمتم بكلام
غير مفهوم .
- لقد خنقه قطاع الطرق - قال كفاتشي لأهل تشيبي - وجدت
جثته بصعوبة فحملتها إليكم .
بعد ان انتهت مراسم الدفن بدأ كفاتشي خطبته وكانت أول خطبة
له في جورجيا الجديدة .
- عزيزي تشيبي - خاطب كفاتشي صديقه - لقد كنت دائماً
جورجياً ، قلباً وروحاً . كنت جورجياً وناضلت من أجل وطنك ،
وفي ذلك النضال تحول قلبك الواسع وحياتك الصعبة إلى رماذ .
لكن ذكراك المقدسة ستبقى خالدة في قلوب أصدقائك وشعبك
وسيكتب وطنك الحافظ للجميل اسمك الطاهر في سجل الخالدين

بحروف من ذهب وسيجعل من ميثك البطولية مثالا يحتذى به للأجيال
المقبلة . واختتم حديثه بالشيخ .

في ذلك اليوم طاف كفاتيبي ارجاء باطوم . التقى اصدقاءه القدامى
واكتسب آخرين جددًا . وفي صباح اليوم التالي دخل مقصورته وفتح
الجريدة ، قرأ مقالة تأبين تبشبي وتصفح الكلمة التي ألقاها .

لقد غالى يسو قليلاً حين كتب : لقد حمل كفاتيبي المخلص
جثة تبشبي من كييف إلى أوديسا على ظهره على الزلافة في أوج إشتاء .
حقاً لقد كان يسو شيكيا رجلاً رقيقاً .

القسم السابع

كيف نشرف تشي جناحيت على الأرض

كلما توغل القطار أكثر في قلب جورجيا كلما ازداد كفاتشي
اضطراباً وقلقاً .

— هاهي « ناثانيي » . . « ساجافاخو » . . « سامترديا » موطني .
يزداد قلبي خفقاناً وكأنني أقدم إلى عشيقتي بعد فراق طويل .
غادر كفاتشي القطار في سامترديا . طاف المحطة ورأى عشرات
المسنين الذين يعرفهم

— مرحباً ، بوندو . . تحياتي دزابوني . . كيف حالك ايسيدر ؟...
أنا ؟ . . ها ، لقد عدت ، عدت نهائياً . أنا أيضاً أريد ان أعمل من
أجل جورجيا . أنا مسافر الآن إلى المدينة ، لكن سأعود حالاً للقاء
أهالي سامترديا وكوتايسي . تحياتي للجميع حسناً ، إلى اللقاء . وقفز
إلى عربة القطار الذي انطلق . وبعد فترة اضطرب :

— يسو ، هذه هي منطقتنا ! هي ذي كوتايسي . يقولون أنها
أصبحت خاوية . هاجر كل سكانها إلى تفليس . بقي فيها « يريمو »
« لايتادزي » ، واليهودي دانييل . كم هو جميل شعب جورجيا !
وكم هي جميلة البلاد الجورجية . في كل دقيقة كان يردد كلمة جورجيا
أو جورجيا مظهراً انه كان ابن سمعصره ويكنّ لوطنه كل الاحترام .

ساد الظلام . لاحظ كفاتشي من بعيد أنوار تفليس فازداد اضطراباً .
لم يشعر أبداً في أي زمان أو مكان بمثل هذا الاضطراب . اضطراب
القلب والنفس .

جرى على رصيف المحطة مسرعاً . جلس كفاتشي في عربة
مكشوفة وصاح كطفل فرح :
— إلى سولولاكي (١) أمام سر !

بدأت لكفاتشي العاصمة تفليس بعد المدن الروسية كمدينة باريس .
الشوارع المضاعة بسطوع تغص بالناس . في كل مكان ضجة وثرثرة
مرحة .

ويشمخ جبل القديس « داود » كقنديل جبار في بحر من الأنوار
يرصعه تاج من النجوم الكهربائية .
اجتازا شوارع « كوكوا » (٢) الطويلة وجسر فيرسكي ، صعدا
ثم دخلا شارع روستافيلي (٣) . المشجر . لم يستطع كفاتشي ان يتمالك
نفسه :

— بيسو ، انظر ، هوذا فندق « نوح » وهذا هو « دار الشعب » .
هذا هو نهر الكورا ، هذه دار الأوبرا . . « الدراما » . . « كاشوتي » ،
وهذا هو فندق « أورينت » ، وهذا هو القصر . . المتحف ! أصبح
كل شيء لنا الآن بيسو ، لنا !

بعد عشر دقائق دخل كفاتشي بيته مندفعاً كالمجنون ، وكاد ان
يخنق أهله الذين صرخوا من الفرح — سليسترو ، بوبي ، خوخو ،
نوتيو الذين كانوا ييكون تارة ويضحكون تارة أخرى ، يدورون كمن

(١) (٢) (٣) : أحياء قديمة في مدينة تفليس .

أضاع طريقه من شدة الفرحة وتارة يقفون مبهوتين ، وراحوا يصخبون ويكثرون من الحركة .

« الخطوات الأولى »

في اليوم التالي زار كفاتشي الوزراء وممثلي السلطة .
— أقدم نفسي : أنا كفاتشي كفاتشانيرادزه القادم توأ من
الحكيم الأحمر . يبدو أن الضجة التي أثيرت حوله قد وصلت من الشمال
البعيد إلى جورجيا نفسها . لكن أصواتاً فضية رنانة كانت قد زينت
تلك الضجة . وعاد اسم كفاتشي إلى جورجيا نظيفاً لامعاً بعد ان كان
ملطخاً ببعض الشيء في روسيا البعيدة .

في حين كان كفاتشي يتمتع بدلال أهله وحبههم ويتعرف على
أصحاب السلطة كان ييسر شيكيا الرشيق يطوف أرجاء المدينة ويردد
اسم كفاتشي دون كلل أو ملل .

اجتاح خبر قدوم كفاتشي مدينة تفليس كالبرق ، صار الجميع
يتحدثون عن مجيئه . تناقلت الجماهير ما يشبه هذه الأحاديث :

— أعرفت الأخبار ؟ — يسأل أحدهم الآخر في الشارع أو النادي
أو المسرح أو المطعم — لقد عاد كفاتشي كفاتشانيرادزه من السفر !
— أحقاً يا عزيزي ؟ ! الحمد لله !

ويشتعل النقاش بين هذه الجماهير :
— يبدو ان لديه في مصارف أوروبا أربعين مليوناً من الأموال
المنقولة — قال أحدهم .

— بل مائة وأربعون — قال آخر مصححاً .

— يبدو انه سيحول هذه الأموال إلى هنا ويضعها في التداول .

— سأقول بشكل دقيق . سيفرض الدولة عشرين مليوناً لدعم الأوراق النقدية ، وسينفق عشرين مليوناً على طرق المواصلات وأربعين مليوناً على كهربة البلاد وعشرين لاقامة المعامل وعشرة لرواتب الموظفين وأربعين على قطعات الجيش . صدقوني لقد علمت هذا من مصدر موثوق .

ويتكرر نفس الحديث في مكان آخر ثم يتذكرون ماضي كفاتشي :
— لقد أنقذ كفاتشي روسيا من المصير الحالي منذ عشرة أعوام خلت ، اذ اراد القيصر التنازل عن العرش ، ولم يستطع أحد ثنيه عن عزمه . أخيراً تولى كفاتشي هذا الأمر وبقي القيصر على العرش .
— خلال أسبوع واحد استطاع كفاتشي ان يقلب بورصة لندن وباريس رأساً على عقب !

— أسر « أنور باشا » كل جنود روسيا . لكن كفاتشي مع حفنة من الجورجين قلب الأمر رأساً على عقب ، أسر الجنود الأتراك وكاد ان يمسك بـ « أنور باشا » نفسه .

— أي شيء هذا ؟ ماذا كرموه لاشيء . لقد اتضح أن أمريكا ارسلت إلى روسيا سفناً من الأسلحة فدمرتها المانيا ، لكن كفاتشي أخذ الأمر على عاتقه ووصلت اربعون باخرة سليمة .
— يقال انه رأسمالي نابغة !

.. ليس نابغة بل عبقرى ، عبقرى زمانه

— يبدو ان البلاشفة ارغموه على العمل . اغتاز كفاتشي وقام بأعمال كادت ان تؤدي إلى سقوط حكومة موسكو ، عرفوه ، إلا أنه عرف هو أيضاً فخره .

سار معه خمسمائة رجل مسلح ، ثم ازدادت كتيبته حتى وصل عدد أفرادها إلى خمسة آلاف .

شقوا طريقهم بالمدافع . استردوا كييف وخاركوف وروستوف ثلاث أو خمس مرات . من الحمر . ثم سار باتجاه موسكو إلا أنه لم يتفق مع دينيكين . كان ذاك ملكياً وكان كفاتشي جمهورياً خالصاً كالماء القراح . اذا كان الأمر كذلك - قال كفاتشي . - فليذهب إلى الشيطان البيض والحمر !

تراجع ، ثم سافر . لقد حطم البيض والحمر واستولى بالقوة على أوديسا واقتاد خمس عشرة سفينة ترسو الآن في باطوم .

- يبدو ان تلك السفن محملة بالدقيق والسلاح . لقد تبرع بها إلى جورجيا .

- يعني سيكون عندنا قريباً خبز أبيض !
واشتعلت نار تلك الآمال واجتاحت كل القوقاز وبينما كان يسو ينفخ تلك النار ، كان كفاتشي يسيطر على عقول رجال السلطة متحدثاً عن البيض والحمر .

- لقد هلكت روسيا أيها السادة ، هلكت ! هذه البلاد لا يستطيع المسيح الإله بذاته ان ينقذها . روسيا الحمراء عقاب من الله علينا وروسيا البيضاء لعنة .

أكان كفاتشي يعتقد بهلاك روسيا ؟ لا لم يعتقد . « حتى ولو كان بإمكان روسيا هزّ ذيلها كان ذلك كافياً لنا » - قال كفاتشي ذلك لنفسه ، اذ لم يكن بمقدوره ان يجهر به خوفاً من ان يعتبر عميلاً أحمر وتفشل كل خططه .

طاف كفاتشي ويسو في المدينة مساء .

كان النادي الجورجي قد أقام أمسية خيرية . وزع كفاتشي الهبات فيها بسخاء وفي مقهى « سلوان الأخوان » استطاع كفاتشي ان يستميل إلى صفه العاملين الشباب - المثقفين والنبلاء - بحديثه الأخوي وسلوكه الشهم .

وفي « الخيال العجيب » حضر أمسية شعرية لعدد من الشعراء الذين استقبلوه بالقرون المليئة بالخمرة وبمقطوعات شعرية .

تبادلوا الكلمات المعسولة والمديح المرصع والابتسامات العريضة . هم فعلاً لا يعرفون بعضهم كما يجب ، إلا ان شهرة ومجد الفارس الجورجي قد وصل من بعيد إلى اسماعهم الشاعرية الدقيقة الحساسة . ألفوا خمس موشحات هناك ، ثم قرؤوها أمامه بأصوات عالية وهم يرتفعون بأجسادهم نحو الأعلى ويمدون اجسامهم عرضاً ، وباغتوا باشعارهم وبمدايحهم المعلم كفاتشي حتى أنه فكر بابتهاج :

« لقد قدروك يا كفاتشي ، قدروك ، وتعلم أنت من هؤلاء الشباب الشعراء أن الفن الصعب يحقق المتعة » .

حاول كفاتشي مراراً أن يخرج من « القرن المقنطر » ، لكن لم يكن النهوض عن مائدة الشعراء والخروج من دائرة القوافي اللذيذة بالأمر السهل . .

وزع كفاتشي الهبات بسخاء ، وكلفه كل سطر من الأسطر ثمن وليمة كاملة .

بزغ الفجر . خرجوا بصعوبة من قبو الاشباح . من قاد من ؟

من اصطحاب من ؟ من رافق من ؟ لم يعد أحد يذكر — لا الشعراء ولا كفاتشي .

في اليوم التالي قرأ كفاتشي في الجرائد ما اختلقه بيسو : « عاد إلى جورجيا مواطننا كفاتشي كفاتشا نثيرادزه المختص الشهير بالمالية ، ولقد عايش في الجحيم الأحمر العام الماضي ، أحداثاً عجيبة رهبة سفرد لها مقالة خاصة . أما الآن نتمنى لأخينا المجيد الهدوء على صدر أرضه الأم والعمل المثمر لصالح الشعب ولمجد الوطن » . كان يتوقع لتنهته كهذه جواب مناسب . في نفس اليوم زار كفاتشي هيئة التحرير ، تعرف عليهم وعرفهم بنفسه . ومنذ ذلك اليوم أصبحوا مرتبطين به بأوتار أخوية خفية . كان كفاتشي يلبسها وينظفها بالبلسم من وقت لآخر . مدّ كفاتشي خلال أسبوع آلاف الخيوط المرئية وغير المرئية . أحاط الأصدقاء القدماء والجدد ، كالذباب ، بكفاتشي المطلي بالعسل . كان الجميع ينظرون إلى عيني كفاتشي وجيوبه منتظرين حدوث معجزة ، وكفاتشي يحول شبابه بدأب ويد الرماد في عيون البلاد ويخطو باتجاه السلطة والمال .

اعطاه كورانا شفيلى دروساً في الشؤون الجورجية . وكان بيسو شيكيا يزوده بالمعلومات الصحيحة وينفذ أوامره اليومية . وكان البقية يقومون باخلاص وطواعية بخدمة القضية الكبرى التي يجب ان تنمو وتتحول اليوم أو غداً إلى بقرة حلوب اسطورية .

غير كفاتشي اسلوب وطريقة عمله جذرياً . في روسيا الحمراء كان يجري مدهوناً بالفلفل ويثرثر بعناد ، أما هنا فقد أغلق فمه بالفتاح ونادراً ما كان يخرج إلى الشارع . لكن وبجهود بيسو شيكيا والآخرين

كان ثمة عشرة آلاف شخص يتحدثون عن كفاتشي من الصباح وإلى الصباح .

من سيقدم الحبز الأبيض إلى جورجيا ؟ كفاتشي كفاتشا نترادزه . من سيدعم عملتنا النقدية التي تفقد قيمتها يوماً عن يوم ؟ أيضاً كفاتشا نترادزه ، من سيسوق الثروات المقدسة منذ خمس سنوات من النفط والمنغنيز والصوف والقطن والتبغ وشرا الق الحرير والأخشاب والخمر . وبقية البضائع الأخرى ؟ كفاتشي ، كفاتشي وحده فقط . في أي بلد من بلدان أوروبا وأمريكا لا يوجد صاحب مصرف أو تاجر كبير أو رجل صناعة لا يعرف كفاتشي جيداً ويثق به كأخيه . كفاتشي يعرف كل شيء ، كفاتشي يتقن كل شيء ، كفاتشي يقدر على كل شيء ! يعيش « قارون جورجيا » في سولولاك في بيته - الطابق الثاني . أذهبوا إليه وقدموا له ثقتكم وأموالكم وسلعكم . كفاتشي ساحر . تكسب بالروبل عشر روبلات . لا تخرجوا ، أقصدوه ، تفضلوا ! في كل يوم تخرج وتدخل بيت كفاتشي المفتوح مختلف السلع . وكان كفاتشي يتحدث طويلاً عن العمل ، لكن بشكل ضبابي . أصبح في جورجيا إنساناً جديداً . يعرف القليل عن الاقتصاد المحلي ، لكنه يعلم جيداً أنه لا يجوز اظهار عدم المعرفة . لقد وعد أصحاب السلع ان يبيعها بأسعار مجزية .

صاحب الملك يريد مالاً ، ان يكسب أكثر . لابد من تأسيس جمعية تجارية مصرفية لتدوير الأموال وما تبقى سيقوم به السكرتيريون . من أجل ذلك عيّن ثلاثة - أرمنياً وترياً وجورجياً . أخيراً جاء إلى المصيدة وحش . كان كفاتشي ينتظر امثاله .

جاءه ذات يوم ضيف انجليزي - أحمر الشعر « جون راولينسون ». انتهى جون وكفاتشي عملهما في ساعة واحدة . يتولى جون مسألة التمويل والادارة ويقوم كفاتشي بمهام شبكة التسويق وتشغيل الأجهزة والمعدات .

كان كفاتشي وجون لا يحبان التسويق . بعد أقل من اسبوعين كان الطابق العلوي من أحد البيوت في ساحة الحرية قد زينته لافتة كبيرة مكتوبة بحروف ذهبية : « شركة سيونيون المحدودة » ، وافتتح في الطابق الأول « المصرف الانجلو - قفقازي » .

خلال فترة قصيرة امتلأ القفاس بـ « السيونيون » واحتدمت الأمور . لكن شركة « سيونيون » لا تشتري البضائع بثمن مقبوض ، هاتوا صوفكم أو قطنكم أو تبغكم أو نفطكم أو خمركم أو شراقتكم كدين قصير الأجل . اعتمدوا على « سيونيون » ، ستقل الشركة سلعكم إلى أوروبا ، تبعه ثم تصفي حسابها معكم . ماان يشحنون البضائع حتى تمتليء المستودعات من جديد . مائة من الموظفين يعملون بسرعة فائقة .

كان جون راولينسون دائم السفر من تفليس إلى باكو ، ومن باكو إلى لندن . كانت الجرائد تكتب كل يوم : « شحن كفاتشا تيرادزه عشرين ألف بود » (١) من الصوف . . باع ستين ألف بود من التبغ . . استورد مائة ألف بود من الدقيق . . أخذ عهداً على نفسه بتمتين قدرة الدولة . . تبرع بمائة جنيه استرليني . . سافر . . وصل . . قال . . صرح . . استقبل . . زار . . اقام حفلة استقبال . . .

(١) يبادل البود : ١٦,٣٨ كغ .

وسرعان ما حمل بافلوف عقود « البيض » بعد ان شفي ووصل إلى تفليس ، وبدأ عمله . نفذ كفاتشي وعده باخلاص . اعطى بافلوف ثقته وسلمه جهاز الموظفين .

اقتصرت شركة « سيونيون » على التجارة ، فهي تنفذ الطلبات التجارية ، ترسل الضباط والنفط والبنزين والزيت والياب وآلاف الحاجات الصغيرة والكبيرة . وما شأن كفاتشي إذا كان الجنود البيض يتلقون هذه الحاجات ! ماعلاقته بالسياسة ! فهو يستورد بدلاً منها الدقيق الأبيض وكثيراً من المنتجات الأخرى التي — في الغالب — لاتفوح منها رائحة الدم ، لا ان يتدخل كفاتشي في السياسة بعد الآن مع أنهم جروّه في نهاية الأمر واستغلوه .

« لاعم هذا ، ولا مع ذاك »

انجه الطماع المجنون ، الثور الأبيض الأعمى ، دينكين ، نحو جورجيا واقتحم « أبخازيا » .

آنذاك كان الصوت الأحمر يكرر ندائه : « أيها الجورجيون ، قفوا معنا ، اتحدوا معنا ، فلنضرب معاً الجنرال الأبيض ولنقذف به إلى البحر الأسود ، هيا ابلثوا ، أضربوا . . . !

ماذا يفعل كفاتشي كفاتشا نثيرادزه ؟ لم يحتمل المكوث في البلاد . فـ « كفاتشي » جورجي أيضاً ! إنه ابن جورجيا البار ، إذاً رعاك الله شمرّ عن ساعدك يا كفاتشي ! اشعل في قلبك الإلهي نار البطولة ! تذكر أعمالك الأسطورية في تل « ديمير — تيبى » وفي سهول روسيا الرحبة قرب كييف ، حيث يرقد اصدقائك المخلصون رقدتهم الأبدية ! قم بواجبك تجاه وطنك يا كفاتشي ! فأنت لم تستعمل سلاحك منذ

مدة ولم ترق قطرة واحدة من أجل الوطن ، ولم تصرخ مرة واحدة بصوتك القوي :

— ورائي ! صفأ واحداً . . بسرعة ، هيا ، اضرب . . اقطع !
أسرع يا كفاتي شي أسرع ! اسرع وإلا ستأتي الموجة البيضاء ستأتي وتغرق شركتك « سيونيون » مع وطنك الذي التقيت به بالأمس فقط بفضل قوى خفية . لقد أعجبك هذا الوطن وأحببته، فلماذا تفكر ؟ لماذا تردد ؟ أسرع يا كفاتي شي أسرع ، وإلا . . لماذا تتذبذب كالارجوحة ؟ ما الذي يقيد يديك ورجليك ؟ لماذا لا تريد مساعدة الحمر ؟ لماذا تخاف أحضانهم الأنيسة ؟ وكأن عظامك تتكسر ! إذا قف مع الثور الأبيض المجنون الذي يدعوك . سيقودك وراءه وسيريك كيف تحمر وتسود وتبيض موسكو الحمراء !

لا تريد هذا أيضاً ؟ نخشى من يذكر الآثام القديمة ؟ لكن كيف يمكن التفكير بمثل هذا ؟ من هو الآن بلا ذنب ؟ من لديه ماضٍ أشرف من ماضيك ؟ حسناً ، أسرع . . اختر . . وإلا . .

— سيمحمل لنا البيض « الآه » والحمر « الإيه » :

اهذا قرارك ؟ وماذا تريد ؟ بمن ستلوذ ؟ بـ « أليون » ؟

— لامع هذا ولا مع ذاك ، أنا اقف جانباً لأسيء إلى أحد ولا أعادي أحداً . لا مع هذا ولا مع ذاك ! . .

كفاتي شي ماذا بك ؟ من أغلق حاستك الشهيرة باستشفاف الأمور ؟ من قتل لديك حدسك الصادق ؟ من ، بل أي كابوس أحقق أقنعتك بأن أحداً لن يمسك بسوء مالم تسيء إليه ؟ ! من استغلك وجعلك تكتب على الرصيف الذي تتمدد عليه بهدوء ذلك اللغو الطفولي : هنا

ينام حمل وديع دونما سلاح . يرجي عدم إزعاجه . يمنع المرور على هذا الرصيف » .

وإذا لم يقطعوا إلى الجانب الثاني ؟ إذا دفعك أحدهم بيد . أو مرّ فوق رأسك أو اقتحم بيتك ؟ ، ستصيح طبعاً ! ستصرخ ، ستشكو للعالم كله ، حسناً . وبعدئذ من سيدافع عنك ؟ الديمقراطية ؟ فهي لا تملك مسدساً ولا جندياً . إذاً أملك معقود على صراخ وضوضاء الديمقراطية ؟ جيد جداً . لكن كيف لم تفهم حتى الآن ان عشرة ملايين جرعة منها لن تفيد أكثر من ان تجفل الغربان والعقاق ؟ ألم تدرك شيئاً ؟ ألم تقرر السير في طريق الحمر والبيض ؟ حسناً تمسك بأطراف ثوب « أليون » . لا تريد هذا أيضاً ؟ ! تخشى الضجة الديمقراطية ؟ .

— لاعم هذا ، ولا مع ذلك ! — مرة أخرى ردد البيغاء .

— كفانثي من تخاف ؟ ممن تخجل ؟ سيفصلونك من الحزب ويستخزجون من فمك زبلا غنيا ؟ تخشى هذا ، لذا ملأت فمك ماء ؟ جيد جداً .

مرة أخرى صد « أليون » الثور الأبيض وأنقلد مؤقتاً . لكن الظروف تغيرت من جديد : حسناً أنظر ! لقد سقط في البحر الأسود الثور المجنون الحائر القوى والذي اشبع ضرباً وتسلق الغراب الأحمر مرتفعات القفقاس وهو يراقبك من هناك .

ألا ترى الرايات الحمراء التي ترفرف فوق « إيابروس » في داغستان وفوق كازبيك ؟ ألا تسمع هدير المنتصرين ؟ ألا ترى مايفعله أليون ؟ اجمع حوائجك وانزع عن القفقاس إلى باطوم ، كما لو كنت ترك هذا البلد لرجل آخر . أنظر الآن نحو الشرق ، أنظر باهتمام : أترى

أيدي الصداقة الممدودة بين كل من موسكو واثقرة وطهران وكابول ؟
ألا ترى كيف يلحون على الأمية ؟

نطاق النار يلتف حولك يا كفائشي ! تنكاثف الغيوم الحمر فوق
رأسك يا كفائشا نثير اذره ! صار الدوي يسمع من بعيد ، يلمع البرق الأحمر
وتمتد زوبعة النيران ، ان لم تصل اليوم فغداً .
أصبح يا كفائشي ، ادفع الأشباح عنك ، أزح الضباب ، استيقظ .
أنج نفسك والا ستصير على اسنانك وتعض اصابعك بعد فوات الأوان !
لا ، لن يتمكن كفائشي من الاستيقاظ . يبدو أنه مصاب بمرض
غريب . لقد علت غشاوة عينيه الحادثين وأصيب انفه بالزكام .
ومعه النظيف غشاها الضباب .

يقف متكأ على عصاه يقرر بلامعنى كبيغاء عجوز مخبول :

— لامع هذا ، ولا مع ذاك . . لا برداً ولا حراً . . لأحمر ولا
أبيض . . ولن اسيء إلى أحد مطلقاً ، وآمل الا يسيء أحد إلي . .

تذكر يا كفائشي : هكذا هلك حمار « بوريد سينوف » . كانوا
يسكنون له الشعير من جهة والشوفان من جهة أخرى . فلم يستطع
ان يحتار . استغرق في التفكير : ايهما أفضل الشعير أم الشوفان ؟ .

لم يستطع الاختيار . فكر ، وفكر ، وفي ذلك التفكير والتردد أسلم
الروح من الجوع . كفائشي . هل فهمت فحوى هذه الحكاية ؟
ألم تفهم ؟

جيد جداً . دخل قطار غاص بالغربان الحمر إلى باكو بهدوء
وسكينة وكأنه يدخل بيته . وفي اليوم التالي سينعطف نحو جورجيا
ويكاد يسمع دوي المعركة في العاصمة . أصبحت « يرفان » حمراء

أيضاً . كانت النيران تحرق بعجورجيا من جهات ثلاث ، وبدأت الأرض
تشتعل تحت أقدام كفاتشي وألسنة اللهب تنتشر هنا وهناك .
كفاتشي كفاتشا نثيرادزه ! أنت حتى الآن لم تفهم شيئاً ؟ حتى
الآن لم تر غيوم العاصفة المقبلة ؟ .

يعني رأيت وأدركت ؟ أخيراً ! جيد جداً ماذا تقول الآن ؟
يعجري كفاتشي مندفعاً كساعي البريد ، يعجري ويصرخ في
كل مكان وبأعلى صوته :
— هيا ، أخرجوا انجوا بأنفسكم ! . . الخطر مقبل ، اخرجوا . .
اضربوا ! . . اقطعوا ! . .

بماذا تفكر أنت يا كفاتشي ؟ ما الذي ترمع فعله ؟ لماذا لا يكون
مكانك هناك حيث يلعلع الرصاص وتسيل الدماء ؟ لا وقت لديك ،
أليس كذلك ؟ لقد أدّيت واجبك ، أجل ! أرسلت مائة علبة من الدخان
إلى العساكر ووجدت نفسك مع بضائعك ومجوهراتك في باطوم
مباشرة ! ؟ . .

شعب غريب والله ! قال البعض مؤكدين ان كفاتشي يشبه تماماً
« تانديل » .

لم يفقد تانديل أو البلاد سوى حياة تانديل نفسه . أما كفاتشي . .
يعدل كفاتشي عشرة آلاف تانديل ! كيف ستمحيا جورجيا وسليسترو
وبوبي بدون كفاتشي ! من سيتدبر شؤون آلاف الأعمال الوطنية ؟
لولم تكن لدى كفاتشي تلك الممتلكات الهائلة كان يمكن ان تقع
في أيدي الحمر ، لذا يركض كفاتشي حاملاً معه ثروة لا حصر
لها ، ينفق منها على العاملين الهاريين معه .

مرت العاصفة تاركة في نفس كفاتشي آثارا عميقة . لقد وجد بعدها الدواء : انكلترا — المجير ! هيا جلدوا نصيراً قوياً وإلا فأيامنا معدودة !

وبدأ كفاتشي عمله ، كالم في البداية رفيقه جون راولينسون . لكن مع ذلك تصرف بشكل يستطيع معه أن يرتب أموره ويحزم امتعته خلال يومين . تحرك كفاتشي بسرعة وتصبب عرقاً : — اسمعوني ، صدقوني ايها الاصدقاء والا ستندمون . كل ما قلته قبل الآن تحقق واقول الآن :

استقلالنا حكاية خرافية . اولادنا — اولاد « كاكوليا » و « راجدينا » لن يستطيعوا أن يقيموا دولة ، اصبحت البلاد بلا صاحب . ليس لدينا قانون أو مال . تتجمع حولنا قوى جبارة . لن نتحمل « نفقة اصبغ » منها ، لقد قسموا جورجيا كما قسمت عكازة المسيح . اذا كان القيصر هرقل قد خلع تاجه من أجل الشعب : أفلا يجب على « النبيل لانتشوت » و « تشوناورسكي » ان ينزعوا قبعاتهم القشية التي تشبه الفزاعات ؟ ! ما الأمر يا كفاتشي ؟ قل ما ترغب قوله ! لا تنجل من شيء . قل واثق . مرة اخرى تخشى أن يطردوك من الحزب ؟

— القضية يا سيدي انه يتوجب علينا أن نلتجئ الى اوروبا . قل بصراحة يا كفاتشي قل ! عند من ، وكيف علينا أن نختبئ ؟ — يجب أن نطلب حماية انكلترا وفرنسا .

حماية ؟ تبعية ؟ حتى ولو كانت هكذا ! كفاتشي لا يعرف الكلمات غير الصحيحة . باختصار يجب ان تطهر الجيوش الاوروبية جورجيا او .. اذا لم يحصل ذلك .

- اذا لم يحصل ذلك من الافضل عندئذ ان نتفق مع الحمر .
 كيف نتفق ؟ انسري ما تقول يا كفاتشي ؟ دع التحدث عن طريق
 التلميح . قل فكرتك بوضوح ودقة .
 - حسنا ، سأقول .. مع أنه .. ليس من السهل القول .. لكن طالما
 ليس من سبيل آخر . سأقول :
 يجب أن نرفع الراية الحمراء فوق القصر ، ونسلم السلطة للحمر .
 ها - ها ! لقد قال كفاتشي فكرته . والآن فلتفعلوا به ما تشاؤون ،
 فلتتفوه أو تطردوه من الحزب أو حتى فلتقتلوه !
 ماذا قلت يا كفاتشي ، ما الذي تثرثر به ؟ كيف تجرأت على ذلك ؟
 فهذه خيانة ، خيانة ، حقيقة !
 لقد تجرأ كفاتشي ، وقال الحقيقة : اصبح الامر امركم . لقد
 ادى واجبه .
 - لقد ارتكبت فيما مضى حماقة كبيرة اذ كنت انفق كالعقوق
 « لا مع هذا ولا مع ذاك » .
 لا أريد الابيض ولا الاحمر .. انا لن أسي اليك ، وبالمقابل لا تسي
 الي « والآن اريد ان اقول : اما مع هذا او مع ذاك الابيض أو الاحمر ،
 اما لندن أو موسكو - هذا هو برنامجنا الحالي .
 حسنا ، لكن انت شخصياً كيف ستتصرف يا كفاتشي ؟ استبقى
 هنا أم ستهرب ؟ لا ، لا يستطيع كفاتشي البقاء لأن للحمر حسابا معه ،
 وحتى لو لم يكن هذا هو السبب ، فعلى كفاتشي ان ينقذ امواله . من
 يقول الحقيقة عليه أن يبقى حصانه مسرجاً ، لقد صدق هذا المثل فيما
 يخص كفاتشي .

أصبح قائل الحقيقة ، فيما بعد : مضغة في أفواه الناس . قال بعضهم :
لقد جن وقال البعض الآخر . هو خائن .
بقي صوت كفاتشي صرخة في صحراء . ابعثوا عنهم الناصح
الذي لم تطلب نصيحته وكرهوه .

سكن كفاتشي وأخفى أفكاره والشك والخوف في قلبه .
في ذلك اليوم الذي كان يتوجب فيه على آخر الجنود مغادرة
باطوم كان كفاتشي ويسو حاضرين أيضاً . صعد البريطانيون إلى
السفن ببطء صامتين ، جافين ، غليظي القلوب ودخلت القوات
الجورجية وأولو الأمر إلى مدينتهم مبتهجين مغتربين من الفرح ، وهم
يصرخون ويضحون . انزلوا العلم البريطاني من أعلى الصارية بهدوء
وبطء ، وفي نفس الثانية ارتفع على نفس الصارية العلم الجورجي ذو
الالوان الثلاثة مرفرفاً وعم الفرح والصبخ والضحج .

— والآن . لقد هلكنا ! — قال كفاتشي ايسو وهما يجلسان في
المطعم ، بينما كان الشعب المتحمس يصبخ ويدوي في كل مكان —
تذكر كلمتي يا يسو : لا أحد تقريباً يفهم معنى الاحداث الحالية .
هي ذي السفن الانجليزية تغادر ، تركتنا أوروبا واصبحنا وحيدين في
آسيا .

هذه البواخر أخذت معها املنا الاخير وتركنا لنا « الاستلال (١) » ،
ايها النادل « سيرغي » احضر زجاجة من « اللافيت » .. انظر فيما
حولك يسو ! الناس يفرحون يضحكون يحتفلون ! ها .. ها .. ها !
اسأل يا يسو اسأل هؤلاء الحمقى ، لماذا يضحكون ؟ ما الذي يفرحهم ؟

(١) انقص من الاستقلال حرفاً كي يؤكد فقدانهم لذلك الاستقلال .

لو كانوا يملكون عقولا لكان بإمكانهم ان يروا ذلك اليوم ، ولبكوا دموعاً مرة واناحوا من الآلام المقبلة . سيتذكر اصحاب الساطة الحالية هذا اليوم ، سيدكرون كفاتشي كفاتشا نثير ادزله لكن بعد فوات الأوان . كان لدينا قبل الآن طريقان :

روسيا أو اوروبا . لكن الآن بقيت طريق واحد — طريق موسكو ، وهي فوق كل هذا حمراء ذات اشواك .. ايها النادل : فواكهكم غير جيدة ، احضر زجاجة من الشامبانيا وقهوة تركية .

لاحظ ، يا بيسو هذه الظاهرة ، : اعداؤنا اكثر فرحاً لخروج الانجليز ، لعلهم في موسكو يقفزون على رجل واحدة ، وهذا فال سي . يجهز الحمر سلاحهم ويستعدون لتسيير حملتهم . لقد علمني كورانا شفيلي ان اجدادنا قالوا : الحرب في الوقت المناسب محمود .

— الحرب طوعية افضل من الازغام عليه — قال بيسو شيكيا .

— حسناً قلت يا بيسو وقد قالوا ايضاً : حين تنقلب العرب تصبح الطريق اكثر وضوحاً .

نسأل الله ان ينطبق هذا المثل علينا .

— لقد تحقق الكثير حتى الآن .

— نظرا لأن حوزينا مهرة ، فقد قلب هؤلاء الحوزيون العرب

المختلة في الوادي ، بحيث يستحيل جمع اجزائها المكسرة .

فيما مضى ترددت ، قات في البداية : لامع هذا لامع ذاك ،

لكن اتضح ان ذلك السبيل غير صحيح ، ثم انحزت إلى اوروبا : لجورجيا الزهرية أو الحمراء قيمة واحدة في اعيننا ، وهذا صحيح

أيضا ، أليس من الأفضل بالنسبة لنا ان نحمّر ؟ ان نضيع شيئا سوى بعض الاعداء الصغار ، لكن سنربح الكثير ، سيظهر حام قوي وستكون لنا حكومة حمراء . نتحاشى الدماء والجيش الغريب . منذ الآن يا يسو هذه طريقتنا الوحيدة ، وعلي ان اخدم تلك القضية ، اذا وثقوا بي سيكون ذلك خيرا للجميع ، والا فليأخذهم الشيطان وأكون قد قمت بواجبي .

— وقضيتنا ؟ —

— اصبحت القضية منذ الآن من الصغائر . لن استطيع أن أكون بعد الآن صاحب حانة ، لم تعد لدينا اعمال كبرى ، ولن تكون غدا او بعد غد حتى ولو كان بالامكان القيام باعمال كبيرة فأنا لم افقد عقلي بعد كي اجهز للحمر سلعا او انشي لهم مصانع . سأحول كل شيء الى مجوهرات وذهب . ايها النادل ! هات كرسيًا ، شرفنا أيها السيد الوزير ! اجلسوا — ايها الصبي ! أحضر زجاجة أخرى من الشامبانيا وفاكهة وقهوة !

— لعلمكم تفضلون « شارترز » أو « شير » ؟ تفضلوا — إذا أحضر « شير » . كنا نتحدث ايها السيد الوزير عن .. تفضلوا ايها السيد الوزير تفضلوا ، سيكار رائع ذو نكهة زكية وخفيف . تفضلوا دخنوا .. لا .. لا شقه اولا ، اعطوني اياه ، سأشقه لكم .. هكذا .. اشعلوه الآن نعم ، عم كنت اتحدث ؟ انتم اليوم فرحون ، اما انا فالشياطين تخنقني . السبب ؟ سأقول لكم .

وتحدث بهدوء وتفصيل وبراعة . بعد ان انهى كفاتشي كلامه حملق الوزير ، في البداية ، بعينه ، ثم سحب السيكار من فمه ووضع

الكأس المملوء بخمرة الشير جانباً، ونظر الى كفاتشانيرادزه نظرتة الى راعي خنازير شاءت الاقداران تدخله الى قاعة عرش السلطان ويقول له : « ايها السلطان المعظم ستصرفون بحكمة فيما لو سمحتم وتنازلتم لي عن هذا العرش وقدمتم لي السلطة » ..

منذ ذلك اليوم ذاع صيت كفاتشي كعميل لموسكو ، الا انه لم يكثرث الملك ، بل قال :

— لهذا بالذات انصحكم بان تتنحوا عن السلطة لكي تتجنبوا غضب موسكو . . .

حين سيأتي رجال موسكو يتوجب علي في نفس اليوم الهرب من جورجيا ، اذ أن في عتقي عدداً لا يحصى من الذنوب القديمة .

أضحى كفاتشي مثلاً يقتدى به ، لكن ايمانه كان قويا بحيث دفعه كوطني مؤمن على أن يقول ويردد في كل مكان — في الشوارع والبيوت في الساحات العامة مخاطباً رجال السلطة :

— اتفقوا .. تنازلوا عن السلطة .. انهوا ذلك بسلام .. لا تلعبوا بالنار . فقد تندلع الحرب بين يوم وليلة ، لا تتكلوا على الديمقراطية ، انهم يخذعونكم ، سيساعدونكم كما اساعد انا « غوتيتوت » (١) . أو شعوب الهند الصينية صدقوني .. اقسم لكم . . خلوا بنصيحتي ..

لم يصدق احد كفاتشي تقريباً ، واولئك الذين صدقوه لم يكن لهم أي وزن ، حتى أن كفاتشي حذر مراراً : اذا لم تلزم الصمت واذا كنت معجباً بالحرر فستطردك من الحزب ونفيلك الى روسيا الحمراء .

(١) غوتيتوت : الشعب الذي يسكن وسط وجنوب ناميبيا في جمهورية اتحاد جنوب افريقيا .

لو كان الوقت غير ذلك الوقت لما صمت كفاتشي ولما خنع، فهو لم يصمت ولم يختبئ حين قررت حكومة القيصر شتفه ، حتى لقد هدده كيرنسكي . لكن هنا في جورجيا وجد كفاتشي نفسه في مأزق . هل يخون السلطة وينحاز لموسكو ؟ لا .. لم يقدم كفاتشي على عمل كهذا ، اذ كان يخاف خطاياہ الماضية وكانت ثمة قوة خفية تقيد يديه ورجليه

اراد كفاتشي تغييراً سلمياً او محلياً ، لكن عندما لاحظ ان الطريقين لا أمل فيهما ، قال لأصدقائه الحمر :

— صدقوني انتم على الأقل ، ايها الرفاق . إذا كان من الصعب تفجير الزنزانة من الداخل اليوم ، ستصبح هذه المهمة غداً أو بعد غد اسهل من تفريغ تلك الزجاجاة . حسناً ، تمنعوا في حياتنا جيداً : يشقى الشعب دونما رعاية ، لا أحد يدري هل لدينا قوانين ، لا يدرون من صاحب السلطة: الحكومة ، أم الحرس أم الحزب أم المدينة أم المجلس الريفي أم قطاع الطرق ! غداً وبعد غد سيطرق الشعب بنفسه بابكم باحثاً عن دولة قوية وعن السلام والقوانين .

أكد لكم أن السلطة الحالية تخدم الآن قضيتكم اكثر مما تخدمونها انتم. لا تكونوا نافذي الصبر، لا تتسرعوا، اصبروا قليلا وكل شيء يحصل من تلقاء نفسه. سنقوم بعملنا من الداخل، لا تنكبوا على الآخرين والا.... هذه هي طريق كفاتشانثيراجزه التي لا تقود الى الجنة ، حسب رأيه، لكنها تقود حتما إلى مكان آمن .

اخيرا سئمت السلطة من جلد كفاتشي الأزرقش : وذات مرة حين كان يغدق المديح على الحمر ، اقترب منه أحد الاصدقاء وقال له :

— الليلة الماضية دار الحديث عنك ، لقد فصلوك من الحزب .
فصلوا كفاتشي من الحزب ؟ قضية عظيمة ! لقد دخل الحزب
وخرج منه عشر مرات . هذا لا يثير دهشة كفاتشي ، وهو الآن يبصق
على الحزب وعلى اصدقاء المستقبل ، فليذهبوا الى الشيطان ! لكن
كفاتشي لم يستطع ان يتنحى جانبا ويتعلق في الفراغ ، لذا ، متن
الخيوط الحمر وتذكر بافلوف الذي كان يضع رجلا بين الحمر والرجل
الآخرى في القرم آملا ولو جزئياً بانتصار جنود « فرانغل » .

لكن كفاتشي لم يعول على هؤلاء الجنود .
— انتم مثلنا ايها الصديق مقضي عليكم ... قال كفاتشي ذات مرة
لبافلوف — قريبا جدا سيلقي بكم الحمر في البحر . ا
وفعلا سرعان ما سقطت تلك القوات وابتلعها البحر . منذ ذلك
اليوم عاد بافلوف الى كفاتشي الذي استقباه كأخ واسكنه بجانبه ،
فهو يتذكر خيره دائما .

بعد شهر تحولت أموال « نسيونيون » الى احجار كريمة . باع
كفاتشي البيت أيضا واحتفظ لنفسه بشقة . بكى سايبسترو وبوبي
وتوسلا اليه . فقد كان حلمهما في الحياة بناء مثل هذا العش في تفليس ،
لكن كفاتشي اسكتهما بسهولة :

« ألا تريان ان سعر البيوت يتدنى يوما عن يوم . بالاضافة الى
ذلك سيأتي الحمر غدا أو بعد غد ، وسيأخذون البيت ، واذا لم يأتوا
سأشتري لكم بيتا فورا بهذه الأموال — وأشار كفاتشي الى قصر
اور خانتس الذي نال اعجاب آل سلبسترو :

— اذا ادخلتني يوما ما هذا البيت — اجاب سليسترو — سأضرم
بدي إلى صدري واموت مبتسماً، الامر لك الآن ، بهه !

« كيف حارب كفاتشي »

كاد كفاتشي ان يطير فرحاً ، لقد علم آنذاك خبرين جديدين :
اورخيانتس يعرض قصره وعشرة آلاف بود من الصوف للبيع بسعر
بخس . تحمس كفاتشي ككلب مسعور ، فكر وهو يؤشر بيديه محاولاً
مقاومة الاغراء ، لكنه ارتكب حماقة في النهاية . لقد قال : « اذا
نقبت الصوف من توشيتيا على عجل ثم شحنته سابعه بثلاثة اضعاف
ثمنه . اما القصر ، آه هذا قصر ! انه قصر جميل مؤلف من ثلاثة طوابق
مزدان « الكازياتيدا » (١) وشرفاته مصنعة من البرونز واعمدته مائلة
للحمررة وادراجة رخامية . عادة لا يأخذ كفاتشي بنصائح الآخرين ،
لكن الجميع ، هذه المرة ، الحوا عليه وجعلوه يتصرف بحمق .. عمل
بنصيحة بيسو وبافلوف وسايسترو وبوبي . اشترى ذلك القصر والصوف ..
واحرق يديه ..

انتقل كفاتشي وابسره الى القصر . ولكي يعملوه اقاموا حفلة
بهذه المناسبة مازال اصدقاء كفاتشي يذكرونها حتى الآن ! سافر ثلاثة
اشخاص لينقلوا الصوف من توشيتيا ، ووضع اورخيانتس ذهب
كفاتشي في جيبه ثم غادر في اليوم التالي جورجيا بأقصى سرعة ، مر
أسبوع . وذات صباح دخل بيسو إلى غرفة نوم كفاتشي مسرعاً
وقال :

(١) « الكازياتيدا » : عمود في وسط البناء على هيئة امرأة .

١٠ - كفاتشي انهض ، لقد حدث تمرد الليلة الماضية .

- تمرد ، إذاً لقد هلكت !

اجل يا كفاتشي ! كان بخوفك في محله مرة أخرى ، اصدقك حاستك المجهريّة الحقيقة . مرة أخرى اخترقت عيناك المجربتان حجب ظلام المستقبل ، مرة أخرى اشم انفك الحاد رائحة البارود من بعيد ، لكنك اخطأت التقدير حين أطعت الآخرين . ما حاجتك لمثل هذا القصر ؟ وكيف ستقل في مثل هذه الدوامة تلك الكمية الضخمة من الصوف من توشيتيا إلى باطوم ؟

عبثاً ركض ودار بيسو وعشرة من السماسرة . لا أحد يحتاج لقصرك ولا يوجد شار لصوفك . دع ، يا كفاتشي ، صوفك وقصرك وغادر . ربما بقي لديك من الاموال فهي تكفي وتزيد . دع اهلك يا كفاتشي ، فهم سيجدون رزقهم كيفما اتفق . أما « نخوخو » و« نوتيو » فقد اصبحا على حافة القبر وسيدفنونهما بدونك غداً أو بعد غد .

وطنك ؟ جورجيا ؟ ماذا اعطاك الوطن ؟ ما هو بالنسبة اليك ومن أنت بالنسبة اليه ؟ ! سيونيون ؟ ! امتياز ؟ البضائع المشحونة للقومسيون وعشرات الأعمال « المدبرة » ؟ وقمت ايضاً باعمال اخرى حيث لقمك الاجانب قطع الخبز ! وهنا لم يعرضوا عليك حتى منصب قوميسار محلي نظراً لأنك لا تنتمي للكنيسة الارثوذكسية الحاكمة . لقد تنبأت بالمستقبل وحذرت السلطة وقمت بواجبك بشرف ، لكن لم يصدقك أحد . بل هددوك وكادوا يطردونك من عشك الخاص . لقد اديت واجبك يا كفاتشي ، خذ معك بيسو وبافلوف وابدأ مرة

اخرى تطوافك بين الغرباء و«دبر» اعمالا بطولية . نخسنا امضِ
 طالما توفر الوقت والطريق ، والا ستأخر وتندم . امضِ ، طرُ أسرع
 يا كفاتشي أسرع ! لماذا تطوف في الشوارع كإوزة ضائعة ؟ لماذا
 تسير على غير هدى ؟ ماذا تتبع ؟ ما الذي يدهشك ؟ ما الذي يثير
 استغرابك ؟ الحرس المنتصرون في أول معركة تفرقوا وملؤوا البلد .
 يبحثون عن طريق يقودهم الى بيوتهم ؟ هذا يدهشك ؟ نعم وان خسروا
 المعركة ماذا سيفعلون ؟ يتعل بعضهم احذية جديدة ، لكنهم يقولون
 جميعا لن نذهب الى الحرب مالم تعطونا احذية جديدة .

تلقوا ايضا حذاء جديدا، ثم حملوه الى « البازار » وباعوه ويطلبون
 الآن زوجا ثالثا من الاحذية — انت دهش يا كفاتشي . لا تستغرب
 ايها الاخ لديك شركاء اكثر مما كنت تظن سابقاً ، الاحذية وترك ارض
 المعركة والعودة الى البيت — كل هذا سبب مسوخ للاتجاه نحو الحمر .
 هم لا يحاربون لأنهم لا يرغبون وبالتالي لا يريدون أن يصبحوا حمرا
 مختارين . فهم ينتظرون الخبز الأبيض والسكر المجاني والسلع المجانية
 ورفع الضرائب والدخول الى اللجنة الحمراء .

— اين القطعات ؟ اين فرساننا الجمسة والستون الفا ؟

ولا تدهش لذلك ايضا يا كفاتشي ! خمسة وستون الفا كانوا
 مسجلين على الورق كي يتلقوا من الخزينة عشرة أضعاف الكمية من
 النقود ولرؤية البسطاء من الناس امثالك . كانوا يقتادون الناس
 العراة البعائين ايام الشتاء القارس الى « كارايازي » ليقطعوا الاخشاب
 لصالح قطعات الجيش ، لماذا لم يحفروا خندقاً واحداً بالقرب من
 « شافناباد » أو « تاباخميل » ؟

— نحن لا نجس استعمال الاسلحة الانجليزية ، لماذا لم تدربونا
جئى الآن على استعمال تلك الاسلحة ؟ .
— لم تتمكن طائراتنا من الاقلاع ، لقد عطلوا الميزاب .
— يعرف الحمر كل اسرارنا من اين ؟ كيف ؟ ممن ؟
اهدأ يا كفاتشي ! لقد فات اوان الصراخ و ننف الشعر . انت
تحب الامثال الحكيمة ، إذا تذكر : « ينضج الاناء بما فيه » ، أو « يهلك
العقيق لسانه » أو « عندما تنقلب العربة تصبح الطريق .. » :
يعرف كفاتشي هذا المثل . يعرفه ، لكن مع ذلك لم يعد قلبه
الحار قادراً على التحمل :

— هذا كثير وغير معقول ! كم من الزيف والخداع ! هذه
سخرية من البلاد مريرة ! بل هذا خداع وقع للذات وللشعب ! اه
منكم ايها الانذال السفلة المراؤون ، الخونة المراؤون ! .

لا يا كفاتشي لا ضرورة للحدة بهذا الشكل ! اضمت واهدأ
سيحين وقت الجراء . عندئذ ابحت عن الخونة وسمّهم على عمود
العار . اما الآن فالخطر داهم ، والرايات الحمر ترفع فوق « نافناباد »
و « كوجوري » ، و « فازياني » .

لا تجر في المدينة كثور رافع ذيله . بدلا من الصياح تناول سلاحك ،
اخفض رأسك وامش في ارض المعركة كيفما استطعت ! لماذا تتردد ؟
مالك سكنت ؟ اتخاف ؟ وهل خبت زوج « ديمير — نيني » في نفسك ؟
لقد أرقى الدماء في سبيل الغرباء وتضن بها على الأقرباء ؟ اذا كان هذا
صحيحاً اجمع امتعتك واقصد المحطة ، اذهب ولا تلتفت والا سينالك
مكروه !

كفى ! لقد تقرر كل شيء لا يستطيع كفاتشي الهروب ، لا يستطيع أن يتحمل العار حتى القبر ! على كفاتشي ان يؤدي واجبه المقدس تجاه وطنه وأن يسد حلق الاعداء .

سيين للجبناء كيف يموت كفاتشان تيرادزه في سبيل وطنه !
ها ياسيد ، اعطني السلاح والطلقات ومعطف القرو والقبعة (الباشليك) .
اطلب سيارة ، وداعا يا سليسترو ، لا تبكي يا بوبي ، اصمتا يا
« نوتيو » و« خوخو » ! على كفاتشي أن يقوم بواجبه ، إما أن يعود
منتصرا ، أو لن تروا وحيدكم الى الأبد . ضعوا في السيارة خمرا
وشايا وسكرا وخبزا وكعكا وسجائر وشامانيا وسجقاً ولحم عجول .
حسنا وداعا ! اجلس يا يسو ! هيا الى كوجوري انطلق ! ضاعف
السرعة ! هيا !

من أعلى الهضبة المغطاة بالثلوج كان يسمع دوي المدفعية وسقسقة
الرشاشات وطلقات البنادق . اجتازت سيارة كفاتشي الجبال واقتربت
من أرض المعركة .

كان الجرحى والمرضى والتعبون يجرون انفسهم عبر المنحدر ،
وكان البعض يجلسون في عربة ذات عجلتين ، والبعض الآخر ينتقلون
على الاحصنة . يصعد الناس بثيابهم المختلفة الالوان نحو الاعلى .
بعضهم يجرون مسرعين بسباراتهم والبعض الآخر يصعدون سيراً على
الاقدام .

بعد نصف ساعة أصبح كفاتشي على مقربة من موقع « تابا خميل » .
اين أرض المعركة ؟ هاك يا كفاتشي ! هناك أمام عينيك .. بعد مائة
خطوة . الكل يجري الى هناك ، حيث تسمع طلقات البنادق وسقسقة

الرشاشات ودوي المدافع والصراخ . لا تتراجع ، يا كفاتشي ، رجلك
تؤلمك ؟ اعرج ؟ اختبي وراء تلك الشجيرات وستطلق من هناك ؟
حسناً فليكن هذا ! لكن لا ترم على رفاقنا هيسا ، صوب !
- راخ - راخ - راخ .. راخ .. راخ .

اطلقت الطلقات الخمس كلها ؟ ولماذا توقفت ؟ لا ترى من هنا ؟
إذا اقترب ، اقترب أكثر ، يا للشيطان ! لقد شعرت بالبرد . تجمدت
اصابع كفاتشي ، حتى لم يعد يستطيع الضغط على الزناد . لم يدر
كفاتشي انه سيبرد والا .. إذا كنت لا تستطيع اطلاق النار حارب
بالحرية ، اخرج من بين الاشجار وساعد رفاقك ! هيا تقدم عشر
قفزات وتجد نفسك في خضم المعركة .

الحفرات التي احداثتها القنابل تقرب أكثر فأكثر من المدفعية ،
ها قد سقط واحد ثم تلاه الثاني والثالث والعاشر ، وهذا احدهم يجري
بالحرية وراء آخر . وهنا ايضا مقاتلان مشتبهان بالأيدي ، وهما هما
اثنان يتبادلان اطلاق النار في آن واحد فيسقطان على ظهورهما ، وهذا
فارس احاط به ثلاثة . ساعده يا كفاتشي اقفز ، اطلق النار على الأقل .
لقد فات الأوان : هلك احد الفرسان ، ماذا حل بك يا كفاتشي
؟ ؟ أية روح شريرة عكرت قلبك بالخوف ؟ من قيد يديك
ورجلبك ؟ تذكر « ديمير - تيبى » . اين تلك المرأة الالهية التي امسكت
بك آنذاك من تحت ذراعيك ورفعتك نحو السماء ؟ اين هم أولئك
السحرة الذين حملوك عبر سهول أو اكرائنا ؟ لماذا تخلوا عنك ؟ هجروك
في الوقت الذي تحارب فيه على ارضك وتدافع عن نفسك ! .

آه يا كفاتشي ! لقد فرغت روحك وعلا قلبك جليد الشك ونفرت
دودة الريبة منك ! هي ذي سيارتك ! اركبها وعد الى سليسترو ،

اعد الوعي ! « بوبي » التي اغمي عليها ، هدى ايضا خووخو ونوتيو .
عد ادراجك يا كفاتشي ! لقد اخطأت ، كان عليك الا تصعد ،
لا عمل لك هنا . اذهب ، كفاتشي اذهب !

« عن الخامس والعشرين من شباط وكيف احمر كفاتشي مرة أخرى »
لا تم يا كفاتشي ! أحقاً لا تسمع وقع جزمات الجنود المحني
الرؤوس وحوافر الخيل وهدير السيارات وصرير العربات ؟ استيقظ
يا كفاتشي ! اوشكت العاصمة ان تقفر . الجميع يهاجر . طريقا
« ديفومسكايا » و« افتشالسكايا » يغصان بالناس . يمضي القطار تلو
الآخر .

النساء والاولاد مذعورون يحملون على ظهورهم صرراً مختلفة
وقد دسوا ملابسهم البالية تحت آباطهم ومشوا يجرون انفسهم عبر
الوحل .

استيقظ يا كفاتشي !
افاقت المدينة بكاملها ، يوقظون بعضهم بعضاً، يطرقون النوافذ
منادين للسفر .
يقع قصر كفاتشي في شارع هادئ ، لكن المهرج سيطر ايضاً على
ذلك الشارع .

عمّ الصباح . دقت الساعة العاشرة .. بين لحظة واخرى استدخل
القوات الحمر تفليس . من استطاع الهرب فقد هرب . الشوارع خالية ،
ونادراً ما كان يترأى عابرون منكسو الرؤوس يتلفتون فيما حولهم
يبتغون الاختباء .

— كفاتشي ، انفض !

... ما الخبر ؟ ماذا حصل ؟

— حصل ان غادرت حكومتنا وقواتنا المدينة .

— ماذا تقول يا يسو ، متى ؟ ولماذا لم نعلم نحن ! لماذا لم يخبرنا

أحد ؟

— احضر السيارة . ضعوا فيها الملابس والثياب الداخلية والوثائق

الشخصية ! يايسرو ، هاك التقود لا تخافوا ! اسكتي يا بوبي !

كفاتشي مسافر ، اكنه سيعود لمساعدتكم سريعا ، لا ، لا يستطيع

كفاتشي اصطحابكم معه الآن ، فيها بعد ! حسنا وداعا. يسو ، بافل !

اركبا ! هيا الى المحطة !

اقلع القطار الاخير امام عيتي كفاتشي ، لقد تأخر كفاتشي ،

— ايها السائق الى « أفشالا » ...

يقف الفرسان الحمر عند « غرما — غيلي » .

انعطف ، ارجع الى الورااء ! سر في طريق « ديغو مسكاي »

أسرع ! زد من سرعتك !

وجرت سيارة كفاتشي بسرعة ، اجتازت جسر « فيريسكي »

كالسهم وطارت كالعصفورة في الطريق الحرية الجورجية . كانت

القوات الحمر تقطع الطريق بالقرب من حانة بيضاء اللون .

— قف ايها السائق ، عد الى الورااء !

رجعت السيارة ومضت عائدة . استغرب كفاتشي

— عجيب ! لماذا لم يطلقوا النار علينا ؟ لماذا سمحوا لنا بالعودة ؟

— سنلقى هذا المصير — قال بافلوف مطمئناً — انهم غير مستعجلين

فالأمر سيان ، لقد قطعوا علينا كافة الطرق .

كانوا جميعاً شاحنين ينتظرون وقوع مصيبة ما...، وحين دخلوا البيت ربطت الستهم .

— كفاتشي ماذا تقول ؟ — سأل أخيراً يسو كفاتشي الغارق في التفكير والذي كان يجري في الغرفة بعصبية :

— قل شيئاً ، انصحننا — قال بافلوف بصوت كالمواء .

— قل شيئاً ، كفاتشي يا بني ! لماذا تتابع الصمت ؟ ايقظ سلبسترو وبوبي ابنهما كفاتشي المستغرق في التفكير .
واستيقظ كفاتشي ...

— اعطوني ورقة سميكة وجبراً احمر .

احضروا له ما أراد حالاً .

— يسو اكتب بحروف كبيرة بالروسية والجورجية « اتحاد اصدقاء جورجيا الحمراء » انتهت ؟ والآن انقلها وعلقها في الخارج على بابنا .. انتظر ، فلنتفق قبل ذلك ، في حال الضرورة قولوا جميعاً ما يلي : انشئ الاتحاد الشهر الماضي ، أنا رئيسه، يسو وسلبسترو عضوان في مجلس الادارة ، والبقية اعضاء في ذلك الاتحاد ، لدينا فقط ثلاثمائة عضو ، يسو اكتب الميثاق اليوم . اذكر ميثاق جمعية انصار الثورة ؟ احضروا الى هنا أي شخص تلتقون به ليوقع على هذه الورقة .. خلال ثلاثة ايام سيوقع ثلاثمائة بل وثلاثة آلاف . اذهب يا يسو . علق هذه الورقة واحضر سيارة . وبوبي !

— انا هنا يا بني !

— انزعني غطاء لحافى الاحمر واحضره الي . هيا بسرعة يا نوتيو !

... أنا هنا يا بني ..

- احضري رايتنا القومية الكبرى . هيا اسرع يا سليسترو !
- ماذا تريد يا بني ؟
- اعطني عصاك الطويلة .
- قدم سليسترو عصاه واعطته بوبي غطاء اللحاف الاحمر . قاس كفاتشي الغطاء الحريري على العصا ، ثم قال :
- مناسبة ، فنحن لا نملك راية حريرية . هيا يا « بوبي » ! اشبكها على هذه العصا . أجنث يا بيسو ؟ انظر ، مثل هذه الراية لا يملكها الاحمر انفسهم . كان لدينا ورق ذهبي ايضاً .
- لدينا عدة اوراق .
- قص منها نجمة خماسية واشبكها في وسط الراية . اسرع ! نوتيو ! اعطني الراية الجورجية .
- اخذ منها الراية القومية التي يقارب طولها المترين ، ثم مزق اللونين الاسود والابيض من زاويتها العليا واخاط بدلا منها قطعة حمراء . وهكذا تحولت الراية القومية ذات الالوان الثلاثة الى اللون المناسب في يوم واحد .
- بوبي ! اخذي هذه الراية وضعيها على الشرفة . سأحتاج اليها فيما بعد . من يقزع الجرس ؟ بيسو اذهب وافتح الباب !
- كانوا جيران كفاتشي — كوليا باليكادزه ، غريشا كاليدري ، فولوديا تشوريشفيلي .
- دخل الثلاثة صاحبي الوجوه ، مربوطي اللسان وحدقوا في وجه كفاتشي .
- ثوبوا الى رشدكم ! مالكم خائفون هكذا ؟ ! — قال كفاتشي

نزقاً — لا تصغوا للأكاذيب ! لن يحدث شيء : انا اعرف جيداً اولئك الناس . في وقت كهذا تجب مراعاة المنتصر وموافقته . فلنغن نشيد الأممية ولنصبغ وجوهنا باللون الاحمر . هذا والسلام ! هيا امشوا وارثي وافعلوا ما أفعل ! واندس الرجال الستة في السيارة .

— الى « نافتلوغ » !

جلس ييسو شيكيا بجانب السائق يحمل بيديه راية حمراء بحجم اللحاف .

وبعد أن وصلت السيارة الى مرتفع « تسيييا كوفسكي » بدأ ييسو يصرخ كما لقنّه كفاتشي :

— ايها المواطنون ، اجتمعوا ، هيا وراثي ! .. سنستقبل ! سنرحب بالحكومة الجديدة .

اجتمع الناس خائفين حائرين ومشوا جماعات خلف كفاتشي . كان كفاتشي يسير ببطء وعدد الناس بتضاعف تدريجياً ، على جانبي طريق « نافتلوغ » كانت كوكبة من الفرسان المستطلعين يحملون العلم الاحمر . اقرب هذا العلم من راية كفاتشي :

— ايها الرفيق — سأل كفاتشي قائد السرية — نحن وفود نريد ان نرحب بالحكومة الجديدة وبقائد الجيوش وبالقيادة العامة . اين هم ؟

— لا أعلم شيئاً عن الحكومة ، أما القيادة فقادمة وراثي .

— ايها الناس استعدوا — قال كفاتشي آمراً — هاتوا الضيافة !

— ليتقدم الحرفيون الى الامام ، التجار قفوا هناك .. وانتم تنحوا

قليلاً ، ييسو اعطني الراية ، لقد جاؤوا ، هورا ! — هورا .. !

— هورا .. ! ، هورا .. ! — ارتفع الصراخ المشوب بالخوف .

— ايها الرفاق — علا صوت كفاتشي الجالس في السيارة — اهلا بكم. لقد انتظرت البروليتاريا الجورجية المنهكة والمتكدرة جراء غياب القانون ، الراية الحمراء ثلاثة اعوام ، هذه الراية التي سترسخ سلطة الكادحين . ومنذ اليوم ستدعم الحرية القومية وتثبت الشرعية والسلام . انها تحمل الأرض للفلاحين والسلطة للعامل والآنوة للجميع . لقد ولى الخونة — أكلة لحوم البشر الى غير رجعة .

اهلا بكم ايها الرفاق . تقبلوا منا تحية أخوية والضيافة — الخبز والملح . انتم ضيوفنا .. نرحب بكم ! عاشت السلطة السوفيتية ! هورا
.. ا.. !!

مرة أخرى صرخوا « هورا » ، مرة أخرى قذفوا بقبعاتهم القروية في السماء ، تم عادوا الى المدينة .

تنقل كفاتشي عدة ايام بالسيارة متذكراً اصدقاءه ومعارفه القدامى ولم يهمل من لا يعرفه . ومن جديد راح يستقبل في المحطة الشخصيات ويؤمن لهم شققاً للنوم او اثاثاً ، او يقيم لهم غداء أو عشاء دون ان يهمل حاجاتهم الصغيرة .

استطاع كفاتشي ان يتماسك بصعوبة على الرغم من أن أحداً لم يعرف ولم يتذكر اعمال كفاتشي الجريئة ومقالبه في روسيا الحمراء . ولم يخف كفاتشي من ماضيه البعيد فقد اصبح مغطى بـ « الملحفة العملية » وببطولات شباط ، لكن كن حذراً يا كفاتشي ، كن حذراً اذ لا وقت للمزاح : ثمنك قرش فلا تركض جاجاً . لا تظهر امام اعين الجميع . لا تملأ العالم صراخاً عن نفسك وإلا ستندم ،

— انت على حق يا ييسو — قال له كفاتشي بعد عدة ايام — يجب

ان ندخل الظل ونلزم الصمت والا ستعرض للنقد . سنعمل بهدوء
كفي نبقي رؤوسنا وندثر اكبر قدر ممكن من الدهون .. هذا هو
برنامجنا كحد اقصى .

عمل كفاتشي عدة ايام بهدوء، لكنه اضاف بعد عدة ايام عبارة
جديدة « لحوم إلى الجنود الحمر » .

اختار اثنين ممن يعرف كممثلين للسلطة واجلسهما بقربه . ومن
باب الخيطة انضم كفاتشي الى لختين صغيرتين ودس في جيبه وثيقتين
صغيرتين واطمان مؤقتاً . غادر بافل تفليس . سافر الى توشيتيا وامتلك
صوف كفاتشي .

واندس بيسو شيكيا في احدى القوميسريات / المفوضيات /
واستلم ادارة القسم الاقتصادي .

خلال ايام قليلة تغير شكل ووتيرة الحياة في البلد . كان العمال
يعملون تارة ويمشون حاملين الرايات الحمر تارة اخرى ، القوالبون
بقولون وعمال التنظيفات يكنسون الشوارع ، والجمالون ينقلون الامتعة
صاخبين ، والسائقون يجرون كالمجانين يصعقون المدينة بزماميرهم ،
ضباغطين على صدور الناس الداهلين .

وامتلاأ مائة بيت بالمكاتب والادارات الجديدة . اشبعت تفليس
حتى التخممة بالقادمين اليها . اصبحت المدينة اشبه بخليعة ضخمة هالجة
حول مائدة فرشت بلا نظام ، والتحلات تحاول طوال الوقت كسب
الموقع الأفضل وحيازة مكان مريح .

وظهر في مكان أناس جدد ، بعضهم صعد من الحضيض الى
الأعلى وبعضهم الآخر سقط من الأعلى نحو الحضيض . كل ما كان

في البلد من الشمع الاحمر استهلك على ابواب محلات ومخازن وشقق
الفارين . تعب النقاشون من صنع الأختام الجديدة ، وارهق الحمالون
والاحصنة والثيران في نقل الاثاث من شقق الى أخرى . وانهمك
الكتبة والناسخون في احصاء واستلام السلع من المخازن والمحلات
أمام أعين اصحابها ، وتحولت البنايات الكبيرة ملكية عامة للمدينة
وللعمال . واصبحت قوائم الجرد لا حصر لها . وقد ادخل كثير من
الناس في دفاتر الجرد ، الأوراق والكتب والآلات والكيروسين والسكر
والدقيق والأسلاك والادوات الحديدية والحرفيين والاطباء والمهندسين
والاحصنة والبقر والطيور وآلاف السلع الاخرى الصغيرة والكبيرة
ما يمشي منها على اربع أو على اثنتين .

وهذا كفاتشي كالشرشور (١) . همد كحمل القربان وكان
الجميع قد نسوا اسمه وبيته واملاكه .

وبقيت لوحة « اتحاد اصدقاء حورجيا الحمراء » عند مدخل بيت
كفاتشي كالملاك الحارس .

وظلت عبارة « لحوم الجنود الحمر » تؤدي مفعولها بفضل جهود
سليسترو . لكن ، ذات مرة استدعي « مدير اللحوم » كفاتشي الى
الكتبة و اشاروا الى الحيوانات المذبوحة :

— ما هذا ، أعجل ، أم جاموس ؟

— عجل ، مع ان ...

— مع انه جاموس ، اليس كذلك ؟ حسناً هات العقد !

ما لكم تعاكسون كفاتشي ؟ دعوه وشأنه . وهو بالمقابل سيدعكم ،

(١) الشرشور : أجد أنواع الطيور المنردة .

غرامة ؟ حسنا تفضلوا ووداعاً . ابحثوا عن رجل آخر بدلا من كفاتشي !
لعل الرجل البديل سيحضر لكم بقرة بدلا من الجاموس وخروفاً
بدلا من البقرة .
كيف لا !

في ذلك اليوم تملص كفاتشي الماهر من الانشودة .
ومرت الايام . نسي الجميع اسم كفاتشي . لكن تذكره مرة
أخرى . جاء عمال الى بيته وسألوه :
— كم شخصاً يعيش في هذا البيت ؟ تسعة ؟ تسعة اشخاص
في تسع غرف ؟ هذا لا يجوز يجب أن تضغطوا أنفسكم .
قاسوا الشقة ، حسبوها ، اعطوا التسعة اشخاص خمس غرف
قائلين :

— هذا كثير على البورجوازيين . كفاكم ما مصصتم من دمائنا !
— فلتكن مشيئتم ، وشكراً لكم على هذا ايها الرفاق — غمغم .
كفاتشي لكنه كان ضمناً يصر على اسنانه ويقول مهدداً « آه يا قطاع
الطرق لو أعطاني الله القوة يوما واحداً لأريتكم معنى « شكراً لكم » !!
أثناء تلك الفترة تسلل بافلوف الى المدينة وقال لكفاتشي :
— طبعاً ، لقد صادروا الصوف .
وقبل ان يصحو كفاتشي من هذا الخبر ، وقبل أن يتمكن من
قول اية كلمة ، جاء إثر بافل بعض العمال وقالوا بعجرفة :
— سيتقل عمال الى هذا البيت ، عليك اخلاؤه من الآن وحتى
الغد .

ايها الرب العظيم ! اية كارثة وقعت على رأس كفاتشي ! إخلاؤه
غداً ؟ وإلى اين سيذهب هو ؟

— لقد جهزوا لكم شقة جميلة هناك في « وادي الكلاب » .
 في ذلك المكان الضيق الكريه الرائحة ؟ في تلك الأكواخ ؟ هي
 فعلا ، « وادي الكلاب » . وكم غرفة يعطون لتسعة أشخاص ؟
 — ثلاث غرف تكفيكم وتزيد . كفاكم ما مصصم من دماننا !
 دع الاثاث ، لا تعبت به والا ..
 بلغ السيل الزبى ! البيت والشقة والصوف ! فليخلعوا عنه
 « سره الله » هذا ما ينقص كفاتشني اذره !
 هكـ لـدي وثيقتان ، فأنا اعمل في لجنتين .
 — احتفظ بهما ، فلن نحول اعيننا عنك بسببهما .
 — يا الهي ، اي زمن حل علينا ! حتى الوثائق فقدت قيمتها .
 لا ، هذا مالا يستطيع كفاتشي تحمله .
 آه يا « أورينخائتس » اسم عائلة كهذا يليق بك ايها المكار النذل
 النشال ! لعلك الآن تنفق وتتمتع بأموال كفاتشي في باريس أو
 استامبول ؟ ان شاء الله لن تستمرى اموال كفاتشي !
 حقاً ! إن هذه الشقة تعود لـ « اتحاد أصدقاء جورجيا الحمراء » .
 كاد كفاتشي أن ينسى هذه الحجة العظيمة !
 واستخدم كفاتشي كالدرع الاوراق التي نبشها بيسو :
 — انا رئيس مجلس الادارة وها هما — سلبسترو وبيسو عضوا
 مجلس الادارة . لقد ادبنا خدمة جليلة للحكومة السوفيتية مثلاً ..
 قطع أحد العمال « سيل » كفاتشي قائلاً :
 — هات هذه الاوراق . سيتم النظر فيها هناك !
 فعلاً بلغ السيل الزبى ، لن يتحمل كفاتشي هذا ، سيعترض وسينال

حقه . في وادي الكلاب ؟ في شق مظلم حيث تعيش الدجاجات والاوز والخيول والبقر والخنازير فقط ! هذا لا شيء .

في اليوم التالي تخلص كفاتشي من الأمر ، لكن قيمة الاثاث عشرة آلاف روبل ؟ ما هذا العقاب الرباني ؟ ييسو اذهب الى « تشيوراذه » واقلب هناك كل شيء ! سليسترو أنت تعرف جيداً « مجافادزه » ؟ ابحث عنه فوراً وذكره بمعروفنا القديم . بوبي ، اذهبي وقابلي زوجة « شيرادزه دزابولي » وارغميها على التحرك ، أنا ايضا سأأخذ اجراءاتي .. هيا بسرعة ! تحركوا ولا تتباطؤوا والا سنصبح في الشارع .

في المساء عادوا جميعاً آمليين ، يحمل كل منهم مذكرة مخيفة ووعداً بالمساعدة . وجاء العمال في اليوم التالي الى شقة كفاتشي .
— هيا ، تفضلوا واخاوا الشقة !

هذا ما لن يكون . هذه رسالة من القوميسار ، وهذه مذكرة عضو الحزب الشيوعي ! وهذا امر من البلاشفة ! لقد ادى كفاتشي عمله بالأمس . هيا انصرفوا من هنا من تلقاء انفسكم . ! مزقوا أمام أنف كفاتشي المذكرتين والرسالة ، وقذفوا بالجميع الى الشارع مع بعض الامتعة .

رموا هذه الامتعة في السيارة وصرخوا :

— هيا الى وادي الكلاب !

انتهت معركة الشقة ، خسرها كفاتشي ، أُصيب بهزيمة منكرة . لكن على قلبه ما زال يثقل حجر كبيرة وعليه ان يرمي بها حالا والا سيهلك للأبد ! لا لم يعد يجدي اسلوب العناد ، على كفاتشي ان يستخدم سلاحاً آخر .

ورفع هذا السلاح . أحنى فجأة رقبته الشامخة واصبح ناعماً كالقطن . تصنع كالثعلب :

.. حسناً ايها الرفاق ! حسناً فليكن كل شيء حسب رغبتكم . انا ابن النظام . ارادة العمال بالنسبة الي هي القانون الأعلى . انا مؤمن بدكتاتورية البروليتاريا . لكن ماذا تفعلون مع هذا الانسان العامل المسكين ؟ ! واثار الى بافلوف الذي كان يقف في الزاوية متظاهراً بالمسكنة . نظر الجميع الى بافلوف وسألوه :

— من انتم ؟ وماذا تحتاجون من هنا ؟

.. انا ؟ انا .. حارس الاتحاد .

— نعم هذا الشخص حارس اتحادنا — قال كفاتشي مؤكداً — ارجوك ايها الرفيق ، اتركوا هذه الغرفة للاتحاد . انها منفصلة عن بقية الغرف ، فنحن وانتم لن يضايق احدنا الآخر .

— غرفة جيدة ولكن ..

.. نعم غرفة جيدة . انها مكتبي .

— لكن سنأخذ اثاثها .

— كما تشاؤون—قطب كفاتشي جبينه — اتركوا هذه السجادة الصغيرة .. انها ذكرى من زوجتي . لم يبق عندي شيء آخر من آثار تلك المسكينة التي ماتت قبل اوانها على هذه السجادة . دعوها على الحائط كما هي . اذا لم احضر لكم غداً أو بعد غد سجادة مثلها أو أفضل منها عندئذ خذوا السجادة والغرفة وافضحوني .

— هذه مسألة بسيطة . وهكذا سنسجل السجادة في القائمة وانت

ايها الرفيق — قال مخاطباً بافلوف المنكمش على نفسه — ابق في هذه الغرفة ، حسناً فلنته ! اخرجوا الآن من هنا واحملوا امتعتكم .
في ذلك اليوم طرد كفاتشي واسرته الى ذاك الجحر الترن ، فأغمي على بوبي وعوت نوتيو نادبة ..

« وظيفة كفاتشي الميمونة ومساعدة « السيدة » نيب »

في اليوم التالي احضر كفاتشي لـ « نزلاته » سجادة جديدة افضل ، مبقياً على السجادة الجدارية في مكانها . ولا يدري كفاتشي أيقول لبافلوف أم لا ان وراء هذه السجادة صندوقاً حديدياً مركباً ضمن الحائط ؟ وان هذا الصندوق يحوي كنز كفاتشي ؟ لا لن يقول كفاتشي شيئاً . يجب أن يكون على حذر . من يدري ربما لن يتمالك بافلوف نفسه. لا ، لا سيلازم كفاتشي الصمت ، لكن سيرتاد هذه الغرفة باستمرار ويراقب الكنز .

يجري بيسو بين مسؤولي السكن ويرتب بشكل حسن مسألة الشقة الجميلة . يصّر كفاتشي على اسنانه ويزجر سليبيسترو وتبكي بوبي دموعاً مرة ، أما نوتيو فتقذف باللعنات المقدعة .

كان باستطاعة بيسو أن يحصل على شقة لنفسه، لكن كفاتشي ! لو كان كفاتشي موظفاً لحصل على كل شيء تقريباً مجاناً : الشقة والماء والكهرباء والبطاطا والسكر والخبز والمقائن . لكن كفاتشي مازال حراً ، يعني انه يقف موقفاً غير قانوني ، أي انه مجرد من اية حقوق . لا تكشر يا كفاتشي ، لقد تعمدت في روسيا بالعلم الأحمر ، وبهذا العالم ابتليت ايضاً في بلادك الجديدة، فلماذا نستغرب ؟ بدلا من

الامتعاظ تلاءم مع الظروف ، وبدلاً من الشتام انسجم مع الحياة
الجديدة واجعلها تتوافق معك . هذا والسلام ! هيا تحرك ! ادخل ،
اخرج ! اضحك حين تريد البكاء ، وابك حينما ترغب بالضحك ،
حسناً افردجبيثك وارسم الابتسامة على شفثيك ، حل لسانك ، احن
رقبتك ، ضعها تحت نير مساعد سكرتير متمرن .

بعد يومين أصبح كفاتشي امام خيارات عدة . لم يدر أي مكان
سيحتل الاول أو الثاني أو الخامس . أخيراً قال :

— أنا أعرفهم ، أعرف طبيتهم . يدسون لك منصباً كبيراً ويعينون
عليك خمسة جواسيس . رجل شريف مثلي لن يثبت في منصب كهذا
شهرين في أكثر الاحتمالات ، ثم « طراخ » و .. طبعاً لا يا أخي لن
يخدعوني ، انا رجل صغير ويناسبني مكان صغير . وفعلنا اختار
كفاتشي الصغير مكاناً صغيراً . عمل في شرطة احد المواقع البعيدة
واصبح مواطناً لا يلحظه أحد . ويعد أيام انتقل الى شقة لو عرضت
عليه سابقاً لرضي بها عن طيبة خاطر .

اقبل كفاتشانثيرادزه على عمله بكسل وحذر وعدم رغبة . أصبح
قوميسيراً لينا طيباً ، لم يتخط عتبة القانون وتجنب الصدمات ، اختبأ
في الظل ومملك زمام نفسه بثبات .

كان كفاتشانثيرادزه غاية في الحذر . يمشي بلا ضجة ويتكلم همساً
ويتقلب كبهلوان مربوط بحبل متين . لديه بدلاً من عينيه الاثنتين
عشرون عيناً ، وبدلاً من زوج الأذان عشرة أزواج . كان عقله اليقظ
يعمل كالساعة . أحياناً فقط عندما كان يثن في الظلام وحش متهور ،
كان كفاتشي يقفز برشاقة كصياد هندي ويرمي ذلك الوحش دون

أن يتمكن من الصأى ، حتى أنه لا يرى يد الصياد . فيما حوله
ثمة وحوش صغيرة. لكن كفاتشي لا يلوث يديه بسمكة صغيرة ، وحوت
السلمون نادراً ما يقع في شبكته .

— كن أكثر حذراً ، بيسو كن أكثر حذراً . كثيراً ما كان
كفاتشي يكرر لصديقه الذي كان يحقق النجاح في كل شيء : كمدير
للشؤون الاقتصادية وكوسيط ، بالإضافة الى آلاف الاعمال الأخرى
الصغيرة منها والكبيرة .

« اتحاد الاصدقاء » لم يعد له وجود . ومع ذلك بقي بافلوف
يحرس غرفة الاتحاد وكنز كفاتشي . قرر كفاتشي ان ينقله
مرات عديدة ، لكنه لم يتجرأ . قال لنفسه « لا يستطيع الانسان ان
يهرب من هؤلاء دون ان يجدوه . سيدكروني يوما ما ويعروني .
لا فليبق الكنز حيث هو . لن يتمكن أحد من العثور عليه » .

كان بيسو الحذر يقول له بين الفينة والأخرى :
— كفاتشي ، فلنهاجر إلى الخارج قبل ان يوقعوا بنا في إحدى
القضايا .

— انتظر ، لا تتسرع ! ذاك الكنز الذي نملكه في سولولاك يكفيننا
طوال حياتنا ، لكن الحياة تتغير باستمرار . بدأنا عمليين نهيئهما
ثم نفكر ..

لكن بعد العمليين جاءت أربعة اعمال ، وكرر كفاتشي كلامه :
— سننهي هذا ايضا .. طالما بدأنا به ، سنستمر حتى نهايته .
لم يستمر كفاتشي أكثر من شهرين في منصب « القوميسير » ،
إذا شكوا بأمره ذات مرة ، حققوا معه ، دققوا عمله وقالوا له :

- أنت مفصول عن العمل .
- فصل كفاتشي ، لكنه وجد مكانا آخر . عمل أميناً لاحد الضناديق المالية . وما ان مرّ شهرٌ حتى قيل له :
- يفصل من العمل !
- فصل كفاتشي . بعد ذلك استلم مدير المعمل ، لكن بعد حين أوصوا بما يلي :
- يطرد من العمل !
- طُرد كفاتشي من عمله . بعد فترة قصيره عثر على عمل في أحد المستودعات . بعد التفتيش عليه كتبت اللجنة في ختام تقريرها :
- يسرح !
- سرح كفاتشي ما يقارب العشر مرات ، لكنه بقي يعمل . كان في كل اسبوع يكتب استمارة أو اثنتين . يسألونه : المهنة السابقة لوالدك؟
الجواب : عامل زراعي ، الثقافة ؟ الجواب : فلاح . ماضيك الثوري ؟
ويملاً كفاتشي عندئذ صفحة كاملة . اين كنتم في شباط (فبراير)
١٩١٧ ؟ الجواب : في حضم الثورة . وفي ثورة اكتوبر ؟ الجواب :
في بطرسبورغ الى جانب الحمر .
- في أي حزب عملتم ؟
- لم انضم الى أي حزب - ساندت ثورة اكتوبر .
- والآن الى أي حزب تنتمون ؟
- لا انتمي الى أي حزب .
- الى أي الاحزاب تميل ؟
- = الى الشيوعيين فقط .

يكتب كفاتشي الاستثمارات وكتب التعهد بالاخلاص والولاء ،
ثم يتلقى بعدئذ جوابا كهذا :

— يطرد .. يسرح .. لا يسمح له بالاقتراب !

ما السبب ؟ ماذا حدث ؟ لماذا لا تدعون كفاتشي كفاتشانثيرادزه
وشأنه ! لماذا تلاحقونه ككلاب الصيد ؟ لماذا تطارودونه حيثما وجد
ككلب أجرب ؟ الا يجب أن يعيش احد سواكم في هذا العالم ؟ قولوا
في وجهه سببا لهذه الملاحقة !

كفاتشي أمير ؟ هلنا ليس صحيحا ! من النبلاء ؟ . كذب !
من سمع أن كفاتشانثيرادزه أميراً أو من النبلاء ؟ كفاتشي فلاح ،
فلاح حقيقي ! « وأشورديا » ؟ — هذا ايضا كذب ! احسبوا ذلك
بانفسكم . لقد كان عمر كفاتشي حينذاك خمس سنين فقط .
ياور القيصر ؟ صداقة راسبوتين ؟ — محض افتراء ! ألم يدفع
كفاتشي ثمن عار كهذا عشرات المرات ؟ وهل ما قام به كفاتشي
تجاه الثورة عمل يسير ؟

الوثائق—؟—الشهود ؟ جيد جداً ، سيقدم كفاتشي الف وثيقة
ويبرهن أن ..

كن حلرا يا كفاتشي ، دع الوثائق والبراهين جانبا . اذا بدأ البحث
سيجدون الى جانب الوثيقة الخامسة الوثيقة السادسة . اذا وجدوا وثيقة
واحدة سيدسون أنوفهم في الوثيقة الثانية والثالثة وعندئذ .. اذا نزعوا
عنك ثيابك سيخلعون قميصك ويعرونك بشكل لن تبقى معه نقطة
واحدة مخيفة . دع الماضي ، لا تفتح قلبك ، لا تحلع ثيابك ، لا تتدخل
في انشوطه مصيرك والا لن تتمكن من الخروج ، ولو حاولت عشرات
المرات ، بل ستلتف على رقبتك وان ينفعك مكرك .

إذا دعوا كفاتشي وشأنه ، وهو بدوره سيكلف عنكم . لم يعد يرغب بالخدمة لديكم أو باعترافكم بحميلة أو بترشيحكم له للحزب ، ولم يعد يرغب بالاسم الثوري . لقد مات كفاتشي ، لم يعد له وجود ! اهدموا عمله ، مزقوا معروضه ، اضربوا بتلك الاوراق عرض الحائط ! هكدا .: نعم هكدا ! شكراً ، شكراً جزيلا لكم ، والآن انسوا للأبد كفاتشي ووداعاً ! مرحبا ايها السيدة « نيب - السياسة الاقتصادية الجديدة » ! أهلاً بك ! ممجد يوم ميلادك وممجد اليد اليمنى التي كانت سببا في ايجادك، وأخيراً انقشعت الظلمة ، أخيراً انبلج النور وعم الضياء . اجلسي ايها السيدة - « السياسة الاقتصادية الجديدة » ، افتحوا المجلات والاكشاك التجارية ، تزهوا من الصباح الى الصباح ، اقيموا الحفلات من المساء الى المساء ! ، اديروا « الروليت » ، العبوا « التسعة » و« الينك (١) . اشترىوا ... بيعوا .. اربحوا .. اخسروا .. كلوا ، أشربوا ، عيشوا ودعوا الآخرين يعيشون .

كفاتشي كفاتشانثيرادزه ! أهنتك بالفصح ! لقد عادت اليك أيامك الماضية . تحررت يداك ورجلاك . هيا تحرك برشاقة مرة أخرى ! أظهر لمن اضاعوا حقوقك، عضلاتك وسرعة رجلك ، افتح ذراعيك القويتين ولينقد ذهنك الصافي ، مد خيوطك الحريرية ، انصب افخاخك الذهبية . والى يشباكك الظالمة ! هيا تحرك ، انشط بسرعة ومهارة ! هيا ! اضرب ! .

كان كفاتشي كفاتشانثيرادزه يعمل ويلف بحيث لا يبقى من اعماله وآثاره سوى زوبعة من الدخان والغبار .

(١) التسعة والينك - لعبتان من لعب الورق .

وانتعثت شركة « سيونيون » من جديد وافتتحت خمسة اقسام لها . ومن جديد اصبح يعمل ، لدى كفاتشي ، جيش من الموظفين .
— بافل . ، انتقل انت الى باكو واشتر الصوف المحلي والنفط والكافيار وشرانق الحرير والقطن . وأنت يا سليسترو انتقل الى غرفة بافل واحرس كنز كفاتشي الذي سينمو باضطراب . وأنت يا « كولييا » سافر الى باطوم . باطوم الآن معين ذهبي لا ينضب . حسنا . تحركوا بسرعة ، تهيؤوا للسفر ! اسلكوا بجرأة ومهارة !

— جليل يا صديقي جليل ! الحمد لله لأنك عدت . تعال لأضمك !

— آغسا كفاتشي شكر الله (١) أنا مسرور لرؤيتك حيا .

— أين كنت يا جليل ؟

— في احدى النواحي . جمعت بعض المال .

— اية ناحية يا جليل ؟

— هناك شاهدت استامبول قليلا ، وعشت في مناطق اخرى .

إذا أنت حي ايها الامير ؟

شكراً لله .

— جليل اترغب ان تكون رفيقي مرة اخرى ؟

— جليل صديقك دائماً .

— حسنا اهلا وسهلا . اعطني يدك ، حان الآن موعد الذهاب

الى النادي ، هيا ورائي !

كان اليوم بالنسبة الى كفاتشي يتألف من مائة ساعة . فالاعمال

(١) . وردت تلك العبارة بلفظها العربي

لديه كثيرة . لذا كان يطير بدلاً من المشي ويلف كالدوامة اثناء العمل .

كان يعيش كفاتشيانتيرادزه وكان العام قد تحول الى يوم واليوم قد تحول إلى ثانية ..

لم يعد يدري سلبسترو عدد الاموال والنساء ، لم يعد يدري كفاتشي ممن وكم سيقبض ! حمل بيسو كافة الحسابات في رأسه . في البداية اخطأت الدفاتر الحسائية التي امتلأت كتابة ، ثم غطاها الغبار واصبحت طعاماً للفئران . في كل يوم كان كفاتشي يتلقى عشرات البرقيات : « هبط سعر الدولار .. ارتفع سعر الجنيه الاسترليني .. ارتفع سعر السكر .. رخص التبغ .. »

كان كفاتشي يمضي اليوم خارجاً داخلاً الى مكتبه ، يحسبون ، يبيعون ، ويشترون ويكاد الوقت لا يكفي كفاتشي لاصدار اوامره الكثيرة :

— اشترؤا .. يبعؤا .. لا أريد ! .. اعطؤا .. استبدلؤا .. احسبؤا ..

في الصباح يكون صندوق كفاتشي ممتلئاً تماماً . وبعد ساعة يصبح فارغاً لا يتوفر فيه دولار او روبل واحد . وبعد نصف ساعة تمتلئ الغرفة بالأكياس الممتلئة بالأوراق النقدية يحيط بها الموظفون ، يجهزونها رزماً — رزماً ويضعونها في عربة ويستبدلونها بـ « شيك » صغير .

يشترى كفاتشي الساع ويبيعها دون أن يعاينها ، وما حاجته الى ذلك ؟ لقد اعادت « السياسة الاقتصادية الجديدة — النيب » النظام القديم . في الحقيقة لم يمر يوم واحد دون ضجة وجدال في مكتب كفاتشي ! .

بقي القليل من الدسائس ، وأي شيء لا يكون سبباً للصراع مع

كفاتشي ؟ ! إما أن يكون « شيكه » مشكوكاً في أمره، أو ان اكياسه تنقص منها عدة ملايين، وإما أن يكون سكره مبالاً ، أو تكون خيوطه فاسدة . لم يصعد كفاتشي الى الباخرة ولم يدخل الى عربة قطار ، لم يصب الماء على القطن ولم يصف حجارة الى الصوف ولم يخرج اموالا من الأكياس، وهو لا يدري : امزيف شيك المصرف البريطاني أم لا .. ارسلوا هذا الشيك الى لندن واستفسروا عما اذا كان الشيك مزيفاً ، ابجثوا عن جون روالينسون . اما فيما يخص القضايا الأخرى ، اشتكوا ضد كفاتشي ان شتم . ارفعوا دعاوى في المحكمة وانتظروا عاماً او اربعين . حسناً ، انهوا الحديث ، لا تصرخوا ولا تشتموا والا .. يا جليل هيا رافق هذا السيد حتى الباب ! أمازلم تهددون ؟ عبثاً تختلون. لو عرفتم مقدرة جيوب كفاتشي وقوة تأثيره لما اضعتم وقتكم . ماذا يفعل كفاتشي ؟ لا شيء أبداً . يبيع ويستري كل ما تقع عليه يده : عملة صعبة ، أوراقا مالية ، منابع نفطية ، أوراقا حكومية ، اسهما باطلة ومختلف الوثائق الاقتصادية ورخص التجارة الخارجية لتصدير مختلف السلع ، يكدها في بيته دون طلب من قبل أصحابها. أحياناً يبيع الهواء ، وأحياناً يلتزم تعهدات لا يقوم بتنفيذها .. لكن لا بأس . المهم ان يتلقى كفاتشي العربون ويدخله في التداول / الدورة المالية / . وكل الامور الباقية تسوى من تلقاء نفسها ، أحب كفاتشي بشكل خاص الشركات والمعامل والتعاونيات ، حيث تتوفر لها الاموال والبضائع والاداريون الاغرار .

يثقون بكفاتشي ؟ واي سؤال هذا ؟ اذا لم يثقوا بكفاتشي فبمن يثقون اذاً ؟ لديه ثروة لا حصر لها : القصر الذي ستعود ملكيته اليه ، عاجلاً أم آجلاً بعد أن يغادر الحمر أو بعد أن يتنازلوا عنه طواعية ،

البيت الصيفي والحديقة في سوخومي ومزرعة في باطوم ، البضائع التي ليست له والمكدسة في مستودعاته ، الأسهم التي لا تقلد بثمان ، مختلف الأوراق القيمة .. واخيرا : كلمة الشرف ! نعم كلمة الشرف التي لم تخذع انساناً ابدا .

لكن ذات مرة تغير شيء ما في مكان ما . فجأة دخلوا مكتب كفاتشي ، نقبوه وحملوا كميات كبيرة من العملة الصعبة واقتادوا كفاتشي قائلين :

— انتم تتعاملون بالمضاربة والربح غير المشروع .

— أنا أتاخر ، لي الحق في التجارة قانونا .

— هذه ليست تجارة ، بل ربح غير مشروع

.. بل تجارة .

— اقول ، ربح غير مشروع .

بعد عدة ساعات تفصلوا عرقا وهم يبحثون عن الحدود الفاصلة بين التجارة والمضاربة . أخيراً قالوا :

— اخرجوا . لكن اذا ضبطناكم مرة اخرى ..

— واموالي ؟

— اشكرنا اذ لم نرسلك الى سجن « ميتخسكايا » .

— سأحتج !

— عندئذ ستذهبون الى « ميتخسكايا » .

— لا ، لا اعلموني ! لقد فهمت الآن الفرق . اسحب كلماتي .

الى اللقاء !

رجع كفاتشي الى بيته وهو يشد على قبضتيه ويصر على اسنانه

ويشتم باللغة التتريية . لم يبتسم طوال أسبوع ولم يجف السم عن شفثيه .
لكن لم يسترح رأسه ورجلاه ساعة واحدة .
بدأ من جديد بالسعي خافض الرأس وهو « يدبّر » الاعمال
بخلر كبير .

مر اسبوعان اثنان . رمم كفاتشي ما ضاع منه ، ووقف منتصباً
ونسى الغرامة ، لكن الآخرين لم ينسوا .
مرة أخرى أمسكوا بتلابيه وأفرغوا جيوبه وصندوقه .
— لقد اشتغلتم بتبديل العملات : ؟

— نعم اشتغلت .
لم يخرج كفاتشي من ذلك البناء قبل مضي شهر ، لكنه عانى
الحزن هناك وترك الغيظ في نفس المكان .
أحنى رقبته كثور الخراثة وسار في طريقه من جديد .

— بيسو ، قال أحياناً لصديقه المخلص — لم يعد العمل مجدياً هنا
على ما يبدو . لا يمكن تصدير أو استيراد البضائع أو القيام باعمال
تكسب العملة الصعبة . لقد جاؤوا بهذا الـ « تشيرفونيتس (١) » نكاية
بنا فحرمونا من الربح الذي نجنه من تبادل العملات ، حسب القانون
الجديد لن يسمحوا لنا بالاقتراب من الشركات ، والمصارف لا تقدم
قروضاً بعد الآن . سنغطس اليوم أو غدا ، من يعلم عدد الفلستين ؟
— فلنسافر يا كفاتشي ، فلنسافر من هذه البلاد وإلا متنا جوعاً .
تستحيل الحياة هنا لغير العاملين .

(١) تشيرفونيتس : بطلاقة نقدية ذات اعتماد مصرفي من فئة العشرة روبلات ،
طرحت في التداول من عام ١٩٢٢ وحتى عام ١٩٤٧ .

— انتظر ، بيسو . انتظر ، سنسافر بعد أن استعيد ما أضاعته .
لكن الحسارة تلت الحسارة ، والغرامة جاءت تلو الغرامة والسجن
وراء السجن .

اضمحل كفاتشي يوماً عن يوم . في البداية أغلق مكتب «سيونيون»
في باكو ، ثم كسدت التجارة في باطوم ، وضيقوا على كفاتشي مما
اضطره أخيراً لأن يصفق باب مكتبه ويقول لبيسو :

— بع كل شيء غداً أو بعد غد ، وسرح كافة العاملين وأعلن لكافة
الزبائن بأن «سيونيون» قد أغلق ، انتهى كل شيء ، أصبحت الحياة
والعمل هنا أمراً مستحيلاً . فلنمض يا جليل ! منذ ذلك اليوم تحول
كفاتشي من جديد الى مواطن حر . يتجول بلا عمل في شارع
«روستافيلي» ، ويمضي الليالي في النوادي والمطاعم ، يشرب ويلحق
النساء ويلعب القمار ، ورجع سليسترو مرة أخرى الى كوتايسي
واشترى في شارع «بالاخفانسكايا» بيتاً عتيقاً ، واستقر فيه . نصح
سليسترو مراراً كفاتشي بالانتقال الى كوتايسي ، لكن كفاتشي
لم يشخ بعد كي يعود الى كوتايسي الخاوية .

ذات مرة دخل بيسو غرفة كفاتشي مقطباً وأعلن بهلوه :
— لقد انتهينا الآن

— ما الأمر يا بيسو ؟

— لقد هرب بافل .

— ماذا تقول يا بيسو ؟

— أقول لقد هرب ، حمل امتعته وهرب أول أمس .

— والكثير ؟

— فتح الصندوق الحديدي وأخذ كل شيء .

لم يتمكن كفاتشي من إصدار أي صوت . صمت بيسو وحملت جليل بعينه منتظراً استجلاء الأمر . أخيراً نهض كفاتشي كازاً على اسنانه وقال :

— جهزوا انفسكم ! ستسافر يا جليل الى باطرم ، وانت يا بيسو ستسافر الى فلاديفستوك ، ومن هناك ستصعد الى روستوف . أما انا فسأسافر الى باكو . هيا بسرعة ، ستسافر اليوم .. آه ايها الوغد لو تمكنت من القبض عليك !
سأل جليل :

— أنا لا أدري أيها الآغا ماذا اقترف بافل ؟

— سرق ، سرق الاموال !

— سرق الاموال ؟ أي . . . ي كيف .— أوغلي ات دونغوز !

— اسمعاني — اعطى كفاتشي نصائحه لصديقيه — لا تنبسا بكلمة . لا تخبرا الشرطة والا سيفهمون كل شيء ، وعندئذ سنهلك جميعا . إذا وجدت بافل اختفاه ان لم يحضر الكتر حالا ، واستدعياني ببرقية . هيا جهزا نفسيكما !

ومضى الثلاثة في طرق ثلاث وراء بافل الذي ابتلعه الأرض . بعد اسبوع رجع كفاتشي الى تفليس ، وعاد في تلك الفترة جليل وقال :

— لم أجد ابن الكلب .

وبعد اسبوع آخر وصل بيسو ايضاً .

— لم أجد أثراً له .

ومنذ ذلك اليوم بدأ كفاتشي يشعب يوما عن يوم . تغلب الحزن عليه وذاب . . . فقدت النقود قيمتها في نظره ووضحت الحياة ملمسة . كان أحيانا يحصل بقفزة ماهرة على محفظة نقود ذهبية ، لكن في اليوم التالي لا تبقى لديه قطعة ذهبية واحدة . وفقد عمله ظرافته السابقة — اضاع كفاتشي مرونته ومهارته وألمعيته ، واصبح ذكاؤه يخبو كثيرا وغدت عيناه أقل حدة في الرؤية ، وظهرت خشونة يده على اعماله « المدبرة » . لم ينطق بكلمة واحدة في السياسة ، وبفضل الله لم ينبش أحد ماضيه .

اخيراً ، نحل ابن سليسترو وضعف ، واستدان من هنا وهناك الذهب دون أن يفكر بغده .

« كيف خطب كفاتشي »

— هيا ، طر !

— انتظروا ، ايها الرفيق ، فالظلام دامس .

— ادخل ، يقال لك !

تنفس اليكسي اريماذره الصعداء ، تشجع ثم خطا عبر الظلمة ، وفي تلك الدقيقة اغلق الباب خلفه وسمع صرير المفتاح ودقات الجزمة الثقيلة للتحارس الذي ابتعد . ثم ساد الهدوء .

فجأة سمع من أعماق الظلمة :

— أي .. ي ، من هناك ؟

فرح اريماذره ، عادت اليه ملكة النطق وهمس كما يهمس المسنون :

— هذا أنا ، سجين . ساعدني من أجل الاله : ارني الطريق .
 — انا لا أؤمن لا بالشیطان ولا بالاله !
 — من أجل الاله ! — قال ارمادزه بصوت أجش .
 — لقد قلت لك انني لا أؤمن بالله ، لكن اذا كان لديك تبغ
 اساعدك !

— لقد اخلوا تبغي .
 — فلنأخذهم الشياطين .. هم .. بم اسمع ، كائناً من كنت ،
 امش بمحاذاة الحائط وعد عشرين خطوة . بهدوء فالدرج رطب ،
 لا تنزلق اذ تستسقط في الهاوية . حسناً هل ستمشي ؟
 — ها انا امشي — اجابه وهو يعد خطواته — خمسة .. عشرة ..
 خمس عشرة .. عشرون ! والآن أأمشي مستقيماً ؟
 — قف حيث انت لا تتابع والا سقطت في البئر .
 — ماذا تقول ايها الاخ ؟ كيف يكون بئر هنا ؟
 — اقول لك لا تتجاسر والا هلكت ، في وسط القبو بئر محفورة ،
 وهذه البئر مليئة بالأفاعي والسحالي والضفادع والكلاب . انعطف نحو
 اليمين وامش بمحاذاة الحائط . لا تقلت الحائط من بين يديك والا
 هلكت . ها انا قادم ، أين أنت ؟
 — انا هنا — قال ارمادزه بصوت كالمواء والتصق بجسده بالحائط
 الرطب وغمغم اثناء ذلك : — لا يؤمنون بالله ، ما هذه التعاسة .
 يقذفون انساناً حياً في هاوية حقيقة طعاماً للأفاعي والسحالي ؟ ايها
 الرب القدير كم هو شديد هذا الظلام . وزحف عبر تلك الظلمة بحذر
 باحثاً بيديه ورجليه متفحصاً يقيناً كل فيرشوك * .

* فيرشوك : وحدة لقياس الطول تساوي ٤٠٠

- كن حذراً ايها الزميل . كن حذراً ، اقول لك والا حدثت مصيبة . سقط اليوم صباحاً احد الأرمن . حسناً ، أين انت ؟
- انا هنا .. قادم .
- واخيراً تصادما في الظلمة . وامسكاً أحدهما بيد الآخر .
- مرحباً .
- فليهبك الله الصحة !
- حسناً ، امش ورائي ، كن حذراً ، لا تسحب يدك عن الجدار .
- مشياً ما يقارب العشر خطوات .
- وصلنا الى مكان امين . اجلس الآن وحدثنا !
- لك جزيل الشكر ، ولينحك الله السكينة . ما اشد هذه الظلمة !
- اجلس وستعتادها . قص علي الآن ما الجديدي في المدينة ؟ فانا لم ار السماء منذ شهر
- انتظر يا عزيزي . لقد قلت منذ برهة أن أرمنياً ومع هذه الصباح في الهوة ؟
- ثمة شخص ضحكك ضحكاً مكبوتاً .
- أيوجد احد هنا غيرنا ؟
- مالك اقضحك ايها التتري ! صرخ الاول — يدعى هذا التتري جليل ، مم تضحك ؟ قل !
- جرذ اكل رجلي ، اقسم بالله اكلها !
- ايها التتري ، لا تقسم بربنا . ان شئت القسم فاقسم بسيدك محمد .
- هل اكل الجرذ رجلك ؟ بالأمس سرقوا قبعتي الفروية ، وجروها الى الوكر .

— أوى ! ماء اريمادزه وقفز — لقد نط جردضخم على ركبتي .
 قهقهه السجينان الآخران بشكل اهتزت معه الجدران .
 — هذا يضحككما ، اذا اعتدتما ، لكن كم هو صعب علي —
 تتم اريمادزه قائلاً :

— اجلس ايها الزميل ، اجلس ، يجب ان تعتاد . الجردز بلبل“
 بالمقارنة مع الافاعي ، ماذا ؟ خفت . لا بأس . استلق بيننا هكذا ! جليل
 احرس الضيف الجليد من جهتك . سنعتني بك . ماذا عن الأرمني ؟
 اجل هذا الصباح ترحلق وسقط في الحفرة ، التصق بالجدار ، لا ترحف
 نحو الأسفل والا .. لقد سقط في البئر والآن تأكل الافاعي والكلاب
 جنته ، ماذا قلت ؟ عميقة ؟ قلت لك : لا قرار لها . هالكِ اسمع ! سأرمي
 حجرة صغيرة واحد — اثنان — ثلاثة . قذفتها .

صنّت الجميع وانصتوا . بعد عشر ثوان وصل صوت خافت
 وكأن تلك الحجرة قد سقطت في هوة سحيقة .

— ايها الرب العظيم ! — قال اريمادزه وهو يئن .
 قهقهة التري من جديد .

— يعني ايها الزميل ، اذا ابتعدت عن الجدار ثلاث خطوات تنتقل
 الى جوار جدي خلال ثلاث دقائق وتختنق من رائحة الجثة .
 بدأ أريمادزه يتشمم ما حوله .

— فعلا رائحة الجثة . من يلري عدد الذين ماتوا !
 — ومن يعدهم ! اسمعني ايها العم سأعرفك بالقوانين المحلية .
 سيفيدك هذا .

تذكر جيداً : ما تراه وتسمعه اليوم يجب ان يبقى سرّاً دفيناً .

إذا همست بأية. كلمة ينتهي امرك . يمسكون بك فوراً ويلقون بك في هذه الهوة . فهمت ؟ حفظت هذا جيداً ؟ .
 - ساعدنا. يا رب ! فهمت وحفظت . شكراً جزيلاً. من أجل هذه الموعظة . لقد سمعت في المدينة انه اذا ما نيس أحد بكلمة واحدة... يتخذون كثيراً عن هذه الاماكن .

- يقولون الحقيقة . كل ما يرى يسمع هنا يعتبر سرّاً حكومياً . يعاقبون الثرثار. كما يعاقب الخائن أو الجاسوس . والآن انت تعرف كل شيء ايها العم والابر يعود لك فيما تبقى !
 - شكراً جزيلاً يا عزيزي . انا ممتن لك . انا لم أكن ثرثاراً في شبابي ، فكيف في شيخوختي ؟ اظن ان الشيطان نفسه لا يستطيع إغوائي .

- فعلاً من أنبت ايها العم ؟ وعلام وصلت الى هنا ؟ آن الأوان لتتعارف !

- أنا أريماذره يا عزيزي ، اليكسي اريماذره .
 - أليكسي اريماذره . اصابني الله بالعمى ، لماذا لم تقولوا لي منذ البداية يا عزيزي . عاراً على أليكسي اريماذره في هذا القبو ؟ ابو صديقي « سيلوفان » ، عاراً على رأسي يا لجزني انا الشقي !
 وبدأ الرجل المجهول يتحرك في العتمة مستعجلاً ، يتلمس يديه ويصرخ في وجه الثري آمراً :

- أفسح يا جليل ، اعطني معطفك ، وها هو معطفي ، افرشه على الأرض ، ايها العم أليكسي والا تعرضت للمرض ، وماذا عندك سأقول لصديقي سيلوفان ؟ تعال الى هنا. ايها العم ، التصق قليلاً. فليبني

الله بالعمى . لماذا لم تقبل هذا منذ البداية ايها العم . لقد كادوا ان يلقوا بالعم اليكسي .

. جليل احضر : هيا ، خبزاً وماء . ماذا انتهى الخبر ؟ اعذرونا ايها العم ، حتى بالخبر لا نستطيع ان نضيفك آى . آى اين قابلت ابا صديقي « سيلوفان » ومن انا ؟ الأخ والصديق المفضل لدى سيلوفان — كفاتشي كفاتشانيرادزه تعرفني . من بعيد ؟ لقد عشت مع سيلوفان خمس سنين في بطرسبورغ آه . يا عزيزي سيلوفان ! لن تجد له مثيلاً في العالم كله . هو الآن في المانيا أليس كذلك ؟ اعرف ، ايها العم اعرف . حينما سافر لم أكن موجوداً في المدينة ، والا لما استغنى عني ساعة واحدة .

انا أيضاً كنت مزماً على السفر الى المانيا ، لكن ذلك لم يتيسر لي . حبيبي سيلوفان ، يا له من شاب ! يا له من شهيم ! ليس له شبيه في جورجيا كلها . سيصبح عالماً ويشغل العالم بالحديث عنه . تذكر كلمتي هذه ايها العم الكسي . اذا اخطأت لا تدعني اقرب منك ، آه يا صديقي سيلوفان الذي لا يمكن أن أجده بديلاً له . خلال عشر دقائق وصف كفاتشي بكلمات سريعة حياته المشتركة مع سيلوفان : دراسته غرامياته ، ونضاله وسجنه ونفيه وعودته وألفاً من الحوادث الأخوى .

لا أحد يعلم كم مرة ضحى كفاتشي بنفسه في سيليل سيلوفان ، وكم مرة انقلبه من خطر داهم ! حقاً ، منذ عشر سنوات بقيت في ذمة سيلوفان بعض « الفلوس » ! لكن اشياء صغيرة كهذه لا يجوز الوقوف عندها . كم ؟ ما يقارب

الثلاثمائة روبل . لا تقلق ايها العم اليكسي ، حين سيعود سيلوفان ، سيسدد لك كفاتشي وسيلوفان المبلغ . ثم اتضح التالي :

منذ عشرة ايام فتشوا المربي المحترم الكسي اريماذره ووجدوا لديه منشوراً ، أصر الكسي على موقفه : لقد دس الي هذا المنشور ولم أتلقيه يدأ بيد . لذا لا يستطيع ان اسمي أحداً . وكان المحقق واثقاً من ان الكسي قد روج لهذا المنشور ، ونظراً لاصرار الكسي على النكران فقد القوا به في هذا القبو المظالج الرطب . هذا كل ما حدث لا أكثر .

— وكيف حصلت الحادثة كم ؟

— هكذا فعلياً بكل بساطة !

يصادف الخامس من نيسان عيد ميلاد « يلينا » — الابنة العازب
لألكسي . أقيمت ، كالعادة ، حفلة عشاء حضرها عشرات الضيوف .
امضوا وقتاً ممتعاً ، ثم انصرفوا في السادسة صباحاً . انحنى الكسي
وهمس في اذن كفاتشي . :

— احدهم تجسس علي ، ثرثر في مكان . انا الآن متهم بانني
قرأت هذا المنشور في حفلة العشاء . اني لي أن اخفي شيئاً عن اخ وصديق
ابني سيلوفان ! انا فعلاً قرأته . كانت لدي عدة نسخ ، وقد وزعتها
علي الضيوف . أحدهم غدر بي .

وقص كفاتشانيرادزه ايضاً علي الكسي قصته التي هي اكثر
بساطة وبراءة من قصة الكسي .

في أحد أيام الربيع ، وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، سرق
رجل ارمني في شارع تسخينيتكسكايا ، وبعد شهر ، ودون أي سبب ،
قبضوا علي كفاتشي ورموه في هذا القبو . يسألونه اين كنت في الخامس

من نيسان الساعة الثانية صباحاً ؟ كفاتشي لم يعد يتذكر . هو ليس صبيّاً
كبي يكتب مذكراته . أمضى شهراً وهو يفكر . لكنه لم يستطع التذكر .
يهددونه بالاعدام . صاحب الشقة التي يسكنها كفاتشي وزوجته
والاصدقاء يكررون . بعناد :

نتذكر جيداً ان كفاتشي لم يكن في البيت ليلة الخامس من نيسان .
لعلهم تأمروا عليه وقرروا هلاكه ، فثلاثتهم رجعيون ، أما كفاتشي
فالبلاد كلها تعرف انه ثوري . لقد سجن ونفي . هذا هو السبب
الحقيقي لعدائهم .

شيء مضحك ! كفاتشي كفاتشانيرادزه يتهم بسلب انسان ! لعل
جورجيا بأكملها تضحك من هذا . أيعقل هذا : امن أجل هذا أنفق
سليبيسترو كفاتشا نيرادزه روبلا ذهبياً ، وهياً له الفرصة ليطوف كافة
انحاء العالم ؟ كي يصبح قاطع طريق ؟ ! ومن ؟ كفاتشي كفاتشا
نيرادزه ؟ آه ، آه ! لماذا لا يتقلب هذا العالم آه . آه صرمت
كفاتشي فجأة .

كان واضحاً ان افكاره قد قادت به بعيداً . وبدأ الكسي حديثاً مع
جليل عن مصير السجناء ، وعن الانظمة المحلية وعن الحفرة ، فجأة
أمسك كفاتشي بيد الكسي وقال له وقد أشرف على البكاء :

— ايها العم الكسي ، ساعدوني .

— كيف يا بني ، كيف سأساعدك ؟

— سيلوفان حبيبي ، ايها العم ، من أجله ساعدوني ، انقذوني .

أنا معيل لوالدي العجوزين وعشرات الأقارب . انا شاب بعمر ابنكم

سيلوفان . سأموت يوماً .. أعلم انه لا مناص من ذلك .. انتم تستطيعون
مساعدتي تستطيعون .. ايها العم . يا عم .. وفي نفس الوقت أغرق
يدي الكسبي بالدموع وقبلهما .
أشفق الكسبي عليه وقبله في جبينه صامتاً ومسد شعره .

— قل ، ايها البائس ، قل . ان استطعت سأساعدك وكيف لا
أساعدك .. نحن مسيحيون ، نحن اخوة ، قل ، كيف سأساعدك ؟
— في الخامس من نيسان كانت لديك حفلة العشاء ، اليس كذلك ؟
— نعم في الخامس من نيسان وبعد ؟
— انا ايضاً في الخامس من نيسان ارتكبت .. كما يدعون في
الثانية صباحاً سلبت ذاك الأرمني . في هذه النقطة عليكم مساعدتي
ايها العم ، يجب أن تكون شاهداً . قولوا اني كنت ايضاً في تلك
الحفلة . أستحلفكم بشييتكم ان تقولوا هذا وسأصيح عبداً لكم !
— حسناً ، لكن .. لقد شارك في هذه الحفلة أكثر من عشرة
ضيوف .

— هذا لا شيء ، ايها العم ، ان شئت كل شيء . اسعدوا .. سيطلقون
سراخك اليوم أو غداً ، حتماً سيطلقون سراخكم ، لديكم الكثير من
الناس الذين سيساعدونكم حين تخرجون . اذهبوا الى ضيوفكم وزوروهم .
لا تدعوني اهلك . حين سأخرج سأكافئ الجميع . بعد اسبوع من
خروجكم سأذكركم واطلبكم شاهداً — في الخامس من نيسان كنت
لدى ارمادزه .

— حسناً ، ولكن ..
— انتظروا ، ايها العم . انتظروا . ستطلبون من الضيوف ان يقولوا

بان كفاتشي كفاتشانيرادزه قد حضر الحفلة . لقد اكملت الخامسة والثلاثين من عمري ، طويل ، اسمر ، أجعد الشعر ، حليق الذقن دقيق الشارين . و ثمة آثار جرح على اسفل ذقنه . لا تخافوا ، لن بدري احد بما اتفقنا عليه ، لا سيما وان لدينا محققين مختلفين . كونوا مطمئنين والآن قولوا من كان في ضيافتكم ؟

— فانو كالياشفيلي دوركوبيا .. بيتو غوغوليا .

— اعرف غوغوليا وبيا ، والباقون ؟

— بوبي لوميدزه ، دازيسبان شيلينزه .

— اعرف الاثنين ايها العم ، اعرف وغيرهم ؟

— سيلوفان شيرادزه .. ميخاير يشفيلي .. تاكو ألافيلزه ..

— اعرف ، ايها العم ، اعرف الجميع تقريباً ! — كرر كفاتشي

كلامه فرحاً .

— حسناً يا بني حسناً . اذا أخر جوني سأمر على الجميع واطلب

اليهم ذلك .

اصبح كفاتشي في السماء السابعة فرحاً . اعتنى بالكسي ، ولم

يعد يدري كيف يحقق له رغبته . صرخ :

— جليل ، ايها الثري ، الا تدري مع من تتحدث ؟ لن نجد في

جورجيا كلها رجلاً مثقفاً وعالماً كهذا . لو أن لدى الثريين رجلاً مثله

لأجلسوه على عرش السلطنة يا جليل ! اقرب قليلاً كي لا يقع العم

الكسي في الحفرة . عندئذ سألقي بك وراءه ..

عفواً ايها العم عفواً ! انا لا استطيع ان احقق لكم رغبة ، يا

لحزني ! اين قابلت العم الكسي ! لا يتوفر طعام أو شراب أو تبغ .

ماذا افعل ؟ اذا ساعدتموني ايها العم وخرجت حينذاك اعرف كيف
أرد الجميل .

— لا عليك يا بني . لا بأس علي ، سأتحمل كل شيء . الفئران والجردان
يزعجونني .. لكن ...

— جليل أدّ واجبك ، لا تدع واحدة تقترب ، والا الويل لك . هيا !
— تك — تاك ، أيها الملاعين — قال جليل وضرب الارض بيديه
وماء : مياو ، مياو ، مياو ...

اثناء ذلك ضحك الجميع من أعماقهم وتمازحوا .
— جليل ، حدث العم الكسي عن صديقتك « ماروسا » — قال
كفاتشانثير ادزه وبدأ يضحك سلفاً .

ضحك جليل ايضاً متنهداً ساخراً في نفسه ، وكتعبير عن الندم
بدأ يلطم جبهته ويقول :

— أوى ، احمق ، احمق انت يا جليل اوى ، أوى ، أوى !
اخيراً بدأ قصته .

ترعرع جليل في جورجيا ، توظف تارة وتاجر تارة اخرى ،
واستأجر الحمام ذات مرة . ساعد ، اثناء ذلك ، وبشكل خفي ، الثورة
والاتراك وكان له تأثيره . أقام ايضاً في ايران بين قوات « ستارخان » .
اصطحبه الأكنتع فلاس مغيلارزه .

طاف هنالك طويلاً ، وعاد ببعض الغنائم ، ثم سافر الى اوديسا
ليتاجر ، وصادف في طريقه كفاتشانثير ادزه — آغا والتصق به . ورافق
منذ ذلك الوقت كفاتشي في تجواله في هذا العالم . كان جليل يتخلف
أحياناً عن كفاتشي ويسير مستقلاً في طريقه ، لكن مهما ابتعد كان
يعود بعدئذ إليه ليرافقه . حارب في « اندريابول » وفي « تشاتالجا »

وساعد السكان العرب في طرابلس ، فأمره الايطاليون . ثم عاد من جديد ببعض الغنائم وعمل بالتجارة . اين كان جليل زمن الحرب العالمية الاولى ؟ كان جليل يتحاشى تذكر ذلك .

بعد عودة الجنود الروس إلى ديارهم كان جليل في « قارص » ، وحين استولى الاتراك على باطوم كان جليل قريباً منها . وعندما زار البطل البغدادي « خليل باشا » مدينة تفليس استقبله جليل ، وقام بخدمته ، وهو يعرف جيداً « نوري باشا » ، « كاظم - بك » وقدم للجميع مختلف الخدمات ، جليل مقدم ، شاب قوي ، سريع محب للعمل لا يشرب الخمر ولا يلعب الورق ، يشرب الكونياك فقط « كدواء » نظراً لأن حرارته مرتفعة ، ويعاني أيضاً من عيب كبير : يحب الشقراوات بافراط .

كم مرة وقع جليل في مطبات بسبب الشقراوات ، كم مرة احسنه بالندم ، وكم مرة أدمينه وسلبه ، أقسم مراراً على الا يقربهن ، لكنه لم يزع القسم .

اخيراً تمكنت إحدى الشقراوات من لوي رقبته السوداء .

ذات مرة ، وقبل اسبوعين ، حين خرج جليل الى الشارع ، شاهد امام الباب شقراء جميلة ، عرضت المرأة على جليل « شالا » فارسيّاً رائعاً . دعا جليل الحسنة الشقراء الى بيته ، ضيفها « شربات (١) » وشيئاً من الحلويات . حدث كل شيء :

ضحك ومزاح وقبل وملاحقة ، ثم ضجة وخصام . لم تستسلم الحسنة الطومبونية . عرض عليها جليل روبلين ذهبيين ، لكن بلا فائدة .

(١) وردت في النص بلفظها العربي - المترجم

ضحكت المرأة وقهقهت ، وقلبت غرفه وحولت بيته الى فوضى كاملة .
جعلت دمه يغلي وحرقتة ، أضنته وتصيب عرقاً ، ثم هربت .. وفي
ذلك اليوم أودعوا جليل هذا القبو المظلم .

اتضح ان « ماروسا الطوميونية » سبقت ورقة من جليل اثناء
المطاردة والقبلات ، هذه الورقة اعطاها خليل باشا الى جليل . كان
نصها : « جليل ، هو منا ، انه تيري قام باعبال جلييلة فساعدوه » .

وهكذا وقع جليل وهو الآن ينتظر المساعدة . لكن لا اثر لتلك
المساعدة . العم رجل طيب جداً ، لعلهم سيطلقون سراحكم اليوم أو
غداً .. ما يرجوه جليل أمر يسير : ارسال برقية الى باكو على الشكل التالي :
« شارع كوينسيكاييا -- محمد أمين أوغلي .: جليل مريض جداً . »

ولن ينسى جليل لكم هذا مدى العمر .
جليل يرجو . لكنه يخجل ويشعر بالصغر ، لانه يزعم العم الذي
لا يعرفه جيداً . أخيراً قال : ..
— ايها العم ، اقسم لك ، اذا شاهد جليل امه مرة أخرى سيرد
جميلكم . هذا كل شيء يمكنه فعله . لقد اقسم .
وعد الكسي أن ينفذ طلبه ، طاب مزاج جليل ، وبدأ يمزح .
قصص حكايات « الملائكة نصر الدين » ..
وعند الحديث عن « ماروسا » علت الضحكات والمزاح والنكات
الطريفة . أخيراً تنهد جليل وقال :

.. نحن الآن نضحك والله يرى كل شيء ، لعله ارسل شيطاناً وقال
له : اذهب واقبض روح الوحيد جليل . اهل جليل سيلتجئ بربه هذه
الليلة .. الله !

بعد كلمات جليل جفت حلق الجميع وشعروا بالبرد ، ارتجفوا :
صمتوا ، ثم دخل كل قوقعته .

مر وقت طويل ؛ لم يدر أحد هل هم في منتصف النهار ، أم
حلّ الليل ، وهل الجو بارد أم حار ، هل الطقس ممطر أم مشمس .
ومن وقت لآخر كانت تسمع بوسلات كفاتشي الباكية . . .

— ايها العم ، يا عزيزي ! الأمل معقوداً عليك .. ان ساعدتني سأصبح
عبدك . وتسمع تتمات الكسي :

-- نعم . يا بني نعم . سأنفذ كلمتي طاماً لك صديق سيلوفان ،
وقد اعتنيت به وعاملته كأخ لك .

تذكر كفاتشانييرادزه مغامراته ومصاعب سيلوفان ومساعدته
الايخوية اه . .

فجأة سمعت قرعة الابواب ، تيقظ الجميع .

— اليكسي ايمادزه ا

— أنا هنا ! انه هنا !

— هيا ، اخرج بسرعة !

ساد الهرج .

-- ايها العم . الأمل معقود عليك ، عليك فقط .

نعم يا بني ، كن مطمئناً ! سأفي بوعدني . وداعاً يا بني كفاتشي !

وداعاً جليل !

— وداعاً وداعاً . يا جليل فلنساعده : كن حذراً ايها العم لا تسقط

في الحفرة فنهلك جميعاً . امسك به الاثنان من تحت ابطيه وزافقوه بحذر
كبير بمحاذاة الجدار حتى انهما حملاه على السلم

— وداعاً ! — مرة أخرى قال كفاتشي متأوها ولامس بشفتيه
يدي الكسي .

— وداعا ايها العم .. لا تنس شارع « كوينسكاي » محمد امين —
اوغلي . جليل مريض جداً .

— هيا اخرج بسرعة . مالكم ثرثرون !

— انا قادم ، ايها الرفيقتى قادم !

خرج اريماذره . اغلقت الابواب من جديد ، وراح كفاتشي
وجليل يقهقهان ويملاآن ارجاء القبو بضحكاتها حول قصة الحفرة
والافاعي والكلاب التي صدقها اريماذره بسهولة ، ثم استلقيا في
زاويتيها واستسلما لأحلام المساجين : شمس دافئة ، شارع مرح ،
شغب . نساء جميلات ، شقة مفروشة ، اصدقاء ، أقارب ، غداء
للزيد ، سرير مريح .

نخرج الكسي اريماذره بخطوات سريعة . دخل بيته خلصة . استقبلته
ابنته يلينا ذات الثلاثين ربيعاً ضاحكة باكية . نعانقا وكأن الكسي قد
عاد من العالم الآخر . حدثت الوالد ابنته كما لو انه امضى يوماً في
عرفة واثعة ، ثم اضاف :

— يا ابنتي علينا ان نقتل من الموت رجلاً طيب القلب ، لدى
سيلوفان صديق حميم يدعى كفاتشي كفاتشا نثيرادزه عاشا معا خمس
سنوات في موسكو وفي سجن سيبيريا هذا الـ « كفاتشي » انقذ حبيبنا
سيلوفان مراراً من أخطار كبيرة . . .

لو لم أتأبل كفاتشا نثيرادزه لما عدت حياً من هناك ، وهو الآن في
خطر ، في خطر شديد .

ذاك الانسان الطيب الشريف ، اسمعيني جيداً يا ابنتي . اذا سألك احد عنه قولي انك تعرفينه . في الخامس من نيسان كان عندنا في حفلة العشاء ، ولم يخرج حتى الصباح . هو طويل يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، اسمر ، دقيق الشاربين وثمة آثار جرح في اسفل ذقنه ، حفظتها جيداً ؟ . . .

— اجل يا والدي ، وسأقول هذا ، لكن ماذا سيقول بقية الضيوف ؟
— سأذهب الآن اليهم واكلمهم بذلك ، اتريدن الذهاب معي ؟

— فلتنذهب !

ذهبا ، في تلك الليلة واليوم التالي مرا على الجميع ولقناهم ما يجب قوله :

— طويل اسمر .. اثر جرح في اسفل ذقنه .. رجل طيب شريف .
هل يعرفون كفائشي ؟ كيف لا ! كل البلاد تعرفه : طويل اسمر .. وافق الجميع . كما ارسل اليكسي برقية الى باكو « جليل مريض جداً » . . .

بعد عدة أيام استدعني المحقق كفائشي كفائشانيرادزه . دخل كفائشي . مسرعاً غرفة المحقق فرحاً . وصاح :

— لقد تذكرت ! لقد تذكرت !

— ماذا تذكرت ؟

— تذكرت بعد جهد .. لقد امضيت ليلة الخامس من نيسان من الساعة التاسعة مساء وحتى السادسة صباحاً في حفلة عشاء لدى الكسني اريماذزه . . .

ثم وصف الحفلة بالتفصيل وعدد كافة الضيوف الذين شاركوه العشاء .

— اذكر الكسي اريماذره وابنته يلينا وعشرة ضيوف . ارجو استدعاءهم جميعاً واستجوابهم ، ومن ثم كتابة المحضر .

وصف كفاتشا نثيرادزه القصة بحماسة وإخلاص ووضح مما جعل المحقق يتردد ويختار . كتب المحضر واعدوا كفاتشا نثيرادزه من جديد الى القبو المظلم .

بعد عدة ايام تم فعلا استدعاء الكسي اريماذره ويلينا والضيوف العشرة كلهم . ادلوا بشهادة مفادها ان كفاتشي امضى الليلة بينهم في حفلة العشاء تلك .

كفاتشي كفاتشا نثيرادزه ؟ من لا يعرفه ؟ ! عمره خمس وثلاثون سنة ، طويل ، اسمر ، على ذقنه اثر جرح ، اليس كذلك ؟

— أجل يوجد أثر لجرح .

— لقد بقي معنا حتى الصباح في تلك الامسية . كان ملحوظاً اكثر

من الجميع ، لقد غير كل شيء . رقص وغنى وشرب وانتشى فرحاً .

اقسم الاثنا عشر شخصاً واكدوا على اقوالهم ، ثم وقعوا المحضر .

بعد اسبوعين جاء كفاتشي كفاتشا نثيرادزه الى بيت الكسي اريماذره حاملاً امتهته ، وبدأ الفرح والعيد مختلطين بالدموع والعناق والقبلات والصباح . التصق الكسي ويلينا بكفاتشي كما لو كان ابناً واحداً .

— حسنا فعلت اذ جئت الينا مباشرة ايها العزيز كفاتشي !

— ماذا افعل ايها العم ، لم ارد ازعاجكما ، لكنني لم استطع صبراً ،
لا يجوز تأجيل تقديم الامتنان ! .

بعد تناول الفطور وتبادل أسئلة بسيطة قال كفاتشي بثقة لألكسي :
— ايها العم حتى لو طردتموني لا يمكنني الذهاب الى اي مكان .
لقد اخلوا غرفتي ، عليكم ان تقبلوني عندكم اسبوعاً واحداً وتقرضوني
بعض المال . لقد سافرت امي الى سوخومي كي تبني البيت .

— حسناً ، كفاتشي ، سأتحلى لك عن مكنتي . كم تريد من المال ؟

— احسب كما تشاء ، لقد تعفنت ثيابي علي ، وقد سرقني صاحب
الشقة ، اضعفت كل شيء ، تكبدت الفري روبل خسارة . قدمت شكوى
فقبضوا على الزوج والزوجة ووجدوا كل شيء تقريباً ، لكنك تعرف
شهية البلاشفة ، قالوا : اثبت اننا من اين وكيف حصلت عليها . لولا ذلك
لكانت لدى كفاتشي ثروة ضخمة ، قصر ضخم في سولولاك . الكسي
يعرف ذاك القصر جيداً . اضيف الى ذلك كان يملك كفاتشي اربع
شقق رائعة في باطوم وسوخومي ، اخلوا اثنتين منها وبقيت اثنتان ،
بالاضافة الى انه يملك في « غوريا » و« منغريل » و« سوخومي » ثلاث
حدائق ومنشآت خشب والكثير — الكثير من الممتلكات الاخرى ،
لكن ..

— تعلمون الوضع الراهن : ثلاثة موظفين وامى — العجوز المسكينة
يعتنون بهذه الاملاك ، لقد استعدنا اكثر من نصفها وما تبقى سيعيدونه
لنا قريباً .

بالاضافة الى كل هذا اصدقاءه مدينون له بعشرين ألفاً من الروبلات .

باختصار مائة روبل تكفي كفاتشي مؤقتاً ، اعطاه اليكسي فوراً خمسين منها على ان يقترض له مساء باقي المبلغ ، ثم أضاف قائلاً :
 - اذهب يا بني الى الحمام أولاً ، ثم تتره بعد ذلك وزر أصدقاءك واقض اشغالك .

وفي المساء دعا كفاتشا نثيرادزه اليكسي ويلينا الى السينما ثم رافقهما الى الحديقة ، ودعاهما لتناول العشاء . ومنذ ذلك اليوم اصبح كفاتشي أحد افراد اسرتهم . لم يعودوا يدخلون من بعضهم البعض واصبح كل شيء مشتركاً فيما بينهم .

كان كفاتشا نثيرادزه يستيقظ قبل الآخرين . لم يمض يوماً واحداً بلا عمل . كان دائم الحركة والاهتمام بكل شيء ، أصلح ما كان مكسوراً وألصقه .

اعاد كفاتشي الدين الى اليكسي شاكراً ، وأبان بشكل عرضي حزمة من الروبلات قائلاً :

- لقد اعدوا قليلاً من الديون وما تبقى ربحته من أحد أعمالي .

وبدا هذا « القليل » كثيراً بحيث اصبحت عينا اليكسي في جيبهته .

كثيراً ما كان كفاتشي ويلينا يختليان في الزاوية ، أو يتترهان معاً . سرعان ما تغيرت يلينا : كانت تمشي ذاهلة ، قلقلة باستمرار ، وعندما تكلن كفاتشي يغيب عن البيت ، كانت تبقى ساعات طويلة وحيدة وهي تفكر بشيء ما .

قرر كفاتشي خلال وقت قصير الانتقال الى شقة اخرى ، لكنهما لم يسمحا له بالمغادرة : قال ذات مرة لاليكسي :

— ايها العم ، بيتكم كان يعادل سابقاً عشرين الف روبل ، اما الآن فلا يدفعون أكثر من ثلاثة الاف ثمناً له .

— ثلاثة الاف ؟ بل اذا دفعوا الفين أبيعه ، لقد كرهت هذا البيت لدرجة القرف اذ جفف دمي وأشأخي . خلال خمس سنوات لم يعط روبلا واحداً ، بل أنفق ثلث راتبي على البيت ، قررت بيعه منلزمين ، لكن يلينا لا ترغب بذلك .. ما العمل ؟ هذا البيت هو مهرها و

— الفا روبل تعطي الآن الف روبل شهرياً على الأقل .

— هذا ما اقول له . لكن ما العمل ، فأنا لست شاربياً وسيلوفان ليس هنا .
هياً كفاتشا نثيرادزه الكسي تدريجياً ، فهو يتقن العمل التجاري وخبرته واسعة .

كان لديه عمل ممتاز ، إلا انه لم يبق عليه . وهو الآن يبيع ويشترى بضائع الآخرين ويربح من ذلك اموالا طائلة . لديه اصدقاء في السوق السفلى ، ثمة رجل افلس يبيع بضائعه بنصف ثمنها ، ولذا فهو مستعجل للبيع واذا جاؤوا وشاهدوا سيكون هذا افضل . جاؤوا وشاهدوا . اصطحب الكسي تاجرا يعرفه فعلا الدكان والبضاعة تعادل ضعف الثمن المطلوب . فكر الكسي ملياً . والتاجر المفلس على عجل من امره ، قال كفاتشانثيرادزه :

— قررنا ايها العم ، لقد وضعت في هذه العملية الفري روبل . الكثير من الاصدقاء يرجون ويتركون لنا فرصة للراحة .

وقفت يلينا في صف كفاتشا نثيرادزه ، في البداية بشيء من التردد ، ثم طالبت بعناد بيع البيت . ستصبح يلينا امينة صندوق وكفاتشي سيتاجر ، والكسي سراقب ، سيدقق الدفاتر مرة كل اسبوع .

كانت يلينا سابقاً متعلقة بالبيت . والآن أصبح الكسي مستغرقاً في التفكير .

بعد اسبوع اصطحب كفاتشي الكسي ويلينا مرة ثانية الى السوق ، وأراهما نفس الدكان مليئا بالبضائع واعلن ان كفاتشي شريك مناصفة . كان اثنان يبيعان في الدكان .

أكد ييسو شيكيا كلام كفاتشي و اضاف :
 — هالك يا كفاتشي ، خذها الى المصرف . ثلاثة آلاف روبل تماماً ،
 خذها في طريقك ولا تتكاسل ! وأعطاه مغلفاً مليئاً .
 دس كفاتشي المغلف في جيب سرواله الجانبي .
 تساءل الكسي :

— كم تبيعون في اليوم ؟
 — اذا حسبت معدلاً وسطياً سيكون خمسمائة روبل .
 — وربحها ؟
 — ثلثها ربح صاف .

عندما رجعوا تخلف الكسي عنهم . مشى وحيداً واستغرق في التفكير وحسب .:

« .. في اليوم يحصل على ١٥٠ روبل ، في الشهر ما يقارب الاربعة آلاف ربحاً . اربعة آلاف ! ستكون حصتي منها ألفاً وثلاثمائة واذا حولت الى القسائم سنحصل .. سنحصل .. » .

« اذا اضيفت الى الرأسمال الاساسي مبلغى — الالفين ستوسع التجارة الى ما يقارب الثلث وسيرتفع بالتالي الربح الصافي الى ستة آلاف في الشهر ، وستكون حصتي منها الفين اي سبعين في اليوم .. ايها الرب

العظيم كيف يمكن صرف مثل هذا المبلغ ! » ينفق الكسي الآن ستين روبل في الشهر ، اذا تضاعف هذا المصروف خمسة اضعاف سينفق ثلاثمائة ، يعني انه سيتمكن من ادخار ١٥٠٠ - ١٧٠٠ روبل ، وفي العام الواحد عشرين الفاً - أي انه سيشترى عشرة بيوت مثل هذا البيت الذي يملكه الآن .

واذا ما وضعنا الربح الشهري في الاستثمار سيصبح الوفر السنوي ٤٠ - ٦٠ الفاً .

اخطأ الكسي في الحساب . يستحيل الحساب الدقيق شفوياً ، لابد من قلم وورقة وخلوة .

دخلت الأبالة نفس الكسي . ضاعف من سرعة خطواته . كان مستعجلاً ليصل الى الرقم الحقيقي ، ولم يلحظ ان كفاتشي قد تخلف عن المحي الا بعد وصوله الى البيت . قال في نفسه :
« لعله مرّ في طريقه على المصرف ليودع الاموال » .

اغلق مكتبه وراءه وبدأ يحسب . حسب بحلر شديد . ضاعف النفقات وقلص الدخل ، ومع ذلك بقي الوفر اربعين الفاً . لم يصدق نفسه فخرج الى الشارع ، تحدث مع بعض معارفه ، وأكد الجميع ان التاجر يعطي الآن ٢٥ - ٣٠٪ ، يعني ان التجارة تكسب ٤٠ - ٤٥٪ في الشهر . عاد الكسي اكثر ثقة واقتناعاً وانتظر بفارغ الصبر عودة كفاتشي ، ثم تحدث مع يلينا :

— المتقاعس والمبلر فقط يحتفظ ببيته أو بأمواله هذه الايام —
قالت يلينا — الجميع يقولون ان الروبل يعطي في الشهر روبلا آخر . اما فيما يتعلق بكفاتشي ، فأنا لم ار في حياتي رجلاً شريفاً ومحباً للعمل

مثله . يدور اليوم بكامله ، يخرج من الصخر عصيراً . كم يكسب من
الاموال ! أطنبا في مديح كفاتشي ، ثم هجعا .
جفا النوم عيني الكسي . مرة يحسب الارباح الهائلة ومرة أخرى
يفكر كيف سينفقها وكي يطرد الشياطين وينام . راح يكرر $2 \times 2 = -$
 $3 \times 2 =$ ، . . . « لم يعد كفاتشا نثيرادزه تلك الليلة . حين
اغفى الكسي كانت الديوك تصبح للمرة الثانية ، في اليوم التالي انتظر
الكسي كفاتشا نثيرادزه بفارغ الصبر . جاء وقت الغداء ، فتحت يلينا له
الباب وسألته بشيء من التعنيف اين كان كما تسأل الزوجة عادة زوجها .
قبل كفاتشي يد « يلينا » ، ثم سمع همس وساد هدوء طويل .
سعل الكسي منبهاً كفاتشي ، قالت يلينا وقد احمرت خجلا :
- بابا ، لقد وصلت ام كفاتشي .
فرحوا ، بما ان كفاتشي لا يريد احراجهما فقد نزلت امه عند
اقربائها ، لكنها طبعاً ، ستأتي غداً للتعارف وتقديم الشكر .
بعد ان انتهى كفاتشا نثيرادزه من تناول طعام الغداء قال باختصار
ووضوح :
- ايها العم الكسي ! آن لنا ان نعلن أفكارنا الدفينة ، لا تخرجي يا
« يلينا » يجب ان تحضري حديثنا . لماذا الاخفاء ، انا و « يلينا » نحب
بعضنا . وافق وبارك لنا !
اذهلت المفاجأة الكسي . صمت في البداية ، ثم حرك رموشه ، فرك
عينيه وتمم :
- يلينا .. حبيبي كفاتشي ! يا اولادي .. فلتلازمكما السعادة
وعانقهما كلا بدوره .

.. بكت يلينا ، تمشي كفاتشانيرادزه متبختراً متصبباً وقد امتلاً غروراً . لقد انقلد ذات مرة الكسي من الموت ، وها هو الآن قد ادخل الى تلك الاسرة الخير والسعادة .

بعد فترة قصيرة دخل كفاتشي والكسي الى غرفة المكتب . قال كفاتشي :

— يجب أن تعطيني عهداً ايها العم الكسي ألا تضيع هذا الخبر وتبقي عليه سراً هاماً مدة اسبوعين على الأقل . ستصمت يلينا ايضاً . سنقيم الحفلة رسمياً فيما بعد ، وانا ايضاً لن أقول لأمي — لا تسألوني عن السبب ، سأقوله في حينه .

وعده الكسي وكشف عن اهتمامه المكثف . لقد قرر أن يبيع البيت ففي عصرنا هذا ، المتقاعد المبكر هو من يحتفظ بماله أو بيته . يريد كفاتشي ان يجعل من الكسي رفيقاً له في الاعمال التجارية .

فكر كفاتشانيرادزه ، ثم بدأ يتكلم كلاماً غير واضح :

— الحقيقة ، تمشي الامور بشكل مرض لكن .. لقد احضرت ام كفاتشي خمسة آلاف روبل ، وهذه الاموال ايضاً سيوظفها في العمل . توسيع العمل مسألة هامة ، لكن .. لكن كفاتشي يخاف . هو انسان حذر ودقيق في الحساب . لكن .. ربما .. باختصار ، سيفكر . أخيراً كاد كفاتشا نيرادزه أن يتراجع وأصبح الكسي يطالبه راجياً . صحيح ان هذا البيت مهر لكن مادام الكسي حياً فهو يرغب بالراحة والحياة الرغيدة .

لان كفاتشا نيرادزه واعد بان يسأل رفيقه . ماذا ، اليوم حالا ؟

حسناً مادام الكسي مستعجلاً فسيأتيه الجواب اليوم . السعر الاخير للبيت ؟ ثلاثة آلاف ؟ لا ، هذا البيت لا يمكن بيعه الآن بثلاثة آلاف .. حسناً سيبحث كفاتشانثيرادزه عن شار . سيحرص على بيعه بمبلغ خمسة آلاف . السعر الاخير الفان وخمسمائة ليرة .

شربوا نخب الحطيين . كان الثلاثة في فرح وعيد وسعادة . بكى الكسي من جديد واشتعلت يلينا فرحاً وهي تضحك . ومرة اخرى ابتسم كفاتشانثيرادزه وطار غروراً .

في اليوم التالي احضر الصهر كفاتشي رجلاً تقريباً ليرى البيت . وبدأت المساومة . اطراء وذم البيت . رفع مقامه وحط منه . وبعد ثلاثة أيام ذهبوا الى الكاتب العدل .

وفي المساء نقد الكسي كفاتشانثيرادزه مائتين وخمسين ليرة ذهبية واخذ منه ايصالاً .

— من باب الحيلة ، من يلدي ، فنحن بشر .

« على كفاتشي كفاتشانثيرادزه التنازل الكسي اريمادزه عن ثلث المخزن وصافي الارباح » .

« ربما كانت العقود التجارية بين الرفاق تكتب على هذا المنوال » — هكذا فكر الكسي وهو يضع ايصال كفاتشي كفاتشانثيرادزه في درج الوثائق لديه .

في اليوم التالي انتقل كفاتشي الى شقة اخرى . لم يعد البقاء مع اسرة الكسي مريحاً بالنسبة للصهر — ثلاثة ايام لم يظهر له أثر . لم يعد باستطاعة يلينا العبوس ان تركن على حال . ذهب الكسي ثلاث مرات

الى السوق السفلى ، لكنه لم ير كفاتشا نثيرادزه ولا رفيقه شيكيا .
أخيرا قالوا له .:

— نحن لا نعرف كفاتشي كفاتشانثيرادزه .

— كيف ؟ لمن هذا الدكان ؟ من ؟ شفييا ؟ كان شيكيا عاملا
عنده ؟ الا تدرون اين يقيم شيكيا ؟ سافر الى روسيا ؟ يا إلهي العظيم !
مشى الكسي ذاهلا مصعوقاً وهو يترنح . نخرت دودة الشك قلبه
وتتم بشفته الشاحبتين :

— قينا اللهم شر الفضيحة والتعاسة!..ياإلهي الجبار!ياإلهي العظيم !
صعد ونزل ثلاث مرات الى شارع فارديسوبانسكايا الى حيث
انتقل كفاتشانثيرادزه . قالوا له في كل مكان : « هو لا يعيش هنا ..
لا نعرفه .. لم نسمع به .. » . أحدهم شاهد كفاتشي بالامس في «أرتو»
يلعب الروليت . كان زائراً دائماً لهذا النادي . كان يلعب بأموال كثيرة
ترافقه « راحيل » اليهودية . ألا يعرف الكسي من هي راحيل ؟ كل
البلد يعرفها .

في البداية كانت عشيقة جانويان ثم ماميدوف ، ثم عشيقة تاجر النيب .
لقد ربح كفاتشا نثيرادزه من الجميع : حين كان يظهر في النادي كان
اللاعبون يتقظون جميعاً . لم يكن يجلس على مائدة العشاء مالم يجلس
الى جانبه عشرة رجال وعشر نساء .

منذ التاسعة مساء يلور الكسي عند مدخل « أرتو » . في الساعة
الحادية عشرة وصل كفاتشي الى مدخل النادي بالسيارة . خرج اربعة :
امراتان ورجلان . كان الأربعة متأنقين ، حتى ان الكسي المخزي

تنحى جانباً مفسحاً لهم الطريق ، ثم رفع قبعته ولحق بكفاتشي الساتر
باعتراز وتتم بابتسامة خجولة :

— كفاتشي ، يا بني .. كفاتشي !

التفت كفاتشا نثيرادزه نصف التفاتة وقال قاذفاً كلامه بخشونة :
— لا وقت لدي — ثم اختلط بالناس .

ايضاً في تلك الليلة لم يَمِ الكسي ويليئا . كان الكسي الغاضب يزرع
الغرفة جيئة وذهاباً ويهدر متوعداً كفاتشا نثيرادزه .

— هكذا سأريك ايها السافل الوغد ، النشال ! انتظر ! انتظر انتظر !
في اليوم التالي وجد الكسي شقة كفاتشانثيرادزه . انتظر ساعتين
أمام مدخل البناية ، اخيراً خرج كفاتشي ، قطع الكسي طريقه .
لم يتبادلا السلام .

— اريد ان اقول لك كلمتين ايها السيد . ما معنى هذا ؟

— لا شيء ! — اجاب كفاتشا نثيرادزه بهدوء وبصوت خافت ،
سأفتتح قريباً المخزن الموعود .

— كيف ستفتحه ؟ لقد قلت حتى تاريخه ان الدكان يخلصك انت
وشيكيئا !

— ليس صحيحاً ، لقد قلت اننا وشيكيئا نحاول شراءه .

لا يفهم كفاتشي ما يرمي اليه الكسي . أقرض الكسي
كفاتشا نثيرادزه مبلغ الفين وخمسمائة روبل . يعني أن كفاتشي مدين
للكسي بهذا المبلغ . هذا كل ما في الأمر ! متى سيتاجر كفاتشا نثيرادزه ؟
قريباً .. لا يستطيع التحديد بدقة . لقد سافر شيكيئا الى استامبول بغية
التجارة . اذا كان الكسي لا يستطيع الانتظار ولا يرغب أن يصبح

شريكاً له يمكنه ان يستعيد امواله .. متى ؟ بعد ان يحضر شيكيا الضاعة
وبيعها ، هذه الحكاية !

لماذا لا يعود كفاتشا نثيرادزه إلى اسرة الكسي ؟ سؤال محرج
جداً .. كفاتشي لا يمكنه ان يتحدث عن هذا ، لكن مادام الكسي يريد
ان يعرف السبب بالحاح . حسناً سيقول كفاتشي :
— آنذاك لم ادر ان ا « يلينا » حكاية مع فانو يريميلي .

— ماذا ؟ كانت هذه القصة منذ اثني عشر عاماً . هو عادي بين
تلميذ وتلميذة ! تهديدات وانين من بعيد لبعيد ، نعم ؟ لا يعرف
كفاتشا نثيرادزه ، ليس واثقاً ، من الممكن ان يكون قد حدث اكثر
من ذلك . لا أحد يلدي ! كفى ! اسرة كفاتشي ليست من ذلك الصنف
بحيث تقبل ان تضم اليها أثاثاً مكسوراً أو تمثالاً مهشماً .

— ماذا ؟ تهددون ايضاً ؟ بماذا ؟ كيف ؟ لا تنسوا اني كنت لديكم
في حفلة العشاء ليلة الخامس من نيسان ، وانكم قرأتم المنشور والقيتم
خطاباً مضاداً للثورة ، اثنا عشر شخصاً اكلوا خطياً وجودي معكم .
حصل هذا ؟ ماذا لم تقرأوا المنشور ؟ ولم تلقوا الكلمة ؟ اربعة من ضيوفكم
أكدوا هذا أمام عدد من الشهود ، ألا يكفي عشرة شهود ؟ ألم تقولوا
ذلك هناك في القبو ؟ الا تذكروا جليلاً ؟ هو شاهد ايضاً .

ينصح كفاتشانثيرادزه الكسي بالصمت والآن .. مصلحة الكسي
تتطلب ذلك ، لقد عامل كفاتشا نثيرادزه الكسي باحترام كبير . احترم
اسمه واسرته وشرفه فهو حتى الآن .. باختصار من الافضل أن يلزم
الاثنان الصمت . لا وقت الآن لدى كفاتشا نثيرادزه . لديه عمل عاجل ،
لقد تأخر ، لذا .

.. وداعاً ! هيا يا جليل فلنسافر !

ثم مشى بأبهة الى السيارة التي كان يجلس فيها الى جانب السائق
رجل تيري ابتسم كثيراً ! « الكسي » •

مضى الكسي أشبه بالميت .

لم تأكل يلينا شيئاً ، ولم تخرج من البيت . بكت وراحت تعتف
والدها بلا انقطاع . كل كلمة من كلماتها ، حزنها ، دموعها — فلفل
يلهب قلبه ، خلال شهر انحنى الكسي ، ، شاخ وشاب ، نحف واصبح
صغيراً . وكان من وقت لآخر ، وبعد ان يتذكر بيته الضائع وابنته الخائبة
يشتمل غيظاً ويحري من غرفة لآخرى كالمجنون ويصرخ متوعداً .
كفاتشانتيرادزه بقبضتيه :

انتظر .. انتظر .. سأريك ايها السافل ! انتظر ، انتظر ..

ذات مرة دخل التري الطويل غرفة الكسي :

— مرحباً ايها العم ! أنا جليل — وابتسم بعينه الكبيرتين ولمعت
اسنانه الناصعة كأستان الحصان .

— جليل ، أهذا انت ؟ — فرح الكسي الحزين .

— أجل ، جليل ، ألم تعرفني ؟ « هناك » كان الظلام دامساً .

— اجلس يا جليل ، اجلس ، حدثني كيف تعيش ؟

— تشوخ رازيام .. شكراً ايها العم ، لقد ساعدني أخي . تلقى برقيتك
تشوخ رازيام ، تشوخ ! تقبل هذه الهدية ايها العم . فكّ جليل عقدة
صغيرة ، ثم فرش سجادة رائعة طولها متر :

.. جليل ، لماذا عذبت نفسك ، علام ؟ من أجل اي شيء ؟

— ايها العم ، لقد ادت برقيتك مفعولها . خلدها ايها العزيز والا سأزعل منك .

رجاه جليل مبتسماً ، شكره الكسي من أعماق قلبه ، وقدم له الشاي بالكونياك والفواكه .

— انا اعمل الآن عند كفاتشا نثيرادزه . انه رب عمل جيد . لديه اموال كثيرة . إنه مزوح جداً لقد مزح معكم مزحة بشعة « هناك » وقد خدع اناساً آخرين . ضحكنا كثيراً . لقد وقع نفسه في الحفرة ذات مرة .

— ارتمى ؟ وكيف خرج منها ؟

قهقهه جليل .

— لقد مزح كفاتشا نثيرادزه ايها العم ، لا توجد هناك اية حفرة

ها ! ها ! ها !

قارن الكسي بلا شعور منه بين كفاتشي المصقول وبين هذا التري الخلف اللفظ . انقبض قلبه واضطرب .

وبعد ان انصرف جليل هدد الكسي الهواء بقبضتيه وتمتم :

— انتظر .. انتظر ايها النشال ، النذل ، انتظر .. انتظر !

قريباً سيحين يوم انتقام الكسي وحساب كفاتشا نثيرادزه . مرة اخرى اعتقلوه ورموا به في نفس القبو « الى الافاعي والسحالي والضفادع والكلاب » . وقبل ذلك بعدة ايام اوقفوا صديقه « شيلادزه » الذي اعترف وقال انه في الخامس من نيسان في الساعة الثانية بعد منتصف الليل سلب هو وكفاتشا نثيرادزه رجلاً من الأرمن .

جرى الكسي في غرفته متأثراً وهمهم مغتاضاً :

... ها هم يطاردون الوغد بالعربة ويلحقون به . ايها الرب العظيم
مدهشةً أفعالك وقضاؤك لا يرحم ! والآن ماذا ستقول ايها الوغد ؟
من سيساعدك الآن ؟ لعلك تأمل بمساعدة الكسي اريماذره ؟ ...

سأساعدك جيداً ، سأرميك بحجر !!

استعد الكني للانتقام لكن ..

استدعى المحقق الكسي ويلينا وضيوفهما العشرة للمرة الثانية
والثالثة . بعدئذ لم يعد الكسي يهدد . ها قد مر الشهر الثالث وهو يجزى
الى ضيوفه ويهمس في الغرف المغلقة بخوف وحذر :

— لقد شهدت مرة أخرى ان كفاتشي كفاتشان تيراذره في تلك
الليلة .. باختصار لم اغير شهادتي ..

لا تغلظوا والا .. انتم تعلمون جزاء شهادة الزور ؟ بالاضافة الى
ذلك ستفتح من جديد حكاية « المنشور » . أنا فعلا وزعت المنشور ،
وقرأته وخطبت فيكم ، لكنكم استمعتم الي وتحدثتم معي وحملت المنشور .
وافق الشهود الاثنا عشر على ان هذا القفل الاميركي لم يتمكنوا
من فتحه لا بالكامشة ولا بالمفتاح ، لا بالوعد ولا بالوعيد . امضى الكسي
ليله ونهاره بالاهتمام بهذا . فصل وقاس ، لقن الجميع ووقف بعناد
وصلابة وجراءة ضد التحقيق .

اخيراً حل يوم البت في القضية . كرر الشهود جميعهم كرجل
واحد مقالتهم بعناد وصلابة وعجرفة :

— اعرف جيداً كفاتشي كفاتشان تيراذره . كان معنا في الخامس
من نيسان في حفلة العشاء عند الكسي اريماذره .. جاء في التاسعة مساء
وغادر في السادسة صباحاً ، كان ثملاً تماماً ، لم يخرج من الغرفة ولا مرة .

ماذا فعل ؟ ماذا يفعل الناس عادة في العشاء ؟ تحدث ، غنى ، لطف ،
 رقص ، شرب ، فرح ومرح .. نعم اقسم على ذلك وأؤكد .
 هذا ما اثبتوه . ولم تغيّر شهادة شيلادزه شيئاً . واتضح بجلاء ان
 شيلادزه اراد الانتقام من كفاتشانيرادزه والاستيلاء على امواله .
 عشرون شاهداً أكدوا ان بينهما حساباً جارياً منذ زمن بعيد ، وان
 شيلادزه قبض من كفاتشانيرادزه الف ليرة ليشتري بها بضاعة من
 استامبول . لكنه بذرها ، ولهذا اراد جرّ كفاتشانيرادزه الى صفه وإهلاكه .
 لكن ..

— لكن الحقيقة مازالت سائدة في هذا العالم — صرخ المحامي قائلاً —
 اطبقت « نيمريدا » بقبضتها الحديدية على رقبة شيلادزه الذى يتخبط
 عبثاً محاولاً تبييض اسمه الأسود عن طريق ثلويث كفاتشانيرادزه
 البريء ، فليتحمل الآن المسؤولية وحده ! اما كفاتشني كفاتشانيرادزه .
 فتجب اعادته الى امه الشريفة ، الى خطيئته البريئة ، وإلى اصدقائه
 الكثيرين الذين ينتظرون حكمكم العادل . عينا ربة العدالة معصوبتان ،
 لكنها ليست عمياء . لقد رفعت الميزان . ايها القضاة ! اعيدوا لنا هذا
 الشاب والانسان الشريف غاية الشرف المبدع ، الذكي ، السريع
 اليقظ ، والعضو النافع في مجتمعه ، لا انتم لا تستطيعون ادانته . سترتجف
 اياديكم وتجنّف قلوبكم — هكذا انهى محلي كفاتشني دفاعه .
 فعلاً خفقت قلوب القضاة وارتجفت اياديهم . هلك شيلادزه
 وهبط كفاتشني كفاتشانيرادزه . درجات المحكمة «بابتسامة فرحة
 وبمظهر بريء» . عن يساره مش « خطيئته البريئة » راحيل ، وعن يمينه
 امه ، والمحامي من خلفهم .

شد كفاتشا نثير اذره على أيادي معارفه واقربائه يميناً وشمالاً
قائلاً :

— شكرأ ايها الاصدقاء ، شكرأ ! لقد انقذني الاله من خطر كبير .
شكرأ وألف شكر لكم .

أحاط الجميع به عند الباب وفجأة اصطدم بـ « الكسي » و « يلينا » .
— العم الكسي ! الأنسة يلينا ! .. يا الهي ! .. احتضن الكسي
وقبل يذ « يلينا » . اشكركما من اعماقي . أنا مذنّب بحقكما . لكن آمل
أن تكونا قد صفحتما غني . من يقع في ورطة كهذه يغفر له كل شيء .
ايها العم الكسي ! — ثم انتحى بـ « الكسي » جانباً — أرايتم ماذا فعل
بي هذا النذل شيلادزه ؟ لقد حصده مازرعه . كم بذّر اموالنا وكاد
ان يهلكني . لا تفلقوا ايها العم الكسي . الرب كبير . سأدفع دينكم
قريباً ، قريباً جداً سأدفع .. ثم التفت نحو الآخرين :

— ايها الاصدقاء ! يجب ان أكافئكم عن عشاء الخميس من نيسان
هذا اليوم . ارجو ان تشرفوا في الساعة العاشرة في « أرتو » .
ايها الاب الكسي ، أيتها الأنسة يلينا ! ارجو ان يحصل لي شرف
مشاركتهما مرة اخرى . شكرًا لكم ، أتمنى لكم دوام الصحة . وهكذا
انا بافظاركم جميعاً في العاشرة مساء .

ابتسم البعض عند ذكر عشاء الخميس من نيسان وضحك البعض
الآخر .

اسرع خليل بالسيارة . سافر كفاتشا نثير اذره وخطيبته « البريثة »
راخيل وامه ومحاميه ، وتفرق البقية على مهل .
بعد ان تذكرت يلينا بيتها الضائع عضت اصابعها ندماً . انقطعت

عن الطعام ، جلست حابسة نفسها في الغرفة تبكي وتتحرق . وعاد الكسي يجري في غرفته يهدد بقبضته النحيلتين صهره هامساً :

— انتظر .. انتظر ، أيها النشال الوغد . الرب كبير سيقنص منك ..

انتظر .. انتظر ..

— مهارة رائعة ! — كان جليل يقول هذا حين يتذكر تلك الحكاية .

« قصة خيانة راحيل »

جبلان لا يلتقيان لكن الانسان مع أخيه الانسان ملتق حتماً .
القدر القاسي برهن صحة ذلك المثل فيما يخص كفاتشا نثيرادزه .

في ذلك المساء قطع كفاتشا نثيرادزه الخيط الذي يربطه مع راحيل .
امرأة غريبة تلك « الراحيل » !

كانت تحمل كل ثروتها التي جمعتها خلال عشرين عاماً بغرق الجبين ، ومن خلال عملها الشاق ، وبالنباح والهربر ، حملت بعض تلك الثروة في رقبتها وبعضها في اذنيها ، والبعض الآخر في اصابعها وعلى صدرها .

ذات ليلة ، وبفضل كفاتشي ، افرطت راحيل في الشراب .
ثملت للدرجة ان كفاتشي اوصلها بصعوبة بالغة الى الطابق الثاني .
أوصلها وعاد بعد عشر دقائق الى السيارة حيث كان ينتظره فاليكو كيلبادزه .
— هيا فاليكو ، هيا ، لقد سنجت لك الفرصة . نتحدث راحيل
عنك وحديثك .

كان فاليكو ينتظرونه في الدخول على راحيل ، إلا انه استغرب تنازل كفاتشي عن دوره ..

— أأنت تقول ذلك يا كفاتشي ؟
— نعم اقول ؟ لقد سئمت ، لم أعد ارجب .
صعد فاليكو الى راحيل وعاد كفاتشي الى بيته .
في اليوم التالي وبعد ان صحت راحيل هربت الى كفاتشي :
— كنتري ! .. اقراطي ! .. خواتمي ! .. سرقوها .. سرقوا كل شيء !

— من ؟ من سرقها ؟
راحيل لا تعرف . اما كفاتشي ، وإما الخادمة أو فاليكو ..
— فاليكو ؟ وهل كان فاليكو عندك ليلا ؟
— اجل دخل دقيقة ، على ان راحيل لم تعد تذكر شيئاً ، اذ كانت في غاية السكر .

دخل دقيقة ؟ ها ! ها ! ها ! اذا يعرف كفاتشي كل شيء ،
لقد خرج فاليكو من بيت راحيل في الخامسة صباحاً . منذ زمن طويل
يراقب كفاتشي راحيل . اخيراً وفي صباح هذا اليوم اتضحت له
الحقيقة . يالك من مرائية ! ابنتها العاهر ، الخائنة ! اغفر لراحيل يا
كفاتشي ، لقد كانت ثملة فعلاً . انت للسبب في خيانة راحيل لك . لماذا
الحصت بالامس ؟ لماذا لرغمتي على شرب مثل هذه الكمية من للشمبانيا ؟

لا لقد انتهى كل شيء ! انتهى . لا يستطيع كفاتشي ان يسمع .
يجيب ان تسيل الدماء ! عبثاً تتوسلين يا راحيل ، عبثاً تزرفين الدموع
فوق الخلود التي بدأت تشيخ . لقد اخضعت في ليلة واحدة العشيق الغني
والكثر الذي جمعته خلال عشرين عاماً ! الذنب ذنبك والفعلة فعلتك !

لا تشري مرة اخرى . عليك ان تبدئي الاهتمام من جديد بايام شيخوختك والعمل بوسائل انتاجك القديمة ! لا تبكي ! دموعك لن تغسل العار عن كفاتشي . كترك ؟ سيساعدك كفاتشي ، لا تنتظري من كفاتشي اكثر من ذلك . سيساعدك ويحد ما ضاع ، لكن بشرط واحد : ولا همسة عن القضية ، بحيث لا يُفصح فاليكو صديق كفاتشي ، فاسمه غير ملطخ . لا تهلكي الشاب الفتي ، لا تفضحي اهله الشرفاء !

بدأ كفاتشي وفاليكو غسلهما . لقد اتفقا بشكل ما . هذا « الغد أو بعد الغد » لن ينتهي . سيكون ييسو وسيطاً . سكب في اذني راحيل الداويتين السم الجميل : « راحيل ! سينسى كفاتشي خيانتك .. مازال يحبك أكثر من السابق ، سيعود كفاتشي اليك ، سيعود حتماً ، عليك فقط ان ترحمي صديقه فاليكو . يجب ألا تهلكيه ، سيعوضك كفاتشي ضعفي ما اضعفت .. » .

هذا كفاتشي وعاد الى راحيل . نسي كفاتشي خيانتك يا راحيل ! تصالحا ورتقا خيوط الحب الممزقة . لا يجوز الحديث عن الكثر الضائع بالمقارنة مع حب كفاتشي . وبالمقابل عليك ان تنسي النشال فاليكو وبهارجك المسروقة . كم تساوي اشياؤك ؟ عشرة آلاف ؟ لا تخافي ! وهل يستوجب هذا هلاك فاليكو ؟ هذه الاموال سيعوضها لك كفاتشي خلال شهرين ، سيعوضها للأبد . سيشتري لك شئيه تلك الاشياء أو سيعوض لك ثمنها نقداً اذا تصالحنا ؟ نسينا المجوهرات الضائعة والخيافة ؟ جيد جداً . واي شيء افضل من السلام والحب لروحيكما وجسدكهما يا راحيل وكفاتشي ، عيشا ، عيشا كأخ وأخت وزوجة بهناء ، وكأدم وحواء ، على اية حال لا يبقى سوى الحب واللذة من هذه الحياة المريرة .

لذا احبا بعضكما كفرخي حمام ، احتضنا بعضكما كقردين ، تسافدا
كقطين ..

صمتاً يا كفاتشي صمتاً ، لا تمزق خيوط الحب المهرثة ، لا تفتح
بخشونة قلبك التعب من صندر راحيل الداوي ! حذار .. بهدوء ..
رؤيداً - رؤيداً .. هكذا اسحب هذا الحيط بيسر، أنت مريض هذا
اليوم غداً ، لن تجدك في البيت بعد غد ، لديك عمل لا يحتمل التأجيل.
بعد بعد غد ستسافر الى كوتايبي ، ثم ستداهم بيسو في فراش راحيل .
لا ، كفاتشي ، لا تطلق النار ! لا تطلق النار على بيسو ، لا تقتل راحيل !
اهدأ يا كفاتشي ، اهدأ .. ثب الى رشدك .. انتهى حبكما ، انتهى
للأبد ، تحطم القلبان المتحدان . لقد خرب عش الحمام . لا تبك يا
كفاتشي لا تبك .. لقد خائنك صديقك ، وخائنك عشيتك . آه ايها
الافعى الصغيرة ! يا للأصدقاء المخادعين ، يا للأصدقاء الجاحدين المرائين !
وداعاً راحيل ! وداعاً بيسو ! كان الله في عونكما . طالما انكما تحبان
بعضكما لن يضايقكما كفاتشي ، لن يفرق بينكما .. وداعاً ! وداعاً .

« عن إحدى المعجزات »

حدثت هذه القصة في تلك الليلة ، في تلك الليلة الرهيبة التي لا تنسى
حيث لا يلتقي جيلان ، الا ان كفاتشي انفصل عن راحيل ، وعلى
سلمها اصطدم برجل منسي ..

— قفوا ! ارفعوا أيديكم ، لا تتحركوا والا قضيت عليكم !
اطمننوا ايها المواطنين ، اهدؤوا ! سيقف كفاتشي طبعاً سيقف ..
وسيزفع يديه ولن يتحرك ! كفاتشي لا يحمل سلاحاً ، لذا ارجوكم

وبكل طوعية ان تخفضوا امسدساتكم ، او ان توجهوها جانباً والا ..
مصادفة ، من يدري ، تحدث آلاف الحوادث .

— ومع ذلك من تريدون ؟

— أنت كفاتشي كفاتشا نثيرانزه ؟

— نعم انا . ماذا تبغون مني ؟ أنا لا أعرفكم .

— الا انني اعرفكم .. لكن كأنتكم لا تعرفوني ؟ هيا انظروا

الي وتذكروا !

يا الهي العظيم ! في موسكو ومنذ خمس سنوات مضت لاحقه هذا
الانسان ، كما يلاحق القط الفأر . لكن كفاتشي ناوره بشكل استطاع ان
يرمي هذا القط تحته .

حينذاك ادى بافلوف ويسو « نمره » رائعة : حفظهما كفاتشي
واوقعا القط في المصيدة . ثم هرب « التشيكيس » * ثم حدثت
معركة حامية .. قتلى .. دماء « هذا جزائي ! جزائي ! » . زمجر
كفاتشي وهو يلاحق رجال المخابرات .

لقد تمكن سابقاً من الفرار مائة مرة ، وتأجل مائة مرة . أراد
مضاعفة ثروته ، اربعة حسة اضعاف . يفقد البخيل الأحمق ارنه اثناء
جريه وراء اربنين اثنين . لماذا لم يقنعني يسو . لماذا لم يجرنني بالقوة من
« اللجنة » الحمراء . !

فتشوه ، كتبوا عنه ، وبعد ساعة اقتادوه من جديد . وبدلاً من
المحقق انقض عليه ثلاثة محققين وجلس هناك رجل الامن يشتم بمهابة .

يا الهي ! يبدو انهم يعلمون كل شيء !

* رجل الامن

لقد قرؤوا حياته كرواية جيدة صفحة صفحة ، ورقة فورقة ،
وأخيراً قالوا :

— اعترفوا .

ابسم كفاتشي بدلا من الاجابة وسأل :

— قولوا من فضلكم من اين وكيف جمعتم كل هذه المعلومات ؟

— أليست جميعها حقيقة ؟

— اكثر من الحقيقة . لو انني كتبت مذكراتي لما استطعت كتابتها

بشكل افضل .

شمخ الثلاثة بانوفهم عظمة بعد الاطراء واعتزازاً بعملهم الجديد .

— نعم هكذا ! — قال الرجل الذي لاحق كفاتشي — هكذا نعمل

بشكل جيد .

— ايها الرفاق ، انا لا أبالغ . انا لم ار حتى الآن عملاً رائعاً كهذا ،

ولم اقرأ رواية اجمل .

— يعني ..

— يعني لو بقيت هنا عشرة أعوام وانا أفكر، لن اذكر أكثر مما

ذكر . كل شيء ملون .

عمل مدهش ، مدهش ! تفضلوا، ليتناول كل منكم سيجارة .

لانه تبغ ممتاز .

— اذا ، نبدأ الكتابة ؟

— ابلؤوا .

— كتبوا ثلاثة ايام بليالها . واخيراً قال بعد ان انتهوا :

— لستم بحاجة اليّ بعد الآن . تفضلوا وليأخذ كل منكم سيجارة ،

ثم حولوني الى « ميتيخي - تبغ جيد » ، أليس كذلك ؟ مبيعه أحد الجنرالات
القدامى . رخيص وجيد . يقيم هذا الجنرال في شارع « مامادافيتسكايا »
رقم ٤ . حولوني الى « ميتيخي » ، اوضحت ايامي معلودة .

— وكأنما ستنتهي قضيتكم على هذا النحو ؟

— طبعاً . انا جاهز . لقد مشيت طريق حياتي . ويل لمن لا يعيش ،
أما انا فقد اخذت نصيبي من الحياة ، بل اغتصبت حصص آلاف غيري .
اذا : رجائي الاخير ان تحولوني الى ميتيخي .

— حسناً سنفكر بالأمر .

فكبروا اسبوعاً ثم استدعوه ، وحولوه الى سجن ميتيخي . اقتادوا
كفاتشي الى مكان تطل نوافذه على الحمامات ونهر الكورا . فتحوا
الزناينة واغلقوا الابواب وراءه . توقف مبهوراً . كان بافلوف يجلس
امامه على السرير . تطلع اليه فاغراً فمه :

— بافل ، أنت ؟ هنا ؟

حول بافل وجهه ، ثم استدأر من جديد وتمتم :

— انا .. انت .. انا .. وروى لحيته بدموعه ولم يستطع ان يقول اي

شيء . وقف ومسح عينيه .

— اجلس وقص علي .

أجلسه كفاتشي بصعوبة وجلس بجانبه . بكى بافل من جديد وهمس :

— هذا جزائي ! هذا جزاء الخائن ! انت .. أنا سافل حقيقي !

اليوم أو غداً سينهون حياتي .. انا لا استحق أكثر من ذلك .

صمتا طويلا ، ثم وضع كفاتشي يده على كتف بافل ، وقال

بعنوبة :

- بافل ! اهلاً واحك كيف حدثت القصة .
- ببساطة رجوناك عشر مرات ، مائة مرة ، فلنسافر من هنا ،
فلنبعد عن الخطر .
- صحيح !
- لكنك لم تسمع منا .
- هذا ايضاً صحيح . لم أستجب واخطأت التقدير .
- لم استطع السفر وحدي ، لم تكن لدي نقود .
- ولماذا لم تطلبها مني ؟
- لأنني ما كنت لأسافر بدونك ، ثم اصطدمت مصادفة بالصندوق
المركب في الحائط ، فتحته و .. لم أملك نفسي . جزائي هذا جزائي !
- وبعد ؟
- بعد ذلك .. اخذت الكنز وسافرت الى باطوم . في الطريق اقتفى
أثري أحد الرجال ولاحقني الى باطوم . دخلت الفندق فسار في لثري .
اعطوني احدى الغرف ، فأسرعت وحبأت الكنز في مدفأة حديدية
عالية ، ونرت الرماد فوقه ، ثم انتقلت الى غرفة اخرى مباشرة .
- بعد ساعة واحدة اعتقلوني .
- في تلك اللحظة فقط انتبه كفاتشي لوجود السجين الثاني الراقد
على السرير الثاني ، وهو يصفر اثناء تنفسه .
- لا تخف — هداًه بافلوف — هذا السجين ينام بعمق بحيث لا تلاحظه
المدفعية وهو لا يعرف اللغة الروسية .
- تابع .

— اعطني سيجارة اولاً ، شكراً ، فتشوا الغرفة التي وجدوني فيها ولم ينظروا باتجاه الغرفة الثانية .

— حسناً والكتر ...

— لعله مازال في مكانه . الوقت صيف لا أحد يشعل النار . ولن يفكر احد بحرف الرماد . اعتقلوني . امضيت شهرين في سجن باطوم ، ثم نقلوني الى هنا . اردت ان اخبرك ، لكن كنت خجلاً ، اصف الى ذلك ، بمن سأثق ؟ اي شخص سأقول له سيمضي بنفسه الى باطوم ويستولي على هذا الكتر . جلست اتعذب وانا انتظر شيئاً ما . ماذا كنت انتظر ؟ انا نفسي لا أدري .

— لعلك كنت تنتظر هذا اليوم .

فرج بافل :

— اجل هذا اليوم ، هذا اليوم السعيد . سيطلقون سراحك قريباً ، سيطلقون سراحك .. و ..

— اهبطاً يا بافل ، سيطلقون سراحي ، كما سيطلقون سراحك .

لن نخدع بعضنا . لقد انتهى امرنا .

— بكل تأكيد — وافقه بافلوف .

— يجب ان نخبر سليسترو ويسو بما جرى ، فليستفيدا منه على الأقل .

انتهينا من هذا الأمر ، والآن قل لي من هذا المتمدد بهدوء .

— هذا ؟ أحد الحمقى . اعتقلوه مصادفة . سيفرجون عنه اليوم

أو غداً . انه مريض ..

— ما به ؟

— مصاب بمرض النوم . يستيقظ كي يأكل فقط . قلت لك ان المدفع لا يوقظه .

يجلس كفاتشي بالقرب من النافذة الصغيرة ويتطلع الى المدينة ، تحت الصخرة تترأى صفحة نهر « كورا » . على الضفة الاخرى يسعى التتر ودباغو الجلود . وفي اعماق المسيل ، حيث تجري مياه الحمامات الدافئة ، تغسل النساء الثياب وقد جلسن القرفصاء مشمرت عن سوقهن الى مافوق الركب .

الى اليمين تترأى « ناريكالا » ، وتحت البرج والصخرة تقبع حديقة النبات . الى اليسار والامام وعبر الممرات الجبلية ينقل البعض الفحم والماسوني (اللبن) . على ضفة الكورا ، وعلى شرفة واسعة ، جلست اسرة تترية تشرب الشاي . وفي بيت آخر يرتفع صوت مسجلة بغناء مبجوح . وفي مكان ما ينحن صوت أورغن غير محكم التدوزان . يجلس كفاتشي ويفكر بمصيره . كيف والى اين ساقه قدره المضطهد ! كيف انتهت حياته الرقشاء الآثمة ! أهكذا ببساطة ودونما إنسانية ؟ ! من يحصي عدد المرات التي هرب كفاتشي فيها من الموت المشؤوم ، وكم مرة تخلص من الانشوط المدهونة بالصابون .

كل العالم طارد كفاتشي ، لكنه كان يلبس طاقية الاخفاء على مرتفع ديمير — تيبى . ثقبوه بالحراش ، قطعوه بالخناجر . لكنه نهض واحتبأ في قلعة بروبوا فلوقسكاي . اقاموا المشنقة له ، لكنه طار من هناك . وفي سهول اوكرابينيا تغلب مع تسعة من رفاقه على اربعين رجلا . لقد افلت من مصيدة الحمر اكثر من عشر مرات . والآن .. هنا — في وطنه .. احقاً ؟ احقاً لن يستطيع كفاتشي ان يثقب الجدار السميكة ، وهل سيتمكن مرة اخرى من صهر القفص الحديدي ؟ !

ايها الرب العظيم ، أعن كفاتشي كفاتشا نثيرادزه ! ايها الرب الجبار ، ساعد مرة اخرى عبدك الملحد ! يا رب السماء ، حقق المعجزة مرة أخرى وسيعود عبدك الضائع الى ملكوتك والى الأبد ! سيقم لك ثلاث كنائس وسيمجد اسمك المقدس بصدق وسيخدم كنيسةك الخالدة باخلاص . اسمع يا رب صلاة كفاتشي ، اظهر معجزتك له . امنح عبدك الحرية والحياة والسعادة .

صلى كفاتشي كفاتشا نثيرادزه متكلاً على ربه . يفكر ابن سليسترو وبجذابة وحدة ، يشتعل دماغه . بدت على جبينه عشر نجاعيد ، عيناه تقدرحان شرراً . يختلج قلبه وتغلي نفسه .

اخيراً توقف وسكن . برقت ابتسامة على شفثيه المطبقتين بإحكام ، وانفرج جبينه ، واندفع فجأة نحو السجين النائم ، وبدأ يحركه :

— أي .. ي أيها الزميل ، انهض ، اسمع ، استيقظ ، أقول لك ! قلبه مرات عديدة ، شدة من رجله ، بدأ يفرك أذنيه حتى استطاع بصعوبة ان يرغمه على فتح عينيه .

— استيقظ ، اقول لك ! ما اسمك ؟ ايفان ؟ اكتب يا بافل ، اسم الأب ؟ اسم العائلة ؟ تشيليكاشفيلي ؟ اكتب يا بافل ! كم عمرك ؟ من اين انت ؟ لا تخطيء يا بافل ! ما سبب اعتقالك ؟ حسناً ، كفى . والآن نم من جديد — ثم التفت نحو بافل — أسمع يا بافل ، سأخرج اليوم أو غداً ! .. اقول لك سأخرج ! تريد ان اشرح لك ؟ طبعاً سأشرح . عليك بمساعدتي ايضاً . قل هل يعرف حراس السجن هذا السجين ؟ — لا أحد يعرفه . لقد احضروه أول أمس ، وهو حتى الآن لم يخرج قط الى القناء .

- جيد جداً . والآن قل لي في اي وقت يسرحون السجناء ؟
- مساء بعد الساعة التاسعة مساء .
- جيد جداً والآن علمني كيف استطيع ان احصل على البروم ؟
- لدي بروم ، لقد اعطاه الطبيب لي .
- حقاً ؟ إذاً لقد قبل الله صلاتي . الساعة الآن الثالثة اي . . ي ،
- انهض يا ايفان أنت لست وحيداً في هذا السجن ! بافل استلق على سريرك ولا تسمح لهذا الاحمق بالاقتراب منك . مهما رجلك لا تدعه يقرب هذا السرير . ايفان، انهض اقول لك ! ثمة سريران ونحن ثلاثة . منذ يومين لم يغمض لي جفن . سأنام . اما انت فم مساء ، هيا انهض لا تتكاسل . بافل ايقظني في تمام الساعة السابعة .
- استلقي كفاتشي على سرير ايفان . أما ايفان فدا ان فتح عينيه وفركهما حتى ترنح . كالذب ومشى في ارجاء الزنزانة .
- في الساعة السابعة مساء ايقظ بافل كفاتشي :
- ايها الزميل ، ألسنت مريضاً ؟ سأل كفاتشي ايفان .
- اجل تؤلمي معلمي .
- المعدة ؟ انت انسان طيب . لماذا لم تقل لكفاتشي حتى الآن ؟
- كفاتشي طيب . طيب شهير .
- لقد اشفى الآلاف من امثالك . ها هو الدواء . اعطه هذا البروم ! هيا اشربه ونم ؟ بعد بخمس دقائق شجر ايفان بلذة . كان كفاتشي يجري في الزنزانة بعصبية . التاسعة . العاشرة . الحادية عشرة . اطلقوا سراح كل المساجين الذين يجب ان يخلى سبيلهم . وهدأت تدريجياً الضجة واللغط في السجن .

لا ينام كفاتشي ولا يسمح للمسكين ايفان بالنوم . يستلقي ايفان على السرير وينظر في السقف . لا يعطي « دواء المعدة » ! ! تشيليك شفيلى « الا في المساء ، حينذاك ينام . ينهض عند الفجر ويوقظ ايفان . كان ايفان يستلقي احياناً على الأرض ، لكن كفاتشي . في ذلك الوقت بالذات يريد ان يتمشى في الغرفة . عندما يتمدد ايفان على السرير يرغب عندئذ كفاتشي بالنوم على السرير . لا يخرج كفاتشي للترهه ولا يسمح لايفان بالخروج .

ينتظر كفاتشي شيئاً ما ، وتتحرق نفسه وتتأذى .

مضى اليوم الرابع طويلاً مملاً . قاس كفاتشي الزنزانة للمرة الألف ، واستند ايفان المنهك القوى الى الجدار دون ان يتجرأ على الاستلقاء على السرير الذي اغتصبه كفاتشي . حين بدأ الغضب اعطى كفاتشي بقايا البروم لايفان وقال آمراً :
- اشرب ونم .

شربها ايفان واستلقى . نام تشيليك شفيلى كالمقبرة التترية التي تراءى على الضفة الاخرى للنهر ، تحت الجبل الصغير .

الساعة الثامنة . يجري كفاتشي في الزنزانة كضبع لم تألف جو الغرف بعد . الثامنة والنصف .. التاسعة .. التاسعة والنصف . يقف كفاتشي في البهو بجانب النافذة المطلة على الفناء . يصبح موظف السجن . نادى اسم العائلة ، لأربعة مساجين .. الخامس .. السادس .. السابع .. وفجأة سمع صوت عبر الفناء :

- ايفان تشيليك شفيلى !

— ايفان تشيليكا شفلي ! ايفان تشيليكا شفيلي — ردد بقية الحراس

الاسم

— هنا ، هنا ، صرخ كفاتشي وجرى نحو الزرانة — وداعاً يا بافل !

— وداعاً والى الابد ! همس بافلوف وهو يحتضن كفاتشي .

ونام ايفان تشيليكا شفيلي من جديد كالحجر ، لف كفاتشي وجنتيه وذقنه وشفتيه ، بمندبل . « كفاتشي تؤله اسنانه » . وأسدل قبعته الموبرة حتى عينيه وحمل صرة تحت ابطه وخرج الى البهو .

اجتاز البهو مسرعاً ، هبط للدرج وخرج الى الفناء ، استرخى وانكمش ونكس رأسه فوق صدره واجتاز الفناء ، غرفة صغيرة أمام الباب .

— اسم عائلتكم واسمكم ؟ سأل موظف السجن وهو يقلب دفترأ سميكا .

— انا ايفان تشيليكا شفيلي ايها العزيز — قال كفاتشي بلهجة فلاحية .

— كم عمرك ؟

— لعله ثلاثون .

— ثلاثون ؟ — تساءل موظف السجن وهدق في كفاتشي .

— لعله .. أننى لي ان اعرف ؟ يمكن ان يكون اكثر أو أقل .

— ما بكم ؟ ما لكم ملثمون هكذا ؟

— اسناني تؤلني ايها العزيز — صأى كفاتشي

— متى نقلوكم الى ميتيخي ؟

— منذ ما يقارب الاسبوع .

لماذا علق هذا الانسان على كفاتشي ؟ لماذا تقدح عيناه شرراً ؟
 ماذا يريد من كفاتشي ؟
 — لماذا أوقفوكم ؟
 — تشاجرنا وكأنني ..

لم تعد حارس السجن يستمع . يضع في يده ورقة ويقول له :
 — دع هذه الورقة معك ، والا قد يعتقلونك من جديد . والآن هيا
 اذهب ولا تدعني اراك مرة اخرى ، والا ..
 — لن اعود مرة اخرى ايها العزيز !

فتح الباب محدثاً صريراً . وهذا هو الباب الثاني والثالث .. دار
 رأس كفاتشي فرحاً وكاد قلبه ان يقفز من صدره . تفحصه حراس
 الابواب الاخرى وكأنهم يعرفون كل شيء .
 ها هو يمشي بجانب احد الجنود ثم اجتاز شارعاً ضيقاً وسار منحدرأ .
 كان ثمة حراس ايضاً عند اطراف السجن . كاد كفاتشي ان
 يجري . ابتعد عن السجن . اجتاز ساحة صغيرة ثم جرى عبر جسر
 « افلابارسكي » ثم قفز الى عربة مكشوفة .

— هيا الى سيوكي !
 بدت العربة وكأنها تزحف . اجتازت سيوكي ، انتشيسخاتي .
 المصرف ، ثم سارت على ضفة الكورا وضعدت الى ثكنة الهندسة
 العسكرية ، ثم انعطفت نحو اليسار ثم دخلت آخر شارع زوستافيلي
 المشجر .

مكان لعين ! مصيدة حقيقية ! يجب على كفاتشي ان يمر على « فيرا »

ثمة صعوبة في اجتياز ناصية شارع « موسكو » هنا بين الخطوة والآخرى
يقف عميل مخابراتي مصيدة ، مصيدة حقيقية . !

— ايها الزميل ، اسرع !

انكمش كفاتشي وصغر قامته ودس رقبته بين كتفيه.. وارخى
قبعته الفروية حتى انفه ولف المنديل حتى شفثيه . اختبأ كفاتشي وتصبب
عرقاً بارداً .

— اسرع ! .. أسرع ! ! والآن انعطف نحو اليمين .. قف !
والآن سيتابع كفاتشي طريقه سيراً على الاقدام . سيدخل ويخرج
كي يضيق أثره فمن يعلم .. فاليكو اخي فاليكو .. الحمد لله اذ وجدتكم
في البيت. هيا اسرع تحرك ! ابحث عن يسو وجليل . جدهما حالا .
يسو يتخفى ؟ اتعرف شقته اقرية ؟ جيد جداً . هيا استدعه ، أسرع ! —
وبعد نصف ساعة — يسو يا صديقي المخلص .. كيف حالك ؟ وكيف
حال جليل ؟ كم لديكما من النقود ؟

مرحى لك يا يسو ! يا لك من صديق حقيقي ! اذا عملت كي
تحرر كفاتشي من السجن ، اردت ان تحتطفه ؟ كان كل شيء جاهزاً ؟
لقد خرج كفاتشي دون مساعدتك ، لكن مع ذلك حياته كلها لك
وللأبد ! بيع املك كفاتشي كلها وحوّلها الى نقود . نعم ! انت جاهز
للسفر نعم ! غداً ؟ تعال يسو تعال يجب أن يحتضنك اخوك الاكبر
كفاتشي مرة اخرى . والآن اجر وافرح « جليلا » ايضاً .

... إذا ، غداً في الفجر تستقل انت وجليل سيارة وتسافران في
القطار حتى « متسخيتا » . البسا على الطريقة الفلاحية — العمالية ، ارسلنا
ذقنيكما ولا تغسلا وجهيكما ، بل على العكس ، لطخا نفسيكما جيداً .

اتركا الحقائق الاوروبية ، واحملا ثيابكما البالية وجرائكما البسيطة
في سلة وصرة بسيطة . حسناً الى الصباح ! يسو فلياركك الله الآن
ودائماً والى ابد الابدین جراء اخلاصك !

« كيف غادروا الوطن الجاحد »

دخل كفاتشي ويسو وجليل احد فنادق باطوم بعد ان ارتدوا
ملابس عمالية - فلاحية .

— أتوجد غرفة ؟

— توجد وكيف لا ! ايها الاخ .

كانت الغرفة رقم ٧/ مشغولة — لذا نزلوا في الغرفة رقم ٦/ .
تجول يسو مستطلعاً الغرفة السابعة وتزلاءها .

توشوش جليل نوري مع المهريين في « البازار » وانتظر كفاتشي
الرد النهائي ، وكالوحش دار وجرى وتصبب عرقاً .

— آغا ، كل شي جاهز . نستطيع السفر الليلة .

هندما حان وقت الغداء قال يسو :

— حان الوقت يا كفاتشي ، لقد ذهب النزير لتناول الغداء .

وقف جليل بجانب الدرج ، فتح يسو باب الغرفة رقم ٧ بيسر .
اندفع كفاتشي نحو المدفأة ، أزاح الرماد وهنف صائحاً :

— وجدته ، يسو ، وجدته !

بعد خمس دقائق خرج الجميع من الفندق . وبعد ساعة ارتدوا :
ثياباً اجارية (١) . وخرجوا من باطوم .

(١). اجاريون : أحد شعوب جمهورية روسيا السوفيتية .

مشى كفاتشي في المقدمة كرجل اجاري حقيقي : هادىء، خفيف
الحركة والامع العينين .
حمل الأربعة عصياً على اكتافهم ، وفي طرف كل عصا علقوا
صرة صغيرة .

اجتازوا اولاً « فورت ستياوف » ، ثم الاحراج المجاورة وعبروا
بعدئذ جسر « تشورونجي » وانعطفوا نحو اليسار . مشوا فترة طويلة
متسللين بهدوء الى ان وصلوا الى قرية « سيمونيتي » . دخلوا خلصة بيتاً
صغيراً وجلسوا .

اختفى الرجل الاجاري . كانت الشمس على وشك الغروب ،
وحيث عمّ الظلام دخل الاجاري البيت خلصة وقال :
— هيا ، ايها السادة :

تحتّ الرجل الاجاري في سيره متمهلاً ، ومشى خلفه كفاتشي
وييسو وجليل . كانت حقول اللرة تبدو كالأحراج ، احراج ضمن
الغابة الغافية . تحولت الطريق في البداية الى ممر صغير ، ثم اختفى هذا
الممر نهائياً . كان خط السير يزداد ارتفاعاً والقمر لا يرى في الغابة
النائمة . مشوا في الظلام وهم يتعثرون مقتفين آثار بعضهم البعض .

اوشك الليل ان يتصف . اجتازوا الجبل ودخلوا اطراف الغابة .

— انتظروني هنا ، ايها الاخوة — قال الاجاري واختفى بين
الأحراج . التزموا الصمت ، وحين الضرورة هامسوا . بعد ساعة عاد
الاجاري من جديد مصطحباً رجلاً آخر .

تابعوا سيرهم . مشوا من جديد يتعثرون ويتصبّبون عرقاً . استراحوا
قليلاً ، ثم بدؤوا بصعود الجبل المغطى بالأحراج . مشوا بحذر ودونما

ضجعة . كثيراً ما كان الأجاري الثاني يتتبع عن الطريق مستطلعاً المنطقة .
يتنصت ثم يعود ويضعف الحذر . وفي أحد الأمكنة انبطح الجميع ،
زحفوا ساعة متحركين ببطء . أخيراً ، حينما دخلوا أحد الحقول ،
التفت الأجاري وقال :

-- ايها الاخوة ، نحن الآن في الأراضي التركية . لقد انتهت
الأراضي الروسية .

ضج الماربون فرحاً ، هناؤا بعضهم بعضاً ، لم يعودوا يخافون ، لذا
مشوا بحرية . تراءى ضوء في مكان قريب ، ساروا باتجاهه . ودخلوا
مقهى صغيراً ، اختفى الأجاري في العتمة ، ثم عاد عند بزوغ الفجر
مصطحباً رجلين من اللاز (١) . سلموا الرجال الماربين الى اللازيين ،
قبضوا الاموال ، تمنوا للجميع حظاً سعيداً ، ثم عادوا حاملين على ظهورهم
المواد المهربة .

سرعان ما دخل المقهى أناس جدد . كان احدهم خفيراً والبقية
عساكر (٢) . نظر الخفير الى رفاق الطريق وتحدث مع جليل بالتركية .
من هم ؟ من اين قدموا ؟ ألدبهم جوازات سفر وموافقة على عبور
تركيا ؟ ردد الخفير كثيراً كلمة « بلشفيك »

— غيل غيداخ — امشوا ورائي .

خرجوا جميعاً . انبلج الصباح . جلسوا في بيت أحد الرجال
ساعتين ، ووقف بجانبهم جندي حاملاً سلاحه . أخيراً استدعوا الثلاثة .

— بارلي فوفرانسي ؟ — سأل كفاتشي الضابط الطويل .

(١) اللازيونه : أحد الشعوب التي تقطن جورجيا وقدماً من تركيا .

(٢) وردت في النص بلفظ « عسكر » .

— نون ، نون يلمرام — لا لا أعرف ! — اجابه الضابط ، وبدأ حديثاً طويلاً بالتركية مع جليل ، ثم قال الضابط شيئاً للحارس . فتشر الحارس الثلاثة من قمة الرأس الى اخمص القدم ، ثم وضع الاشياء التي وجدها — الكنز ومحفظات النقود على الطاولة ، ووقف جانباً يرف بعينه .

— ابتسم الضابط . عد النقود وأكل المجوهرات بعينه : ترجم جليل :
— يقول (علي بك) ان الامراء اغنياء جداً .
كان كفاتشي يعلم جيداً ان البيك يمكنه ان يأخذ ما يحلو له دونما تأكيد أو تأييد ، لذا قرر كفاتشي الا يقاوم :
— جليل ، قل لـ « علي بك » ان يختار ويأخذ ما يعجبه .
في البداية اختار علي بك قطعة واحدة .
— علي بك يشكرك .
— قل لعلي بك ان شكره اغلى من الهدية
انتهى علي بك قطعة ثانية وثالثة .
— علي بك يتساءل : ألسم بلاشفة ؟
— قل لعلي بك ، يا جليل ، ان البلاشفة قدروا رؤوسنا بمائة الف ليرة .

نقل جليل كلام كفاتشي . جذب علي بك نحوه قطعتين كبيرتين من اللؤلؤ .

— يقول علي بك اننا ضيوفه هذا اليوم .
— جليل ، قل لعلي بك ان الشكر لله وحده .
— يقول علي بك اقرضوه بعض المال .

— قل له « نكرم » يا جليل — قال كفاتشي مغتاضاً بصوت اجش
لكننا مسافرون نحن الثلاثة الى استانبول ، وقد لا تكفيننا نقودنا نفقات
طريق . لذا قل لعلي بك ان يعرفنا على شخص يمكنه ان يقرضنا نقوداً .

ترجم جليل كلام كفاتشي . ضحك علي بك ورد قائلاً :

— يقول علي بك انه يعرف رجلاً كهذا .

— من هو ذلك الانسان يا جليل ؟

— علي بك .

ضحك كفاتشي ضحك المشنوق .

— جليل ، قل لعلي بك انني سأعيد اليه نقوده بفائدة مئوية . واذا
سافر علي بك اليها في استانبول واصبح صديقنا سأقدم اليه مهراً عربياً
وسيفاً دمشقياً لا مثيل لهما في تركيا كلها .

— قال علي بك اذا كنتم لا ترغبون بصادقي عودوا . من جديد
الى موسكو .

— عبثاً تأثر علي بك من كلماتي ، يا جليل لقد قلت في البداية أن
صداقة الشياطين افضل من صداقة اهل موسكو . رؤوسنا واموالنا
ومجوهراتنا هذه نقدمها هدية لعلي بك

ابتسم علي بك من جديد ، ثم عد الفيليرة وقدمها لكفاتشي قائلاً :
— بوي أور ، افندي ! — تفضلوا ايها السادة . اقرضكم . لا تقولوا

ان هذا قليل .

في ذلك اليوم كان كفاتشي ضيفاً على علي بك . لقد التصقا كأخوين
حقيقيين لم يريا بعضهما منذ عشر سنوات . لطف كل منهما الآخر

وانستماله اليه . قصا الحوادث التي جرت لكل منهما وتبادلا العناوين ،
ثم اتفقا على ان يصبحا أخوين الى الأبد وان يرأسلا .

في اليوم التالي اعطى علي بك كفاتشي وثيقة تحول دون التعرض
لكفاتشي . جهّز لهم احصنة وارسل معهم عسكرياً وسلمهم هذا الى
عسكري آخر ثم سلمهم هذا الآخر الى عسكري ثالث .. والخامس
الى السادس .

بعد عدة أيام وصل كفاتشي الى « طرابزون » ، استقبل الوالي
المحلي كفاتشي مثلما استقبله علي بك بودٍ واحترام . لكنه لم يقرضه
مالاً كما لم يستلف منه نقوداً . لكنه اجبره على الانتظار شهراً كاملاً
ثم اعطاه اذنًا بالسفر .

— الحمد لله — قال كفاتشي بعد ان صعد الى الباخرة — بقي لدينا
القليل من المال .. لكن ...

— لكننا احتفظنا برؤوسنا — قاطعه بيسو .

— شكراً لله (١) — قال جليل معزياً الاثنين — استامبول افضل من
« سابورتالو » .

« تحديد الماضي »

اقتربت السفينة من البوسفور . كان الثلاثة يقفون على سطحها
بجانب كفاتشي . كما كان هناك احد الامريكيين اسمه « واطسون »
ربيع منه كفاتشي في تلك الليلة ثلاثة آلاف دولار في لعبة البريدج .
— لقد طفت هذه المنطقة سيراً على الأقدام ، حتى انني أعرف ان
تلك القلعة التي ترى من الجهة اليسرى تدعى باللغة الجورجية كاريتشي (١)

(١) وردت في النص بنفس اللفظ العربي .

(١) البوابة .

— كاريتشي ٢ صرخ كفاتشي مستغرباً — فعلا تسمية جورجية لكن
من اين ؟ وكيف ؟

— ايام البيزنطيين شيد الجورجيون ديراً هناك واسموه كاريتشي ،
ثم حولوه الى قلعة .

تلوّت السفينة في خايج البوسفور . كان واطسون يشير باستمرار
باصبعه نحو اليسار واليمين ولا يفتأ يتحدث :

— هذا قنديل رومل .. وهذا هو قنديل « اندولا » . هاك ناحية
اليمين ثراءى ، « بيوك — ديري » والى اليسار « اندال غيسار » .

طاف كفاتشي شتى انحاء العالم ، لذا لم ينتظر ان يرى شيئاً مدهشاً
في تركيا . لكن البوسفور لفت نظره ونظر بيسو .

— كم هو جميل ! يا للجمال ! يا للمنظر البديع ! — كان كفاتشي
وييسو يكرران مديحهما كل دقيقة .

— هوذا « رومل غيسار » — تابع الأميركي كلامه — اورتاكيو ..
وانيكيو ..

اقربت السفينة من القسطنطينية .

ها هو قصر تشورغان وذاك قصر دولما بوخشي .. السفارة
الامانية .. مسجد محمودية .. توبخانه .. غالاتا !!

رست السفينة في الميناء ، نزل الجميع في منطقة « بير » واقاموا
في افضل فندق اوروبي .

بدأ كفاتشي حياة جديدة ، لكنها شبيهة بالحياة السابقة قبل ان يأتي
شباط او « العاهر كيرنسكي واكتوبر او جهنم الحمراء » .

ثلاث غرف في فندق فخم ، عشر بذلات ، طعام فاخر ، نزاهات ،

مقاهي ، هو خشن ونساء . نساء ، نساء يهوديات يونانيات ، ارمينيات ،
تركيات ، عربيات ، سوريات . باختصار جميلات من شتى اقطار
الشرق . يعرفه كفاتشي . الغربيات منذ زمن بعيد ، لقد تذوقهن منذ
الآن . يعرف لونهن ، طريقه حبهن ومئات الاساليب في معاشرتهم .
وهو الآن مهجّب بالنساء الشرقيات ، واسعات العيون سمراوات ،
خاملات ، وحارات ناعمات . كقطط أنقرة ، لدنات كأفانج جنوبية ،
ثارة حارات كأحصنة عربية وثارة أخرى مثاقلات كنمور شعبة .
عيونهن بحر مظلم تتلألأ فيها نجمة الصبح . جلودهن اشبه بعاج الفيل
القديم وشفاههن كرمانات متشققة . وكفاتشي نفسه لم يعد يشبه المهر
السابق . لقد غدا مهرأ راشداً : هادئاً ، مجرباً ، مبحكاً .

وهو الآن يفهم نصائح ايدلسون التي تلقاها في منتزه بولونسكي منذ
عشرة اعوام خلت . ماذا قال آنذاك ايدلسون المجرب ؟

المرأة الشابة التي لم تعتمد بالحب ولم تروض بعد كالنبته بلا جذور .
اما المرأة الراشدة فشجرة سنديان ضاربة الجذور في الأرض : الشابة
تزرع والراشدة تحصد ، وهي تتعلم وتعلم ، الاولى تبسّم بحياء
أو تنفجر ضحكاً أو تزرع الدموع بنعومة ، أما الثانية فتجهد وتعوي
وتهر وتصرخ . غزل الشابة كالنسيم ، اما غزال الراشدة كالزوبعة .
غرام الشابة كاللهب ، اما غرام المرأة الراشدة كالخمر المتقد . الفتاة
اللعب تفرح برائحة الورد والبنفسج ، اما المرأة المتخمرة فتضخخ
بالملمحات والجبن . .

اصبح كفاتشي يفهم الآن ذوق إسحق . يفهم ويجري في كل
مكان : يبحث ويتنظر . لكن ملعون من اخترع النقود - ليرات ،

دولارات تجري كالماء . لقد سلخ كفاتشي عدة مرات جلده واطسئون
الذاعم واثنين آخرين من المبشرين الأوروبيين . لكن كفاتشي غير
محظوظ ! إما ان المبشرين الاوروبيين قد اختفوا من استامبول أو أنهم
اصبحوا خبيثاء مثل كفاتشي !! .

لم يترك مجالا لكفاتشي للاقترب منهم ، اما الأرمن واليونانيون
واليهود المحليون فهم انفسهم يتصيدون ما في جيب كفاتشي الصغيرة ،
يا الهي اي شعب هؤلاء اليونانيون والأرمن واليهود ! كانوا وكأنهم
يحملون كفاتشي على رؤوسهم . لم يستطع كفاتشي اقامة مصيدة واحدة
وحوله نصبت خمسة افخاخ . قبل ان يتمكن من حياكة شبكته وقع
في حبال شباكه خمس . فبح كفاتشي بالنسبة اليهم... كتاب مفتوح بقرؤونه
بسرعة فائقة . اساليبة - قضبان يابسة يكسرونها باضبعين اثنتين .
سحره - قماش « تول » مهترى يتشقق من ثلثاء نفسه .

لا ، هنا يستحيل « تدبير » عمل ما ! لا يمكن العيش في بلد لعين
كهذا ! ! هيا الى باريس ولندن وروما من جليد ... لكن لا يسمحون
لكفاتشي بالدخول الى أوروبا ، لا يعطونه تأشيرة دخول لعلهم يعرفون
من هو كفاتشا نثيرادزه ، أو لعل اعداءه يلحقون به الضرر هناك .
أخيراً استسلم كفاتشي لقلده .

لكن الحياة بلا نقود ، وفي استامبول بالذات ، امر مستحيل .
استامبول - عاصمة المغترين ، تسنم فيها اللغة الرومية اكثر من
التركية . المقاهي والمطاعم الفخمة ونواصي اللهو الليلية تفض بالاميرات
الروسيات وبالناس الذين كانوا بشرأ . اعتاد كفاتشي على ارتياد تلك
الاماكن وعلى معاشره هؤلاء الذين كانوا بشرأ . ينتقل من مطعم لآخر ،

ومن مقهى الى مقهى ، يقوم بعمل ما ، يبحث عن أحد ما ، يحوك شيئاً ما . كان احياناً يجد المطلوب ويدبر اعمالاً صغيرة ، يتعرف على امرأة مميزة يستهويها فيقدمها الى واطسون ، أو الى سواه من الشارين . ومن مائدة واطسون ورفاقه الى مائدة شارين آخرين . وعن مائدة واطسون ورفاقه كانت تتساقط بعض الفضلات المرة .

عرفت واطسون كفاتشي باحد الاطباء ، وأحال هذا الطبيب كفاتشي الى امرأة عجوز . حدثت العجوز فيه : تجربته ثم قالت له ذات مرة :

— ثمة نساء كثيرات في هذا البلد لا اولاد لهن . عندهن الزواج طبعاً ، لكن .. هل فهمتم ؟

فهم كفاتشي وكيف لا يفهم ! على كفاتشي ان يعين السيدات اللواتي لا ابناء لهن ، جيد جداً . الثمن ؟

.. — يستفق . لكن لا يحق لك أبداً ان تنزع القناع عن الزبونة .

— حسناً ، أقبل بمثل هذا الشرط . قبل به وطبقه بشرف وعاش يوماً بعد يوم .

نظر كفاتشي ذات مرة الى أحد البيوت الصغيرة وسأل :

— اهنا يعيش مستر « ديربلي » ؟

— لا ، لا يعيش هنا مستر ديربلي .

يا الهي العظيم ! من صاحبة هذا الصوب ؟ من تلك التي تقف على هذه الشرفة الصغيرة ؟ من صاحبة هذا الشعر الذهبي الشمين ؟ لمن هاتان العينان الزرقاوان اللامعتان ؟ وتلك الشفتان الشاحبتان والمرتجفتان بعض الشيء ؟

نظر كل منهما الى الآخر برهة وجيزة ، ثم تهادت الابتسامة على شفاههما .

— ريفيكا اهذه انت ؟

— انا ، أنا ، ألم تعرفني .

— يا عزيزتي ريفيكا ! ربيبي !

اجتاز كفاتشي الفناء بعدة قفزات ، وضم ريفيكا الى صدره . اجابت ريفيكا المتأججة العواطف على قبلات كفاتشي الحارة بقبلات خجلة . نظرت حائرة الى الوراء . كانت امرأة اخرى تقف بالباب الصغير .

— ايها الرب العظيم ! يلينا ! انت ايضا هنا !

احتضن يلينا وتمتم :

— الاثنان معاً . . الاثنان في يوم واحد وفي شقة واحدة . . سعادة مزدوجة .

— ادخل الى البيت ! — دعتة يلينا .

دخل الثلاثة الى الغرفة ، غرفة واطئة مظلمة وصغيرة . كان مسكن

ربيبي ويلينا ينضج فقراً ورطوبة وبؤساً !

نظر كفاتشي الى الاثنتين . كانتا تلبسان ثوبين من « الشيت » الرخيص ، وكان الثوبان ، الى جانب ذلك ، مرقعين مرفوين ، في اصابعهما آثار الأبرة وعيونهما منهذلة من قلة النوم ، وسالت دموع ريفيكا انهاراً .

— ربيبي لماذا تبكين ؟ ماذا حدث لك ؟ ربيبي ، حدثني صديقك ابولون عن شجونك . احكي لصديقك القديم عن أسباب دموعك .

لا تُعجلي من الرجل . لقد نسي ججودك وضعفك ، حين لم تصمدي
أمام بافلوف حيث قلت له ما كان يجب الا تقولينه . لقد فرجت همه
وغسلت السم . لقد نال بافلوف جزاءه .

— منذ شهر مضى أعدموه رمياً بالرصاص في تفليس .

لم يفرح هذا ريفيكا ، وشحبت يائنا قليلا . « آه حقاً . — تذكر
كفاتشي — لقد احب بافلوف و« يلينا » بعضهما يوماً ما منذ اربع سنوات
خلت ، لقد اصاب هذا السهم يلينا . وكأنهما لم يفترقا . كان بافلوف
رجلاً جميلاً ، يا لدمسكين ! »

تحدثت يلينا وريفيكا لكفاتشي عن نفسيهما .

منذ خمس سنوات خلّت هاجر من بطرسبورغ اسحق وريفيكا
ويلينا وبعض معارفهم . توقفوا في محطة صغيرة بالقرب من موسكو ،
سُرِقَ الثلاثة ولم تبق منغمم كسرة من الخبز ، وصلوا الى اوديسا فارغي
الأيدي . امضوا خمسة اشهر في الطريق . كانوا يقتاتون بما يحصلون
عليه من التسول والاعمال الوضيعة . التقوا في كييف « فيتغيشتين »
يتذكر كفاتشي ذلك الشاب الصغير الذي لم يكن يقارن في باريس
بأبولون السعيد .

— اذكر ، اذكره جيداً .

— لقد ساعد « فيتغيشتين » « يابنا » لكنه مرعان ما قتل .

— من قتله ؟

— من يدري ! حينذاك كان كل " يقتل الآخر " ، بتلورا ،
سكوروبادسكي ، ماخنو ، الالمان الحمر ، البيض ...

ثم وصلوا الى اوديسا . كان أقرباء اسحق وريفيكا عراة فقراء ،
وعندما وصل الحمر الى المدينة هرب الثلاثة الى القسطنطينية . كان
اسحق رجلا ماهراً .

— ما معنى كان ؟ اين اسحق ؟ — عندئذ فقط سأل كفاتشي عنه .

— مات المسكين — قالت ريفيكا .

وبكت ريفيكا من جديد وتابعت يلينا :

— كان اسحق رجلا ماهراً . افتتح مطعماً ، وكان دخله جيداً

عملنا انا وريبي في نفس المطعم . كان الراتب يكفيننا ، وهكذا عشنا ،
منذ ستة اشهر مضت مرض اسحق ومات !

— مسكين ! — صاح كفاتشي . .

كان المطعم مديناً فبيع ، وبقينا فارغين الأيدي . نحن الآن نخط

التياب : وهكذا نعيش ، لكن أية حياة هذه !

ثم حدثهما كفاتشي عما حصل له .

— لقد فقدت في الحرب تشخويشيفلي ، أفلابريان ، تشيكنيجيلادزه ،

تشيونثيرادزه وبيكاريف .

— مسكين ! مسكين ! . . — كانوا يقولون بين لحظة وأخرى .

— لقد نال بيكاريف جزاءه . صبحت ربيبي — لقد اعتقلني

— حقاً كيف هي تانيا ؟ — تذكرت يلينا .

— ماتت من الجوع — قال كفاتشي بهلوه .

اهتاجت يلينا :

— وائت ، الم تساعدنا بشيء ؟
— لم تجربني بشيء . اردت مساعدتها . ارسلت لها بعض الاشياء
فلم تقبلها .

— وغانوس وزوجته ؟
— قتلوا غانوس وزوجته الآن تغسل الثياب .

تساءلوا وتذكروا اشياء واناساً كثيرين ، مات بعضهم جوعاً وغماً
وبعض آخر قتل من قبل آخرين . وبعضهم في أوروبا واستامبول وروسيا
يغسلون الثياب أو يمسحون الاحذية ، أو يخدمون في المقاهي والمطاعم
أو يقومون باعمال وضيعة أو شاقة ، منهكين انفسهم ذائبن كالشمع ثم
يموتون الواحد تلو الآخر .

دعا كفاتشي الاثنتين الى المطعم ، لكنهما شكرتاه فقط ، اذ لم
يكن لديهما ثياب لائقة للخروج . أخيراً اتفقوا على النحو التالي :
دعاهما كفاتشي الى مطعم شعبي يتناسب مع ثيابهما الفقيرة ، وافترقوا
مساء بصعوبة .

ماذا يفعل كفاتشي ؟ كيف سيتصرف ؟ كما في الماضي أم سيعتني
بهن كعشيقات هجرهن منذ سبع سنوات ؟ هل كفاتشي مجبر على حمل
اعباء الاثنتين ؟ طبعاً غير ملزم .

في الزمن الحالي كان الثلاثة يتلقون مبلغاً لا بأس به . واعطوا ايضاً
مبلغاً لا بأس به ، ثم مشى كل منهم في سبيله .

لكن مع ذلك .. نحن جميعاً بشر ، من يلزي !

في اليوم التالي دعاهما الى مطعم ليلي . كان الحضور في ذلك المطعم
سكاري .

تزعق الموسيقى فوكستروت ، تانغو ، هز البطن ، كان المكان
يضج بالعهر والفضيحة والرذيلة . ثمة نساء يقمن بخدمة الحاضرين
وكن من وقت لآخر ، يخرجن مع احد السكارى الى
مكان ما ثم يرجعن متأخرات . جلسوا وطلبوا الطعام
والشراب . لم يحول كفاتشي نظره عن ضيفته . أدام النظر الى وجهيهما
وكأنه ينظر في مرآة . نظر ورأى بوضوح الانطباع الذي تركه
المطعم الليلي في نفسيهما .

ماذا لو ان ريبي أو يلينا عملتا في مطعم كهذا سواء كان المطعم
نظيفاً أم قذراً عارياً ، أم مكسواً ؟ سواء حوى المطعم نساء أم بلا نساء ؟
هل هن معتادات أم انهن غير مجربات ؟ محنكات أم غير محنكات ؟
قرأ كفاتشي في لحظة الجواب في وجهيهما . لقد اشمأزتا قليلا من
منظر المطعم . حسناً يعني انهما شبه مروضتين .

— اولاء النسوة يكسبن نقوداً كثيرة — قال كفاتشي .

— يعملن حتى يشخن — ردت ريبي .

— يعملن لكن بشه من مرتب — اضافت يلينا .

— طبعاً التعامل ليس سهلاً مع أناس قذرين كهؤلاء — تابع كفاتشي
حديثه — لكن توجد اماكن أخرى حيث البناء رائع والناس نظيفون
مهدبون . اشربي يا يلينا ، هذا « شارتريز » .

فعلاً النساء المحليات يعشن كأمبرات ونهاياتهن سعيدة ، كلهن
تقريباً يجدن نصيبهن ويتزوجن .

تهدت ريبي .. ابتسمت يلينا ابتسامة خفيفة وتابع كفاتشي حديثه :

— في نهاية الامر ، واذا قلنا الحقيقة ، اولاء النسوة لسن تعيسات بالدرجة التي يصورهن فيها ككتاب الروايات . ربيي لماذا لا تشربين ؟ اشربي فالانسان يتعود على كل شيء ، وهذا الاعتياد سلاحه الرئيسي وسر سعادته .

تلك النسوة يتبحجن ويملكن ما يحلم به الملايين من الناس : لذة الجسد — وهذا امر يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار ، حتى انهن لا يعرفن عناء العمل الذي تعانيه الانسانية جمعاء . كل شيء يأتيهن مجاناً : الشقة الجميلة والغذاء الفاخر والثياب الرائعة ، واذا استخدمت المرأة ذكاءها وتحملت قليلاً وطرحت جانباً ولو مؤقتاً حبها الكاذب لذاتها ستسلك بيسر طريقها وتعيش شيخوختها بسعادة . ربيي اشربي ، لا تقصري ، ياينا !

— يتطلب هذا جمالاً بالدرجة الاولى — قالت ربيي وتنهدت مرة اخرى .

— طبعاً ! — وافقها كفاتشي فوراً .

— ثم الشباب .

هذا ليس صحيحاً . وما هو الشباب ؟ بعض النساء اللواتي يبلغن سن الأربعين يظهرن اكثر شباباً من النساء اللاتي عمرهن خمسة وعشرون عاماً .

— صحيح — تنهدت يلىنا .

— بالاضافة الى ان المرأة الكهلة افضل بعيني الرجل المجرب من

فتاة طائشة في سن الزواج . صدقاني !

— وهذا ايضاً صحيح ! — اكدت ذلك ربيي ولىنا .

— علي أن أقول لكما أن الانتساب لأمره كريمة والريبة الصالحة .
أهم بكثير من الجمال والشباب . يلينا اشربي جرعة واحدة ، ربيبي
لا تقصري !

اشتعلت ربيبي ويلينا من خمرة « الليكيور » . النساء والرجال
يتغازلون بجرأة ودون خجل ، حتى أن الأواني والأثاث اشبع
برغباتهن .

« انهما مستعدتان » ، لقد فضجتا — فرح كفاتشي . واصل
لهما طعاماً وشرباً .

— غارسون ، هات شمبانيا ، سرطانات ، فواكه ، وبعدها قهوة .
حين عاد الثلاثة الى تلك الغرفة الرطبة كان الصباح قد حل .
تظاهر كفاتشي بالسكر ، لا يستطيع ان يغادر ، ليست لديه اية قوة .
سينام هنا ، يضم السريران هكذا . لماذا تضحكان ؟ ما المضحك في الأمر ؟
كنتما فيما مضى تحبان كفاتشي وكنتما تعلمان هذا . ماذا يضير لو
تذوقنا اللذة الماضية نحن الثلاثة معاً ؟ تحجلان ؟ غير مستحبات الواحدة
تجاه الأخرى ؟ ألم تتخلصا بعد من هذه الأخلاق « البليدة » ؟ ! ألم تغسلا
نفسيكما من هذه القيم البورجوازية ؟ ! صعب عليكما ؟ جيد جداً
سيستلقي كفاتشي في السرير ويغفو وانتما تاما واقفتين اولا تناما مطلقاً .
ها .. ها ! لا يوجد مخرج آخر ؟ إذا اخلعا ثيابكما .. هكذا ، يلينا لا
تطفئي النور فأنت تعلمين عادات كفاتشي ، هل نسيت ! حسناً فليبارك
الله اللعبة « الثلاثية » !

في تلك الليلة تفحص كفاتشي كالتاجر المرأتين . تفحصهما كما

يتفحص الصياد المعجرب كلباً سلوقياً . الم تمتليء يلينا اكثر من اللازم ؟
الم تحف ربي قليلا ؟ الم ترتخ جلودهن ؟ الم تفقدا ليونتهما ؟ الم تصبحا
ثقيلتين ؟ الم تفقدا دفأهما ؟ اصبحتا اكثر ثقلا . فيما عدا ذلك كل شيء
على ما يرام . طيب . حسن حسن جداً .

« كيف أخرج كفانشي قصة

الحب القديم على أرض الواقع ، وكيف أصبح رباً لأسرة ونهاية كل الأخبار »
نظف كفانشي جيوبه وألبس عشيقته القديمتين لباس الأثرياء .
ألبسهما واقتادهما ذات ايلة ، للمرة الثانية الى ذلك « البيت » الذي اراهما ،
قبلا جماله وروعته واصطحب معه بيسو وجيليل .
كان « البيت » الكبير النظيف مضاء ، سلاله المرمرية مفروشة
بالسجاد ، ومزيناً بالتمائيل والنباتات الاستوائية . القاعة الطويلة مزدانة
بلوحات نساء عاريات وبلوحات كبيرة وثقيلة ، كما كانت تغص
بالنساء و« الضيوف » .

تقع في نهاية القاعة غرفة حمراء تحوي أريكة تركية . على تلك
الأريكة تجلس امرأة بثبات ضامة رجلها تحتها كألهة بوذية .
اقتاد كفانشي المرأتين الى تلك الغرفة .

— ليزا — خانم ، ارجو ان تتعرفني على اختي — واخذ كفانشي
يد « ليزا — خانم وقبلها باحترام .

ليزا — خانم امرأة بدينة جداً ، في حوالي الخمسين من عمرها ،
شعرها الكثيف المصبوغ بالأسود مثبت بدبايس الماسية . يحيط برقبتها
اللينة طوق من الاحجار الكريمة ، وفوق ذلك العقد يتدلى غنغب(١)

(١) الغنغب — الجلد المتفصن فيما تحت الذن .

عظيم ، صلوها العاري الكبير كصدور الأبطال ومعصماها الغليظان
واصابها السمينة كالحيار المعافى — كلها مسربة بالياقوت الاحمر
والزمرد الاخضر والفيروز الأزرق والاميتست البنفسجي .

تفحصت ليزا — خانم المرأتين بعيني التاجر . تفحصتهما كما يتفحص
التاجر الاحصنة بغية المتاجرة بها . اخيراً قالت بصوت مجرّح :

— اختي — قالت مخاطبة يلينا في البداية — عيناك اكثر سواداً من
العقيق اليماني ، فيهما يتلألأ انعكاس انوار النجوم ، وعلى شفثيك
ارى شبةً غير مشيع ، نهلك لم يذبلا بعد ، والله لا يرغب لك جسداً
افضل : انت من رأسك حتى اخمص قدميك تتألقين تهدياً ونبالة .
اجلسي .

ثم توجهت الى ريفيكا :

— شعرك ذهب حقيقي . عيناك تذكران بنجمة الصبح . في هذه
السماء تلمع ماستان اثنتان ، شفثاك تشبهان سلاحاً مدمي . جسديك لدن
وحيوي ، وركاك عاليان ودقيقان ، وهذه ميزة نادرة في عصرنا هذا .
ويبدو من خلال يديك ورجليك ان دماً حاراً يتدفق في شرايينك .
واجلسوا انتم ايها الامير — التفتت نحو كفانثي — اذا تكرمتم بالجلوس
معي ، تفضلوا واجلسوا بجانبني على الأريكة . اخذت بهلوء جرساً
فضياً وقرعته ، ثم قالت للعربي الذي ظهر فوراً :

— حسين ، اربعة قهوة وشراب « الشير » .

جلسوا يشربون ويتحدثون بمتعة .

— أنا مسيحية — قالت ليزا — خانم مبتسمة — دمي الاغريقي صاف

تماماً . نسائي .— وعددهن ثمان وعشرون — يصلون من اجلي وينادوني
ماما . حتى الآن لم تخرج شكوى واحدة من هذا البيت . نسائي من
مختلف الملل ، وكلهن يصلبن حسب معتقداتهن ، وانا لا اتدخل في مثل
هذه الامور .

هدايا نسائي ملأت غرفة كاملة . غادرتني الف منهن ، واف
آخريات تزوجن . لكنهن لا ينسرين ليرا — خانم . انتمى اكثر من
اربعين رسالة في اليوم . في هذه الاسرة يأكلن حتى الشبع ، الثياب
لا حصر لها ، اللهو لا حدود له . دكتور ، محامي وخادمة — مجاناً .
وماذا يحتاجن اكثر من ذلك ؟ لاشيء . يجلسن وينتظرن الزوج ، وهن
في نهاية الامر ، ويجدنه لا محالة . سيتزوجن وينجبن اولاداً ويعشن
بسعادة . هي ذي الاسرة ليزا خانم . تنعمت ليزا — خانم بخلاوة
وهي تردد بانها زوجت الفاً من النساء وكونت الف اسرة سعيدة .
تغنت ثم شربت واسقت واطعمت ضيوفها . أخيراً قالت :

— يا عقيقي ! يا ذهبي ! اذهبا وتمتعا . انتما اليوم ضيفتاي . غداً
ندقق في الأمر . اخرج كفاتشي ربيبي ويلينا الى القاعة ، وتركهما مع
بيسو ، ثم عاد وجلس من جديد لدى ليزا — خانم ، جلس قريباً منها
بحيث اصبح كل منهما يسمع تنفس الآخر .

جلس وسأل :

— ماذا تقولين يا ليزا — خانم ؟

صمتت ليزا — خانم طويلاً ، ثم انعمت عليه بالجواب :

— ذات العيون السود سمينة ، والشقراء كهلة .

— ليزا — خانم — همس كفاتشي لها — عمرك يزيد على عمر
الشقراء بخمسة عشر عاماً ، وذات العيون السود ، اذا ما قورنت بك ،
طفلة نحيفة . لكن اقسم بالله وبحياي اناك ، بالنسبة لي ، افضل من كل
النساء الأخريات .

ودس يده مطبباً على مؤخرتها العريضة . نظرت ليزا — خانم
في عيني كفاتشي وابتسمت ابتسامة عجوز محنكة ، وحركت سبابتها
الغليظة وضربت بها اسفل ذقن كفاتشي بلطف قائلة :

— ايها الأفندي ، لا تسخر !

— لو كنت في فراشك لبرهنت لك في لحظة ان الامير كفاتشا
غير ادزه لا يسمح بالسخرية من ليزا — خانم .

— متى تبرهن ؟

— ولو في هذه اللحظة .

نهضت ليزا — خانم ومشت باتجاه الباب بخطوات اوزة ومشى
الحصان العربي وراء تلك الاوزة بخطوات وثيدة .

بعد « البرهان » عادا وجلسا في مكانيهما . امتلأت جيب كفاتشي
برزمة جديدة من النقود ، وفي اصبعه الكبيرة لمع خاتم جديد ضخيم .
كان هذا ثمن المراتين و« البرهان » معاً .

مرة اخرى جلست ليزا — خانم ضامة رجليها تحتها وراحت تتطلع
في القاعة بعينين زيتيتين ثم قالت :

— أبولون ، يبدو ان امرأتك الروسييتين جيدتان . « فير تشكا »

مرحة جداً . انظر كيف تمرح ! و « كاتنكا » ايضاً لا تقل عنها روعة ،
سيرغمان الزبائن على الدفع .

— وكيف كانت « نادنكا » يا ليزا — خانم ؟

— نادراً ما رأيت مثل هذا الرقص . يبدو ان يدك ماهرة . والآن
اذهب فأصدقائك ينظرون الى هنا . غداً انقل الاثنتين الي . فليعيشا مؤقتاً ،
هناك في ذلك البيت المقابل ، ثم ستعتادان عليّ تدريجياً ، وبعدئذ تنتقلان
الى هذا البيت تلقائياً والبقية اعرفها . وداعاً يا أسدي !

حين سترجع على الخروج مرّ عليّ في غرفتي ، وتعال غداً قبل
الآخرين .

هكذا اخرج كفاتشي في تلك الليلة قصتي الحب اللتين غطاهما
العفن ، وهكذا ايضاً حصل على صديقة جديدة — ليزا خانم ، هي
ايضاً غطاها العفن ، الا انها سمينه وذات مستقبل .

ومرت الأيام . اصبح كفاتشي عضواً في « اسرة » ليزا — خانم .
« أختاه » ربيي ويليينا وخمس نساء أخريات غدون بنات لـ « ليزا —
خانم » .

وكان كفاتشي « يبرهن » كل ليلة ان عواء وقهقهة المرأة المجرية
الكهله افضل من مواء وضحك فتاة شابة في سن الزواج ، وان رائحة
ليزا — خانم التي تشبه رائحة جبنة « روكفور » تغطي على رائحة الورود
والبنفسج .

كان كفاتشي وليزا — خانم يجلسان على الأريكة التركية يحسبان
القهوة وشراب الليكيور ، يتناولان الحلويات ويدخنان التبغ المصري ،

يتحدثان بلذة ويتطلعان الى القاعة المشتعلة نشاطاً وحماساً .

قالت ليزا - خاتم لكفاتشي ذات مرة :

- مون ابولون ، حبيبي، آن لنا ان نحدد اعمالنا ! اسمعني وفكر .
لدي بيتان كبيران والثالث بيت صيفي في « كاديكيو » اشتريته منذ
فترة وجيزة ، بالاضافة الى اني املك نصف شركة « بوناندا بولو » ،
وما تبقى تعرفه : شقة مفروشة بأفخر الاثاث وعربة والكثير من المجوهرات
والخلي وما يقارب مائتي الف من النقود .

دخلني السنوي يربو على الستين الفاً . توفي زوجي العام الماضي ،
انت تعرف هذا وانا لا أولاد لدي - وهذا ما تعرفه ايضاً - اقربائي
ينتظرون موتي - وقد حدثتلك ايضاً عن هذا . لكنني لا أنوي الرحيل
عن هذا العالم ، كما واني لا أنوي ترك مهنتي . انا احب ان اعمل واحب
عملي الذي اعتدت عليه . لكن العمل بدون رجل يشبه الى حد كبير
حصاناً بثلاثة ارجل . هكذا سيزحف العمل ولن يتمكن من الجري ،
بالاضافة الى ان مدة الحداد على زوجي قد انتهت . انا لم اعتد على
الوحدة . انت ترى بنفسك ان الرجال - شباباً واغنياء - يدورون حولي
كالذباب منتظرين الجواب .

صمت الاثنان وهما يسخنان التبغ .

- افهمت ؟ - سألته اخيراً ليزا - خاتم .

- ليزا خاتم ! - اجاب كفاتشي - انا احترق خجلاً لأنك سبقتني .

لقد كنت مزماً على التحدث اليك غداً ، لكن طالما سبقتني ليس ثمة
من مخرج آخر .

يجب الانتهاء من الامر ، ليزا - خانم . لقد حدثتك سابقاً عن نفسي وعن مغامراتي الماضية . انا امير - هذا اولاً . شاب في الثامنة والثلاثين من عمري ثانياً . نلت إجازتين جامعتين - ثالثاً . وبما انني ترعرعت في قصر اميري ، لذا تشكل لدي ذوق وعادات خاصة - هذا رابعاً ، وقد استولى الحمر على املاكي ومع ذلك احصل على المال وانفق كما اشاء وهذا خامساً .

صمتا مرة اخرى وتنهدا . أخيراً سأل كفانشي :

- ليزا - خانم ، هل فهمت جوابي ؟

- فهمت يا عزيزي أبولون . يحتاج الرجل لمصروف الجيب . زوجي الاخير كان يصرف مائتي ليرة شهرياً .

- ليزا - خانم - قاطعها كفانشي - لم يكن زوجك اميراً وكان يكبرك سنّاً وغير مثقف .. لذا ...

- لذا يجب أن تكفيك ألف ليرة .

- ليزا خانم - انا انفق ثلاثة آلاف ليرة .

- اتكفيك الف وخمسمائة ليرة ؟

- ليزا - خانم .

- فلننه المسألة . الفان تكفي وتزيد . اصف الى ذلك سأقبل اصدقاءك في الخدمة وبدلاً من العربة سأشترى لك سيارة وسأهديك عربة يقودها حصانان . انتهينا هات يدك .

تصافحا ، ثم تعانقا ، ومرة أخرى « برهنا » على صداقتهما الأبدية
والتحادهما .

* * *

كل شيء يجري في بيت « الاميرة » ليزا - خانم كفانشا نثيرادزه
في مجراه الطبيعي. حين يحل الليل تخرج بنات ليزا - خانم الثلاثون
متبرحات وشبه عاريات الى القاعة الكبيرة حيث يجتمع « الضيوف »
على مهل .

واخيراً تنهادى الاميرة ليزا ، خانم كالاوזה وتجلس على الأريكة
التركية وتتصلّب كتمثال « بوذا » وتتلذذ بسعادة أفراد أسرتها .
يجلس بيسو خلف الصندوق ويقف جليل بشيابه الحمراء المزركشة ،
مسلحاً امام الباب مصالباً يديه على صدره .

ويتجول زوج ليزا - خانم وعمدة « البيت » - كفانشي كفانشا
نيرادزه كديك رومي ضائع . تارة يجلس بجانب اميرته وتارة
يتبادل كلمة مع بيسو أو يتحدث كلمتين مع جليل ، وتارة ثالثة
يرحب بالضيوف ، أو تارة أخرى يطل على المطبخ .

يتجول كفانشي كفانشانيرادزه وهو يزمر في داخله . كان
احياناً يكتشف بيسو بهوممه ويبدأ بالشكوى كالأرملة ، وحياناً
كان يتسلل خلسة الى احدى الزوايا ويبدأ بالشهيق وسفح الدموع .

لماذا يقطب هذا الجبين الواضح المنبسط ؟ ما بك يا « كفانشوني » ؟
انت متخم بالطعام ، لديك مختلف انواع الملبوسات ، تقودك ينبوع

لا ينضب ، نساؤك مختارات ، احصنة ، سيارة ، خدم ، اصدقاء -
قدماء وجددد . ما الذي ينقصك يا كفاتشي كفاتشا نثيرادزه ؟
اصدقاؤك الذين قتلوا ؟ لقد نسيتهم منذ أمد .
سلييسرو وبوبي ؟ انهما يعيشان بشكل جيد .
المجد والالاقاب ؟ لقد نلتها وتخلت عنها من تلقاء نفسك .
سما وارض الوطن ؟ تنتظرك « سابورتالو (١) » .
إذا ماذا ينقصك يا كفاتشي كفاتشا نثيرادزه ؟
الطواف الدائم ؟ الجري وراء قدرك ؟ الركض بين البلدان دونما
هدف أو نظام ؟
تخطيم القفص الذهبي والطيران ؟ إذا ، ماذا تريد ، ماذا ؟ انت
نفسك لا تدري !
انا أفهمك يا كفاتشي كفاتشا نثيرادزه !
افهمك يا كفاتشيكو !
افهمك واعرفك .

عام ١٩٢٤

(١) - سابورتالو : يقصد بها مقبرة « سابورتالو » .

الفهرس

٧	مقدمة
	القسم الأول :
١١	كيف ولد كفائشي
١٤	حول والدي كفائشي
١٦	كيف حصلوا على شهادة النبالة من (آشور ديا
٢١	كيف جرت طفولة كفائشي
٢٤	كيف كانت شخصية كفائشي ؟
٢٧	كيف كسب أول روبرل بمرته
٢٨	كان بودو كثير المواظبة في سائلته
٣١	كيف اجتاز كفائشي الامتحان
٣٤	كيف قامت الخطوة الأولى
٣٩	كيف انهى كفائشي المدرسة الثانوية وأخذ الأروالة
٤٦	كيف تعلم كفائشي الموسيقى
٥٣	كيف أثيروا البهت
٥٧	كيف بحث كفائشي عن محطية
	كيف التقى الأصدقاء وكسبوا المال
٦٨	وكيف وجدت الزوجة الأولى
	القسم الثاني :
	كيف تشكلت مجموعة الأصدقاء
٨١	وكيف انتقل إلى بيت عشيقته الجديدة
٩١	« مدام ليا بوش »
١٠٣	« كيف سقط الحب »
١١٣	« كيف انتهى الحب »
١٢٠	« اللاس كفائشي وملقمة الخشب الصغير »
١٢٥	« كيف أصبح كفائشي وسيطاً »
١٢٩	« كيف أمن على بيته وحياته »

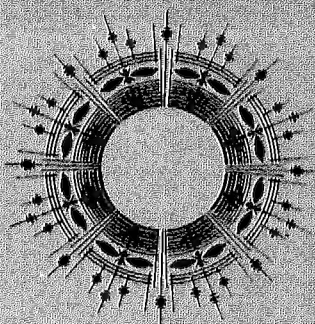
الفهرس

١٣٩	« مكاسب التأمين »
	القسم الثالث :
	كيف درس كفاتشي
١٥٥	الاعمال المصرفية وكيف أخاف رفيقه
١٦٤	« كيف بدأ كفاتشي » عملاً « جديداً »
١٩٠	« كيف صار لدى القديس سكرتير خاص »
١٩٣	« كيف (دبر) كفاتشي أعمالاً كبيرة »
١٩٨	« شخصية الأب القديس »
٢٠٦	« كيف أخافوا القديس وكيف دسوا على الآخرين »
٢١٩	« كيف ارتقى كفاتشي إلى الدرجة العليا »
٢٢٨	« كيف أنقذ العرش وروسيا من الانهيار »
٢٣٦	« مكافأة كفاتشي واعتذار امرأة وبعض الأحداث الأخرى »
٢٥٧	« مجريات العشاء السري »
	القسم الرابع :
٢٦٨	كيف سخر عش الرفاقية
٢٧٦	« كيف استقبلوا الأمير ، وكيف أصيب كفاتشي بالبحكم »
٢٨٧	« الطواف على بابل الحديث وبعض المناظر العقلية »
٢٩٨	آراء وأفكار « ايدلسون » الحرب
٣٠٨	« كيف زار الأصدقاء الملاهي الليلية وكيف يحدد الحب »
٣١٥	« كيف بحث الحب القديم وكيف وجدت خليله الجديدة »
٣٢١	« عن متحف الفنون »
٣٢٤	« كيف انهار (حريم) كفاتشي »
٣٢٨	« أحد الأحاديث وعودة ثلاثة رفاق إلى الوطن »
٣٣٦	« كيف أغرم كفاتشي وليدي هارفي كل منهما بالآخر »
٣٥٥	« عن مستشفى المجانين ، عن البارزة ، عن الفيلم السينمائي وعن اعمال بطولية أخرى »
	القسم الخامس :
٣٧٢	عن العمل السري

الفهرس

٣٨٨	« كهف » دبر « عملاً حربياً مستغماً »
٣٩٣	« كهف تحول كفائشي بشكل عجيب ، وكيف كسب معركة خاسرة »
٤١٧	« خصام كفائشي مع النبلاء »
٤٢١	« عن تبتلات كفائشي وكيف سقط في المصيدة »
٤٢٤	« من العزلان بالجميل وتشويه التاريخ »
٤٣٨	« كيف وقع كفائشي في أحد المصائد ، وكيف استطاع الخروج منها »
٢٤٢	« كيف وقع كفائشي مرة أخرى في المصيدة وكيف أفلت من حبالها وكيف تفجرت البلاد »
	القسم السادس :
٤٥٧	ولادة حزب جديد .. وبناء جسر جديد
٤٨٥	« عن سامريدزه »
٤٩٣	« من كاراتيت لولا لريانتس »
	القسم السابع :
٥٠٩	« كيف نشر كفائشي جناحيه على الأرض »
٥١١	« الخطرات الأولى »
٥١٨	« لا مع هذا ، ولا مع ذلك »
٥٣١	« كيف حارب كفائشي »
	« عن الحاس والمشرين من شباط »
٥٣٧	« وكيف أحمر كفائشي مرة أخرى »
٥٤٩	« وطفلة كفائشي الميمونة ومساعدة « السيدة » ليب »
٥٦٢	« كيف خطب كفائشي »
٥٩٥	« قصة عمالة راحيل »
٥٩٨	« عن إحدى المعجزات »
٦١١	« كيف غادروا الوطن الجاحد »
٦١٦	« تهديد الماضي »
	« كيف أخرج كفائشي قصة الحب على أرض الواقع ، »
٦٢٨	« وكيف أصبح رياً لأسرة ونهاية كل الأعباء »

1998/2/16 3...



الطبع وفسرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٤

في الاقطار العربية كما يادل

٣٥٠ ل.س

سعر النسخة داخل القطر

١٧٥ ل.س